

فهـــــرس

الجـــزء الحـادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أطراف ٥

الطرف الأول — فى مصطلح كتاب الشرق... ... ... ٥

الطرف الثانى — فى مصطلح كتاب الغرب والأندلس فيما يكتب من الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أضرب ٦

الضرب الأول — ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف ... ٦

الضرب الثانى — مايكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام ٢١

الضرب الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية... ... ... ٢٦

الطرف الثالث — فى مصطلح كتاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم ... ... ، وفيه أربع حالات ٢٨

الحالة الأولى — ما كان عليه أمر نواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء الدولة الطولونية ٢٨

الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم إلى انقراض الدولة الأخشيدية... ... ... ٢٩

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيوب ٣٢

الحالة الرابعة — مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ما عليه مصطلح كتاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم : من التقاليد والمراسيم، والتفاويض، والتواقيع، وفيه ثلاثة مقاصد ٧٢

صفحة

المقصـــد الأوّل — فى مقدّمات هـذه الولايات، وفيه مهيعان ٧٢

المهيـع الأوّل — فى بيان رجوع هذه الولايات الى الطريق الشرعى ٧٢

المهيع الثـانى — فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات ٧٤

المقصـــد الثـانى — فى بيان مقاصد ما يكتب فى الولايات، وفيه جملتان ١٠١

الجمـلة الأولى — فى بيان الرسوم فى ذلك [ولم يذكر فى الأصل غيرها]،

وهى على أربعة أنواع... ... ... ١٠١

النوع الأوّل — التقاليد... ... ... ١٠١

النوع الثـانى — المراسيم، وفيه ضربان ١٠٧

الضرب الأوّل — المراسيم المكبرة ١٠٧

الضرب الثانى — المراسيم المصغرة ١١١

النوع الثالث — التفاويض ١١٢

النوع الرابع — التواقيع، وهى على أربع طبقات ١١٤

المقصـد الثالث — فى بيان كيفية وضع ما يكتب فى هذه الولايات فى الورق ١٢٧

فى ذكر نسخ مما يكتب فى متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة

والتفاويض والتواقيع، وهى على ثلاثة أقسام... ... ... ١٣٣

القســم الأوّل — ولايات وظائف الديار المصرية، وهى على نوعين... ... ١٣٤

النـوع الأوّل — الولايات بالحضرة، وهى على ستة أضرب ١٣٤

الضرب الأوّل — ولايات أرباب السيوف، وهى على طبقتين... ... ... ١٣٤

الطبقة الأولى— ذوات التقاليد، وهى ثلاث وظائف ١٣٤

صفحة

الوظيفة الأولى — الكفالة، وهى نيابة السلطنة بالحضرة ١٣٤
الوظيفة الثانية — الوزارة لصاحب سيف... ... ... ١٤٨
الوظيفة الثالثة — الإشارة، وهى وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يعهد بها كتابة فى الزمن القديم ١٥٣
الطبقة الثانية — ممن يكتب له من أرباب السيوف ذوات التواقيع، وفيها وظائف... ... ... ١٥٦
الوظيفة الأولى — نظر البيمارستان لصاحب سيف... ... ... ١٥٦
الوظيفة الثانية — نظر الجامع الطولونى ١٥٩
الوظيفة الثالثة — نقابة الأشراف... ... ... ١٦٢
الضرب الثانى — ممن يكتب له بالولايات بالديار المصرية أرباب الوظائف الدينية، وهو على طبقتين ١٧٤
الطبقة الأولى — أصحاب التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالى ١٧٤
الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع، وتشتمل على مراتب ٢٠٤
المرتبة الأولى — ما كان يكتب فى النصف ٢٠٤
المرتبة الثانية — ما يكتب فى قطع الثلث، وتشتمل على وظائف ٢٠٤
المرتبة الثالثة — من الوظائف الدينية ما يكتب فى قطع العادة الصغير مفتتحا بـ«رُسم بالأمر الشريف» ٢٦٨

صفحة

الضرب الثـالث — من الولايات بالحضرة السـلطانية بالديار المصرية
الوظائف الديوانيـة ، وهى على طبقتين ٢٧٠
الطبقـة الأولى — أرباب التقاليد ممن يكتب له الجناب العالى ،
وفيها وظيفتـان ٢٧٠
الطبقـة الثانية — من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية
أصحاب التواقيع ، وهم على ثلاث درجات ٣١٦
الدرجة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف ، وتشتمل على ثلاث وظائف ٣١٦
الدرجة الثانية — ما يكتب فى قطع الثلث ، وتشتمل على وظائف ٣٣٣
الدرجة الثالثة — ما يكتب فى قطع العادة ، وفيها وظائف ٣٥١
الضرب الرابـع — من الوظائف التى يكتب فيها بالديار المصرية مشيخة
الخوانق ، وكلها يكتب بها تواقيع ٣٧٠
الضرب الخامس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة
أرباب الوظائف العادية ، وكلها تواقيع ٣٧٧
الضرب السادس — من أرباب الوظـائف بالديار المصرية زعمـاء أهل
الذمـــة ٣٨٥
النـــوع الثـانى — ما هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة من وظائف
الديار المصرية ممـا يكتب لأربابهـا ، وهى ثلاث
جهـات ٤٠٥

صفحة

الجهـة الأولى — ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف ... ٤٠٥

الصنف الأوّل — وظائف أرباب السـيوف ٤٠٥

الصنف الثـانى — الوظائف الدينية... ... ... ٤٠٨

الصنف الثالث — الوظائف الديوانيـة ، وهى على طبقتين ٤١٩

الطبقة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامىّ باليـاء ٤١٩

الطبقة الثانية — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامى بغير ياء

أو مجلس القاضى ٤٢٣

الجهـة الثانية — ممـا هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة بالديار

المصرية بلاد الريف ، وهى وجهان ٤٢٦

الوجه الأوّل — الوجه القبلى ، وهو المعبر عنه بالصعيد ٤٢٦

الوجه الثـانى — من وجهى الديار المصرية البحرى ، وهو الشمالى ... ٤٣٨

الجهـة الثالثة — درب الحجاز الشريف ٤٤٢

(تم فهرس الجـزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)



الجـــزء الحادى عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

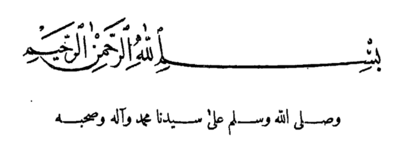
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الحادى عشر

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٥ هـ
١٩١٧ م



وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى[1]

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَب من الوِلَايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَف الأَوَّل

(فى مصطلَح كُتَّاب الشرق)

قد تقدّم فى الكلام على ما كان يُكْتَب عن الخلفاء أنّ الوِلَايات فى الخلافة العبّاسيّة ببَغْداد كانت تَصْدُر عن الخُلَفاء دُونَ الملوك المُساهِمين لهم فى الأمر ، لا يُشارِكونَهم فى شىء من الوِلَايات أصلا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الوِلَايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكتَب عن ملوك بنى جَنْكِزخان من البيت الهُولاكوهى فمَنْ بعدَهم . ولم أقِفْ على شىء من مصطلَحهم فى ذلك فأُورِدَه هنا .

(١) وقع سهوا فى آخر الجزء العاشر أن أول الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثانى"

الطـــرَف الثـانى

(فى مصطلَح كُتّاب الغَرْب والأَنْدلُس فيما يُكتَب من الوِلايات عن الملوك)

وآعلم أنهم يعبّرون عما يُكتَب فى جميع ولاياتهم بالظّهائر: جمع ظَهِير(١)، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدّم بيانُه فى الكلام علىٰ ما كان يكتب عن خُلَفاء المغْرِب .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف)

وهــذه نسـخةُ ظَهِيرٍ بنِيابة السـلطنة بالحضرة من إنشاء أبى عبـد الله بن الخطيب، وهى :

هــذا ظهيرٌ كريمٌ ، منْزِلتُه فى الظهائر منزلةُ المعتَمد به من الظُّهَراء ، ومحَـلُّه من الصُّكوك ، الصادرةِ عن أعاظم المُلُوك، محَلُّ أُولِى الرايات، الخافقةِ العَذَبات، والآراء . فتَحَ علىٰ الإسـلام، من بعد الإبهام، أبوابَ السَّرّاء، وراقَ طِرازًا مُذْهَبا علىٰ عاتِق الدّولة الغَرّاء ؛ وأعملَ عوامل الجهاد فى طاعة ربِّ العباد، شارعة لأهل الكفر والعِناد، من باب الإعمال والإغراء .

أمر به فلان لصَدْر صدُور أوِدّائِه ، وحُسَامه المشهورِ علىٰ أعْدائه ؛ ووليِّه الذى خَبَرَ صِدْقَ وفائه ، وجَلّى فى مِضْمار الخُلُوص له مُغَبِّرًا فى وجُوه أكفائه . شيخِ شُيُوخ المجاهدين، وقائدِ كتائبه المنصورةِ لغَزْو الكافرين والمعْتدين؛ وعُدَّته التى يُدافِع بهـا عن الدِّين، وسائِقِ ورْدِه المبَرِّز فى الميادين؛ الشيخِ الأجلّ الأعزّ الأسنىٰ؛ الأمجد،

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع" . وقد جمعه الفرّاء علىٰ ظهراء . وفى شرح الأشمونى عن بعض النحويين أنه يشترط فى جمع فعيل علىٰ فعائل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأسْعد ، الأصْعد ، الأغنىٰ ، الأَحْمىٰ ، الأحَب ، الأَوصل ، الأفضل ، المجاهد ، الأقضَىٰ ، الأرضىٰ ، الأمضىٰ ، الشهيد ، المقدَّس ، المرحومِ أبى عبد الله بدرِ الدين آبن شيخ الشُّيوخ وعلَم الأعلام ، المدافِع عن حَوْزة الإسلام ، البعيدِ الغارةِ فى تُخُوم عَبَدة الأصنام ، الشيخ الكبير ، الجليلِ الخطيرِ ، الرفيع ، الصَّدْر ، المعَظَّم ، الموَقَّر ، صاحب الجهاد الأرضىٰ ، والعزْم الأمضىٰ ، المقدّس ، المرحومِ أبى عِمْران (موسىٰ) آبن أبى زيد رحو بن محيو بن عبدالحق بن محيو ، وصلَ الله سعدَه ، وحَرَس مجدَه ، وبلَّغه من مظاهَرة دولتِه ومُوازَرة خلافته قَصْدَه . رَفَع قُبَّة العناية والآختيار علىٰ عِمَاد ، وأشادَ بدَعْوة التعظيم [مُسْمِعًا][1] كلَّ حىٍّ وجَماد ، وقابل السعْىَ الكريمَ بإحْماد ، وأورد من البِرِّ غيرَ ثِماد ، وَآستظهَرَ بالوفاء الذى لم تستَتِرْ نارُه برَماد ، ولا قَصَّرت جِيادُه عن بُلُوغ آماد ؛ وقلَّد سيفَ الجهاد عاتِقَ الحَسَب اللُّباب ، وأعْلَقَ يدَىْ الآستظهار بأوْثق الأسباب ، وآستغلَظَ على الأعداء بأحبِّ الأحباب . لَمَّا قامتْ له البراهينُ الصادقةُ علىٰ كَرَم شِيَمِه ، ورُسُوخ قَدَمه ، وجَنَىٰ منه عند الشِّدّة والتمحيص ثَمَرَةَ ماأَوْلاه من نِعَمه ، قابل بالرَّعْى كرائمَ ذِمَمِه ، وعظائمَ خِدَمه ؛ وشدّ اليَدَ علىٰ عهده الذى عرفه حينَ آنتكثت العُقَد وأَخْلَق المعتَقَد ، وآستأْسد النَّقَد[2] ، وتنكَّر الصديق ، وفَرِق الفَرِيق ، وسُدّت علىٰ النَّظرة الطَّريق ، وتميز المغرق والغَريق ؛ فأثقلَ له مِيزانَ المُكافات ، وسجَّل له رَسْمَ المُصافات ؛ وجعله يمينَ المُلْك الذى به يُناضِل ، ويُقاطِع ويُواصِل ؛ وسيفَ الجهاد ، الذى يحمى بمَضَائه حَوْزَةَ البلاد ، ومِرْآةَ النُّصْح التى تَتَجلَّى بها وجوهُ الرَّشاد . فقدّمه ـ أعلىٰ الله قدَمَه ، وشكَر

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفل من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذلّ من النقد . أنظر اللسان .

نعمَه، وأسعده فيما يمّمه، ونَشَر بالنصر علَمَه ـ شيخَ الغُزاة بحضرته العليّه، وسائر بلادِه النصريه : ترجعُ القبائلُ والأشياخ إلىٰ نظره فى السَّكَنات، وتَستدرّ علىٰ يده من مقامه الكريم غُيومَ البركات؛ وتُقرّر وسائلَها بوَسَاطة حُظْوته، وتقصّر خُطاها اعترافا بحقّه الواجب عن خُطْوته. فعليه تدورُ أفلاكُ جماعاتهم كُلّما اجتمعُوا وأْتلفُوا، وبحجة فضله يزولُ إشكالهُم مهما اختلَفُوا؛ وبلسانِه المُبِينِ يقرّر لهم ماأسلَفُوا، وفى كَنَف رَعْيه ينشأ من أعقبوا من النَّشأةِ وخلَّفُوا؛ وبإقدامه تنهَضُ أقدامهم مهما توقَّفُوا. فهو يَعْسُوب كَتائبهم الملتفّه، وفِرْزانُ قِطَعهم المصْطَفّه؛ وشَهْمُ جوارِحهم الفارِهه، وعيْنُ عيونهم النَّابِهه، وتأويلُ أمورِهم المتشابهه؛ عن نظره يَرِدُون ويَصدرون، وبإشارته يَرِيشُون ويَبْرُون وآثارَه يقتفُون؛ وبتَلْعة دوّاره المَرِينىّ فىخدمة مقامه النصرىّ يَقِفُون. فهو الذى لا تأنَفُ أشرافُ القبائل منَ اقتفاء آثارِه، ولا تجهل رفعةَ مِقداره؛ فلبيته المَزِيَّةُ بالحق، المستوجبةُ للفخر بسابقةِ السعادة لعبد الحَقّ؛ ولذاته قَصَبُ السبق، ولوَفَائه الشُّهرة فى الغرب والشَّرْق.

فليتولَّ ذلك ـ تولّاه الله ـ منْشرِحا بالعز صدْرُه، مستمدّا[(1)] من شمسِ سعادته بدْرُه، معروفا حقُّه معظَّما قدرُه؛ فهى خُطَّة قومه، وفريسةُ حَوْمه، وطِيَّة أمسه ويَوْمه؛ وكُفْءُ خطْبته، ومَرْمىٰ رُتْبته؛ وحَلْىُ جِيده، ومَظْهَرُ توفيقِه وتسديدِه. مُطْلقا من عِنانالثناء، علىٰ أهلالغَناء، معاملا بصادق الإطراء، لذوىالآراء؛متغمّدا بالإغضاء، هَفَواتِ أهل المَضَاء؛ معرِّفا بالقبائل، والعشائر والفصائل؛ كُلَّما وفدُوا من الآفاق للاستلحاق؛ منبّها علىٰ مَظَانِّ الاستحقاق، مُطبِّقًا للطباق، مميِّزا لجيادها يومَ السِّباق؛ حريصا علىٰ إنماء الأعداد، مطبِّقا مَفَاصلَ الشِّرَاد؛ محتاطًا علىٰ الأموال التى تمتَرِى

(1) فى ريحانة الكتّاب «مشرقا» .

بهـا أكُفُّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعًا مالَ الله حيثُ وضعه الحق من الوَرَع والاستداد، [لا] سيَّما فى هذه البِلاد؛ حتَّىٰ تعظُم المَزَايا والمَزَاين، وتتوفَّر الكَتَائبُ والخَزائن ويبتهجَ السامعُ ويُسرَّ المُعاين؛ ويظهر الفضلُ علىٰ من تقدّم، وأنَّ الظُّهَراء كَمْ غادَرت من متردَّم، ويتحسَّرَ من قَصَّر ويتندّم، وعند الله يَجِدُ كلُّ ماقدّم . فهى قلادةُ الله التى يُضيع مَنْ أضاعها(1)، ويَرْضىٰ عمن أعمل فيها أوامِرَه وأطاعها . وهو، ــ وصلَ الله سعادتَه! وحرس مَجادتَه! ــ أوْلىٰ مَن لاحظَ ضرائرها، واستطلع من ثنـايَا التوكل علىٰ الله بشَائرها : نَسـبًا وحسَبا ، وجدًّا وأبا، وحَدّا وشَـبَا ؛ ونَجْدة وضَحتْ مَذْهَبا .

وعلىٰ الغُزاة ــ وفَّر الله جموعَهم! وأنجدَ تابعهم ومتبوعَهم! ــ أن يعرفوا قدْرَ هذا التعظيم الذى خفَقتْ أعلامُه، ووضَحَتْ أحكامُه؛ والاختصاص الذى لَطُف محلُّه، والاعتناءِ الكريم الذى ضَـفَا ظِلُّه ؛ فيكونوا من إيجـاب حقِّه حيثُ حَدّ ورَسَم ، وميَّز ووَسَم ؛ لايتخلَّف أحد منهم [فى خدمتـه](2) أيده الله عن إشـارته الموفّقه، ولا يَشِذُّ عن رياسته المطلقه؛ بحول الله تعالىٰ وقُوّته .

* * *

وهذه نسخة ظَهير بنيابة السلطنة ببعض الأعمال، وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ، مضمَّنُه استجلاءٌ لأمور الرَّعايَا واستِطْلاع، ورعايةٌ كَرُمت منها أجناسٌ وأنواع؛ وعدْلٌ بَهَرمنه شُعَاع، ووصَايَا يجب لها إهْطاع .

أصدَرْناه للفقيه أبى فلان. لَمَّا تقرَّر لدَيْنا دينُـه وعدله وفضـله رأينا أنَّه أحقُّ مَنْ نُقلِّده المُهمَّ الأَكيد، ونرمى [به](2) منأغراض البِرِّ الغرَضَ البعيد؛ ونَستكْشف به

(1) فى "ريحانة الكتّاب" التى لايضيع من أضاعها، ويوفى ضاعها .

(2) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

أحوالَ الرَّعايا حتّىٰ لايغيب عنا شيءٌ من أحوالها، ولايتطرَّقَ إليها طارقٌ من إهمالها، ويُنهى إلينا الحوادثَ التى تنشأُ فيها إنهاءً يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها . وأمرناه أن يتوجه إلىٰ جهة كذا ــ حاطها الله ــ فيجمَعَ الناس فى مساجدهم، ويندُبهم من مَشَاهدهم . ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم، وإحساب آمالِهم (١) ، ومكابدتنا المشقّةَ فى مُدَاراة عدوّهم الذى يعلم من أحوالهم ماغاب عنهم ــ دفعه الله بقدرته، ووَقَىٰ نفوسَهم وحريمهم من مَعَرّته ــ وبما رأينا من آنْبِتات الأسبابِ التى فيك تُؤمَّل، وعَجْزِ الحِيَل التى كانتْ تُعْمَل . ويستدْعى إنجادَهم بالدعاء، وإخلاصَهم فيه إلىٰ ربِّ السماء . ويسأل عن سيرة القُوّاد، ووُلاة الأحكام بالبلاد : فمن نالَتْه مَظْلِمة فليرفَعْها إليه، ويقُصَّها عليه : ليبلِّغها إلينا، ويُوفِدَها مقرَّرةَ المُوجَبات علينا . ويختبِرُ ماآفتُرِض صَدقةً للجبل، وما فَضَل عن كريم ذٰلك العمَل : ليعيِّن لبناء الحصن بجبل قارة يَسَّر الله لهم فى إتمامه، وجعل صدَقتَهم تلك مِسْكَ ختامه، وغيْرَه مما آفتُرِض إعانةً للسافرين، وإنجادًا لجهاد الكافرين؛ فيعْلَم مقدارَه، ويتولّى اختبارَه، حتّىٰ لايُجْعلَ منه شيءٌ علىٰ ضعيف، ولا يُعدلَ به لمشروف عن شريف، ولا تقَعَ فيه مضايقةُ ذى الجاه، ولا مخادعةُ غيرِ المراقب لله. ومتىٰ تحقَّق أن غنيًّا قُصِّر به فيه عن حقه، أو ضعيفا كُلِّف منه فوق طَوْقه، فيُجبِر الفقيرَ من الغنِيّ، ويَجْرِى من العَدْل علىٰ السَّنَن السوىّ ــ ويُعلِم الناس أن هذه المَعُونةَ وإن كانت بالنسبة إلىٰ محلّ ضرُورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافا كثيره؛ ليست مما يَلْزم، ولا من المَعَاون التى بتكريرها يُجْزَم ــ وينظر فى عهود المتوفين فيصرِفُها فى مَصَارفها المتعينه، وطُرُقها الواضحة البيِّنه ــ ويتفقّد المساجد تفقُّدا يكسُو

(١) فى القاموس «أحسبه أرضاه» .

عارِيَها ، ويُتَمِّم منهـا المآربَ [تَميما] يُرضى بارِيَهـا ـ ويندُبُ النـاس إلىٰ تعليم القرءان لصبْيانهم ، فذٰلك أصــلُ أديانهم . ويحـذِّرهم المغيب عن كل شىء من أعشارهم فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام، وقد ٱخترنا لهم بأقصىٰ الجِدّ والٱعتزام، ورفعْنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الٱهتمام؛ وقدّمنا الثِّقات لهــذه الأحكام، وجعلنـا الخَرْص شرعياً فى هــذا العام ، وفيما بعــده إن شاء الله من الأعوام .

ومن أهمِّ ما أســندناه إليه ، وعوّلْنا فيه عليــه ، البحثُ بتلك الأحْواز عن أهل البِدَع والأهواء ، والسائرينَ من السبيل علىٰ غير السَّواء ؛ ومَنْ يُنْبَزُ بفساد العَـقْد ، وتحريف القصْــد؛ والتلبُّس بالصوفيَّة وهو فى الباطن من أهل الفساد، والذاهبينَ إلىٰ الإباحة وتأويل المَعَـاد؛ والمؤلِّفين بين النساء والرجال، والمتتبِّعين لمذَاهب الضَّلال . فمهما عثَر علىٰ مُطَوّق بالتهمه، مَنْبَزٍ بشىء من ذٰلك من هذه الأُمَّه ؛ فليشُدّ وَثَاقَه شَــدّا، وليسُدّ عليه سبيلَ الخَلَاص ســدّا؛ ويستَرْعِ فى شأنه المُوجَبَــات، ويستَوْعِبِ الشهادات ، حتَّىٰ ننظر فى حَسْم دائه، ونُعالِـجَ المرَضَ بدوائه ؛

فليتولَّ ماذكرنا نائبا بأحسن المَنَاب، ويقصِدْ وجهَ الله راجيا منه جزيلَ الثواب، ويعمَلْ عملَ مَنْ لا يخـاف فى الله لومة لائم ليجدَ ذٰلك فى مواقف الحساب؛

وعلىٰ من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحُكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة علىٰ ماقرّرناه فى هذه الفصول : من العمل المقبُول والعدْل المبذول . ومن قصَّر عن غاية من غاياته، أو خالف مقتضًى من مقتَضَــياته ، فعقابه عقـابُ من عصىٰ أمر الله وأمرنا فلا يلومَنَّ إلا نفسه التى غرّتْه ، وإلىٰ مَصْرَع النكير جَرَّته ، وٱلله المستعان .

***

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هــذا ظهيرٌ كريمٌ بلغ فيه الاختيار، الذى عضّده الاختبـار(١)، الى أقصى الغايه؛ وجمع له الوفاقُ، الذى خدَمه البختُ والاتفاق، والأهليَّة التى شهدت بها الآفاق، بين نُجْح الرأى ونَصْر الرايه ؛ وأنتجتْ به مقدّماتُ الوَلاء نتيجةَ هــذه الرتبة السامية العَلاء والوِلايه. واستظهر من المعتمد به، علىٰ قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبِه، بلَيْث من لُيُوث أوليائه شديدِ الوطْأة علىٰ أعدائه والنِّكايه، وفرعٍ من فروع المُلْك الأصيل معروفِ الأُبُوّة والإبايه، : لتتضح حجةُ النصر العزيز والفتح المبـين ذى القوّة المتين محكمةَ الآيه، وتدل بدايةُ هــذه الدولة الرافعة لمَعَالم الدين، المؤيَّدة فى الأقوال والأفعال بمَدَد الرُّوح الأمين ، علىٰ شرَف النِّهـايه .

أصــدرحكمَته وأبرزَ حُكْمَه ، وقرّر حدّه المـاضىَ ورسْمَه، عبــدُ الله ، الغنىُّ بالله [محمدُ ابن مولانا أميرِالمسلمين أبى الوليد بن نصر](٢) ــ عَضَّد الله كتائبه وشدّ عَضْده، ويَسَّر فى الظهور علىٰ أعداء الله قَصْده ــ لوليِّه المستولِى علىٰ مَيادين حُظوته وإيثارِه، الفــائزِ بالقِدْح المُعلَّى من إجلاله وإكباره؛ ظهيرِ استنصارِه، وسيفِ جهاده المُعَــدّ لِصدق ضريبته ويوم افتخاره، ويَعْسُوبِ قبائل الغُزاة بأصقاعه الجهاديَّة وأقطاره؛ الأميرِ أبى عبد الرحمن، ابن الأمير أبى علىّ، ابن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسفَ يعقوبَ بن عبدالحق ــ وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمســلمين بمظاهَرتِه إيّاه علىٰ الكافرين سابِقَ وعده، لمّـا وفد علىٰ بابه الكريم

(١) فى ريحانة الكتاب « بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى » الخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة".

مؤثراً[1] على ما كان بسبيله عن جِوَاره ، ملقيا بَمَحَلَّة الجهاد عصا تَسْياره ، مفَضِّلاماعند الله علىٰ رحْب أوطانه وأقطاره ؛ شيمةٌ من أسرع إلىٰ خير الآخرة بِبِدَاره ، قبل آكتمال هلالِهِ و إبْداره ، وعلىٰ آنبعاثِ أمله وترامى هممه وآســتقامة مدَاره ــ قابل أيده الله وِفَادتَه بالقَبُول الممدوح ، والصَّــدْر المشروح ، والعنايةِ العاليــةِ المَظَاهرِ والصُّرُوح ؛ وجعل له الشِّرْب المُهَنَّى فى مَنَاهل الصنائع التى صــنَعَ اللهُ لمُلْكه والفُتُوح ؛ ولم يَدَّخِر عنه تقريبًا يَقِف الأولياءُ دُون مَدَاه ، وترفيعًا تشهد به محافلُ المُلْك ومنتدَاه ؛ إلىٰ أن ظَفِرت بحقيقة الموالاةِ الكريمةِ يَدَاه ، ثم آســتظهر به على أعداء اللهِ وعِدَاه ، فوَفَّى النُّصــح لله وأدّاه ، وأضْمَــره وأبْداه ، وتحلَّى بالبسالة والجَــلَالة والطَّهارة ، اللائقــةِ بمَنْصِب الإمارة ، فى رَوَاحه ومَغْــداه ؛ حتَّىٰ آتفقت الأهواءُ علىٰ فضــله وعَفَافه ، وكمال أوصافه وظهرتْ عليــه مَخايِلُ أسلافه . ثم رأىٰ الآن ــ سدّد الله رأيَه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ــ أن يُوفِد ركائبَ الاَعتقاد الجميل علىٰ جَنَابه ، ويُفَسِّح مَيْدانَ الاَستظهار بحُسْن مَنَابه ، ويصِلَ أسبابَه بأسبابه ؛ ويُضاعِفَ بوَلائه الصادقِ آهتمامه ، ويُقيمَه فى قَوْد عسا كره لجهاد البَرِّ مقامه ؛ فأضــفَىٰ ملابس وُدِّه عليه ، وجعله فاتحَ أبوابِ الجنــة بفضل الله بينَ يدَيْه ؛ وأجراه مُجْرىٰ عضُده الذى تصْدُق عنــه الضريبةُ فى المَجَــال ، وسيفِه الذى يُفَرِّج به مضايِقَ الأهوال ؛ ونَصَبه للقبائل الجهادية قِبْلةً فى مناصحة اللهِ ومناصحةِ مَشْرُوعه ، ورايةً ســعيدةً فى مظاهــرة متْبُوعه ؛ وعقد له الولايةَ الجهاديَّةَ التى لا تُعْدَل بولايه ، ولا تُوازَنُ عنايةُ المعتمَدِ بها بعِنايه ؛ يشهد بصَراحة نسبها الدين ، وتتحلَّى بحِلَى غُرَّتها المَيَادين . فالجهاد فى سبيل الله نِحْلةُ نبيّ الأُمَّه ، ومَنْ بعده من الأئمه ؛ لاسيَّمَا فى هــذا القطر المتأكِّد فيه ذلك لأُولِى الدِّين والهِمَّه .

(١) لعله "مؤثرا له علىٰ ما كان يشغله عن جواره" تأمل .

فليتولَّ ذٰلك تولِّىَ مثله وإن قلَّ وجودُ مثله ، جاريًا علىٰ سَنَن مجْدِهوفضله ، سائرا من رضا الله علىٰ أوْضَح سـبُلِه ، معتمدا عليه فى الأمر كلِّه .

ولْيَعْلَم أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هَيَّأ له من أمره رشدًا ، وسلك به طريقًا سَـدَدا[1] ، واستعمله اليومَ فيما يُحْظِيه غدا ، وجعل حَظَّه الذى عوّضَه نُورًا وهُدى ، وأبعد له فى الصالحات مَدَى ــ ولينظرْ فيما لديه من القبائل الموفُوره ، والجموع المؤيّدة المنصوره ؛ نظرًا يُزِيح العِلل ، ويبلّغ الأمل ، ويَرْعىٰ الهَمَل[2] ، ويُحْسِن القول ويُنْجِح العـمل ؛ منبِّها علىٰ أهل الغَنَـاء والاستحقاق ، مستدِرّا للعوائد والأرزاق ، معرِّفا بالغرباء الواردين من الآفاق ، مُطبِقًا منهم للطبـاق ، متَغَمِّدًا للهفَوات بحسن الأخلاق ؛ مستجيدًا للأسلحة والكُرَاع[3] ، مبادِرًا هَيْعاتِ الصَّريخ بالإسْراع ؛ مسترعيا للشُورة التى يقَع الحكمُ فيها عن حصول الإجمـاع ، رفيقا بمن ضَـعُف عن طُول الباع ؛ محتاطًا علىٰ الإسـلام فى مواقف الدِّفاع ، مُقْدِما عند اتِّجاه الأطماع ؛ صابرًا فى المَضايق علىٰ القِراع ، متقـدِّما للأبطال بالاصطناع ، مقابلا نصائحَ أُولى الخِبْرة بحُسْن الاستمـاع ، مستعمِلا فى الحروب ماأجازه الشرعُ من وُجوه الخِداع ؛ حتّىٰ يكون عملُه وَفْقَ شُهْرته البعيدةِ المَطَار ، وسِيرتُه فيما أُسْنِد إليه مَثَلًا فى الأقطار ، واستقامةُ التـدبير علىٰ يديه ذريعـةً إلىٰ إرغام أُنوف الكُفّار ؛ بقوّة الله وحوله ، وعزّته وطَوْله .

وعلىٰ الغُزاة بالحضرة العليه ، وسائر البلاد النَّصْريه ؛ من بنى مَرِين ، وسائر القبائل المجاهدين ، أن يعْرِفوا قدْرَه ، ويمتثلُوا فى مرضاتنا أمْرَه ؛ ويكونُوا معه رُوحا ويَدًا

---

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل اسم جمع لهامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره رائح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو . انظر القاموس .

وجَسَدا، وساعدا وعضُدا؛ فبذلك يشملُه من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبول، والعزُّ الموصول؛ ويُمضِى فى عدُوّ الله النُّصُول، ويتأتَّى علىٰ خير الدنيا والآخرة الحُصُول، إن شاء الله . ومَنْ وقف عليه، فليعرف مالديه؛ بحول الله تعالىٰ .

✥

وهذه نسخة ظهير بالتّقْدِمة علىٰ الطبقة الأولىٰ من المجاهدين، لولد السلطان، وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ، فاتحَ بنشر الألوية والبُنُود، وقَوْد العساكر والجنود، وأجالَ فى مَيْدان الوجود، جِيادَ البأس والجُود؛ وأضْفىٰ سِتْرَ الحِمَاية والوقاية بالتَّهائم والنُّجود، علىٰ الطائفين والعاكِفين والرُّكَّع السُّجود - عقَد لمعتَمد به عَقْد التشريف والقدر المُنِيف زاكِىَ الشُّهود؛ وأوجب المنافَسةَ بين مجالس السُّروج ومَضَاجع المُهُود، وبَشَّر السيوف فى الغُمُود، وأنشأ رِيحَ النصر آمنةً من الخُمُود - أمضىٰ أحكامه، وأنهد العزَّ أمامَه، وفَتَّح عن زهر السُّرور والحبور أكمامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد آبن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد فرج بن نصر - أيد الله أمره، وخلَّد ذكره - لكبير ولده، وسابق أمده، ورَيْحانة خَلَده، وياقوتة الملك علىٰ يده؛ الأميرِ الكبيرِ، الطاهرِ الظاهرِ، الأعلىٰ، واسطةِ السلك، وهلال سماء المُلْك، ومِصْباح الظُّلَمَ الحُلْك، ومَظِنَّةِ العناية الإلهيَّة من مدَبِّر الفَلَك ومُجْرِى الفُلْك؛ عُنْوانِ سعده، وحُسامِ نصره وعَضْده؛ وسمىِّ جدّه، وسلالةِ فضله ومجده؛ السعيدِ، المظفَّر، الهُمَام، الأعلىٰ، الأمضىٰ، العالم، العادل، العامل، الأرضىٰ، المجاهد، المؤمَّل، المعظم، أبى الحجاج يوسف - ألبسه الله من رضاه عنه حُلَلا لا تُخْلِق جِدّتَها الأيام، ولا تبلغُ كُنْهَها الأفهام؛ وبلغه فى خدمه المبالغَ التى يُسَرُّ بها الإسلام، وتَسْبَح فى بِحَار صنائعها الأقلام، وحرس

معاليَه الباهرةَ بعينه التى لا تنَام، وكنَفَه برُكْنه الذى لا يُضام ـ فهو الفرع الذى جرىٰ بخَصْله علىٰ أصْله، وآرتسم نَصْرُه فى نَصْله، واشتمل جِدُّه علىٰ فضله، وشَهِدت ألْسُن خِلاله، برِفعة جَلَاله؛ وظهرت دلائل سعادَته، فى بَدْء كل أمر وإعادته.

ولمَّا صرَف وجْهَه إلىٰ ترشيحه لافتراع هِضَاب المَجْد البعيد المَدىٰ، وتوشيحه بالصَّبر والحِلْم والبأس والنَّدىٰ، وأرهفَ منه سيْفا من سيوف الله لضَرْب هام العِدَا، وأطلعه فى سماء المُلْك بدْرَ هدىٰ، لمن راح وغَدَا؛ وأخَذَه بالآداب التى تُقيم من النفوس أَوَدا، وتُبْـذَر فى اليوم فتُجْنَى غَدا، ورقَّاه فى رُتَب المَعَالى طَوْرا فطَوْرا، ترقِّىَ النبات ورَقًا ونَوْرا؛ ليجدَه بحول الله يدًا باطشةً علىٰ أعدائه، ولسانا مجيبا عند نِدَائه، وطرازًا علىٰ حُلَّة عَلْيائه، وغَمامًا من غمائم آلائه، وكوْكَبا وهَّاجا بسمائه. وعقد له لواءَ الجهاد علىٰ الكتيبة الأَنْدَلُسية من جُنْده، قبْل أن ينتقل من مَهْده؛ وظلَّله بجَنَاح رايته، وهو علىٰ كَتَد[1] دايته، واستركَبَ جيشَ الإسلام ترحيبًا بوِفَادته، وتنويهًا بمَجَادته، وأثبتَ فى غَرَض الإمارة النصرية سَهْم سعادَته ـ رأىٰ أن يزيده من عنايته ضُروبا وأجناسا، ويُتْبِع أثَرَه ناسًا فناسا؛ قد اختلَفُوا لسانا ولباسا، وآتفقُوا آبتغاءً لمرضاة الله وآلتماسا؛ ممَّن كَرُم آنتماؤُه، وآزّينت بالحَسَب الغر[2] سماؤُه، وعُرِف غَنَاؤه، وتأسَّس علىٰ المَجَادة بِناؤه؛ حتَّى لا يدع من العناية فنًّا إلا جلَبَه إليه، ولا مقادَةَ فخر إلا جعلها فى يدَيْه، ولا حُلَّةَ عز إلا أضفىٰ ملابسها عليه.

وكان جيشُ الإسلام فى هذه البلاد الأنْدَلُسية ـ أمَّن الله خِلَالَهـا، وسكَّن زِلْزالهـا، وصَدَّق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالَهَا ـ كلَف هِمَّته، ومَرْعىٰ

(١) الكتد بفتح التاء وكسرها أعلى الكتف والدّاية الظئر، أنظر اللسان.

(٢) لعله الاغر وفى ريحانة الكتّاب «الخالص».

أذِمَّته ؛ ومَيْـدَان جِيـاده ، ومتعلَّق أمد جِهاده ، ومِعْرَاج إرادته، إلىٰ تحصيل سـعادته ؛ وسبيلَ خِلاله ، إلىٰ بلُوغ كماله ؛ فلم يدَعْ له علّةً إلا أزاحها، ولا طَلِبـةً إلا أجال قِداحَها، ولا عزيمة إلا أوْرىٰ آقتداحها، ولا رَغْبـة إلا فَسَّح ساحَها؛ آخذا مُروءتَه بالتهـذيب ، ومَصَافَّه بالترتيب، وآمالَه بالتقريب ، وتأنيس المُريب، مستنجزًا له وبه وعدَ النصر العزيز والفتح القريب؛ ورفع عنه لهـذا العهد نظرَ من حكَّم الأغراضَ فى حُمَاته ، وآستشعر عُروقَ الحَسَائف لشريف كُمَاته ؛ واشـتغل عن حُسْن الوَسَاطةِ لهم بمصلحة ذاته ، وجَلْب جُبَاته ، وتثمـير ماله وتوفير أقواته ، ذاهبًا أقصىٰ مذاهبِ التعمير بأمَدِ حياته؛ فآنفرج الضِّيق، وخَلَص إلىٰ حسن نظره الطريق، وساغَ الرِّيق، ورضِى الفريق .

رأى ـ والله الكفيل بنُجْح رأيه ، وشُكْر سعيه، وصلة حفظه ورعيه ـ أن يُحْمِـد لهم آختيارَه، ويُحْسن لديهم آثارَه؛ ويستنيبَ فيما بينه وبينَ سيُوف جهاده، وأبطال جِلَاده؛ وحُماةِ أحوازِه ، وآلات آعتزَازه ، مَنْ يجرى مَجْرىٰ نفسـه النفيسةِ فى كل معنىٰ، ومن يكون له لفظُ الولاية وله ـ أيده الله ـ المعنىٰ؛ فقدَّمه علىٰ الجماعة الأُولى كُبرىٰ الكتائب، ومَقادِ الجَنائب ، وأجَمَة الأبطال، ومُزْنة الوَدْق الهَطَّال؛ المشتملة من الغُزاة على مَشْـيخة آل يعقوبَ نُسَباء الملوكِ الكِرام، وأعلام الإسـلام ؛ وسائر قبـائل بنى مَرِين ، لُيوثِ العَرِين؛ وغيرِهم من أصناف القبائل، وأُولى الوسائل؛ ليَحُوط جمـاعتَهم ، ويرفع بتفقُّده إضاعتَهم ، ويستخلصَ لله ولأبيه ـ أيده الله ـ طاعتَهم ؛ ويُشَرِّف بإمارته مواكِبَهم، ويزيِّن بهلالِه الناهِض إلىٰ الإبرار، على فَلَك سـعادة الأقْدار، كَوَاكبهم؛ تقديمًـا أشرق له وجه الدِّين الحنيف وتهلَّل، وأحسَّ باقتراب ما أمَّل؛ فللخَيْل آختيال ومَراح، وللأَسَل السُّمْر آهتزازٌ وآرتياح، وللصُّدُور آنشراح، وللامل مَغْدًى فى فضل الله ومَرَاح .

فليتولّ ذلك ــ أسعده الله ــ تولّيَ مثله ممن أسرّة الملك أسرّته ، وأُسْرة النبي صلى الله عليه وسلم أُسْرته ، والمَلِكُ الكريم أصلٌ لفرعه ، والنسبُ العربيُّ مَفْخر لِطيب[1] طبعه ، آخذًا أشرافَهم بترفيع المجالس بنسبةِ أقدارِهم ، مقرّبا حُسْن اللقاء بإيثارهم ، شاكرا غَنَاءهم ، مستديما ثناءَهم ، مستدرًّا لأرزاقِهم ، موجبا للزيّة بحسب آستحقاقِهم ؛ شافعا لديه فى رَغَباتهم المؤمَّله ، ووسائلهم المتحمَّله ، مسهلا الإذنَ لوُفُودهم المتلاحقه ، مُنَفِّقا لبضائعهم النافقه ؛ مُؤْنسا لغُربائهم ، مستجليًا أحوالَ أهليهم وآبائهم ، مميزا بيْنَ أغفالهم ونُبَهائهم .

وعلىٰ جماعتهم ــ رعىٰ الله جِهادهم ، ووَفَّر أعدادهم ــ أن يطيعُوه فى طاعة الله وطاعةِ أبيه ، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ دِفَاع أعادى الله وأعاديه ؛ ويَشُدّوا فى المواقف الكريهة أزْرَه ، ويمتثلوا نَهْيَه وأمره ؛ حتّى يعظُمَ الآنتفاع ، ويُثْمِر الدِّفاع ، ويخلُصَ القَصْدُ لله والمُطَاع ؛ فلو وجد ــ أيده الله ــ غايةً فى تشريفهم لبَلَّغها ، أو مَوْهِبةً لسوّغها ؛ لكن مابعدَ ولده العزيز عليه مَذْهَب ، ولا وراء مباشرتِهم بنفسه مَرْغَب ؛ والله منْجِح الأعمال ، ومبلِّغ الآمال ، والكفيل بسعادة المآل .

فمَن وقَف علىٰ هذا الظَّهِير الكريم فليعلَمْ مقدارَ ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع ، ونخر مستنِد إلىٰ إجماع ، ووجُوبِ آتِّباع ، وليكن خيرَ مَرْعىً لخير راع ، بحول الله .

وأقطعه ــ أيده الله ــ ليكونَ بعضَ المَدَد لأزواد سَفْره ، وسِمَاط قَفْره ؛ فى جملة ما أوْلاه من نعمه ، وسوّغَه من مَوادّ كرمه ــ جميعَ القرية المنسوبة إلىٰ عَرَب غَسّان : وهى المَحَلّة الأثيره ، والمنزلةُ الشهيره ؛ تنطلق عليها أيدى خُدّامه ورجاله ،

(١) فى الريحانة «منجد لطيب» الخ .

جاريةً مَجْرىٰ صالح ماله ، محـرّرةً من كل وظِيف لاستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعانُ سبحانَه ، وكتب فى كذا .

⁂

وهذه نسخةُ ظَهِير لمشيخة الغُزاة بمدينة مالَقةَ ، وهو :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ أطلع الرِّضا والقَبُولَ صَـباحا ، وأنشأ للعناية فى جَوِّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَاحا ، وأوسع العيونَ قُرّةً [وإبصارا][1] والصُّدورَ آنشراحا ، وهيَّأ للعتَمِد به مَغْدًى فى السعادة ومَرَاحا ، وهزَّ منه سـيْفا عتيقًا يفوق اختيارا ويروقُ آلتمـاحا ، وولّاه رياسـةَ الجهاد فى القطر الذى تقدّمتِ الولايةُ فيـه لسَلَفه فنـال عزًّا شهيرا وآزداد فخرا صُرَاحا ، وكان [له][1] ذٰلك إلىٰ أبواب السعادة مِفْتاحا .

أمَرَ به وأمضاه ، وأوجب العملَ بحسَبِه ومقتضاه ، الأميرُ عبدُالله محمد آبن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهد فى سبيل رب العـالمين ، أبى الحجّاج [يوسف][1] آبن مولانا أمير المسـلمين ، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر ـ أيد الله أمره وأعز نصرَه ، وأسعد زمانه وعصره ـ لوليه فى الله الذى كَسَاه مولاه من جميل آعتقاده حُلَلا ، وأورده من عَذْب رضـاه مَنْهلا ، وعرَّفه عوارفَ قَبوله مفَصَّلا خطابُها ومجمَـلا ، الشيخ أبى العلا ، إدريس ، آبن الشيخ أبى سعيد عثمان ، بن أبى العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس عَلِيَّ[2] مَجَادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه علىٰ [أحمد عادة سلَفه][1] وعادته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى ريحانة الكتّاب «أكناف» .

ولمّا كان له القَدْر الجليل، والمجدُ الأثيل، والذكرُ الجميل، والفضائلُ التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل، وأحرزَ قصَب السَّبْق بذاته وسلَفه إذا ذُكر المجدُ العريض الطويل، وكان قد أعملَ الرِّحْلة إليه يَحْدوه إلىٰ خدمته التأميل، ويَهْوِى به الحُبُّ الذى وَضَح منه السبيل، وعاق عنه الواقعُ الذى تبيَّن فيه عُذْرُه الجميل، ثم خلَّصه الله من مَلَكة الكفر الخلاصَ الذى قام به علىٰ عنايته الدليل ـ قابله بالقَبول والإقبال، وفَسَّح له مَيدانَ الرضا رَحْبَ المَجال، وصَرف إليه وجهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمال، سافِرًا عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلىٰ رَبْوة متَّسعة الأرجاء وارفة الظِّلال، وقطَع عنه الأطماعَ بمقتضىٰ همته البعيدةِ المَنَال. ثم رأى ـ والله يُنْجِح رأيه، ويشكر فى سبيل الله عن الجهاد سعْيَه ـ أن يستظهرَ بمَضَائه، ويرسل عليه عَوَارفَ آلائه، ويَغْمُر به رُتَبَ آبائه. فقدّمه ـ أعلى الله قَدَمه، وشكر [آلاءه][1] ونِعَمه ـ شيخَ الغُزاة والمجاهدين، وكبيرَ أُولى الدِّفاع عن الدِّين، بمدينة (مالَقةَ) حَرَسها الله أختِ حضرة [دار][1] ملكه، وثانيةِ الدُّرّة الثمينة من سِلْكه، ودارِ سلَفه وقَرَارة مَجْده، والأُفقِ الذى تألَّق منه نُور سعده، راجعًا إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدةَ وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد، والعزِّ الفسيح المَجال البعيدِ الآماد، يقودُ جميعَها إلىٰ الجهاد، عاملًا علىٰ شاكلة مَجْده فى الإصْدار والإيراد، حتّى يظهر علىٰ تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحِمَاية والبَسَاله، ويعودَ لها عهدُ المَجادَة والجَلاله، وتتزيَّنَ مَلَابسَ الإياله. وهو يعمل فى ذٰلك الأعمالَ التى تليق بالمَجْد الكريم، والحَسَب الصميم، حتّى ينمُوَ عددُ الحُماه، ويكُفَّ البأسَ أكُفُّ الغُزاة ويعظُمَ أثرُ الأبطال الكُمَاه، وتظهر ثمرةُ الاختيار، ويشمل الأمنُ جميعَ الأقطار، وتنحسِمَ عنه أطماعُ الكفّار.

---

(١) الزيادة من "الريحانة".

وعلىٰ من يقف عليه من الفُرْسان ـ وفَّر الله أعدادهم، وأعزّ جهادهم ـ أن يكونوا ممتثلين فى الجهاد لأمره، عارفين بقَدْره، مُمْضين فيما ذُكر لحكمه، واقفين عند حدّه ورسمِه . وعلىٰ مَنْ سواهم من الرعايا والخُدّام، والوُلاة والحُكّام، أن يعرفوا قدرَ هذا الاعتناء الواضِح الأحكام، والبِرِّ المشرِق القَسَام، فيُعاملوه بمقتضىٰ الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام . علىٰ هذا يُعتمَد، وبحَسَبه يعمل؛ بحول الله وقوّته .

الضـــرب الثـانى

(من ظهائر بلاد المغرب ما يُكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقـلام)

وهذه نسخةُ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو :

هذا ظهيرٌ كريم أنتَج مطلوبَ الاختيار قياسُه، ودلَّ علىٰ مايُرضِى الله عز وجل التماسُه، وأطْلع نورَ العناية يجلو الظلامَ نِبْراسُه، وآعتَمد بمَثابة العَدْل من عُرِف بافتراع هَضْبتها باسُه، وألقىٰ بيد المعتَمد به زِمامَ الاعتقاد الجميل تَرُوق أنواعُه وأجناسُه، وشيَّد مَبْنىٰ العز الرفيع فى قُنَّة الحَسَب المنيع وكيف لا والله بانيه والمجدُ أساسُه .

أمر به، وأمضىٰ العملَ بمقتضاه وحَسَبه؛ أمير المسلمين أبو الحجاج آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلد فخره ـ لقاضى حضرته العليه، وخطيبِ حَمْرائه السنيّة؛ المخصوص لديه بترفيع المزِيّة، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النَّصريه؛ قاضِى الجماعه، ومصرّف الأحكام الشرعية المُطَاعه؛ الشيخ أبى الحسن آبن الشيخ أبى محمد بن الحسن وصل الله سعادتَه،

وحَرَس مَجادَته، وسنَّىٰ من فضله إرادتَه . عَصَّب منه جبينَ المجد بتاج الوِلايه ، وأجال قِداحَ الاختيار حتّى بلغ الغايةَ وتجاوَزَ النهايه ، فألقىٰ منه بيمين عَرَابةَ الرايه ، وأحلَّه منه مَحلَّ اللفظ من المعنىٰ والإعجاز من الآيه ، وحَشَر إلىٰ مراعاة ترفيعه وجُوهَ البِرِّ وأعيانَ العنايه ، وأنطق بتبجيله ، أَلْسُنَ أهل جِيله ، بينَ الإفصاح والكِنايه .

ولما كان له الحَسَب الذى شهِدتْ به وَرَقات الدَّواوين ، والأصالةُ التى قامتْ عليها صِحاحُ البراهين ، والآباءُ الذين اعتَزَّ بمضاء قُضاتهم الدِّين ، وطَبَّق[1] مَفاصلَ الحكم بسيوفهم الحقُّ المبين ، وازدان بمجالسة وُزَرائهم السلاطين : فمِن فارس حُكْم أو حكِيم تدبير ، أو قاضٍ فى الأمور الشرعية ووَزِير ، أو جامعٍ بينهما جمعَ سلامةٍ لاجمعَ تكسير ، تَعدَّدَ ذلك واطَّرد ، ووجد مَشْرَع المجد عَذْبا فَوَرد ، وقصَّرت النظراءُ عن مَدَاه فانفرد ، وفَرىٰ الفِرى فى يد الشَّرْع فأشبَه السيفَ الفِرِنْد ، وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لما دَرَس ، بما حقَّق ودَرَس ، جانيًا لما بَذَر السلفُ المباركُ واغترس ، طاهرَ النَّشْأة وَقُورَها ، محمودَ السَّجيَّة مَشْكُورَها ، متحلِّيا بالسَّكينه ، حالًّا من النَّزاهة بالمكانة المَكِينه ، ساحبًا أذيالَ الصَّون ، بعيدًا عن الاتصاف بالفساد من لَدُن الكَوْن ، فخطبَتْه الخُطَط العليَّه ، واغتبطَتْ به المَجادةُ الأوَّليَّه ، واستعملتْه دولتُه التى ترتاد أهلَ الفضائل للرُّتَب ، وتستظهر على المناصب بأبناء التُّقَىٰ والحَسَب ، والفضلِ والمجدِ والأدَب ، ممن يجمعُ بين الطارف والتالدِ والإرث والمكتَسَب ، فكان معدُودا من عُدُول قُضاتها وصدُور نُبَهائها ، وأعيان وُزرائها ، وأولِى آرائها .

فلمَّا زان اللهُ خلافته بالتمحيص ، المتجَلِّى عن التخصيص ، وخَلَص مُلْكه الأصيل كالذهب الإبريز من بعد التخليص ، كان ممن صَحِب ركابَه الطالبَ للحق

(١) يقال طَبَّق السيف اذا أصاب المَفْصِل فأبان العضو . انظر اللسان .

بسَيف الحق ؛ وسلك فى مظاهرته أوْضح الطُّرق ، وجادل مَنْ حادّه بأمضىٰ من الحداد الذُّلق ، وآشتهر خبرُ وَفَائه بالغرب والشَّرْق ؛ وصلّى به صلاة السفَر والحضَر ، والأَمْن والحـذَر ، وخطب به فى الأماكن التى بَعُـد بذكر الله عهـدُها ، وخاطب عنه ــ أيده الله ــ المخاطَبَاتِ التى حُمِد قصدُها ، حتّى آسـتقلَّ مُلْكُه فوق سريره ، وآبتهج منه الإسـلام بأميره وآبنِ أميره ، ونزل السِّـتر علىٰ العبادِ والبلاد ببركة إيالته ويُمْن تدبيره ، وكان الجليسَ المقرَّب المحـل ، والحَظىَّ المشاوَرَ فى العَقْد والحَـل ؛ والرسولَ المؤتَمَن علىٰ الأسرار ، والأمينَ علىٰ الوظـائف الكِبار ، مزيِّنَ المجلس السلطانىّ بالوَقَار ، ومتحِفَ المَلِك بغريب الأخبار ، وخطيبَ منبره العالى فى الجُمُعات ، وقارئَ الحديث لَدَيْه فى المجتمعَات .

ثم رأىٰ ــ أيده الله ــ أن يُشْرِك رعيتَـه فى نَفْعه ، ويَصرِف عواملَ الحُظْوة إلىٰ مزيد رفعه ، ويُجْلسه مجلسَ الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه لإيضاح شرْعه ، وأصله الوثيق وفرعه ؛ وقدَّمه ــ أعلىٰ الله قدمه ، وشكر آلاءه ونِعَمه ــ قاضياً فى الأمور الشرعيه ، وفاصـلا فى القضايا الدينيَّه ؛ بحضرة غَرْناطة [العلية] حرسها الله تقـديمَ الآختيار والآنتقاء ، وأبقىٰ له فخرَ السَّلَف علىٰ الخَلَف والله يمتّعه بطول البقاء .

فليتولَّ ذلك عادلا فى الحُكْم ، مُهتَدِياً بنور العِـلم ؛ مسوّياً بين الخصوم حتّى فى لحظه وآلتفاته ، متصفًا من الحلم بأفضلِ صِفاته ؛ مهيباً بالدِّين ، رءُوفاً بالمؤمنين ؛ مسَـجِّلا للحقوق ، غير مُبـالٍ فى رضا الخالق بسُخْط المخلوق ؛ جَزْلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصْـل بأمضىٰ حُسَام ، مراقبًـا لله عزَّ وجلَّ فى النَّقْض والإبرام ، بارًّا بمَشْيخة أهل التوثيق ، عادلًا إلىٰ سَعَة الأقوال عنـد المَضِـيق ، سائرًا من مشهور المذهب علىٰ أهـدَىٰ طريق ــ وأوصاه بالمَشُورة التى تقْـدَح زِنادَ التوفيق ، والتثبت

حتّى ينْبلج قياسُ التحقيق، وصيّةً أصدرها له مَصْدَرَ الذّكرىٰ التى تنفع، ويُعْلِى اللهُ بهـا الدرَجاتِ ويرفَع ، وإلا فهو عن الوَصاة غَنِىّ ، وقصدُه قصدٌ سَنِىّ ؛ والله عز وجل ولىُّ إعانته ، والكفيلُ بحِفْظه من الشُّبُهات وصِيَانته .

[وأمره ــ أيده الله ــ أن ينظُر فى الأحباس علىٰ آختلافِها ، والأوقاف علىٰ شَتّىٰ أصـنافها] (١) واليتامىٰ التى آنسدلتْ كَفالةُ القُضاة علىٰ ضِعافِها . فيذُودُ عنهـا طوارقَ الخَلَل ، ويُجْرى أمورَها بمـا يتكفّل لها بالأَمَل .

ولْيعلَمْ أن الله عز وجل يَراه ، وأنّ فَلَتاتِ الحكم تُعاودُه المراجعةَ فى أُخْراه ، فيدَّرِع جُنَّة تقواه ، فسبحان من يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْهُدىٰ هُدَىٰ ٱللَّهِ ﴾ .

فعلىٰ مَنْ يقِف عليه أن يعرف حقَّ هذا الإجلال ، صائنًا منصبَه عن الإخلال ، مبادِرًا أمرَه الواجبَ بالآمتثال ؛ بحول الله .

وكتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم فاتِح عامِ أربعةٍ وستين وسبعمائة ، عَرَّف الله فيه هذا المَقامَ العلىَّ عوارِفَ النصر المبين والفتح القريب ، بمَنّه وكرمه ، فهو المستعان لارب غيره .

✦

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا ، وهو :

هذا ظهيرٌ كريمٌ أعلىٰ رتبةَ الآحتفاء [والآحتفال] (١) آختيارا وآختبارا ، وأظهرَ معانِىَ الكرامة والتخصيص انتقاءً وآصطفاءً وإيثارا ، ورفع لواءَ الجَلالة علىٰ مَن آشتمل عليها حقيقةً وآعتبارا ، ورقَّىٰ فى دَرجات العز من طاولَها علاءً بَهَرَ أنوارا ، ودِيناً كَرُم فى الصالحاتِ آثارًا وزَكَا فى الأَصالة نِجَارا ، وخُلُوصا إلىٰ هـذا المَقَام العلىّ السعيد

(١) الزيادة عن ريحانة الكتّاب ، ونفح الطيب ص٧٣ ج ٣ .

راق إظهارًا وإضمارا. أمَر به وأمْضاه، وأنفذ العمل بحكمه ومقْتضاه، فلان للشيخ القاضى، العَدْل، الأرْضَى، قاضى الجماعة وخطيبِ الحضرة العليه، المخصوص لدىٰ المقـام العلىّ بالحُظْوة السنِيَّة والمكانة الحَفِيّـه، الفاضلِ، الحافلِ، الكامل، الموَقَّر، المبْرور أبى الحسن آبن الشيخ الفقيه، الوزير، الأجل، الأعزّ، المـاجد، الأسنىٰ، المرَفَّع، الأحْفَل، الأصلَح، المبارَك، الأكمل، الموَقَّر، المبرور، المرحوم أبى محمد بن الحسن ـ وصـلَ الله عِزّته، ووالىٰ رفعتَه ومبَرَّته، ووهب له من صلة العناية الربّانية أملَه وبُغْيته ـ لَمَّـا أصبح فى صُدور القُضاة العلماء مُشارا إلىٰ جَلَاله، مستَنَدا إلىٰ معارفه المخصوصة بكماله، مطرِّزا علىٰ الإفادة العلمية والأدبيَّة بمحاسـنه البديعـةِ وخِصاله، محفوفًا مقعدُ الحكم النبوىّ ببركة عَدَالتِه وفضلِ جَلَاله؛ وحلَّ فى هذه الحضرة العلية المحلَّ الذى لا يرقاه إلَّا عينُ الأعيان، ولا يتبوء مهادَه إلا مثلُه من أبناء المَجْد الثابتِ الأركان، ومَوَالى العلم الواضح البرهان، والمبرّزين بالمآثر العليَّة فى الحُسْن والإحسان. وتصـدّرَ لقضاء الجمـاعة فصدَرت عنـه الأحكام الراجحةُ الميزان، والأنظارُ الحسَنَةُ الأثَرِ والعِيَان، والمقاصدُ التى وفَتْ بالغاية التى لا تُستطاعُ فى هذا المَيْدان؛ فكم من قضيَّة جَلَا بمعـارفه مشكِلَها، ونازلةٍ مبْهَمة فتح بإدراكه مُقْفَلها، ومسألة مُهْملة عرَّف نَـكِرتَها وقرّر مهمَلَها؛ حتّى قرّتْ بعدالتـه وجَزَالته العُيون، وصدَقت فيه الآمال النـاجحةُ والظُّنون، وكان فى تصـديره لهذه الولايةِ العُظْمىٰ من الخَـيْر والخِيرة ماعسىٰ أن يكون ـ كان أحقَّ بالتشفيع لولاياته وأَوْلىٰ، وأجدرَ بمضاعفة النِّعم التى لاتزال تترادَفُ علىٰ قَدْره الأعلىٰ.

فلذلك أصدر له ـ أيده الله ـ هذا الظهيرَ الكريمَ مشيرًا بالترفيع والتنويه، ومؤكّدا للاحتفاء الوجيه؛ وقدّمه ـ أعلىٰ الله قَدَمه، وشكر نِعَمه ـ خطيبـًا بالجامع الأعظم

[من حضرته] [(١)] ـ عَمَره الله بذكره ـ من حِلْية الخطباء، وكِبار العلماء، وخِيار الفقهاء الصُّلَحاء؛ فليتولَّ ذلك فى جُمُعَاته، مظهرا فى الخُطْبة أثَرَ بركته وحسناته، عاملًا علىٰ مايقرِّبُه عند الله من مرضاته، ويُظفِرُه بجزيل مَثُوباته؛ بحول الله وقوّته .

الضــــرب الثـالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلىٰ المعبَّر عنه فى بلادنا بكتابة السر؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للعتَمد به الإنافة الكبرىٰ [(٢)] ببابه فرَفَعه، وأفردَ له متْلُوَّ العز جمعَه ووتْرَهُ وشفعَه، وقرّبه فى بِساط المُلْك تقريبا [أرْغَمَ به أنفَ عِداه ووضعه] [(٣)]، وفتح له بابَ السعادة وشرَعه، وأعطاه لواءَ القلم الأعلىٰ فوجبَ علىٰ مَنْ دونَ رتبته، من أُولى صنعته، أن يتَّبعه؛ ورَعىٰ له وسـيلتَه السابقةَ عند آستخلاص المُلْك لَمَّـا آبتَزّه الله من يَدِ الغاصب وآنتزعه، وحَسْبُك من ذِمَام لايحتاج إلىٰ شيء معه .

أمر به الأميرُ فلان لفلان ـ وصل اللهُ سعادتَه، وحَرَس مجادَته ـ أطْلع له وجْهَ العناية أبهىٰ من الصبح الوَسِيم، وأقطعه جَنَاب الإنعام الجَمِيم، وأنْشَقه أرجَ الحُظْوة عاطِرَ النسـيم، ونَقَـله من كُرْسىّ التـدريس والتعليم، إلىٰ مَرْقىٰ التّنْويه والتكريم، والرتبـة الّتى لا يُلَقّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم؛ وجعل أقلامه جِيادًا لإجالة أمره العلىّ، وخِطابِه السنىّ، فى مَيَادين الأقاليم؛ ووضع فى يده أمانَةَ القـلَم الأعلىٰ، جاريًا من

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من "ريحانة الكتّاب" .

الطريقة المُثلىٰ، علىٰ النَّهج القويم، وآختصه بمزيَّة الشُّفوف علىٰ كُتَّاب بابه الكريم . لَمَّا كان ناهضَ الوَكْر فى طلبة حضرتِهِ من البِدايه ، ولم يزل تظهَر عليه لأُولى آلتميز مَخايِلُ هذه آلعِنايه : فإن حضَر حِلَق العلم جَلّىٰ فى حَلْبة الحُفَّاظ إلىٰ الغايه؛ وإن نَظَم أو نَثر أتىٰ بالقصائد المصقوله، والمخاطَبات المنقُوله ؛ فاشتهر فى بلده وغير بلده ، وصارت أزِمَّة العناية طَوْعَ يده ، بما أوجب له المزِيَّة فى يومه وغَده .

وحينَ ردّ اللهُ عليه مُلْكَه الذى جَبَر به جَناحَ الإسلام ، وزيَّن وُجُوهَ الليالى والأيَّام ، وأدال الضِّياءَ من الظلام ؛ وكان ممَّن وَسَمه الوفاءُ وشَهَره ، وعَجَم الملكُ عُودَ خُلُوصه وخَبَره ؛ فحمِد أثرَه ، وشكر ظاهرَه ومضمَرَه ؛ وآستصحب علىٰ رِكابه الذى صحبَ اليمنُ سَفَره ، وأخلصت الحقيقةُ نَفَره ، وكَفَل الله وِرْدَه وصَدَره ؛ ميمونَ النَّقيبه ، حَسنَ الضَّريبه ؛ خالصًا فى الأحوال المُريبه ، ناطقًا عن مقامه بالمخاطَبات العجِيبه ؛ واصلًا إلىٰ المَعانى البعيدةِ بالعبارات القريبه ، مبرِّزا بالخِدَم الغريبه ، حتَّى آستقام العِماد ، ونطق بِصِدْق الطاعة الحىُّ والجَماد ، ودخلتْ فى دين الله أفواجا العِبادُ والبِلاد ، لله الحمدُ علىٰ نِعَمه الثَّرَّة العِهَاد، وآلائِه المتواليةِ التَّرداد ــ رعىٰ له ــ أيَّده الله ــ هذه الوسائل وهو أحقُّ مَنْ رَعَاها ، وشكر له الخِدَم المشكورَ مَسْعاها ؛ فقصر عليه الرُّتبة الشَّمَّاء التى خَطَبها بوَفَائه ، وألبسه أثوابَ آعتنائِه ، وفَسَّح له مَجالَ آلائه ؛ وقدّمه ــ أعلىٰ الله قدَمَه ، وشكر نعمَه ــ كاتبَ السِّرّ ، وأمينَ النهى والأمْر ؛ تقديمَ الاختبار ، والاغتباط بخدمتِه الحسنةِ الآثار ، والتيمُّن باستِخْدامه قبلَ الحُلول بدارِ المُلْك والاستقرار ، وغيرِ ذٰلك من مُوجِبات الإيثار .

فليتولَّ ذٰلك عارفًا بمقداره، مقتفِيًا لآثاره، مستعينًا بالكَتْم لأسراره، والاضْطِلاع بعظام أُموره وكِباره، متَّصفا بما يَجْمُل من أمانته وعَفَافه ووَقاره، معطيًا هذا الرسم

حقَّه من الرِّياسه ، عارفًا بأنه أكبرُ أركانِ السِّياسه ؛ حتّى يتأكّدَ الاغتباطُ بتقريبه وإدنائه، ولتوفَّرَ أسبابُ الزِّيادة فى إعلائه ؛ وهو — إن شاء الله — غنىٌّ عن الوَصَاة فَهْمًا ثاقبا، وأدباً لعُيون الكمال مُراقِبا ؛ فهو يعمَلُ فى ذلك أقصى العمَل ، المتكفِّل ببلوغ الأمَل .

وعلىٰ مَنْ يقِف عليه : من حَمَلة الأقلام ، والكُتَّاب الأعلام ، وغيرهم من الكافَّة والخُدَّام ، أن يعرفُوا قدرَ هذه العناية الواضحةِ الأحكام ؛ والتقديم الراسِخ الأقدام ؛ ويوجبُوا ما أوجب من البِرِّ والإكرام ، والإجلال والإعظام ؛ بحول الله وقوّته ، وكتب فى كذا .

الطـــرف الثـالث

(فى مصطَلَح كُتّاب الديار المصرية فيما قَبْل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم إلىٰ زماننا)

وفيه أربعُ حالات :

الحالة الأولىٰ — ماكان عليه أمر نُوّاب الخُلَفاء بهذه المملكة إلىٰ ابتداء الدولة الطُّولونيَّة .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المُدّة صَرْف عناية ، تقاصُرًا عن التشبُّه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافةُ يومئذ فى غاية العِزّ ورفْعة السلطان ؛ ونيابةُ مصرَ بل سائرُ النيابات مضمحِلّة فى جانبها ، والولاياتُ الصادرةُ عن النوّاب فى نياباتهم متصاغرةٌ متضائلةٌ بالنسبة إلىٰ مايصْدُر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذٰلك لم يقَعْ مما كتب منها ماتتوفَّر الدواعى علىٰ نقله ولاتنصرف الهِمَم لتدوينه مع تطاوُل الأيام وتوالِى اللّيالى .

الحــالة الثانية — ما كان عليــه أمرُ الدولة الطُّولونيَّة من حين قيــام دولتهم إلىٰ آنقراض الدولة الأَخْشِيديَّة .

وقد تقدّم أن أحمدَ بنَ طُولون أوَّلُ من أخذ فى ترتيب المُلْك وإقامة شِــعَار السلطنة بالديار المِصْرية . ولما شَمَخ سلطانُه، وآرتفع بها شانُه، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لمــا يَحتاج إليــه فى المكاتَبَات والولايات، فاستكتبَ آبنَ عبد كان، فأقامَ مَنَار ديوان الإنشاء ورَفَعَ مِقْداره ؛ وكان يفتتِح ما يكتُبه عنــه فى الولايات بلفظ « إنَّ أَوْلىٰ كذا » أو « إن أحقَّ كذا » وما أشبه ذٰلك .

وهــذه نسخة عهد كَتَب به آبنُ عبدكان عن أحمدَ بنِ طُولون بقضاء بَرْقةَ تُرْشِد إلىٰ ما عداها من ذٰلك وهى :

إنَّ أَحَقَّ مَنْ آثَرَ الحقَّ وعمِــل به ، وراقبَ اللهَ فى سِرِّ أمره وجَهْره ، وآحترس من الزَّيغ والزَّلَل فى قوله وفعله ، وعمِــل لمَعَاده ورجْعتِــه ، إلىٰ دار فاقتِــه وفَقْره ومسكنته ، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكما ، وفى أمورهم ناظرا : [فأراق][1] الدماءَ وحَقَنها ، وأَحَلَّ الفروجَ وحَرَّمها ، وأعطى الحقُوقَ وأخَذَها ؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعــالىٰ سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله ، وأنه إنمــا يتقلَّب فى قَبْضته ، أيام مُدّته ، ثم يخرج من دُنياه كخروجه من بطن أُمِّه ، إما سعيدًا بعَمَله وإما شقِياًّ بسعْيِه .

وإنَّا لمَــا وَقَفْنا عليه من سَدِيد مذْهَبك وقويم طَرِيقتك ؛ وجميل هَدْيك وحُسْن سِيرتِك ؛ ورجَوْناه فيك ، وقرّرناه عندك : من سُلُوك الطريقة المُثْلىٰ ، وآقتفاءِ آثار أئمة الهُدىٰ ، والعملِ بالحق لا بالهَوىٰ ـــ رأينا تقليدَك القضاءَ بينَ أهل ثَغْر بَرْقةَ ، وأمرناك بتقْوىٰ الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب ، ولا يفُوته من هَرَب ـــ وبطاعته التى مَنْ آثَرَها

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من المقام .

سعد، ومن عمل بهـا حُمِد، ومن لَزِمها نجا، ومن فارقها هَوىٰ ـ وأن تُواصل الجلوسَ لمن بحَضْرتك من الخُصوم : صابرا بنفسك علىٰ تنازُعهم فى الحقوق، وتدافُعهم فى الأمور، غيرَ بَرِمٍ بالمراجَعات، ولا ضَجِرٍ بالمحاكمات : فإنّ من حاوَلَ إصابةَ فصلِ القضاء، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادّة من حِلْم، ولا معونةٍ من صبرٍ، ولا سُهْمة من كَظْم، لم يكُن خليقًا بالظَّفَر بهما، ولا حقيقًا بالدَّرْك لهما ـ وأن تَقْسِم بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك، وجلَسا بينَ يديْك، فى لَحْظك ولَفْظك، وتُوَفِّيَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك، حتّى ييْأس القوىُّ من مَيْلك، ويأمَنَ الضعيفُ من حَيْفك : فإنّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلىٰ أحد الخصمين دُونَ صاحبِه ما أضلَّ الآخرعن حُجّته، وأدخل الحَيرةَ علىٰ فكره ورَوِيّته ـ وأن تُحضِر مجلسَ قضائك من يُستظْهَر برأيه، ومَنْ يَرْجِع إلىٰ دينٍ وحِجًا وتُقًى : فإن أصبْتَ أيّدك، وإن نَسيت ذَكّرك ـ وأن تقتدىَ فى كلِّ ما تُعمل فيه رَوِيّتك، وتُمضى عليه حكْمَك وقضيّتك، بكتاب الله الذى جعله صراطا مستقيما، ونُورا مستبينا، فشَرعَ فيه أحكامَه، وبيّن حلالَه وحرامَه، وأوضح به مشكلاتِ الأُمور، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور. وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصُّه فإنّ فيما يُؤْثَر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حُكْمه، وما لم يكن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱقتفيْتَ فيه سبيلَ السَّلَف الصالح من أئمة الهُدىٰ رضى الله عنهم الذين لم يألُوا الناس ٱختبارا، ولا ٱدّخَروهم نصيحةً وٱجتهادا، عالما أنك أسعدُ بالعدل ممن تَعْدِل عليه، وأحظَىٰ بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجّلُه من جميل أُحدوثته وذِكْره، ويُذْخَر لك من عظيم ثوابه وأجره، ويُصْرَف عنك من حُوب ما انتقلّده ووِزْره ـ وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهلِ الثّقة فى أديانهم، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتهم، والموسُومين بالصدق فى مَقالاتهم، والمشهورين

بالتقدّم فى عَدَالاتهم : فإنك جاعلُهم بينَ الله و بينَك فى [كل] كلامٍ تُصْدِره، وحكمٍ تُبْرِمه؛ وحقيقٌ بأن لا ترضىٰ لنفسك منهم إلا بمـا يُرضىٰ منك، وتَعلَمُ أن ذلك هو الصدقُ، وأنك قد أبليتَ عُذرَك فى تخيُّرهم، فإنه بعلم أن ذلك هو الصِّدقُ من نِيَّتك، والصِّحة من يقينك، تحسُن عليه معونَتُك، ويحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ـ وأن يكونَ من تستعينُ به علىٰ المَسألة عن أحوال هؤلاء الشهودِ ومذاهبِهـم، وما يُعرَفون به و ينسَبُون إليه فى رحالهم ومَسا كِنِهم أهلَ الوَرَع والأمانه، والصِّدق والصيانه ـ وأن تجدِّد المسألة عنهم فى كل مرّة، وتفحَصَ عن خبَرهم فى كل قضيه؛ ثم لا يمنعَك وُقوفُك علىٰ سُقُوط عَدالةِ من تقـدَّمْتَ بتعديله من آستقبال الواجبِ فى مثله، وآستعمال الحقِّ فى أمْره ـ وأن تُشرِف علىٰ أعوانك وأصحابك، ومن تجرى أمورُك علىٰ يديه من خلفائك وأسبابك؛ إشرافا يمنَعُهم من الظلم للرعيّـه، ويقبضُ أيديَهم عن المآكل الرَّديَّه؛ ويدعُوهُم إلىٰ تقويم أَوَدِهم، وإصلاح فاسدهم، ويزيدُ فى بصـيرة ذوِى الثِّقة والأمانة منهم؛ فمن وقفتَ منـه علىٰ آمتثالٍ لمذهبك، وقبولٍ لأَدَبك، وآقتصارٍ فيما يتقلّده لك، أقررتَه وأحسنْت مكافأته ومَثُوبته، ومن شَممت منه حَيْفا فى حكمه، وتعـدِّيا فى سِـيرته، وبَسْطا ليده إلىٰ ما لا يجب له، تقدّمت فى صَرْفه، وألزمته فى ذٰلك ما يلزَمُه ـ وأن تختار لكتابتك من تَعرِف سَدَاد مذهَبه، وآستقلاله بمـا يتقلَّده، وإيثارا لعرس (؟)(1) من صحته(2)، ومَنْ تقـدَّر عنده تقديمـا فى نصيحتك فيما يجرى علىٰ يديْه، وتوخِّيا لصدقك فيما يحضُره وتَغيب عن مشاهدته؛ فإنك تأمنُه من أمر حكمك علىٰ ما لا يؤتمن علىٰ مثـله إلا الأمين، وتُفَوّض إليـه من حُجَج الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوَّض إلا لذى العَفَاف والدِّين ـ وأن تتفقد

(1) لعله «و إيثاره للتأكد من صحته». تأمل.

(2) لعله «تحريا» تأمل.

مع ذلك أمره، وتتصفّح عمله؛ وتُشرِف علىٰ ماتحتَ يديْه بمـا يؤدِّيك إلىٰ إحكامه وضبطه، ويُؤمِّنك من وقوع خلل فيه ـ وأن تختار لحجابتك من لا يتجهَّم الخُصوم، ولا يختَصُّ بعضَها دونَ بعض بالوُصول؛ وتُوعز إليـه فى بَسْط الوجه، ولين الكَنَف، وحُسْن اللفظ، ورفع المئونة، وكفِّ الأذىٰ .

فتقلّدْ ماقلّدناك من ذلك عاملا بمـا يحِقُّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره، ومستعينًا به فى أمرك كلِّه : فإنَّا قلّدناك جسيما، وحمَّلنـاك عظيما، وتبرَّأْنا إليك من وِزْره وإصْره، واعتمدْنا عليـك فى توخِّى الحقِّ وإصابته، وبسْط العـدل وإفاضته؛ وٱقبِضْ لأرزاقك وأرزاق كُتَّابك وأعوانك ومن يحجُبـك ولثَمن قراطيسـك وسائر مُؤَنك فى كل شهرٍ أربعين دينارا؛ فقد كتبْنا إلىٰ عامل الخَرَاج بإزاحة ذلك، أوقات ٱستحقاقك إيّاه ووجوبه لك، وإلىٰ عامل المدينة بالشَّـدّ علىٰ يَدك، والتقوية لأمْرك؛ وضَمِّ العِـدّة التى كانت تُضَم إلىٰ القضاة من الأولياء إليك، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

الحـالة الثـالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيُّوب .

وكانوا يسمُّون ما يكتَب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السـيوف والأقلام «تقاليدَ» و «تواقيعَ» و «مراسيمَ» وربَّمـا عبَّروا عن بعضها بـ«المَنَاشير»

وهى فى الافتتاحات علىٰ ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ — أنْ تفتتح الولايةُ بخطبةٍ مبتدأةٍ بالحمدُ لله تعالىٰ ثم يؤتىٰ بالبعـديَّة، ويذكَرُ ما سـنَحَ من حال الولاية والمولَّى، ويُوصَى المولَّى بمـا يليـقُ بولايته، ثم يقال : «وسبيل كلِّ واقفٍ عليه من النوّاب العملُ به» أو نحو ذلك .

وهى علىٰ ثلاثة أصناف :

الصنف الأوّل — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحيةٍ و إقطاع بلادِها لمتولّيها ، وهى :

الحمدُ لله علىٰ عوائده الجميلةِ وعَواطِفه ، وفوائدِه الجزيلة وعَوارِفه ؛ ناصبِ الحقّ وناصره ، وقاصِم الباطلِ وقاصِره ؛ ومُنيرِ الدينِ ومُديله ، ومُبِيرِ الكُفر ومُذيله ؛ وشادِّ أَزْر أوليائه وسادِّ ثغرهم ، وناصرِ مُعِزِّهم ومُعِزِّ نصْرِهم ؛ الذى أضفىٰ علينا مَدَارِعَ نِعَمه ، وأصفىٰ لدينا مَشارِعَ كَرَمه ؛ وأعلقَ أيدِيَنا من العدل بأَوْكَدِ الأسباب والأمْراس ، وصَرَف بنا صَرْفَ العَسْف وكفَّ بكفايتنا كَفَّ البُؤْس عن الرعيَّة والبَاس ؛ وجَلَب إلىٰ ٱستجلاب الشكر من الناس هِمَّتنا ، وطَوىٰ علىٰ حُبِّ البِرِّ و إبرار المُحِب طويّتنا ؛ وحَسَم بما أوْلاناه من أيدٍ مادّةَ كلِّ يدٍ تمتدّ إلىٰ محظور ، ويسَّرنا بِبساط العدل المطويِّ لَمّا طَوىٰ بعدلنا بِساطَ الظُّلم المنشور ؛ وأبىٰ لنا أن نكفُر نِعْمَة أو نَهَبَها لكافر ، أو نَدَعَ شُكْرَ مِنّة أو نُودِعَها عند غير شاكر .

ولَمَّا كان الأمير فلان مِمَّن سبقَتْ لجدّه ولأبيه — تعاهد اللهُ بالعِهاد مَثْواهما ، وخص بَثَرَّارِ الرحمة ثَرَاهما — الحُرَم الأكيده ، والخِدَمُ الطريفةُ والتَّليده ؛ ولم يزالَا مجتهدَيْن فى تعمير هذا البيتِ وتشييد أُسِّه ، ملازِمَيِ الإدآب فى إنمائه وتَشْديد غرسه ، مُفْضِيَيْن بالموالاة إلىٰ مُوَاليه ، مفْصِحين بالمعاداة لمُعَاديه ، رأينا — لا زال الإقبال لآرائنا مقابِلا ومُرافقا ، والسعدُ مساعدًا والتوفيقُ موافقا — أن نُلحقه بدرَجة أوَّليه ، ونُورِدَه من كرمنا مَوْرِدَ جدّه وأبيه ؛ ونَثْنِيَ إليه عِنان عِنايتنا ، ونَرْعاه بعين رعايتنا ؛ ونُلحقَه جَناحَ لُطْفنا ، ونبوِّئه مَقْعَد شرف تحتَ ظِلّنا ؛ ونحْرُس حَدّه من الفُلول ، وجِدّه من الخُمُول ؛ وعُودَه من الخَوَر ، ووِرْدَه من الكَدَر ؛ وأن نقرِّره

علىٰ ما بوّأنا فيـه والِدَه من الهِبات والإنعـام والإفْضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت آسمه من المَعاقل والبُلْدان، وسيُوضِّح ذلك بقلم الدِّيوان .

فلْيقابِل هـذا الإنعامَ من الشكر بمِثْله ، ويُوازِ هـذا الإفضالَ من حُسْن القَبُول بِعِدْله ؛ ولْيرتبِطْ نِعمَ الله عنده بالشُّكر الوافِي الوافِر، فالسعيدُ مَن آطَّرح خَلَّة الشاكى وآدَّرع حُلَّة الشاكر ؛ ولْيُدْمِنِ التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنِّعَم من الشكر ، ويستجذب موادّها بإيضاح سُـبُل البِر ؛ ويجعَلِ التقوىٰ شِـعاره ودِثارَه ، ويُخْلِص الطـاعةَ لله إيرادَه وإصدارَه .

ولْيكُنِ العدلُ رَبِيئتَه ورائدَه ، والأمرُ بالمعروف دليلَه وقائدَه ؛ وليَقُم فيما نِيطَ به حقَّ القيام، ويشَمِّرْ فى حِفْظ ما آسترعَيْناه عن ساقِ الآهتِمام، ويعلَمْ أن منزلتَه عندنا أسنىٰ المَنازل وأعلاها ، ومرتبتَه لدينـا أبهجُ المراتبِ وأبْهاها ؛ ومحـلُّه عندنا السامِى الذى لا يُضاهيه سامِى، ومكانَه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفْتَرِع عَلَمَه سامى ؛ فسبيلُه علمُ ذلك وتحقيقُه، وتَيقُّنُه وتصديقُه، وسبيل كلِّ واقفٍ علىٰ هـذا المثـال ، [أن] يقابله بالآمتثال ، من سائر العُمّال، وأرباب الوِلايات والأعمال .
والآعتمادُ علىٰ العَلامة الشريفة فى أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسـةٍ والنظرِ عليها، والتحدّثِ علىٰ أوقافها وسائر تعلُّقاتها، وهى :

الحمد لله الظاهرِ إحسانُه، الباهرِ بُرهانُه ؛ القاهرِ سلطانُه ، المتظاهرِ آمتنانُه ؛ نحمدُه علىٰ إنعامه حمـدًا يدُوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازديادُه وازْدِيانُه ،

ونسأله أن يصلّي علىٰ سيدنا محمد نبيّه الشارع الشارح بيانُه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أعضاد شَرْعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نَرَاه من تشييد بُيُوت ذَوِى البُيوتات ، وإمضاء حُكْم المُروءة فى أهل المُرُوءات ، وإرعاء مَوَاتِّ ذَوِى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء المَوَات ، وموالاةِ النِّعم الشامل عمومُها لأُولى الخُصوص والخُلُوص فى الموالات ، ما نزال نُلْحِق درَجاتِ الأخلاف منهم فى الآختصاص بالآستخلاص بالأسلاف ، فنُورِدُهم من مَشارع دولتنا ومَشَارب نعمتِنا فى الآصطفاء والآصطناع أعذبَ النِّطاف ، ونُجْنِيهم من مَغَارس الرجاء ، ومَجَارِى النَّماء ، فى الإدناء والآجتباء ، ثمراتِ النِّعم الدانيةَ القِطاف ، ونُفِيض عليهم من مَدَارع البَهْجة والبَهاء ، وحُلَل الثَّناء والسَّناء ، فى الاكرام ، بالآحترام ، ما يضفُو علىٰ الأعْطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحِّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجَلِيِّ الجليل ، والمحْتِد الأكيد الأصيل ؛ والفضل المَوْرُوث والمكتسَب ، والزَّكاءِ فى المنتمَىٰ والمنتَسَب ؛ والذَّكاء الذى أنارتْ فى أُفُق التوفيق ذُكَاؤه ؛ والولاءِ الذى بان فى شِرْعة الإخلاص صَفاؤُه ؛ والدِّينِ الذى علا سَنَاسنُه ، فى مَنَار التحميد ، والخُلوص الذى حَلَا جَنَىٰ جنته ، فى مَذَاق التوحيد ؛ والرِّياسة التى تَضَوَّع رَيًّا رياضِها المُونِقه ، والسماحةِ التى تَنَوَّح حَيَا حِيَاضِها المُغْدِقه ؛ والأمانة التى نهضَتْ بها فضائلُه ، والموالاةِ التى نَجحتْ بها عندنا وسائلُه — رأينا إجراءَه علىٰ عادة والده فى تولِّى المدرسة المعمُورة التى أنشأها جدُّه للشافعية بحَلَب ، وأوقافِها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتِها ، وآستنابةِ مَنْ يراه ويختارُه فى ذٰلك كله ، والنظرِ فى جميع ما يتعلّق بها كُثْرِه وقُلِّه ؛ وترتيب الفقهاءِ فيها ، وتقرير مشاهَرَاتهم علىٰ ما يراه من تفضيلٍ وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفظ الوقوف بالاحتياط في مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط محبسيها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالابتداء بالعمارات ، التي تؤذن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المغلات ، وتنمية الثمرات ؛ مستشعرا تقوى الله التي هي حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والجنة الواقية عند النائبات . وفوضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من إخوته ، تشييدًا لبيتهم الكريم ، وتجديدًا لمجدهم القديم ؛ ورفعا لمكانتهم المكينه ، وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ، وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنوائب والشوائب ، والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤن والسخر ، والتبن والحطب ، والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنفال ؛ وإعفاء فلاحيها ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كل ما يصل من مغلات الأوقاف والأملاك المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من البضاعات والبياعات والتجارات معفاةً مطلقةً لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تمد إلى شيء منها يدُ ذي يد . وليتول ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ؛ بنظر كاف شاف ، وكرم وافر واف ؛ وورع من الشوائب صاف ، وعزوف عن الدنيات بالدينيات متجاف ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى مواد المناجح رائد ؛ ورأي في ذمة الصواب راجح ، وسعي برتبة الرشاد ناجح ؛ وهمة عالية في نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛ ومروءة تامة في الاشتمال على إخوته وتخلقه بأبيه بما يصل به الرحم ، ويظهر به الكرم ، ويحيي من مفاخر آبائه الرمم ، ويقوى لهم من معاقد مكارمه العصم . وسبيل الولاة والنواب وكل واقف على هذا المثال إمضاءُ ذلك كله على سبيل الاستمرار ،

وتصرُّم الأعمـار ، وتصرّف الأعصار ، وتقلُّب الأحوال والأدوار ؛ وحفظُه فيهم وفى أعقابهم علىٰ العُصور والأحقاب ، ووصل أسـبابه عند آنقطاع الأسـباب ، من فَسْخ ينقُض مُبرَمَ معاقده ، أو نَسْخ يقوّض مُحكَمَ مقاعده ؛ أو تبديل يكدّر صافِىَ موارده ومَشَارعه ، أو تحويل يقلّص ضافِىَ مَلَابسه ومَدَارعه . وليبذُل لهم المساعَدةَ فى كلِّ ما يعود له ولجماعته بصَلَاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه فى جميع الأحوال . والعملُ بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى .

الصنف الثـالث — أربابُ الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة ، من إنشاء بعض بَنِى الأثير ، وهى :

الحمدُ لله الذى فضّـلنَا علىٰ كثيرٍ من عبـاده ، وأغنانا بمَزِيد عطائه عن آزْدياده ، وجعَلَنا ممن آستخْلَفه فى الأرض فشكر عواقبَ إصداره ومبادئَ إيراده .

نحمدُه ولسان أنعُمه أفصَحُ مقالًا وأفسح مجالا ، وإذا آختلفتْ خَواطرُ الحامدين رَوِيّةً كاثرَها آرتجالا ؛ ونسأله أن يوفِّقنا لتلَقِّى أوامِره ونَواهيه بالاتباع ، وأن يُصْغِىَ بقُلوبنا إلىٰ إجابة داعِى العَـدْل الذى هو خيرُ داع ، ويُنقِذَنا من تَبِعات ما آسترعاناه يوم يُسْأَل عن رعيّته كلُّ راع .

أما بعدُ ، فإن الله قَرَن آستِخارتَه برَشَده ، وجعلها نُورا يُهْتدىٰ به فى سُلُوك جَدَده ، ويُستمدّ من يُمْن صَوابه ما يُغْنِى عن الرأى ومَدَده . ومن شأْننا أن نتأدّبَ بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دَلَّ التوفيق آمْرءًا علىٰ عمـله دَلَّ عملُنا علىٰ توفيقه ؛ فمن عُنْوان ذٰلك أنَّا آصطفينا لوزارتِنا مَنْ تحمَـدُنا الأيام من أَجْله ، وتحسُدُنا الملوكُ علىٰ مثله ، ويعلَمُ من أتىٰ فى عصره أنه فاتَ السابقين من قَبْله ، وهو الوزيرُ الأجل

السيدُ الصـدرُ الكبير، جلالُ الدين، شرفُ الإسـلام، مجتبىٰ الإمام فخرُ الأنام ؛ وليست هـذه النعوت ممـا تزيد مكانَه عُرْفا ، ولا تسـتوفى من أوصافه وَصْفا ؛ وإن عدّها قومٌ جُلّ ما يدّخرونَه من الأحساب ، ومُعْظَمَ ما يخلّفونه من التُّراث للأعقـاب ؛ ولا يَفْخَر بذٰلك إلا مَنْ أَعدَم من ثَرْوة شرفـه ، ورضِىَ من الجوهر بصَدَفه ؛ وأنتَ فغير فاخرٍ به ولا بمـا وَرِثْتَه من مَجْد أبيك الذى أضحَتِ الأيّام به شُهودا ، والجُدُود له جُدُودا ، وغَدا وكأنّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن الصّباح عمودا ؛ وقد علمتَ أنه كان إليه نَسَبُ المكارم وسِيَمها ، وكان مابلغه منهـا أعظَمَ ما بلغه من دنياه علىٰ عِظَمِها ؛ لٰكنّك خلّفت لنفسـك مَجْدا منك ميلادُه ، وعنـك إيجادُه ؛ وإذا آقترن سَـعْىُ الفتىٰ بسَعْى أبيه فذٰلك هو الحسَبُ الذى تقابل شَرَفاه ، وتلاقىٰ طَرَفاه ، وغَضّ الزمان عنه طَرْفَه كما فتح بمَدْحه فاه ؛ وإذا آستطرفَتْ سادةُ قوم بنيتَ بالسُّؤدَد الطريفِ التَّليـد ، ولقد صدَق اللهُ لهجةَ المُثْنِى عليك إذ يقول : إنّك الرجلُ الذى تُضْرَب به الأمثال ، والمهَذّب الذى لا يقالُ معه : أىُّ الرجال ؛ وإذا وازَرْتَ مملكةً فقد حظِيَتْ منك بشَدّ أزْرها ، وسَدّ ثَغْرها ، وأصبحتْ وأنتَ صـدرٌ لقَلْبها وقَلْب لصَدْرها ؛ فهى مزدانةٌ منك بالفضـل المُبِين ، معانةٌ بالقَوِىّ الأمين ؛ فلا تبِيتُ إلا مستخدمًا ضميرَك فى وَلَائها ، ولا تغدُو إلا مستجديًا كفايتَك فى تمهيدها وإعلائها .

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عَدَم النظير ، والمعدُود بألف فى صوابِ التـدبير ، والمؤازرُ عنـد ذُكْر الخَيْر علىٰ الإعانة وعند نِسيانه علىٰ التـذكير ؛ ولم ترقَ إلىٰ هذه الدرجة حتّى نَكَحتَ عَقَبات المَعَالى فقضيْتَ أجلَها ، وآنسْتَ من طُور السعادة نارًا فهُدِيتَ لهـا ؛ ولم تبلُغْ من العُمْر أَشُـدّه ، ولا نزعَ عنك الشـبابُ بُرْدَه ؛ بل أنت فى رَيْعان عُمْرك المتجملُ برَيْعان سُؤْدَده ، المتقمّصُ من سيمـا الجلال ما أبرزَ وَقارَ

المَشيب فى أَسْوده . وهذا المنصبُ الذى أُهِّلت له وإن كان ثانِيَ المُلك مَحلّا، وتِلْوه عَقْدا وحَلّا ؛ فقد علا بك قَدْرُه ، وتأبَّل بك أمره ؛ وأصبح وشخصُك فى أرجائه مَنَار، ورأيُك وفضلُك من حوله سُورٌ وسِوَار ؛ وله من قلمك خطيبٌ يجادل عن أحساب الدولة فينفَحُها فخرا، وسيفٌ يُجالِد عن حَوْزتِها فيمنَحُها نَصْرا ؛ ولقد كان من قَبْلك وقبل أبيك مُكْرَها علىٰ إجابة خاطبه، والنُّزولِ إليه عن مَرَاتبه ؛ فلمّا جئتماه آستقرّ فى مكانه، ورضِيَ بعُلُوّ شأنكما لعلوّ شانه ؛ وقد علم الآنَ بأنكَ نزلْته نُزولَ الليث فى أَجَمه، وآستقلَلْتَ به آستقلالَ الرُّمح باحدمه (؟) ؛ وما زالتِ المعالى تَسْـفِر بينك و بينه وأنت مشتغِل بالسعى للسيادة وآدابِها ، عن السعى للسّعادة وطِلَابها . فخُـذ ما وصلت إليه بآستحقاق فضلك ومَناقبه، لا بآتفاق طالعك وكواكِبه .

وآعلم أنَّ هـذه النعمةَ وإن جاءتْك فى حَفْلها ، وأناخَتْ بك بصاحبها وأهلها ؛ فلا يُؤْنِسُها بك إلا الشكرُ الذى يجعل دارَها لك دارا، ووُدَّها مستمْلَكا لك لا مُعَارا ؛ وقد قيل : إنَّ الشكر والنعمةَ توءَمان ، وإنه لا يتم إلا بآجتماع سِرِّ القلب وحديث اللسان ؛ فاجعلْه معروفَها الذى تُمْسِكها بإحسانه ، وتقيِّدها بأشْطانه .

وقد أفردْنا لك من بيت المـال ما تســتعينُ به علىٰ فرائض خِدَمـك[1] ونوافله ، وتَرُدّ فضلَه علىٰ آبتناء مجـدك وفضائله ؛ وذلك شيءٌ عائدٌ علىٰ الدولة طِيبُ سُمْعته ، فلهـا محمودُ ذِكره ومنك مَوارِدُ شِرْعته ؛ وإذا حُمِدت مَنَاهـل الغُدُر كان الفضـل للسحاب الذى أغْدَرها . والمفرَد باسمك من بيت المـال كذا وكذا .

وكلُّ ما تضمّنه تقليدُ غيرك مِن الوصايا التى قُرِعتْ له عصاها ، ونُبِـذَتْ له حَصَاها ، فأنت مستغْنٍ عن آستمـاعِها ، مكتفٍ بآطّلاع فكرك عن آطّلاعها ؛ غير أنا نسألُك كما سأل رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم مُعاذا ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَ لك

(١) لعله «منصبك» . تأمل .

من أمرك يُسْرا ومن عَزْمك نَفَاذا ؛ وقد أجابنا لسانُ حالك بأنك تأخذ بتقوَى الله التى ضَمِنَ لها العاقبه، وجعل شِيعتَها الغالبه؛ وأنك تجعلُها بينك وبينه سببا ممدودا، وبينك وبين الناس خُلُقا معْهودا؛ حتّى تُصْبح وقد أمِنْتَ من دهرك عِثَارا، ومن أبنائه أسماعا وأبصارا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذى سلم الناسُ من يَده ولسانه، وفى هذين كفاية عن غيرهما من الشِّيَم، التى تُحفَظ بهـا سياساتُ الأمم: فإنَّ العدل هو الميزان الذى جعله الله ثانِىَ الكتاب، والإحسان الذى هو الطينةُ التى شارَكَتْها القلوبُ فى جِبِلَّتها مشاركةَ الأحباب.

وأمَّا ماسوىٰ ذٰلك من سياسة الملك فى تقرير أُصُوله، وتدبير محصُوله؛ كالبلاد وآستعمارها، والأموال وآستِثْمارها؛ وولاةِ الأعمال وآختبارها، وتجنيد الجنود وآختيارها؛ فكلُّ ذٰلك لا يصدر تدبيرُه إلا عن نَظَرك، ولا يُمْشَى فيه إلا علىٰ أثرك؛ وأنت فيه الفقيهُ آبنُ الفقيه الذى سرىٰ إليك عِلْمُه نفسا ودَرْسا، وثمرةً وغرسا؛ فهذا كتابُ عهدنا إليك: فخذه بقوّةِ الأمانة التى أبتِ السموات والأرض حملَها، وما أطاقتْ ثِقْلَها؛ والله يسلُك بك سَدَدا، ويتحرّى بك رَشَدا، ويلزمك التوفيقَ قلْبا ولسانًا ويَدا، إن شاء الله تعالىٰ.



ومن ذلك نسخةُ توقيع باعادة النظر بثَغْر الإسكندرية لآبن بصَّاصةَ فى شهور سنة ثمان وسبعين وستمائة، وهى:

الحمدُ لله الذى أضحَكَ الثُّغور بعد عُبُوسها، وردَّ لها جَمالَها وأنار أُفُقَها بطُلُوع شُموسها، وأحْيا معَالم الخير فيها وقد كادتْ أن تُشْرِف علىٰ دُرُوسها؛ وأقامَ لمَصالح الأمة من يُشْرِق وجْهُ الحق ببَيَاض آرائه، وتلتذُّ الاسماعُ بتلاوةِ أوصافه

الجميلة وأنبائه ؛ حَمْدَ من أُسْبِغتْ عليه النَّعماء ، وتهادَتْ إليه الآلاء ، وخطَبَتْه لنفسها العَلْياء .

وبعدُ ، فأحَقُّ مَن ماسَ فى أندية الرِّياسة عِطْفا ، وٱستجْلىٰ وُجوهَ السعادة من حُجُب عِزِّها فأبدَتْ له جَمَالا ولُطْفا ، وٱصطفَتْه الدولةُ القاهرة لمهـمَّاتها لَـمَّا رأتْه خيرَ كافل ، وتنَقَّل فى مراتبها السنية تنَقُّل النَّيِّرات فى المَنَازل (١) .

ولما كان المجلسُ السامى القاضى ، الأجلُّ ، الصدرُ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، الأوحدُ ، الكاملُ ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، الفاضلُ ، الرشيدُ ، جمالُ الدين ، فخرُ الأنام ، شرفُ الأكابر ، جمالُ الصُّدور ، قدوةُ الأُمَناء ، ذُخْر الدولة ، رضىّ المُلُوك والسلاطين ، الحسينُ ٱبن القاضى زكىِّ الدين أبى القاسم ـ أدام الله رِفْعَته ـ ممن أشارتْ إليه المناقبُ الجليله ، وصارتْ له إلىٰ كل سُؤْل نِعْمَ الوَسِيله ـ رُسِم بالأمر العالى ، المَوْلَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، العادلىّ ، البَدْرىّ ، ـ ضاعف الله عَلاءَه ونَفَاذه ـ أن يُفَوَّض إليه نظرُ ثغْر الإسكندريَّة المحروس ونظرُ مَتَاجره ، ونظر زكَوَاته ونظرُ صادره ؛ ونظرُ قُوَّة والمُزَاحمتين ، فيقدِّم خِيرةَ الله تعالىٰ ويباشرُ هذا المنصبَ المبارَك ، بعَزَماته الماضيه ، وهِمَمه العاليه ؛ برَأْى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك ، ليُصبح هذا الثغرُ بمباشَرته باسمًا حاليا ، وتعُودَ بهجتُه له بجميل نظَره ثانيا . وينتصبُ لتدبير أحواله علىٰ عادته ، ويقرِّرُ قواعدَه بعالى هِمَّته ؛ ويجتهدُ فى تحصيل أمواله وتحصينِ ذخائره ، وٱستخراجِ زكاته وتنمية مَتَاجره ؛ ومعاملةِ التِّجار الواردين إليه بالعَدْل الذى كانُوا أَلِفُوه منه ، والرِّفْق الذى نَقَلُوا أخبارَه السارَّةَ عنه ؛ فإنهم هَدَايا البُحُور ، ودَوَالبة

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ وأصله « من اشتهر بمحاسن الخلال ، ومحامد الخصال ، وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما » الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثُّغُور، ومن ألسِنَتهم يُطَّلَع علىٰ ما تُجِنُّه الصُّدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نَشَرُوا له أجنحةَ مراكِبِهم وحامُوا عليه كالطُّيور . وليعتَمِدْ معهم ما تضمَّنته المراسيمُ الكريمةُ المستقِرّة الحكم إلىٰ آخِر وَقْت، ولا يسْلُكْ بهم حالةً تُوجب لهم القَلَق والتظَلُّم والمَقْت؛ وليُواصِل بالحُمُول إلىٰ بيتِ المال المعمُور، وليملأ الخزائنَ السلطانيّة من مستعْمَلات الثغر وأمتعتِه وأصنافه بكل ما يُستغنىٰ به عن الواصل فى البُرور والبُحور؛ وليصرِفْ همَّته العاليةَ إلىٰ تدبير أحوالِ المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفِع رُءُوس أموالها وتَنْمِى، وتجودُ سحائبُ فوائدِها وتَهْمِى؛ وليُراعِ أحوال المستخْدَمين فى مباشَرَاتهم، ويكْشِفْ عن باطن سِيَرِهم فى جهاتهم؛ ليتحقّقُوا أنّه مهَيْمِنٌ عليهم، وناظرٌ بعينِ الرأفة إليهم؛ فتنْكَفَّ يدُ الخائنِ منهم عن الخِيانه، وتُحَلَّى أناملُ الأمين بمَحَاسن الصِّيانه؛ وليتفق فيما يأتيه ويَذَره، ويقدّمه من المُهمّات ويؤخِّرُه، مع المجلس السامى، الأميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، المجاهدِ، المقدَّم، الأوحدِ، النصيرِ، شمس الدين، متولِّى الثغر المحروس - أدام الله نعمتَه - فإنه نِعم المُعين علىٰ تدبير المهمّات، ونعمت الشمسُ المشرقةُ فى ظُلَم المشكلات . وليطالِعْ بالمتجدِّدات فى الثغر المحروس، ليَرِدَ الجوابُ عليه عنها بما يشْرَح الصدور ويُطَيِّب النفوس؛ وليتناولْ من الجامكية والجراية عن ذٰلك فى غرّة كلّ شهر من آستقبال مباشرته ما يشْهَد به الديوان المعمورُ لمن تقدّمه من النُّظّار بهذه الجهات، وهى نظرُ الثغر وما أضيف إليه علىٰ ما شرح أعلاه .

المرتبـــــة الثـانية

(أن تفتتح الولايةُ بلفظ «أما بعـدَ حمد الله» أو «أما بعـدُ فإن كذا»
ويؤتىٰ بمـا يناسب من ذكر الوِلاية والمُولّى، ثم يذكر ما سنح
من الوصايا، ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السُّيوف من هذه المرتبة ما كان يُكْتَب لبعض الوُلاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

أما بعدُ، فإنَّا لَـا منَحَنا الله إيَّاه من معجِزات النصر المستنطِق الألسنةَ بالتسبيح، وآتاناه من نَظَرٍ حمىٰ ناضرَ عَيش الأمّـة من التَّصْويح ، وألبَسناه من ثياب العَظَمة المخصوصة بأحسَنِ التوشِيع والتوشيح ، ووفَّقنا له منَ اصطفاء من نُقْبِل عليه بوجه التأهيـلِ للمهمَّات والترشيح؛ وقوّاه من عزائمنا التى تُرَجُّ بها أرضُ الكفر وتُدَوّخ ، ووسَّعه لنا من الفُتوح التى أنباؤُها خيرُ ما تُصدَّر به السِّيَر وتؤرّخ ـ لا نزال نبالِـغ فيما صان الحَوْزة وحاطَها ، ومدّ رُواقَ الأمنة ومَهَّد بِسَاطَها ؛ وقرّب نوازِحَ المصـالح وجمَعَ أشتاتَها، وأوجبَ انْصرامَ حِبال اختلال الأُمور واقتضى انْبِتاتَها .

ولما كانتِ الأعمالُ الشرقيةُ جديرةً بمتابعة الاعتناء ومُوالاته، وإعراقِ كَرَم التعهُّد فيما يحفَظُ نِظامها بمُغالاته ؛ وأحقَّها بأن تُصرفَ إلىٰ صَونهـا وجُوهُ الهِمَم الطَّوامح ، ويُوقَفَ عليها حُسْن الاحتفال الجامعِ دواعِىَ تَذْليل الجامح؛ إذ كانت أجدَرَ الأعمال بِكِلاءَة الفُروع من أوضاعها والأُصُول ، والبـابَ الذى لا يجب أن يدخُلَه إلَّا من أُذِن له فى القـدوم إليها والوُصُول ؛ ويتعـيَّنُ التحرُّز علىٰ الطُّرقات التى منهـا إليها الإفضاء ، ويُوكَّل بمـا دونها من المياه عُيونٌ حفظةٌ لا يلزمُها النومُ والإغضاء،

ـــ وكنتَ أيُّها الأميرُ أشـدَّ الأمراء باسا، وأوفاهم لحسن الذكر الجميل لِباسا؛ وأكثرَهم لمُهَج الأعداء آختِلاسا ، وأجمَعَهم للحاسن المختلفة ضُرُوبا وأجناسا؛ وقد تناصَرتْ علىٰ قُصُودِك الحسنةِ واضِحاتُ الدلائل، وتحلَّت أجيادُ خلالك من جواهر المَفاخر بقلائدَ غيرِ قلائل؛ وآستطارَ لك أجملُ سُمْعه، وقطَعتْ سُيوفُك أبْناءَ الكُفْر عن آرتضاعها من المِلَّة الإسلامية ثَدْىَ طَمْعه؛ ولا آستبهمتْ طُرُق السياسة إلا هُدِيت إلىٰ مَجَاهلها، ولا حَلَّأ التقصيرُ سِواكَ عن شَرائع النِّعم إلا غَدَوتَ بكِفَايتك وارِدَ مَناهِلها؛ وكَمْ شهِدْتَ مَقامَ جِلَاد، ومَوْقِفَ جِهاد؛ فمزَّقْت ثوبَ مارققه نَسْجا، وأدلت فى ليل قَسْـطَله عَوادِىَ صَوارِمِك سَرْجا، وقُمْت فيا وُكل إليك من أمور الفاقُوسيَّة وقلعَتَىْ صَـدَرٍ وأيْلةَ حرسهما الله تعالىٰ قيامًا أحظاك بالثناء والثواب ، وآسْتنبْت فى كلٍّ منها من أجرىٰ أمورَها علىٰ الصواب ـ خرَجَ أمرُ الملِك الناصِرِ بكَتْب هذا السجلِّ بتقليدك ولايةَ الأعمال الشرقية المقدَّم ذِكْرُها .

فاعتمِدْ مباشرتَها عاملًا بتقوَى الله التى مَغْنَمُها خيرُ ما آقتاده مستَشْعِروها لأنفسهم وآستاقُوه . قال الله تعالى : ﴿ وقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وآتَّقُوا آللهَ وآعلمُوا أنَّكُمْ مُلَاقُوه ﴾ وآبسُط العدلَ علىٰ أهل هـذه الوِلَايه ، وآخصُص أهل السَّلامة بمـا يُسْبِل عليهم سِتْرَ الحِياطة والحِمَايه ؛ وتطَلَّبِ المفسدين أتمَّ تطَلُّب ، وآحظُرْ عليهم التَنقُّلَ فى هذه البـلاد والتقلُّبْ؛ ومَنْ ظَفِرت به منهم فقابِلْه بمـا يُوجِبه حكم جَرِيرته ، ويقتَضِيه مَوْقِـعُ جريمته، ويَجعله مُزْدَجَرا لسالِكِى طريقته . وشُدَّ من المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز شـدًّا ينْصُر جانبَ الشرع ويُعِزُّه ، ويكُثِر به علىٰ الباطل تَرويعُ الحق وأزُّه؛ وأعِنِ المستخْدَمين فى المـال علىٰ آستيفائه من وُجُوهه عند وُجُوبه ، وبلِّغ كلًّا منهم من الإعانة علىٰ تحصـيله أقصىٰ مطْلُوبه ؛ وقوِّ أيدِيَهم فى تخضـير البِلاد وتعميرها،

وٱبعث المُزارِعين علىٰ مباشَرة أحوال الزِّراعة وتقرير أمورها ؛ وفيما يُستَرْعَوْنه من مَصَالح الأعمال ، ويعُود عليهم فى موجبات الرجاء بمَنَاجح الآمال . وراعِ أمرَ السُّبُل والطُّرُقات ، وٱجعلِ ٱحتراسك عليها الآنَ مُوفيا علىٰ المتقدِّم من سالف الأوقات ؛ ولا تَنِ فى إنفاذ المتخَبِّرين إلىٰ بلاد العدوّ ، وتحدّيهم فى الرَّواح والغُدُوّ ، بما يمنعهم من الهُدوّ ؛ وكَشْف أخبارهم ، وتَتَبُّع آثارهم ، وتسْيير الجواسيس إلىٰ ديارهم ؛ حتّى لا تخفىٰ عنك من شُئونهم خافيه ، ولا يجِدُوا سبيلَ غِرّةٍ يهتَبِلُونها ـ والعياذ بالله ـ بالجُمْلة الكافيه . وطالع بما يتجدّدُ لك وما يَرِد من الأنباء عليك ، وغير ذٰلك مما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك ، وما تجرى عليه أحكام خِدْمتك ، فاعلم هذا وٱعملْ به إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المَرْتبة ، وهى :

أما بعدُ ، فإنّا لَمّا آتانا اللهُ من سَعادةٍ لِطُرق الإرادات فيها تَعْبِيد ، وأسبَغَه بنا من نِعَمٍ لايَعُدّها التحديد ، ولا يَحُدّها التعديد ؛ وأَبْهَجَنا به من ٱكتناف المَطالب بنجاحٍ لايُعَقِّبُه تعسير ولا يَمَسّه تعقيد ؛ وأمضاه من عزائمنا التى ما فَتَكت قَطُّ بالأعداء فَقِيدَ منهم فَقِيد ؛ ولَقّاه الأُمنةَ بنظَرنا من نَضْرة عيشٍ جَانَبَ الجَفَافُ دَوْحَه المُخْضَلّ ، وأهداه بتبصيرنا من أَنْوار الهدَى المتقدّمة كلَّ ذى جهل ظَلَّ ممن ضَلّ ـ لانزال نستوضِحُ أمورَ أمراءِ دولتنا متصفِّحين ، ونبلو أخبارَ المؤهَّلين منهم لسياسة الرعيّة المرشَّحين ، ونكشف شئونهم غير متجوِّزين ولا متسمِّحين ؛ ونُظهِر فى أحوالهم آثارَ الإيثار لرفع درَجاتِهم ، وأماراتِ الرفع منهم مقابلةً علىٰ حياطة أموالِ مَنْ نكونُ عليه وصون منَحَاتهم ، ونبوّئهم مُبَوّأ صدق من تصديق آمالهم وتحقيقها ؛ ونَزُفّ إليهم

عقائلَ المِنَح المانِعَ شُكرُهم من تسيُّب سَيْبها وتطرُّق تطليقها؛ ونحمل لكلٍّ منهم ما يؤمِّله من اجتهاده ويُؤْثِره؛ ولا نُلغِى الاهتمامَ بما يُوطِّئ لهم مِهادَ الطَّوْل الجزيل ويُوثِّره؛ عملًا بآداب الله سبحانَه فى إجزال حُظُوظ المحسنين من إحسان المجازاه، وإيلائهم المزيدَ الحاكمَ بنقص اعتدادهم عن المُوازَنَة له والمُوازاه، كما قال سبحانه وقوله هدًى ونورٌ وشفاءٌ لما فى الصدور : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

ولما كان الأمير (والنعوت والدعاء) من أنجحهم فالا، وأرْجحهم مَصَالا، وأصلحهم أعمالا، وأوضحهم كمالا؛ ومازالتْ أغصانُ نُهَاه متتابِعةً فى بُسُوقها، وضرائبُه نافقةً أعلاقُ المحامِد بِسُوقها؛ وعزائمُه فى إذلال الفِرَق المبالِغة فى فُسُوقها، مشمِّرةً عن سُوقِها؛ وما بَرِح فى شَوْط الفَخْر راكضا، ولعُقُود مكروهِ الأُمور التى تُزِيغُ الأمانةَ رافضا، وبأعباء القِيام بفرائِض الآلاءِ ناهضا؛ وما انفكَّتْ مناقِبُه تُعيِى بيانَ الواصف وبَنَان العادّ، ومساعِيه مُدرِكةٌ وهى وادعةٌ مايَعْجِزُ عن أقلِّه جِدُّ الجادّ؛ ورأيُه [يرتق] كلَّ متفتِّق ومنبثق من الأمور المهمَّة بِسَداد الراتق السادّ، وجميلُ ذِكْره يَفُوح بما يفوق المِسْكَ فيثُوب إليه من الثَّواب بالنائِى النادّ؛ وما فَتِئَ دأْبُ شِيَمته الإعراض، عن المُوبِق من الأَغْراض؛ واختيارَ الرِّفق، والإغراقَ فيما يُديمه إلىٰ فَكِّ أعناقِ أسْرىٰ المسلمين من سرىٰ العتق ــ خرج أمرُ الملِك الناصر بكتْب هذا السجِلِّ له بتقليده ولايةَ الأعمال الغربية .

فليتقلَّدْ ما قُلِّده معتمِدًا علىٰ تقوى الله التى صَرَف عن معتمِدها شِربَ التكدير، ومَنَحه من المكارم عندَه مايُوفِى علىٰ التقدير؛ ولْيَجْر علىٰ عادته فى بَسْط ظل المَعْدَلة ومدّ رُواقها، وصون مَسَاحى الرَّعايا عن إملاقها منها وإخفاقها؛ والمساواة بها بين

الأقوى والأضعف، والأدنى والأشرف، والبادى والحُضّار، والمُناوئين والأنصار، والخاصّ والعام، والأجنبيّ وربّ الحُرْمة والذِّمام : لينام المستُورون على مِهَاد الأمن، ويسلم جانبُ سلامة أموالهم وأرواحِهم من الوَهْن . ولْيعامل المستخْلَف على الحكم العزيز بما يستوجبه مثلُه من نُصْرة الأحكام «ووكل إليه أمر الأمراء لمن آثرها (١) والإحكام» والإكرام الشامل لقَدْره، والاهتمام الشارح لصَدْره. ولْيتوخّ المستخدَمين فى الأموال بما يكون لعِلّلهم مُزيحا، ليصل إليهم ما يرومونه نجيحا . ويُلْزِم من جَرَتْ عادتُه بلزوم الحدود واجتنابِ تعدّيها ، والتوفُّر على حِفْظ مسالكها والمتردِّدين فيها ؛ وليطالع بما يتجدّد قِبَله من الأحوال الطاريه ، وما لم تزل الرُّسومُ بإنهاء مثلِها جاريه ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبــــة الثـالثة

(أن تفتَتح الولايةُ بلفظ «رُسِم» ثم يذكر أمرُ الولاية والمولّى ويوضح ، ثم يقال «وسبيل كلّ واقفٍ عليه»)

فمن المكتَتَب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحيةٍ، وهى :

رُسم ـ أعلى الله المراسيمَ وأدام نَفَاذها ـ بالإنعام على الأمير فلان بما يُفيض عليه مَلابِسَ الاصطفاءِ ويُضْفيها ، ويُسْمِى لقدمه فى الثبات مَدَارج الارتقاء ويُسْنيها ؛ ويُعْرِب عن اختصاصه بالمنْزلة التى يفْضُل بها على مُبَاريه ، واستخلاصه للرتبَة التى يفوتُ بها شأوَ مُجَاريه ؛ ويؤهِّله لثغرِ حارِمِ المحروس وشدِّه، وتوليّه أمورَه بكفايته ونَهْضته وحَزَامته وجِدّه ؛ وقد أمَرْنا بتسليم قلعةِ حارِمٍ وأعمالِها وسائرِ مايختص بها ويُضافُ إليها من ضِيَاعها ومواضِعها إليه، والتعويلِ فى وِلَايتها وتعميرِها وتثميرها

---

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه ؛ بموجَب ما يُفَصَّل من الديوان علىٰ ما كان جاريًا فى الإقطاع المحروس للحال ، وسبيلُ أهـلِ الديوان ــ أيدهم الله ــ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ التوقيع الأشرف به ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومن ذلك نسخة مرسوم بشَدّ وقف ، وهى :

رُسِم ــ أعلى اللهُ المراسيمَ وأدام نَفَاذَها ــ بالتعويل على الأمير فلان فى تولية الوقوف بالجـامع المعمور بحَلَب المحروسـةِ ، والبِيمارَسْتَان ، والمساجد ، والمشاهـد بالأماكن والمواضع ، وظاهرِها وباطنِها وأعمالهـا ، وتفويضها إليه ، والاعتماد فى جميعها عليه ؛ سُكونًا إلىٰ نَهْضته وكِفَايته ، ووُثُوقا بخِبْرته ومعرفته وعلما بنزاهته ، وسَدَاده وأمانته ؛ وذلك لاستقبال سنة سبع وثمـانين وخمسمائة .

فليتولَّ ذٰلك بِكفاية كافيه ، ونهضةٍ وافيه ، وهِمَّة لأدواء الأحوالِ شافِيَه ؛ ونظر تامّ ، لشَـمْل المصالح ضامّ ، وتدبيرٍ جميل فى كل خاصّ من أسـباب عمله وعامّ ؛ وتقوًى لله عزّ وجل تَقْوىٰ بها يَدُه ، ويَضِحُ بالاسـتقامة علىٰ سَنِنها جَدَدُه ؛ ناظرا فى الوُقُوف ومصارِفها ، وتَتَبُّع شُروط واقِفِها ؛ بكل مايعُود بتعمير أعمالهـا ، وتثمير أموالها ، وتدبيرِ أحوالِها ؛ مطالِبًا بحساب مَنْ تقدّمه وتحقيق مبالغه تكميلًا و إضافة ، واحتسابًا وسياقه ؛ ولْيطلُب شواهده ، ولْيَبْنِ علىٰ الصحة قواعِدَه ، وليلتمس مايَصِح من بواقيه من جهاتها ، وليكْشِف بما يوضِّحه من سبُل الأمانة وجوهَ شُبُهاتها ؛ وقد أذن له فى استخدام من يراه من النُّوّاب والمتصرفين والمشارِفين ، والوكلاء والمستخْدَمين ؛ علىٰ ماجرتْ به العاده ، من غير زياده . وسبيل النوّاب ــ أيدهم الله ــ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه ؛ والاعتمادُ علىٰ العلامة الشريفة ، إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الرابعـــــة

(أن يفتتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت صـــفته كذا » وما أشـــبه ذلك)

فمن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف، وهى :

مَنْ كانتْ أوصافُه شائعةً بين الأنام ، وصُحُف فضائله منشورةً لدى الخاصّ والعام ، مع شرفِ نَسَبٍ شامخ الأعلام، وتُقىً فَخَر به على الأنام، وعِلْمٍ يُجْلى به صَدَأُ الأفهام، وعِفّةٍ مرائرُها محكَمةُ الإبرام ـ كان جَدِيرا بإفاضة سِجَال النِّعم عليـه ، وقَمِينا بإرسال سَيْل المَوَاهب إليه .

ولما كان الشيخ فلان متصفًا بهذه الصفات الجميله ، ومتخَصِّصا بمزاياها الجليله ؛ وضاربًا فيها بالسَّهْم المُعَلَّى، ونازلًا منها فى الشَّرَف الأعلى، ومتقمِّصا ثوبَ الإخلاص والصَّــفاء، ومتّشِحا بوِشَاح العِفّة والوَلاء ـ آختصصناه بزيادةِ التقــديم والآجتباء، وحَبَوْناه بوُفُور الكرامة والآصطفاء،وأجرَيْناه على مستَمِرّ رَسْمه بالرِّعاية على ذُرِّيَّة أهل العَبــاء، حسَبَ عادتِه المستقرّة إلى آخر عهدِ مَنْ كانت الإيالةُ إليــه وإلى رحمة الله مضى: ليَسِيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنّة رسوله ، ويسلُكَ جَدَدَ الحق الذى يُوصِّله من الزُّلْفى إلى أقصى مُنَاه وسُوله ؛ ويحُضَّهم على تلاوة القُرءان ، ومعرفةِ مايصْــلُح للأديان . وليسوِّ فى الحكم بين الضعيف فيهم والقوِىّ ، ويَعُمَّ بالإنصاف الفقيرَ والغنِىّ . ولْيُحْسِنْ إلى مُحسِنهم ، ولْيَجْرِ على فضْله لمُسِيئهم؛ بعد أن يقدّم إليه زَجْرا ووَعِيــدا ، ويُوسِعَه إنذارا وتهــديدا ؛ فإن وَعى وآرْعَوى وإلا سلّط عليه أســبابَ الأذى، وتَولّاه بمــا يســتحِقُّه من الجَزَا ؛ ويعيــدُه إلى حالة الآستقامة والآستوا، ويكُفُّه عن دواعى الهوى . ومَنْ وجبَ عليه حدّ أقامه فيه، وبادَرَ إلى آعتماده وتوخِّيه، حسَبَ مايوجبُهُ حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رَءُوفًا بهم ما ٱستقاموا، ومنتقمًا منهـم ما ٱعْوَجُّوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حَقٌّ لِمَلِيّ أو دنِيّ، ٱستخلصه منه ولم يمنعه تعلقُه بنسبٍ شريف علىّ؛ وإن ٱفترى منهم مفـترٍ على أحد من المِلَل، قابله عليه بمـا يزْجُره عن قَبِيح العمَل: فإنّ النـاسَ فى دار الإسـلام ومَنْ هو تحتَ الذِّمام سَواسِيَة وأقربُهم إلى الله تعالى من كانتْ سيرتُه فى الإسلام رضيّة، وطوِيّتُه فى الإيمـان خالصةً نقيّة؛ ومَنْ حَكَمَ عليه حاكمٌ من الحُكَّام، بحقٍّ ثبَت عنـده بالبيِّنة العادلةِ أو الإعلام، ٱنتزَعه منه أو سجنه عليه، إلى أن يُرْضِى خصمَه أو يردَّ أمرَه إلى الحـاكم ويفوّضَه إليه .

ولْيحْرُس أنسابهم بإثبات أُصُولها، وتحقيق فُروعِها؛ ومَن رام دُخولا فيه بدَعْوى يُبْطِل فيهـا نَقَّب عن كَشْف حاله، وإظهار مِحَالِه؛ وجازاه بمـا يسـتحقُّه أمثالُه، ويرتدِعُ فيما بعْدُ مِثالُه: ليخلُصَ هذا النسبُ الكريم، من دَعْوى المجهول، وٱندماجه فى أُسْرة الرسول؛ عليـه أفضلُ الصلاة والتسليم. ويمنَعُ من ٱتصال أَيِّم من الأُسْرة إلى عامّىّ، ولا يُفَسِّح أنْ يُعْقَد عليها عَقْد إلا لِكُفءٍ مَلِيّ: ليبرأَ هذا المجدُ الشريفُ من التكدير، ولا تُزَيِّفَه شوائبُ التغيير .

ولينظُرْ فى الوقوف على المَشَاهد والذُّرِّيّه، نظرا يحمَدُه عليه مَنْ يعْلَمُه من البَرِيّه، ويُحْظيه بالثواب عند مالكِ المَشِيّه. ويبتدئُ بعمارة أُصُولها وٱستكمال فرُوعها، وقسمة مَغَلّها على ما تضمنه شرط الواقفين لهـا. ولْيحتَطْ على النُّذور، وينفقْها على عادتها فى المصالح والجُمْهور؛ عالمـاً أنّ الله تعالى سائلُه عمّـا توخّاه فى جميع الأمور، وأنه لايخفى عليه كلُّ خفِىّ مستور. قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُون لايَخْفَى عَلَى الله مِنْهُم شَئٌ لِمَن المُلْكُ ٱلْيَوْمَ لله الْوَاحد القَهّار﴾ .

وأذنّا له أن يستنيبَ عنــه فى حال حَياته، وبعدَ وفاته ـ فسّح الله له فى المَهَل، وخوّله صالح العَمَل ـ الأرشدَ من بَنيه، ومَنْ يختاره لهذا الأمر وله يَرتَضيه . وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مســتمرا إلىٰ الآن، وأضفْنا إليه ما يُعينه على النظر فى مصالح الأسرة أدام الله له عُلُوّ الشان؛ من تمليكٍ وإدْرارٍ وتيســير، وجعلناه له مســتَمِرّا، وعليه مستقِرّا؛ ولمن بعده من نَسْله والأعقاب، علىٰ توالى الأزمان والأحقاب؛ وحظَرْنا تغييرَه وفسْخَه، وتبديله ونَسْخه : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْـدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَـا إِثْمُــهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهو معــيّن من ديوان الاستيفاءِ المعمور، بهذا المنشور المسْطُور، بالأمر العالى أعلاه الله وأمضاه، عمّا كان قديما، وما أُنعِم عليــه به آخرا، وهو القديمُ الذى كان له وشهد به الديوان المعــمُور، وهو الإقطاع من ناحيــةِ كذا، ويُجرىٰ علىٰ عادته فى إطلاق ما قُرِّر له من ناحيــة كذا بشهادة الديوان الفلانى، والمجدَّد الذى أُنْعِم به عليه لاســتقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها. وسبيلُ كافّة الأُسْرة الطالبيِّين بمدينة كذا الانقيادُ إلىٰ تِبَاعته، والامتثال لإشارته، والتوفُّر على إجلاله وكرامتــه؛ فإنه زعيمُهم، ومقدَّمُهم ورئيسُهم؛ ومن خالفه منهــم قابلناه، وبأليم العِقابَ جازَيْناه، والاعتمادُ فى ذٰلك أجمعَ علىٰ التوقيــع الأشرف العالى أعلاه الله، والعَلائم الديوانيَّة فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

لمّـا كانتِ الأعمالُ الشرقيّةُ أجدَرَ البلادِ بأكيد الاهتمام وأخْلَق، وأَوْلاها بإضْفاء سِرْبال الاهتبال الذى لا يُخْلِقُ إذا رَثَّ سِواه وأخْلَقْ، وأقْمَنَهـا بحُسن نظرٍ يُرســل لرِســولٍ علىٰ الرسم الأعنّــةَ فى إدامة نَضْرة العمارة عليها ويُطْلق، وأحَقّها بأن يُبرَم لها

سبَبُ تفقُّد لا يلتصق به رَهْن ولا يَغْلَق ، وأحْراها باعتناءٍ يقضى لأمرها بالاطّراد ، وأَوْلاها بتعهُّد يجمل مصالح الشُّئُون آلفةً للثَّواء بها والمُقَام عائفةً للنشوز عنها والشِّرَاد ، : لأنها بابُ الشام ، وإليها تَرِدُ القوافِلُ المتردّدةُ منه علىٰ مَرّ الأيَّام ، ومنها يستَكْشف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبِّرين ، وبمواصلة التفقُّد تعْلَمَ الأحوالُ الطارئة فى كل وقْت وحِين ، فتجب المبالغةُ فى حفظ طُرُقاتها ومياهها ، وأن تصرف الهممُ إلىٰ ضبط أحوالها ، وعامة أنقابها وٱتّجاهها ، ويوضع بناء الحزم فى صون أطرافها علىٰ أثبت قاعدة ويُؤسَّس ، ويبالَغَ فى إذكاء العيون علىٰ كل طارق يتخبَّرُ للعدوّ الملعون ويتجَسَّس ، وكنت أيُّها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام ، وذَوِى الكفاية المُوفِى تَرَاؤُهم فيها [علىٰ] عارض الإعدام ، وما زِلْتَ معدودًا من خاص الأتراك الأعيان سبهم(؟) ، المقصّر مجاروهم إلىٰ غاية البَسَالة عن اللَّحاق بهم والإدراك وقد تقدّمت ولايتُك هذه الأعمالَ فقصَدْت منها قصدًا سَدِيدا ، وألحفْت الرعايا ظِلًّا من الأَمَنة مديدا ـ خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أُنعِم به عليك من إعادتك إلىٰ وِلَايتها ، فبالغ فى ٱستيضاح الأنباء وكشْفها ، ورفع الْوَنْيَة فى ذٰلك وصَرْفها ، ووَكِّل به عَزْمة لا تُلِمُّ سِنَةٌ بطَرْفها ، وٱنتهِ فيه إلىٰ غايةٍ تَضيق سَعةُ القول بوَصْفها ، وتابع فى تسيير الطلائع ونَدْبها ، وعوِّل من كلِّ قبيلة من العُرْبان المستنهَضين علىٰ شَهْمها ونَدْبها ، وٱجتهِد فى حفظ الطُّرُقات والمَنَاهل ، وٱستنهِض للتحرُّز عليها من هو عالِمٌ بها غيرُ جاهل ، وتحفَّظ من خَلَل يتطرّق ـ والعياذ بالله ـ علىٰ البلاد وخَلَل يتخلَّلها ، وٱنتض لهذه المهمات بصارِم حدٍّ تَسْلم مَضارِبُه من عَجْزٍ يفلِّلُها ، ولا تُبْقِ ممكنًا فى إنفاذ المتخبِّرين ، وإرسال من يُغِير علىٰ بلاد العدُوّ من الخَبِيرين ، بما [أنّ] هذه سبيلُ المتدرِّبين ، وألزِم أربابَ الحدود من جميع الأقطار حراسةَ حُدُودهم ، وخُذْهم باستنفاد وُسْعِهم فى الاحتياط وٱستفراغ مجهُودهم ، وطالِعْ

بمـا يُورَد قِبَلك، وأنّه ما يُزِيح بسُرْعة إجابتك عنـه فى الخِدْمة عِلَلَك؛ فاعلم هـذا واْعملْ به، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة بولاية المُرْتاحية، وهى :

خرج الأمر بكَتْب هذا المنشور وتضمينه : إن مَنْ أظهر خُلاصةَ جَوْهره السَّبْك، وآرتفع فى إشكائه بالإنصاف عن كل شائك الشَّكّ، وحصل عنده [من] الخلال الزكيّة نظْمٌ لا يَنْحَلّ وعَقْد لا ينْفَكّ، وأَوفىٰ علىٰ التقدير والظنّ فى التدبير المفرِّج به عن الرعيّة الضَّنْك ـ آستوجب أن تُسنَد إليه حمايتُهم، وتجعلَ إليه كَلاءَتُهم .

ولمّـا كنتَ أيها الأميرُ ممن أُحْمِد عند نَجْزِ عَزْمه، وتجريب نصـلِ حَزْمه؛ وآعتبارِ فَصْل مَقالته، وآختبار أصلِ أَصالته؛ وشُكرِ آستمرارُه علىٰ الآتصاف بمَحْض الولاء، وآستِدْرارُه أخلافَ غُرَرِ الآلاء، وآستثمارُه أصنافَ جَنَى الثَّناء، وآستقرارُه أكناف وهْيِ الآعتناء؛ ولم تزل فى رِفْعتك وَجيها، وما بَرِح جميلُ الرأى يُديم بَعْثًا لتُحَف الإحسان نحوَك وتوجيهـا؛ وما آنفكّتْ مجاهَدتُك مجاهـدةً فى مهامٍّ إقدام تَنْويها، وشجاعتُك ماقيـةً علىٰ الكفّار كُلَّ كِفَاح يلْقَوْن منه كَلًّا ثقيلا ويومًا كريها؛ ـ أُودِع هذا المنشورُ ما رُسِم من آستخدامك فى ولاية الأعمال المُرتاحيَّة .

فباشِرْها معتمدا علىٰ تقوىٰ الله سبحانَه التى تَقْوىٰ بهـا أسبابُ توفيقك وتنالُه، وتسْـلَمُ أمورُ مباشرتك من خَلَل يكدِّر آستبشارَك وينكِّد . وآعتمِد العـدلَ علىٰ من تشتمل عليه هذه الولايةُ وتَحْويه، وبالِـغْ فيما يزيل عنهم الحَيْفَ ويَزْويه؛ وآقْصِدْ ما يَقْضِى لسِرْبهم بالتأمين، ويبلِّغهم من تحصينِ أوطانهـم غايةَ التأميل . وآجعَلْ أيدى المفسِـدين مكفوفةً عن كافّتهم، ووجُوهَ المعتدين مصروفةً عن إخافتهم؛

وتطلّب الأشرار ، وتتبّع الدُّعّار ؛ ومَنْ ظَفرت به منهم فلا تكُن عن التنكيل به ناكلا ، ولا تُقَصّر فى الحَوْطة عليه والمطالعة به عاجلا . وعامل النائبَ فى الحُكْم العزيز بإنهاضه ، وصَوْنِ مَدِيد باعه فى تنفيذ الأحكام عن انقباضه ؛ واعْضُدْه فى إنفاذ قضاياه ، واختصاصه بإكرام يُقْبِل عليه مُطْلَقُ مُحيّاه . وشُدَّ من الضامن فى استيداء حقُوق الديوان واستِنْطافها علىٰ أحسَن حال من غير خُرُوج عن الضرائب المستقرّه ، وعوائد العَدْل المستَمرّه . وتحرّزْ أن يكونَ لمُناهَضَة العدُوّ طُروقٌ إلىٰ ناحيتك أو انتِياب ، وشَمّر للتحَفُّظ من مكايِدِهم تشميرًا يزُول عن حقيقتِه عارضُ الارْتياب ؛ ولا تُبْقِ شيئًا يمكّن لأهل وِلَايتك قواعِدَ الأمَنَة منهم ، وتبتّلْ لِوِقايتهم أذاهم تَبَتُّلَ من لا ينامُ عنهم . وطالِعْ بما يُحْتاجُ إلىٰ علمه من جهتك إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة بولاية السَّمنُّوديّة ، وهى :

إنّ أوْلىٰ مَن وَلِىَ الأعمال ، وتعلّقت بكفايتِه الآمال ، وعُدقَت به المُهِمّات ، وأُسْنِدت إليه الوِلَايات ، مَنْ نَطقت بمَعْدَلَته الألْسنه ، وانتفَتْ عن عيْن خِبْرته السِّنَه ؛ وكان حسَنَ السياسة لرعيّته ، كثيرَ العِمارَة مدّة توليَته ؛ شَهْمًا فى استِخْراج الحقُوق من جِهاتها ، صارمًا فى رَدْع المجرمين عن زَلّات النفْس وهَفَواتها ؛ حَسَنةً سيرتُه ، خالصة مناصحتُه وسَريرتُه .

ولمّا كنتَ أيها الأمير فلان ـ أدام الله تأييدَك وتسديدَك ، وحراستَك وتمهيدَك ـ أنتَ المتوَشّحَ بهذه الصِّفات الحِسان ، المتّصِفَ بما تقدّم من الشَّرْح والبَيَان ؛ الذى نطقَتْ شمائلُك بشَهامَتِك ، وشهِدَت مخايِلُك بنَبَاهتك ـ خرج الأمر الفلانى بأن تتولّى مدينةَ سَمنُّود وضواحيها ، وما هو معروفٌ بها ومنسُوبٌ إليها ؛ بشرط بَسْط

العدْل ونَشْره، وإعباقِ عَرْف الحق ونَشْره؛ وأن تُخَفِّف الوطأة عنهم وتفْعلَ ما هو أَوْلىٰ، وتعْلَمَ أنك تُسْأل من الله تعالىٰ فى الأخرىٰ ومنّا فى الأُولىٰ؛ وأن تَصونَ الرعايا وتجتَلِبَ لنا أدْعيتَهم، وتعامِلَهم بما يُطيِّب نُفوسَهم ويُبلِّغهم بُغيتَهم؛ حتّى يتساوىٰ فى الحق ضعيفُهم وقَويُّهم، ورشيدُهم وغَوِيُّهم، ومَلِيُّهم ودَنِيُّهم؛ وأن لا تُقيم الحدود علىٰ مَنْ وجبتْ عليه إلا بمقتضىٰ الشرع الشريف، والعدْلِ المُنيف؛ وأن تَشُدّ من نُوّاب الحكم العزيز، وتفْعَل فى ذٰلك فعلَ المهذّب ذى التمييز؛ وأن تَحْسُر عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بينَ استخراج جميع الحقوق الديوانية والعِمَاره، وتجعلَ تقوى الله هى البِطانةُ لك والظِّهاره؛ وأن تبذُل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيلِ الغِلال علىٰ التّمام والكَمال؛ بحيثُ لايتأخّر منها الدِّرْهم الفَرْد ولا القَدَح الواحد، وتفْعلَ فى ذٰلك فعلَ المُشْفِق المشمِّر الجاهد؛ وأن تُديم مباشَرتك للأقْصاب فى حال بَرْشها وزراعتها وتربيتها وحمايها، واعتصارِها وطَبْخها، وتزكيةِ أثمارها؛ بحيث لاتكل الأمرَ فى شيءٍ من ذٰلك إلىٰ غير ذى ذِمّة بمُفْرده، ولا إلىٰ من ليس بذى خِبْرة لايعلم مُشْقِ التصرُّف من مُسْعِده. وقد جعلنا لك النظرَ علىٰ جميع النَّواحى الجارِيَة فى ديواننا بالوجه البحرىّ خاصةً لتنظُر فى أمرها، وتزجُر أهلَ الجنايات بها؛ وتفعل فيها كلَّ مايحمَدُ به الأثَر، ويَطيب بسَماعه الخَبَر.

فتقلَّدْ ماقُلِّدت، وقُمْ حقَّ القيام بما إليه نُدِبت؛ واْعملْ فيه بتقوَى الله فى سِرِّك وجَهْرك، وقدِّم الخوفَ من الله علىٰ جميع ما تأتيه أو تَذَرُه من أمرك؛ وتَسلَّمْه شاكرا لما أسدَيْناه إليك، متمسِّكا بما أوجَبْناه عليك؛ فإنَّ الشكر يُوجب مزيدك، ويُكثِّر عَديدَك.

⁂

وهذه نسخة بولاية النَّستراويّة، وهى :

من عادتنا فى التدبير وشيمتنا، وسُنّتنا فى السياسة وسيرتنا، إسباغُ المَوَاهب والنِّعم، وتنقيلُ عبيدنا فى مَراتب الخدم، آستِرْشادا بأسلافنا المُلُوك وآقتِداء، وآستضاءةً بأنوارهم المشرقة وآهتِدَاء .

ولمّا كنتَ أيها الأمير ممن عُرِفَتْ بسالتُه، وآشتَهرت شجاعتُه وصرامتُه، وآستَحقّ أن يُلْحَظ بعين الرِّعايه، وأن يشرَّف بالإرتضاء للتعويل عليه فى وِلَايه، ـ رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ آستخدامَك فى وِلاية الأعمال النَّستراويّة، وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السِّجلّ بتقليدك ذٰلك، وتضمينه ماتعتَمد عليه، وتنتهى إلىٰ المُمثَّل لك فيه .

فتقلَّدْ ماقُلِّدتَه عاملا بتقوىٰ الله فيما تُسِرُّه وتُعْلِنُـه، معتمدًا فيها غايةَ مايستطيعه المكلَّف ونهايةَ ما يمكنُه، فالله تعالىٰ يقول إرشادًا للمؤمنين وتفهيما : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساوِ بينَ القَوِىّ من هذه الولاية والضعيف، وَلَا تَجْعَلْ فى الحقّ فرقًا بين المشروف والشريف، وآمدُدْ علىٰ كافّتهم رُواقَ السُّكون والأَمَنه، وأجْرِهم فى المَعْدَلة علىٰ العادة الجميلة الحَسَنه، وآفعلْ فى إقامة الحُدود علىٰ من تجب عليه ما يُوجبه كتابُ الله الكريم، وتقْضِى به سنّةُ نبيه محمد عليه أفضلُ الصلاة والتسليم، وآدأَب فى حِفْظ السُّبُل والمَسَالك، وآجتهِدْ فى ذٰلك الآجتهادَ الذى يجب علىٰ أنْظارك وأمثالك، ومتىٰ ظفرْت بمن يُؤذى مسافرا، أو يخيف وارِدًا أو صادرا، فطالِعْ بحاله لِيُمثَّل لك فى التمثيل بما تعتمده، وتُؤْمَرَ فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقْصِده . وراعِ المستخْدَمين علىٰ الحكم والدعوة فهما يتولّيَان ما بإعزازه يقومُ مَنَارُ الإســلام ، وتجري أمورُ الشريعــة علىٰ أجمل وَضْع وأحسَن نِظام . وخُذ المستخْدَمين فى الأموال الدِّيوانية بالاجتهاد فى العِماره ، وحمْلِ المعامَلِين علىٰ ما تُوجبه المَعْــدَلة والحرصُ علىٰ ماوَفَّر الارتفاع ، وحَمَاه من أســباب التفريط والضَّــيَاع ؛ واستنْهِض الرجالِ المستخْدَمين معك فيما ترى نَدْبَهم إليــه ، واستنهاضَهم فيــه ؛ فاعلَمْ هذا واْعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهى :

اهتمامُنا بمـا حاطَ ثغْرَ الإسكندرية ــ حماه اللهُ تعالىٰ وحصَّنَه ، ومنحه أتَمَّ حظ التفقُّد وأكمَله وأجمَل وضْع التعهُّد وأحسَنَه ؛ وقوَّىٰ سببَ استقامة شئُونه واتِّساقِ أموره ومَكَّنه ، ومدّ ظِلَّ الدَّعَة والسكون علىٰ كافَّة من تَدَيَّره وســكَنَه ؛ وحَفظ عليــه نِظام النَّضَاره ، وأماط عنــه مَكْروهَ الأحوال الضاره ، وأنامَ أهْلَه علىٰ مَضْجَع الأمْنِ ومِهــادِه ، وحَكَم بإحلالهم نُجودَ الاتحاد علىٰ المَصَــالح وإجلالهم عن وِهَاده ؛ وحَمىٰ سَــوامَ أموالهم من مَشْروبِ وِرْدٍ أُجاجٍ ومَرْعىٰ نبتٍ وخيم ، وحَبَاهم من رُسوم الإحسان وعوائدِه مالا ينطِقُ لسانٌ علىٰ زوائده بترْخيم ؛ ومَلا آمالَ الأعداء عن التطرُّق إليه إخفاقًا ، ورَدَّ نُصولَ سِهام مكايِدِهم عنه علىٰ ما عُهِد من فضل الله سبحانه أفواقا ــ إذْ كان من أجَلِّ الثغور الإســلامية أوزارًا ، وأسبقها إلىٰ غاية التفضــيل ابتدارا ، وأكثَرِها بمن حَوَاه من صــدور الدِّين وأئمة المسلمين افتخارا ، وأفضلِها مَحَلًّا ولم يزل مَفْزَع السُّفَّار من كل جهةٍ رُسُلا وتِجَارا ــ أوجب أن نُســند ولايتَه ، ونَرُدَّ كلَاءتَه ، إلىٰ مَنْ يجرى فى التدبير علىٰ حكم سياســته المعلوم ؛ الحَسَنَ

الأخذ بيد المظلوم ، ويقومُ بحسن التفويض والائتمان ، ويعطى بَذل السّلامة من حقوق انتقامه عهدةَ الأمان ، ويسلكُ فيما يُعدَق به طريقَ السّداد ويلزم نَهْجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له علىٰ غير الصواب مَعَاجٌ ولا عَرْجه ، ويأخذُ فى كل أحواله بوَثائق الحَزْم ، وتُحِلُّ له أعمالُه الصالحةُ من مَثْوىٰ المنازل الرفيعة ما هو علىٰ غيره من الحرام الجَزْم .

ولما كان الأميرُ المعنىُّ بهذا الوصف الواضح البيان ، المتكافئةَ فى ذكر مَناقبه شهادةُ السَّماعَ والعِيان ، الكالئَ مايُناطُ به بقَلْبِ ألمعِىٍّ وطَرْف يَقْظان ، الحالَّ من الوَرَع فى أسمىٰ مكان وأعلىٰ مَظَان ، الجامعَ فى إقامة شرع الإخلاص بينَ الفرائض والسُّنَن ، الموفيةَ عزائمُه علىٰ مَضارب المُهَنَّدة التى لا تَقِى منها ما نعاتُ الجُنَن ، الفائحَ من نبئِه ما تُؤْثِر صِحَاحُ الأنباء عن عَليل نَسيمه ، الجديرَ بما يُزَفُّ إليه من عقائل جزيل الإنعام وجَسيمه ، وقد أبان فى ولايته بمطابقته بينَ شِدّته ولِينه ، وإقامةِ مَنَار الإنصاف المُعرِب عن امتداد باعه فى الحرب وانقباض يَمِينه ، وإروائه كافَّةَ أهلها من نَمِير العون علىٰ استتباب الأمور ومَعِينه ـ خرج أمرُ الملك العادل بتقليده ولايةَ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ والبحيرة .

فليتقلَّدْ ماقلَّده إيَّاه ، ويباشِرْه منشرحا صدرُه متهلِّلا مُحيَّاه ، وليعتمدْ علىٰ تقوىٰ الله التى هى خير عَتَاد ، وأفضلُ ما اعتُمِد عليه فى الحياة الدُّنيا ويومَ يَقُومُ الأشْهاد ، وهى نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأيُّها الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقين ﴾ .

ولْيبالِغْ فى نَشْر رايةِ العدل ومَدِّ جَنَاحه ، وتعفيَة أذىٰ الجَوْر واجْتياحه ، ولْيشْمَل الصغيرَ والكبيرَ من أهل هذه الولايةِ بِردَاء النَّصَفه ، ويعاملْهم بالجميل المُوفى علىٰ

الصِّفَه، ويُقِم الحُدُودَ علىٰ مستوجبيها، وينتهِ إلىٰ الغاية فى تجنُّب إضاعتها وتوقِّيها؛ وليدُلَّ علىٰ المفسدين عينَ من يتتبَّع وُقُوعَهم فى قبضته ويتطلَّب، ويقابِلْ كلًّا منهم بما يرىٰ متعقِّبا بإيماض بَرْق المُعاقبة غيرَ خُلَّب؛ ولا يُبْقِ مُمْكنا فى التنقيب علىٰ مرتكِبى الآثام، والمرتكنين علىٰ سَفْك الدم الحرام؛ ومَنْ ظفِر به منهم فلْيحكِّمْ فيه شَبَا ظُفُر الانتقام ونابِه، ويقابِلْه من الرَّدْع بما يُؤَمِّن من معاوَدَة عادات التعدِّى علىٰ كل حَقِيرونابِه. ولْيجْرِ علىٰ عادته فيما يَسِيِّر عنه أحسَنَ السُّمْعه، ويشهَدُ له بالتنزُّه عن خَبِيث الطُّعْمة وقبيح الطَّمْعه. ويشدّ من القاضى متولِّى الحكم فيما يُصْدِره ويُورِده، ويَحُلُّه ويعْقِده، ويُمضيه من الأحكام الشرعيه، ويعتمده فى القَضايا بما لَدَيْه من الألمعيَّه. ويعاضِد المستخْدَمين فى الأموال معاضدة تُثَمِّره، وتَنَمِّى الارتفاعَ وتُوَفِّره، وتَعُودُ علىٰ الديوان بالحظّ الوافى، وتُعرِبُ عن كَوْنه بمثل هذه الولاية نِعْمَ الكُفْءُ الكافى. ويعاملِ التُّجّار علىٰ تبايُنِ بُلْدانهم، واختلاف ألسنتِهم وألوانِهم، معاملةً يجْمُل أثَرُها ويحْسُن؛ ويتلقَّهم ببِشْر وطلاقةٍ تَنْطِق بشُكْر استبْشارِهم بها الألْسُن؛ ويحفَظْهم فى أنفسهم وبضائعهم، ويستنفِدِ الوُسْع فى دَفْع مَضَارِّهم وروَائعهم. ويعتمِدْ بَعْث رجاله علىٰ الاستعداد للجهاد، والتأهب لِقِراع الأضْداد. وينْتهِ إلىٰ الغاية فيما يُزِيل منهم اعتذارًا ويُزِيح اعتلالا، ويوجِبُ لهم الاقتدارَ علىٰ مكافَحَة عَدُوٍّ إن طرق الثَّغْرَ والعياذُ بالله تعالىٰ.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخة بولاية بَرْقةَ، وهى :

من حقِّ الأطراف المتناهية فى بُعْد أقْطارِها، والبلادِ الشاسعةِ عن ثَوَاء المَمْلَكة ومَحَلِّ استقرارها، التى انتظمَتْ فى سِلْك أعمال المملكة الناصريَّة وانخرطَتْ،

وآستدركَتْ مُعِدّاتُها لمن حوَتْه فوائتَ الفوائد التى سلَفتْ وفَرَطتْ ـ أن يُديم أكيدُ الآهتمام لها التحصينَ والتحْسين، ولا يُغبَّ أهلَها مايغشاهم من الملاحَظات مصْبِحين ومُمْسين ؛ وتُزْجِىَ لها سحائبُ كَرَم التعهُّد عِهادَه غَدَقا ، ويُعْمِلَ الأولياءُ فى حيِاطتها من الغُمود ألسِنةً ويُذْكُون دُونَها من القَنا حَدَقا ؛ ويفوّض أمورَهم إلىٰ مَنْ تخِفُّ علىٰ يده كُلْفَتهم، وتجتمعُ بحُسْن سيرته أُلْفَتُهم؛ ويشتَمِل من عنايته عليهم آشتمالَ الصدَفة علىٰ القُلوب، وتنيلُهم مهابتُه من كَفِّ عَدْوىٰ العِدا كلَّ مؤْثَر مطلوب .

ولما كنتَ أيُّها الأمير من أميز سالكِى هذه الطرائق ، وأمثلِ فُرْسان الحُروب وحُماة الحقائِق ؛ وأشْجَعِ المجاهدين فى الله حَقَّ جِهاده ، وأجْسَرِهم علىٰ إصلاء الشِّرك ضِرامَ فتكِ لايُخْشىٰ إصلادُ زِنَاده؛ ولك السياسةُ التى تُرتِّب بينَ الأُسُودَ والظِّباءِ آصطحابا، والخالِصةُ التى لاتُناجىٰ إذا وُصِفَتْ بالتغالى فيها ولا تُحابىٰ ـ خرج أمر الملك العادلِ بكَتْب هذا المنشورِ لك بما أنعَمَ عليك بولايتِه وإقطاعه : وهو بَرْقةُ بجميع أعمالها وحُقُوقها : من العقَبة الصُّغرىٰ وإلىٰ آخرِحدُودها، وبما أَمَر به كافَّةَ العُرْبان المقيمين بهذه البلاد، وجميعَ أهلها من حاضرٍ وباد : من الإعلان لك بشِعَار الطاعه، وصَوْن ما يلزَمُهم أداؤه إليك من فروض النُّصْح عن الإضاعه ؛ وأن يبذُلُوا فى موافقتك غايةَ الآجتهاد، ويعتمِدُوا من آمتثال مراسِمِك أحسَنَ آعتماد؛ ويحذَرُوا من العدول عن أمرك، ويجتنبوا مخالفة نَهْيك وزَجْرك .

فاستمسِكْ بحبل التقوىٰ الفائزِ من يعتصِمُ به ويتعلَّق، وآستشْعِرْ من خيفة الله ما يُشرِق لأجله عليك نُورُ الرِّضوان ويتألَّق، قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَّٱلَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ . وعامِلْ أهلَ هذه الولايةِ بالإنصاف، وإيَّاك ومكْروهَ العُدُول عن مَحَجَّة العدل والآنحراف؛ وتوَقَّ العَسْف بهم والحَيْف

عليهم ، وٱجتنب الترخيصَ لأصحابك فى مدِّ يدِ أحدٍ منهم بعُدْوانٍ إليهم ؛ وسِرْ فيهم سَيْرةً ترؤُف بهم وترفُق ، وجانِبْ سبيلَ من تقوم عنـده أسواقُ ٱختلاق المتخرِّصين وتَنْفُق ؛ ولا تخْرُجْ فى تدبير الأمور عن قانون الشَّريعه ، ولا تجعلْ لك إلىٰ فَوْز الآخرةِ عن تقديم العمَل الصالح من ذَريعه . وغُلَّ عنهم أيدىَ حاضرى المفسدين وباديهم ، وأَبِنْهـم بالمهابةِ عن إصرارهم علىٰ المنـكرات وتمـاديهم ؛ وَكِلْ بهم عَزْما رادعًا لهم وازِنا ، ونَكِّل بمن ظَفِرت به منهم تنكيلا يَزْجُر مَنْ يظَلُّ بحر الضَّلال نازعا . وشُـدَّ من خُلَفَاء الحـكم العزيز فى تنفيذ قضاياه ، وخُصَّهم من الكرامة بمـا تقتضيه إقامةُ مَنَـاره وإنارةُ مَزَاياه . وٱعتمِدْ مايُعيـد الحقائقَ بوجُوه ناضره ، ويردّ الأباطيـلَ بصَفْقةٍ خاسره . وراعِ أمورَ التُّجّار والحُجّـاج مراعاةً تشـمَلُهم فى السفَر والإقامه ، وتحميهم من تطرُّقِ ٱستهانةٍ إلىٰ أحد منهم وٱستِضامَه ؛ وطالِـع بما يتجدّدُ من أحوال خدمتك ، وما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك ؛ إن شاء الله عز وجلّ .

✦✦✦

وهذه نسخة بولاية الْفَرَما ، وهى :

نحنُ لمـا ضاعفَهُ الله لدَيْنَا من إحسانه وأَجْزَلَه ، وعدَقه بنا من تدبير أمورِ الخلْق وأسنده إلينا وَوَكَلَه ، نعتمد عبيدَنا بتوفير الرِّعاية لهم والإكرام ، ونُحافظ علىٰ مايغمُرهم من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فنقدِّم للخِدَم من خَطَبها بخلوص طاعته ، ونؤهِّل للرُّتَب من أبانت شِيَمُه عن خبرته ومناصَحته .

ولَمـا كنتَ أيُّها الأمير ممن ظهرَتْ مشايعتُه ومُوالاته ، وحسُنت فى مكافَحة الأعداء مشاهدُه ومَقَاماتُه ، ووضَحتْ فى أفعاله دلائلُ النُّصح وبانتْ عليـه سِمَـاتُه ؛ ولك مَسَـاعٍ مشكُوره ، ومواقِفُ مشهوره ، ومقاصِـدُ هى من مآثرك معـدودةٌ

وفى فضائلك مذكوره، رأينا ـ وبالله توفيقنا ـ استخدامك فى ولاية الفرما والجفار[(١)] : سكونًا إلى رضا مذهبك ، وثقةً بانتظام الحال فيما يُردُّ إليك ويُناطُ بك ؛ وخرج أمرُنا إلى ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلّ بتقليدك الولايةَ المذكورة وتضمينه ما نأمر به ونرسُمه، ممّا يَهْديك إلى الصواب فتتمسَّك به وتعكُف عليه وتلْزمُه .

فتقلّدْ ما قُلّدْته شاكرا على هذه النُّعمى، عاملا بطاعة الله تعالى ومراقبته فى السر والنجوى، واعتدّها زادا إلى الآخرة تطمئن به القلوبُ وتقوى، قال الله عز من قائل فى كتابه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ﴾ . واعتمدْ فى أهل هذه الولاية نَصَفَةً تعُمُّهم ومَعْدِله ، وسُنَّهم سياسةً تكون لسنَّة الخير مؤكّدة ولسُنَّة الجوْر مبدِّله . وماثِلْ فى الحق بين قَويِّهم وضعيفهم، ولا تجعل مزيّةً فى الواجب لشريفهم على مشروفهم ؛ وانتصِفْ للمظلوم من المتعدّى الظالم، واعمَلْ بالكتاب والسنّة فى الحدود التى تُقيمها على ذَوِى الجرائر والجرائم ؛ وانتصِبْ لحفظ الطُّرُقات، وصَوْنِ الصادرين والواردِين فى جميع الأوقات ؛ ونكّل بمن تظفَرُ به من المفسدين ، واجعله عِظَةً لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضِد النائبَ فى الحكم العزيز معاضدةً تقضى بإعزاز الجانب، وساعده مساعدةً تنفُذ بها أحكامُه على قضيةِ الواجب؛ وكذلك مُتولِّى الدَّعوة الهاديَّة فهى مِصْباح الزمان، وبإشادة ذِكره تَقْوى دعائمُ الإيمان؛ فاجتهِدْ فى تمييز متولّيها وإكرامه، وبلِّغْه فى ذلك غايةَ مطلوبه ومَرَامه . وتوفَّر على الشدّ من المستخْدَمين فى الأموال، وراعِ [ما يحسن] لدينا فيما تنظُر فيه من الأعمال؛ واحرِصْ على ماعاد بوُفُور ارتفاعها، وأجْرِ أحوالَها على أفضل رُسُومها وأوضاعِها؛ بحيثُ يكونُ العدلُ منبسطا منبثّا، والحَيْفُ منحسِما مستأْصَلا مجتثّا؛ وأجْمِل صحبةَ الرجال المستخْدَمين معك، وأحسِنْ معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدّة قرى ومن مدنها العريش والورّادة ورفح وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه، وآستنهاضهم فى الأمور الشاقّة المهمّه ؛ فاعلمْ هذا وآعمل به، وطالع بما تحتاج إلىٰ المطالعة به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة بولاية عَسْقلان، وهى :

من شِيَمِنا التى غدَتْ للصالح ضَوا من ؛ وعلَتْ فكُلُّ متطاول عنـدها مُتطامن ؛ وهِمَمِنا الكافلة [للرعيّة] بما يُقِرُّ عُيونَها، والقاضية للخاصّة والعامّة بما يوجب طُمأْنينَتَها وسكُونَها ؛ أنعَمْنا النظرَ فيا نَرْعاها به ونَسُوسُها، وأعملنا الفِكْرَ فيا يستقيم به أمرُها ويزولُ معه بُوسُها؛ فيقِف [بنا] الآجتهادُ فى ذٰلك علىٰ مَحَجّة الصواب التى لاضَلالَ فى سُلُوكها، ويُفْضِى منا الحرصُ إلىٰ غايةٍ لم يبلُغْها أحدٌ من مدَبِّرى الدول ومُلُوكها؛ فننتخب لخطير الخدَم من كان قَئُوما بهـا مستقِلًّا بآصارها، ونَنْتجِب لجليل الرُّتَب الأعيانَ من أمراء دولتنا وأنصارها؛ حِفْظا لمـا آستَحفظْناه من أمور العِباد والبِلاد، ورَفْعا لعِماد الصَّلاح وحَسْما لموادِّ الفساد .

ولَـمّـا كنتَ أيها الأميرُ من الأولياء الذين صفَتْ فى المخالصة ضَمائرُهم ، وحسُنَتْ فى الطاعة عقائدُهم وسرائرُهم؛ ونالُوا من نَبِيه الحظِّ ماأطنبَ الواصفُ فيا يذكره منه ويَرْويه ، وأحمَدُوا المناصحةَ فيا رَقَوْا فيه من دَرَج التنويه؛ وقد آستُكْفِيت مهمّاتٍ من الخـدَم فكفَيْت همَّها وخفَّفت ثِقْلَها ، وأُهِّلت لولايات سـنِيّة فحمَلْتَ كلَّها ، وكنت مستحِقًّا لها وأهلَها؛ فلك مَواتُّ حميدةٌ من حَسَنِ المقاصد ومشكورِ المَسَاعى، وحُرُمات أكيدةٌ ظلَّتْ علىٰ آصطفائك من أوْفَى البواعث وأقوىٰ الدّواعى ؛ وكانت مدينـةُ عَسْقلانَ ــ حماها الله تعالىٰ ــ ثغْرَ الإسلام الذى لا ثَغْرَله فى الشام سوَاه ، والرِّباطَ الذى مَنْ كان به فقـد نال الثوابَ الجزيلَ وأحرَزَه وحَوَاه؛ وهو فى عُيون الكفار ــ خذَلهم الله ــ نُكْتَه ، وأسبابُ طَمَعهم فيه منقطعةٌ بمحاماته منبَتّه ؛ ونحن

توفّر آهتمامنا عليه رعايةً لمكانه المكين ، وننتصى[1] الكُفاةَ لتولّيه توصّلا إلىٰ النّكاية فى المشركين ؛ وهو معْقِلٌ للسلمين المجاهدين وردٌ ، ومُجاوروه قوم لُدّ ، وأمرهم أمْرٌ إدّ ؛ فيجب أن يُرتادَ لضبطه النّدْبُ الذى لا تُهتَبل غِرّتُه ، ويُسامَ لحفظه العضْبُ الذى لا تُتّقَى ضرْبَتُه ؛ ويُختار لصونه الشهمُ الذى تقف علىٰ المصالح همّته ، وتنفُذ فيها عَزْمتُه ؛

وحينَ كانتْ هذه الصفاتُ فيك موجُوده ، وظلّت محسوبةً من خلالك معدوده ؛ رأينا ــ وبالله توفيقُنا ــ ماخرج به أمرُنا إلىٰ ديوان الانشاء من كَتْب هذا السجلّ بتقليدك ولايةَ هذا الثغر وضواحِيه ، وعملِه ونواحِيه ؛ ثقةً بمشهور مَضَائك ، وعلْمًا بإبرارك علىٰ نُظَرائك .

فتقلّد هذه الخدمةَ عارفًا قدْرَ ماخُوّلت منها ، وعاملا بتقوىٰ الله وخِيفَتِه فى جميع ماتأمُر به وتَنْهىٰ ؛ فإن تقواه الجُنّة الواقيه ، وإن خِيفَته الذّخيرةُ الباقيه ؛ وقد وعد اللهُ المتقين بتيسير الأمور ، وتكفيرِ السيآتِ وإعظام الأُجُور ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرا ﴾ . واستعمِل العدلَ فى جميع من يشتملُ عليه عَمَلُك ، ويجرِى عليه تولّيك ونظرُك ؛ وساوِ فى الحق بين الضعيف والقوىّ ، وماثِلْ فى الحكم بين القريب والقَصِىّ ؛ وإذا ثبت علىٰ شريفٍ حقٌّ فلا تُحابِه لرُتْبته ، وإذا ثبتَ لوضيع فخذه ممّن لزِمه وآستقرّ فى جِهَته .

وآعتمِد من الأمر بالمعروف والنّهيِ عن المنكر ما يَستَنْطق بالثناء عليك ألْسنةَ المادحين ، وينظمُك فيمن عَنَاهم الله تعالىٰ بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ

(١) فى القاموس وغيره «آنتصيت» أى بالصاد المهملة «الرجل آخترته» فتنبه .

ويَأْمُرُون بالمَعْرُوف وينْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ويُسَارِعُونَ فى الخَيْرات وأُولَئِكَ من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِم الحُدود علىٰ مَنْ لزِمتْه بما أمر اللهُ به إقامةً [تجرى بها] مَجْرَاها ، وتوَقَّ الزيادة فيها والنقص توقِّيَ من يتمثَّلُ المُجازاةَ كأنه يَرَاها . وهذا الثغر لمحلِّه وسُمُوّ مِقْدارِه ، وقُرْب العَدُوّ منه ودُنُوّ داره ؛ لا يُقْنَع له بمركزيّته ، ولا يُكتفىٰ فى حقّه بمرابِطيَّته وقَراريَّته ؛ فنحن نُسَيِّر إليه العساكر المُظَفَّرة دَفْعتين فى كل سنَة علىٰ حُكْم البَدَل : فيرِدُه عسكر جديدٌ مُزاحُ العلة ، كثيف العُدّه ، وافر العِدّه ؛ يؤثر أن يَظْهر أثرُه ، ويحافظ علىٰ ما يطيب به ذكره وخَبَرُه ؛ فَبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات ، وضيِّق علىٰ العدوّ فسيحَ النَّواحي والجِهات ؛ وجهِّزْ إليه من يُخيفه فى مَأمنه ، وٱبعثْ عليه من يَطْرُقه فى أحْرز أماكِنه ؛ وانْدُبْ من يطالِعُك بخفيِّ أخباره ، ويظهرُ لك باطنَ أموره ومستورَ أسراره : لتنتهزَ فيه الفُرصةَ إذا لاحتْ مَخايِلُها ، وتبادرَ الغفلةَ منه إذا ظهرَتْ دلائلُها . وٱجعل للمتطوّعين من الكِنَانيِّين نصيبا من ثواب الجهاد ، وٱحمِلْهم علىٰ ٱستفراغ الوُسْع بغاية الحِرْص والٱجتهاد ؛ وٱفعلْ فى هذا الباب ما تَتضاعفُ به مَوادُّ الأجْر ، وتنتسِخ به الأوزارُ كما ينتسِخُ الظلامُ بضياء الفَجْر ؛ وٱعضُدْ متولِّي الحكم العزيز عَضْدا يُعْلِي أمرَه ، ويَشُدّ أزْرَه ؛ ويحرُس نظامَه ، وينفِّذ قضاياه وأحكامَه ؛ وكذٰلك متوَلِّي الدعوة الهادية - ثبتها الله تعالىٰ - فاعتمدْه بما يشرح صدرَه فيما يوضِّحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتديِّنين ؛ ووَفِّر موفَّرَ ٱهتمامك علىٰ مرافدة من يتولّىٰ أمرَ المال وما يجرى فى الخاصّ لتَدِرّ أخلافُه ، ويزكو ٱرتفاعُه ، وتغْزُرَ مادّته ، ويتوفَّرَ مستخْرَجه ؛ ويحتَمِيَ من خيانةٍ وتحيُّف ، ويسْلَمَ ٱستيداؤُه من تريُّث وتوقُّف . وٱستنْهِض الرجالَ المستخدَمين فى الأمور السَّوانح ، وصَرِّفهم فيما ترىٰ تصريفَهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ؛ وٱستمطِر

الإحسانَ لمن أحمدْتَ طريقتَه ، وقوِّم بالتأديب من ذَممت فعله وكرِهتَ سَيْرتَه ؛ فاعلم هذا وآعملْ به ، وطالع بما يُحتاج إلىٰ المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله عز وجل .

⁂

ومن المكتتَب بالوظائف الديوانية من هذه المَرْتبة نسخةُ توقيع بنظر الدَّواوين ، وهى :

أحقُّ الأعمال بأن يُنْعَمَ فيها النظرُ الشافى ، ويُنْدَبَ لحمل عِبْئها الأمينُ الكافى ، ويُجَالَ النظرُ فى تقليدها للقَيِّم بأمرها ، ويُعمَلَ الرأىُ لآرتيادِ القوىّ علىٰ ضبطها وحَصْرها ، ما كان منها جامعًا لمَصَالح الدولة ، حائزًا لمَهامّ المملكة : وهى أعمال الدِّيوان ، والنظرُ فى حفظ وُجُوه الأموال وما يُعين علىٰ آستثمائها ، ويعودُ بالزيادة فى أصول أبوابها ؛ إذ كان ذٰلكَ مِلاكَ الأمور ، وزِمامَ التدبير فى حِفْظ الجُمْهور ، والمَعُونةَ العُظمىٰ علىٰ الآستكثار من الرجال الذين بهم يتمُّ حفظُ البلاد وحمايةُ الثُّغُور .

ولمَّا سَلَّطْنا البحثَ علىٰ آستصلاح من نؤهِّله لهذه المنزلة ، وآستخلاص من نُحِلُّه بهذه المرتبة ، أدّانا الآختبارُ والآنتقاد ، وآنتهىٰ بنا الآعتيامُ والآرتياد ، إلىٰ آختيار الشيخ فلان : حينَ سَفَرتْ له النَّباهةُ فى الكِفايَة ، والوَجَاهةُ فى الخِبْرة والدِّرايه ؛ وجب ... ...[1] علىٰ آختصاصه بالفَضْل الذى تحلَّىٰ بأدَبه ، والعَفَاف الذى آشتَهر من مذهبِه ؛ من الخِصال الحميده ، والخِلال الرَّشيده ؛ والفضائلِ الموروُثة والمكتَسَبه ، والخلائقِ المُنْتقاة المهَذَّبه ؛ ورأيناه أهلا لإحْلال هذه المَكانه ، وعَدْلا قَيِّما باحتمال هذه الأمانَه ؛ وعلِمْنا أن الصنيعةَ عنده زاكيةُ المَغَارس ، والنعمةَ المُفاضةَ عليه ضافيةُ المَلَابس ؛ فقلَّدناه أمر الديوان بحَلَبَ وما معها من البلاد المضافة إليها

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلة فى حكمها : قاصى ذٰلك ودانيه ، وأواسطه وحواشيه ؛ مقدمين الاستخارة فيما نبديه من قول ، ونعزم عليه من فعل .

وأمرناه أن يستشعر تقوىٰ الله سبحانه فإنها الجنة الواقيه ، والذخيرة النافعة الباقيه ؛ ويعتلق أسبابها فإنها المنجية من المهالك ، الهادية إلىٰ السبل الواضحة إذا اشتبهت المسالك ؛ محققا ماتوسمناه فيه من مخايل الأصاله ، ودلائل الجزاله ؛ مصدقا ما استلمحناه من كفايته وغنائه ، واستوضحناه من استقلاله واستقصائه . وأن يبدأ فيرتب فى كل معاملة أمينا من الثقات الكفاه ، مشهودا له بالنهضة والأمانة المستوفاه . وأن يزم الأعمال القاصية والدانيه ، والبلاد القريبة والنائيه ؛ بالضبط المستقصى ، والحفظ المستوفى ؛ وبمن يرتبه عليها من الكتاب الأمناء ، ويستصلحه لها من الحفظة النصحاء . ويتتبع حال من بها من النواب : فمن شهدت له التجربة بالكفاية ، ودل الاختبار منه علىٰ العفة والأمانة ، استدامه فى خدمه المنوطة به ، وطالع من حاله بما يقضى له حسن النظر بحسبه ؛ ومن ألفاه متنكبا سبيل الأمانه ، مقارفا طريق العجز والخيانه ، بادر إلىٰ الاستبدال به ، وعجل قطع ما بينه من الخدمة وبين سببه . وأن يسترفع البواقى من الأموال ، فى سائر الجهات والأعمال ، إلىٰ آخر التاريخ الذى تليه مباشرته ، ويتصل بآخره مبدأ نظره وفاتحته ؛ موشحة أوراق ذٰلك بخطوط الأمناء ، مفصلة جهاته بأسماء المعاملين والضمناء ؛ حتى إذا حملت إليه ، وصارت حجة علىٰ رافعها فى يديه ؛ طالبه بموافقة من هو فى ذمته ، وتقدم بعد تصديقه علىٰ ذٰلك بمضايقته بعد المطالعة بجلى الحال وحقيقته . ثم يسترفع من مستوفى الديوان وعماله شروط الضمان ورسومهم ، وقواعدهم فى الضمان وعوائدهم : ليكون علم ذٰلك عنده مبينا ، ووقت مساس[1] الحاجة إليه حاضرا . ويطالب بجرائد الضياع خاصها ومقطعها المشتملة علىٰ ذكر رسومها وحقوقها ؛ وعدد فدنها

(١) الأولى بل الصواب مسيس الحاجة .

ومَقَاسِها . وجرائدِ الخَـرَاج اللازمِ لأرباب الأملاك علىٰ أملاكهم، وتحقيق المصفُوح عنه والمسامِحَ به والباقى علىٰ الأداء فى جهته . وجرائدِ الجزية مفصّلةً فى نواحيها، وأسماء أربابها إلىٰ حينِ رفْعها ــ وأن يطالب نوّابَ الجزية فى كل شهر بختمة تتضمّن ذكرَ مَصَارف مايُحوّل إليهم، وإقامة وُجُوه المال الذى جُمِع عليهم؛ مفصّلة مميِّزة الابتياعات عن الإطلاقات، والضِّيافاتِ عن السُّفرات والإصطبلات؛ وكذٰلك نوّابُ الأهراء يسترفع منهم مايدُلُّ علىٰ مثل ذٰلك، وسائرُ المتولين فى سائر الخِدَم يطالبهم بهذه المطالبه، ويضيِّق عليهم فى مثل ذٰلك سبيل المغالطة والموارَبَه؛ ويجعل مؤاخَذَتَهم بذٰلك من الأمور الراتبَه، والوظائفِ اللازمةِ الواجبه؛ حتّى يتبيّن له الكافى من العاجز، والأمين من الخائن .

ولْيتأمّلْ وجوهَ الإخراجات، ومبلغَ الإطلاقات والإدْرارات؛ ويسترْفِعْه من مظانّه مفصَّلا بجهاته، منسوبًا إلىٰ أربابه؛ ويتقدّم بكتْب مؤامرةٍ جامعة لذٰلك التفصيل، دالة على المقدار المطلق فى كل سنة محكِّم النظر الدقيق دونَ الجليل؛ وليعتمِدْ فى إطلاق ما يُطْلَق منها علىٰ سبيل ما يوقع به عند ذٰلك، وليكن هذا من الأمور الجارية علىٰ العادة والرسم، ويلزمه كلٌّ من نُوّاب الديوان .

❖

ومن المكتتب منها بالوظائف الدينية نسخةُ تقليدٍ بولاية الحِسْبة، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير، وهى :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمرٌ يشتمل علىٰ معنىٰ الخصوص دونَ العُمُوم ، ولا يختصُّ به إلا ذوو الأوامر المُطاعة أو ذوو العُلُوم؛ وقد منَحَنا اللهُ هذين الوصفين كِلَيْهما، وجعلَنا من المستخلَفين عليهما .

فلنَبدأْ أوّلا بحمده الذى هو سبب للمَزِيد، ثم لنأخُذْ فى القيام بأمره الذى هو علىٰ كلِّ نفس منه رقيبٌ عَتِيد؛ ولا ريب أن إصلاحَ العِبـاد يسْرِى إلىٰ الأرض حتّى تزكُوَ بطُونُها، وتَنْمُوَ عُيونُها، ويَشترِكَ فى بركات السماء ساكنُها ومسكونُها ؛ والأمرُ بذلك حِمْل إن لم تتوزّعْه الأكُفُّ ثقُل علىٰ الرقاب ، وإذا ٱنتشرتْ أطرافُ البـلاد فإنها تفتقرُ إلىٰ مساعَدةٍ من مستنيب ومستَنَاب ؛ وقد ٱخترنا لمدينة كذا رجلا لم نألُ فى ٱختياره جُهْدا ، وقدّمنـا فيه خِيرةَ الله التى إذا صدقتْ نيّتُها صادفَتْ رُشْـدا ؛ وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسُـطْ يدَكَ [بقوّة] [1] إلىٰ أخذِ هذا الكتاب ، وكُنْ حسنةً من حسَناتنا التى ثَمَّ يرجَح بهـا ميزانُ الثواب ، وحَقِّق نظرَنا فيـك فإنه من نُور الله الذى ليس دُونَه من حجاب .

وٱعلَمْ أنَّ أمر الشريعة مبنىٌّ علىٰ التيسير لا علىٰ التعسير؛ ولا يضَعُ اللسانَ موضعَ السوطِ إلا من أُوتِى زيادةً فى التفسير ؛ وفى سـنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم منْـدُوحةٌ لمن لزِمها ، وهى هدًى لمن عمِل بها ونورٌ لمن علِمها ؛ ويكفى من ذلك قصـةُ الأعرابىّ الذى أتَىٰ حاجتَه فى المسجد فسارع الناسُ إليه، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّمـا بُعِثْتُم ميسِّرِين ولم تُبعثُوا مُعَسِّرِين ، ثم دعا بذَنُوبٍ من ماء فصبَّه عليه وقال : ياأخَا العَرَب إنَّ المساجدَ لم تُوضَعْ لشَىْء من هَذَا وإنمـا وُضِعَتْ للصَّلاة وقِراءة القُرْءان» .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظرْ إلىٰ هذا الرِّفق النبوىّ الذى شَفىٰ وَكَفىٰ ، وعَفَّىٰ علىٰ أثر المعصية لَمَّا عَفَا ؛ ولو عاد ذٰلك الأعرابىّ لمثلها لنُقِل عن لين التهذيب ، إلىٰ شدّة التأديب ؛ وكذٰلك فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْتَ عنه ، ومَنْ عادَ فيَنْتَقِمُ اللهُ منه .

ونحن نأمُرك أن تحتسب أوّلا بلين القول لا بالأنَف [و] النكير ، وأن تترفّق فى الموعظة التى هى طريق إلىٰ الخشية والتذْكير ؛ وأن لا تكون باحْتسابك مُدِلًّا بأنّك علىٰ الصراط المستقيم ، وأن الناس بيْنَ يديك علىٰ سَنَن التثقيف والتقويم ؛ فإن من أكبر الذنوب ذنبَ الإعجاب ، والأَوْلىٰ لك حينئذٍ أن تعودَ علىٰ نفسك بالاحتِساب ؛ ومن أَدَبك وأَدَب أمثالك أن يقف فى أمْرِه بالمعروف مع التقْوىٰ لامع هَوَاه ، وأن لا يُفرِّق فى إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحدٍ سواه ؛ وإذا كنت كذٰلك قَرَنك الله بمَنْ أنزل السكينةَ علىٰ لسانه ويده ، وقوّم له أَوَدَ الناس لتقويم أَوَدِه ، والله ينظُر إلىٰ قَلْب ابنِ آدم لا إلىٰ عَمَله ولا إلىٰ جَسَده . وعليكَ بالمجاهدين الذين سُلِب عنهم ثوبُ العافيه ، ومَن اختفىٰ منك بالاستتار فلا تكْشفْ عن حاله الخافِيَه . وأما ذَوو الهيئات فإنَّ عثَراتِهم تُقال ، وأعراضَهم لاتُذَال ، ولرُبَّما كان التجاوُزُ عنهم داعيا إلىٰ الانتقال ؛ وفى قصة أبى مِحْجَنٍ وسعْد ماينبِّئك أنَّ الحياء أغنىٰ فى الازْدِجار ، وفى الناس أذنابٌ لا قَدْر لها تَذُبُّ عنه ورُءوسٌ تَذُبُّ عَمَّا لها من الأقدار . وهاهنا من ضَروريّات الوصايا مايُؤْتىٰ فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثَرُ ذٰلك يدُور فى المعاملات التى ألِفَها قومٌ دون قوم ، واستمَرّوا عليها يومًا دُونَ يوم ؛ وقد أتىٰ منها ما اتَّفَق علىٰ العمل به كلُّ فريق ، وأيسرُ ذٰلك إزالةُ النُّخامة من المسجد وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق .

(١) فى القاموس احتسب عليه أنكر ومنه المحتسب .

وهذه الوصايا كلُّها لا تفتَقِر فيها إلىٰ التوقيف ، وأنت عالمٌ بوضع كَلِمها فى مواضعه وغيرُك الذى يتعدَّى إلىٰ التحريف ؛ فامض علىٰ السَّنَن ، وأْتِ بالحسَن ؛ وسوِّ بين حالتَيْك فى السِّرِّ والعَلَن ، وكُنْ من خوف الله ورجائه بين رِحْلةِ سفَر وقَرارةِ وطَن . وهذا عهدُنا إليك تتقمَّص اليومَ منه رِداء جميلا ، وستَحْمِل غدًا منه عِبْئًا ثقِيلا ؛ وقد فَرَضْنا لك عن حقِّ سعيك فريضةً تجدُ بها كَفَافا ، وتمنعُك أن تمدّ عينيْك إلىٰ غيرها ٱستِشْرافا ، فإنَّ العملَ الذى تولَّيته يستغرق أوقاتَك أن تكون للدنيا كاسبَة ، وتَشْغَل نفْسَك بالعمل والنَّصَب لا أن تكون عاملةً ناصِبه . وإذا نظرت إلىٰ ما نِيطَ بك وجدْتَه قد ٱستحصىٰ الزَّمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة البانِى وقواعده : « وكُلُّ بِنَاء علىٰ قدْر بانيه وما شاد » . ونحن نأمرُ وُلَاتنا علىٰ ٱختلاف مراتبهم أن يرفعوا من قَدْرك ، ويَسدِّدُوا من أمرِك ، وإذا ٱستَوْعَرَ عليك أمرٌ من الجوانب سَهَّلوا من وَعْرك ؛ والله قد أمر أهلَ طاعته بأن يكون بعضُهم لبعض من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وٱلتَّقْوىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلىٰ الْإِثْمِ وٱلعُدْوَان ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ماعليه مصطلح كُتّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يُكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع ، على ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة][1] مقاصد)

المقصد الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، وفيه مَهْيَعان)

المهيع الأوّل

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدّم فى أوّل الكلام على العُهود أنّ السلطنة فى زماننا دائرةٌ بينَ إمارة الاستيلاء : وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ على بلاد ويُفوّض إليه تدبيرها فيستولى عليها بالقوّة ، وبينَ وِزارة التفويض : وهى أن يستوزر الخليفةُ من يُفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وفصْلَها على اجتهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه ، على ماتقدّم بيانُه هناك . وقد صرح الماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كَمَل فى المستولى على الأمر بالقوّة بعد تولية الخليفة له مع اشتماله على الصفات المعتَبَرة فى المولّى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسلامُ ، والحرّيّة ، والأمانةُ ، وصِدْق اللّهجة ، وقِلّة الطمع ، والسلامةُ من الميل مع الهوى ، والبراءةُ من الشَّحناء ، والذّكاءُ ، والفِطْنة ـ جاز له ما يجوزُ للخليفة من توليةِ وزارةِ التفويض وغيرِها من سائر النّيابات ، وجرى على من استوزره أو استنابه أحكامُ من استوزره الخليفةُ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو آستنابه؛ وان لم يستكمل الصِّفَاتِ المعتبرةَ فى الولاية الصادرةِ عن آختيار الخليفة، آستنابَ له الخليفةُ لكل وِلاية من تتكامَلُ فيه شروطُها .

قلت : وقد كانت ملوكُ بنى بُوَيْه و بنى سَلْجُوقَ مع غَلَبتهم علىٰ أمر الخلفاء ببغداد وآستيلائِهم يقتصرون فى تصرُّفهم علىٰ متعلَّقات المُلْك فى الجهاد والتصرّف فى الأموال ، و يكلُون أمر الولايات إلىٰ الخليفة يُباشرها بنفسه، وتكتَبُ عنه العهودُ والتقاليدُ علىٰ ما تشهد به نُسَخُها الموجودةُ من إنشاء الصابى وغيره ـ وكذٰلك الخلفاء الفاطميُّون بمصر عند غَلَبة وُزَرائهم علىٰ الأمر من لَدُنْ خلافة المستنصِر و إلىٰ آنقراضِ خلافتهم من الديار المصرية، كالصالح طَلاَئِع بنِ رُزِّيك(١) فى وزارته للفائز والعاضد ، ونحو ذٰلك : فإنَّ الخليفة هو الذى كانت الولاياتُ تصْدُر عنه تارةً بإشارة الوزير، وتارةً بغير إشارته ، علىٰ ما تشهد به نسخُ السِّجِلَّات المكتتبة فى دَوْلتهم ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفصل الأوّل من هذا الباب . علىٰ أنَّ أصحابَنا الشافعيةَ وغيْرَهم من أئمة الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قد صَحَّحوا الإمامةَ بغلبة الشوكة والآستيلاءِ علىٰ الأمْرِ بالقهر دُونَ آستكمال شروط الإمامة ، تصحيحًا للأحكام الشرعية الصادرةِ عن المستَوْلِى بالشوكة : من العُقُود والفُسوخ وإقامة الحُدود وغيرها، علىٰ ماهو مذكور فى باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميعُ الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعا و إن لم يستَنِبْه عنه الخليفةُ ؛ وكذٰلك ما يترتَّب عليها ، علىٰ ما الأمر جارٍ عليه الآنَ .

---

(١) ضبطه المجد فى قاموسه فقال «كقبيط» . ونُقِل عن الحافظ آبن حجر ضبطه بكسر الزاى وصوبه شارح القاموس و به ضبطه آبن خلكان فى تاريخه .

المَهْيَع الثانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وآعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاةُ أمور .

الأمر الأوّل — براعةُ الآستهلال بذكر آسم المولَّى أونعته أو لَقَبه أو الوظيفة، أوحالِ الولاية، مع آستِصْحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخُطْبة ونحوها من الآفتتاحات، كما أشار إليه الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبيُّ رحمه الله فى كتابه "حُسْن التوسل" كما تقدّم ذكره فى الكلام على البَيْعات والعُهود .

الأمر الثانى — مراعاة قَطْع الورق فى الجملة لكلّ مايُكتَب من ديوان الإنشاء من المكاتباتِ والولاياتِ وغيرِها . والذى يختص بهذا المكان ذكْرُ مقاديرِ قَطْع الورق فيما يتعلّق بهذه الولايات خاصّة، وهى خمسة مَقاديرَ: — أحدُها قَطْع الثلثين، ويختصّ فى الولايات بكِبَار التقاليد دُونَ غيرها — وثانيها قَطْع النِّصف، وفيه تُكتَب صغارُ التقاليد، والمَراسِيمُ المُكَبَّرة، والتفاوِيضُ، وكِبارُ التواقيع — وثالثها قَطْع الثلُث، وفيه تُكتَب صغارُ المراسيم المكبَّرة، والتواقيعُ المتوسطةُ — ورابعها قَطْع العادة المنصوريّ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى لأصحابها بعضُ ميزةٍ لا تنتهى بهم إلى رُتْبة قَطْع الثُّلث — وخامسها قَطْع العادة الصغيرُ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفةُ ما يناسِب كلَّ قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدّم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" ما لكلّ مِقْدار من الأقلام . والمتعلّق بهذا الموضع من ذلك أنّ لِقطع الثلُثين قَلَمَ الثلث الثقيل، ولقطع النصف قَلَمَ الثلث الخفيف، ولقَطْع الثلث قَلَم التوقيعات، ولقطع العادة مُطْلقا قَلَمَ الرِّقاع .

الأمر الرابع — معرفةُ اللَّقب المطابِق لرتبــة كلِّ ولايةٍ وصاحبِها من الألقاب الأصولِ المتقدِّمِ ذكرُها فى الكلام علىٰ الألقاب من المقــالة الثالثــة . وهى المَقَرّ، والجَناب، والمجلسُ، ومجلِسُ كذا علىٰ الإضافة؛ وما يُنــاسِب كلَّ لقَب من هــذه الألقاب من الفروع المرَتَّبة عليها، كوصف المَقَر بالــكريم العالى، ووصف الجناب تارةً بالــكريم العالى، وتارة بالعالى مجرَّدا عن الكريم، ووصف المجلس تارةً بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب الســيوف إلىٰ الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حقِّ أرباب الأقلام من العُلَماء وأصحاب الدواوين إلىٰ القاضى فيقال : مجْلِس القاضى ، وفى حقِّ الصُّلَحاء إلىٰ الشيخ فيقال مجلِسُ الشــيخ؛ وانَّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصَّــدْر ويُوصَف بالأجل فيقال الصَّدْر الأجلُّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتّٰى تترَتَّب عليه . وتقــدّم أيضا فى المقالة الرابعــة فى الكلام علىٰ المكاتباتِ الصادرةِ عن الأبواب السلطانية بالدِّيار المصرية فى زماننا إلىٰ أهل المملكة مكاتبــةُ كل واحدٍ ممَّن جرتِ العادةُ بالمكاتبــة إليه، وما يختصُّ به من الألقــاب الأصُولِ والفُروع .

واعلم أنَّ الولاياتِ أعَمُّ من المكاتَبَات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مُكاتَبة، إذ المكاتَبَات إنمــا تكون لقومٍ مخصوصين من أرباب الوِلايات . إذا عُلِم ذٰلك فكلُّ من له مكاتَبــة عن الأبواب الســلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام ممن تقــدّم ذكره فى الكلام علىٰ المكاتَبــات إذا كُتِبتْ له ولايةٌ نُعِت بألقابه ونُعُوته التى بها يُكاتَب عن الأبواب السلطانية، إلا أنَّ الدعاء المصدَّرَ به المكاتبةُ يجعل فى الآخِر دُونَ الأوّل : فاذا كانت المكاتبَةُ إلىٰ أحدٍ «أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم» قيــل فى ألقابه فى الولاية « المَقَرّ الكريم » إلىٰ آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعز الله تعالىٰ أنصاره، وكذٰلك فى البواقى . أمَّا من لم تجْر

العادة بمكاتبة إليه عن الأبواب السلطانية ممن يُولّى عنها فإن لكل طبقة ألقابًا تخصهم . ونحن نذكر الألقابَ الأصولَ وما يتفرّع عليها لكلّ طبقةٍ من كل طائفة على الوضع الذى تقتضيه الولاياتُ دُونَ المكاتبات، ليُجْرَى كلٌّ من أرباب الولايات على ما يُناسبه من الألقاب .

وقد علمتَ فيما تقدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة[1] أنواع :

النوع الأوّل — ألقاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تِسعُ مراتبَ :

المرتبة الأولى — المقرُّ الكريمُ مع الدعاء بِعزّ الأنصار، وهى : المَقَرُّ الكريمُ، العالى، الأميرىُّ ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ، الغِياثىّ ، المُثاغِرىّ، المُرابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأَتابَكىّ ، الكفيلىّ ، الفلانىّ، معزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ أمراء العالَمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك، عمَاد المِلَّة، عونُ الأمة ، ظهيرُ المُلوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزَّ الله تعالى أنصارَه .

المرتبة الثانية — الجنابُ الكريمُ مع الدعاء بعزّ النُّصْرة، وهى : الجنابُ الكريم، العالى، الأميرىُّ الكبيرىّ العالِمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ، العَونىّ، الغِياثىّ، المُثاغرىّ، المُرابطىّ، الممهِّدىّ، المشيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ، عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جُيوش

(١) المعدود ستة فتنبه .

الموحِّدين ، مقدَّم العساكر ، ممهِّد الدُّول ، مشيِّدُ الممالك ، عمادُ المِلّة ، عونُ الأمة ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان) أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرتَه .

المرتبة الثالثة ــ الجنابُ العالى مع الدعاء بمُضاعفة النِّعمة ، وهى : الجنابُ العالِى ، الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَونِىّ ، الزعيمىّ ، الممهِّدىّ ، المشَيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عمادُ المِلّة ، عون الأُمّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ السلطان) ضاعَفَ الله تعالىٰ نعمتَه .

المرتبة الرابعة ــ الجنابُ العالى مع الدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : الجنابُ العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىُّ ، المؤيِّدىّ ، الأوْحَدىّ ، النَّصيرىُّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلّة ، ذُخْر الدَّوْلة ، عَمَادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نعمَتَه .

المرتبة الخامسة ــ المجلس العالى والدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : المجلس العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الأَوْحدىّ ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كهفُ المِلّة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسَام امير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه .

المرتبة السادسة — المجلس السامىُّ بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى : المجلس السامىُّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النّصيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيّدىّ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، شرَفُ الأمراء ، ذُخْر المجاهدين ، عضُدُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى ، أدام الله تأييدَه .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء ، والدعاءُ أدام اللهُ رِفعته ونحو ذلك ، وهى : المجلس السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيَّد ، الأوحدُ ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عمدةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلسُ الأمير ، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه ، وهى : مجلس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيَّد ، الأوحد ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عُدّةُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى ، أدام الله سعْدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجرّدا عن المضاف إليه ، وهى : الأميرُ ، الأجلُّ ، وربّما زيد فيه فقيل الكبير ، المحترَم ، ونحو ذلك .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية ، وهى على ستّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجناب العالى مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة . وفيها أسلوبان :

الأسلوب الأوّل — ألقاب الوزير وهى : الجناب العالى ، الصاحبىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، الأوحدىّ ، الأكملىّ ، القوامىّ ، النِّظامىّ ، الأثيرىّ ،

البَليغىّ، المنفِّذى ، المسدّدىّ، المتصرِّفىّ، الممهِّدىّ، العونِىّ، المُدبِّرىّ، المُشيرىّ، الوزيرىّ ، الفلانىّ ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالَمين ، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، أوحدُ الأصحاب، مَلاذُ الكُتّاب، قِوَام الدُّول، نظامُ المُلْك، مُفيد المَنَاجح ، معتَمَد المصالح ، مُرَتِّب الجيوش ، عِمادُ المِلة ، عونُ الأمّة، مُشير المُلوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه .

الأسلوب الثانى — ألقاب كاتب السرّ، عند ما آستقرّ ما يكتب له تقليدا فى قَطْع الثلثين ، وهى : الجنابُ العالى، القاضَوِىّ، الكبيرىُّ، العالمىّ ، العادلىّ، العَلّامىّ، الأفضَلِىّ، الأكْملىّ، البليغىّ، المسدّدىّ، المنفِّذىّ، المشيِّدىّ، العونِىّ، المُشيرىّ ، اليَمينىّ ، السَّفيرىّ ، الأَصيلىّ ، العَريقىّ، الفلانىّ ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قدوةُ العلماء العامِلين ، جمالُ البُلَغاء ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْف الكُتّاب ، يمينُ المملكة، لسانُ السَّلْطنة ، سفيرُ الأُمّة، سَليلُ الأكابر، مُشير الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمته .

قلت : وقد كان رتبتُه : المجلس العالى عند ما كان يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النِّصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالى مع الدُّعاء بدَوَام النعمة، وفيها أربعة أساليبَ .

الأسلوب الأوّل — ألقابُ كاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى كتابة توقيع فى قَطْع النصف ، ويُدْعىٰ له : أدام الله نعمتَه، وهى : المجلسُ، العالى، بالألقاب المتقدّمة له مع الجناب العالى، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ .

الأسلوب الثانى — ألقاب ناظر الخاص، وهى: المجلس العالى القاضوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدىّ، الأكملى، الرّئيسىّ، البليغىّ، البارعى، القوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المنفّذىّ، المسدّدىّ، المتصرّفى، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قِوامُ المصالح، نِظام المَناجح، جَلَال الأكابر، قُدوةُ الكُتّاب، رئيسُ الأصحاب، عِمادُ الملة، صَفْوة الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمته .

الأسلوب الثالث — ألقاب وزير دِمَشْق إذا صُرِّح له بالوزارة، وهى : المجلس العالى، الصاحِبىُّ، الوزيرِىّ، الأَجَلىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيّدىّ، الأوحدىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المُشيرىّ، الفلانىّ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الوزراء فى العالمين، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، بقية الأصحاب، مَلَاذُ الكُتّاب، عِمادُ المِلة، خالِصة الدولة، مشير الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتَه .

الأسلوب الرابع — ألقاب ناظر النُّظّار بالشام، إذا لم يكن وزيرا، وهى : المجلس العالى، القَضَائِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الأوحدىّ، الرّئيسىّ، الأثيرىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، المنفّذىّ، المتصرّفىّ، الفلانىّ : مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفُضَلاء، جلالُ الكُبَراء، حُجّة الكُتّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتَه .

المرتبة الثالثة — المجلس الساميّ بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ، وهى : المجلس الساميُّ ، القَضَائىّ ، الأَجَلّىّ ، الكبيرىّ ، العالِىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الرئيسىّ ، الأَوْحدىّ ، الأَصيلىّ ، الأَثيرىّ ، البَليغىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام ، شرفُ الرؤساء فى الأَنام ؛ زَيْن البلغاء ، جمالُ الفُضَلاء ؛ أوحدُ الكُتَّاب ، فخر الحُسَّاب ؛ صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى رِفعتَه .

فإن كان من كتّاب الإنشاء ، أسقط منه « فخرُ الحُسَّاب » .

المرتبة الرابعة — السامِى بغير ياء ، مع الدعاء بدَوام الرِّفعة ونحوه أيضا ، وهى : المجلس السامِى ، القاضِى ، الأَجَلُّ ، الكبيرُ ، الصَّدْر ، الرئيسُ ، الأَوْحَد ، البارعُ ، الكاملُ ، الأصيلُ ، الفاضِلُ ، فلان الدين ؛ جمالُ الإسلام ، بهاءُ الأَنَام ؛ شرفُ الأكابر ، زَيْن الرؤساء ، أوحدُ الفُضلاء ؛ زَيْنُ الكُتَّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلِسُ القاضى ، وهى : مجلس القاضى ، الأجَلّ ، الكبير ، الفاضِل ، الأَوْحد ، الأَثير ، الرَّئيس ، البليغ ، العريق ، الأصيل ، فلان الدين ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، زَيْن الكتّاب ، مُرْتضَى الملوك والسلاطين ، أدام الله رِفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضِى الأَجَلُّ . ورُبَّما زيد فى التعظيم الصَّدْر ، الرئيسُ ، الكبيرُ ، ونحوُ ذلك .

النـــــوع الثـالث

(ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية ـ وهى أيضا على ستّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجنابُ العالى ـ وهى لمَن آستقرّ له كتابةُ تقليدٍ فى قَطْع الثلثين من قُضاة القُضاة بالدِّيار المِصْرية وهو الشافعىّ؛ وهى : الجنابُ العالى ، القاضَوِىّ ،الشَّيْخِىّ ،الكبِيرِىّ ، العالِمِىّ ، العامِلِىّ ، الأفضَلِىّ ، الأكملىّ ،الأَوْحدىّ ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدىّ ، المُفِيدىّ ، النَّجِيدىّ ، القُـدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقِىّ ، الوَرَعِىّ ، الخاشعىّ ، الناسِكِىّ ، الإمامِىّ ، العَلَّامىّ ، الأَصِيلِىّ ، العَرِيقِىّ ، الحاكِمِىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلمــاء العاملين ، أوحَدُ الفضلاء المُفِيدين ، قُدْوة البلغاء ، حُجَّة الأمَّة ، عمدةُ المحقِّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتى المسلمين ؛ جلالُ الحُكَّام بركةُ الدولة ، صَدْر مصرَ والشام ؛ مُعِزُّ السنّة ، مؤيِّد الملة ؛ شمسُ الشريعــة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ المتكلمين ، حَكَم الملوكِ والسـلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنــين ؛ فلان (بنسبه) أعز اللهُ تعالى أحكامَه .

وكذٰلك قاضى القُضاة الحنفىُّ بالديار المصرية عند ما آستقرّ المكتوبُ له تقليدًا .

المرتبة الثـانية — المجلس العالى ؛ وبهـا كان يُكتب لقاضى القُضاة الشافعىّ قبل أن يستقرّ ما يكتَبُ له تقليدا ، بالألقاب والنُّعوت السابقة له مع الجناب ؛ وكذٰلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقــاب والنُّعوت ؛ وهى : المجلس العــالى ، القاضَوِىّ ،الكبِيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضَلِىّ ، الأكملىّ ، الأَوْحدى ، البليغىّ ، الفَريدىّ ، المُفِيدىّ ، النَّجِيدى ، القُدْوىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقىّ ، الإمامىّ ، الأَصِيلِىّ ، العَرِيقِىّ ، الحـاكِمِىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سـيِّدُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ، قُدْوة البُلَغاء ، حجةُ الأمَّة ، عمدَةُ المحدِّثين ، فخرُ المدرّسين ،

مفتى المسلمين، جلالُ الحُكّام، حَكَم الملوك والسلاطين، فلان الفلانى (بنَسَبه) أعزّ الله تعالى أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالمىُّ، الفاضلىُّ، الأَوْحَدىّ، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البَليغىّ، القُدْوىّ، الأَثيرىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، جمالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صَدْر المدرّسين، عُمـدةُ المفْتين، خالصةُ المـلوك والسلاطين، فلان الفلانىّ : أدام الله تعالى تأييدَه .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، وهى : المجلسُ السامى، القاضى، الأَجَلُّ، الكبيرُ، الصَّدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ، فلان الدين، مجدُ الصُّدور، زَيْنُ الأعيان، مرتَضى المُلوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبةُ مجلس القاضى؛ وهى : مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العالِم، الفاضِل، الأوحدِ، الصدر، الرئيس؛ مجدِ الإسلام، بهاء الأنام، زينِ الأعيان، فخرِ الصُّدُور، مرتَضى الملوك والسلاطين، فلان : أعزّه الله تعالى .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى؛ وهى : القاضى، الأَجَلُّ . وربما زيد فى التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع
(ألقابُ مشايخ الصُّوفية — وهى على خَمْس مراتبَ)

المرتبة الأولى — المجلسُ العالى . وبها يُكتَب لشيخ الشُّيوخ بالديار المِصْرية، وهى : المَجلس العالى، الشيخىُّ، الكبيرىُّ العالِمىّ، العامِلىّ، السالِكىّ، الأوحَدىّ،

الزاهدىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُفيدىّ، القُدْوىّ، الإمامىّ، النِّظامىّ، المَلاذىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، شرَفُ الصُّلحاء فى العالَمين، شيخُ شُيوخ الإسلام، أوحدُ العلماء فى الأنام، قدوةُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين، فلان، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، الشيخىّ، الكبيرىُّ، الأوْحَدىّ، الأكملىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصُّلحاء، فخرُ العُبّاد، بركةُ الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالىٰ من بركته .

المرتبة الثالثة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامِى، الشيخُ، الصالحُ، الزاهدُ، العابدُ، الوَرِع، الخاشِعُ، الناسكُ، السالكُ، فلان الدِّين؛ مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين : نَفَع الله تعالىٰ ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلسُ الشَّيخ، وهى : مجلسُ الشيخ، الصالح، الزاهد، العابِد، الناسِك، السالِك، فلان الدين، مجد الصُّلحاء، زين المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين : أدام الله تعالىٰ بركتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهد، ونحو ذلك : نفع الله تعالىٰ به .

النـــوع الخـامس

(ألقابُ مَنْ قد يُكْتب له بولاية من رؤساء العامّة من التُّجّار وغيرهم)

وفيهـا أربع مراتب :

المرتبة الأولىٰ — المجلس السامىُّ بالياء ، وهى : المجلس السامىّ ، الصدرىُّ ، الأجَلىُّ ، الكبيرىُّ ، الرئيسىّ ، الفلانىّ .

المرتبةُ الثانية — المجلس السامى بغير ياء ، وهى : المجلس السامى ، الصـدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترَم .

المرتبــة الثالثة — مجلسُ الصَّدْر ، وهى : مجلسُ الصــدر ، الأجلِّ ، الكبيرِ ، المحترَمِ ، المؤتَمَن ، فلان الدين . ويقال فى ألقاب المِهتارِيَّة ونحوِهم : الحاجُّ فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصَّدْر ، وهى : الصَّدْر ، الأجلُّ . فإنْ زِيد فى تكريمه قيل بعد ذٰلك : الكبير ، المحترَم .

النــــوع السادس

(ألقابُ زعمــاء أهل الذِّمّة ، وهم ثلاثة)

الأوّل ـ بَطْرَك النصارىٰ اليَعَاقِبة ، وهى : الحضرةُ السامِيَــة ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجَّل ، المكَرَّم ، الكافِى ، المعَزَّز ، المُفَخَّر ، القِدِّيس ، شمس الرياســة ، عمـاد بَنِى المَعمودِيَّة ، كنزُ الطائفة الصلِيبِيَّة .

الثـانى ـ بَطْرَك المَلِكانِيَّة ، وتُختصَر ألقابُه عمّا يُكتب به لبَطْرك اليَعَاقِبَة بعضَ الاختصـار .

الثالث ــ رئيسُ اليهود، وهى : الرئيسُ الأوحدُ، الأجَلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكبيرُ، شرفُ الداوُديِّين، فلان أبو فلان : سدّده اللهُ فى أقواله، وثبّته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبُّه له أن ما تقدّم من الألقاب والنُّعوت المفرَّعة على الألقاب الأُصول ليستْ مما يُوقَف عند حدّ، بل محتملةٌ للزيادة والنقص بحسب ما تَقتضيه الحال، ويحتمِله المَقَال . بل ربَّما وُلِّى بعضَ المناصب مَنْ فيه صِفاتٌ تستحق ألقابا ونعوتا خاصّةً، فيكتبُ له بذلك مراعاةً لما يقتضيه حالُه، ويستوجبُه مَقَامه، ثم يلى ذلك المنصبَ بعده مَنْ لايستحق الوصفَ بالألقاب والنُّعوت التى تُخُصُّ المتقدّم، فيؤتَى بها للثانى : كما ٱتّفق فيما كُتِب به فى نيابة الشام حينَ وَلِيهَا الأمير بيدُمُر الخُوارَزْمىّ رحمه الله، وكان من الدِّيانة على ما لا يُوجَد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العابِدىّ، الناسكىُّ، الخاشِعىّ . فلزمتْ فيمن بعْده وصارت مما يكتَبُ به إلى الآنَ، سواء ٱتصف نائبُها بدينٍ أم لا ــ وكما ٱتفق فى الصاحب علَم الدِّين بن زُنْبور حين ٱجتمع له الوِزارةُ ونظرُ الخاصِّ والجيش، فكُتِب له بألقابٍ ونُعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونُعوتِها، فاستمرَّ ذلك فيما يُكتَب به لكلِّ مَنْ وَلِىَ الوزارة بعدَه إلى الآنَ؛ حتّى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرَتِّب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصّة بناظر الجيش ٱستطرادًا لما كُتِب به لٱبن زُنْبور : لٱنضمام نظر الجيش إليه على ماتقدّم ــ وكما ٱتّفق فيما كُتِب به للشيخ تقىّ الدين السُّبْكى من الألقاب الجليلةِ المقدار، الرفيعةِ المكانة، فى قضاء الشام لرِفْعة مقامه، وٱتِّساع باعِه فى العلم، وعُلُوِّ مكانته فى الخاصّة والعامّة فلزِم كتابة ذلك لقاضى قُضاة الشافعيةِ بالديار المصْرية، من حيثُ إنه لا يليق بالحال

أن يكون قاضى الشام أعلىٰ رتبـةً من قاضى الدِّيار المصرية . ثم سَرىٰ ذٰلك فى كل مَن وَلِى المنصبَ بعد ذٰلك ، وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

ومما يلتحق بذٰلك أنه قد جرت العادةُ فى الزمن المتقدّم وهَلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا أنه كان يكتب فى الطرَّة لأرباب السيوف بعـد الأميرى « الكبيرىّ الفلانى » بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان كالناصرىّ ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تَجْر العادةُ بأن يكتب لهم ذٰلك فى شىءٍ من طرَّة تقاليـدهم ولا تَواقِيعهم ، إلىٰ أن لِبس القاضى سعدُ الدين بنُ غُرَابٍ الكَلُّوتة ، وآستقر إستادارا فى الدولة الناصرية فرج آبن برقوق ، ثم آسـتقرَّ مشـيرا وكتب له تقليدٌ بالإشارة كتب له فى طرَّة تقليـده بعـد الكبيرى « النـاصرى » لجمعه بين السـيف والقَلَم . ثم جرىٰ بعض الكُتَّاب علىٰ مثـل ذٰلك فى غيره من أرباب الأقـلام الأكابر : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ومن فى معنـاهم من أرباب الوَظائف الديوانية . والحجةُ فيـه ظاهرةٌ من حيثُ إن كلًّا من المذكورين إذا كُتِب عنـه كتاب ، كُتِب فى أعلاه تحت البسملة « المَلَكىّ الناصرىّ » وإذا كتب عنه قِصّة ، كتب فيها تحت البسـملة « المَلَكىّ الفلانىّ » ، ومقتضىٰ ذٰلك أن يكتب لقب الإضافة إلىٰ لقب السـلطنة فى تقليـده أو توقيعـه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليـه من فعـل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته معـرفةُ الوصـف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاةُ مايناسبه من الأوصاف التى يَقَع بها تقريظه ومَدْحُه :

فإن كان نائبَ سلطنة وصَفَه بالشجاعة، والنَّجْدة، وقُوّة العَزْم، والشّهامة، وشِدّة الشَّكيمة، ونُصْرة الدِّين، وكَفّ [الأيدى] العادِيَة، وإرهابِ العدوّ، وقَمْع المفسدين، وإرغامِ أهْل العُدْوان، وحِمايةِ الثُّغور ـ إن كان فى ثغر ـ ووُفُور الهَيْبة، وبُعْدِ الصِّيت، وطَيرانِ السُّمعة، مع بَسْط المَعْدَلة والرِّفْق بالرعيّة، والرأفة بخلق الله تعالىٰ، والشَّفقةِ عليهم، والإحسانِ إلىٰ الكافّة، والأخْذ بقلوبهم، والوقوفِ مع أحكام الشريعة، وبَذْل الطاعة، والمناصَحة، والمخالَصة، وقِدَم هجرته فى الدولة ـ إن كان قديم هجرة ـ ومُرور الدُّوَل عليه ـ إن كان قد مَرّت عليه دول ـ، وأنه نَشْءُ الدولة ـ إن كان ابتداء أمره فيها ـ، ونحو ذٰلك .

وإن كان نائبَ قلعة وصفه بالحِذْق، واليَقَظة، وقوّة الحَزْم، وشِدّة التحرُّز، والمعرفةِ بأحوال الحِصَار وضُروب القِتال وطُرُق التحصين والمُدافَعة، ونحو ذٰلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحُسْن التدبير، وجَزَالة الرأْى، والاحتياط فى الأمور، والقِيام بمَصَالح الإسلام، وعِمارةِ البِلاد، والنُّهوض فى المِهمّات، وكَفّ الأيدى العادِيَة، والأخْذِ علىٰ يد المتعَدِّى، وتَنْمِيَة الأموال وتَثْميرها، وتسهيل مايجرى من الأرزاق علىٰ يَده، وبَذْل المجهُود فى معاضَدة الشريعة، وشِبْه ذٰلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

وإن كان كاتبَ سِرٍّ وصفَه بالفَصاحة والبَلاغة، وقِيامِ أقْلامه فى التأثير فى العدُوّ مَقامَ السُّيوف والرِّماح، وكُتبِه فى تفريق الكتائب مَقامَ الجيوش والعساكر، وسَدادِ الرأى، وكَتْم الأسرار، وحمايةِ الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذٰلك .

وإن كان ناظرَ جيش وصفه بالمعْرِفة بأمور الجيوش وترتيبها ، وأصناف الأمراء، والجُنْد، والمستخْدَمين، وترتيب مَقَاماتهم، وما ينخَرِط فى هذا السِّلْك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحِسَاب، والنهضة فى المهِمَّات، والمعرفة بأحوال دِيوان الخاصّ وجِهَاته ، والقُدرة علىٰ تحصيل الأموال وزيادتها، ومعرفة ما يُحتاجُ إليه من أصناف الأقْمِشة والطُّرُز وغيرها ، مع الأمانة والعِفَّة ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وإن كان مستوفِىَ الصُّحْبة وصفه بالمعرفة بفُنُون الكتّابة ، ونَظْم الحُسْبانات ، والاحتياط فى ٱسْتِرْفاعها ، مع الضبط والاحترازِ والأمانة والعِفَّة وما هو من هذا القَبِيل .

وإن كان ناظرَ خزَانة الخاصّ وصفه بالأمانة، والعفَّة ، والمعرفةِ بأصناف الخزَانة : من الأقمشة، والتَّشارِيف، والطُّرُز، ومعرفةِ مراتب أربابها، وما يُناسب كلَّ واحدٍ منهم من أنواع التشاريف من عالِيها وهابِطها، وما يطابِق ذٰلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغَزَارة العِلم، وسَعَة الفضل ، ونُصْرة السُّنَّة، وقَمْع البِدْعَة، والعَدْل فى الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم، والأخْذِ للضعيف من القَوِىّ، والنزاهة عن المَطَاعم الوَخِيمة، والمطامِع الرديَّة، والبُعْد عن الأهوَاءِ فى الحكم، وما ينخَرِط فى هذا السِّلْك .

وإن كان محتَسِبا وصفه بعد وصْفه بالفضل بالعِفَّة، والأمانة، وعُلُوِّ الهِمَّة، وقُوَّة العزم، والصَّرامة، ووُفُور الهيبة، والنُّهوض بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، والنظَرِ فى مصالح المسلمين ، وعدمِ مُحاباة أهلِ الدُّنيا وأربابِ الجاه ، وأنه لا يفرِّق فى الحق بين الجليل والحقير، وما فى معنىٰ ذٰلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق، والتثبت فيه، ومراعاته المصلحة العامة فى كل مايتعلق به، والمعرفة بشروط الاعذار ومواقع ابداء الدافع ونفيه، وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه، وما يقارب ذلك .

وإن كان مدرسا وصفه بسعة العلم، والتضلع بالفنون، والأخذ من كل منها بحظ وافر، وطول الباع فى البحث والمناظرة، والوقوف مع الحق فيها، وعدم الجدال فى الباطل، وتربية الطلبة، وتأديبهم، والتقريب على من عسر على فهمه شيء من المسائل، وعدم الترفع عليهم، وتنزيلهم منازلهم فى الفضل، وتقديم من برع منهم .

وإن كان خطيبا وصفه بالفصاحة، والبلاغة، وقوة اللسن، وشدة الشكيمة فى الكلام، وتأثير وعظه فى القلوب، وانسكاب الدموع من وقع عظاته، وما أشبه ذلك .

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع، والزهد، والنسك، وقطع العلائق من الدنيا، وتربية المريدين وتسليكهم، والوقوف مع طريق السلف الصالح .

وإن كان رئيس الأطباء وصفه بالحذق فى الطب، والمهارة فيه، وتقدمه على غيره فى الفن، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضر، والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج، وما يجرى مجرى ذلك .

وإن كان رئيس الكحالين وصفه بالمعرفة فى صنعة الكحل، والتقدم على أبناء صنعته فيه، والمعرفة بحال العين وأمراضها، وأصناف الأكحال، وما يوافق كل علة من ذلك، وما ينخرط فى هذا السلك .

وإن كان رئيسَ اليهود او بَطْركا من بَطَاركة النصارىٰ، وصـفه بالمعرفةِ بأمور مِلّته، والوقوفِ مع قوانينِ شِرْعتِه، ومعاطاةِ العـدل فى جماعتِه، والتزام شُروط الذمة، والوقوف عنـد حدِّها، والدخولِ تحت الطاعة، والوقوفِ عند ما حُدّ له، ونحو ذلك .

الأمرالسادس — ممـا يجب علىٰ الكاتب مراعاته وصيةُ ربِّ كل ولاية من الولايات المعتبَرة بمـا يناسِبُها .

وآعلم أن كل ما حَسُن وصـيةُ المَوَلّىٰ به، حَسُن وصـفُه به . والوَصَايا مختلفة باختلاف موضُوعاتها، إلا أنَّ الجميع يشـترِك فى الوصـيَّة بتقوى الله، فهى الأُسّ الذى ينِىٰ عليه، والركنُ الذى يُستَنَد إليه . وهذا البابُ هو الذى يطولُ فيه سَبْح الكاتب، ويَحتاج فيه إلىٰ سَعَة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتبُ حاذقًا بمـا يلزم ربَّ كل وِلاية ليُوَفِّيها فى الوصـية حقَّها، وإلا ضلَّ عن الطريق، وحادَ عن جادّة الصَّنْعة . ولذلك يقال للكاتب : « القَلَمَ الأكبر » : لأنه بصَدَد أن يُعلِّمَ كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمُه فى وِلَايته .

وحينئذ فإن كان المتولِّى « نائبَ سلطنة » وُصِّى بتفقُّد العساكر، وعَرْض الجيوش، وإنهاضِها للخِدمة ... ...(١) للوظائف مَنْ يليق بها، وتنفيـذِ الأحكام الشرعيَّة، ومعاضَدة حُكّام الشرع الشريف، وإجراء الأوقاف علىٰ شُروط واقِفيها، وملاحظةِ البلاد وعِمـارتِها، وإطابةِ قلوب أهلِها، والشَّـدّ من مباشِرى الأموال، وتقويةِ أيديهـم، ومُلازمةِ العَـدْل، وعدَمِ الانفكاك عنه؛ وتحصـينِ ما لديه من القِلاع، وآسـتطلاعِ الأخبار والمطالعةِ بها، والعملِ بمـا يرِدُ عليـه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله «وآنتقائه» للوظائف الخ .

السلطانية ، وأنّ ما أَشْكل عليه يستضىءُ فيه بالآراء الشريفة ، والإحسان إلىٰ الجند ، وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا ، ونحو ذٰلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصِّى بحفظ تلك القلعة ، وعمارة ما دَعَت الحاجةُ إلىٰ عمَارته منها ، والأخذِ بقُلوب من فيها ، وجمعهم علىٰ الطاعة ، وأخذِ قلوبهم بالإحسانِ إليهم ، وتحصينها بآلات الحِصَار ، وآدّخار آلاتِ الحرب : من المجانيق والقِسِىّ وسائر الآلات : من السِّهام ، واللُّبُوس ، والسَّتائر ، وغير ذٰلك . وكذٰلك آلاتُ أرباب الصنائع ، كآلات الحدّادين ، وصُنَّاع القِسِىّ ومَنْ فى معناهم مما يُحْتاج إلىٰ عمله فى آلات القلعة ، والاعتناءِ بغَلْق (1) أبواب القلعة وفَتْحها ، وتفقُّد متجدّدات أحوالها فى كل مَسَاء وصَبَاح ، وإقامةِ الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، وتعرُّفِ أخبار المجاورين لها من الأعداء ، وإقامةِ نُوَب الحَمَام بها ، والمطالعةِ بكل ما يتجدّد لدَيْه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصِّى بالعدل وزيادةِ الأموال وتَثْميرها ، والإقبال علىٰ تحصيلها من جهات الحِلّ ، وآختيار الكُفَاة الأمناء ، وتجنُّب الخَوَنة ، وتطهير بابه ، وتسهيل حجابه ، والنظر فى المصالح ، وأنه لا يستَبْدل إلا بمَنْ ظهر لديه عجزُه أو خيانتُه ، والنظرِ فى أمر الرواتب وإجرائها علىٰ أربابها .

وإن كان «كاتبَ سِرّ» وُصِّى بالاهتمام بتلقى أخبارِ الممالك وعَرْضِها علىٰ المواقف الشريفة ، والإجابةِ عنها بما تبرُزُ به المراسيمُ الشريفةُ ، وتعريفِ النوّاب فى الوَصَايا التى تُكتَب فى تقاليدهم عن المَوَاقِف الشريفة ماأَبْهَمَ عليهم ، ويبيِّنُ لهم ما يقفُون

(1) جرى علىٰ اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنبه .

عند حدّه ، والنظرِ فى تجهيز البَرِيد والنَّجّابة[1] ، وما يُبعَث فيه من المصالح وينَفَّذ فيه من المهمّات والقُصّاد ، ومعرفةِ حقُوق ذَوِى الخدمة والنّصيحة ، وإجرائهم فى رُسُوم الرواتب وعوائد البر والإحسان على أتمِّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذِ بخواطِرِهم ؛ والنظرِ فى أمر الكَشَّافة والدَّيادب والنظّارة والمَنَاوِر والمُحرِقات وأبراج الحَمَام ؛ وصرفِ نظره إلىٰ رسل المُـلُوك الواردة ، ومعاملتِهم بالإكرام ، والأخذ فى صَوْن سرّ المَلِك وكتمانه حتّى عن نَفْسه ، وضـبطِ ألواح البريد ، والاحترازِ فيما تؤخَذ عليه العلامةُ الشريفة ؛ ومراعاةِ كُتّاب ديوان الإنشاء ، والإحسانِ إليهم ، وأن لا يَستكتبَ فى ديوانه إلا مَنْ علم صـلاحَه لذٰلك وكفايتَه ، ووثِقَ منه بكِتْمان السرّ كما يَثِق به من نَفْسه .

وإن كان « ناظر جيش » وُصِّى بالاحتياط فى أمر دِيوانه ، والوقوفِ علىٰ معالم هـذه المباشَرة ، وجرائدِ الجنـد ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشُوف والمحاسَبات ، واستيضاح أمر من يَموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقـدَّمين والنُّقباء ، والاحترازِ فى أمر المربَّعات وجهاتِ الإقطاعات وما يترتَّب عليها من المناشير ، والنظرِ فى أمر المقْطَعين : من الجُنْد ، والعَرَب ، والتُّركُمان ، والأكراد ، ومن عليه تقْدِمةٌ أو دَرَك بلاد أو غير ذٰلك .

وإن كان «ناظر خاص» وُصِّى بالاحتياط لِديوانه ، والأخذِ فى تحصيل أموال جِهاتِه وتَنْميتها وتثميرها ، وزيادتها وتوفيرها ؛ والتحرُّز فيما يُرْفَع من حُسْباناتها ، والاهتمامِ بأمر التَّشَارِيف والخِلَع ، وما يختصُّ بكل وِلاية وغيرها من التَّشاريف ،

(١) جارى العامة فى هذا الاستعمال .

وما جرتْ به العادةُ من الهدايا المُحضَّرة إلىٰ ملُوك الأقطار ، والأخْذ فى ذٰلك كلِّه بالحظِّ الأوفىٰ للديوان السلطانىّ ، وما يجرى مَجرىٰ ذلك .

وإن كان «مستوفِى صُحْبة» وُصِّى بإلزام الكُتَّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها ، وعمل المكلَّفات وتقدير المِساحات ، وتمييزِ ما بين تسجيل الفُدُن فى كل بلدٍ بحسَب ما يصلُح لها من الزِّراعة ، وتمييزِ قِيَم بعضها علىٰ بعضٍ ، ومستجِدِّ الجرائد ، وما يقابَل عليه من ديوان الإقطاعات والأحْباس وغير ذٰلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وُصِّى بتحصيل مايُحتاج إليه لتفصيل الخاصّ وتَشاريف أربابِ السيوف والأقلام : العَرَب ، والتُّرْكمان ، والأكرادِ ، وغيرهم ؛ وهَدايا المُلوك وما يجرى مَجْرىٰ ذلك : من العَتّابىّ والأطْلَس ، والمُشَرْبَش ، والمُقَنْدَس والمَتمَّر ، والطِّرازات علىٰ اختلافِها : من الزَّرْكش ، والباهِى ، وأنواع المستعملات ، وما يحمَل من دارِ الطِّراز ، وما يُبتاع للخزانة العالية ، وما هو مُرْصَد لها من الجهات التى يحمَل إليها متحصَّلُها : ليُنفَق فى أثمان المَبيعات ومصروف المستعْمَلات ، والاحترازِ فيما يُنْفق من الأثمان وقِيمة المُبْتاع ، وشهاداتِ الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرَّجَعات ، وأن يحصِّل كلَّ شىء هو بصَدَد الحاجة إليه قبلَ الاحتياج .

وإن كان « قاضيا » وُصِّى بالتروِّى فى أحكامه قبل إمضائها ، وأن يراجعَ الأمرَ مرَّةً بعد أُخرىٰ ، واستشارةِ أهل العلم ، والرُّجُوع إليهم فيما أَشْكل عليه ، واستخارةِ الله تعالىٰ قبل الإقدام علىٰ الحكْم ، والقضاءِ بحقِّ الخصم بعد وُضُوحه ، والتسجيل له به ، والإشهادِ علىٰ نَفْسه بذٰلك ، والتسويةِ بين الخُصوم حتّى فى تقسيم النظر إلىٰ الخصمين ، والتحرِّى فى استيداء الشهادات ، وأن لايقبل من الشهود الا من عُرف

بالعَدَالة : من رَبِّ قلم أو سيفٍ ، والتنقيب عما يصدر من العُقُود ، ولا يعوّل من شهود القِيمة إلا علىٰ كل عارف بالقِيَم خبيرٍ بها ، والنظرِ فى أمر الرُّسُل والوُكلاء ، والنظرِ فى أمور أهل مَذْهَبه ، والاعتناءِ بشأنهم .

ويزاد «الشافعىّ» التوصيةَ بالنظر فى دعاوىٰ بيتِ المال ومُحاكماته ، والاحتراز فى قضاياها ولا يُقبلُ فيها بينةٌ لوكيل بيت المال فيها مَدْفع ، ولا يُعمَل فيها بمسألة ضعيفةٍ ، والنظرِ فى أمر أموال الأيتام وأمر المتحدِّثين فيها بالإحسانِ إليهم ، وكذلك أموالُ الصدَقات الجارية تحتَ نظرِه ، والتيقُّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه استحقاقها ، وأن لايَعمل فى مسألة تفرَّد بها مذهَبُه إلا بما نَصَّ عليه إمامُه أو كان عليه أكثرُ أصحابه ، ولا يَعْتَمِد فى ذٰلك مرجُوحا ولا ما تَفرّد به قائلُه ، وأن لايولى فى البرِّ نائبا الا مَنْ عُرِف استحقاقه وأهليته لما يتولّاه .

ويُزاد «الحَنفىّ» الوصيةَ بالعمل بما اقتضاه مذهَبُه من الأمور التى فيها صَلَاحٌ لكثير من الناس : كتَزْويج المُعْصِرات ، وشُفْعة الجِوار ، ونَفَقة المعتدَّة البائن ، وعدَم سَماع بيِّنة الإعسار الّا بعد مُضىّ المدّة المعتبرة فى مَذْهبه ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ ضمَّه نِطاق ولايته ممن نَزَح إليه من أهل الشَّرْق وأقاصى الشِّمال .

ويُزاد «المالكىّ» الوصيةَ بالتحرّى فى بيِّنات الدِّماء ، والإعذار إلىٰ الخَصْم ليُبدِىَ مالَدَيْه من دافعٍ ، والعملِ بما تفرّد به مذْهَبُه مما فيه فُسْحة للناس : كالثُّبوت بالشهادة علىٰ الخط ، وولايةِ الأوصياء ، وإسقاط الرَّيْع فى الوقف المستَرَدّ بعد البيع ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ لديْه من غُرَباء أهل مَذْهَبه ، لاسيَّما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد « الحنبلىّ » الوصيةَ بالاحتياط فى بيع مادَثَر من الأوقاف والاستبدال بها ، ورعايةِ المصلحة فى ذٰلك لأهل الوقف بما أمكن ، والفَسْخ علىٰ من غاب عن زوجته

الغَيْبَةَ المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقْف الإنسان علىٰ نفسه ، وأمرِ الجوائح التى يحصل بها التخفيف عن ضُعَفاء الناس ، والمُعامَل علىٰ الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ ، والوصيةِ بأهل مذهبه الذين هم أقلُّ المذاهب عِدَّةً وأنزَرُهم وظائفَ وأوقافا ، ومعاملتِهم بالإحسان .

وإن كان « قاضِيَ عسكر » وُصِّى بنحو ما يوصَّى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتبًا يكتب للناس ، وأن يقبل من الجُنْد من كان ظاهرُه العدالَةَ ، فإنَّ الشُّهود المُعَدّين لتحمُّل الشهادة يعِزُّ وجودُهم فى العسكر، وأن يكون له منزِلٌ معروف يُقْصَد فيه إذا نُصِبت الخيام؛ وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأَعْلَام السلطانية؛ وأن يكون مستَعِدًا للأحكام التى يكثُر فصْلُها فى العسكر : كالغنائم ، والشِّرِكة ، والقِسْمة ، والمَبِيعات ، والردّ بالعَيْب ؛ وأن يُسْرِع فى فصل القضاء بين الخُصوم : لئلا يكون فى ذلك تشاغُل عن مَوَاقع الحرب ومقَدِّماته ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ .

وإن كان « محتَسِبا » وُصِّى بالنظر فى أمر المَكاييل والمَوازين وسائر المَقادير، والتحذيرِ من الغِش فى الطعام والشَّراب؛ وأن يتعرَّف الأسعار، ويستعلم الأخبار فى كل سُوق من غير علم أهله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المَعَايِش من ينُوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأُمناء المأمونين؛ وأن لا يمكن أحدًا من العَطَّارين من بيع غرائب العَقَاقير إلا ممّن لا يُستَرَاب به بخط متطبب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين علىٰ أكل أموال الناس بالباطل : من الطُّرُقِيَّة وأهل التِّنجامة(1) وسائر الطوائف المنسوبة إلىٰ بنى ساسانَ من تعاطِى ما يتعاطَوْنه من ذلك ، ويقمَعَهم ويَحْسِمَ مادَّتهم ، والتصدِّى للأمر بالمعْروف والنهى عن المنكر، والمنع من الغِش

(1) أى المنجمين الذين يدّعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشترِى بأزيدَ مما ٱشترىٰ به ، والنظر فى أمر فُقَهاء المكاتب والعالمات من النساء، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذٰلك إلا من عُرِفت أمانتُه، وأُثِرت صيانتُه ، وأن لا يستنيبَ إلا أهلَ العِفَّة والأمانة والنَّزاهة ممن بَعُد عن الطمَع، ونأىٰ عن مَطاعِم السُّوء .

وإن كان «وكيلَ بيتِ المال» وُصِّى بالعمل بالشرع الشريف فى جميع أحكامه، وأنَّ مَنْ مات وله ورثة تَستوعبُ ميراثَه لا يكلِّفُهم ثُبُوتا فيه تعنُّتٌ ومدافَعةٌ عن حقهم؛ والتَّشديدِ فى أمر من كانت قِصَّته منْكَرة ؛ والتحرُّزِ من شهود الزُّور فى مثل ذٰلك، وأن يرجِعَ فى كل ما يُبَاع ويؤجَّر إلىٰ العوائد ، وأن يَتحرَّز فى شهادة شُهود القِيمة، ولا يَرجِعَ فيها إلا لمن يُوثَقُ به ممن يكون عنده معرفةٌ بقِيَم الأشياء ، ويَنبَّه علىٰ أنَّ له أن يدَّعِىَ بحق المسلمين حيث شاءَ عند من يشاء من أصحاب المَذاهب ، وأنَّ الدعوىٰ عليه لا تكون إلا فى مجلس الحكم العزيز الشافِعِىّ، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القديمة ، والٱحتياطِ فى حقِّ بيت المال، ولْيَختَرْ للٱستنابة فى الأعمال من يصلُح لذٰلك .

وإن كان «مدرِّسا» وُصِّىَ بأن يُقْبِل علىٰ جماعة درسه بطَلَاقة وجْه، وأن يستميلَهم إليه جُهْد ٱستطاعته، ويُربِّيَهم كما يَرَبِّى الوالدُ ولدَه، ويستحسنَ نتائجَ أفكارهم التى يأتونَ بها فى درسه، ويقدِّمَ منهم من يجب تقديمُه، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم منزِلَتَه، ليهُزَّهم ذٰلك إلىٰ الإكباب علىٰ الٱشتغال والٱزدياد فى التحصيل . ثم يأتى [فى] كل مدرِّس بما يناسبه من أمور العلم الذى يدرِّس فيه إن كان يدرِّس فى علمٍ خاصٍّ .

وإن كان « خطيبا » وُصِّىَ برعاية حقِّ رُتبة الخَطَابة والقيام بحق ازدواجها ، وأن يأتى من المواعظ بما يَقْرَع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويُلِينُ القلوبَ القاسية ،

وأن يُعِدّ لكل مَقامٍ يقومه مقالًا يقوله، وأن يخفّف الخُطبة، ويأتىَ بها بليغةً مفهومة، إلىٰ غير ذٰلك من متعلّقات الخَطابة .

وإن كان «شيخَ خانقاه» وُصِّى بالاجتهاد فى العبادة، والمشيِ علىٰ طريق السَّلَف : من الزُّهد، والورَع، والعَفَاف ؛ وأن يأخذ جماعتَه بمَآخذه فى الأمور ؛ وأن يعرِفَ لجماعة مكانِه حقُوقَهم الواجبةَ لهم ويُنزِلَهم منازِلَهم خصوصًا أُولى السابقةِ منهم، ويأخُذَ فى الرفق بهم ومُداراتهم، مع ترتيب من آستَجَدّ منهم، وإجرائهم علىٰ طرائِق الصُّوفيّة ، وتعريفِهم الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ ، وتدريج المُرِيدين علىٰ قَدْر ما تحتمله أفهامُهم، دونَ أن يهْجُم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عُقُولهم . و[اتباع] سبيل الكتّاب والسُّنّة اللّذيْن من حاد عنهما ضَلّ، ومن خرج عن جادّتهما زَلّ ، وكَفِّهم عن آرتكاب البِدَع والجرْى علىٰ مِنهاجها ؛ ومن أتىٰ ذنبا نَخَّذه بالتوبة والآستغفار ؛ والإنكار علىٰ من أخَذ فى الشَّطَحات ، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة ، ومَنْع من نحا هذا النحوَ أو جرىٰ علىٰ هذه الجادّة ، والإحسان إلىٰ من يَقْدَم عليه من الآفاق ، وحُسْن التلَقِّى له ، وإكرام نُزُله بعد أن يعَجِّل له بالإذن ، والأمر بأخذ عُكّازة، وفَرْش سَجّادة، وما ينخَرِط فى سِلك ذٰلك .

وإن كان « رئيسَ الأطباء» وُصِّى بالنظر فى أمر طائفتِه، ومعرفةِ أحوالهم، ويأمُر المعالِج أن يعرف أوّلا حقيقةَ المرض وأسبابَه وعلاماته ، ثم ينظر إلىٰ السِّن والفَصْل والبلد، وحينئذ يشْرَع فى تخفيف الحاصل ، وقَطْع الواصل ، مع حِفْظ القوّة؛ وأن لايُهاجِم الداء، ولايستغرب الدواء، ولا يُقْدِم علىٰ الأبدان إلا ما يُلائمها، ولا يخرُج عن عادة الأطباء ولو غلب علىٰ ظَنّه الإصابةُ حتّى يتبصّر فيه برأى أمثاله ؛ ويتجنبُ الدّواء، ما أمكنَتْه المعالجة بالغذاء، والمركَّبَ ما أمكنته المعالجةُ بالمفرد ؛

ويتجنب القياس إلا ماصَحَّ بتجريب غيره في مثل من أخَذ في علاجه، وما عرض له، وسِنّه، وفصله، وبلده، ودَرجة الدواء، وأن يحذر التجربة فإنها خَطَر، مع الاحتراز في المقادير والكيفيات، وفي الاستعمال والأوقات، وما يتقدّم ذٰلك الدواء أو يتأخّر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا مايُستغرب من غذاء حتّى يحقِّق حقيقته، ويعرف جديدَه من عتيقه، ليَعرِف مقدار قُوّته في الفعل .

وإن كان «رئيس الكَحّالين» وُصِّي بالنظر في حال جماعته أيضا، ومعرفة أحوالهم، وأن لايُصَرِّف منهم إلا من عُرِف بحُسْن المُداراة والملازمة في العِلاج، ويأمر كُلًّا منهم أن لايُقْدِم علىٰ مداواة عينٍ حتّى يعرِف حقيقةَ المرض، وأن يُلاطفَها بما يناسِبُها من الغِذاء، وأن يتخيَّر من الكُحْل ما فيه شفاءُ العين وجلاءُ البصر، وأن يستشيرَ الأطباءَ الطبائعيَّة فيما أَهَمَّ، مما لايُستغنىٰ عن رأى مثلِهم فيه، من تخفيف المادّة بالاستفراغ أو نَقْص دمٍ أو غير ذٰلك .

وإن كان «رئيس اليهُود» وُصِّي بضَمِّ جماعته، ولَمِّ شَمْلهم، والحكمِ فيهم بقواعِد مِلّته، والنظرِ في أمور الأنكحة عندهم، وما يعتَبَر عندهم فيها علىٰ الإطلاق، وما يَفْتقِر إلىٰ الرضا من الجانبين في العَقْد والطَّلاق، والنظر فيمن أوجبَ حكمُ دِينه عليه التحريم، والتوجُّه في صلاتهم تلقاءَ بيت المَقْدِس إلىٰ جهة قِبْلتهم، وإقامةِ حدود التوراة علىٰ ما أنزل اللهُ تعالىٰ من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ للكلمة بتأويلٍ ولا غيره، واتباع ماأَعطَوْا عليه العهدَ مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أُقِرُّوا في دار الإسلام علىٰ الصَّغَار والإذعان لأهل الإسلام، وعدمِ مضايَقتِهم للسلمين في الطُّرُق، وتميزِهم بشِعارهم في الحَمَّام، كي لايحصُل اللَّبْس بالمسلمين، وحمل شِعار الذمة علىٰ رُءُوسهم: وهي العمائم الصُّفْر، ويأخذهم بتجديد صَبْغه في كل حين، وعدم التظاهر بما يقتضي المناقضة: من ذكر الله تعالىٰ أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسُوء، أو إظهار الخمر أو معتقَدِهم فى العُزَيْر عليه السلام . وله أن يرتّب طبقاتِهم على ماتقتضيه مراتبُهم عنـده، وكذلك له التحدُّث فى كنائس اليهود المستمرَّة إلى الآنَ بأيديهم، من حينِ عَقْـد الذمَّة، من غير تجديد متخرِّب، ولا فِعل مالم تُعقَد عليـه الذمَّة ويقِرّهم عليه السلَفُ الأوّل .

وإن كان « بَطْرَكَ النصارى المَلِكانيَّة » وُصّى بمـا عليه بِناءُ شِرْعته من المسامحة والاحتمالِ والصَّبْرِ على الأذى، وعدمِ الاكتراث به ، وأخْذ نفسه بهـذه الآداب ؛ وأنه يُقَدِّم المصالحةَ بيـن المتحاكمين إليه قبل فَصْلها على البَتّ فإنه قاعدةُ دينـه المَسيحىّ، ولم تُخالف فيه الملةُ الإسـلاميَّة ، وأنه ينَقِّى صـدُورَ إخوانه من الغِلّ، ويتخلَّقُ بكل خُلُق جميل، ولا يستكْثِرُ من الدنيا، ويتنزَّه عن أموال جماعتِه والتوسُّلِ إلى أخذها، وأنَّ إليه أمْرَ الكنائس والبِيَع، وعليه أن يتفقَّدها فى كلِّ وقت، ويرفع مافيها من الشُّبُهات، ويحذِّر رُهْبان الدِّيارات من جعلها مَصْيدةً للمـال؛ وأن يتجَنَّبوا فيها الخَلْوةَ بالنساء، ولا يُؤوِى إليه أحدا من الغُرَباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ ، ولا يكْتُمَ ما اطلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يُخْفِى كتابا يَرِد عليه مِـن أحدٍ من الملوك، أو يكتُب له جوابا؛ ويتجنَّبُ البحر وما يَرِد منه من مَظانِّ الرِّيَب .

وإن كان «بَطْرَكَ اليَعاقِبة» قيل فى وصيته نحو ماتقدّم فى وصِيَّة بطرك المَلِكانيِّين، إلا أنه لا يقال : واعلَمْ أنّك فى المَدْخل إلى شريعتـك طريقُ الباب ، بل يقال : واعلم أنك فى المَدْخَل إلى شريعتك قَسِيمُ الباب، ومساوِله فى الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقـال بدل قوله « وليتجَنّب البحر » : « وليتوقّ ما يأتيه سرًّا من تِلْقاء الحبَشة» .

قلت : وهذه الوصايا مَدْخَل إلىٰ ما يرضىٰ به أصحابُ الولايات ممَّن تقدّم ذكره والأمر فى الزيادة والنقص فى ذلك بحسَب المناسبة راجعٌ إلىٰ نظر الكاتب . علىٰ أن المقرّ الشهابىّ ابنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" عِدَّة وَصايا ليست ممّا يُكْتَب الآنَ ، فأضربنا عن ذكرِ مَقَاصدها هنا : لتُوردَ برُمَّتها فى الكلام علىٰ ما يكتب فى متن التقاليد والتواقيع ونحوها ، مع النسخ التى تُورَد هناك علىٰ صورة ما أوردها ، ليُنْسَج علىٰ مِنوالها إن أُمِر بكتابة شىءٍ منها .

المقصد الثانى

(فى بيان مَقاصِد ما يُكتب فى الوِلايات ، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيان الرُّسوم فى ذٰلك ، ومقادير قَطْع الورَق لكلِّ صِنْف منها علىٰ سبيل الإجمال)

وهى علىٰ أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(التَّقاليد)

جمع تَقْليد . يقال : قلّدته أمرَ كذا إذا ولَّيتـه إيَّاه . قال الجوهرى : وهو مأخُوذ من القلادة فى العُنُق ، يقال قلّدتُ المرأة فتقلدت ، قال : ومنه التقْليد فى الدِّين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل علىٰ طُرّة ومَتْن ، فأما الطرّة فقد أشار اليها فى " التعريف " بقوله : وعُنْوانُها «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» . وأوضح ذٰلك فى "التثقيف" فقال :

وصورتُه : ان يكتَب: تقليد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المَقرّ الكريم، أو إلىٰ الجناب الكريم، أو إلىٰ الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ، أعزّ الله تعالىٰ أنصاره، أو نُصرتَه، أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أو بحلَبَ المحروسة، أو بطرابُلُس المحروسة، أو نحوها، علىٰ أجمل العوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد علىٰ ما شُرِح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوبُ له التقليدُ هو النائبَ الكافلَ، كُتِب فى طرّة تقليده : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المَقرّ الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكَفيلىّ، الفلانىّ، فلان الفلانىّ، بلقب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان، كالناصرىّ مثلا، كَفالةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلاميّة، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ أجمَل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليدُ بكفالة السّلْطنة بالشام، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفَوّض إلىٰ المَقرّ الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكَفيلىّ، فلانِ الناصرىّ، مثلا كَفَالةُ السلطنة بالشام المحروس علىٰ أتمّ العوائد فى ذٰلك وأجمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحَلَبَ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجَناب الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانِ الناصرىّ، أعزّ الله تعالىٰ نُصْرتَه، نِيابَةُ السلطنة الشريفة بحلَبَ المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة طَرَابُلُس، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرى، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانِ الناصرىّ : ضاعفَ الله

تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بطرَابُلُسَ المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحَماةَ، أُبْدل لفظ طرَابُلُس بحماةَ .

وإن كان بنيابة السلطنة بصَفَدَ ، أُبْدل لفظ طَرابُلُس وحَماةَ بصَفَدَ، والباقى علىٰ ما ذُكر فى طرابلس .

وإن كان التقليـد بنيابة السـلطنة بغَزَّةَ ــ حيثُ جُعِلت نيابةً ــ كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرى، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمَتَه، نيابَةُ السلطنة الشريفة بغَزَّةَ المحروسةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ماشُرِح فيه .

فإن كان مُقدّم العَسْكر كما هو الآنَ ، أبدل لفظُ نِيابة السلطنة الشريفةِ بلفظ « تَقْدِمة العسكر المنصُور » والباقى علىٰ ما ذُكر .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك ، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفـلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بالوِزَارة، كتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى الصاحِبىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، الوزارةُ الشريفـةُ بالممـالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمورُ ، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السرّ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضَوِىّ، الكبيرى، اليمينِىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله تعالىٰ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد؛ بالمعلوم الشاهد به الدِّيوان المعمور، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصريّة، كُتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه، قَضاءُ قُضاة الشافعية بالديار المصرية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الحنفيّة، كتب كذٰلك، إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بلفظ الحنَفيّة .

وإن كان التقليد لأمير مكّةَ، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، فلانٍ الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه إمْرةُ مكةَ المشرّفةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، كتب كذٰلك إلا أنه يُبْدَل لفظُ مكّةَ المشرّفة بلفظ المدينة الشّريفة .

وإن كان بإمرة آل فَضْل، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ : أدام الله تعالى نعمتَه إمرةُ آل فَضْل، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شُرح فيه .

هــذه جملة ما عُهِدتْ كتابتُــه من التقاليد المكتتَبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفــة، فإن حَدَث كتابةُ ما يستحقُّ أن يكْتَب له تقليــدٌ، كالأتابكيّة ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراءَ ذٰلك أمران : أحدهما ــ أنه قد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتَب فى العُنوان الذى هو الطرّة : « تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» فإن كتب تقليدٌ بكَفَالة السلطنة مثلا، كتب : «تقليدٌ شريفٌ للمقرّ الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، بكَفَالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرِح فيه» .

الثانى ــ أنه اقتَصَر فى "التثقيف" علىٰ قوله فى آخر الطرّة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، وليس الأمر منحصرًا فى ذٰلك، بل لو عُكِس بأن قيــل : تقليــد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ فلان كذا ، أو تقليدٌ شريف لفلان بكذا علىٰ أكمل القواعد وأجمل العوائد على ماشُرِح فيه، لكان سائغًا .

فإن كان صاحبُ التقليــد علِىَّ الرتبة : كالنائب الكافل، ونائب الشام، ونائب حلَبَ، والوزيرِ، وكاتب السرّ، ونحوهم، كُتِب علىٰ أجمــل العوائد وأتمّها، وأكمل القَواعد وأعمّها، أو بالعكس : بأن يكتب علىٰ أجمل العوائدِ وأعمّها، وأكمل القَواعد وأتمّها، على ما شُرِح فيه .

وأما مَتْن التقليد، فقد قال فى "التعريف" إن التَّقاليدَ كلَّها لا تُفتتح إلا بالحمدُلله وليس إلا، ثم يقال بعدها : أما بعْدُ، ثم يذكر ماسَنَح من حال الولاية وحال المُولَّى، وحُسْن الفكر فيمن يصْلُح، وأنه لم يرَ أحقَّ من ذٰلك المولّى ويسَمَّى، ثم يُقال مايُفْهم أنه

هو المقدّم الوصف أو المتقدّم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسم بالأمر الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ (ويدعىٰ له) أن يقلَّد كذا، أو أن يفوّض إليه كذا، والأوّل أجلّ؛ ثم يُوصىٰ بما يناسب تلك الولايةَ مما لا بدّ منه تارةً جُمْلِيًّا وتارة تفصيليًّا، ويُنَبَّه فيه علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ؛ ثم يختم بالدعاء للولّى، ثم يقال: وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ به بعد الخطّ الشريفِ أعلاه.

قال: ولفُضلاء الكُتّاب فى هذا أساليب، وتفنُّن كثيرُ الأعاجيب، وكلُّ مألوف غريب، ومَن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قُلْناه، وتجلّىٰ له ما أبهمْناه.

وذكره فى "التثقيف" بأوْضَح معنًى وأبْيَن، فقال: ويُكتَب بعد الصَّدْر بخُطْبة مناسِبة أوّلها الحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم أما بعْدُ، ويَذْكُر ما يرىٰ ذِكْرَه من حال الولاية والموَلّى، ويذكر ٱسمَه، وهو أن يقال: ولما كان المَقرّ، أو الجنابُ، وألقابه ونعوته إلىٰ آخرها، ويُدْعىٰ له: أعزّ الله أنصارَه أو نُصرتَه، أو نحوه، علىٰ ماجرتْ به عادتُه، ولا يُزاد علىٰ دَعْوةٍ واحدة؛ ثم يقال ما يُفْهِم أنه المرادُ بهذه الأوصاف، أو المعنىّ بهذه الإشارة أو نحو ذٰلك؛ ثم يقال: ٱقتضىٰ حُسْن رأينا الشريفِ، ويذكر ما يقتضى تكريمَه وتعظيمَه؛ ثم يقال: فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانىّ (ويُدْعىٰ له بما يناسب الحال ثلاثَ دَعوات أو أربعا) أن يُفوَّضَ إلىٰ المشار إليه كذا؛ ثم يقال: فليتقَلّدْ ذٰلك، أو فليتَلَقَّ هذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يُوصّى بما يناسب تلك الولايةَ مما لا بدّ منه، ويحرص أن يَنَبِّه فيه علىٰ العمل بالتقوىٰ؛ ثم يُختم بالدعاء للولّى بالإعانة والتأييد ونحو ذٰلك ثلاثَ دعوات، وأكثرها اربع، وأقلُّها ٱثنتان؛ ثم يقال: بعد الخط الشريف شرفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالىٰ؛ ثم التاريخ

والمستَنَد، والحمدلَةُ، والحسْبَلةُ علىٰ العادة . ولم يَقُل فيه : وسبيلُ كل واقف عليه، كما قال فى "التعريف" .

وٱعلم أنَّ التقاليد علىٰ اختلافها لاتخْرُج فى مقادير قَطْع الورَق عن مِقدارَيْن :

الأوَّل — قطعُ الثلثين بَقَلم الثُّلُث الثقيل . وفيه يُكتَب لنُوّاب السلطنة بمصر والشام مطلقــا، وكذلك الوزِيرُ، والمشِــيرُ، وكاتبُ السر، وقاضى قُضاة الشافعيــة والحنفيَّة بالديار المصرية .

الثــانى — قَطْع النصف بقلم الثُّلث الخفيف . وفيه يُكتَب لذَوِى التقاليد من أُمَراء العرب : وهم أميرُ مكةَ المشرَّفةِ، وأميرُ المدينــة الشريفة، وأمير آل فَضْــل من عَرَب الشــام علىٰ ما تقــدّم ذكره . ولا يُكتَب من التقاليد شيءٌ فيما دُونَ هــذا المِقدار من قَطع الوَرق بحال . وســيأتى الكلام علىٰ نُسَخ التقاليد فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالىٰ .

النــــوع الثــانى

(ممــا يُكتَب فى الولايات الســلطانية المراســيمُ)

جمع مَرْسوم، أخذًا من قولهم : رَسَمْت له كذا فارتَسَمه إذا ٱمتثله، أو من قولهم : رسم علىّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهى علىٰ ضربيــن :

الضرب الأوّل

(المراســيم المكَبَّرة)

ولم يتعرّض لها المَقَرّ الشِّهابىّ ٱبن فضل الله فى "التعريف" لأنها لم تكن مستعملةً فى زمنه وإنمــا حَدَثَت بعده :

قال فى " التثقيف " : وهى على نمط التقاليد ليس بينهما آختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما ــ أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قَطْع الثلثين بل فى قَطْع النصف أو الثلث . الثانى ــ أنه لا يقال فيها « تقليدٌ شريفٌ » بل «مرسومٌ شريف» .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها ــ أنه يقتصر فى طُرّة المرسوم على «الأميرى» دُونَ «الكبيرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرىّ الكبيرىّ» . الثانى ــ أنه يقال فى المرسوم : « أن يستقرّ» ولا يقال : « أن يفوَّض» ولا : « أن يُقلَّد » . الثالث ــ أنه لايقال : «علىٰ أجمل العَوائد وأتمّ القَواعد» بل يقال : « علىٰ عادة مَنْ تَقدّمه وقاعدته » . الرابع ــ أنه لايقال فى الصَّدْر : « أما بعد » بل « وبَعْد » .

قال : وهى تختص بنُوّاب القِلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراءِ العُرْبان أو مَنْ[1] بالشام وحلَبَ، وشاذّى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى علىٰ طبقتين :

الطبقة الأُولىٰ ــ ما يُكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثلث . وذٰلك للنوّاب بالقلاع : من مقدّمى الألوف والطَّبْلَخانات : كنائب حِمْص، والرَّحْبَة، والبِيرة، وقلعة المسلمين، ومَلَطْية، وطَرَسُوس، وأَذَنةَ، وبَهَسْنىٰ، والفُتوحات الجاهانيّة وغيرها ممن يكتَب له المجلسُ العالى والسامىّ بالياء أو بغير ياء علىٰ ما تقدّم بيانُه فى المكاتَبات إليهم . وكذٰلك بعضُ أمراء العُرْبان وهم أميرُ آل عَلِىّ، وأمير آل مِرا، وأمير بنى عُقْبة . قال فى " التثقيف " : وصورة مايكتَب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله ممن بالشام الخ . تأمل .

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامىّ الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان (ويدعَىٰ له بمـا يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه علىٰ ما شُرِح فيه » .

فإن كانت النيابة تقْدمةَ ألف : كنيابة الرَّحْبة ونحوها ، كُتِب فى طرّة مرسومِ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرىُّ الفلانىّ فلان ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه ، فى المكان الفلانىّ علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت النيابة طَبْلخاناه كتب : «مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكان كذا ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » ، أو كتب : «مرسوم شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكانِ كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت نيابةَ قلعة دِمَشْقَ ، كتب : «مرسومٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، فلانٌ ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه فى النيابة بالقلعة المنصورة بدمشق المحروسة ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه ، علىٰ ماشُرِح فيه » . وكذلك كلُّ قلعة بحسبِ ألقاب نائبها التى يُكاتَب بها .

ثم يُكتَب فى الصَّدْر بعد البسملة خُطبةٌ مفتَتحة بالحمدُ لله ، ثم يقول : وبعدُ ، ويأتى بنحو ما تقدّم ذكرُه فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلسُ العالى أو السامىّ إلىٰ آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعَىٰ له بما جرتْ به عادتُه ، ويقال مايُفْهَم منه أنه المقصودُ بمـا تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ؛ ثم يقال : فلذٰلك رُسم

بالأمر الشريف إلىٰ آخره أن يَستقرّ المشارُ إليه فى كذا علىٰ عادةِ من تَقَدّمه فى ذٰلك وقاعدته ، فليَتَلَقّ ذٰلك ونحوه . ثم يُوصىٰ بما يناسب وظيفتَه التى تولّاها ، ويختم بنظير ماتقدّم ذكره فى ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبَّرة ما يُكتَب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطرّة والصدر علىٰ ما تقدّم فى الطبقة الأُولىٰ ، إلا أن خُطبته تفتتح بأمّا بعدَ حمد الله ، وتختَتم بما تقدّم ذكره . قال : وقد تكتب لنوّاب القِلاع من أمراء العَشَرات : مثل نائب بَغْراسَ ، ونائب الدَّرْبَسَاك ، ونائب كَرْكَر ، ونائب الكَخْتَا ، ونحوها . قال : وكذلك أربابُ الوظائف غير النّيابات ، مثل شادّ الدّواوين بالشام وحَلَب ، وشادّ مراكز البَرِيد بهما ، ونحو ذٰلك ، وبعض أمَراء العرب : كأمير بنى مَهْدِىّ ، ومقدّم عَرَب جَرْم ، ومقدّم عَرَب زَبِيد علىٰ نُدْرة فيه . فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلس السامى ، الأمير فلان الدين أعزه الله تعالىٰ ، فى النيابة ببَغْراسَ ، أو بالدَّرْبَسَاك ، أو بكَرْكَر ، وما أشبه ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بشَدّ بالشام أو بحلَبَ ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ أن يستقرّ المجلس السامى ، الأمير ، فلان الدين : أعزه الله تعالىٰ فى شَدّ الدواوين بالمكان الفلانى ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ماشُرِح فيه» . وإن كان بشَدّ مراكز البَرِيد ، أُبْدِل لفظ «شَدّ الدواوين» بلفظ «شَدّ مراكز البَرِيد بالمكان الفلانى» . وإنْ كان بإمرة بنى مَهْدِى ، كتب : « فى إمرة بَنِى مهدىّ ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته » . وإن كان بتَقْدمة عرب جَرْم ، كتب : «فى تقدمة عرب جَرْم ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زَبِيد ، أبدل لفظ جَرْم بزَبِيد ، وعلىٰ ذٰلك .

———

الضـــــرب الثـانى

(من المَراسيم التى تكتب بالولايات المَراسيم المصغَّرة)

وهى مايُكتب فى قَطْع العادة، وبها يُكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظرِ الأوقاف ونحوِه . وهى صنفان :

الصنف الأوّل — ما يُترك فيـه أوصالُ بيـاضٍ بين الطُّرّة والبسملة، وهى أعلاها، ويُكتَب بالسامى بغير ياء أو مجلس الأمير :

وصـورتها أن يكتب فى الطرّة : «مرسومٌ شريفٌ أن يَسـتقرّ المجلسُ السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان فى كذا وكذا بمـا لذٰلك من المعـلوم الشاهدِ به ديوانُ الوقف، أو نحو ذٰلك، علىٰ ماشُرِح فيه» ثم يكتب فى الصَّدْر بعد البسملة ماصورته : «رُسِم بالأمر الشريفِ العالى، المولوىّ، السلطانِىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» (باللقب الخاصّ ولقبِ السلطنة) ويُدْعىٰ له بمـا فيه براعةُ الاسـتهلال بذكْر الوظيفـة أو آسمِ صاحبها أو لقَبِـه ونحو ذٰلك ، وأقلُّها ثلاثُ فِقَرات فمـا زاد «أن يستَقِرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجل» (إلىٰ آخر ألقابه)، أو أن يستقرّ مجلِسُ الأميرِ، الأجلّ (إلىٰ آخر الألقاب) لمـا له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بمـا يُناسب المقام) ثم يقـال : فلْيباشِرْ ذٰلك، أو فلْيتَلَقَّ ذلك، أو فليُقابل صدَقاتنا الشريفةَ بكذا ونحو ذٰلك . ثم يُوصَّى بمـا يليق به ، ويدْعىٰ له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعْلاه الله تعالىٰ» .

قلت : وهـذا الصِّنف إن رُوعِى صاحبُـه، كتب فى قَطْع العادة المنصورىّ، وإلا ففى قطع العادة الصغيرِ . قال فى "التثقيف" : وممـا ينَبَّـه عليه أنه لا يُكتَب

مرسومٌ شريفٌ فى قطع العادة إلا بمثل نيابة الشَّقيف بصَفَد[(١)] وصَرْخد وعَجْلُون والصُّبَيْبة ، فإنه لايُولّى فيها إلا مقدَّمُ حَلْقة او جنـديٌّ ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا، فإنَّ كُفَّال الممالك يستَبِدّون بالتولية فى ذٰلك .

الصنف الثـانى — ما يُكتب فى هيئـة ورقـة الطريق ، ويكونُ فى ثلاثة أوصال ؛ وصـورته أن يكتب فى الطرّة ماصورتُه : «مرسومٌ شريف أن يسـتقِرّ فلان، أو أن يرتَّب فلان فى كذا وكذا، علىٰ ماشُرِح فيه» ويكون ذٰلك فى سطرين، ولا يكتب فى أعلاه الأسمُ الشريفُ كما يُكتب فى غيره : لأن من المعـلوم أنه لا يُكتب فى هذا إلا الأسم الشريف فيستغنىٰ عن ذكره ؛ ثم يكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف» علىٰ نحو ماتقدّم، إلا أنه لا يُحتاج فى الدعاء إلىٰ مايكون فيه براعةُ ٱستهلال، بل يكْفِى «أعلاه الله وشرفه،وأنفذَه فى الآفاق وصرَّفه» ونحو ذٰلك «أن يَستقرّ فلان فى كذا أو يرَتَّب فى كذا، فليُعتَمَدْ ذٰلك ويعمَلْ بحسَـبِه ومقتضاه، بعد الخط الشريف أعْلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ» .

النـــوع الثـالث

(ممـا يُكتب فى الولايات السلطانية التفاويضُ)

جمع تَفْويض ؛ وهو مصـدر فوّض الأمرَ إلىٰ زيد إذا ردّه إليـه، ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَىٰ اللَّهِ ﴾ أى أَرُدُّه إليــه . قال فى "التعريف" : وبه يُكتب لعامَّة القُضاة ، يعنى ممن دُون أرباب التقاليـد، وهى من نَمَط التقاليد، غيرَ أنها يقال فى تعريفها « تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا » . ومقتضىٰ ماذكره أنه إذا

---

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل .

كتب « تفويضُ شريفٌ بقضاء قُضاة الديار المصرية مثـلا » يكتب فى الطُّرّة :
« تفويضُ شريفٌ للجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، بقضاء قُضاة المـالكيّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمـل العَوَائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلومِ الشاهدِ به الديوانُ المعمور علىٰ ما شُرِح فيـه » ثم يأتى بنحو ما تقـدّم ترتيبُـه فى التقـاليد ، إلا أنه يكون أخصَرَ .

قلت : ولم أقِفْ علىٰ نسخةِ تفويض غيرِ نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقرّ الشهابىّ آبن فضل الله لبعض قُضاة دِمَشْقَ . وقد أنشأتُ أنا تفويضا بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية لقاضى القُضاة جمـالِ الدين يُوسـف البِسَاطىّ ، حين وُلِّىَ علىٰ أثَرِ ولاية قاضى القُضـاة جلالِ الدين البُلْقِينِىّ (١) قضاءَ قُضاة الشافعيّـة ، آفتتحتُه بلفظ :
« الحمدُ لله الذى شَفَع جَلال الإســلام بجَمَاله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرّته :
« تفويضُ شريف للجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الجَمَالِىّ ، يوسُف البِساطىّ المالكىّ ، أعز الله تعالىٰ أحكامَه بقضاء قُضاة المـالكية بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، علىٰ ما شُرِح فيه » . وقرأته بالمجلس العامّ بالمدرسـة المنصورية .
وسـيأتى ذكر نسختِه فى الكلام علىٰ النُّسَخ فى المقْصِـد الثانى من هـذا الطَّرَف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) بُلْقِينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النـــوع الرابع
(التواقيــعُ ، جمعُ توقيـــع)

قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب عن آبن حاجب النُّعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : أنَّ التوقيع معناه فى اللغة التأثيرُ الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقَّعــةُ الجَنَبَة[1] اذا أَثَّر فيها الرَّحْلُ تأثيراً خفيفًا ، وأنه يحتملُ غيرَ ذلك . وفى آصطلاح الأقدمين من الكُتَّاب أنه آسم لمـا يُكتَب فى حواشى القِصَص بخطّ الخليفة أو الوزيرِ فى الزمن المتقدّم ، وخط كاتبِ السِّرّ الآنَ ؛ ثم غَلَب حتّى صار عَلَمًا على نوعٍ خاصٍّ ممـا يُكتَب فى الولايات وغيرها . قال فى "التعريف" : وهى على أُنْموذَج التفاويض . قال : وقد يقال : أن يرتَّب ، وأن يقَــدّم ، ثم قال : وعُنوانها « توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا » ولا يقال فيها على آختلافها : «وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه» كما فى التقاليد ، بل يقال : «فلْيعْتَمَدْ ما رُسِم به فيه بعد الخطّ الشريفِ أعلاه» . وقد ذ كر فى " التعريف " أنها تكون لعامّــة أرباب الوظائف جليلها وحقــيرِها ، وكبيرِها وصغيرِها ، حتّى الطبلخانات اللاحقين بشأو الكِبار فمَن دُونَهم . وقال فى "التثقيف" : إنها مختَصّــة بالمتعمِّمين من أرباب الوظائف الدينيّة والدِّيوانيــة ، ولا يُكتَب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البِيمارَسْتان ، ونظر الجامع الجديدِ ، ونظر الحَرَمين الشريفين ، يعنى حَرَم القُدُس وحَرَم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بينَ كلامَيْهما أنه فى زمن صاحب " التعريف " كانتِ التواقيعُ تُكتَب بالوظائف لأرباب السُّــيوف من النِّيابات وغيرها قبــل أن تُحدَثَ المراسيمُ المكَبَّرة المقدّمة الذكر ؛ ثم خُصَّت التواقيعُ بعــد ذلك بالمتعمِّمين دُونَ أرباب

(١) الجنب والجانب والجنبة محركة شق الانسان . قاموس .

السـيوف . ومضىٰ الأمرُ علىٰ ذٰلك فى زمن صاحب "التثقيف" يجرىٰ علىٰ حكمه ولم يبقَ ممن يكتب له توقيعٌ من أرباب السـيوف سوىٰ نُظّار الجهـات الثـلاث المتقدّمة الذِّكر : من البيمارَسْتان المنصورى، والجامع الجديد الناصرىّ بمصر، ونظر الحرَمَيْن : حرمِ القُدُس الشريف، وحَرَمِ الخليـل عليه السـلام . والحكمُ باق علىٰ ذٰلك إلىٰ الآنَ .

ثم التواقيع علىٰ ٱختلافها لا تخرُج عن أربع طبقات :

الطبقـــة الأولىٰ

(ما يفتتح بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — ما يكتَب فى قَطْع النصـف بقـلم خفيف الثُّلُث . قال فى "التثقيف" : وصورتُه يعني مايكتَبُ به لأرباب الأقلام أن يكتَب فى الطرّة : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّضَ إلىٰ المجلس العـالى، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، الفـلانىّ (ويُدْعىٰ له دعوةً واحدة) بمـا(1) جرت به عادتُه، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعد، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وقتٍ على ماشُرِح فيه» .

قال : فإن كان حاكمًا ، كُتب له بعـد الكبيرىّ ، الحـاكمىّ . وإن كان كاتب السرّ، كتب له بعد الكبيرىّ، اليَمينى، لاغير . ثم يكتب فى الصدر خُطْبة مفتَتَحة بالحمـد لله ثم يقال : أما بعـدُ، والتّتمة على نظـير ما ذُكر فى التقاليـد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولِّى لها ممـا يناسِبُ الحال . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتب بذٰلك للقُضاة الأربعة بالديار المصرية، والقُضاة الأربعة بالشام، وكاتبِ السرّ بمصر

(١) لم يذكر المفوّض به إليه للعلم به من نظائره والأصل أن يفوض الى المجلس ... ... نظر الجامع الجديد الناصرى مثلا بمـا جرت به الخ فتنبه .

والشـام ، وناظرِ الجيش بهـما ، وناظر الدواوين المعمورةِ والصُّحْبة الشريفـة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذٰلك لقاضى القُضاة الشافعيّة بالديار المصرية علىٰ ما كان الأمرُ عليـه أوّلا ، كتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقِرّ المجلس العالى ، القاضوىُّ ، الكبيرىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه ، فى قضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائِد وأتمّها ، وأكمل القواعِد وأعمّها ، بمـا لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتِب به لقاضى القُضاة الحنفيّة ، علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا أيضا ، كتب له نظير قاضى القُضاة الشافعية إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بـ«الحَنفيّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة المـالكية ، علىٰ ما الأمر مستقرٌّ عليه الآنَ ، كتِب له كذٰلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ«المـالِكيّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة الحنابلة فكذٰلك ، ويقال فيه «الحَنَابلة» .

وإن كتب به لأحدٍ من القُضاة الأربعـة بالشام ، فكذٰلك ، إلا أنه يقال قضاء قُضاة الشافعيّة أو الحنفية أو المـالكية أو الحنابلة بالشّام المحروس .

وإن كتب به لكاتبِ السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا ، كتب : « توقيع شريفٌ بأن يُفَوّض إلىٰ المجلس العـالى ، القاضَوىّ ، الكبيرى ، اليمينىّ فلان ، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَـه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريف بالممـالك الإسـلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العوائِد ، وأكمل القواعِد ، بالمعلوم الشاهـد به الديوانُ المعمورُ ، علىٰ ماشُرح فيه » .

وإن كُتب به لكاتبِ السرّ بالشام، أُبْدل لفظُ الممالكِ الإسلامية بـ«الشأم المحروس» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المصريّة ، كتب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الجيوش المنصورةِ بالممالك الإسلاميّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لناظرِ الجيش بالشام ، أبدل لفظُ الممالك الإسلامية بـ«الشام المحروس» .

وإن كتب به لناظر الدولة، كُتِب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، القاضوىّ ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الدواوين المعمورةِ والصُّحبةُ الشريفةُ ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد ، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ علىٰ ماشُرِح فيه» .

وإن كتب به لناظر البيمارَسْتان لصاحب بسيفٍ[1]، كتب : «توقيعٌ شريفٌ أن يفوّض إلىٰ المقرِّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالى (علىٰ قدر رُتبتـه) الأميرىّ، الكبيرىّ ، الفلانىّ ، فلان الناصرىّ مثلا : أعزَّ الله أنصاره ، أو نُصرتَه ؛ أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه (بحسَب ما يليق به) نظرُ البيمارَسْتان المعمور المنصورىّ، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور علىٰ ما شُرِح فيه» . وكذلك نظرُ الجامع الجديد ونظرُ الحرمين الشريفين كلٌّ بما يناسب الألقاب . وعلىٰ ذٰلك .

(١) لعله وران صاحب سيف .

المرتبة الثانية من التواقيع — مايكتب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات ، وهو لمن مرتبته السامىّ بالياء . قال فى "التثقيف" : وصورته فى الطُّرّة والصدر على ما تقدّم شرحه لكن بأخصر مما تقدّم . قال : وبذلك يكتب لنقيب الأشراف ولقضاة القضاة بحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك ، وكذلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمفتين بدار العدل بها ، ووكلاء بيت المال بها ، والمحتسبين ، ونظار الجيش بها ، وكتّاب الدّست بمصر والشام ، وناظر البيوت بالديار المصرية . وكذلك ناظر خزائن السلاح ، ومستوفى الصّحبة ، وناظر بيت المال ، وناظر الخزانة الكبرى وخزانة الخاصّ ، وناظر الأحباس ، ومشايخ الخوانق الكبار : كسعيد السعداء ، وبيبرس بالقاهرة ، والشّميصاتيّة بدمشق . وكذلك تقدمة التركمان بالشام ، وتقدمة الأكراد به ، ومشيخة العائد .

فإن كتب بذلك لنقيب الأشراف ، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالى علوّه ، فى نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شرح فيه» .

وإن كتب لقاضى قضاة الشافعية بحلب ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أيّد الله تعالى أحكامه ، فى قضاء قضاة الشافعية بحلب المحروسة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه .

وإن كتب للحنفىّ بها كتب كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية بـ«الحنفيّة» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحد قضاة القضاة بغيرها : كطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرك ، أبدل لفظ حلب بلفظ تلك المدينة ، والباقى على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قُضاة العسكر بالممالك المذكورة، كُتب «توقيعٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ الساميّ، القضائيُّ، فلان الشافعيّ، مثلا أو نحو ذٰلك : أيّد الله تعالىٰ أحكامه، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بإفتاء دار العَدْل بشىءٍ من هذه الممالك، أبدل لفظ «قضاء العسكر» بلفظ «إفْتاء دارِ العدل» والباقى علىٰ حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها، كتب «توقيع شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ الساميّ، القضائيّ، الفلانىّ، فلانٌ : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وَكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب لأحدٍ من المحتسِبين بهذه الممالك، كتب «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظر الحِسْبة الشريفة بالمكان الفلانى علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه» .

وإن كُتب لأحد من وُكلاء بيتِ المال بها، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس الساميّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانى، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه» .

وإن كتب لأحدٍ من نُظّار الجيش بها، كتب «توقيع شريف بأن يَستقِرّ المجلس الساميّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظَر الجُيوش المنصورة بالمملكة الفلانية، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه» .

وإن كتب لأحدٍ من كُتّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى كتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة» . ثم إن كان عن وفاةٍ عَيَّنه أو بنزُول عَيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبْدِل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذٰلك فى نظر البيوت بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائى ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر البيوت المعمورة » .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائنِ السِّلاح بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السِّلاح المنصورة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحْبة، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى آستيفاء الصُّحْبة الشريفة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بنظر بيت المال ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىُّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر بيت المال المعمور ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبْرىٰ ، كتب « توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامى ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر الخزانة العالية الكُبْرىٰ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاصّ ، أُبْدل لفظ الخزانة العالية الكبرىٰ بلفظ خزانة الخاصّ الشريف ، والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كُتب بنظر الأحباس، كُتِب « توقيعٌ شريفٌ ان يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ رفعتَــه، فى نظر الأحباس المبرورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بمَشْيَخة الخانقاه الصَّلاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يســتقرّ المجلسُ السامىّ ، الشَّيخىّ ، الفــلانىّ : أعاد الله تعالىٰ من بركاته ، فى مَشْيخة الخانقاه الصَّلاحيَّة ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه بيــبَرْس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصَّــلاحيَّة » بلفظ «الخانقاه الرُّكْنيَّة بيبرس» والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كتب بمشيخة الشُّمَيصاتية بدمشق ،أبدل ذٰلك بلفظ«الخانقاه الشُّمَيصاتيَّة بالشام المحروس» .

وإن كتب بتَقْدِمة التُّرْكُمَان بالشام، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يســتقرّ المجلس السامىّ ، الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ، فى تَقْدِمة التُّرْكُمان بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بتَقْدِمة الأكراد ، أبدل لفظ «التُّرْكمان» بلفظ «الأكراد» .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يســتقرّ المجلس السامىّ الفلانىّ : أعزّه الله تعــالىٰ ، فى مَشْيخة العائد ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » . وعلىٰ ذٰلك .

الطبقـــة الثـانية

(من التواقيع ما يُفْتتح بلفظ « أما بعـدَ حمد الله » وهو لمن رُتْبته السامى بغـــير ياء ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث ، وهو الأصلُ فيما يُكتب فى الثلث ثم تُرُقِّىَ عنــه إلىٰ رُتْبــة الآفتتاح بالحمد . ألا ترىٰ أن المَناشـيرَ التى تُكتَب فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات تفْتَتح كلُّها بلفظ « أما بعــدُ » علىٰ ما ســيأتى بيانُه فى المقالة السادسة ، فى الكلام علىٰ المَنَاشير ، إن شاء الله تعالىٰ .

وصورته أن يكتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس الســامى ، القَضائى" ، فلانُ الدين أو الشيخُ فلان الدين فى كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه ، علىٰ ماشُرِح فيه » ثم يَكتب فى الصدر « أما بعدَ حمدِ الله » ويصلِّى علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يقول : « فإنَّ أوْلَى الأمور بكذا مَنْ هو بصفة كذا » أو « إنَّ أوْلَى الناس بالتقديم من هو متّصف بكذا » ونحو ذٰلك ؛ ثم يقال : « ولـمَّا كان المجلس » ويؤتىٰ بنحو ماتقدّم فى المفْتتح بالحمْدُ لله .

قلت : وقد قَلَّ آستعمال هذا الضَّربِ بديوان الإنشـاء الشريفِ وإن كان هو الأصلَ فيما يكتب فى هذا القَطْع ، حتّى لايكاد يُكتَب به إلا فى النـادر ، تغَاليـا فى رِفْعة المكتوب لهم ، مع المسامحة لهم فى مثل ذٰلك .

المرتبة الثـانية — ما يُكتَب فى قَطْع العادة المنصورى" .

والأمرُ فيه علىٰ ماتقـدّم فيما يُكتب من هذه الطبقـة فى قطع الثلث . قال فى "التثقيف" : وهو قليـلٌ جدّا لا يكون إلا فى تَدريسٍ كبـير ، أو نظرِ وقف

كبير، أو مشيخةِ الحرم الشريف بالقُدُس الشريف، إن لم يكن فى قطع الثلث؛ أو لرجلٍ كبيرٍ قديم الهجرة فى الخدْمة الشريفةِ، إلا أنَّ الوظيفة صغيرةٌ لاتقتضى أن تكون فى قطع الثلث .

الطبقـــة الثـالثة

(من التواقيع ما يفتتَح بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يُكتب فى قَطْع العادة المنصورى بقَلَم الرِّقاع ، وهو لمن رُتبته الســامِى بغير ياء ممن لم تبلغ رتبتُه قطعَ الثلث . قال فى "التثقيف": وصورته أن يكتب فى الطرّة «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامِى القاضِى فلان الدين: أعزه الله تعـالىٰ فى كذا ، أو أن يُرتَّب ، أو أن يُقَــدَّم » ويذكر ما تضَمَّنه الشاهدُ من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوِزارة أو الخاصّ أو غير ذٰلك «على ماشُرِح فيه» . قال: ثم يكتب فى الصــدر بعد البســملة « رُسِم بالأمر الشريف العــالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ، الفــلانىّ، باللقب الخــاص، ولقب السلطنة » : مثــل الناصرىّ ، الزَّيْنِىّ ، ونحو ذٰلك (ويُدْعىٰ للسلطان بأدعية تُناسِب الوظيفــةَ والمتولِّىَ لهــا ، .وأقلُّها ثلاث فِقَرات فما زاد) «أن يستقرّ المجلسُ السامى، القاضى، فلانُ الدين فلان، أو مجلسُ القاضى فلان الدين فلان : أعزَّه الله تعــالىٰ فى كذا ، لمــا له من صِــفاتٍ هى كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بمــا يُناسب المَقام) ثم يقال : فلْيباشِرْ ذٰلك ، أو فليتَلَقَّ هذا الإحسان ، أو فليقابِلْ صدَقاتِنا الشريفةَ» ونحو ذٰلك ؛ ثم يُوصَىٰ بما يليق بتلك الرتبة، ويدعىٰ له بسجعتَين فقط . ثم يقال : «بعدَ الخطّ الشريفِ أعلاه» . ثم قال: وبذٰلك يكتب لكُتّاب الدَّرج، ومستوفِى

الدولة ، وناظرِ الأهْراء ، وناظر المَطَابخ ، ومشايخ الخَوانِق الصِّغار، والتّداريس الصِّغار ، وأنظارِ الأوقافِ الصِّغار، ونحو ذٰلك ممـا لا يأخُذه حَصْر .

وحينئـذ فإن كُتِب بذٰلك لكاتب دَرْج ، كتب فى الطـرّة « توقيع شريفٌ أن يستقرّ مجلسُ القاضى فلانِ الدين فلان : أعزّه الله تعالىٰ فى كتابة الدَّرْج الشريف » .

وإن كتب به لمستوفٍ من مستوفِى الدولة ، كُتب «أن يستقرّ المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمتَه ، فى آستيفاء الدولة الشريفةِ علىٰ عادة من تقدّمه » .

وإن كُتب لناظر الأهراء ، كُتب « أن يستقر المجلسُ السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعتَه ، فى نظر الأهراء السعيدةِ » .

وإن كتب بنَظَر مَطَابخ السُّكَّر ، كتب « أن يستقرّ المجلس السامى ، القـاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظَر المَطَابخ السعيدة» .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه صغيرة ، كتب «أن يستقر المجلس السامى ، الشَّيْخىّ ، فلان الدين فلان ، أو مجلسُ الشيخ فلان الدين فلان : نفَع الله تعالىٰ ببركته ، فى مَشْيخة الخانقاه الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كُتِب بتدْريسٍ صغير ، كتب «أن يستقرّ فى تدْريس المدرسـة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظَر وقْف ، كتب « أن يسـتقرّ فى نظر الوقْف الفـلانىّ » ونحو ذٰلك .

ثم إن كان لشيءٍ من ذٰلك معلوم يشهَد به الديوانُ السلطانىُّ ككتابة الدَّرْج وآستيفاءِ الدولة ، كُتِب بعد قوله وقاعدتِه : « بما لذٰلك من المعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمور » .

وإن كان الشاهدُ بالمعلوم كتّابَ وقف ، كتب « بما لذٰلك من المعلومِ الشاهدِ به كتّابُ الوقف المبْرور» . ويقول فى آخر طُرّة كل ولاية من التقاليد ، والتفاويض ، والمَرَاسِيم ، والتواقيع علىٰ اختلافها : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصِّغار ، وهى لأصغر ما يكونُ من الولايات :
من نَظَر وقْفٍ صغيرٍ ونحو ذٰلك ، وتكون فى ثلاثة أوصال ونحوها)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل — ما يُكتب علىٰ مِثال أوراق الطَّرِيق .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلىٰ الدَّرْج : «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ فلان فى كذا ، علىٰ ما شُرِح فيه » . ويكونُ ذٰلك فى سطرين ؛ ثم يُكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ السلطانىّ» إلىٰ آخر ماتقدّم فى الطبقة الثالثة . ويقال فى الدعاء : « أعلاه اللهُ وشَرَّفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذٰلك . ثم يقال : «أن يستقر فلانٌ فى كذا» ويشرح ماتضمّنه الجواب فى هامش القِصّة . ثم يقال : «فليْعتَمِدْ هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقفٍ عليه ، ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه ، من غير عُدُول عنه ولا خروج عن مَعْناه ، بعْدَ الخط الشريف أعلاه» .

الضرب الثـانى — ما يُكتَب علىٰ ظُهور القِصَص .

وكيفيّته أن تُلصَق القِصّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرّ أو غيره علىٰ وَصْلَيْنِ من ورَق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتُها أن يُكتب فى ظاهر القصّـة بغير بَسْمَلة قبل الوصل الذى وصـله بنحو أربعة أصابع ما صورته : « رُسِم بالأمر الشريفِ العالى المولَوِىّ السلطانى » علىٰ نحو ما تقـدّم . ويُدْعىٰ له : « أعلاه الله وشرّفَه ، وأنفذه وصرّفه » علىٰ ما تقدّم فى الضرب الأوّل . ثم يقال : «أن يُتأمّل ما أنهاه رافعُها باطنا ، وليُتقـدّم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمّنه الجوابُ فى هامش القِصّـة . ثم يقال : « فليعتَمد هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه ومقتضاه، بعـد الخطّ الشريف أعلاه» . قال : وإن كان رافعُ القصّة ممن هو متميِّز بعضَ التميُّز قيل : «مترجِمُها» بدل «رافِعُها» . فإن زِيدَ فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلسُ القـاضى أو المجلسُ السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبـة ، وتُذكر بعضُ ألقابه . ثم يقـال : « أدام الله عُلوَّه » أو « أعزه الله ، فليتقـدّم » ويكمَلُ إلىٰ آخره .

وآعلم أنَّ المقرّ الشّهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" آفتتاحاتٍ أخرىٰ للتواقيع بين رُتْبَة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسِم بالأمر الشريف» فقال : بعد الآفتتاح بأما بعدَ حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعدُ فإنَّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه، وقد تستفتَح بقول : « من حسُنَت طرائقُه ، وحُمدت خلائقُه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رُتبةً بعد رتبةٍ .

قلت : وهذه الآفتتاحات كانتْ مستعملةً فى الدولة العباسية ببغْدادَ، وفى الدولة الفاطميّة بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة، ثم فى الدولة التُّركيّة إلىٰ زمن المَقرّ الشّهابىّ

المشار إليــه فى الدولة النـاصريّة محمد بن قلاوون؛ ثم رُفِضتْ بعــد ذٰلك، وتُرِك ٱستعمالُهـا بالديار المصرية البتّــةَ، فلم يكن أحدٌ من كُتّاب ديوان الإنشاء يســتعْمل شيئًا منهـا .

المقْصـــــد الثـالث

(فى بيان كيفيّة وضع ما يُكتب فى هذه الولايات فى الوَرَق ، ويتعلّق به عشَرةُ أمـــور)

الأمر الأوّل — الطُّرّة، وهى فى ٱصطلاحهم عبـارةٌ عن طَرَف الدَّرْج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يُكتَب فى رأس الدَّرْج مجازا، تسميةً للشىء باسم مَحَلِّه .

قلت : وليس صحيحًا من حيثُ اللغة، فإنّه فى الأصل مأخوذٌ من طُرّة الثوب . وقد ذكر الجوهرىّ وغيره أن طُرّة الثوب هى طَرَفُـه الذى لاهُدْب فيــه، والذى لاهُدْبَ فيه من الثوب هو حاشيَتاه، بخلاف أعلاه وأســفلِه . نعم يجوز أن تكون مأخوذةً من الطَّرّ بمعنى القَطْع ، لأن الطُّرّة مقتطَعةٌ عن كتابة المتْن، يفْصِل بينهـما بياضٌ ، ومنــه سمِّى الشَّعْر المرسَل على الصُّــدغ طُرّة . وقد جرتِ العـادةُ فى كل مايكتَبُ له طرّةٌ أن يكتب فى أعلىٰ الدَّرْج فى الوَسَط بقَلَم الرِّقاع بكل حالٍ ماصورتُه « الأسم الشريف » ثم تكتَبُ الطرّة تِلْوَ ذٰلك من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره، دون هامِشٍ عن يمينٍ ولا شِمال : بحيث تكون أطرافُ المنتصبات من أوّل السطر الأوّل ملاصِــقةً لأسفل ما كُتِب فى أعلىٰ الدَّرْج ممـا تقدّم ذكره . ويأتى بالطرّة المناسبة : من تقليدٍ ، أو مرسومٍ، أو تفويضٍ، أو توقيعٍ، بالقلم المناسِب لمقدار قَطْع ذٰلك الورق علىٰ ما تقدّم بيـانُه، ويأتى علىٰ ما يُكتب فى الطرّة علىٰ ماتقتضــيه

الحال، على ماسبق ذكره إلى أن ينتهى إلى آخره . فإن آنتهى فى أثناء سطر، ترك باقيه بياضا، وكتب فى آخره «على ماشرح فيه» بحيث يوافى آخر ذلك آخر السطر . وإن آنتهى ما يكتب فى الطرّة فى آخر السطر، كتب تحت ذلك السطر على حيال آخره «على ما شرح فيه» كما تقدّم، لايختلف الحالُ فى ذلك فى مكتوب ولاية، إلا فيما يكتب على ظهور القِصَص : فإنّ العادة جرتْ فيه أن لايكون له طرّة، ولا يكتب فى أعلاه الآسمُ الشريف : لأنه قد علم أنه لا يكتب فيه إلا الآسمُ الشريف، فلم يحتج إلى تنبيهٍ على ذلك .

الأمر الثانى — البسملةُ الشريفة . ومن شأنها أن تكتب فى أوّل كلّ ولاية لها شأنٌ، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فيه بحَمْدِ اللهِ فهُوَ أجْذَمُ» يعنى ناقصَ البركة . ومحلُّها من كُتُب الولايات فى أوّل الوصل الرابع بعد أوصال البَيَاض . أما مالا بالَ له من كُتُب الولايات : كالتواقيع التى على ظُهُور القِصَص وما هو منها على صورةِ أوراق الطريق، فقد جرى الآصطلاحُ على أنه لا يكتب فى أوّلها بسملةٌ أصلا، بل تفتتح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاءُ الدين علىٌّ الكَرَكىّ حينَ وُلِّىَ كتابة السرّ الشريف بالديار المصرية فى أوّل سلطنة الظاهر برقوقٍ الثانية أمر أن تكتب فى أوّل هذه التواقيع بسملةٌ لطيفةُ المقدار، طلبًا للتبرك، ثم تُرِك ذلك بعد موته وآنتقالِ الوظيفة إلى غيره . ولايخفى أنّ ماعليه الآصطلاحُ هو الوجه : فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قيّد مايُبْدَأ بالبسملة بما يكون له بالٌ من الأمور، ومقتضاه أنّ مالا بالَ له لايُبْدَأ فيه ببسملة . على أنه قد كان أمر أن تُجعل البسملةُ قبل قوله «رُسِم بالأمر

الشريف» ومقتضى ذلك أن تقع العلامةُ فوقَ البسملة، وفيه مالا يخفى . بخلاف غيره من الولايات الكبار فإنّ العلامة تكونُ فيها تحتَ السطر الثانى من البسملة ، على ما سيأتى بيانُه .

الأمر الثالث — الافتتاحُ الذى يلى البسملةَ . وقد علمتَ مما تقدم أنّ الذى استقرّ عليه افتتاحُ كتُب الولايات على اختلافها من أعلى وأدنى لا يخرُج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الافتتاحُ بالحمدُ لله، وهو أعلاها . ثم تختلف رتبتُه بعد ذلك باختلاف ما يُكتب فيه من مقادير قَطْع الورق : إذ هو تارةً تُفتتح به التقاليدُ ، وتارة تفتتَح به المراسيمُ المكبَّرة ، وتارة تفتتَح به التفاويضُ ، وتارة تفتتَح به كبارُ التواقيع .

الثانى — الافتتاحُ بأما بعدَ حمدِ الله . وهو المرتبةُ الثانيةُ من المراسيم المكبَّرة ، والتواقيع الكبار . وتكون فى قَطْع الثلث تارةً ، وفى قطع العادة المنصورىّ أخرى .

الثالث — الافتتاحُ برُسِم بالأمر الشريف . وهو المرتبة الثالثةُ من المراسيم والتواقيع ، وهى أدنى رُتَبها . وتكون فى قطع العادة الصغير، وربما كُتِب بها فى قطع العادة المنصورىّ .

الأمر الرابع — البعديةُ فيما يفتتح فيه بالحمدُ لله، وهو على ضربين .

الأول — أن يقال بعد التحميد والتشهُّد والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم : أما بعدُ، وهو الأعلى . وتكون فى التقاليد خاصَّةً .

الثانى — وبعدُ، وهى دُونَ أما بعد . وتكون فى التفاويض وكِبار المراسيم والتواقيع . وقد مرّ القولُ على ذلك مستوفًى فى الكلام على الفواتح فى المقالة الثالثة .

الأمر الخامس — وصفُ المتولّى بمـا يُناسب مَقامه ومَقامَ الولاية من المَدْح والتقريظ . وقد مرّ القولُ علىٰ ذٰلك فى المقْصِد الأوّل من هذا الطّرَف، فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصّة بصاحب الولاية . قد تقـدّم أنه يذكر فى الطُّرّة بعضُ الألقاب التابعـة للّقب الأصلىّ : من المقرّ والجناب وغيرهمـا، مع التصريح باسم المولّى والدعاء له بمـا يُنَاسبه، على ماتقـدّم بيانُه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُسـتوعب جميعُ ألقابه ويعاد ذكْرُ الاسم والدعاء المذكور فى الطُّرّة . وقد تقدّم ذكْرُ الألقاب مسـتوفىً فى المقْصِد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصيّة صاحبِ الولاية بمـا يُناسب ولايتَه . وقد تقـدّم التنبيهُ علىٰ ذٰلك فى الكلام علىٰ مقدّمات الولاياتِ أيضا .

الأمر الثامن — الدعاءُ لصاحب الولاية بمـا يناسـبُه إذا كان مسـتحقًّا لذٰلك . وقد ذكر فى "التعريف" أن من ٱستُصْغِر من المُوَلّيْن لايُدعىٰ له فى أوّل ولاية ولا آخرِها، وربمـا قيل بدَل الدعاء أو بعده : « والخيْرُ يكون » .

الأمر التـاسع — الخَواتِم : من كتابة « إن شاء اللهُ تعالىٰ » والتاريخ، والمستَنَد، والحمدلة، والتصلية، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخرِ مكتوبٍ كلّ ولاية : « إن شاء الله تعـالىٰ » فى سطرٍ منفردٍ .

وأما التاريخ، فإنه يُكتَب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب «كُتِب فى يوم كذا من شهر كذا» فى سطر، ويكتَب «سنة كذا وكذا» فى سطر تحته .

وأما المستنَد، فإنَّه يكتب تحتَ التاريخ، كما تقدّم فى المكاتَبات . فإن كان بتلقِّى كاتبِ السرّ، كُتِب فى سطرٍ واحد « حسَبَ المرسومِ الشريف » . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب « حسَبَ المرسوم الشريف » فى سطر ، ثم كتب فى سطر تحته « برسالةِ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ الدَّوَادار ، الناصرىّ » مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب «حسَبَ الخَطِّ الشريف» . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب « بالإشارة العاليةِ الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب «كافلِ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ» فى سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب «بالإشارة العاليةِ الصاحبيَّة الوزيريَّة الفلانية » فى سطر ، ثم كتب فى السطر الثانى « مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» . وإن كان الوزيرُ صاحبَ سيف، أسقط منها «الصاحبيَّة» . أللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرا أو توقيعًا صغيرا مما كُتِب فى هيئة ورقة الطريق أو علىٰ ظهر القِصَّة ، فإنه إن كان بتلقِّى كاتب السرّ، كُتِب المستنَد علىٰ حاشية التوقيع علىٰ سَمْت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتِب هناك « بالإشارة العالية» سطرين، علىٰ نحو ما تقدّم فيما يُكتَب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذٰلك . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب علىٰ الحاشية هناك « حسَبَ المرسوم الشريف » ، ثم كُتِب تحتَ التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلىٰ آخر المستنَد .

وأما الحَمْدلةُ والصلاة على النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، ففى سطر تحت المستنَد ، كما فى المكاتبات، يكتب فيها «الحمد لله وحده» ثم يخلِّى بياضا، ثم يكتب «وصلَواته علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامُه» .

وأما الحَسْبَلَةُ ، ففى سطر تحتَ ذٰلك يكتب فيه « حَسْبُنَا الله ونعم الوكيلُ » علىٰ ما تقدّم فى المكاتَبَات .

الأمر العاشر — البياض الواقعُ فى كُتُب الولايات، وله سِتّةُ مواضع :

الأوّل — فيما بين الطُّرّة والبسملة ، وهى ثلاثةُ أوصال بالوصل الذى فيه الطرّة ، لا يتجاوزُ ذٰلك فى مقدار قطع كبيرولا صغير . إلا أنه ربما ٱقتُصر علىٰ وصلين فيما ٱستُصغر شأنُه من الرتبة الثالثة من التواقيع .

الثانى — الحاشيةُ فيما علىٰ يمين البسملة وما بعدها . وأهلُ زماننا يعبِّرون عن ذٰلك بالهامش ، ولم أجدْ له أصلا فى اللغة . وقد تقدّم القولُ عليها فى المقالة الثالثة ، فى الكلام علىٰ متعلَّقات قَطْع الورق وما ينخرط فى سِلْكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياضَ فيه ؛ علىٰ أنَّ مُلوك الروم يجعلون لكُتُبهم حاشيةً من أوّل الأسطر وحاشيةً من آخرها ، علىٰ ما تقدّم القولُ عليها فى الكُتُب الواردة عن صاحب القُسْطَنطِينِيّة .

الثالث — بيتُ العلامة ، وهو فيما بينَ السطر الأوّل : وهو الذى يلى البسملةَ ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكونُ فى آخر وصل البسملة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ الورق فى المقالة الثالثة أن مقدارَه فى الزمن القديم كان قَدْرَ شبر ، وقد شاهدْناه دونَ ذٰلك بقليل فيما كُتِب به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" علىٰ مايشهَد به الموجودُ من تواقيعهم ؛ ثم تَناقَص قليلا . فلمّا غَلَا الورقُ وقُصِّرت الأوصالُ نقص مقدارُه حتّى صار نحوَ شبر[1] ، وهو علىٰ ذٰلك إلىٰ الآن . ويزيد ذٰلك وينقُص بٱعتبار قَطْع الورق فإنه فى القَطْع الكبير يكون الوصلُ أطولَ منه فى القطع الصغير .

---

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لايخفى .

الرابع — ما بين الأسطر فى مَتْن الولاية . وهو على مقدار النِّصف من بيت العلامة فى القطع الكبير والقطع الصغير ، لا يكاد ذلك يختلف إلا فى التَّواقيع والمَرَاسيم التى هى على هيئة أوراق الطريق ، والتى على ظُهور القِصَص فإنَّ ما بين السطرين منها يكون متضايقًا حتَّى يكونَ بقدر ثلاثةِ أصابعَ مطبوقةٍ .

الخامس — مابين أسطُر اللَّواحِق فيما بعدَ «إن شاء الله تعالى» فإنه يكون مابين كلِّ سطرين من ذلك قدرُ نصف مابين السطرين فى مَتْن الولاية ، إلا فى المُستَنَد إذا كان سطرين ، مثل أن يكون برسالة الدَّوادار ونحوها ، فإنَّ السطرين يكونان متلاصقين .

السادس — ما بعدَ اللَّواحق فى آخر الكتاب ، وهو قدرٌ يسيرٌ يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثةِ أصابعَ مطبوقاتٍ وما قارَبَ ذلك .

المَهْيَع الثانى

(فى ذكر نُسَخ مما يُكتب فى متْن الولايات من التقاليد والمَراسيم المكَبَّرة والتفاويض والتَّواقيع)

قلت : وقد كنتُ همَمْت أن أجعلَ ابتداآتِ التقاليد ، والتفاويض ، والمَراسيم ، والتواقيع : من الافتتاح بـ«الحمدُ لله» أو بـ«أما بعد حمد الله» أو بـ«رُسِم بالأمر الشريف» فى فصلٍ مستقلٍّ ، ومقاصدَها المتعلقةَ بالوظيفة ... ...(١) الكاتب الذى لا يحسن الانشاء ما أحب من الابتداآت المناسبةِ للاسم أو اللَّقب ونحوهما ثم يبيِّن القصدَ المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذلك وأتيت بالنسخ على صُورتها لأمور : منها — أن فى تضييع النسخة إفسادًا لصُورتها وضَياعَ فضيلة المنشئين

(١) بياض بالأصل فى غير نسخة ولعله «فى فصل على حدة ليختار الكاتب الذى لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكرهم . ومنها ــ أن يعرف أنّ الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق ، وأنها مصطلَح قد اصطلَح عليه أهلُ ذلك الزمان . ومنها ــ أن يعرف المنشئ ترتيبَ من تقدّمَ لينسُجَ علىٰ مِنْواله . وإذا أراد من لادُرْبةَ له بالإنشاء أخذَ تحميدة من تقليدٍ أو توقيع وغيرهما ونقلها إلىٰ مَقْصِد من مقاصد الولاية لم يُعْجِزه ذلك .

ثم قسمته علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(ولاياتُ وظائف الديار المِصرية ، وهى علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(الولاياتُ بالحضرة ، وهى علىٰ ستة أضرب)

الضرب الأوّل

(ولايات ارباب السيوف ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(ذواتُ التقاليد ، وهى ثلاثُ وظائفَ)

الوظيفة الأولىٰ

(الكَفَالة ، وهى نِيَابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف المملكة فى المقالة الثانيةِ أن الكَفَالة هى أعلىٰ رُتَب نيابة السلطنة ، وأنّ النائبَ الكافلَ يحكُم فى كل مايحْكُم فيه السلطانُ ، ويُعَلِّم فى التقاليد والتواقيع والمَنَاشير وغير ذلك ؛ بخلاف غيره من النوّاب فإنّ كل نائبٍ لا يعَلِّم إلا علىٰ ما يختصّ بخاصّة نيابته . وقد تقدّم فى مقدّمة الولايات أنّ لقبه «المَقَرّ الكريم» علىٰ ما استقرّ عليه الحال .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة، كُتِب بهـا من إنشاء الشِّهاب محمودٍ الحلَبىّ رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل رُكْنَ الدولة فى دولتنـا القاهرةِ ثابتَ القواعد، علىٰ فَرْقَد الفَرَاقد، راقيًا فى رُتَب العُلوّ الآخذةِ من أُفُق التأييد بالمَطَالع ومن نُطُق العزّ بالمَعَاقد؛ حاليًا بعُـقُود المَهابة التى لا تَزالُ لُرعْبها علىٰ الأعداء طلائعَ خيلٍ فى المَرَاقب وورائعَ خَيَـال فى المَرَاقد، حاويًا مِنَ أنواع المفـاخر ما لو كاثَرَتْه الدَّرارىُّ غدَتْ وهى لمجموعه فَرَاقد، أو فاخرَتْه الدُّرَر ثقَّبتها الأفكارُ النواقد، مقلَّدًا من سُـيوف الظَّفَر مالا تَنْبُو فى نُصْرة الإسـلام مَضَاربُه وكيفَ تَنْبُو وأوامرُنا لعقُود حمائلها علىٰ عَوَاتق مَجْده عَوَاقد .

نحمده علىٰ نِعَمه التى ملَّكتْ أمورَ دولتنا بمن يَرْفَع بأسُـه مَنارَها، وعقَدتْ قواعِدَ مملكتنا بمن يُوالى فضلُه أنوارَها، وعضَدتْ هِمَمَ أوليائنا بمن إذا تخيَّلتْ أعداءُ الدين مواقِعَ صَوارمه كان أمنعُ صوْنها إسَارَها وأنفعُ سِلاحها فِرارَها .

ونشهد أنْ لا إِلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِقُ الهِمَمُ، بلَوَامعها، وتَشْرُفُ الكَلِمُ، بجَوامعها ، وتزكو الأمَم، بمـا تنقُل الألسنةُ منها عن القلوب إلىٰ مَسَامعها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أقامنَا اللهُ لنَصْر دينه ، وألهمَنا تفويضَ مصالح أمّتِـه الىٰ كلِّ ولىّ ما رُفِعَتْ رايةُ نَصْرٍ إلا تلقَّاها عَرَابةُ مجده بيَمينـه؛ وعضَّـدَنا فى جهاد أعدائه بأعزِّ صفىٍّ ينُوب بأسُـه لجيش عن طليعته ويقوم رأيه فى الحرب مَقَـامَ كَمِينه ، صـلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آختارهم لصُحْبته وآرْتضاهم، وأرْهفَهُم لإقامة ملّته وآنتضاهم ، فمنهم من فازَ بمَزيَّتىْ سـبْقِه وتصديقه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنَكِّب عن طريقـه ، ومنهم من آختار الشهادةَ علىٰ الآنتصار بفَريقه

ورَفيقه، ومنهم مَنْ أقامه بشَرف الأُخُوّة معــه مُقامَ شَقيقه، صلاةً يبْلُغه إخلاصُ مُقيمها، ويُعرَضُ عليه إيمانُ مُديمها، وسلم .

أما بعــدُ، فإنا من حينَ أورَثنا الله مُلْكَ الإسلام لاعن كَلاله، وألبَسنا فى مَواقف الذَّبِّ عن دينه حُلَل العزِّ المُعْلَمةَ بالجَلالة ، ومكَّن لنــا فى أرضه، وأنهضَنا بمسْنُون الجهاد وفَرْضه، ونَشَر دعوةَ مُلْكنا فى طُول الوجُود وعَرْضه ــ لم نزَلْ نرتادُ لكَفالة الممالك الإسلاميّة من تأوِى منه إلىٰ رُكْنٍ شديد، ورأيٍ سديد، وحَزْمٍ يقرِّب من مَواهِب النصر كلَّ بعيد، وعَزْمٍ إذا أرهفَ صوارِمَه من أدْنىٰ الصعيد، وجفَ لهَوْل مواقِعها بابُ الحديد، فهو المطوِيّ فى أثناء ضمائرنا و إن تقلدنا قبْلَه سِواه، والمنوِيّ فى أحناء سرائرنا و إنّمــا لامرئ مانَواه ،قد حلَبَ قِدمُ هِجْرته، الدَّهْرَ أشْطُرَه، وكتب حُسْنُ خِبْرته، من عُنْوان السِّــيَر أسطُره، وتمثَّلتْ مرْآة الزمان لفكْره فاجتلىٰ صُوَر الوقائع فى صَــفَائها، وتردّدَتْ تجارِبُ الأمم علىٰ سمْعِه فعَــلِم ما يأتى وما يَذَر فى تَرْكها واقتفائها، واستقبل دولَةَ أسلافنا الشريفةَ من فواتِحها : فكان لسانَ محاسنِها، وبنَان ميامنها، وخزانَةَ سرِّها، وكِنانةَ نَهْيها وأمرِها ، وطليعةَ تأييدِها، وذَريعةَ أوليائها إلىٰ عوارِفها وجُودِها، وعُنْوانَ أخبارِها، وعِنَان سَوابِقها التى لا تُدْرِك ما ثُرُ من سلَف شَقَّ غُبارها، ويمينَ قَبْضتها المصرِّفة بين البأس والنّــدىٰ، وأمينَ آرائها المؤيَّدة بالتوفيق اللّدُنِيّ علىٰ العــدا ، ورُكْنَها المُشَــيَّد بالأَسَل وهو ما تُبْنىٰ عليه الممــالك، وحصْنَها المصفَّح بالصِّفاح فلا تستطيعُ الأهواءُ أن تتوقّل إليه تلكَ المَسَالك، وزعيمَ جيوشِها التى اجتنَتْ من قَصَب قَواضِبه ثمر النّصْر غيرَ مَرَّه، ومقدَّمَ عساكرها التى اجتلَتْ به وجُوهَ الظَّفَر الحلوةَ فى أيّام الكريهة المُرّة .

ولمـا كانَ المَقَرّ الكريمُ (الفلانىّ) هو معنىٰ هـذه الصفات المُبْهَمه، ومَبْنىٰ هذه القواعد المحْكَمه، وطرازَ حُلَل هذه الأحوال المُعْلَمه، وسرَّ المقاصد الظاهره، وسِلْك هذه [النجوم] الزاهيَة بل فَلَك هذه الدَّراريّ الزاهره، تُحَلّق صَوادِحُ البراعة، فتقَع دُونَ أوصافه بمراحل، وتغوصُ سوابحُ اليَرَاعة، فيُلقيها العجْزُ عن آستخراج دُرَر نُعُوته بالسَّواحل، فأوصافُه تُذْكَر علىٰ وجْه الإجمال لضيق نِطَاق الفَصاحة عن تفصيلها، ومناقبُه تُشْـكَر بلسان الإجماع لعجز ألْسِـنة الأقلام عن بُلُوغها إلىٰ غايتها ووُصُولها؛ فلذلك آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُفْسِح مجَالَ الهدىٰ، بتفويض إيَالة الممالك إليه، وأن نَقْطَع آمال العِدا، بالآعتماد فى زَعَامة الجيوش الإسلاميَّة عليه، وأن نُقِرّ عيونَ الرَّعايا بإلقاء مَقاليد العَـدْل والإحسان إلىٰ يدَيْه؛ وأن نصُونَ عقائِلَ المـالك من مَهَابته بمـا يغدو سُورا لعَوَاصمها، وسِوَارًا لمَعَاصمها؛ وشَنَبًا تفترّ ثغورُها عن بُرُوقه، أو لَهَبا يقْطَع طَريق أملِ العِـدَا عن تخيُّل خَيَالهـا فى طُروقه: ليعتضِدَ الدِّين منه برُكْنه، ويتغلَّب [علىٰ] الشِّرْك فى حالتَىْ حَرْبه ووَهْنه، ويتَقَلَّب كلُّ من رعايانا بينَ وِهَاد يُمْنه ومِهادِ أمْنه ــ رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال مُلْكه علىّ الأركان، راقيًا من أُفُق النصر إلىٰ أعلىٰ مَكانةٍ وأرفع مكان ــ أن تُفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالديار المصريه، والممالك الإسلاميه؛ علىٰ أكمَلِ العَوائد، وأجمل القَواعد؛ تفويضًا تَمضى أحكامُه فى المـالك الإسلامية شرْقا وغَرْبا، وبُعْـدا وقُربا؛ فلا يخرج منها شيءٌ عن أوامره وأحكامه، ولا يُعْدَل فى سِلْمها وحَرْبها عن حُكْمَىْ سُيوفه وأقلامه.

فليَستقِرّ فى هـذه الرُّتْبة العالية آسـتقرارَ الأركان المَوَاكث، والأَطْواد اللَّوابث؛ والأُصـول الثَّوابت، والنجوم الثوابت؛ مؤثِّلا قواعدَها برأيه السّـديد ورايته، معوِّذًا كمالهَـا بسَيف النصر وآيتِـه، مبتدئًا فى إعلاء مَنَارها من العدل بأقْصاه

ومن الإحسان بغايتــه ؛ مكثّرًا أعدادَ الجيوش الإسـلامية برأيه السـعيد ، مقرّبا من مَطَامح النّصر النائيةِ كلَّ بعيـد ؛ مُوكِّلا بحركات العَـدُوّ وسَكَناته جَفْنًا لا يألَفُ الغِرار(١) ، وسيفًا لا يعرِف القَرَار ، وعَزْما لا يَرضىٰ من عدوّه دُونَ آصطلامه الفِرَار ؛ فلا تزال جيوشُ الإسلام بجميل تَعاهُده مُزَاحة العوائِق ، مُزَالةَ العلائق ؛ لامانعَ لها عن الركوب ، ولا قاطِعَ عن الوُثوب ؛ قد أعدّتْها عزائمُه ، فكلُّ زمانها بالتأهُّب للّقاء وقتُ إمكانه ، وأمدّتْ بأسَها صوارِمُه ، فهى لاتسأل عن عَدَد عدوّها بل عن مَكانه ؛ مقيمًا منارَ العدل الذى هو أساسُ المُلك ودِعامَتُـه ، ورأسُ الحكم بأمر الله فى خَلْقه وهامَتُه ، ونَوْرُ الخِصْب الكافل بمصالح العبادِ والبلاد وعامّتُه(٢) ، ناشرًا له [فى] أقْطار الممالك ، ماحيًا بنُور إقامته آيةَ ليل الظُّلْم الحالك ؛ معاضدًا أحكامَ الشريعة المطهَّرة بالآنقياد إليها ، والآعتمادِ فى الحَلِّ والعَقْد عليها ، والآحتفالِ برَفْع منارِها : فإنَّ ذٰلك من أفضل ما قدّمتْه الدولُ الصالحةُ بين يدَيْها ؛ مقدّمًا عمـارةَ البِلاد علىٰ كلِّ مهِمٍّ : فإنها الأصل الذى تتفرّعُ عنه المصالح علىٰ آفتراقها ، والمـادّةُ التى تستَطِيل الجيوش الإسلاميَّة علىٰ العِـدا بتوسعها فى إنفادِها وإنفاقها ، والأسبابُ التى تُعِينُ الغيوثَ علىٰ نمـاء ما بَسَـط الله لعباده من أرزاقها ؛ وآكَـدُ مصالحها الرِّفْق الذى ما كان فى شىءٍ إلا زانَه ، والعدل الذى ما آتّصف به مُلْكٌ إلا حَفظه وصانَه ، فقد جعلْنـا أمره فى ذٰلك جميعِه من أمرنا المُطَاع ، وآقتصرْنا عن ذكرِ الوصايا بمـا فى خصائِصه الكريمةِ من حُسْن الآضْطِلاع وجميل الآطِّلاع ، وآكتفَيْنا بمـا فى خلائقه الجميلةِ من محاسِنَ لو تخيَّر نفْسَــه لم يزِدْها علىٰ ما فيه من كَرَم الطِّباع ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده وقد فَعَل ، ويجعل رُكْنَه من أثبتِ قواعد الدِّين وقد جعَلْ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الغِرار النوم القليل أو القليل من كل شىء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قُبَض الحَصَد إذا آجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .

*
* *

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى زانَ دولتَنا القاهرةَ من حُسامِها بتقْليـده ، وصانَ حِمىٰ ممـالِكنا الشريفةِ من أوليائنا بمن تَغْدُو مواقِعُ سيوفه من كل عدُوّ قلائدَ جِيده، وزاد جَلالةَ الملك بمَنْ إذا ركِب فى مَواكِب نِيابَتِه أوردَ جِيـادَ رُعْبه من كل مُتوَّج من ملوك العدا مَنـاهلَ وَرِيده ، وفوّضَ تقْدِمة جُيوشنا المنصورةِ إلىٰ مَن تُضاعف مهابَتُـه فى عُيون العِـدا عدَدَ جنُوده، وتغزُوه سرايا خَيْله فى يَقظتِه وتطْلُع عليه طلائعُ خَيَاله فى هُجُوده، وإذا صَلَّتْ سيوفُه فى مَوْقِف وغًى أغرتْ رأسَ كلّ مستكبِر لم يعْرِف اللهَ قبلَ رُكوعه بسُجُوده، مُشرِّف أقدار أوليائنا من المَرَاتب بما تَشْرُف به أقدارُ المراتب فى نفسها ، ومفَضِّـل أيام دَوْلتنا علىٰ الدُّوَل بمـا ألِفتْه من جلالة مُلْكنا فى أمْسِها ، ومُجمِّل سـيْرِ أصفيائنا من المَعْدَلة بمـا إذا غرَسْتَه فى قلوب الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ ثمرةَ غَرْسها ، ومقَلِّد خواصِّنا من إيالة المُلْك ما إذا خطَبتْ به الأقلامُ علىٰ منابِر الأنامِل نَقلت البلاغةَ فى تلك الأوصاف عن قُسِّها ، ومُفيض حُلَل الأنباء المرقومةَ بأسْنىٰ الرُّتَب علىٰ منْ إذا زانَتْ حِبَرُها اللابسَ زانهـا بلُبْسها ، وإذا أشرقتْ به هالةُ المواكِبِ لوغًى سقطَتْ فوارسُ ملُوك العدا عن مَراكبها واَضطربَت الأسِرَّةُ بملوك فُرْسها، وإذا كتمتْه الأعداءُ أنباءَها نطقَت ألسنةُ رِياحه بأسرار أهل الشرك ولا يُرىٰ أسْمَعُ من صُمِّها ولا أفصَحُ من خُرْسِها ، وإذا تطاولتْ أبطالُ الوقائع لِلقـائه اَفترَّتْ ثغورُ سُيوفه عن شَنَب النصر لإلْفِها بمعانَقة الأعناقِ وأُنْسِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلىٰ أسمـاع المنابر، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسِـنةَ الأقلام فى أفواه المحابر، وأعادتْ بسيف النصر حقُوقَ مُلْكنا الذى تلقَّيناه مع الأوّلية والأولوية من أسلافنا الكرام كابرًا عن كابِر .

ونشهد أن لا إلٰه إلا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً لا تزال سيوفُنا بإعلاء مَنَارها ناهِضَه، وجِيادُ جِهادنا لنشر دَعْوتها فى الآفاق راكضَه، وموادُّ نِعَمنا ونِقَمنا لآمال حامليها باسطةً ولأرواح جاحِديها قابِضه؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أيده الله تعالىٰ بنَصْره، وآتاه من معْجزاته مايَحُولُ البصر دُونَ حَصْره، وجعله أمامَ الأنبياءِ وإمامَهُم مع تأخُّر عَصْره، ونَصَره بالرُّعْبِ الذى زحْزَح كلَّ مَلِكٍ عن سريره وأنزل كلَّ متوَّج من قَصْره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين هَجَروا فى نصرته مأْلُوفَ الأوطان والأوطار، وركِبُوا فى إقامة مِلَّته، مَخُوفَ الأهوال والأخطار، وفتَحُوا بيُمْن دَعْوته، ما آشتملتْ عليه المَشارِقُ والمَغارِبُ من الأرجاء الممتدّة والأقْطار؛ صلاةً لا يزال سيفُ جِهادِنا لدوامِها مُقِيما، وحكْمُ جِلادِنا لإقامتها مُدِيما؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنَّ أولىٰ من سَمَت التقاليدُ بأوصافه، وشُرِّفتْ أمورُ الممالك بينَ بأسه وإنصافه؛ وحُلِّيت مواقفُ الخدمة الشريفةِ من جواهر مَهَابته، بما هو جديرٌ بحِلَى السيف، وزُيِّنت مجالسُ العدل من إيالته، بما هو مبرَّأٌ من المَيْل والهَوىٰ منزَّه عن الظلم والحَيْف؛ ومُلِئت القلوبُ من مَخَافته، بما يمنع ذا القُوّة فى الباطل من توهُّم البطش وذا الصَّبْوة فى الهَوىٰ من آستزاره (؟) ويُحَسِّن لها الفِرار، ويهوِّنُ عليها فى جَنْب ما نتوقَّعُه من مواقع سُيوفه السَّبْيَ والإسار، وعُدِق به من مصالح الأقاليم ما يصرِّفه بيمينٍ دأْبها اليُمْنُ ويَسار شأْنُها اليَسار؛ وفُوِّضَتْ زعامةُ الجيوش منه إلىٰ هُمَام يقوم بأمرها علىٰ ما يجب، وليْثٍ لو لم ينهَضْ بأُلُوفها المؤلَّفة فى الوقائع لكان من نَفْسه وحْدَها فى جَحْفل لجِب؛ ومِقْدامٍ آلافُ العدا فى شجاعته آحاد، وضِرْغامٍ قَسْور أهلِ الكفْر بين يدَىْ وثَباته وثباته وأُسُودُهم تُقاد؛ من لم نَزَل نَعُدُّه فى أركان البيت الشريف المنصورىّ بالخناصر، ونُعِدّه للمواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

الله وحدَّ السيف ناصر، ونَدَّخِرُه من مَعَادن أوليائنا الذين تمسَّكُوا من الانتماء إلينا بأمْكَن الأسباب وأقوى الأَوَاصر، وتقلَّد أعطافَ الأواصر منه سيْفًا يُرمىٰ منه بَيْتُ العِدا ومعاقلُهم بأفتك حاصدٍ وأفْلَل حاصر؛ فكَمْ من مواقفَ شَفَع فيها الشجاعةَ بالخضُوع لربِّه، ومواطنَ لبِس فيها قَلْبَه علىٰ الدِّرع إذا لَبِس غيرُه الدِّرعَ علىٰ قَلْبه؛ ومسالكَ سلكها فى طاعة الله وطاعتنا والسيُوفُ تنفر من قُرُبها، ومشاهدَ شهدها فى طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفرّ من حُجُبها، وليَالٍ قطعها فى خدمتنا لم يصْحَبْ غيرَ ألسنة أسنَّته وأعيُنِ شُهُبها؛ومقاصد للذين بلَغَها والسِّهامُ لاتحمِلُها من الفَرَق قوادِمُ النُّسُور، وسَرايَا وقفَ بينها وبين العِدا فضُرِبَ بينهم من شجاعته بِسُور، وبِحارِ حَرْبٍ لم تتجاسَرِ السوابِحُ علىٰ قطْعها حتّى مدّ عليها من مُعْوَجّات سيوفه قناطرَ ومن مُقَوَّمات ذَوابِلِه جُسُور؛ وكم أنامَ الرعايا فى مِهادِ عَدْلِه فلم يطْرُقْهم طَيْفُ ظالم فى الكَرا، ولا رَوَّع سِرْبَهم خيالُ مُغِيرٍ أوهَمَهُم السُّرىٰ؛ بل كانوا محفوظين بمهابته محفُوفين بمواهبه، وادعِين فى ظلِّه الذى مادَجَا عليهم ليلُ خَطْب إلا أطلع لهم بُدورَ الأمن فى غَياهبِه.

ولما كان (فلان) هو الذى سار بذِكْرِ مَهابته المَثَل، وصار له فى قلُوب الأعداء من الرُّعب ماتَشَابه فيه القاتِلانِ الوَجَل والخَجَل، وجمع محاسنَ الصفات فما أخذ عنه أو نُطِق به أو نُظِر إليه إلا وُجِد (مِلْءَ المَسَامع والأفْواه والمُقَل)؛ ولا جَرَّد علىٰ العِدا سيفا إلا وودّعَتْ أرواحُهم الأجساد، ولا أرْهفَ فى مجالس العَدْل والإحسان قلَما إلا وضمِنتْ له الآجامُ التى نشَأَ بها (كَرَم السُّيُول وسَطْوةَ الآساد)؛ ولا طلَع فى أُفُق مواكِبَ إلا وهالتِ العِدا هالةُ بَدْره، ودلَّت علىٰ عِظَم سلطاننا رفعةُ قَدْره، وشهِدت له بحُسن طاعتنا طاعةُ أُمَرائنا لأمره؛ وأسلَفَ من خِدْمة والدنا السلطانِ الشهيد ما لم تزَلْ له به عندنا حقوقٌ مرعيَّه، وسوابقُ مرضيَّه،

ورتبةُ تقديم سنِيّه ، ومزيةُ تقريبٍ جعلته مُشاهَدا بالعِيان مقدّما فى النيّه ـ اقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن نُرَوِّع العِــدا بسـيفه ، ونُرِيَهم من تقدِمتِــه على الجيوش يقظةً ما كانوا يرَوْنه حُلُمــا من طَيْفه ؛ وليعْلَمَ الأعداء معاجلةَ أخذهم بالعُنْف والحَيْف ، وأننا لا تأخُذُنا فى الله لومةُ لائم فليس بينَنا وبينَ أعداء الله ورسُوله (صلى الله عليه وسلم) إلا السَّيْف .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ ممــالكُ الإسلام به مُفْتَرَّة المَبَاسم ، عالية مدى المَهَابة إذا طَرَقتها عواصفُ رِياح العِــدا وقفَتْ دُونَ بُلُوغها داميــةَ المَنَاسم ـ أن تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممـالك الإسلامية على العادةِ فى ذٰلك والقــاعدة تفويضًا يُفيض على الممــالك حُلَل المَهَابه ، ويَسْــلُب أعداءَ الدين رداءَ الأمن فلا ينفَعُهم الخضُوعُ ولا الإنابه ، ويُضاعِفُ لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةَ بإجرائهم على ما ألِفُوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَم الله الإجابَهْ .

فليتقلَّد هذه الرُّتبة الدالَّةَ على ارتفاع قدره لدينا ، الشاهدةَ له باحتفالنا بمــا أوجبه إخلاصُه من حقوق الطاعة والولاء علَيْنا ؛ المنبِّهةَ على أنه سيفُنا الذى نَصونُ الممالك بحــدِّه ، ونَصُولُ على العِــدا بمَضَائه الذى تَهَلَّلُ وُجوهُ النصر كلَّمــا أسفَر من غِمْدِه ؛ وليســتقرَّ فى ذٰلك نافذًا فى المصالح الإســلامية أمْرُه ، مُغيــرا على جُيوش الأعداء ذِكْرُه ، معمَلةً فى حمــاية الدِّين بيضُه المُرْهَفَة وسُمْره ، مجمِّلةً بإشراق طلعته مطالِــعُ المَوا كب ، مســيَّرةً نجوم أسِنَّته إلى قلوب أعداء الدِّين مَســيرَ الكوا كب ، مُخْفِقةً بخُفُوق رايته مَساعِى الكفر الصادرةِ عن آمالهم الكَواذِب ؛ ليعْلَمَ عدوّ الله أنه أشدُّ طَلَبا له من أجَله ، وألزمُ لعنُقه من عَمَله ؛ وأسبقُ إليه من رَجْع صوتِه ، وأنزل عليه من مُفَاجأة مَوْته . وليُجْمِل النظرَ فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعِفُ عِدّتها ،

ويُبقى على توالى الأحقاب حِدّتها وجِدّتها ، ويأخُذُهم بإدامة التمَرّن فى الحُروب ، وإطالة عِنان التأهّب للرُّكوب ، ويُعين كُلًّا منهم بملاحظة حاله على أسْتِدامه قُوّته وإمكانه ، ويجعلُهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لا يَسْألُون عن عدد عدُوّهم بل عن مَكَانه . ولْيكُنْ لكلمة الشريعةِ الشريفةِ رافعا ، ولشُبَه من يمتنع عن الانقيادِ إلى الأحكام دافعا ، وعلى يد من يتطرّق إلى الخُروج عن أحكامه آخذا ، ولمن لم يسْلُك الأدبَ بين يَدَىْ حُكّامه بما يقتضيه تعظيمُ الحكمِ العزيزِ مؤاخذا . ولْيأمُرِ النوّابَ بإقامة مَنَار العدل الذى يومٌ منه خيرٌ للأرض من أن تُمْطَرَ أربعين يوما ، ويَصْرِفْ إلى مَصالح الثُّغور الإسلامية وحمايتها فِكْرا لم يختَرْ دَعةً ونظرًا يأنفُ أن يألَف نَوْما ، ومِلاكُ الوصايا تقوى الله وهى من خَصائص نفْسه الكريمه ، وراحةُ رُوحه التى هى للفكْر فى مصالح الإسلام مُدِيمه ، فلْيجتهِدْ فى المحافظة عليها ما استطاع ، ويُمْضِ بها فى مصالح الإسلام أمْرَه الذى جعلْناه من أمرنا مُطاع .

***

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا ، كُتِب به عن السلطان الملك أبى بكرِ ابن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طُقُزْدُمُر أمير مجلس ، فى سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، بعد أن بطلَتِ النيابةُ فى دولة أبيه الملِك الناصر عِدّةَ سنين ، وهى :

الحمدُ لله الذى اصطفى لسلطاننا المنصورِ مَنْ ينُوب عنّا فى رعاية الجمهور أحسَنَ مَنَاب ، وأضفى على مُلْكنا المعمور من رياسته أسَرّ سربال ومن حراسته أجَلّ جِلْباب ، وكفى دولتَنا الشريفةَ بسياسته مُهِمّاتِ الأمور فلتأييدها بقيامه دَوَام ولتشييدها باهتمامه استصْحاب ، وشفَى الصُّدور بصُدُور إشارته المباركَة التى لها بأوامرنا العالية اقترانٌ ومن ضمائرنا الصافية اقْتِراب ، وأوفى له من بِرّنا العميم بحقه

الذى [له] بعهده آستحقاقٌ للتقـديم وإيجاب ، وسبْقه القديم الذى له من سَعيد المصاهرة أكرمُ آتّشاج ومن حميد المُظاهرة ألزمُ آنتساب .

نحمَدُه على أن بصّر آراءَنا بطُرُق الوِفاق وسُـبُل الصواب ، ونشكره على أن نَصَّر راياتِنا فى الآفاق : فلقُلوبِ العِـدا من خَوْفها إرهاق وإرهاب .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً منزّهة عن الشَّكِّ والآرتياب، موجّهةً إلى قِبْلتها التى ترضاها الألباب؛ ونشهد أنّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظفر عَزْمَه بالثّبات وقَهَر خصمَه بالتَّباب، ووَفّر قِسْـمه من الإنجـاد ويَسّر حِزْبه للإنجاب ، وأظهر آسمَه بعد آسمِه فخلا فى الأفواه ذِكْرُه وطاب . صلى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكُوا من بعده فى رعاية عهده أحسَنَ الآداب ، صلاةً متصلةَ الأسـباب، موصّلةً إلى خيرِ مآلٍ متكفِّلةً بِنَعم باب (؟) لا يزال لسُحُب جُودها فى الوُجُود آنصباب ، ولمقتَرِب وُفُودها وُرُود إلى مَظانِّ الرِّضوان من غير إغباب ، ما جَرّد آنتقامُنا على الأعداء سـيفَ سطًا يقُدّ الرِّقاب، وأوردَ إنعامُنا الأولياءَ بحرَ نَدًى زاخرَ العُبَاب ، وجدّد قيـامُنا بعلم هُـدًى مرّتْ عليـه الأعوامُ وما لُحِ له أثَرٌ ولا فُتِح له باب، وآعتمَد مَقامُنا الشريفُ، فى الجمع للقـلوب والتأليف، على أعلى ولىٍّ وأعلى جَنَاب، وسلّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ، فإنّ أَوْلى من آعتمَدْنا فى الإنجاب والإنجاح على دِيَانته ، وآنتجدنا فيما أردْنا من الآستصحاب للصّلاح بإعانته ، وآعتضَدْنا فى تقطين الممـالك وتأمينِ المسالك بصيالَته وصيانَته، ورعينا عنـدَ والدنا الشهيد ــ سـقَى اللهُ عَهْده صوبَ الرِّضوان ــ على عُلوّ مكانه ودُنوّ مكانَتـه ، فا كتفيْنا فى كَفَالة الأُمّة وإيَالة النِّعمـة بخشيتِهِ من ربِّه واستكانَتِه ــ من حُمِدت سَجَاياه، وتعدّدتْ مَزَاياه ، واستَنَدت

إلىٰ ما أمر اللهُ تعالىٰ به من العَـدْل والإحسان فى الأحكام قَضَايَاه ، ووجَدَتْ منه الزُّهدَ والرِّفق رُعاةُ الإسلام ورَعايَاه ؛ فهو الممدوحُ فعلُه ، من جميع الألسنه ، الممنوحُ فضلُه ، فى سائر الأزمنه ، الملموحُ عليـه آثارُ القَبُول الظاهرِ من عناية الله لمـا نَوَاه من الخير لخلق الله وأبطَنَه ؛ فهو عاضِدُ السلطنة الذى حَلَّ من العَلْياء مَوْطِنَه ، وكافلُ المملكه ، الذى سبَقَ إلىٰ كلِّ مجد فأدركه ؛ وسـيفُ الدوله ، الحامى الحَوْزة البـادى الصَّوْله ؛ وَمَنْ له آشتمالٌ علىٰ العَلْيا ، ومن يقارِنُ التحقيقُ له رأيًا ، ولا يباين التوفيقُ له سَـعْيا ، ويُعاونُ الهـدىٰ والنهىٰ علىٰ طُول المَدىٰ له أمرا ونَهْيا ، ويُعاين الورىٰ لسلطاننا المنصور منه مَهْدِيًّا يُجْمِل لدولتنا حِفْظا ويُحْسن لملكنا رَعْيا .

وكانْ فلان هو الذى لم يزَلْ متعيِّن المَحاسن ، متبيِّن المَيَامن ، متمكِّن الرِّياسة فى كل الأَماكن ؛ فحِلْمُه إذا اضطَربت الجبالُ الرَّواسى ثابتٌ ساكن ، وعلْمه الزائدُ بأوضاع السِّياسـة وأنواعِ النَّفَاسة للوُجود من بَهْجته زائنٌ ، ورأيُه الصائبُ للبلاد والعبـاد صائِن ، ورَعْيُهُ للخلق بالحق : القوىُّ منه خائفٌ والضعيفُ إليه راكن ، وبِشْره هادٍ للرائى وبادٍ للمعاين ، وذكرُه الجميـلُ سائرٌ فى الآفاق والأقطار والمَدَائن ؛ حتّى أظهر الله تعالىٰ بإمداد نَيِّرنا الأعظمِ من إشراق بَدْره الكامل ما هو فى سِرِّ الغيب كامِن ، وشَهر سيفَه الذى يغدو الإيمـانُ من مَهابته فى كَنَفٍ منيعٍ وحَرَم آمِن .

ولمـا مضَتْ علىٰ مَنْصب النيابة الشريفـة فى أيَّام والدِنا الشهيد بِضْعُ سِـنين ، وآنقضَت الأيامُ والليالى والدهرُ بمَوْهِبَتها ضَنِين ؛ ولا وُطِيتْ لها رَبْوه ، ولا آمتُطِيت لهـا صَهْوه ؛ وكانتْ فى سِلْك مُلْكه مندَرِجه ، وبصَفْو سلطَنته ممتزِجه ؛ إلىٰ أنْ قَضىٰ عليه الرِّضْوانُ النَّحْب ، وأفضىٰ من الجَنان إلىٰ المَحلِّ الرَّحْب ، رأينا بعـده بمَنْ كان يتحقّق وُدّه أنْ نَسـتأنِس ، وأمضينا وصيَّتَه المبـاركة فى آختيار ثمرة الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يَغرس ، وأفضينا إليه بالمَناب عنّا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستئثار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحَكَم لأنه كان أمير ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا ينبَهم عليه شىء من خفايا القضايا ولا يلتبس ـ اقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف إلقاءَ ما فى أيدينا من مقاليد الممالك إلىٰ يده ، وإبقاءَ وديعةِ هذا الأمرِ العظيم إلىٰ صَوْنِه وعونه وتشدُّده ، وإيفاء جنابه إلىٰ حميد هذه الغايةِ التى هى للمناسَبة مناسبةٌ لسُؤدده .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يجمعُ شمْل الإسلام بتعيُّنه وتفرده ، ويرجعُ أمرُ الأنام منه إلىٰ مأمون الرأىٰ رشيده سفَّاح السَّيْف مهنَّده ، منصورِ العزم مؤيَّده ، ويُوسِع الخليقةَ إذا وليهم بالرأفة والرحمة ومَنْ أولىٰ من أبى بكر بأن يخُصَّ أصحابَ محمد عند الخلافة بإعذابِ منْهَل الجُود ومَوْرِده ـ أنْ تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ـ أعلاها اللهُ تعالىٰ ـ نيابةٌ شاملةً محيطه ، كاملةً بسيطه ، تعنِى كلَّ أمير ومأمور ، وتُدْنِى أمرَها الذى يعامَل بالإجلال ويقابَل بالسُّرور ، برًّا وبحْرا ، وسهْلا ووعْرا ، غوْرًا ونجْدا ، بُعْدا وقُرْبا ، شرْقا وغرْبا ، وما منحه اللهُ تعالىٰ لوالدنا الناصر من الممالك ويدَّخر لسلطاننا المنصور ويُحْيىٰ : تستوعِبُ أمرَ ما نأىٰ من هذه الأقاليم ودَنَا ، وتجب طاعتُه فيها علىٰ كلِّ من كان مؤمنًا ، ويمتثل فى ذلك كلِّه أمرُه ، وتعمَل فيه الرويَّة فيجْمُل فكرُه ، ويُؤمَّل فيه فتحُه ونصرُه ، وينقل به مدْحُه وشُكرُه ، ولا ينفصل منحُه وبرُّه ، ناظرا فى هذه النيابة الشريفة بفكره التام ، سائرا فيها السيرَ الجميلَ من الدُّرْبة والإلهام ، ناشرًا ظلالَ المَعْدِلة علىٰ مَنْ سار أو أقام ، مظاهِرًا بجنابه منا أجلَّ مَقام . ونحن وإن كنا نتحقَّق من خلاله الحُسْنىٰ ، كلَّ وَصْف يُسْنىٰ ، ونثِق منه بذى الصدر السليم الذى هو علىٰ

المقاصد يُعَان وبالمحامد يُعْنىٰ ، فلسنا نُخِلّ بالوصية التى نَعْلم أنّ له عنها آستِغْنا ؛ ولكننا لا نَتْرك بها التبرُّكَ ولا نَدَع ماسنّ الله تعالىٰ منها وشرع ، ولا نُغْفِل ، مايجب به أن يحتَفَل ؛ فقد وصّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضىٰ أمره المسموعَ كلَّ ذى رجُوع إلىٰ الله تعالىٰ منهم وإنابَهْ ؛ فقد أولاه الله تعالىٰ كلَّ جميل قبل أن ولّاه ، وحَلّاه بالسِّمات والمكْرُمات قبل أن رَفَع عُلاه ، وأعطاه ما أرْهَب العدا من سَطَاه ، وهداه إلىٰ كلّ رُشْد تأتَمّ به الهُداه .

فأهَمُّ ذٰلك تقوىٰ الله تعالىٰ وهو عليها مجبُول ، وأمرُها عنده متَلَقًّى بالقَبُول . والعدْل فهو منه مأمُول ، والاتصافُ بالإنصاف فهو دأبُه فيما يفْعَل ويقُول ؛ والجهادُ : فعزائمه فى مَيْدانه تجُول ، وصوارِمُه بها من قِرَاع فُرْسانه فُلُول . والزُّعماءُ والأكابر فلهم من محافظته اعتناءٌ وبملاحظَته شُمُول . والعساكرُ الإسلاميّة فبتأييده تَبْطِش أيديهم بالعِدا وتصُول . وزعماءُ البلادِ فلهم إلىٰ ظِلّ رحمته إيواءٌ وبكَنَف نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلام فما منها إلامعمورٌ بما أوَتْه كَفالتُه مأهول ؛ وثُغُوره فكلُّها بَسّام بفتكاته التى ألقىٰ رُعْبَها فى البحر فهو بيْن كلّ فاجر وبينَ البحر يَحُول ، وماهو بذٰلك من حَميد المسالك موصُول ، ومحلُّه المقدّم لأنه أهَمُّ الأصول : من إكرام الحُكَّام ، وإبرامِ الأحكام ، وآستيفاءِ الحُدُود ، وآقتفاء السُّنَن المعهُود : من إنجاز الوُعُود ، وإحراز السُّعود ، والإجهاز علىٰ كلِّ كَفُور وجَحُود ، والاحترازِ من فَظاظة الناس بإفاضة الجُود ؛ فكلُّ ذلك علىٰ خاطره مسْرُود ، ولما آثره مَوْرُود ، وفى ذخائره موجُود ، ومن خِبْرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطرته مَشْهود ، فلْيَسَعْ أمرُنا هذا جميعَ الأمراء والجنُود ، وليرجعْ إليه كلُّ من هو من جملة المِلّة معدود ؛ ولْيقابِلْ مرسُومَنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ، ساعةَ الوقوف عليه وحالةَ الوُرُود ، وآلله تعالىٰ يُصْلِح ببقائه الوُجُود ، ويَمْنَح باهتمامه المقصُود ، ويفتَح المعاقلَ

باعتزامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مصدود ، بل يصبح الكفر من خوفه محصورا ويمسى وهو بسيفه محصود ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه وصيّة لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله تعالىٰ وتنفيذ الأحكام الشرعيّة ، ومُعاضدة حُكّامها ، وآستخدام السّيوف لمساعدة أقلامها ؛ وتفقّد العساكر المنصورة وعَرْضها ، وإنهاضهم لنَوافل الخِدْمة وفَرْضها ؛ والتخيّر للوظائف ، وإجراء الأوقاف علىٰ شرط كلّ واقف ؛ والملاحظة الحُسْنىٰ للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سُكّانها ، ومعاضدة مباشِرى الأموال مع عدَم الخُروج عما أُلِف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ؛ وتحصين مالديه ، وتحسين كلّ ما أمْرُه إليه ؛ وآستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعملِ بما يرِد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسَببها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يَستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكْفيه ، ومن قُتِل من الجند أو مات وخَلّف ولدا يصلح لإقطاعه يعيّن له ليقومَ بمخلّفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويُوفّيه .

الوظيفة الثانيــــة

(الوزارة لصاحب سيف)

وآعلم أنّ أوّل من أُطلِق عليه لقبُ الوزارة فى الإسلام "أبو حَفْص الخَلّال" وزير أبى العَبّاس السّفّاح أوّل خلفائهم[(١)] كما ذكره القُضاعىّ فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارةُ بعد ذٰلك للخلفاء والملوك دائرةً بين أرباب السّيوف

(١) أى خلفاء العباسيين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سـيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها فى أرباب الأقلام أكثر. وعلىٰ ذٰلك جرىٰ عُرْف الديار المصرية من ٱبتداء الأمر وإلى الآنَ.

ومما يَنَبَّه عليه أنَّ الوزير اذا كان صاحبَ سَيْف ، كان فى مجلس السلطان قائماً فى جملة الأمراء القائمين . وإذا كان صاحبَ قلم ، كان جالسًا كما يجلس أرباب الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سَيْف الدين بُكْتُمر . وهى :

الحمد لله الذى شدّ أزْرَ دولتِنا القاهرة ، من أوليائنا بأمضىٰ سيف ، وعضَّد أيامنا الزاهرةَ ، من أصفيائنا بأعدل وَلِىّ لا يوجَدُ فى حكمه حَيْف ، وعَدَق تدبيرَ أمورِ ممالكِنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذوى الأطماع الطامحةِ عمّا لايُحَب فلا يُلم بهم فيها خاطر [ولا] يطرُقُهم بها طَيْف ؛ جاعلِ التأييد لآرائنا مصاحِبا ، والتوفيقِ موافقا لأوامرنا التى لا تُهْمِل من مصالح الإسلام مندُوبا ولا تدَعُ من مهمّات المُلْك واجِبا ؛ والإقبالِ تاليًا لمراسيمنا فى ٱرتياد من يغْدُو قلبُ المُحِقِّ من حَيْفه ساكنًا وقلب المبطِل من خَوْفه واجبا ، واليُمْنِ تابعا لٱستخارَتِنا فى ٱنتخاب من لم يزَل فى خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جالِبا ، ولمنافع الإسلامِ والمُلْك طالبا ، ولمضارّهما حاجبا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عضَّدت أيامَنا بمن جمعَتْ أدواتُه ، رتبتِى السيف والقلَم ، وعَدقَت تدبير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيّتَى العِلْم والعَلَم ، وشدّ أزْرَ دولتنا بمن يُبيِّض بمَعْدِلَته من صحائف أيّامنا ما هو أحبُّ إليها من حُمْر النَّعَم .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نُعِدّها للقائه ، ونتيمّن بها فى افتقاد من نعتضِدُ به فى مصالح أهلها وٱنتقائه ، ونقدِّمُها أمامَ كل أمرٍ نَدَّخره لٱعتلاء ولِيِّنا بالتقىٰ وٱرتقائه ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله إلىٰ الأُمَم

طُرًّا، وخصّه بالأئمة التى جعَل أمارةَ سبقها إلىٰ الخيرات أنْ غدَتْ محجّلةً غُرًّا ، وأيّده بنصره و بالمؤمنين الذين ما منهم إلا مَنْ أعرَضَ عن زُخْرُف الدنيا و إن كان حُلْوا وقال الحَقّ و إن كان مُرًّا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين وَلُوا أمته فعدَلُوا، والذين تمسّكوا بسَنَن سُنّته فما حادُوا عنها ولا عدَلُوا؛ صلاةً لا تزالُ الألسُن لإقامتها مُديمه، والقلوبُ لإدامتها مُقيمه؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإن أولىٰ من أبْرزتِ الضمائرُ، فى الاعتضاد به مَكنُونَ طَويّتها، واعتمدتِ الخواطر، فى تصريح عَلَانيتها بأولويّته لمصالح الإسلام علىٰ نِيّتها، وتشوّفتِ البلاغةُ لرَقْم مَفَاخره، وتنافست المعانى فى تخليد مآثرِه؛ وهَنّأت المَعْدَلة نفسَها، برافع لوائها، وأبدت الدولةُ أُنسَها، بناشر بِرّها فى الأقطار وآلائها؛ وافترّت ثغورُ الاقاليم المحروسة بمن تَلْهَج بمصالحها ألسنةُ أقلامه ، واخضَرّت رُبىٰ آمال الأولياء بما يُسْفِر عنه من تهلّل بهاء غُرَر أيامه؛ مَنْ هزَزْنا منه لمصالح الإسلام سيْفا يصلُ ما أمر اللهُ به أن يُوصَل، ويَفْصل من مهمّات الممالك مايقتضى الحقُّ أن يُفْصَل؛ ويُبْرِز من معادن العَدْل والإحسان ماهو فى سِرّ خلائقه كامِن، ويُنْزِل من استقامت سيرتُه فى الحِمىٰ المُخْصِب والحَرَمِ الآمن؛ ويصُون الأموالَ بمَهَابته فلا تمتدّ إليها هَوَاجِسُ الأطماع ، ولا تتجاسَرُ أبصارُ غير الأمناءِ أن تقُصّ نبأَ رُؤْيتها علىٰ الأسماع؛ ويُضاعفُها بخِبْرته التى تَهْديها الأمانةُ إلىٰ مَعَادنها ، وتَدُلُّها النزاهةُ علىٰ مواطنها ، وتُبْدى لها ظواهرُ الأعمال أسرارَ بواطِنها، ويُعمِّر بيوتَ الأموال بعمارة البلاد، ويُثمِّر فروعَ الطَّوارف من مصالحها بحِفْظ أصولِ التِّلاد؛ ويَكُفّ أكُفّ الظلم عن الرعايا فلا يَخْشىٰ مُحِقٌّ علىٰ حقه ، ولا يخاف مستقيمٌ علىٰ ما قُسِم له من رِزْقه ؛ ولا يطمح قوىٌّ إلىٰ من يستضْعف جانبَه، ولا يطمَعُ باغ فى الحيف علىٰ أحدٍ مخالِطَه فى نَسَب كان أو مُجانبَه.

ولما كان الجناب العالى (الفلانى) هو الذى أشير إلى مناقبه، واعتضد منه بمطيع لله فى السر والعلن ومراقبه ؛ وفوض تدبير الممالك منه إلى من لا تأخذه فى الحق لومة لائم، واعتمدت أيامنا الزاهرة منه على من طالما سرى فى مصالحها على جياد العزائم ؛ وشد أزر الملك من موازرته بمن يكسو دست الوزارة أبهة وجلالا، ويلبس منصبها سنًا لو ملكته الشمس مارامت عن بروج شرفها انتقالا ؛ ويمد على الرعايا لواء عدل لا يقلص له هجير الظلم كما تتقلص الظلال ظلالا ؛ وتطلع به شموس الأرزاق على أولياء دولتنا لكن لا ترهب كالشموس غروبا ولا زوالا ؛ مع مهابة تخيف الأسد فى أجماتها ، ومعدلة تعين الغيوث على رفع محول البلاد ودفع أزماتها ؛ وديانة زانها التقى ، وخبرة صانها الورع وهما أفضل مابه يرتقى .

وكانت الوزارة الشريفة نظام المملكة وقوامها ، وذروة الدولة وسنامها ؛ وتاج المراتب وإكليلها ، وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها — اقتضت آراؤنا الشريفة أن تزين هذه الرتبة بجوهر فريده ، وأن يصدر منصبها عن مناقب لا تصدر إلا عن جهته ومفاخر لا ترد إلا من عنده ؛ وأن يطلق فى مصالحها قلمه ، ويمضى فى قواعدها إشاراته وكلمه ؛ ويطلع فى أفقها شمس تدبيره ، ويعدق به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره ؛ وأن نجعل مسامع الأقاليم على سعتها إلى أوامره ونواهيه مصغيه ، وأن نصد بسمعته عمن بعد عوارض الإمهال الملهية ومواقع الإهمال المطغيه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف — لازالت سحائب بره مستهله ، وركائب الحامد إلى حرم نعمه مهله — أن تفوض إليه الوزارة الشريفة بالممالك الإسلامية على أكمل القواعد ، وأجمل العوائد ؛ تفويضا يعلى مرامه ، ويمضى مضاء ألسنة الأسنة أقلامه ،

ويبسط فى مصالح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلقى إليــه من مهمّات كلّ قُطْر أزِمّته ليصَرِّف علىٰ ما يَرَاه من المصالح عِنانَه .

فليستقرّ فى هذه الرُّتْبة السنية ٱستقرارَ الدُّرَر فى أسلاكها، والدَّرارِىّ فى أفلاكها؛ نافذَ الأمر فى مصالح شَرْقها وغرْبها، مُطاعَ القول فى بُعْـد أماكنها منــه وقُرْبها؛ ناشرًا كلمةَ العــدل فى أرجائها ، محققا بالإحسان آمالَ أُمَمٍ قَصَرت علىٰ كَرَمنـا ممدودَ رَجائها؛ مُعْليا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكَّامه، والوقوف عند أوامره المُطاعة وأحكامه؛ حافظًا أقــدارَ الرُّتَب بأكْفائها ، معتمِدًا علىٰ ذَوِى البُيوت المحافِظين على آتّبــاع سِيَرِ أسلافهم وٱقتِفائها ؛ معوّلا علىٰ ذَوِى الخــبْرة التامة مع الدِّيانه ، مُراعِيًا مع ظُهور المعرفة جانبَ العِفَّة والنَّزاهة والصِّيانه ؛ مُوكّــلا بمصالح بُيوت الأموال والخزائن المعمورة مَوادَّ الأموال ومَعِينها ، صارفًا إلىٰ عِمارة البلاد جميلَ تدبيرٍ تعتضِد البحارُ والسُّحُب منه بمُساعدها علىٰ رِىّ الأرض ومُعِينها؛ ميَسِّرا موادَّ أرزاق خَدَم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بِشْره وحُسْن رُوائه ، مسَهِّلا مطالبَ أرباب الرواتب والصَّــدَقات بطَلَاقة وَجْهٍ لو تأمله ٱمْرُؤ صادِى الجوانِــح لٱرتَوىٰ من مائه ؛ ليتوفَّر أهلُ الوظائف علىٰ خِدَمهم بقلوب منبَسِطة الآمال ، ويُناضِلَ عنها الفقراءُ بسِهــام الليــل[1] التى لا تَطِيش إذا طاشَتِ النِّبال ؛ فقد جعلنا أَمْره فى ذٰلك جميعه من أمرنا فلْيَكْتُبْ يمتثَلْ ، وليَقُــلْ فى مصالحنا بمــا يراه يَسِر كلامُه سُرِىَّ الرِّياح ويَسِرْ قولُه سَيْرَ المَثَل ؛ ولا يُمْضَ عقدٌ ولا حَلّ، ولا ولايةٌ ولا عزْل؛ ولا رَفْع ولا خَفْض ، ولا إبرام ولا نَقْض؛ إلا عن رأيه وإشارتِه ، وبنَصِّ خَطِّه وعبارتِه .

وفى سِيرته السَّرِيَّه ، وديانته التى هى من أسباب الهوىٰ عَرِيَّه ، ما يُغْنِى عن وصايا تُمْلىٰ علىٰ فــكره ، وقواعد تُجْـلىٰ علىٰ ذِكْره ؛ ومِلاكُها تقوىٰ الله : وهى من أخَصّ

(١) المراد دعوات السَّحَر كما لا يخفىٰ .

اوصافه ، ونشْرُ العــدل والإحسان وهُما من نتائج إنصاته لأمور الرعايا وإنصافه ؛ لكن علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وترفَع درجاتِ المتقين ؛ فليجْعَلْها نجىّ خاطره، وقِبْلة ناظِره ؛ والله تعالىٰ يُعْلِي قدره وقد فعَل، ويجعله من عباده المتقين وقد جَعَل ؛ بمَنّه وكرمه . والاعتماد [علىٰ الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــــة الثـالثة

(الإشارةُ، وهى وظيفة قد حدَثت كتابتُها ولم يُعْهَد بها كتابةٌ فى الزمن القديم)

وهــذه نسخةُ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمالِ الدين يوسف البشاسى إستادار فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوِّضت إليه الإشارة مضافةً إلىٰ الإستَدارِيّة ، وكَتَب له به المقرُّ الشمسىّ العُمَرىّ كاتبُ الدَّسْتِ الشريف ، فى شعبان سنة تسعْ وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جدّد للديار المِصريّة بالمحاسن اليُوسُفِيّة رَوْنَقَ جَمَالها، وأعزَّ جانِبَها بأجلِّ عزيزٍ ملأتْ هيبَتُه الوافرةُ فَسِيحَ مجَالِها، وأسعدَ جَدّها بأسعدِ مُشيرٍ أدارتْ آراؤُه الصائبــةُ مُتقاعِسَ الأمور مابين يمينها وشِمالِهـا، وأكرَمَ مآبَها بأمثل كاف عاد حسنُ تدبيره بضُروبٍ من المصالح أنامَ الخلقَ فى ظِلالهـا ، وأجاب سُؤْلَهـا بأكمَلَ لم تَعْدل عن خِطْبتها له وإن أطال فى مِطَالهـا .

نحمَــدُه علىٰ أنْ أغاثَ الدولةَ القاهرةَ بمن أَخصَب به بعد الإمحال رَبْعُها، وطال بطَوْله بعد القُصور فَرْعُها ، وحَسُن فى المَنَاظر بحُسن تأتِّيه لذى التأمُّل يَنْعُها .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له الذى شَرَع المَشُورة وحثَّ عليها ، وعلّق أمورَ السيف والقلَم بها فردّهما عندَ آختلافِ الرأى إليها ؛ شهادةً ترفع قائلَها إلىٰ أسنىٰ المراتب وتُعْليه ، وتقرِّب المخلصَ فى آنتحالهـا من مَقَام الآستخلاص وتُدْنيه .

ونشهـد أنّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى وِرْد واردُ الأمة من مَنْهَـل شِرْعته المطهَّرة ماعَذُب مَشْرَعُه وِرْدا وصَـدَرا ، وٱلتقطت السَّيَّارَةُ أحاديثَ فضـله فَصَيَّرَتْها للرِّفاق سَمَرا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تقيَّلوا مَساحِبَ أذياله فى العدل فعدَلُوا ، ولَزِموا مَنْهج سُنَنه الواضِحَ فما حادُوا عن سَواءِ السبيل ولاعدَلُوا ، صلاةً تفوق العَدّ حَصْرا ، وترفَع بركاتُها عن الأمة حَصْرا وتبدِّل العُسْر يُسْرا ، فتُعيـد عِجَاف الزمان سِمَـانا وسُنْبلاتِ الوقت بعد اليُبْس خُضْرا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ للملكة قواعِدَ تُبنىٰ عليها ، وأركانا تستَنِد إليها ، ودعائمَ يُشَـدّ بالاعتضاد بها بُنيانُها ، وعَمَدا يعتمِد عليها فى المهمَّات سلطانُها ، وهـذه المَبانى وإن ٱتَّسع نطاقُها ، وٱمتدّ بامتدادِ المملكة رُواقُها ، فإنّ بالسيف والقلم قِوامَها ، وبالتعلُّق بحبالهـا بقاءَها ودوامَها ، إذ كانا قُطبين عليهما مَدَار فَلَكها ، ونقطتين عنهـما ينشأ الخطُّ المستقيمُ فى تدبير مُلكها ، وزعيمين يُترافَعُ إليهما عند التخاصُم ، وحكَمَين يُرْجَع إلىٰ حُكْمهما عند التَّحاكم ، إلا أنهما لايستقلّان بأنفسهما عند التحالُف ، ولا يقوم أحدُهما برأسه لدىٰ التَّخالف ، بل لهما إمامٌ يَرْجِعان إليه ، ويعوِّلان عند ٱضطراب الأمورِ عليه ، وهو الرأى الذى لا يُقْطَع أمرٌ دون حكمه ، ولا يهتَدِى سارٍ فى مَهامِه المهـمَّات إلا بنَجْمه ، إذْ كان علىٰ الشجاعة مُقَدَّما ، ودليـلُه من المعقُول والمنقُول مسلَّما ، والمُتَّسم به لايزال عند المُلوك مبجَّلا معظَّما ، لايقدِّمون عليه ولدا ولا والدا ، ولا يُؤْثِرون علىٰ مُعاضَدته عضُدا ولا ساعِدا ، إن أشار برأى تمسك الملكُ منه بالحبل المَتِين ، أو مَحضَه كلامَ نصح قال : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى ، الاميرىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) يُوسفُ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه ، هو الذى حنَّكتْه التَّجارِب و «حَلَب الدَّهْرَ

أشْطُرَه» ، وَعرف بتقليب الأمور علىٰ ممرّ الزمان مَخْبَره ؛ مع ما آشتمل عليه من الرأى الصائب ، والفِكر الذى اذا أبدتْ قريحتُه فى الارتياء عَجبًا أتتْ فطرتُه السليمةُ بالعجائب .

هذا وقد عَلَا فى الدولة القاهرة مَقامُه ، ورشَقَتْ أغراضَ مقاصـدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سِهـامُه ؛ وساس العساكرَ فأحسن فى سـياستِها التدبير ، وبذَل فى نَفَقاتها الأموالَ فمـال فيها إلىٰ الإسراف دُون التقْتير ، وآستجاب الخواطرَ فأخذ منها بمجامع القُلوب ، وآقتاد النفُوسَ الأبِيّـة قهرا فأطاعه مَنْ بينَ الشّمال والجَنُوب ؛ وقام من المهِمّات الشريفـة بمـا لم يَسبِقْه إليـه سابق ، وأتىٰ من خَوارِق العادات فى التنفيذ بما لم يَلْحَقْه فيه لاحِق ، وبادر إلى ترتيب المصالح فرَتَّبها ولم يَعُقْه فى آنتهاز الفُرْصـة عن دَفْع المفاسد عائِق ؛ وأخذ فى حَطّ الأسـعار فورَد مَنْهَلا من المعروف صافيا ، وأمر بإبطال المُعامَلِين فكان له عمَلا علىٰ تَوالِى الأزمان باقيـا ؛ ولازمَ بعدَ رضا الله تعالىٰ رِضَا مَلِكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم ، وتأسّىٰ فى تعريفه بنَفْسِه بيوسف عليه السلام فقال : ﴿آجْعَلْنِى علىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّى حَفِيظٌ عليم﴾ ـ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف تنويهًا بذكره ، وتقديمَه علىٰ غيره ممن رام هذه الرتبـةَ فحُجِب دُونَها ﴿واللهُ غالبٌ علىٰ أمره﴾ .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينى ـ لا زال يجمع لأوليـائه شَمْلَ المَعالى ، ويُرَقِّى أصفياءَه فى درجات العِز علىٰ ممرّ الأيّام والليالى ـ أن تُفوّض إلىٰ المشار إليه الإشارةُ الشريفة التى هى أسنىٰ المقامات وأعلاها ، وأقصىٰ المرامات لدَيْنا وأغْياها ؛ مع ما آنضمّ إلىٰ ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلّ قدرُها ، وعلا فى المناصب ذكْرُها ؛ والخاصّ الذى آختص بمهمّاتنا

الشريفة، والديوان المفْرَد الذى غَمَر من ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغيرَذى الوظيفه؛ وتعلقات المملكة شرْقًا وغربا، ولوازمها المفترقة بُعْدا وقُرْبا .

فليتلَقَّ مافُوِّض إليه بيمينه التى طالمـا رَبِحت فى الطاعة صَفْقتُها، ويقابِلْه بالقَبول الذى محلُّه من القلوب مُهجَتُها، مقدِّمًا تقوى الله تعالى فيما خَفِىَ من مقاصده وظَهَر، مُؤْثِرا رضاه فى كل ما يأتِى ويذَر، معتمِدا فى المصالح اعتمادَ ذى اليَقَظة الساهر، آتيا من غرائب الرَّغائب بمـا يحقِّق قول القائل : «كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ للآخِر» .

والوصايا كثيرة ومن بَحْره تُستخرَج دُرَرها، ومن سوابق آرائه تُستوْضَح أوضاحُها وغُرَرُها؛ والله تعالى يُدِيم عليـه نِعَمَ إقبالنـا الباطنةَ والظاهره، ويتولَّاه من العناية بمـا يحقِّق له دائم قوله : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِى الدُّنْيـا والآخِرَه ﴾ . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانيـــــة

(ممن يكتب له من أرباب السيوف ذواتُ التواقيع، وفيها وظائفُ)

الوظيفـــــة الأولى

(نظر البيمارستان لصاحب سيف)
(١)

الحمد لله رافِع قَدْرِ من كان فى خِدمتنا الشريفة كريمَ الخِلال، ومُعْلِى درجةِ من أضفى عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليةِ مَديدَ الظِّلال، ومجـدِّدِ نِعَم من لم يَخُصَّـه اعتناؤُنا بغـايةٍ إلا رقَّته هممُه فيها إلى أسنى رُتَب الكمال، ومفوِّض النظرِ فى قُرَب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفة إلى مَنْ لم يلاحِظْ من خواصّنا أمرا إلا سَرّنا ما نُشاهِد فيه من الأحوال الحَوّال .

نحمده على نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلى الأولياء عَوارِفُها ، ومناهِلِه التى لا تبرَح تشتمل على الأصفياء عواطِفُها ، وآلائه التى تُسدِّد آراءنا فى تفويض القُرَب إلى مَنْ إذا باشَرها سُرّ بسيرته السريّة مستحقُّها وواقفُها .

ونشهد أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفَع الإخلاصُ لِواءَها ، وأفاض الإيمانُ على وُجوه حَمَلتها إشراقَها وضياءَها ، ووالى الايقانُ إعادةَ أدائها بمواقف الحق وإبداءَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمى ، المَقْصُوص فى السُّنّة ذِكْرُ حوضه الذى من شَرِب منه شَرْبةً فإنّه بعْدَها لا يَظْمَا ، المنصوصُ على نُبوّته فى الصُّحُف المنزّلة وبشّرت به الهواتِفُ نَثْرا ونَظْمَا ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته ، بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاص فى محبته ، سعادةَ الدنيا والآخره ، وأقبلُوا على حظُوظهم من رضا الله ورِضاه فلم يُلْوُوا على خِدَع الدنيا الساحِره ، صلاةً دائمةَ الاتّصال ، آمنةً شمسُ دولتِها من الغُروب والزَّوال ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولى الأمور بالنظر فى مَصالِحها ، وأحقَّها بتوفيرالفكْرعلى اعتبادِ مَناهجها واعتماد مناجِحِها ، أمرُ جِهات البِرّ التى تقرَّب بها السلطانُ الشهيد الملكُ المنصور (قدّس الله رُوحَه) إلى من أفاض نِعمَه عليه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسنَ اللهُ إليه ، ورَغِبَ بها فيما عندَ الله : لعلمه أنَّ ذلك من أنْفَس الذخائر التى أعدّها بيْنَ يدَيْه ؛ وحلّ منها فى أكرم بُقْعة نقلَه الله بها عن سريره إلى مَقْعَد صدْق عند ربّه ،

وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يوم سِلْمِه بعد أن عَفَّى بها مَعاقِلَ الكفر فى يومِ حَرْبه ؛ وأقام بها مَنارَ العلوم فَعَلا مَنالُها ، وأعدّ للضُّعَفاء بها من مواد البِرّ والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُلِ إليه أموالُها ؛ وأن نرتادَ لها مَنْ اذا فوّضْنا إليه أمرا تحقَّقْنا صَلَاحَه ، وتيقَّنّا نَجَاحه ، وآعتقدْنا تَمِيَةَ أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفاعه وآنتفاعِه علىٰ أقوالِه وأفعاله ، وعلِمنا من ذٰلك ما لا نحتاجُ فيــه إلىٰ آختبار ولا آعتِبار ، ولا يُحتاج فى بيــان الخِيرَة فيه إلىٰ دليــل إلا إذا آحتاجَ إليــه النّهار ، لنكونَ فى ذٰلك بمَثَابة من ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابها ، أو جدّد لهــا وقْفًا : لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد أكفاء النَّظَر لهــا من أبوابها .

ولمــا كان فلان هو الذى نبّهتْ أوصافُه علىٰ أنه ماوَلِىَ أمرا إلا وكان فوقَ ذٰلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُبَ به صَــدْرا ، ولا طلع فى أُفُقِ رُتْبة هلالا إلا وتأمَّلَتْه العيون لأَجَلِّ رُتَب الكمال بَدْرا ؛ يدرك ماناَىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظَر ، ويسبِقُ فى سَــدَاد ما يباشِره علىٰ ما يجبُ سَــدادَ الآراء ومواقِعَ الفِكَر . ونحن نزدادُ غِبطةً بتدبيره ، ونتَحقَّق أنّ كل ما عدَقْنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسندناه إلىٰ عارفِه وفوّضناه إلىٰ خبيرِه ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نَعْدِق بجميل نظره هذا المُهِمَّ المقدَّم لدينا ، وأن نُفوّضَ إليه نظرَ هذه الأوقافِ التى النظَرُ فى مصالحها من آكَد الأُمور المتعيِّنة علينا .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلُهُ عمِيًا ، وبِرُّه يقَدِّم فى الرُّتَب من كان من خواصِّ الأولياء كريمــا ــ أن يُفوّض إليه كَيتَ وكَيْتَ .

فلْيلِ هــذه الرتبةَ التى أُرِيد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ ، وقُصِــد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَمــاء والفُقَراء والضُّــعفَاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصِّ المصالح وأعَمّ .

ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخُصُوصها نظرًا يَسُدّ خلَلَها ، ويُزِيح عِلَلَها ، ويعَمّر أصولَها ، ويثَمّر محصولَها ، ويحفَظ فى أماكنها أموالَها ، ويقيم بها معالمَ العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرّائها ، ويستعيدُ صحةَ مَن بها من الضعفاء بإعداد الذّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافظ علىٰ شُروط الواقف فى إقامة وظائفها ، وٱعتبار مَصَارفها ؛ وتقديم ما قدّمه مع مَلَاءة تدبيره باستكمال ذٰلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستَدْعى إليها من الأصناف التى يعزّ وجودها ويجتَلِب ؛ وضَبْط تلك الحواصل التى لا خزائنَ لها أوثقُ ، من أيدى أمنائه وثِقَاته ، ولا مُودَع لها أوفق ، من أمانة من يتَّقِى اللهَ حَقَّ تُقَاته ؛ فلذٰلك وَكَلْناه فى الوَصَايا إلىٰ حُسْن معرفته وٱطّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وٱضْطلاعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولونى)

من إنشاء المَقَرّ البَدْرىّ ٱبن المَقرّ العَلَائى بن فضل الله صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف ، فى الدولة الظاهرية برْقُوق ، كتب به المَقَرّ الشمسىّ العمرىّ كاتبُ الدَّسْت الشريف لأبى يزيد الدَّوَاذار ، وهى :

الحمدُ لله الذى أقامَ من أوليائنا خيْرَ ناظر ، يَقَرّ به كل ناظر ، وأدام بنا بِناءَ المعروف الزاهِر وحُسْنه الباهر ، وأنام الأنامَ فى مِهَاد الأمن بانتقاءِ وَلِىٍّ لسانُ الكون حامدٌ له ومادحٌ وشاكِر ، وفتح أبوابَ السعادة باصطفاء صَفِىٍّ طاب بسفارته كلُّ خاطرٍ من مُقِيم وخاطر ، ومنحَ أسباب السيادة بأوفىٰ وَفِىٍّ عَمَر بوجُوده

الوجودَ وغَمر بجُوده كلَّ باد وحاضر، وأبْصَر بالدين المتين والفضل المبين فأقمناه للنظَر علىٰ بُيوت الله تعالىٰ لأوْلويّته بذٰلك : ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ﴾ .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى ظهرَتْ[1] بالمَزِيد فسَرَّتِ السرائر، وظهرَتْ بنُور الرُّشْد المَديد فأشرقَ بها الباطنُ والظاهِر . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له العزيزُ القادِر، شهادةً صدَقتْ فى الإخلاص بها الألْسنةُ والضمائر . ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه مَعْدِنُ الأسرار، وبحرُ الجُود الزاخر، ومنبَعُ الأنوار، صاحبُ الآيات الظاهرةِ والمُعْجزات الباهرةِ والمَفَاخر، الذى يَبْعثُه اللهُ مَقاما محمودًا يحمَدُه الأوائلُ والأواخِر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه النُّجومِ الزَّواهِر ، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جِهاده فكان كلٌّ منهم للدِّين الحنيفِ أعظمَ مجتَهِد ومؤيِّد وناصِر، وسَلَّم تسليما كثيرًا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من أُلْقِيتْ إليه مقاليدُ الأمور، وصَرَّفناه فى جميع مَصَالح الجُمْهور ، وفوَّضْنا إليه النظرَ فى بُيوتِ الله تعالىٰ ليعْمُرَها بنظره السعيد وتُضاعَفَ له الأُجور ، ومكَّنَّا له فى دولتنا الشريفةِ حتّٰى صار قُطْبَ فَلَكها عليه تدور، وبسَطْنا يدَه ولسانَه فهو يَنْطِق عنَّا ويأمر بالقضاء والقَدَر فى الوُرُود والصُّدُور ، وقيَّدنا الأرزاقَ بقَلَمه، والمهمَّاتِ بكَلِمه ، فلا فضْلَ إلا من فَيْضه المنشور ــ مَن آمتاز علىٰ غيره بفضيلتَى السَّيف والقَلَم، وتقدّم فى الطاعة الشريفةِ بأثبَتِ قَدَم ، كان بها من السابقين الأوّلينَ من القِدَم، وآتَّصف بالشَّجاعة والشَّهامة والمَعْرفة التامّة والحِلْم والعَدْل والحِكَم ، فهو التَّرْجُمان عنَّا الناطقُ بفَصْل الخطاب فى السِّرِّ للتُّرْك والعَرب والعَجَم ، وعُرِف بالرأى السديد، والنظَر السعيد ، والتدبير الحَميد، والقول المُفيد،

(١) ظهرت بالمزيد قويت به ؛ وظهرت بنور الرشد ، وضحت وبانت .

والجُود والكَرَم ؛ وطُبِـع علىٰ الخير الجَزيل، والدِّين الجَمِيـل ، عُمْره فى الحقّ قائم ، لا تأخُذه فى الحقِّ لومةُ لائم ، طالمَـا أحيا بحُسْن السِّفارة من العَدَم .

هو واحدٌ فى الفَضْل والنظرِ السعيد لأبى سعيد .

فمن الذى يَحْكِيه فى الشَّرَف العَتيد بطَل الوَغىٰ أبو يزيد .

قـد تفرّد فى العِـفَّة والدِّيانه ، والثِّقة والأمانه ، وٱلتحفَ بالصَّفا ، وتردّىٰ بالوفا ، وشفىٰ بالخير والجبر مَنْ كان بالفَقْر علىٰ شَفَا فحَصَل له الشِّفا ؛ ووفّىٰ بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخَفىٰ (١) ، ولحِق فى الجُود والدِّين بسَمِيِّه أبى يزيد البِسْطامىّ الولىّ :

قالوا : الْولِىُّ أبُو يَزِيدٍ قَدْ مَضىٰ * وهو الفَرِيدُ بفَضْـلِه والصادِقُ !

قلْتُ : الأميرُ أبُو يزيدٍ مِثْـلُهُ * هٰذاك سابِقُـه وهـذا الّلاحِقُ !

ولـمـا كان فلان هو المشار إليـه بهذه الصِّفات الحَسَـنه ، والمناقِب الّتى تنوّعَتْ فى مدائحها الألسِنَه ، وعُرِف بالجُود فَمَلَك حُبُّه الأفئدةَ فارتفعَتِ الأصواتُ بالدعاء له مُعْلنه ؛ طالمَـا أنالَ النِّعم ، وأزال النِّقَم ، وجَبَرَ القُلوب ، وكشَفَ الكُرُوب ، وجَلاَ ظَلام الخُطُوب ؛ ونَشَر المعروف ، وأغاثَ الملْهُوف ؛ وأنقَذَ مِن المَهَالك ، وعَمَر بتـدبيره المَمَـالك ؛ ووصَـل الأرزاق ، وأجرىٰ الأطلاقَ علىٰ الإطلاق ـ ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نعتَمِد فى جميع الأشياءِ عليـه ، ونُلقِىَ مقاليدَ الأمور إليه ، ونَنُوط به المهِمّاتِ وغيْرَها : ليكون العِلْمُ بالكُلِّيات والجزئيّات لديْه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يتحف بالمَزيد من كَرَمه ، ويُسْبغ جلابِيبَ نِعَمه ؛ ويجرى بحرُ فضلِه الواسـع ، ويعُمُّ بنظَره المقرّبين من أوليائه كلّ جامع للخير جامع ، أن يستقرّ (٢) ... ...

---

(١) جرى على لغة طيء نظرا للسجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "فى نظر الجامع الطولونى" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه المواضع .

فليتلقَّ هذا التفويضَ الجليلَ بقَبُوله ، ويبلِّغ الجامعَ المذكورَ ما يرتقِبُه من عِمارته التى هى غايةُ مأمُوله . ومنه تؤخَذ الوصايا لأنه لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتِنا العالمُ بالحقائق والدَّقائق ، فلا يَحتاج أنْ يُوصىٰ ولا أن نفتَح معه فى الوصية بابًا ، ومايصْلُح ان يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خِطابا :

ومِثلُك لا يُدَلُّ علىٰ صَـوابٍ * وأنْت تُعَـلِّمُ النـاسَ الصَّوَابا!

والله تعالىٰ يؤيده فى القول والعَمَل ، ويعُمُّ بوجُوده وَجُوده الوُجود وقد فَعَـل ، ويُبْقِيـه مَدىٰ الدهر ، ويستخْدِم لسُعُوده الساعةَ واليومَ والجمعةَ والشَّهْر ، ويجعلُ بابه الطاهرَ مفتوحا للقاصدين علىٰ الدَّوام ، ويُقِيمُه واسطةَ عِقْـد المُلْك فإنه مُبارَك أينما كانـ ورحمةٌ للأنَام ، والاعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه حجـةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثـالثـــــة

(نِقَـابةُ الأشراف)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الدِّيار المِصرية فى المقالة الثانية أنَّـ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرتِ العادةُ أنَّـ الذى يتولَّىٰ هـذه الوظيفةَ يكون من رُءُوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنمـا أوردْتُه مع أرباب السُّـيوف لأن المقرَّ الشِّهابىّ بنَ فضـل الله قد ذكر فى بعض دَسَـاتيره الشاميَّـة أنه يُكْتَب لنَقيب الأشراف « الأميرىّ » ولا يكتَب له « القَضَائىّ » ولو كان صاحبَ قلَمَ .

وقد رأيتُ له عدّةَ تواقيعَ علىٰ ذٰلك مكتَتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبِي الشام وحلب وغيرهما، معبرًا عنه فيهـا بـ«الأميرىّ» وتوقيعُه فى قطع الثُّلُث مفتتحٌ بخُطْبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» .

وهذه نسخةُ [توقيع](1) بنقابة الأشراف، وهى :

الحمدُ للهِ مشرِّفِ الأنساب، وموفِى الأحساب، حقوقَ ملاحظَتِهم بغيرِ حساب ، وجاعِلِ أيّامِنا الشريفةِ تحمَد الاكتساب .

نحمده بمحامدَ حسنةِ الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا شـكَّ فى مَقَالهـا ولا ٱرْتيِاب . ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أَنْزَلَ عليـه الكتاب، وشرَّف به الذّرارىَّ من شجرته المبـاركةِ الأعْقاب ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تَتوارَىٰ شمسُها بحجاب .

وبعدُ، فإنَّ خيرما صُرِفت الهِممُ إلىٰ تشييد مَبَـانيه ، وتقييـد مُهْمَل رَوَاعيـه وملاحظةِ قاصيه ودانيه ، المحافظةُ علىٰ كلِّ ما يرْفَع قدرَ الآل ويُعْليه ، ويُردُّ إليهم عِنانَ الاعتناء ويَثْنيه .

ولمـّا كانت العترةُ الطاهرةُ النبويةُ وُرّاثَ الوحى الذين آلَ إليهم مِيرَاثُه، وأهلَ البيت الذين حصَل لهم من السُّؤدَد آياتُه ، وقد سأل اللهُ وهو المسئُول لهم القُرْبىٰ ، وخصَّهم بمزايَا حقيقٌ بمثلِ متصَرِّفهم أنه بها يُحْبىٰ وأنها لهم تُجْبىٰ : لمـا فى ذٰلك من بركاتٍ تُرْضِى سيدَ المرسلين وتُعْجبه ، ويُسَطِّر الله [الأجر] لفاعله ويَكْتُبه ، وكان لابدَّ لهم من رئيس يُنَضِّد سِلْكهم وينَظِّمه ، ويعظِّم فخرهم ويفَخِّمه ، ويحفظ أنسابَهم ،

(1) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ويصْقُل بمكارمه أحسابَهم ، وينمّى بتدبيره رَيْعهم ، ويُتابع تحتَ ظِلّ هذه الشجرةِ الزكيّة ما زكّى ينْعهم ، ويحفَظُهم فى ودائع النّسْل ، ويَصُدّ عن شرَف أُرومتهم من الأدْعِياء المدّعين بكل بَسْل[1] ، ويحْرُس نِظامهم ، ويُوالِى إكرامَهم ، ويأخُذُهم بمكارم الأخلاق ، ويمُدُّهم بأنواع الإرْفاد والإرفاق ، ويتولّى رَدْع جانيهم إذا لم يَسْمَع ، ويتدبّرُ فيه قولَه : « أنْفُك مِنْكَ وإنْ كانَ أجْدَع » .

ولمّا كان فلان هو المشارُ إليه من بنى هـذه السُّلالة ، وله من بينهم مِيزةٌ باطنةٌ وظاهرةٌ وإن كانُوا كُلُّهم شيئًا واحدا فى الإجلال والإعظام ، فقد تميّزتْ من بين الأنامل السّبّابةُ علىٰ الخِنصر والبِنْصِر والوُسْطىٰ والإبهام ، وَكَمْ ثَمرٍ جَنِيٌّ فُضِّل بعضُه علىٰ بعض فى الأُكُل وهو يُسْقىٰ بماءٍ واحد ، وقد آمتاز علىٰ بنى هاشمٍ سيدُ المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام ـ آقتضىٰ حُسْنُ الرأى المُنِيف ، أنْ رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يختارُ وينتقى ، ويجتَبِى من يخشىٰ اللهَ ويتّقى ـ أن تُفَوّضَ إليه نِقابةُ الأشراف الطالبيّين علىٰ عادةِ من تقدّمَه من النُّقباء السادة .

فليَجمَعْ لهم من الخير مايُبْهِج الزهراءَ البَتُول فعلُهُ ، ويفعَلْ مع أهله وقَرابته منهم ماهو أهْلُهُ ، وليحفَظْ مواليدَهم ، ويُحَرِّرْ أسانيدَهم ، ويَضْبِطْ أوقافَهم ، ويعتَمِدْ إنصافَهم ، ويُثمِّر مَتَحَصّلاتِهم ، ويكثّر بالتدبير غَلّاتِهم ، ويأخُذ نَفْسَه بمُساواتِهم ، فى جميع حالاتِهم ، وليأخُذْهم بالتجمّع عن كل مايَشِين ، والعملِ بما يَزِين ، حتّى يُضيفوا إلىٰ السُّؤدَد حُسْنَ الشّيَم ، وإلىٰ المَفاخر فاخرَ القِيَم ، وكلُّ مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومِنْه وإليه ، والله يحفظُه من خَلْفه ومن بين يدَيْه ، بمنّه وكرمه ! .

---

(١) البسل الشدّة كما فى اللسان . ووقع فى الأصل «نسك» بالنون والكاف وهو تصحيف .

***

وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها فى "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلُّك عن الوَصَايا إلا ما نتَبرَّك بذِكْره ، ويُسرُّك إذا آشتملتَ علىٰ سِرّه ؛ فأهْلَك [أهْلَك ؛ راقب](1) اللهَ ورسوله جدَّك صلّى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسئُول، وآرفُقْ بهم فهم أولادُ أمّك وأبيك حَيْدرَةَ والبَتُول؛ وكُفَّ يدَ من علِمتَ أنه [قد](1) آستطال بشَرَفه فمدّ إلىٰ العِناد يدًا ، وآعلم أنَّ الشريفَ والمشروفَ سواءٌ فى الإسلام إلا من آعتدَىٰ؛ وأنَّ الأعمالَ محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يدَي الله فقدِّمْ فى اليوم ما تفْرَح به غَدًا ؛ وأزِل البِدَع التى يُنْسَب إليها أهلُ الغُلُوِّ فى وَلَائهم، والعُلُوِّ فيما يُوجِب الطعنَ علىٰ آبائهم ؛ : لأنّه يُعلم أنَّ السلفَ الصالحَ رضى الله عنهم كانوا متَنزِّهين عما يَدَّعيه خَلْفُ السَّوْء من آفتراق ذاتِ بيْنِهم، ويتَعرَّضُ منهم أقوام إلىٰ ما يجُرّهم إلىٰ مَصَارِع حَيْنِهم؛ فللشِّيعة عثَراتٌ لا تُقال ، من أقوال ثِقال ؛ فسُدَّ هذا البابَ سَدّ لَبيب، وآعمَلْ فى حَسْم موادِّهم عَمَلَ أريب؛ وقُمْ فى نَهْيهم والسيفُ فى يَدِك قيامَ خَطيب، وخوِّفْهم من قَوارِعك [مَوَاقِع](1) كلِّ سَهْم مُصِيب؛ فما دُعى «بحيَّ علىٰ خيرِ العَمَل» إلىٰ خَيرٍ من الكتّاب والسنّة والإجماع [فآنظِم فى نادى قومك عليها عقُودَ الآجتماع](1) . ومَن آعتَزَىٰ إلىٰ آعتزال، أو مالَ إلىٰ الزَّيْديَّة فى زيادة مَقَال ؛ أو آدَّعىٰ فى الأئمة الماضين ما لم يَدَّعُوه ، أو آقتفىٰ فى طُرُق الإماميَّة بعضَ ما آبتدَعُوه؛ أو كَذَب فى قول على صادقِهم، أو تكلَّم بما أرادَ علىٰ لسان ناطقهم؛ أو قال : إنه تلقَّ عنهم سِرًّا ضَنُّوا علىٰ الأمّة ببَلَاغه ، وذَادُوهم عن لَذّة [مَسَاغه](1)، أو رَوَىٰ عن يوم السَّقيفة والجَمَل غيرَ ماوردَ أخبارا، [أو تمثَّل بقول من يقول : عبد شمسٍ قد أوْقَدَتْ لبنِي هاشم نارا](1) أو تمسَّك من عقائد الباطن بظاهر ، أو قال

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهى لازمة لآستقامة الكلام .

إنّ الذاتَ القائمةَ بالمعنىٰ تختلف فى مَظَاهر؛ أو تعلّق له بأئمة السِّتْر رجاء، أو آنتظر مُقيما برَضْوىٰ عنده عَسَلٌ وماء، أو رَبَط علىٰ السِّرْداب فرَسَه لمن يقُودُ الخيل يَقْدَمُها اللِّواء؛ أو تلفَّتَ بوجهه يظُنّ عليًّا كرَّم الله وجهــه فى الغَمَام، أو تَفلَّت من عِقَال العقلِ فى آشْتِراط العِصمة فى الإمام . فعرّفْهم أجمعين أنَّ هذا من فساد أذهانِهم، وسُوء عقائد أدْيانِهــم؛ فإنَّهم عدَلُوا فى التقرّب بأهْلِ هذا البيت الشريف عن مَطْلُوبهم، وإن قال قائل إنهم طَلَبوا فقل له : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

وآنظُرْ فى أمور أنسابِهم نظَرا لا يَدَع مجَالا للرِّيَب ، ولا يستطيعُ معــه أحدٌ أن يدخُل فيهم بغــير نَسَب ، ولا يَخْرُج منهم بغير سَبَب ، وسَاوِق المتصرِّفين فى أموالهم فى كلِّ حِساب. وآحفَظْ لهم كلَّ حَسَب . وأنتَ أَوْلىٰ من أحسَن لمن طَعَن فى أسانيد هذا الحديث الشريف أو تأوّلَ فيه علىٰ غير مُرادِ قائلِه صلى الله عليه وســلم تأديبًا ، وأراهُمْ ممــا يوَصِّلهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله طريقًا قريبــا . ونَكِّل بمن علِمتَ أنه قد مالأَ على الحق أو مالَ إلىٰ فريق الباطل فَرَقا، وطوىٰ صَدْرَه علىٰ الغِلِّ وغَلَب من أجله علىٰ ما سبَق فى علْم الله تعــالىٰ من تقديم مَنْ تَقَــدَّم حَنَقا ؛ [وجارَ وقد][1] أوضَحْتَ لهم الطريقةَ المُثْلىٰ طُرُقا، وآردَعْهم إن تعرّضوا فى القَدْح إلىٰ نضال نصال، وآمنَعْهم فإن رِقهم كلَّها وإن كَثُرت خابطةٌ فى ظلامِ ضَلال ؛ وقدِّمْ تقوى الله فى كل عَقْد وحَلّ، وآعملْ بالشريعة الشريفة فإنها النَّسَب الموصُول الحَبْل .

وآعلم أنَّ المقرَّ الشهابىَّ بنَ فضــل الله قد ذكَر فى "التعريف" عِدّةَ وصايا لجماعة من أرباب السُّيوف ، لم يُكْتَب لأحد منهم فى زماننا، بل رُفِض آستعمالُها وأُهْمل . ونحن نذْكُرها حِفْظا لذِكْرها، وآحتياطًا أن يقتضِيَ الحالُ فى زمنٍ كتابةَ شىءٍ منها .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الدّيار المصرية انّ أصله أطابك[1] بالطاء المهملة ومعناه الأبُ الأمير ، وأنَّ أوّل من لُقّب بذٰلك زَنْكِى أطَابَك صاحب المَوْصل، ثم غَلَبت فيه التاءُ المثناةُ بدَلَ الطاء ، وهى :

وأنت ٱبنُ ذٰلك الأبِ حَقِيقه ، وولَدُ ذٰلك الوالدِ الذى لم تُعْمَل له إلا من دِماء الأعداء عَقِيقه ؛ وقد عُرِفْتَ مثلَه بثَبَاتِ الجَنَان ، وصُلْتَ بيَدِك ووَصَلْتَ إلىٰ مالم يَصِلْ إليه رُمْحٌ ولا قدَر عليه سِنَان ؛ ولم يُزاحِمْك عدُوّ إلا قال له : أيُّها البادى المُقاتِل كيفَ تُزاحِم الحديد، ولاسُمِّى ٱسمُك لجَبَّار إلا قال له : ﴿وجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ منهُ تَحِيدُ﴾. وأنتَ أَوْلىٰ من قام بهذه الوظِيفه ، وألّف قلُوبَ هذه الطائفة التى ما حَلَم بها حالِمٌ إلا و باتَ يُرْعَدُ خِيفَه ؛ فلْيأخُذْ هـذا الأمرَ بزِمَامه ، وليعمَلْ لله ولإمَامه ؛ وليَرْمِ فى حُبِّ البَقَاء الدائم بنَفْسَه علىٰ المنيّه ، ولْينادِمْ علىٰ مُعاقَرة الدِّماء زُهورَ سَكاكِينه الجَنِيّه ، وٱطبَعْ منهم زُبَرا تُطاوِل السيوفَ بسَكاكِينها ، وتأخُذ بها الأُسُودَ فى عَرِينها ، وتمتدّ كأنَّها آمالٌ ، لمـا تُرِيد ، وتُرْسَل كأنَّها آجالٌ ، ولهذا هى إلىٰ كلِّ عدوّ أقربُ مِن حَبْل الوَرِيد ، وأنْذِ منهم شُعَلا إذا دَعيتْ بأحسابها لا تجِد إلّا متحاميا ، وٱرم منهم سهاما إذا دعِيَتْ (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفَرّج بهم عن الإسلام كلَّ مَضيق ، وٱقلَعْ عن المسلمين من العَوَانيَة كلَّ حجَرٍ فى الطريق ؛ وصَرِّف رجالَك المَيَامين ، وتصيَّدْ بهم فإنَّهم صُقُور ومَنَاسِرهم السَّكاكين ؛ وٱخطَفْ بهـم الأبصارَ فبأيمـانهم كلُّ سِكّينة كأنّها البرْقُ الخاطف ، وٱقْطِف الرءُوسَ فإنهـا ثمراتٌ أينعَتْ لِقاطِف ؛ وٱعرِفْ لهم حقَّهم وضاعِفْ لهمْ

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة فى رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريمـا، وأدِمْ لهم بنا بِرًّا عميما، وقدِّم أهلَ النفع منهم فقد قدّمهم الله ﴿وفَضَّل اللهُ المُجاهِدِينَ عَلَىٰ القاعِدِينَ أجْرًا عَظِيما﴾ .

وٱعلَمْ أنهم مثلُ الوُحوش فزِدْ فى تأْنِيسهم ، وٱشكُرْ إقدامَهم فطالمَـا ٱقتحَمُوا علىٰ الملوك وما هابُوا يقَظةَ حرسِهم، وٱرفَعْ بعضَهم علىٰ بعضٍ درجاتٍ فى نَفَقات تَسافِيرهم وقُعود مَجْلِسهم ، ولا تُسَوِّ بينَهم فمـا هُم سَواءٌ و﴿لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ﴾ . وأصلُ هذه الدعوةِ ما زالتْ تَنْتقِل بالمَوارِيث حتَّى ٱنتهتْ إلينا حقُوقُها ، وأوْمضَتْ بنـا حيثُ خلعَتْ هَيَا كِلَها بجَرْعاء الحِمَىٰ بُرُوقُها ، والله تعالىٰ يوفِّقه ويُرْشِده ، ويُطَوِّل باعَه لمـا قَصُرت عنه سَواعدُ الرِّماح ووصَلَت إليه يَدُه .



الثانية — وصِيَّة أستاد الدار .

وليتفقَّدْ أحوالَ الحـاشيَةِ علىٰ ٱختـلافِ طَوائفِها ، وأنواعِ وظائفها ، وليرتِّبْهـا فى الخِـدْمة علىٰ مايَجب ، وينظُر فى أمورهم نظَرًا لايَخفىٰ معـه شىءٌ ممـاهم عليه ولا يحتَجِب ، وليَبدَأْ بمُهِمِّ السِّماط المقدّمِ الذى يُقدّم ، وما يتَنوّعُ فيه من كل مَطْعَمٍ ، وما يُمَدّ منه فى كل يوم بُكْرةً والعَصْر ، وما يُسـتدعىٰ معه من الطَّوارئ التى لايَحُدّها الحـدّ ولا يحصُرها الحصر ، وأحوالِ المَطْبَخ الكريم الذى منـه ظهور تلك المَخَافى ، ووفاءُ ذٰلك الكرمِ الوافِى ، والتقدّمِ إلىٰ الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانةِ المآكل مما يُعاب علىٰ الإطلاق . ثم أمرِ المشروب وما تُغْلَق عليه أبواب الشراب خاناه السـعيدة من لطائف مأكـولٍ ومشروب ، وشىءٍ عزيزٍ لا يوجد إلا فيهـا إذا

عزَّ المطلوب ؛ ومراجعةِ الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُنْسَبُ لطبخه من حُمْر اليواقيتِ كوانِينها ؛ وإفرازِ ماهو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقه ، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسَلَّمُ إلا إلىٰ ثِقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التى هى خِزانة اللِّباس ، وموضِعُ ماتَبْرُزُ به من الزِّينة للناس ؛ وما يُحتاجُ إليه من آلاتِ التطبيب ، وما يُعيَّن لها من الصابُون وماءِ الوَرْد والطِّيب ، وغير ذٰلك من بقِيَّة ما هى مستَقرّه ، ويُؤخَذ منها مُسْتَدَرُّه ؛ ومن يُسْتَخْدَم بها ممن بَرِئَ من الرِّيَب ، وعُرِف بالعَفَاف والأدب ؛ وعُلِم أنه من أهل الصِّيانه ، وعلىٰ ماسُلِّم إليه ومَنْ خالطهُ الأمانه . ثم الفِراش خاناه وما يُنْصَبُ فيها من الخِيام ، وما يكونُ فيها من فَرْش سَفَر ومُقَام ، وشَمع يُفضِّض كافُور كافوريِّته آبَنُوسَ الظَّلام . ثم غِلْمان الإصْطَبْل السعيد والنَّجَّابة وإن كان إلىٰ سواه استِخدامُهُم ، ولدىٰ غيرِه مستَقَرّهم ومُقامُهم ؛ لٰكنَّهم مانَحرَجُوا من عَدِيده ، ولا يَرُوقُهم ويَرُوعُهم إلا حَسَنُ وعْدِه وخَشِنُ وَعِيده . ثم المُنَاخَات السُّلطانيةُ وما بها من جِمَال ، وما يَسْرح فيها من مالٍ وجَمال ؛ ومن يُستخدَم فيها من سيروان ومِهْمَرْد ، وما فيها من قِطَار مُزْدَوج وفَرْد ؛ فيوفِّرُ لهذه الجهة نصيباً من النظر يشاهد أُمورَها وقد غابتْ فى الأقطار ، وتفرّقتْ كالسُّحُبِ يلزمُها القِطَار القَطَّار ؛ ولْيكُونوا علىٰ بالِه فإنهم يسْرِقُون الذَّرَّة[1] من العيْن ومعهم الذَّهَب العَيْنُ محمَّلا بالقنْطار ؛ فلْيُحْسِن منهم الآرْتِياد ، وليتخَيَّر أرَقَّهم أفئدةً فإنَّهم بكَثْرة ملازمتِهم لِلإبل مثلُها حتَّى فى غِلَظ الأكباد . وطَوائف المُعاملِين ، والأبقار ومَنْ عليها من العامِلين ، وزَرائبِ الغنم وخَوَلِهَا ورِعائها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تطْلُبه فى آستدعائها ؛ ونفقاتِ الأمراء المماليك السلطانيّة فى إهلالِ كلِّ هِلال ، وما يُصْرف فى كُساهم

(١) فى "التعريف" « ذرّة الكحل » .

علىٰ جارى عادتِهِمْ أو إذا دعَتْ إليــه ضرورةُ الحــال ؛ وما يؤخَذ عليــه خطُّه من وصولات تُكتَب ، وآستدعاآت تُحْسَب من لوازمه وهى للكَثْرة لا تُحْسَب ؛ فلْيَكُنْ لهذا كلِّه مراعيا ، ولأُمورِه واعِيا ، ولمـا يجب فيه دُونَ ما لا يجب مسـتَدْعِياً وإليه داعِيا ؛ وهو كبيرُ البيتِ وإليه يرجع أمر كلِّ مملوكٍ ومستخْدَم ، وبأمرِه يؤخَّر من يؤخَّر ويقدَّم من يُقدَّم ، ومثلُه يُتَعَلَّم منــه ولا يُعَلَّم ؛ وعَصاه علىٰ الكلِّ محمولة علىٰ الرِّقاب ، مبسوطةٌ فى العَفْو والعِقاب ، ومكانُه بين يدَيْنا حيثُ نراه ويرانا ولدَيْنا قابَ قوسَـيْن أو أدْنىٰ من قاب .

وعليه بتقْوىٰ الله فبهـا تمـامُ الوصايا وكمالُ الشرُوط ، والأمرِ بهـا فعصَاه محكمة وأمرِه مبْسوط ، وكلُّ مايُناط بنا : من خاصَّة أمورنا فى بيتنا ــ عمَرَه الله ببقائِنا وزاد تَعْميرَه ــ بتدبيره منُوط .

الثالثــة ــ وصِيَّة أميراخور .

وقد تقــدّم فى الكلام على الألقابِ فى المَقَالة الثـالثةِ أنَّه مركَّبٌ من لفظين : عَربِىّ وهو أمير ومعناه مَعْروف ، وأخُور فارسىّ ومعناه العَلَف ، والمعنىٰ أميرُالعَلَف . وكأنه فى الأصل كان هو المتولِّى لعَلُوفة الخيل ، ثم آرتفعَتْ وظيفتُه حتّىٰ صار صاحبُها من أكابر الأُمَراء المقــدَّمين ، وهو يتحــدّثُ فى الإصْطَبْلات السلطانيَّة وما حوَتْه من خَيْل وبِغال ودَوابّ وجِمالٍ وأثاثٍ ، وغيرذٰلك .

وهذه نسخة وصيته :

ولْيَكُنْ علىٰ أكمل مايكونُ من إزاحةِ الأَعْذار ، والتأهُّب لحركاتنا الشريفة فى لَيْلٍ كانَ أو نَهار ، مقدِّمًا الأهَمَّ فالأهمَّ من الأمور ، والأبْدأَ فالأبْدأَ من [تقديم][1] مَراكبنا

---

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لازمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة موكبنا المنصور، وترتيب ذلك كله على ما جرت به العوائد، وتحصيل ماتدعو الحاجة إليه على قدر الكفاية والزوائد، والنظر فى جميع إصطبلاتنا الشريفة، والحشارات السعيدة، وخيل البريد، والركائب المعدة لقطع كل مدى بعيد، وما يجتمع فى ذلك وينقسم، وما يركب منها ويجنب مما يسم الأرض بالبدور والأهلة من كل حافر ومنسم، وما هو برسم الإطلاق، وما يعد لمماليك الطباق، وخيل التلاد، وما يجلب من قود(١) كل قبيلة من القبائل ويجىء من كل بلد من البلاد، والمشترى مما يباع من المواريث ويستعرض من الأسواق، وما يعد للمواكب وللسباق، وليجل رأيه فى ترتيب ذلك كله فى مراتبه على ما تقتضيه المهمات، والاحتراز فى التلاد مما لعله يبدل ويقال هو هذا أو يؤخذ بحجة أنه مات، وليجتهد فى تحقيق ما نفق، [وليحرره على حكم ما يتحقق عنده لا على ما اتفق،](٢) وكذلك فليكن فحصه عمن يستخدم عنده من الغلمان، ولا يهمل أمورهم مع معاملتهم بالإحسان، ولا يستخدم إلا من تشكر سيرته فى أحواله، وتعرف خبرته فيما يراد من أمثاله، وكذلك الركابة الذين تملك أيديهم أعنة هذه الكرائم، والتحرز فى أمرهم ممن لعله يأوى إليهم من أرباب الجرائم، والأوشاقية الذين هم مثل مماليكه وهم فى الحقيقة إخوانه، وجماعة المباشرين الذين هم فى مباشرة الإصطبلات السعيدة ديوانه، وكل هؤلاء يلزمهم بما يلزم أمثالهم من السلوك، ويعلمهم بما يجب عليهم أن يتعلموه من خدمة الملوك، ولا يسمح لأحد منهم فى أمر يفضى إلى إخلال، ولا يقتضى فرط إدلال، وليقم أودهم بالأدب فإن الأدب مافيه إذلال، وكل هؤلاء الطوائف ممن يتجنب العامة مخالطتهم لما طار فى أيام من تقدم عن أمثالهم من سوء السمعة،

(١) فى اللسان من معانى "القود الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهى لازمة كما لا يخفى .

ويُتخوّف منهم الشَّرعه ؛ فليكُنْ لهم منك أعظَمُ زاجر، ومَنَ شُكِىَ إليك منهم فسارعْ إلىٰ التنكيل به وبادِرْ ؛ وٱشْهَر من فعلك بهم ما يُوجِب منهم الطُّمَأْنينه ؛ ولا يعود أحدٌ بعده يُكَذِّب يقينَه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعُك، وبهم يمتدّ باعُك ، هم بحَسَب ما تجعلهم بصَدَده ، وما منهم إلا من يقْدر [أن] يتعدّىٰ حدّه فى مقام قَدَمه وبَسْط يده ؛ فاجعلْ لكلٍّ منهم مَقاما معلوما ، وشيئًا تجعل له فيه تحكيما . وتثمين الخيول المشتراة والتَّقادمِ قوِّمها بأهل الخِبْرة تقويمَ عَدْل ، وقُلِ الحقَّ ولا يأخُذْك فيه لومٌ ولا عَذْل ؛ وما يُصْرَف من العليق برَسْم الخيول السلطانية ومَنْ له من صدَقَاتنا الشريفةِ عَليق، مُرْ بصرفه عند الاستحقاق وٱضْبِطه بالتعليق؛ وتصرَّفْ فى ذٰلك كلّه ولا تتصرَّفْ إلا تصرُّف شَفيق، وصُنْه بأقلام جماعةِ الدِّيوان ولا تقنع فى غير أوقات الضرورة برفيقٍ عن رفيق ؛ وكذٰلك البراسيمُ السلطانية أصْلا وزِياده ، ولا تَصْرِفْ إلا مانأمُر به وإلا فلا تخْرُجْ فيه عن العاده ؛ ونُزَلاؤُك من أمراء العُرْبان عامِلْهم بالجميل، وزِدْ فى أخذِ خواطرهم ولو ببَسْط بِساط الأُنْس لهم فما هو قليل ، : لتتضاعفَ رغْبَتُهم فى كلِّ عام ، وليستدِلُّوا ببَشَاشةِ وجهك لهم علىٰ مابعدَه من الإنعام؛ وبِغالَ الكؤوسات السعيدةِ والأعلامِ المنصوره،وأثقال الخزانة العالية المعموره؛ ٱجعلها من المهمَّات المقدَّمه ، والمقدِّمات لنتائج أيام النصْر المُعْلَمه؛ ورتِّبْها فى مَواقفِها ، وأتمَّها أتمَّ ما يكون من وظائفِها ؛ فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور ، وإليها يأْوى كلُّ مستظِلٍّ ورَحَىٰ الحرب تَدُور ؛ وغير ذٰلك من قُماش الإصْطَبْلات السعيدة من الذَّهب والفِضَّة والحرير، وكلِّ قليل وكثير؛ باشرْه مباشرةَ من لا يتخلَّى ، وأحصِه خَرْجا ودَخْلا ؛ وإيَّاك والأخذَ بالرُّخَص، او إهمالَ الفُرَص، أو طلَبَ فائتٍ جُرْم أهملتَه حتَّى نَكَص .

الرابعة — وصية مُقدّم المماليك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف أنه يتحدّث فى أمر المماليك السُّلطانية والحُكْم بينهم ، ويركَبُ خلفَهم إذا ركب السلطانُ كأنّه يحفظهم . والوصية هى :

وليُحْسِن إليهم ، وليْعلَمْ أنّه واحد منهم ولكنه مقدَّمٌ عليهم ، وليأخُذْ بقلوبهم مع إقامة المَهَابة التى يُخيِّل إليهم بها أنه مَعَهم وخَلْفَهم وبين يدَيْهم ، وليُلْزِم مقدَّم كلِّ طَبَقة بما يلْزَمه عند تَقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطِّبَاق ، وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْسَ السَّوّاق ؛ وليكُنْ لأحوالهم متعهِّدا ، ولأمورهم متفقِّدا ؛ وليستَعْلِم أخبارَهم حتّى لا يزالَ منها علىٰ بَصيره ، وليْعرِف ماهم عليه مما لا يخفىٰ عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلًا فإنهم جِيرَه ؛ وليأْمُرْ كلًّا منهم ومن مقدَّميهم والسَّوّاقين لهم بما يلزَمُهم من الخِدْمه ، وليُرتِّبْهم علىٰ حُكم مكانَتِهم منّا فإن تساوَوْا فليقدّم من له قُدْمه ؛ وليعدل فى كل تَفْرِقه ، وليُحسنْ فى كل عَرْض ونَفَقه ، وليفرِّقْ فيهم مالهم من الكَساوى ويُسْبِلْ عليهم رِداءَ الشَّفَقه ؛ وليُعِدّ منهم لغابِنا المَحْمِىِّ سِبَاعا تفترس العادِيَه ، وليُجْمِل النظرَ فى أمر الصِّغار منهم والكِبَار أصحابِ الطِّبَقات العاليه ؛ وليأخُذْهم بالرُّكوب فى الأيّام المعتاده ، والدُّخول إلىٰ مكان الخِدْمة الشريفة والخروج علىٰ العاده ، وليُدِرْهم فى أوقات البواكير والأسفار نِطاقًا دائرَ الدِّهْليز المنصور ، وليأمُرْهم أمرا عامًّا بأن لا يركبَ أحدٌ منهم إلا بدُسْتور ولا ينزِلَ إلا بدُسْتُور ؛ وليحتَرِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان ، ولا يستخْدِم منهم إلا معروفا بالخير ويُقِيمُ عليهم الضُّمّان ؛ وليْحَرِّر علىٰ مَنْ دخَل عليهم وخَرَج ، ولا يفتَحُ لأحدٍ منهم إلا من عُلِم أنه ليس فى مثله حَرَج ؛ ولا يَدَع للرِّيبة بينهم مجالا للاضْطراب ، وليُوصِ مقدّميهم بتفقُّد ما يُدْخَل إليهم فإن الغِشَّ أكثَرُه من الطَّعام والشَّراب ؛ وليُدِمْ مراجعتَنا فى أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصواب ، وليعمَلْ بما نأمره به ولا يجدُ جَوًى فى جواب .

الضـــرب الثـانى

(ممّن يُكتب له بالوِلايات بالديار المِصرية أربابُ الوظائف الدينية، وهو علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولىٰ

(أصحابُ التقاليد ممّن يُكتَب له بالجناب العالى)

وتشتمل علىٰ عدّة وظائف

الوظيفـــةُ الأولىٰ

(القضـاء)

قد تقـدّمَ فى المقالة الثانيـةِ فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ الديارَ المصرية كان يليها قاضٍ واحدٌ، إلىٰ أنْ كانت الدولةُ الظاهريةُ «بيبَرس» فى أوائل الدَّولة التُّركيـة، وقاضِى القضاة يومئذ القاضِى تاجُ الدين عبـدُ الوهاب ابن بنتِ الأعَزِّ الشافعىّ، فاضطَرب الأمرُ لاختلاف المذاهب، فاقتضىٰ رأىُ السلطان تقريرَ أربعة قُضاة من كل مَذْهب قاض، وقُرِّر القـاضِى تاجُ الدين ابن بنت الأعزِّ فى قَضاء قُضاة الشافعية علىٰ حاله، وكُتِب لكلٍّ منهم تقليـدٌ بذلك؛ ثم خُصَّ قاضى القضاة الشافعيـة بالتولِيَة فى بلاد الريف دُونَ غيره من القُضـاة الثلاثة، واستمرَّ الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ. إلا أنه لـما حدثَ بديوان الإنشاء تنويعُ مايُكتب لأرباب الأقلامِ إلىٰ تقاليد، فى قطع الثلثين، وتَفاوِيضَ، وتَواقيعَ، فى قطع النصف، تقرّرَ الحالُ علىٰ أن يُكتَب للقُضاة الأربعة تواقيعُ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العـالى»، ولم يزَلِ الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ أن وَلِىَ القاضى عمادُ الدين احمدُ الكَرَكىّ الأزرقىّ قَضاء قُضاة

الشافعية فى أوّل سلْطَنة الظاهرِ « بَرْقُوق » الثانية ، وأخُوه القاضى علاءُ الدين علىّ كاتبُ السرّ ، فعُنِى بأخيه عمادِ الدين المذكور ، فكَتَب له تقليدا فى قطع الثلثين بـ«الجناب العالى» . وبَقِى الثلاثةُ علىٰ ما كانوا عليه من كِتَابةِ التواقيع إلىٰ أن وَلِىَ القاضى جمالُ الدّين محمودًا لِلبىّ القَيْسَرىّ المعروفُ بالعَجَمىّ رحمه الله قَضاء قُضاة الحنفيّة فى الدولة الظاهريّة أيضا، مضافًا إلىٰ نَظَر الجيش، فكُتِب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بالجناب العالى أيضا؛ وبقى المالكىُّ والحنبلىُّ علىٰ ما كانا عليه من كتابة التواقيع فى قَطْع النِّصف . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِىَ قاضى القُضاة جمالُ الدين يوسفُ البِسَاطىّ قَضاءَ قُضاة المالكية فى الدولة الناصرية «فَرَج بن الظاهر برقوق» فأنشأتُ له تفويضًا وكتبت له به ، ولم يكُن أحدٌ ممن عاصَرْناه كُتِب له تفويض غَيْره . ثم لما وَلِى الشيخُ جمال الدين عبدُ الله الأقْفَهْسىّ قضاءَ المالكية، كتب له توقيعٌ فى قطع النصف ، إلا أنه كُتِب له بـ«الجناب العالى» كما يُكتَب لأصحاب التقاليد ، وجرىٰ الأمرُ فيمَن بعده علىٰ ذٰلك . ولم يبقَ من هو علىٰ النّمَط الأوّل سِوىٰ قاضى القُضاة الحنابلة، ويُوشِك أن يُكتَب لكلٍّ من المالكىّ والحنبلِىّ أيضا تقليدٌ: لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرتُ ما يكتَب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للمُفْتَرِق وتقريبًا للمَأْخذ .

وهٰأنا أذكر ما يكتب للأربعة علىٰ الترتيب .

الأوّل (قضاء القُضاة الشافعية)

وهذه نسخةُ تقليدٍ بقضاء القُضاة الشافعية، كُتِب به لقاضى القُضاة تاج الدين ابن بنتِ الأعزّ رحمه الله، حينَ آستقرّ أحدَ القُضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة علىٰ ما تقدّم، وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدِالظاهر رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله مجرِّدِ سيفِ الحقِّ علىٰ من ٱعتدىٰ، ومُوسِّع مجَالِه لمن راحَ إليه وٱغتدىٰ، ومُوضِّح طريقه لمن ٱقتادَ وٱقتدىٰ، ومزيِّن سمـائه بنُجوم تستمدُّ الأنوارَ من شمس الهُدىٰ؛ الذى أعْذَب لِشرْعة الشريعـة المحمَّدية يَنْبُوعا، وأقامَها أصْلًا مَدّ بثِمـار الرُّشْد فُروعا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى ألزمَتْنا لتشييدِ مَبانِيها شرُوعا، ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَعْمُر بها من القلوب والأفواه رُبُوعا . ونصَلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى أرسـله الله إلىٰ الخلائق جميعا، وقام بعِبْء الأمر يصنَعُ حَسَـنا ويُحْسِن صَنِيعا، صلى الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لا يبْرَح برقُها ملمُوعا، ولا ينفَكُّ وِتْرُها بالتسليم مشْفُوعا .

وبعدُ، فإنَّ أحقَّ من جُدِّد له شرَفُ التقريض، وخُلِّد له إرضاءُ الأحكام وإمضاءُ التفويض، ورِيشَ جناحُه وإن لم يَكُن المَهِيض، وفُسِّح مجالُه وإن كان الطويلَ العَرِيض؛ ورُفِع قدْرُه علىٰ الأقدار، وتقسَّمتْ من سحائبه الأنواءُ ومن أشعَّته الأنوار، من غَزُر مدُّه فجرَتْ منه فى رِيَاض الحقِّ الأنهار، وغدا تخْشَع لتَقْواه القلُوبُ وتُنصِت لقوله الأسماع وترْنو لمُحَيَّاه الأبصار؛ قد أوقَد من إرشاده للأمة لُطْفًا فلُطْفا، وأوقَد من علمه جَذْوةً لاتخبُو وقَبَسا بالهوىٰ لايُطْفىٰ، وفاتَ النُّظَراء والنُّظَّار فلا يُرْسِل أحدٌ معه طِرْفا ولا يَمُدّ إليه من حَيائه طَرْفا، وٱحتَوىٰ من عُلُوم الشريعة علىٰ ماتفرّق فى غَيْره، وغدا خيْرَ دليـلٍ إلىٰ الحقِّ فلا يُقتَدَىٰ فى المُشْكلات إلا برأْيِ ٱجتهـاده ولا يُهتَدىٰ فى المذاهب إلا بِسَـيْره؛ وكان لفلَك الشريعة المحمَّدية قُطْبا، ولجُثْمانهـا قَلْبـا ولِسوارها قُلْبا، ولدليلها بُرهانا، ولإنسانها عيْنا ولعينها إنْسانا؛ فكم أرضىٰ بَنِى الأنام عن الأيَّام، وكم أغْضىٰ حياءً مع قدرته علىٰ الٱنْتِقام؛ وكم أمضَىٰ لله حُكْمًا لا ٱنفصالَ لعُرْوته ولا ٱنْفِصام، وكم قضَىٰ بالجَوْر فى ماله وبالعَـدْل فى الأيتـام؛

فلو آستعداهُ الليلُ علىٰ النهار لأنصَفَه من تعدّيه، ولم يُداجه لما ستَرَه عليه من تَعدِّيه فى دَيَاجِيه ؛ فهو الصادِعُ بما أمر اللهُ به ولو علىٰ نفْسِه، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبةَ من غير محاباةٍ حتّىٰ لغدِهِ من يومِهِ وليومه من أمْسِه .

ولما كان قاضى القُضاة تاجُ الدين عبدُ الوهَّاب ممن هو فى أحْسَن هذه السِّمات قد تَصوّر، وكادَتْ نجومُ السماء بأنواره تَتَكَثَّر، وتجَوْهَر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاجَ المُجَوْهَر؛ وله مزايا السُّؤدَد التى لايُشَك فيها ولا يُرْتاب؛وسجايا الفضلِ التى إذا دخل [اليه] غيرُه من باب واحد دخل هو إليه من عِدّة أبْواب؛وهو شجرةُ الأحكام، ومَصْعَدُ كَلِم الحُكَّام ؛ ومَطْلَع أنجُم شرائع الإسلام ، ومَهْبِط وَحْى المُقَدِّمات والإرتسام،ومجتَمَع رِفَاق القضايا فى الحلال والحَرَام ـ خرج الأمرُ الشريفُ بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القُضاة بالديار المصرية : فليستصْحِبْ من الحق ما هو مَلِيٌّ بآستصحابه ، وليستمِرَّ علىٰ إقامة مَنَار الحق الذى هو موثِّقُ عُرَاه ومؤكِّدُ أسبابه ، وليحتَلِبْ من أخْلاف الإنْصاف ما حَفَّله آجتهادُه ليد احتلابه ؛ عالمًا بأنَّ كل إضاءة إنارتُها من قَبَسه، وإن آستضاء بها فى دياجى المُنىٰ ، وكلَّ ثمرةٍ من مغترَسه، وإن مَدّ إليها يدَ الاجتِنا ؛ وكلَّ جدْولٍ هو من بَحْره وإن بَسَط إليه راحةَ الإغتراف ، وكلَّ مَنْهَج هو من جادّتِه وإن ثَنَىٰ إلىٰ سُلوكه عِنَان الإنصراف لا الإنْحِراف؛ وهو بحمد الله المجتهدُ المُصيب، والمادّةُ للعناصر وإن كان نصيبُه منها أوفَرَ نصيب ؛ وسجاياهُ يتَعَلَّم منها، كيْف يُوصَّى ويُعلَّم، ومزاياه تُقَوِّم الأوَد، كيف يُقوَّم ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه ! .

الثانى ــ قاضى قُضاة الحنفيَّة علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ من لَدُن القاضى جمالِ الدين محمودِ القَيْسَرىّ وإلىٰ آخر وقت . وموضوعُها النظرُ فى الأحكام

الشرعيّة على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، ويختصّ نظره بمصر والقاهرة خاصّةً .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كُتِب به لمن لَقَبه شمسُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلَع فى أفُق الدِّين الحنيف شمسا مُنِيرَهْ ، ورفَع درجةَ من جعله من العلم على شريعةٍ ومن الحكم على بصيرَهْ ؛ وقلّد أمورَ الأمة لمن يَعْلم أنّ بين يديه كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيره ، ووَفّق لفصل القضاء مَنْ مشى على قَدَمِ أقْدم الأئمة فسار فى مَذْهبه المُذْهَبِ أحسَنَ سِيره؛ الذى ادّخر للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضلَ ذخيره ، وقضى بإرجاء أمْرِه لنختارَله من تحلّى به بعد العَطَل وكُلُّ قضاءٍ خِيره،وأيقظ عنايَتَنا لمن رقَد الدهرُ عن فضله فباتَتْ عينُ الاستحقاق بٱستقرار رتبته قَريره .

نحمَدُه حمدَ مَنْ توافَتْ إليه النِّعم الغَزِيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرةُ فى المُدَد اليسيره ، وأخصَبَت فى أيامه رياضُ الفضائل فهى بكلّ عالم عَدِمَ النظير نَضِيره ؛ وٱفتتح دولتَه برَفْع مَنَار العدل فآمالُ أهل الظلم عن تَعَاطيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطل عن الامتداد إليه قَصيره، وخصّ المناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بها هِممُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو ٱمتدّتْ إليها أبصارُ مَن دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُصْلِح العَلَنَ والسريره، وتُصْبِح بها القلوبُ موقِنةً والألسُنُ ناطقةً والأصابعُ مُشيره؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الذى بعثَ الله به الرسُل مُخْبِرةً وأنزل الكُتُب بمبعثه بَشِيره ؛ وٱجتباه فى خيرأمّة من أكرمِ أَرُومة وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلّته إلا لمن أعمى الغىُّ بصيرتَه وهل ينفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهيره؛ وخصَّه بالأئمة الذين وفّقهم للاستعانة بالصبر

والصلاةِ وإنّها لكَبِيره، وجعل علماءَهم وَرَثَةَ الأنبياء فلو ٱدُّعيتْ لأحكامهم العصمةُ لكانت بذٰلك جَديره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تتقرّبُ بدَوَامها إلىٰ الله فيُضاعفها لنا أضعافًا كثيره، وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنّ أولىٰ الأمور بأن تُشاد قواعِدُه، وتُتَعهَّد معاهدُه؛ ويُعلىٰ مَنارُه، وتُفاضَ بطلُوع شمسه أنوارُه؛ ويُحَلّى به بعد العَطَل جِيدُه، ويُنظَم فى سِلك عُقُود الأمة فَرِيدُه؛ وتكمَّلَ به قُوىٰ الدين تكملةَ الأجساد بقُوىٰ الطبائع الأربع، وتُعمَّر به رُبُوعُ الملة التى ليس بعـدها من مَصِيف لملّةٍ ولا مَرْبَـع، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالة بعضها من مَطْمَع؛ وتُجْلىٰ به عمَّن ضاق عليه المَجَالُ فى بعض المذاهب الغُمَّه، ويستقرُّ به عددُ الحُكّام علىٰ عدَدِ الأئمـة المستقرِ علىٰ عددِ الخلفاء الراشـدين من خُلَفاء الأمَّه؛ ويُمَـدّ به علىٰ الخلق جناحُ الرحمة وافِرَ القَوادِمِ وارِفَ الظِّلال، ويجمَعَ به عليهم ماجمع اللهُ فى أقوال أئمتهـم من الحق وما ذَا بَعْدَ الحَقِّ إلّا الضَّلَال، ـ أمرُ القضاء علىٰ مذْهب الإمام أبى حنيفةَ النُّعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى ٱشتَقّ الله له من المِلّة الحنيفيّة نِسبةً سَرتْ فى الآفاق، وأفاضَ عليه من موادّ القياس الجلىّ كُنوزا نَمت علىٰ الإنْفَاق، وعضَّد أيَّامه بوليَّىْ عهدٍ قولهُما حجة فيما تفرّدا به من الخلاف أو ٱجتمعا عليه من الوِفَاق؛ وعُدّ من التابعين لقدَم عَهْده، وسُمّى «سراجَ الأمة» لإضاءة نُوره بهما من بعده .

ولـما خَلَا بانتقال مباشِره إلىٰ الله تعـالىٰ، توقَّف مـدّةً علىٰ ٱرتياد الأكْفاء، وٱرْتياءِ من هو أهلُ الاصـطفاء؛ وٱختيارِ من تكمُلُ به رفعةُ قَدْرِه، ويعيـد لدَسْته بتصـدُّره علىٰ بِساط سليمانِه بهجةَ صَدْرِه؛ ويغدُو لسرِّ إمامه بعد إماتة هـذه الفَتْرة باعثًا، ويُصْبِح وإن كان واحدَ عصْره لأبى يوسفَ ثانيـًا ولمحمد بن الحسن ثالثا؛

ويُشَبَّه به البَلْخىُّ زُهْدا وعِلْما ، والطَّحاوىُّ تمسُّكا بالسُّنَّة وفَهْما ؛ ويغترِفُ القُدُورىُّ من بحره ، ويعترف الحُصَرىّ بالحَصَر عن إحْصاء فضله وحَصْره؛ ويقف من مذهبِ ابن ثابت ، علىٰ أثبتِ قَدَم وينتمى من فِقْـه النُّعمان إلىٰ فَرْع زاكٍ وأصـل ثابِت ، وينشُر من أحكامه ما إنْ وافق الأئمةَ فهو حجَّـة قاطعة ومَحجَّة ساطعـه ؛ أو خالفهم بمَذْهبه فهو رحمةٌ واسعه ، ونعمةٌ [و] إن كانت بين الطُّرق فارقةً فإنَّها علىٰ الحق جامِعَه .

ولـمـا كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرتبة آنتظارَ الشمس بعـد الغَسَق ، والمرتَقَب لبلُوغ هذه المنزلةِ التى تقدّمتْ إليها بوادِرُ آستحقاقه فى السَّبق ، والمعطُوفَ علىٰ من وُصِف من الأئمة وإن تأخَّر عن زمانه عطفَ النَّسَق ؛ وهو الذى مادامَ يعـدِلُ دمَ الشهداء مدادُ أقلامِه ، وتضع الملائكةُ أجنحتَها رضًا بمـا يصنَع من نقل خَطَواته فى طلب العلم وسَعْىِ أقدامِه ؛ ودخلَ من خشيةِ الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما(١) ، وهَجر المضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدَّت هَجَعاته لقَلَّمـا ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقَيَّـد أوابِدَها ، وأحرَزَ شَـوارِدَها ؛ ولَجَّج فى بِحار المَعَـانى فغَاصَ علىٰ جواهِرها ؛ ونظر نظرَةً فى نُجوم العُـلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وراد خمائِلَ الفضائل فاستولىٰ علىٰ أزاهِرِها ؛ وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبِه فبرَّز علىٰ من سَلَف ، وجارىٰ علمـاء عصرِه فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبَـاره وما وقَفْ ، ونَحَا نحوَ إمامه فلو قابله يعقوبُ مع معرفتِه فى بحثٍ لآنصرَف ؛ وتعيَّن عليـه القضاءُ وإن كان فرضَ كفاية لا فرضَ عيْن ، وقدّمَـه الترجيحُ الذى جعل رُتبتَه همزةَ آستفهامٍ ورتبـةَ غيرِه بَيْنَ بَيْن ــ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ آختصاصَه بهذا التمييز، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

(١) يريد الاشارة الى قوله تعالىٰ : « إنمـا يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّض إليــه كيت وكيت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبَح فيهـا عن رسول الله صــلّى الله عليه وسلم نائبا وبشَرْعِه قائمـا ، ويتقلَّدْها تقلُّدَ من يعلَم أنه قد أصبح علىٰ حكم الله مُقَـدِّما وعلىٰ الله قادِما ، ويتثبّتْ تثبُّتَ مَن يعتصمُ بالله فى حُكْمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكونُ ألْحَنَ بحجّته وإن كان ظالمـا ، ويلْبَس لهذا المَنْصب حُلَّة تمنَع المُبْطِل من الإقدامِ عليه ، وتدفعُ الظالم عن التطَاوُل إلىٰ أمرٍ نَزَعه الشرعُ من يَدَيْه ، وتُؤَمِّن الحقَّ من آمتـدادِ يَدِى الجَوْر والحَيْف إليه ؛ ولْيُسوِّ بين الخصمين فى مَجْلِسه ولَحْظه ، ويَعْـدِلْ بينهما فى إنصاته ولفظِه ، : ليعلَمَ ذُو الجاه أنه مساوٍ فى الحق لخَصْمه ، مكفوفٌ باستمـاع حجّته عن الطمَع فى ظُلْمه ؛ ولا ينقُض حكما لم يخالِف نَصًّا ولا سُنّةً ولا إجماعا ، ولْيشارِكْ فيما لا يجهله من القضايا غيْرَه من العلمـاء ليتزيَّد بذٰلك مع آطِّلاعه آطلاعا ، وليغتنِم فى ذٰلك الاستعانةَ بآرائهم فإنَّ الله تعالىٰ لا ينتزِع هذا العلم انتزاعا ؛ وليسُدّ مَسالِكَ الهَوىٰ عن فِكره ، ويَصْرِفَ دواعِىَ الغضَب لغيرِ الله عن المُرور بذُكْرِه[1] ، وليجعَلِ العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه ، وليحْكُمْ بمـا أراه اللهُ ﴿والله يحكُم لا مُعقِّبَ لحُكْمه﴾ ، إن شاء الله تعالىٰ .

الثالث ـــ قاضى قضاة المـالكية :

وهــذه نسخة تقليدٍ بقضاء قُضاة المـالكيــة ، لقاضى القُضاة جمـالِ الدين يوسُــفَ البِساطِىِّ المُقَــدّم ذِكْرُه ، فى العَشْر الأخير من رَجَب الفَرْد ســنةَ أربـع وثمـانمـائة ، وهو :

الحمـدُ لله الذى شَفَع جَلالَ الإســلام بجَماله ، وناطَ أحكامَه الشرعيَّة بمن آقترَن بجميـد مَقاله جميــلُ فَعَاله ، وخصَّ مذهبَ عالِمِ المدينةِ بخيْرِ حاكم ما جرىٰ حديثُه

(١) الذكر والذكر أى بالضم والكسر التذكر .

الحسَنُ يومًا إلا وكان معْدُودا من رجَاله ، وعَدَق النظرَ فى أحكامه بأجَلِّ عالم لو طُلِب له فى الفضل مِثْلٌ لعجَز الزمانُ أن يأتىَ بمثاله .

نحمدُه علىٰ أن أخْلَف من النَّبْعة الزكيَّة صِنْوًا زاكيا ، وأدالَ من الأخ الصالح أخًا للعُلوم شافيا ، ولمَنْصبه العليِّ ولله الحمدُ وافيا . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له مجرّدُ سيف الحق علىٰ كلِّ مبطل معاند ، ومرهِفُ حدِّه القاضب لكل مُلْحِدٍ عن سَوَاء السبيل حائد ؛ وأنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ فاق الأنامَ بفضله وعَمَّ البريَّة بعَدْله ، وسُدَ بابُ التوبة علىٰ متنقِّصه فلم تكن لُتقبَلَ توبةُ مثله ، وكان إلىٰ مالكٍ مصيرُه فلا جرمَ قَضىٰ بإهدار دَمِه وتحتُّم قتله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ذَبُّوا عن حِمىٰ الدين وذادُوا ، وسلكوا سبيلَ المعْدَلة إذ حكَمُوا فما ضَلُّوا عن سَنَن الطريق ولا حادُوا ؛ صلاةً تبقىٰ ببقاء الدُّهور ، ولا تزولُ بهجةُ جمالها بتوالى الأعوامِ والشُّهور ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ماقُصِر عليه النظَر ، وٱستُغرقتْ فيه الفِكرُ وغَرَّا العيونَ فيه السهَر ؛ وصُرِفت إليه الهِمَم ، ورَغِبت فى البراءة من تخلُّفه الذِّمم ــ النظرُ فى أمر منْصِب الشرع الشريف الذى يَأْوِى الملهوفُ إلىٰ ظِلِّه ، ويلجأ المستجيرُ إلىٰ عَدْله ، ويتعلَّق العُفَاة بوثِيق عُرْوته ومَتِين حَبْله ؛ وبرَهْبته يكُفُّ الظالم عن ظُلْمه ، وينتصِفُ الخصمُ من خَصْمه ، ويُذْعِن العاصى إلىٰ طاعته وينقادُ الأَبِىّ إلىٰ حُكْمه ، ويأْتَمُّ به الحائرُ فى دُجىٰ الجهل فيستضِىءُ بنُوره ويهتدى بنَجْمه ؛ لاسيما مذهَبُ مالكٍ الذى لم يزَلْ للدِّين من أهل الإلحاد مُنْتَصِرا ، وللقِصاص من أهل العناد مبتَدِرا ، وبسَلِّ سَيف الحقِّ علىٰ الطُّغَاة المتمرّدين مشتَهِرا ؛ ففاز من سَطَوات الإرْهاب بأرْفَع المراتِب ، وعلا رقابَ المُلْحدين بأرْهف القواضِب ، وخُصَّ من

سَفْك دماء المُبْطِلين على البَتّ بما لم يشاركه فيه غيره من المذاهب ؛ فوجبَ أن يُختارَ له من يُنَصّ الاختبار على انه أهل للاختيار ، ويقطع المنافسُ أنه الراجحُ وَزْنا عند الاعتبار ، وتأخذ مناقبُه البسيطةُ فى البَسْط فلا تنفَدُ إذا نَفِدَت مناقبُ غيره المركَّبةُ عند الاختصار ، ويشهَدُ له ضِدُّه بالتقدّم فى الفضل وإن لم تتقدّمْ منه دَعْوى ، ويعترفُ له بالاستحقاق خصمُه فيتمسَّك من عدم الدافع فيه بالسَّبب الأقوى ، ويُحكَم له بعلوّ الرُّتبة مُناوِئُه فيرتفع الخلافُ وتنقطع النَّجْوى ، ويسَجِّل له حاسدُه بثُبوت المفاخر المحكوم بصحَّتها فلا ينقضُها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظرِ الغايةَ القُصْوى ؛ وتنفذ أحكامُه فى البريّة فلا يُوجَد لها مخالِف ، وتحذَر شيعةُ الباطل سَطْوتَه فلا يرى لباطل مُخالف ، ويشْتَهِر عنه من نُصْرة الحق ما يأْمَن معه المستضْعَف الخائف ، ويتحقّق فيه من قيام العَدْل ما يرتدع به الظالم الحائف ؛ ويَستوِى عنده فى لزوم الحق القَوِيُّ والضعيف ؛ ولا يُفَرِّق فى لازمه بين المشْرُوف والشريف ؛ ولا يميِّز فى حَمْل الأعباءِ الشرعيَّة بين الشَّاق وغيره ولا بينَ الثقيلِ والخفيف ؛ ولا يُحابِى قريبًا لقَرابته ، ولا جليلا لجلالته ، ولا ظالمًا خوفَ ظلمه ولاذا آستطالةٍ لآستطالته ، ولا يستزِلُّه ذُولَسَن لِلَسَنه ولا بليغٌ لبَلَاغته ، ولا يُخالِف بين الصديق الملاطِف وغيره إلا فى مَنْع قَبُول شهادته .

ولما كان المجلس العالى القاضَوِىّ ، الكبيرِىّ ، الإمامىّ ، العالمىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرئيسِىّ ، الأوحَدِىّ ، العَلّامىّ ، الكاملِىّ ، الفاضِلِىّ ، المُفيدىّ ، الفَريدىّ ، المُجَنّىّ ، القُدْوِىّ ، الخاشِعِىّ الناسكِىّ ، الحاكمِىّ ، الجَمَالىّ ؛ جَمالُ الإسلام ، شرَفُ الأنام ، حاكمُ الحُكَّام ، أوحدُ الأئمه ، مُفيد الأُمّه ، مؤيِّد الملّه ، مُعِزُّ السنّه ، شمسُ الشريعه ، سيفُ المناظرين ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أميرِ المؤمنين ،

أبوالمحاسن «يوسفُ البِساطىُّ» المالكى ـ أدام الله تعالى نعمتَه ـ هو المرادُ من هذه الصِّفات، التى وقعَتْ من محلِّه الكريم موقِعَها، والمقصودُ من هـذه السِّمات، التى أَلِفتْ من سِيرته الفاضلةِ موضِعَها؛ وقارعُ صَفاة هذه الذِّرْوة التى ما كان ينبغى لغيره أن يَقْرَعها؛ وشمسُ الفضل الحقيقُ بمثلها أن لا يتوارىٰ جمالُها بحِجاب الغُروب، وفاصِـلُ مشْكِلات القضَايَا إذا آشـتدّ إشكالُهـا وعظُمت فى فَصْلها الخُطُوب، ومتعيِّن الوِلاية التى إذا كانتْ فى حقِّ غيره علىٰ الإباحة كانتْ فى حَقِّه علىٰ الوُجُوب؛ وقد درَّب الأحكامَ وخَبَرها، وعَرَف علىٰ التحقيق حالَها وخَبَرها، وورَدَ من مَشَارِبها الرائقة أصفىٰ المنـاهِل فأحسَن وِرْدَها وصَدَرها؛ ونَفُست جواهِر فوائده ففاقَت جواهِرَ المعادِن، وغطَّت محاسنُ فضله فضائلَ غيره ولا تُنْـكَر المحاسنُ لـ«يوسُفَ» وهو «أبو المَحاسن»، فعلُومه المدَوَّنة بالبيان والتحصيل كافله، ومُقَـدِّمات تنبيهاته بنتائج النَّوادر الحسنةِ متواصِـلَه؛ وتهذيبُ ألفاظه المنقَّحة تُؤْذِن بالتحرير، وعيونُ مسائله المتواردةِ لا تدخُل تحت حَصْر ولاتقْدير؛ فلو رآه «مالِك» لقال: ما أعظَمَ هـذه الهمَّه، أو أدركه «آبنُ القاسم» لوَفَّر من الثناء عليه قِسْمَه، أو عاصره «آبنُ عبدالحَكَم» لحكَم له بأنَّ سهمه قد أصاب الغَرض وغيرَه أطاشَ الريحُ سَهْمَه؛ أو عاينه «أشهبُ» لقال قد ركِب هذا الشَّهباءَ أنّى يُلْحَق، أو سمع «آبنُ وهْب» كلامه لقطع بأنه هِبَـةٌ ربَّانيَّة وبمثله لم يُسْبَق؛ أو بلغ «آبنَ حبيب» خبرُه لأحَبَّ لقاءه، أو بصُر به «سُحْنون» لتحقَّق أنه عالم المذْهَب ما ورَاءه؛ أوآستشعر بقُدومه «آبنُ سِيرين» لبَشَّر به، أو جاوره «آبنُ عَوْف» لعـاف مجاورةَ غيره أو مجـاوزةَ طُنُبه؛ أوجالسه «آبن يُونُس» لتأنَّس بمجالسته، أوحاضره «أبو الحسنِ بنُ القصَّار» لأشْجىٰ قلبه بحُسن محاضَرته؛ أوجاراه «القاضى عبدُ الوهَّاب» لقضىٰ بعُلوّ مكانته، أو آتّصل ذكره «بالمـازَرىّ» لزَرَىٰ علىٰ «مازَرَ» لبُعْدها عن دار إقامته؛ أو آطَّلع

«القاضي عياضٌ» علىٰ تحقيقاته لآستحسَنَ تلك المَدَارك، أوناظره «آبنُعبدالسلام» لسَلَّم أنه ليس له فى المنـاظرة نظيرٌ ولا فى تدقيـق البحث مُشـارِك ؛ أو مَرَّ به «آبن الجَلَّاب» لجلَب فوائدَه إلىٰ بلاده، أو حضَره «آبنُ الحاجب» لتحقَّق أنه جامعُ الأُمَّهات علىٰ آنفراده .

هـذا وقد حُفَّ بجَلَال لا عهْدَ لأحدٍ بمثله ، ولا طاقةَ لفاضل بمُقاومة فَضْله ، ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قَبْله ؛ فاجتمع من جَمال الجَلَال، وجَلال الجَمال، ما لم يكن ليدخُل تحتَ الإمكان، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمـة بثالثٍ ورابع فقام بنـاءُ الدِّين من المذاهب الأربعة علىٰ أربعـةِ أركان ؛ ولا عِبرةَ بمـا يذْهَب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تَبَعا للمنجِّمين فى آعتقادِهم الفاسد، فقد ورد أنَّ زَوايا الحوض علىٰ التربيع وذٰلك فيه أعظمُ دليل وأقومُ شاهد .

وكان مـذْهَب مالك رحمـه الله هو المُراد من هـذه الوِلاية بالتخصيص ، والمجْلسُ الجَمالىّ المشارُ اليه هو المقصودُ بهذا التفويض بالتنصيص ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُوَفِّى مرتبتَه السنيَّةَ حقَّها، ونُبَوِّئَ النِّعم مستحِقَّها، ونملِّك رقابَ المعالى مستَرِقَّها ، ونقدِّم علىٰ طائفة المـالكيَّة من أضحىٰ لهم جَمَـالا ، ونُتحِفَهم بمن أمسىٰ لعزِّهم كمالا ، ونفوِّض قضاءَ مذْهَبِهم إلىٰ من إذا جرىٰ فى مَيْدان حُكْمه قالت محاسنُ قضاياه : (هكذا هكذا وإلا فَلَالا) . ونُسنِدَ الأحكامَ الشرعيةَ إلىٰ من هو بها أعرَف ، ونَقِفَها علىٰ من عُرِف أنه علىٰ الحقائق ماضٍ وعند السُّـنَّة يتوقَّف ، ونُعدِق أمرها بمن أَلِفَ النزاهةَ فنكِرَةُ المَطامع عنده لا تَتعرَّف ؛ ونَكِلَ النظرَ فيهـا إلىٰ مَنْ أمسىٰ لشُروط الآستيجاب جامعا ، ونُقدِّم فى ولاية هذا المَنْصب من شَفَع له آستحقاقُه وكفىٰ بالآستحقاق شافِعا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يَبْسُط لأوليائه من بِساط الأُنْس ما كان مَطْوِيًّا ، ويُنيلهم من رغائب الآمال ما كان عنهم فى سالِف الأزمان مَزْوِيًّا ـ أن يُفوَّض إليه قضاءُ قُضاة مذهب عالم المدينة ، وإمامِ دارِ الهجرة ، مالكِ بن أنَس الأصبحىّ : قدّس الله تعالىٰ رُوحَه . فليتلقَّ مافُوِّض إليه بأفضل تلقٍّ يليق بمثله ، ويتقبَّلْه تقبُّلا يناسب رِفعة محَلِّه ، ويبتهِجْ بأجلِّ تفويض لم يسمَحْ بتمنِّيه لآخر من قبله .

ومن أهمِّ مانُوصيه به ، ونوجِّه القول إليه بسبَبِه ، تَقْوى الله تعالىٰ التى هى مِلَاك الأمرِ كلِّه ، وقِوَام الدين من أصله ؛ والاشتمالُ عليها فى سِرِّه وجهره والعملُ بها فى قوله وفعلِه ، ثم بِرُّ الخلق والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبه الشرعُ من الحقوق عليهم ؛ ففى التقوىٰ رضا الله وفى البِرِّ رضا الخلق وناهيك بجمعهما من رُتْبة فاخره ، إذ لا شكَّ أنَّ من حصَّل رضا الله ورضا الخلق فقد حصَل علىٰ خير الدنيا والآخره ؛ ووراءَ ذلك قاعدةٌ فى الوصايا جامعه ، وتَذْكِرة لذَوى الذِّكرىٰ نافعه ؛ وهى أن يتأمَّل أحوال غيره تأمُّل من جعلها لنفسه مِثالا ، ولنَسْجه مِنْوالا ؛ فما استحسنه منها أتىٰ مثْلَه ، وما استقبحه تجنَّب فعلَه ؛ واقفًا فى ذلك عند ما وردَتْ به الشريعة المطهَّرة بنص صريح أو تأويل صحيح ، مُعْرِضًا عن العقليَّات المحضةِ فلا مجالَ للعقْل فى تحسينٍ ولا تقْبِيح .

وأما أدَبُ القضاء الجارى ذكْرُ مثْله فى العُهُود ، والنظرُ فى أمر النُّوّاب وكُتّاب الحكم والشُّهود ؛ فهو به أدرَبُ وأدرَىٰ ، وبمعرفة ذلك لهم وعليهم أحقُّ وأحرىٰ ؛ غير أنَّا نُوصيه بالتثبت فى أمر الدِّماء وعَلاقتها ، وتحقُّق حكمها قبلَ الحُكم بإراقتها ؛ فإنَّ ذلك لمادّة القَلَق فيها أحْسَم ، ومن تَبِعاتها فى الدارين أسْلَم ؛ والوصايا كثيرةٌ

ولكنَّها منـه تُستفاد، وعنـه تؤخَذُ وإليـه تُعاد؛ والله تعالىٰ يتولَّاه، ويحُوطه فيما وَلَّاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فما فوق مَنْصبه منصبٌ يتمنَّاه ؛ والآعتمادُ ... ...(١) إن شاء الله تعـالىٰ .

وكُتِب لستٍّ إن بَقِين من شهر رجب الفردِ عامَ أربع وثمـانمـائة، حسَبَ المرسوم الشريف، بمقتضىٰ الخط الشريف .



وهذه نسخة توقيع بقضاء القُضاة الحنفيَّة بدِمَشْق، من إنشاء القاضى ناصر الدين ٱبن النَّشَائى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَنَـارَ الشَّرع الشريف مستمِرًّا علىٰ الدَّوام، وشَمْلَ مَنْصب الحكم العزيز للعالِم بعد العالِم علىٰ مَمَرّ الأيام؛ وأجملَ ٱنتخابَ من يَقُوم بأعباء القضايا، ومن تَدُوم به مَزَايا السَّجايا ، فيتخيَّر لذٰلك الإمام بعد الإمام ؛ وأقبل بوجْه ٱجتبائِه علىٰ وليٍّ نتأكَّد بإنصاته وإنصافه إحكامَ الأحكام، وعدَل باعتنـائه إلىٰ تعيينِ من ترتفِع به فى العلوم أعلامُ الإعلام، ومن يتأيَّد به الحقُّ فى كل نقضٍ وإبْرام .

نحمده علىٰ نِعَمه الوافرة الأقْسام ، السافرةِ [اللثـام] عن وجُوه الزيادة الوِسَام ، ونشكره علىٰ مِنَنه الجِسام، ومَوَاهِبـه التى لا تبْرَحُ ثغُورُ إحسانهـا لذَوِى الآستحقاق واضحةَ الآبْتِسام .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً كفيلةً بالمَرام، مُنيلةً للإكرام، جميلةَ التلفُّظ والآئتلام، جزيلةَ الكَنَف والآعتصام؛ ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسوله الذى أقام اللهُ به شعائرَ الإسلام، وأظهر شرائعَ الدين الحنيف بحُسَامِ نصره الحَسَّام،

(١) أى إلىٰ آخر مايكتب فى مثله ، وحذفه من باب الآختصار .

وأورثَ مَنْ أهّله من أُمّته كُنوزَ العلوم التى لاتنفَـدُ فوائدُها مع كَثْرة الإنفاق مدَى السنِينَ والأعْوام، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَدَوُا المؤمنين بإلْهام الكَلَام، وعَدَوْا علىٰ المشركين بسِهَام الكِلَام، وأبدَوْا من إرشادهم إلىٰ خَفَايا القضايا ما يظْهَر بتهذيبهم ظُهورَ بدْر التّمَـام، صلاةً دائمةً باقية تُجْزِل لقائلها الأجْر التامّ، وتُرسل إليـه سحائبَ المواهب هاطلةَ الغَمَام، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أوْلىٰ من تذهَّب به مذْهَبُه، وتحلّى به محلُّ الشرع الشريف ومَنْصِبُه، وأنار بنُور إرشاده ليلُ الشك وغيهبُه، وسَهُل بتقريبه علىٰ فَهْم الطالب مطْلَبُه، وهمىٰ به وابِلُ العلم وصيبُه، وأُتيح به لمستفيد كنْزُ الفوائد التى يَدْنُو بهـا أرَبُه، وشِيمَ من برق شِيَمِهِ بالشام ماوُجِد فى الجَوْد صادِقُه وفُقِـد خُلَّبُه ـ مَنْ علا فى العلوم نَسَـبُه، وتأكّد فى الدين سببُه، وشَـيَّد مبْنِيَّ المَعَالى مُعْرَبُه، وصقَل مَرَايا الأفهام مُهَذَّبُه، وزاحمَ منكبَ الجَوْزاءِ فى ٱرتفاع القَدْر منْكِبُه، وجمّل مَوَاكب المباحث فىالأُصول والفروع مَوْكِبُـه، وسحّتْ بدقائقِ الحقائق سُحُبه، وٱشـتاق إلىٰ قُرْبه موطنُ الحكم العزيز فمـا زالَ يرتقِبُـه ، وٱرتاحَ الزمانُ إلىٰ عَفَافه وإنصافه فأرشَـد حيثُ نختارُه لذلك وننتَخِبه .

ولمـا كان المجلس العالى ... ... [1] أيَّد الله أحكامَه هو الذى أرشَدَ الطالِبين فى البِـدايه [2] ، وأفاد المنتهِين درجَاتِ النِّهايه ، وأفهَمَ المستفِيدينَ صوابَ الهِـدايه ، وغدا سابقًا [فى] حَلْبةِ العُلَماء إلىٰ أقصىٰ غايه . كَمْ قَرَّب إلىٰ الأذهان غامِضَ المُشْكل وأوضَحَ مفهُومه ، وكَمْ أشاع فرائد فوائده التى طَبّق الأرض بها عُلُومَه ، وكم أباحَ لَقْطَ ألفاظه المشحونةِ بالحِكَمِ فتحَلَّى الناس بدُرَرها المنثورةِ والمنظُومه ؛ معَ ماله من دِينٍ

(١) بياض بالأصل متروك لتكلة الألقاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز عاميّ نص عليه ٱبن برّى وجماعة" .

متين ، وآستحقاق للتقدّم مُبين ، وصلاحٍ بلغ به درَجاتِ المتّقين المرتقين ، وآتباعٍ لسُنَن الحق فى الحُكْم بين الخَلْق عن يقين ـ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن يُقْرَن منصِبُ القضاء بجماله ، وأن يُعوّض عن إمامه المفقود بإمامه الموجُود ليستمرّ الأمرُ علىٰ حاله .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زالت أئمةُ العلم الشريف فى أيامه يخلُف بعضُهم بعضا ، وأقدارهم تدُوم رِفعتُها مدىٰ المُدَد فلا تجد نَقْصا ولا نقضًا ـ أن يُفوّض ... ... [(1)]

فلْيباشِرْ ذٰلك بعلمه المأثور ، وحُكْمه المشْهور ، وإنصافه الذى يَعْدِل فيه ، وآتصافه بالحق الذى ما بَرِح يُوفيه ؛ قاضيًا بينَ الخصوم بما أمر اللهُ عز وجل ، مراقبًا لخشية الله علىٰ عادَته ، مُذيعًا لِلمِلَّة الحنيفيَّة أنواعَ إفادته ؛ قاطعا بنَصْل نَصِّه مُشْكِل الإلباس ، جامعًا فى أحكامه المسدَّدة بمقتضىٰ مَذْهبه بين الكتَاب والسُّنّة والقياس . والوصايا كثيرةٌ وملاكها التقوىٰ وهْى مادّتُه ، وطريقُه المستقيمُ وجادّتُه ؛ وما زالتْ عُمْدَتَه التى يعتمِدُ عليها ، وعدّتَه التى يستند فى إسناد أمْرِه إليها ؛ والله تعالىٰ يجمّل الأيام بأحكامه ، ويبلّغه من خير الدنيا والآخرة غايةَ مُراده ومَرَامه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضاة المالكيَّة أيضا ، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين البساطىّ المذكور عند عَوْده إلىٰ الوظيفة ، لأربع بَقِين من ذى القَعدة سنة سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلالِ الدين عبدالرحمن البُلْقِينىّ إلىٰ قضاء قُضاة الشافعيّة أيضا ، وهى :

---

(١) بياض فى الأصل والمراد واضح مما تقدّم .

الحمـدُ لله الذى أعاد لرُتْبة القضاء رَوْنَق « جَمَالِهـا » وأسعدَ جَدَّها بأسعد قِرَانٍ ظهرتْ آثارُ يُمْنِـه بمـا آثرته من ظُهور «جَلالهـا»، وأجاب سُؤْلهـا بأجَلِّ حاكمٍ لم تَعدِل عنه يوما فى سُؤالها ، وأسعدَ طَلِبَتَها بأكملِ كُفْءٍ لم تَنفكَّ عن خِطْبته وإنْ أطال فى مِطَالِهـا ، وأكرم مآبَها بأكرمِ كافٍ ما فاتَها مَنَـالُ ماضٍ إلا أدركَتْه به فى مآلِهـا .

نحمَدُه علىٰ أنْ أُعطِيَت القوسُ باريها ، وأُعِيـدت مياهُ الاستحقاقِ إلىٰ مَجاريها ، ورُدّتِ الشاردةُ إلىٰ مالكٍ أَنِفَت منه بالآخرةِ ماأَلِفتْ من خيره فى مَبَادِيها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَخْفِق بالإخلاص مَنَاطُهـا ، ويزدادُ مع طول الأمَد نَشَاطُها ، ولا ينْطَوِى علىٰ مَرِّ الأيامِ ــ إن شاء الله تعـالىٰ ــ بِساطُها . ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيٍّ رَفَع قواعدَ الدين وشَاد ، وقامَ فى الله حقَّ القيـام فحَسَم بسَـيف الشرع مادّةَ الفَساد ، وأحكم بسَـدِّ الذَّرائع سِـدادَ الأمور فجرت أحكامُ شريعته المطهَّرة علىٰ السَّدَاد ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين استُنْشِق من مَعْدَلتهم أطيبُ عَرْف ، وخُصُّوا من صفات الكمال بأحْسَن حِلْية وأكمل وَصْف ، صلاةً تُوهِى عُرا الإلحـاد ، وتفْصِمُها ، وتَبُكُّ أعناقَ أهـل العِنَاد ، وتَقْصِمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فلاخفَاءَ فى أنَّ الأبصار تتشوَّفُ لرؤية الهلال مع قُرْب الغَيْبة للأخذ منه بنصيبها ، والشمسَ يُترقَّب طلُوعها فى كلِّ يومٍ وإن قرُبَ زمانُ مَغيبها ، والمسافِرَ يُسَرُّ بإيابه وإنْ تكرر قُدُومه من بَعيد المسافة وقَريبها ، والسَّهرانَ يتطلَّع من ليلتِـه الطويلةِ إلىٰ طُلُوع فَجْرها ، والمَنَاصبَ السنيَّة تأرِز إلىٰ مستحقِّها كما تأرِزُ الحيَّـة إلىٰ جُحْرها .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضَوِى، (إلىٰ آخر ألقابه) أعزّ الله تعالىٰ أحكامه هو الذى حُمِدت فى القَضاءِ آثارُه، وسارتْ بحُسْن السِّيرة فى الآفاق أخْبارُه، وحَسُن بحُسْن تأتِّيه فى الوِرْد والصَّدَر إيرادُه وإصْدارُه؛ وتنافَس فى جميل وَصْفه الطِّرْس والقلَم، وظهرَتْ فضائلُه (ظهورَ نار القِرىٰ لَيْلا علىٰ عَلَم)؛ ونشرَتِ الأيّام من عُلُومه ماتُطْوىٰ إليه المَرَاحل، وجادَتْ مَواطِرُ فكره بما يُخْصِب به جَنابُ المَرْبَع الماحِل؛ وعَمَرتْ من منْصِب القضاء بولايته مَعاهِدُه، وجرتْ بقضايا الخير فى البَدْء والعَوْد عوائدُه؛ ونفذَتْ بنَفَاذ أوامِره فى الوجود أحكامُه، ورُقِم فى صحائف الأيّام علىٰ توالى الدُّهور نقضُه وإبرامُه؛ وسُجِّل بثُبوت أحقِّيّته فانقطعَتْ دُونَ بلوغ شَأْوِه الأطْماع، وحُكِم بمُوجَب فضله فانعقَد علىٰ صحّة تقدُّمه الإجماع؛ ففرائدُ فوائده المُدَوّنة تُؤْذن بالبَيان والتحصيل، ومُقَدِّمات تنبيهاته المحقِّقة، تكفِى نتائجُ إفضالها عن الإجمالِ والتفصيل؛ وجواهرُ ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرةُ التى تُقْتنىٰ، ومَدارِكُ مَعانيه الفائقة، حَسْبُك من ثَمَرةِ فكرٍ تُجْتنىٰ؛ وتهذيبُ إيراداته الواضحة تُغْنى فى إدراكها عن الوَسائل، وتحقيقُ مسائله الدقيقة تُحقِّق فيها أنها عُيونُ المسائل - وكانتْ وظيفةُ قضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية فى رفِيع رتبتها، ووافِر حُرْمتها، قد ألقَتْ إليه مقاليدَها، ورفعَتْ بالانتماء إلىٰ مجلسه العالى أسانيدَها، وعرَفَتْ محلَّه الرفيعَ فتعلَّقتْ منه بأعَزِّ مَنَال، وحظِيَتْ بجماله اليُوسُفِىّ المرّةَ بعد الأُخْرىٰ فقالتْ :

لا بَرَاحَ لى عن هذا الجَمَال ؛ وعجِمَتْ بتكَرُّر العَوْد عُودَه فأعرضتْ عن السِّوىٰ ، وقرَّتْ بالإيابِ إليه عَيْناً «فألْقتْ عَصَاها واستقرّ بها النَّوىٰ» - اقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُعِيد الوظيفةَ المذكورةَ إليه، ونُعَوّل فى استكشافِ مُشْكلاتِ الأحكام علىٰ ما لديْه ، إقرارًا للأمر فى نِصَابه، وردًّا له بعد الشِّرَاد إلىٰ مَثَابه ، وإسعافًا للمَنْصِب بطَلِبَته وإن أتعَبَ غيرَه نفْسَه فى طلَابِه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُبْدِئ المعروفَ ويُعيده ، ويُوفِّر نصيبَ الأولياء ويَزيدهُ ـ أن يفوّضَ إلىٰ المجلس العالى المشار إليه قضاءُ القُضاة بمَذْهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مَالك بنِ أَنَسٍ الأَصْبَحِىّ» رضى الله عنه ، علىٰ جارِى عادته المتقدِّمة فى ذٰلك . وأن يُضافَ إليه تدريسُ قُبَّة الصالح والأنظارُ الشاهد بها توقيعُه الشريف ، وأن لا يقَرِّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدَرِّس ومُعيد إلا بتعيينه ، علىٰ أتم العوائد وأجملها ، وأعمِّ القواعد وأكملها .

فليعُدْ إلىٰ رُتْبته السنِيَّة برفيع قَدْره وعلِيّ همّته ، ويقابِلْ إحسانَنا بالشكر نُتْحِفْه بمزيد الإقبال إذ لا زيادةَ فى العُلو علىٰ رُتْبته . ثم أوَّل ما نُوصيه به ، ونؤكِّد القولَ عليه بسبَبِه ، تقوىٰ الله التى هى مِلَاك الأمور كلِّها ، وأُولَىٰ المفتَرَضات فى عَقْد الأمور وحلِّها ؛ فهى العِصْمة التى مَنْ لجأ إليها نَجَا ، والوقايةُ التى ليس لِمَنْ حاد عنها من لَحَاق قَوَارِع الله مُلْتَجا . ونُتْبِعُ ذٰلك بالتلويح إلىٰ الاحتياط فى المسائل التى تفرّد بها مذهبُه الشريف ضِيقا وسَعَه ، واختَصَّ بها إمامُه الأصبَحِىّ دُون غيرِه من الأئمة الأربعَه ؛ وهى مسائلُ قليله ، آثارُها فى الورىٰ كثيرةٌ جليله ؛ منها سَفْكُ دمِ المنتقِص والسابّ ، وتحَتُّم قتله علىٰ البَتِّ وإن تابْ ؛ فعليه أن يأخُذ فى ذلك بالاهتمام ، ولا يُعْطِىَ رُخْصة فى حقّ أحدٍ من الأنبياء والملائكةِ عليهم السَّلام ، ليكون ذٰلك وسيلةً إلىٰ الخُلوص عن القَذىٰ ، وذريعةً إلىٰ سلامة الشَّرَف الرفيع من الأَذَىٰ ؛ إلا أنَّا نُوصيه بالتثبُّت فى الثُّبوت ، وأن لا يعجَلَ بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يُمكِنُ تداركُه بعد أن يفُوت . ومنها : الشهادةُ على الخط وإحياءُ مامات من كُتُب الأوقاف والأملاك ، وتقريبُ ماشَطَّ فلا يَقْبَل فيه إلا اليقظَ الواقفَ مع تحقُّقه دُونَ حَدْسه ، ولا يطلِق عِنان الشُّهود فإنَّ الكاتب ربما اشتَبَه عليه خَطُّ

نَفْسه ـ ومنها : ثُبوتُ الولاية للأوصياء، فيُجْرِيها علىٰ ٱعتقاده، ولكن إذا ظهرَتِ المصلحةُ فى ذٰلك علىٰ وَفْق مُراده ـ ومنها : إسقاطُ غَلَّة الوقْف إذا ٱستُرِدَّ بعـد بيعه مدّةَ بقائِه فى يَد المشترى ، تحذيرا من الإقدام علىٰ بَيْع الوقف وعقوبةً رادعةً لبائعه المجترِى . إلىٰ غيرذٰلك من مسائل الانفراد، وما شاركه فيه غيرُه من المذاهب لمُوافقَــة الاعتقاد، فيُمضِى الحكمَ فيه بأقوى العزائم، ويُلزِم فيها بمـا ٱستبانَ له من الحقِّ ولا تأخُذه فى الله لَوْمةُ لائم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا الراجعــة إلىٰ أدَب القضاء فلدَيْه منها الخُبْر والخَـبَر، ومنه تُستملىٰ فوصِيّته بها كنَقْل التَّمْر إلىٰ هَجَر،والله تعالىٰ يعامِلُه بلُطْفه الجميل، ويَحُفُّه بالعناية الشاملة فى المُقَام والرَّحيل؛ إن شاء الله تعالىٰ؛ والاعتماد ... ...

***

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الحنابلة ، وهى :

الحمــدُ لله الذى أطلع فى أفُق الدِّين[1] القَيِّم شمسًا مُنيره ، ورفع درجةَ مَنْ جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحُكْم علىٰ بَصيره ، وقلَّد أمورَ الأمّة بمن يَعْلَم أنَّ بين يدَيْه كتابا لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيره، ووَفَّق لفصل القَضاء مَنْ مَشىٰ علىٰ قَدَم إمامه الذى ٱدَّخَر منه للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضَــلَ ذَخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تحلَّىٰ به بعــد العَطَل وكلُّ قَضاءٍ خِيره ، وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهْرُ عن فضله فباتتْ عينُ الاستحقاق باستقرار رُتْبته قريره .

نحمده حمدَ من توافَتْ إليــه النِّعم الغزيره، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرة فى المُــدَد اليســيره ، وأخصبَتْ فى أيّامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالِم عدِمَ النظيرَ نَضيره ،

(١) تقدّمت فى تقليد حنفى بأطول من هذا و ببعض تغيير .

وآفتتح دولتَه برفع منَار العدل فآمالُ أهلِ الظلم عن تَعاطيه قاصرةٌ وأيدى أهل الباطلِ عن الآمتداد إليه قَصيره ، وخَصّ المَناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بها هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدّتْ إليها أبصارُ مَنْ دُونَهم رجعتْ حَسيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُصْلِحُ العَلَن والسَّريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ مُوقِنةً والألْسُن ناطقةً والأصابعُ مُشيره . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى بعث اللهُ به الرسلَ مخبِرةً وأنزل الكُتُب بمَبْعثه بَشيره ، وآجتباه فى خير أُمّةٍ من أكرم أَرُومةٍ وأشرفِ عَشيره ، وأظهر أنوارَ مِلَّته إلا لمن أعمى الغيُّ بصيرتَه وهل تنفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهيره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَتقرَّبُ بدوامها إلى الله فيضاعِفُها لنا أضعافا كَثيره ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلى الأمور بأن تُشادَ قواعِدُه ، وتُتعهَّد معاهدُه ، ويُعلىٰ مَنَارُه ، وتُفاضَ بطلوع شَمْسه أنوارُه ، وتُكَمَّل به قُوى الدين تكملةَ الأجسادِ بقُوىٰ الطبائع الأربَع ، وتُعمَّرَ به ربوعُ الملة التى ليس بعدَها من مَصِيف لِمُلِّةٍ ولا مَرْبَع ، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالةِ بعضِها من مَطْمَع ، أمرُ القضاء علىٰ مذْهَب الإمام الرَّبَّانىّ « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه ، وكان قد خَلَا بانتقال مباشره إلىٰ الله تعالىٰ ، وتوقَّف مدّة علىٰ آرتياد الأكْفاء ، والإرشاد إلىٰ من هو أهل الآصطفاء ؛ وآختيار من تكمُل به رِفعةُ قَدْره ، ويُعيد لدَسْته علىٰ بِساط سُليمانِه بهجَةَ صَدْره .

ولما كان فلانٌ هو المنتَظر لهذه الرُّتْبة آنتظارَ الشمس بعدَ الغَسَق ، والمرتَقَب لبُلوغ هذه المنْزلة التى تقدّمت إليها بوَادرُ آستحقاقه فى السَّبَق ، والمعطوفَ علىٰ الأئمة من أصحاب إمامه ــ وإن تأخر زمانه ــ عطْفَ النَّسَق ؛ وهو الذى ما زالَ

يعدِلُ دَمَ الشهداء مِدادُ أقلامه ، وتضَعُ الملائكةُ أجنحتَها رضًا بما يَصْنَع من نَقْل خُطُواته فى طلب العلم وسَعْى أقدامه ، ودخل من خَشْية الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما ، وهجر المَضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّتْ هَجَعاتُه لقَلَّما ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقيَّد أوابِدَها ، وأحرَزَ شوارِدَها ؛ ولجَّج فى بِحار المعانى فغاص علىٰ جواهِرِها ، ونظَر نظْرةً فى نُجوم العلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وزار خمائلَ الفضائل [فاستوى] علىٰ أزاهِرِها ؛ وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبه فبَرَّز علىٰ مَنْ سلف ، وجارىٰ علماء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبارِه وما وقَف ؛ وتعيَّن عليه القضاء وإن كان فرضَ كفايةٍ لافرضَ عيْن ، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رتبتَه همزةَ آستفهام ورُتْبة غيره بيْنَ بين – آقتضى رأيُنا الشريف آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّضَ إليه كَيْت وكَيْت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبح فيها عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نائبًا وبشَرْعه قائمًا ، ويتقلَّدْها تقلُّد من يعلم أنه قد أصبح علىٰ حُكم الله تعالىٰ مقدِّما وعلىٰ الله قادما ، ويتثبتْ تثبُّت من يعتصِم بحبل الله فى حكمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكون ألحَنَ بحجَّته وإن كان ظالما ، ويلبَسْ لهذا المنصِبِ حُلَّةً تمنَعُ المبطِل من الإقْدامِ عليه ، وتدفعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نزعه الشرعُ الشريفُ من يديه ، ويُؤَمِّن الحقَّ من آمتداد يَد الجَوْر والحَيْف إليه ؛ وليُسَوِّ بين الخصمين فى مجلسه ولحظه ، ويعدِلْ بينَهما فى إنصاته ولفْظه : ليعلَمَ ذُو الجاه أنَّه مساوٍ فى الحقِّ لخصمه ، مكفُوف باستماع حُجَّته عن الطمع فى ظُلْمه ؛ ولا ينقُضْ حكما لم يخالِف نصًّا ولا سنَّة ولا إجماعا ، وليشارِكْ فيما لا يجهَلُه من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيَّد بذٰلك مع آطلاعه آطّلاعا ، وليغتَنِمْ فى ذٰلك الاستعانة

بآرائهم : فإنّ الله تعالىٰ لاينتزع هذا العلمَ انتزاعا؛ وليسُدَّ مسالك الهوىٰ عن فكره، ويصرِف دواعىَ الغضَب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحكم بما أراه الله ﴿ والله يحكُمُ لا مُعقِّبَ لحُكمه ﴾ .

* * *

وهذه نسخة وصية أوردها فى "التعريف" تشمَل القُضاةَ الأربعةَ ، قال : وصيةٌ جامعةٌ [لقاضٍ][1] من أىِّ مذهبٍ كان ، وهى :

وهذه الرُّتْبة التى جعل اللهُ إليها منتهىٰ القَضايا ، وإنهاءَ الشَّكايا ؛ ولا يكون صاحبها إلا من العُلَماء ، الذين هُم ورثةُ الأنبياء ؛ ومتولِّى الأحكام الشرعيَّة بها كما ورث عن نبىِّ الله صلى الله عليه وسلم علمَه ، كذلك وَرِث حُكْمَه ؛ وقدأصبح بيده زِمامُ الأحكام ، وفَصْلُ القضاء الذى يُعرَض [بعضه][1] بعدَه علىٰ غيره من الحُكّام ؛ وما منهم إلا مَنْ ينقُدُ نقدَ الصيرَفِىّ ، وينفُذُ حكمُهُ نفاذَ المَشْرَفىّ ؛ فليتروَّ فى أحكامه [قبل إمضائها ، وفى المحاكمات اليه][1] قبلَ فَصْل قضائها ؛ وليراجع الأمرَ مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يزُولَ عنه الإلتِباس ، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمُّل كتابَ الله وسنَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماعَ والقِياس ؛ وما أشكل عليه بعد ذٰلك فليُجَلِّ ظُلَمَه بالاستخاره ، وليُحُلَّ مُشْكِله بالاستِشاره ، ولا يَرَ نَقْصا عليه إذا استشار فقد أمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم بالشُّورىٰ ، ومرّ مِنْ أوّل السَّلَف مَنْ جعلها بينَه وبينَ خطَإِ الاجتهادِ سُورا ؛ فقد يَسْنَح للرء ما أعيا غيْرَه وقد أكثَر فيه الدَّأب ، ويتفَطّن الصغيرُ لما لم يَفطَنْ إليه الكبير كما فَطِن ابنُ عمر رضى الله عنهما للنخْلة [و] مامَنَعه أن يتكلَّم إلا صغرُ سِنِّه ولُزُومًا مع من هو أكبَرُ منه للأدب ؛ ثم إذا وضَح له الحقُّ

(١) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضىٰ به لمستحقّه ، وسَجّل له به وأشهد علىٰ نَفْسه بثُبوت حقّه ؛ وحكم له به حكما يَسُرّه يوم القيامة أنْ يراه ، وإذا كَتَب له به ، ذُكِر بخَيْر إذا بَلِي وَبقِيَ الدهرُ ما كَتَبَتْ يداه . وليسوِّ بينَ الخُصوم حتّى فى تقسيم النظَر ، وليَجْعلْ كلَّ عمله علىٰ الحَقّ فيما أباحَ وما حظَر ؛ ولْيُجِد النظَرَ فى أمر الشهود حتّى لا يدخُلَ عليه زَيْف ، وليتحَرَّ فى ٱستيداءِ الشهاداتِ فرُبَّ قاضٍ ذُبِح بغير سِكّين وشاهدٍ قُتِل بغير سَيْف ؛ ولا يقْبَلُ منهم إلا مَن عُرِف بالعَدَاله ، وأُلِف منه أن يَرىٰ أوامِرَ النفْس أشَدَّ العِدَا له ـ وغيرُ هؤلاء ممن لم تَجْرِ له بالشهادة عاده ، ولا تَصدّىٰ للٱرتزاق بسُحْتها ومات وهو حَيٌّ علىٰ الشَّهاده ، فليَقبلْ منهم من لا يكونُ فى قَبُول مثله مَلَامه ، فرُبَّ عدلٍ بين منطقةٍ وسَيْف وفاسقٍ فى فَرَجِيَّة وعِمَامه ـ ولينقِّب علىٰ ما يصدُر من العُقود التى يؤسِّس أكثرُها علىٰ شَفَا جُرُف هار ، ويُوقِع فى مثل السِّفَاح إلا أنَّ الحُدودَ تُدْرأ بالشُّبُهات ويبقىٰ العار ـ وشهودُ القِيمة الذين يَقْطَع بقولهم فى حقّ كلّ مستحقٍّ ومالِ كلّ يتيم ، ويُقلِّد شهاداتِهم علىٰ كل أمرٍ عظيم ؛ فلا يُعوِّل منهم إلا علىٰ كلِّ رَبِّ مالٍ عارفٍ لاتخفىٰ عليه القِيَم ، ولا يُخاف معه خَطأ الحَدْس وقد صقَل التجريبُ مِرْآةَ فهمه علىٰ طُول القِدَم . وليتأنَّ فى ذٰلك كلّه أناةً لا تَقْضى بإضاعة الحقّ ، ولا إلىٰ المُطاوَلة التى تُفْضى إلىٰ مَلَلِ من ٱستَحقّ . وليمَهِّدْ لِرَمْسه ، ولا يتعَلَّل بأنَّ القاضيَ أسيرُ الشهود وهو كذٰلك وإنما يَسْعىٰ لخلَاص نفْسه ـ والوكلاءُ هم البَلاءُ المُبْرَم ، والشياطينُ المسوِّلُون لمن توكّلُوا له الباطلَ ليُقضىٰ لهم به وإنما تقطع لهم قِطعةً من جهنّم ، فليكُفَّ بمهابته وَساوِسَ أفكارهم ، ومَساوِيَ فُجَّارهم ؛ ولا يدع لمجْنىٰ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنوعه ، ولا يدَ ٱعتداء تمتدُّ إلا مغلولةً إلىٰ عُنقه أومقْطُوعه . وليطهِّر بابَهُ من دَنَس الرسل الذين يمشُون علىٰ غير الطريق ، وإذا رأىٰ واحداً منهم درْهما ودَّ لو حصل فى يَده ووقَع فى نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يَحتاج به مثلُه أن يُوصَىٰ ،

ولا أن يُحصىٰ عليه منه أفرادُ عَمَلَه وهو لا يُحْصىٰ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظَرَ العُموم، فليعْمُرْها بجميل نظره فرُبَّ نظرةٍ أنفَعُ من مواقع الغُيُوم؛ وليأخُذْ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهـم بالتقديم، وتفاوتَ بُعـدُ ما بينه وبينهم حتّى صار يُزِيلُ عارضَ الرجُل منهم النظرةُ [منه] ويأسُو جِراحَه منه التكْليم . وهذه الوصايا إنمـا ذُكرت علىٰ سبيل الذِّكْرى، وفيه ــ بحمد الله ــ أضعافُها ولهذا ولّيناه والحمدُ لله شُكْرا ؛ وقد جعلنا له أنْ يستنيبَ مَنْ يكون بمثل أوصافه أو قريبًا من هذه المَثَابه، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكَلَّ ويتاسمَه ثوابه ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ هى جِماعُ الخير ولا سيَّما لصاحب هذه الوظيفه ، ولمنْ وليها أصْلا وفرْعًا لا يستغنِى عنها ربُّ حُكْم مطلقُ التصرُّف ولا خليفه .

ويُزاد الشـافعىّ :

وليعلَمْ أنه صدرُ المَجْلس ، وأنه أدنىٰ القوم وإن كانوا أشباهَه منا حيثُ نجْلس، وأنه ذُو الطَّيْلَسَان[1] الذى يخضَع له ربُّ كلِّ سيف ويُبْلِس؛ وليتحقَّقْ أنه إنمـا رفعه علمُه وتُقاه، وأنَّ سبَب دينه لا دُنْياه هو الذى رَقَّاه؛ فليقدُرْ حقَّ هذه النِّعم، وليقف عند حدِّ منصبه الذى يَوَدّ لو آشترىٰ سَوادَ مِدَاده بحُمْر النَّعَمْ .

ويقال فى وصيته : وأمرُ دَعاوىٰ بيتِ المـال المعمُور، ومحاكماته التى فيها حقُّ كل فردٍ فردٍ من الجمهور ؛ فليحترِزْ فى قضاياها غايةَ الاحتراز، وليعمَلْ بمـا يقتضيه لهـا الحقُّ من الصِّيانة والإحْراز؛ ولا يقبَلْ فيها كلَّ بينةٍ للوكيل عن المسلمين فيهـا مَدْفَع ، ولا يعمَلْ فيها بمسألة ضعيفة يظن أنهـا ما تَضُرُّ عند الله فإنها ما تنْفَع ؛ وله حقوق فلا يجِدُ من يَسْعىٰ فى تملُّك شيءٍ منها بالباطل منه إلا الياس، ولا يلتفت إلىٰ مَن رَخَّص لنفسه وقال: (هو مالُ السلطان) فإنَّه مالنا فيه إلا ما لِوَاحِدٍ من الناس .

(١) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثلثة .

وأموال الأيتام الذين حَذَّر اللهُ من أكل مالهم إلا بالمعْروف لا بالشُّبُهات، وقد مات آباؤُهم ومنهم صغارٌ لايهتَدُون إلىٰ غير الثدْى للرَّضاع ومنهم حملٌ فى بطُون الأُمَّهات؛ فليأْمُرِ المتحدِّثين لهم بالإحسانِ إليهم، وليعرِّفْهم بأنهم سيُجْزَوْن فى بَنِيهم بمثل ما يعمَلون معهم إذا ماتُوا وتَرَكُوا ما فى يدَيْهِم، وليُحَذِّرْ منهم من لاولد له : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم ﴾ . وليقُصَّ عليهم فى مثل ذٰلك أنباءَ من سَلَف تذْكِيرا، وليتْلُ عليهم القرآنَ ويُذَكِّرْهم بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾. والصدقاتُ الموكولة إلىٰ تَصريف قَلَمه، المأكولةُ بعَدَم أمانةِ المباشرين وهى فى ذِمَّه، يتيقَّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه ٱستحقاقها، والعملِ بما لا يَجب سِواه فى أخذها وإنفاقها . والمسائلُ التى تفرَّد بها مذهَبُه وتَرَجَّح عنده بها العَمَل، وأعدَّ عنها الجوابَ لله إذا سأل، لايعمَلُ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهب إمامه أوعليه أكثرُ الأصحاب، ورآه قد حكَم به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجْحانه عنده وللاستصحاب . ونُوّابُ البرِّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقَّق استحقاقَه، فإنه إنما يولِّيه علىٰ مسلمين لا عِلْمَ لأكثَرِهم فهم إلىٰ ذى العلم أشدُّ فاقه؛ هذا إلىٰ ما يتعرّف من دِيانتِهم ومن عَفَافهم الذى يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبرِ من الفاقة وهو به يتحَلّى، ثم لايزال له عينٌ عليهم فإنَّ الرجال كالصناديق المُقْفَلة لايعُرف الرجلُ ما هو حتّٰى يتولّى .

ويزاد الحنفىّ :

وليعلَمْ أن إمامه أوّلُ من دوّن الفِقْه وجَمعه، وتقدّم وأسبَقُ العلماء من تَبِعه؛ وفى مَذْهبه ومذاهب أصحابه أقوال فى المذْهَب، ومسائلُ ما لحِقه فيها مالك وهو أوّلُ

مَنْ جاء بعدَه وممَّن يُعَدّ من سوابقه أشهَب ؛ ومن أهمها تزويجُ الصَّغائر، وتحصينُهنّ بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكَبَائر ؛ وشُفْعةُ الجوَار التى لو لم تكُنْ من رأيهم لما أَمِنَ جارُ السُّوء علىٰ رَغْم الأُنُوف، ولأَقام الرجلُ الدَّهْرَ ساكنًا فى داره بينَ أهله وهو يتوقَّع المَخُوف ؛ وكذلك نفقةُ المعتدّة التى هى فى أَسْر من طلّقها وإن بُتَّتْ من حِباله ، وبقِيَت لا هو بالذى يُنفِق عليها ولا هى بالتى تستطيعُ أن تتزوّجَ من رجل يُنفِق عليها من ماله ؛ ومن آستدانَ مالًا فأكله وآدّعىٰ الإعسار، ولفّق له بينةً أراد أن تُسْمع له ولم يدخُل الحَبس ولا أُرْهِق من أمره الأَعسار ، وأهل مذهبه علىٰ أنه يُسجَن ويمكُثُ مُدَّة، ثم إذا آدَّعىٰ أنَّ له بينةً أُحْضرت ثم هل تُقْبل أولا . فهذا وأمثاله مما فيه عمومُ صلاح، وعظيمُ نفعٍ ما فيه جُناح؛ فليقض فى هذا كلِّه إذا رآه بمقتضىٰ مذْهَبه، وليهتَد فى هذه الآراء وسواها بقَمَر إمامه الطالع أبى حنيفة وشُهُبه ؛ وليُحْسن إلىٰ فُقَهاء أهل مذهبه الذين أدْنى إليه أكثَرَهم الاغتراب، وحلّق بهم إليه طائرُ النهار حيثُ لايحلّق البازى وجناحُ الليل حيث لايَطير الغُراب؛ وقد تركوا وراءَهم من البلاد الشاسعه ، والأمداد الواسعه؛ ما يُراعىٰ لهم حقُّه إذا عُدّت الحقوق، ويجمعه وإيَّاهم به أُبُوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنْسَب إلىٰ العُقُوق .

ويزاد المالكىّ :

ومذهَبُه له السيْفُ المُصْلَت علىٰ مَنْ كفر، والمُذْهِب بدَمِ من طُلَّ دمُه وحصل به الظَّفَر؛ ومَن عَدَا قدْرَه الوضيع ، وتعرّضَ إلىٰ أنبياء الله صلواتُ الله عليهم بالقول الشَّنيع ؛ فإنه إنما يُقتل بسيفِه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيرا بقوله الذى به تفَرّد؛ ولم يزلْ سيفُ مذهبه لهم بارِزَ الصَّفْحه ، مسلِّما لهم إلىٰ مالكٍ خازن النار من مذهب مالكٍ الذى مافيه فُسْحه؛ وفى هذا مايُصَرح غُدُر الدِّين من القَذىٰ، ومالم تُطَلَّ دماءُ

هؤلاء (لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ)؛ وإنمـا نُوصيه بالتحرِّى فى الثُّبوت، [والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت،](١)] وإنما هو رجلٌ يَحْيا أو يمُوت، فليتَمَهَّل قبل بَتِّ القضاء، وليُعْـذِر إليهم لاحتمال ثبوتِ تفسيق الشهود أو بَغْضاء؛ حتّى لا يُعجِّل تلافًا، ولا يَعْجَل بما لا يُتلافىٰ، فكما أننا نُوصيه أن لاينقُضَ فى شَدّ الوَثَاق عليهم إبْراما، فهكذا نُوصيه أن لا يُصيب بغير حقِّه دمًا حراما؛ وكذٰلك قبول الشهادة على الخَطّ، وإحياءِ ما ماتَ من الكُتُب وإدناء ما شَطّ؛ فهذا مما فيه فُسْحة للناس، وراحةٌ مافيها باس؛ إلا أنه يكون الثبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال، لالنَزْع يدٍ ولا إلزامٍ بمجرَّدها بمال؛ وهكذا ماإيراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقيه، وفيه مصلَحة وإلا فما معنَى الوصيَّه؛ وهو زيادةُ احتراز ما تضُرُّ مراعاة مثلها فى الأُمور الشرعيَّه؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرَّيْع فى وقف آستُرِدّ وقد بِيع، وعُطْل المشترى من التكسُّب بذٰلك المـال مدةً لا يشتَرِى ولا يَبيع؛ وهذا مما يَبُتُّ قضاءه فى مثله، ويجعلُ عقابَ من أقْدم علىٰ بَيْع الوقف إحرامَه مدّةَ البيع من مَغَلّه؛ وسـوىٰ ذٰلك ممـا عليه العمَل، ومما إذا قال فيه قال بحقٍّ وإذا حكم عدَل. وفُقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليلٌ ما هم، وهم غُرَباءُ فليُحْسِن مَأْواهُم، وليكرم بكرمه مَثْواهم؛ وليُستقرّ بهم النَّوىٰ فى كنَفه فقد مَلُّوا طُول الدَّرْب، ومعاناة السفر الذى هو أشـدُّ الحَرْب، وليُنْسهم أوطانَهم بِبِرِّه ولا يَدَعْ فى مآقيهم دَمْعا يَفيض علىٰ الغَرْب.

ويُزاد الحَنْبـلىّ:

والمُهِمّ المقدَّم ــ وهو يعلم ما حَدَث علىٰ أهل مَذْهبه من الشَّنَاعه، وما رُمُوا به من الاقوال التى نَتْرُكها لما فيها من البَشَاعه؛ ونكتَفى به فى تعْفية آثارها، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١ .

أَذَاها عن طريق مَذْهَبه لتأمَنَ السالكةُ عليه من عِثارها ؛ فتعالىٰ الله أن يُعْرف بكَيْف ، أو يُجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف ؛ والأنضمامُ إلىٰ الجماعة والحذَرُ من الأنفراد ، و إقرارُ آياتِ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه من الأعتقاد ، وأنَّ الظاهرَ غيرُ المراد ، والخُروج بهم إلىٰ النُّور من الظُّلْماء ، وتأويل مالا بُدّ من تأويله مثلُ حديث الأمَةِ التى سُئِلت عن رَبِّها : أينَ هو فقالت فى السَّماء ؛ و إلا ففى البليَّة بإثبات الجهة مافيها من الكَوَارث ، و يلزم منها الحدوثُ والله سبحانه وتعالىٰ قديمٌ ليس بحادِثٍ ولا مَحَلًّا للحوادث ؛ وكذلك القولُ فى القرءان ونحن نُحذِّر مَنْ تكلَّم فيه بصَوْت أو حَرْف ، فما جزاء من قال بالصوت إلا سوطٌ و بالحرف إلا حَتْف ؛ ثم بعد هذا الذى يَزَعُ به الجُهَّال ، ويَرُدّ دُونَ غايته الفِكْرَ الجَوَّال ، ينظُر فى أمور مذْهَبه و يعمل بكل ما صَحَّ نقلُه عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛ فقد كان رحمه الله إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناسُ تلكَ المُدَّه ، وقام نَوبةَ المحْنة مَقَام سيد تَيْم ـ رضى الله عنه ـ نَوْبةَ الرِّدّه ؛ ولم تَهُبَّ به زُعازِعُ المَرِيسىّ وقد هبَّتْ مَرِيسا ، ولا ٱبنُ أبى دُوَاد وقد جمع له كلَّ ذَوْد وساقَ إليه من كلِّ قُطْر عِيسًا ؛ ولا نَكَثَ عُهدةَ ما قدّم له المأمونُ فى وصيَّة أخيه من المَواثِق . [ولا روَّعه سوطُ المعتصِم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثِق](1) .

فلْيَقفَّ علىٰ أثرِه ، وليقِفْ بمسندَه [علىٰ مذهبه](1) كلِّه أو أكثَرِه ، ولْيقضِ بمفرَداته وما ٱختاره أصحابُه الأخيار ، ولْيقَلِّدْهم إذا لم تختلِف عليه الأخبار ؛ وليحترِز لدينه فى بيع ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثمنه فى مثله ، والأستبدالِ بما فيه المصلحةُ لأهلِه ؛ والفَسْخ علىٰ من غاب مدّةً يسُوغ فى مثلها الفَسْخ ، وتركَ زوجةً لم يترك لها

(1) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نَفقة وخلّاها وهى مع بقائها فى زوجيّتــه كالمعلّقه ؛ و إطلاقِ سَرَاحها لتتزوّج بعــد ثُبوتِ الفَسْخ بشُروطه التى يبقىٰ حكمُها به حكْمَ المطلَّقه ؛ وفيما يمنع مُضارَّة الجــار ، وما يتفرّع علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : «لا ضَرَر ولاضِرار» ، وأمرِ وقف الإنسان علىٰ نفْسه و إن رآه ســوىٰ أهل مذْهبه ، وطلَعَتْ به أهلّةُ علمــاءَ لولاهم لـمــا جَلا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبه ؛ وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضُّعَفاء و إن كان لا يَرىٰ بها الإلزام ، ولا تجرى لدَيْه إلا مَجْرىٰ المصالحةِ بدليل الآلتزام ؛ وكذلك المعاملةُ التى لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لـمــا أ كل أ كثرُ الناس إلا الحرامَ المَحْض ، ولا أُخِذَ قِسْم الغِـلال والمعامِلُ هو الذى يزْرَع البُذُور ويحرُث الأرض ؛ وغيرذٰلك ممــا هو من مفرَداته التى هى للرِّفق جامِعــه ، وللرَّعايا فى أ كثر معايِشهم وأســبابِهم نافعه ؛ فإذا آستقرّت الفُروع كانت الأصولُ لها جامعَه (١) . وفقهاءُ مذهبِه هم الفُقراء لقلّة المحصول وضَعْف الأوقاف ، وهم علىٰ الرِّقّة كالرِّماح المعَــدّة للثِّقاف ؛ نفــذْ بخواطِرهم ، ومُدّ آمالَهُم فى غائب وَقْتِهم وحاضِرهم ؛ وآشمَلْهم بالإحسان الذى يُرَغِّبهم ، ويقِل به طلَبهم لوجوه الغنىٰ ويكْثُر طُلّابهم .

---

(١) عبارة "التعريف" « واذا استقرت الاصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقـــة الثـانية

(من أرباب الوظائف الدّينية أصحابُ التواقيع ، وتشتمل علىٰ مَراتِبَ)

المرتبـــة الأُولىٰ

(ما كان يكتَب فى النصف بـ«المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أوّلا ، وقد تقـــدّم)

المرتبـــة الثـانية

(مايكتب فى قطع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وآعلم أنّ الأصل فيما يُكْتب من التواقيع أنْ يفتتح بـ«أما بعـدُ» إلا أن الكُتَّاب تسامحُوا فيـه فافتتحُوا لمن علَتْ رتبتُـه حيث آقتضىٰ الحـالُ الكتابةَ له فى الثلث بـ«الحمدُ لله» ، وأبقَوْا من آنحطّت رتبته عن ذلك علىٰ ما كان عليه من الآفتتاح بـ«أما بعد» وهـأنا أُورِد ماسنح من ذٰلك مما أنشأه الكُتَّاب فى ذٰلك من الآفتتاحَيْن جميعا . ويشتمل على وظائفَ .

الوظيفـــة الأُولىٰ

(قضاء العسكر)

وقد تقدّم فى المقالة الثانيةِ أنّ موضُوعها التحدّثُ فى الأحكام فى الأسـفار السلطانيّة وأنّ له مجلِسًا يحضُره بدار العَدْل فى الحَضَر . وقد جرت العادةُ أن يكون قُضاة العسكر أربعةً : من كلِّ مذهَب قاضٍ .

وهذه نسخةُ توقيع شريفٍ بقضاء العسكر المنصور بالحضْرة السلطانية ، وهى :

الحمدُ الذى رفَع للعِلْم الشريف فى أيَّامنا الزاهرة مَنَارا ، وزاد بإعلاء رُتَب أهله دولتَنا القاهرةَ رِفْعةً وفَخَارا، وزان أحكامَه الشريفة بحُكَّامه الذين طَلَعُوا فى غَياهِب مُشكلاتِهِ بُدُورًا وتدفَّقوا فى إفاضتِه فى الأحكام الشرعيَّة بِحارا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ فَجَلَّتْ، ومِنَنِه التى أَهَلَّت الجود فاستَهَلَّت .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكون لقـائلها ذُخْرا ، وتُعْلِى للمتمسِّك بهـا فى المَلإِ الأعلىٰ ذِكْرا ، ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى هو أسبَقُ الأنبياء رُتْبَـة وإن كان آخِرَهم عَصْرا ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أضْحَوْا للمقتـدين بهم شُموسًا منـيرة وللمهتدين بعُلُومهم نُجوما زُهْرا ؛ صلاةً لا تزال الألْسُن تُقيمها، والأسماعُ تستديمُها، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من نَوَّهْنا بذِكره، ونَبَّهنا علىٰ رِفعة قَدْرِه، وأطلَقْنا ألسِنَة الأقلام فى وصف مَفَاخرِه وشُكْرِه، وأثَّلنا قواعدَ مجدِه التى لو رام بَنانُ البَيانِ آستقصاءَها حال الحَصَرُ دُون حَصْره، ونفَّذْنا كلِمَ حُكْمه ورفَعْنا فى أندية الفضائل ألويةَ فُنُونه وأعلامَ نَصْره؛ من لم يزل دَمُ الشهداء يعـدِلُ مِدادَ أقلامه، وتُقيمُ مَنَارَ الهدىٰ أدلةُ فضائله وشواهدُ أحكامه، وتُوَضِّح الحقَّ حتى يكاد المتأمِّلُ يلحظُ الحُكْمَ لوضوحه ويُبْصِره، وينصُر الشرعَ بأمداد عِلْمه ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُره؛ وشـيَّد مذْهبَ إمامه الإمام الفلانىّ فأصبح فسيحَ الأرجاء وإن لم يكن فيه فُسْحه، وجدّد قواعدَ العَدْل فى قضايا عسا كرنا المنصورة فهو مُشاهَد من كَلِمه ومن نظره فى لَمْحه مِلْحه .

ولمـا كان فلان هو الذى نعتْنا بمـا تقدّم من الخطاب خلائقَه الحُسْنىٰ، وأثنَيْنا علىٰ ماهو عليه من الإقبـال علىٰ جَوْهر العلم دُونَ التعرّض إلىٰ العَرَض الأدْنىٰ؛ مع ما حواه من موادٍّ فضائلَ تزكُو علىٰ كثرة الإنْفـاق ، وفرائد فوائدَ تُجْلَبُ علىٰ أيدى

الطَّلَبة إلى الآفاق ، وقُوّةٍ فى الحق ، الذى لا تأخُذه فيــه لومةُ لائم ، وعدْلٍ أحكام فى الخَلْق ، ألَذَّ من سِنَةِ الكَرَى فى جَفْن نائم ـ آقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن نوطِّد فى عساكرنا المنصورةِ قواعدَ أحكامِه ، ونُوطِّن كلًّا منهـم على أنه تحتَ ما يُمْضيه فى أقضيته النافذة من نقضه وإبرامه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليــه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة : على أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد ، وأن تُبْسَط كلمتُه فى كلِّ ما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف . فليحكُمْ فى ذلك كلِّه بما أراه الله من عِلْمه ، وآتاه من حِكَمه وحُكْمه ، وبيّن له من سُبُل الهدى ، وعيَّنه لبصيرته من سُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم التى من حادَ عنها فقد جار وآعتدى ، وليَقِفْ من الأحكام عند ماقرَّرتْه الشريعةُ المطهَّرة من أحكام الله التى لايعقِلُها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كلًّا من المتقاضِين بالوقوف عند ماحُدَّ له : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُم الظَّالِمُون﴾ . والوصايا وإن كثُرَت فمن مثله تُفَاد ، وإن جَلَّت فسمْعُه فى غِنًى عما يُبْدأ له منها ويُعاد ، ومِلاكُها تقوى الله تعالى التى هى شِعار أُنْسه ، وحِليةُ يومِه وأمسه ، والله تعالى يسدّده فى القول والعمَل ، ويوفّقه لما يرضاه ويَصُونُه من الخَطَإ والخطَل .

***

وهذه وصيةٌ لقاضى العسكر، أوردها فى "التعريف" وهى أن يُقال :

وهو الحاكم حيثُ لاتنفُذ إلا أقضيةُ السيوف ، ولا تَزْدحِمُ الغرماء إلا فى مواقف الصُّفُوف ، والماضى قلمُــه وكلُّ خَطِّىٍّ يَمُــدّ بالدِّماء ، والممضَى سِجلُّه وقد طَوَى العَجَاجُ كالكتاب سِجِلَّ السماء ، وأكثرُ مايُتَحاكم إليه فى الغنائم التى لم تحِلَّ لأحدٍ قبل هذه الأمّه ، وفى الشِّركة وما تُطلب فيه القسْمه ، وفى المبِيعات وما يُرَدّ منها بعَيْب ،

وفى الديون المؤجَّلة وما يُحكَم فيها بغَيْب؛ وكلُّ هذا مما لايحتمل طُولَ الأناة فى القضاء، وآشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردُّد إليه بالإمضاء؛ فليكن مستحضرا لهذه المسائل لِيَبُتَّ الحكم فى وقته، ويُسارع السيفَ المُصْلتَ فى ذلك الموقف بِبَتِّه؛ ولْيعلمْ أن العسكر المنصورَ هم فى ذلك الموطن أهلُ الشهاده، وفيهم من يكون جُرْحه تعديلًا له وزياده؛ فليقْبَلْ منهم من لاتخفىٰ عليه سيما القَبُول، ولا يردّ منهم من لايضرُّه أن يردّه هو وهو عند الله مَقْبول؛وليجعَلْ له مستقرّا معروفا فى المُعَسكر يُقْصَد فيه إذا نُصبت الخيام، وموضعًا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان علىٰ يمين الأعلام، وليلزمْ ذلك طُولَ سفره وفى مُدَد المُقَام، ولا يخالفه لِيُبْهِمَ علىٰ ذوى الحوائج فما هو بالصالحيَّة بمصْرَ ولا بالعادليَّة بالشام، ولْيتَّخذْ معه كُتَّابا تكتُب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود، ولْيسجِّل لذى الحق بحقه وإلا فما آنسدّ بابُ الجحود؛ وتقوىٰ الله هى التى بها تُنصَر الجنود، وما لم تكن أعلىٰ ما يكُون علىٰ أعلام الحَرْب وإلا فما الحاجةُ إلىٰ نَشْر البُنود .

الوظيفة الثانية
(إفتاءُ دار العَدْل)

وموضوعُها الجلوس بدار العدل حيثُ يجلس السلطانُ لفصل الحُكومات، والإفتاءُ فيما لعلَّه يطرأ من الأحكام بدار العدل . وهى وظيفةٌ جليلة ، لصاحبها مجلسٌ بدار العدل يجلسُه مع القُضاة الأربعة ومَنْ فى معناهم .

وهٰذه نسخة توقيع لمن لقبُه «جمال الدين» يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

الحمدُ لله جاعل العِلْم للدِّين جَمالا، وللدنيا عِصمةً وثِمالا، ولأسباب النَّجاة والنَّجاح شارةً إذا تحلَّى بها ذُو التميز كان أحسنَ ذَوى المراتب حالا، وأجلَّهم

فى الدارين مَبْـدَأ ومآلا ، وأحقَّهم برتبة التفضيل التى ضَرَبت لهـا السنَّةُ المطهَّرة فضلَ البَدْر علىٰ الكواكب مِثَالا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت دارَ عدْلنا الشريف من العلماء بأَكْفائها، وٱصطفَتْ لِمـا قَرُب من مجلسنا المعظَّم مَنْ دلَّ علىٰ أنَّ التأييد قرينُ ٱصطفائها .

ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحدَه لا شريك له شهادةً يفترُّ عن شَنَب الصواب ، ثَغْرُها ، ويتفتَّح عن فَصْل الخطاب، زَهْرها؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بمحكم التـنزيل ، المنصوصُ فى الصُّـحُف المنزَّلة علىٰ ذكر أُمَّتـه الذين علمـاؤُهم كأنبياء بنى إسراءيل ؛ صلىَّ الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم كالنُّجوم المُشْرِقة، من اقتدىٰ بهم ٱهتـدىٰ ، وكالرُّجُوم المحرقة، من ٱعتدىٰ وجَدَ منها شهابا رَصَدا ؛ وسـلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ ما ٱرتدْنا له من رياض العلم مَنْ سَمَا فيه فَرْعُه ،ورَحُب بتلَقِّى أنواع العُلوم ذَرْعُه ؛ وبسَـقَتْ فى فُنون الفضائل أفنانُه ، ونَسقَتْ فرائدَ الفوائد فى سلْك الطُّروس بَنانُه ـ فُتْيا دار عدلِنا الشريف التى أحكامُنا لهـا تابِعه ، وأغصانُ العدل بثِمار فَتاوِيهـا مُورِقةٌ يانِعه، وأعيُنُنا إلىٰ أفواه مُفْتِيها رامقةٌ وآذانُنا لمقالاتهم سامِعَه .

ولما كان فلان هو ثمرةُ هذا الآرتياد، ونُخبةُ هذا الآنتقاد؛ المعقودُ عليه فى ٱختيار العلماء بالخَنَاصر، والعريقُ فى أَصَالة العلوم بأَصَالةِ ثابتةِ الأَوَاصر؛ والذى إذا أجاب تدفَّقتْ أنواءُ الفوائد ، وتألَّقت أضـواءُ الفَرائد ، وٱتُّخذتْ مسـائِلُ فِقْهِـه قَواعدَ تترتَّب الأحكام الشرعيـة عليها ومصادرُ وحيـه مَوَارِد ـ اقتضت آ راؤنا الشريفـةُ أن نُزيِّن بَهْجةَ هذه الوظيفة بجَماله ،ونُنَزِّه إشراقَها بنُور فضائله التى لو قابلَها بدرُالأفق نازعتْه حُلَّةَ كَماله .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أحكامُه مع أوامر الشرع الشريف واقفَه ، ومعـدَلتُه الشريفةُ باقتفاء آثار الحق لمُشْتَكِيَات الظُّلْم كاشفه ـ أن يفوّض إليـه كذا : فليُباشرْ هذه الوظيفـةَ السنيَّة مفَجِّرا ينـابيعَ العلوم فى أرْجائها ، محقِّقا للفتاوىٰ بتسهيل مواردِها وتقْريب أوحائها ، موضِّحا طُرُقها بإقامة براهينـه وأدلَّته ، مُبْديا دقائقَها التى يُشْرِق بها أفُقُ الفكر إشراقَ السماء بنجُومها والأُفُق بأهلَّتـه ، مُظْهِرا من غوامضـها ما يُقَرِّب علىٰ الأفهام مَنَـالَهُ ، ويُفَسِّح لجياد القرائح مجَـالَه ، وينَقِّح لكل ذى ترَوٍّ رويَّتَـه ولكل مرتَجِل بديهتَـه وارْتجـالَه ؛ فإنه الكاملُ الذى قطع إلىٰ بلوغ الغايةِ مَسَالكَ اللَّيالى ، والإمامُ الذى غاص فِكْرُه من كل بحرٍ لُجَج المعانِى فاستخرج منهـا مكنُونَ اللآّلى ؛ مع أن علمه المهَـذَّبَ غنىٌّ عن تنبيـه الوَصايَا ، مَلِىٌّ بمـا يلزم هـذه الوظيفـةَ من الخصائص والمَزَايا ؛ فإنَّ البحرَ يأبىٰ إلا تدفُّقا ، والبدرَ إلا تألُّقا ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من فضـله ، ويُزَيِّن به أُفُقَ العلم ويَزِيد مِنَّا دُنُوّا قُرْبَ محَـلِّه .

الوظيفـــة الثـالثة
(الحِسْـبة)

وقد تقدّم أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ أرباب المَعَايش والصَّنائع ، والأخذُ علىٰ يَد الخارج عن طريق الصَّلاح فى مَعيشتِه وصِنَاعته . وحاضرةُ الديار المِصريَّة تشتمل علىٰ حسْبتين[1] :

الأولىٰ ـ حِسبةُ القاهرة : وهى أعلاهمـا قَدْرا ، وأفخمُهما رُتْبة ؛ ولصاحبها مجلسٌ بدار العَدْل مع القُضاة الأربعة وقُضاة العسكر ومُفْتِى دار العدل وغيرِهم . وهو يتحدّث فى الوجْه البحرىّ من الديار المِصرية فى ولاية النُّوّاب وعَزْلهم .

---

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التى سيأتى لهـا توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحسبةُ تُولّى للتعمّمين وأرباب الأقلام إلىٰ الدولة المؤيّدية شيخ ، فولّاها للأمير سيف الدّين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلىٰ الحُجُوبيّـة . علىٰ أنَّ فى سجلّات الفاطميّين مايشهد لهـا فى الزمن المتقدّم . وربّمـا أُسنِدتْ حسـبةُ القاهرة إلىٰ والى القاهرة ، وحِسْبةُ مصر إلىٰ والى مِصْر .

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك ، وهى :

الحمدُ لله مجدّدِ عوائدِ الإحسان ، ومُجْرِى أولياء دولتنا القاهرة ، فى أيّامنا الزاهرة ، علىٰ ماألِفُوه من الرُّتَب الحِسان ، ومضـاعِفِ نِعَمنا علىٰ من آجتنىٰ لنا بحُسْن سـيرته الدعاءَ الصالحَ من كل لسان .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لاتُحصىٰ بِعدّها ، ولاتُحصَر بحَدّها ، ولا تُستزادُ بغير شُكْرِ آلاءِ المنعِم وحَمْـــدِها .

ونشهَد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نُقيمها فى كُلِّ حُكْمٍ ، وتحاوِلُ سيوفُنا جاحِدِيها فتنهَض فتَنْطِق بالحجة عليهم وهم بُكْمٌ ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آئْتمر بالعدل والإحسان ، وأعدلُ آمرٍ أمتَه بالوَزْن بالقِسط وأنْ لايُخْسِرُوا المِيزان ؛ صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آحتَسَبُوا فى سبيل الله جُلَّ عَتَادِهم ، وآحتَبَسُوا أنفُسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجِهَادهم ؛ فلا تُنْتَهَب جَنائبُها فى الوُجُود ، وتَسْرى نَجائبُها فى التَّهائِم والنُّجُود ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ أولىٰ مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره ، وإنارة بَدْره ، وإعلاءِ رُتْبَتــه ، وإدناء منزلتــه ؛ وإعلامِ مُخْلِص الأولياء بمضاعَفَة الإحسان إليه أنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عمَلا ، وأنَّ كرمنا لا يُخَيِّب لِمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعته فى أيّامنا الشريفة أمَلا ؛ مَنْ لم تزَلْ خدَمُه السابقــةُ إلىٰ الله مقرِّبه ، وعن طُرُق الهوىٰ مُنَكِّبه ، وبالله

مُذَكِّره، وعلىٰ الباقياتِ الصالحات من الأعمال موفّره، مع ماأضافه إلىٰ ذلك من أمرٍ بمعروف، و إغاثةِ ملهُوف، ونهيٍ عن منكر، وآحتسابٍ فى الحق أتىٰ فيه بكلّ ما تُحمَد خلائقُه وتُشكر، وآجتنابٍ لأعراض الدنيا الدَّنيَّه، وآجتهادٍ لمـا يُرضِى الله و يرضينا من آتِّبـاع سـيرتِنا السَّريّه ، وشِـدّةٍ فى الحق حتَّى يُقال به ويُقَام، ورِفْق بالخلق إلا فى بِدَعٍ تُنْتَهك بها حرمةُ الإسلام ، أو غِشّ إن لم يَخُصّ ضررُه الخاصّ فإنّ ذلك يعمّ العـام .

ولمّـا كان فلان هو الذى آختصّ من خِدْمتنا، بمـا رفَعه لدَيْنا، وأسلَف من طاعتنا ، ما اقتضىٰ تقريبَه منّا واستدعاءَه إلينا ، ونهض فيما عدَقْنـاه به من مصالح الرعايا وكان مشكُورَ المساعى فى كل ماعُرِض من أعماله فىذلك علينا ــ آقتضىٰ رأينا الشريف أن يفوّض إليـه كذا، فليستقرّ فى ذلك مجتهدا فى كلّ ما يعُمّ البرَايا نفعُه، ويجْمُل لديهم وَقْعُـه ، ويمنَع من يتعرّض باليَسَار ، إلىٰ ما لهم بغير حَقّ ، أو يضَيِّق بالآحتكار، علىٰ ضعفائهم مابسَط اللهُ لهم من رِزْق، ويذُبُّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطيلها ، و يعرِّفهم بالمحافظة علىٰ الحق فىالمعاملات قواعِدَ تحريمها وتحليلها، ويُرِيهم بالإنصاف مَنـارَ القسطاس المستقيم لعلهم يُبْصرون ، و يؤدِّبُ من يجِدُ فيهم من المطَفِّفين: ﴿الَّذِين إذا آكْتَالُوا علىٰ النَّاس يَسْتَوفُون و إذا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهم يُخْسِرون﴾ ويأمُر أهلَ الاسواق بإقامة الجماعاتِ والجُمَع، ويقابل من تخلَّف عن ذلك بالتأديب الذى يَرْدَع من أصرّ فيه علىٰ المخالَفة ويَزَع ، ويُلزِم ذَوِى الهيئات بالصِّيانة التى تُناسِب مناصِبَهم، وتُوافِق مراتِبَهم ، وتنَزّه عن الأدْناس مَكاسِبَهم ، وتَصُون عن الشوائب شاهدَهم وغائبَهـم ، ولا يمكِّن ذَوِى البيوع أن يَغْبِنُوا ضُـعفاءَ الرعايا وأغبيـاءهم ، ولا يُفَسِّح لهم أن يرْفَعوا علىٰ الحق أسعارهم ويَبْخَسُوا الناسَ أشْياءَهُم .

وليحملْ كلًّا منهم علىٰ المعامَلات الصحيحه ، والعقود التى غدَتْ لهـا الشريعةُ الشريفة مُبيحه ، ويجنّبْهم العقُودَ الفاسده ، والحِيَلَ التى تَغُرّ بتدليس السِّلَع الكاسده ، وهو أخبر بالبيوع المنصوص علىٰ فسادِها فى الشرع الشريف ، وأدرىٰ بما فى عدَم تحريرِهم المكاييـلَ والموازينَ من الإخسار والتطفيف ؛ فليفعلْ ذٰلك فى كل مايجب ، ويحتَسِب فيه مايدَّخِره عند الله ويحتَسِب ؛ ولْتكن كلمتُه فى ذٰلك مبْسوطه ، ويدُ تصرُّفه فى جميع ذٰلك مُحيطة وبمـا يستَنَد إليه من أوامره محُوطه ؛ ولْيُوص نُوّابه بمثـل ذٰلك ، ويوضِّحْ لهم بإنارة طريقتِه كلَّ حالٍ حالك ؛ ويقدّمْ تقوىٰ الله علىٰ كلّ أمر ، ويتّبِـعْ فيه رضا الله تعـالىٰ لا رضا زيد وعمرو ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه .



وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك بحِسْـبة الفُسْطاط المعبَّر عنه الآنَ بمصر عَوْدا إليهـا ، وهى :

الحمدُ لله الآمرِ بالمعروفِ والناهِى عن المنكر، الشاهدِ بالعَدْل الذى تقوىٰ به كلمةُ الإيمـان وتُنْصَر ؛ والغامرِ بالجُود الذى لا يُحصىٰ والفَضْـل الذى لا يُحْصَر، العامرِ ربوعَ ذَوِى البيوت بتقديمِ من انعقدت الخناصرُ علىٰ فَضْله الذى لايُجْحَد ولاينكَر .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال ألسنةُ الأقـلام ترْقُم لهـا فى صُحُف الإنعـام ذِكْرا ، وتجدّد لهـا بإصابة مواقع الإحسان العامِّ شُكرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصْـدَع بنُورها ليلَ الشرك فيئُول فجْرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى قمعَ اللهُ به من اغتَرَّ بالمعَاصى وغرّر ، وأقام بشريعتِه لواءَ الحق الأظهر ومَنارَ العـدل الأظهر ، وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين سلكوا من الهداية بإرشاده مَنْهَجَ الحق الأنور ، وآحتبسوا نفوسهم فى نُصرته ففازوا من رضاه بالحظ الأوفىٰ والنصيب الأوفر .

وبعد ، فإن الله تعالىٰ لما جعل كلمتنا المبسوطةَ علىٰ العدل والإحسان مقصُورَه ، وأوامرَنا الشريفةَ بإقامة مَنار المعروف مؤيَّدةً منصُوره ، وأحكامَنا المشهورةَ بالإنصاف فى صحائف الدَّهر بالمحاسن مَسْطُوره ، وألهمنا من آتِّباع الشرع الشريف ما غدَتْ به قلوبُ الرعايا آمنةً مسرُوره ــ قصدنا أن نختارَ لمراتب الدِّيانة والعَفَاف مَنْ لم يزل بيتُه بالصَّدارة عليًّا ، ووصفُه بأنواع المحامد والمَمَادح مَليًّا .

ولما كان فلان هو الّذى ورِثَ السِّيادةَ ، عن سلَفٍ طاهر ، وتلقَّى السعادةَ ، عن بَيْتٍ فُروعه التقوىٰ فأزْرتْ بالروض الزَّاهى الزَّاهر ، وسرَتْ سرائرُه بحسن سِيرته وسَيْره ، وأبطن من الدِّيانة ماأظهرتْه أدلَّة خَيْره ، وتنقَّل فى المَرَاتب الدِّينيَّة فأربىٰ فى حُسْن السُّلوك علىٰ غيْره ؛ وسلَك من الأمانة الطريق المُثْلىٰ ، وآعتمد ماعَدِمَ به مُضاهيا ومِثْلا ؛ وجنىٰ ما نطَق بإنْصافه فَضْلُ الكيل والميزان ، ورجَاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشِيَه أهلُ الزَّيْغ والبُهْتان ؛ وكانت الحِسبةُ المباركة بمصر المحروسة قد أَلِفَتْ قضاياه وأحكامَه ، وعرَفت بالخُبْر معروفَه وشكَرت نقْضَه وإبرامه ؛ وفارقَها علىٰ رَغْمها منه آختيارا ، وعادَتْ له خاطبةً عقيلةَ نزاهته التى لا تُجارىٰ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى أن يفوّض إليه كذا . فليقدِّم خِيرةَ الله فى مباشرة هذه الوظيفه ، وليُقِمْ مَنارَها بإقامة حدُودها الشريفه ؛ ولْينظُرْ فى الكيل والميزان اللَّذين هما لسانُ الحق الناطق ، ولينْشُرْ لواء العَدْل الذى طالما خفقَتْ بُنُودُه فى أيَّامنا حتَّى غدا قلْبُ المجرم وهو خافق ؛ وليُحسِنِ النظرَ فى المَطَاعم

والمَشَارب ، ولَيَرْدَع أهلَ البِدَع ممن هو مستخْفٍ باللَّيل وسارِب؛ وفيه ـ بحمد الله تعـالىٰ ـ من حُسْن الألْمعيَّة ما يُغْنِى عن الإسهاب فى الوَصَايا، ويُعِين علىٰ السَّـدَاد فى نَفَاذ الأحكام وفَصْل القَضَايا ؛ وكيف لا وهو الخَبِـير بمـا يأتِى ويَذَر، والصَّدْر الذى لايَعْدُو الصَّوابَ إن وَرَد أوصَدَر ؛ والله تعالىٰ يَعْمُر به للعَدْل مَعْلَمًا، ويكسُوه بالإقبال فى أيامنا الشريفـة ثوبًا بالثَّواب مُعْلَمـا ، والخطُّ الشريف أعلاه، حجـة بمقتضـاه .



وهذه وصية محتَسِب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد وَلِىَ أمرَ هذه الرُّتْبه، ووُكل بعَيْنه النظرُ فى مصالح المسلمين لله حِسْبه ؛ فلينظُرْ فى الدَّقيق والجليـل، والكثير والقَليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لايُحْصَر، وما يُؤمَر فيــه بمعروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكر، وما يُشْترىٰ ويُبَاع ، وما يُقرِّب بتحريره إلىٰ الجنّـة ويُبْعِد من النار ولو لم يَكُنْ قد بقِىَ بيْنَه وبينها إلا قدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكل ما يُعْمَل من المعايِش فى نهارٍ أو ليل، وما لا يُعرَف قدْرُه إلا إذا نَطق لسانُ الميزان أو تكلَّم فَمُ الكيل . وليعمَلْ لديه معدّلا لكلِّ عمَل، وعيارًا إذا عُرِضتْ عليه المعايِيرُ يُعرفُ مَنْ جار ومَنْ عدَل؛ وليتفقَّدْ أكثَرَ هذه الأسباب ، ويحذِّر من الغِشِّ فإنَّ الداء أكثَرُه من الطَّعام أو الشَّراب؛ وليَتَعَرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليُقِمْ عليهم من الأُمَناء من ينوب عنه فى النَّظَر، ويطمئنُّ به وإن غابَ إذا حضَر؛ ويأمُره بإعلامه بمـا أعضَـل ، ومراجعتِه مهما أمكن فإنَّ رأى مثـله أفضَل . ودار الضَّرب والنُّقودُ التى منها تَنْبثّ، وقد يكونُ فيها من الزَّيْف مالا يَظْهَر إلا بعد طُول اللُّبْث؛ فليتصَدّ لمهمَّاتها بصَـدْره الذى لا يَحْرَج،

وليَعْرِض منها علىٰ المحَكِّ من رأْيه مالا يَجُوز عليــه بَهْرَج ؛ وما يُعلَّق من الذهب المكسور ويُروبص من الفضَّة ويُخْرَج ، وما أَكلت النارُ كلَّ لِحامه أو بعضه فليُقِم عليه من جِهَتِه الرقبـاء ، ولْيُقِمْ علىٰ شمس ذَهَبه مَنْ يرقُب منه ما تَرْقُب من الشمس الحِرْباء ؛ وليُقِمِ الضُّمّان علىٰ العَطّارين والطُّرُقيَّــة من بَيْــع غرائب العقاقير إلا مِمَّن لايستَراب فيه وهو معْروف ، وبخَطِّ متطبِّب ماهرٍ لمريضٍ معيَّنٍ فىدواء موصوف . والطُّرُقيَّــة وأهلُ النِّجامة وسائر الطوائف المنْسوبة إلىٰ ساسَان ، ومن يأخُذ أموال الرجال بالحيلة ويأكُلهم باللسان ، وكل إنسان سَوْء من هــذا القَبِيل هو فى الحقيقة شــيطانٌ لا إنسان ؛ امنَعْهم كلَّ المنع ، وٱصــدَعْهم مثلَ الزُّجاج حتّىٰ لا يَنْجَــبِرَ لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فمــا يُجْــدِى فى تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفْع ؛ وٱحْسِم كلَّ هذه الموادِّ الخبيثه ، وٱقطَعْ ما يُجَدِّدُ ضعفاءُ الناس من هــذه الأسباب الرَّثيثه ؛ ومَنْ وجدْتَه قد غَشَّ مسلمــا ، أو أكل بباطلٍ دِرْهما ؛ أو أخبر مشْــتَرِيًا بزائد ، أو خرجَ عن معهُود العَوائد ؛ أَشْهِرْه فى البلد ، وأَرْكب تلك الآلةَ قَفاه حتَّى يضْعُف منه الجَــلَد ؛ وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمــاتِ النِّساء وغيرهما من الأنواع ممن يُخافُ من ذِئْبه العائثِ فى سِرْب الظِّباء والجآذر ، ومن يُقْدِم علىٰ ذٰلك ومثلِه وما يُحــاذِر ، ٱرشُقْهم بِسِهَامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهم بإقْدامك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلا من ٱختَبَرْت أمانَتَه ، وٱخترت صِيانَتَه . والنُّوّاب لا ترضَ منهم إلا من يُحْسن نَفَاذا ، ويُحْسَب لك أجْرُ استنابته إذا قيــل لك من ٱستَنَبْت فقلْت هــذا ؛ وتقوىٰ الله هى نعم المَسَــالك ، وما لك فى كلِّ ما ذكرْناه بل أكثره إلا إذا عمِلْت فيــه بمذْهَب مالك .

الوظيفـــة الرابعـــة

(وَكالةُ بيتِ المـال)

وهى وظيفةٌ عظيمةُ الشان رفيعةُ المقدار، وقد تقدّم أن موضُوعَها التحدّثُ فيما يتعلّق بمَبيعات بيتِ المـال ومُشْتَرَواته[1] : من أرضٍ وآدُر وغير ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرى، وأنَّ متولّيَها لا يكون إلا من أهل العلم والدِّيانة، وأنَّ له مجلسًا بدار العدل: تارةً يكونُ دون مجلِس المحتَسِب، وتارة فوقَ مَجْلِسه، بحسَب رِفْعـة قدْر كل منهما فى نَفْسه . وقد أُضيف إليها فى المباشرة نظرُ كِسْوة الكَعْبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المـال :

الحمدُ لله جامع المَناصب الدينيَّة، لمن خطَبتْه لهـا رتبتان : العِلْمُ والعمَل، ومكمِّلِ الرُّتب السَّنيَّة، لمن وُجِدت فيه أهبتان : الورَعُ والتُّقىٰ وعُدِمت منه خلَّتان : الحِرْصُ والأمَل؛ جاعلِ ٱختصاصِ الرُّتب بأكفائها حِلْيَة الدُّول، والنظرِ فى مصالحها الخاصَّة والعامَّة زينةَ أيامنا التى تتلفَّت إلىٰ محاسِنها أجيادُ الأيَّام الأُوَل .

نحمَـده علىٰ نِعَمِه التى عصمَتْ آراءنا من ٱعتراضِ الخَلَل، وأمضَتْ أوامِرَنا من مصالح الأمة بمـا تَسْرى به المحامِدُ سُرىً النجوم ويَسِير به الشُّكْرُ سَيْرَ المَثَل .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لم نزلْ نستنْطِق بها فى الجهاد، ألْسِنةَ الأَسَل ، ونُوقِظ لإقامتِها عُيونَ جلاد ، لهـا الغُمُود جفُون والسهام أهدابٌ والسُّـيوف مُقَل؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسوله الذى أظهر اللهُ دينَه علىٰ الأديان وشرَّف مِلَّته علىٰ الملل، وأسْرىٰ به من المسجد الحرام إلىٰ المَسْجد الأقصىٰ إلىٰ سِدْرة

(١) جرىٰ على اللغة العامية والا فصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتَهىٰ وعاد ولم يكْمُل الليْلُ بينَ السَّيْر والقَفَل ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَجَرُوا فى المُهاجَرِ إليه الأحياءَ والحِلَل ، وشَفَوْا بأســنة سنته العلل والغُلَل ، وتفرَّدوا بكمال المَفَاخر فإذا خَلعتِ الأقلامُ علىٰ أوصافهم حُلَلا غدَتْ منها فى أبهى من الحُلَل ، صلاةً تتوالىٰ بالعَشِىّ والإبكار وتتواتَرُ فى الإشراق والطَّفَل ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ أوْلَى الرُّتب بإنعام النظر فى ٱرتياد أكْفَائها ، وٱنتقادِ فرائدِ الأعيان لها وٱنتقَائها ، وٱستخارةِ الله تعالىٰ فى ٱختيار من يكون أمرُ دينِه هو المُهِمَّ المقدّم لدَيه ، وٱستنارةِ التوفيق فى ٱصطفاء من يكون مهِمُّ آخرتِه هو المرئِىّ المصوَّرَ بين عينَيْه ؛ مع ما ٱتصفَ به من محاسِنِ سَجَايَا جُبِلت عليها طِباعُه ، وخُصَّ به من سوابِقِ مزايا رَحُبَ بها فى تلَقِّ المصالح الدينيَّة صَدْرُه وباعُه ، رتبتان يعُم نفعُهما ويخُصّ ، ويحسُن وقْعُهــما بمــا يبْــديه من أوصافه ويَقُصّ ؛ ويتعلَّق كلٌّ منهما بجماعة الأمَّــة فَرْدا فَردا ، ويشــتَملان علىٰ منــافعِهم علىٰ ٱختلافها بَدْأً وإعادةً وعَكْسا وطَرْدا ؛ ويكون المتصدِّى لها مناقِشًا علىٰ حقُوقهم وهم ساهُون ، ومفتِّشا عن مصالحهم وهم عنها لاهُون ؛ ومناضِلاً عنهم وهم غافلُون ، ومشمِّرا للسعى فى مَصالحِهم وهم فى حِبَرِ الدَّعَة رافلُون ، ومتكَلِّفا لٱستمــاع الدَّعوىٰ عنهم جَوْبَ فلَوات الجَوَاب ، ومتكفِّلا بالتحرِّى فى المحاوَرَة عنهــم وإصابةِ شاكِلةِ الصَّواب ، ومؤدِّياً فى نصحهم جُهْــدَه تقرُّبا إلىٰ مَرَاضِينا وله عندنا الرِّضا وٱبتغاءَ ثوابِ الله : ﴿واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب﴾ وهُما وَكالةُ بيت المــال المعمور والحِسْــبةُ الشريفةُ بالقاهرة المحروسة : فإنَّ منافع وكالةِ بيتِ مال المسلمين عائدةٌ عليهم ، آئلة بأحكام الشريعة المطَهَّرة إليهم ؛ راجعةٌ إلىٰ مايعُمُّهم مَسارُّه ، مُعَدّةٌ لمــا تُدْفَع به عنهم من حيثُ لا يشعُرون مَضارُّه ؛ صائنةٌ حقوقَهم من تعــدِّى الأيدى الغاصــبه ، حافظةٌ بيوتَ أموالهم من ٱعتراض الآمال

العاملةِ الناصبه ؛ وكذلك نظرُ الحِسْبة : فإنه من أخصّ مصالح الخَلْق وأعمِّها ، وآكدِ الوظائف العامّة وأكملها آستقصائيَّة للصالح الدينيَّة والدُّنيويَّة وأتمِّها ، يحفَظ علىٰ ذَوِى الهيئات أقدارَهم ، ويبيِّن بتجنُّب المَنَـات فى الصَّدْرِ مِقْدارَهم ، ويَصُون بتَوَقِّى الشُّبُهات إيرادَهم وإصـدارَهم ، وينَزِّه معامَلاتِهم عن فسادٍ يعارِضها ، أو شُبَه تُنافِى كمالَ الصحة وتُنَاقِضُها ، ويحفَظ أقواتَهـم من غِشٍّ مُتْلِف ، أو غُلُوٍّ مُجْحِف ؛ إلىٰ غير ذلك من أدْوِيةٍ لا بدّ من الوقوف علىٰ صحةِ تَرْتيبها وتركيبها ، وتتبُّع الأقوال التى تجرى بها الثِّقةُ إلىٰ غاية تجريبها ؛ ولذلك لا تُجْمعان إلا لمن أوقفَه علمُه علىٰ جادّة العـمَل ، وآقتَصَر به ورَعُه علىٰ مادّة الحـق فليس له فى التعرُّض إلىٰ غيره أمَل ؛ وسَمَتْ به أوصـافُه إلىٰ مَعالم الأمور فوجد التُّقىٰ أفضـلَ ما يُرْتَقىٰ ، وعَرَضتْ عليه أدَواتُه جوهَرَ الذخائر فوجد العـملَ الصالحَ أكمَلَ ما يُنتقَد منها وما يُنْتقى ؛ وتحـلّىٰ بالأمانة ، فصارتْ له خُلُقا وسَجِيَّه ، وأنِس بالنَّزاهة ، فكانتْ له فى سائر الأحوال للنَّجاة نَجِيَّه ، وأرتْه فضائلُه الحقَّ حيثُ هو فتمَسَّك بأسبابه ، وتشبَّث بأهدابِه ، وآتَّصف به فى سـائر أحوالِه فإن أخَذَ أخذَ بحُكْمه وإن أَعطَىٰ أعطىٰ به ؛ وآحترز لدينه فهو به ضَنِين ، وآستوثَق لأمانته وإن لم يكن فيهـا بحمد الله متَّهمًا ولا عليها بظَنِين ، وآجتنَىٰ ثمـارَ المَحَامد الحُلْوةَ من كِمام الأمانَةِ المُرَّه ، وعلِم أنَّ رضا الله تعالىٰ فى الوقوف مع الحقِّ فوقفَ معه فى كلِّ ماساءَه للخلق وسَرَّه .

ولَمَّـا كان فلان هو الذى أمسكَتِ الفضائلُ بمـا كَمَّلَها من آداب نَفْسه ونَفاسـة آدابِه ، وتجاذبَتْه الرُّتَب للتحلِّى بمكانته فلم تكُن هذه الرتبةُ بأحقّ به من مجالِس العلم ولا أوْلَىٰ به ؛ وشهدت له فضائلُه معنًى بمـا شهِدت له به الأئمةُ الأعلامُ لفْظـا ، ونوهتْ بذكره العـلومُ الدينيَّة التى أتقنها بحْثا وأكْمَلَها دِرايةً وأثبتَها حفْظا ، فأوصافُه كالأعلام المشتقة من طبـاعه ، الدالَّةِ بدوامها علىٰ آنحصار سبَب الآستحقاق فيـه

وٱجتماعه ؛ المنبِّهة علىٰ أنه هو المقصودُ بهـذه الإشارات التى وراءها كلُّ مايحمَد من ٱضطلاعه بقواعد هـذه الرُّتَب وٱطِّلاعه ؛ فهو سرُّ ما ذُكِر من نعوتٍ وأوصاف، ومعنَى ماشُهِر من مَعْدَلة وإنصاف ، ورُقُومُ ماحُبِّر من حُلَل أُفيضتْ منه علىٰ أجمل أعْطـاف ـ رُسِم (١) أن يفوَّض (١) تفويضًا يقع به الأمر فى أحسن مواقِعِه، ونَضَع به الحُكْم فى أحمد مواضِعِه؛ ويحُلُّ من أجياد هذه المنـاصب محَلَّ الفرائد من القلائد ، ويقع من رياض هذه المراتِب وُقُوعَ الحَيَا الذى سَـعِد به رأْى الرائد .

فليباشِرْ هاتين الوظيفتين مُرْهفا فى مصالحهما همَّةً غيرَ همِّه[2]، مجتهدا من قواعدهما فيما تبرأُ به عنـد الله منًّا ومنـه الذِّمَّه ، محاققا علىٰ حقُوق بيت المـال حيثُ كانتْ محاقَقةَ من يعلم أنه مطلوبٌ بذٰلك من جميع الأُمَّه؛ متحرِّيا للحق فلا يغدُو لمـا يجبُ له مُهْملا ، ولا لمـا يجب عليه مُمـاطِلا، واقفًا مع حكم الله تعالى الجَـلِىّ فى الأخذ والعطاء فإنَّه سِيَّانِ من تَرَكَ حقًّا أو أخذ باطِلا؛ مُجْرِيًا عوائِد الحِسْبة علىٰ ماأُلِف من تدبيره ، وعُرِف من إتقـانِه وتحريره ، وشُهِر من ٱعتماده للواجب فى سائرأمورِه ؛ مكتفِيًا بمـا ٱطَّلع عليـه قديمـا من مصالحها ، منتهيًا إلىٰ ماسـبقَتْ معرفتُه به من أسـبابها ومناجِحها ؛ والله تعالىٰ يوفِّقـه فى ٱجتهاده ، ويُعينـه علىٰ مايدَّخِره لمَعَاده، إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه وصيةُ وكيل بيت المـال أوردها فى "التعريف" :

وهو الوكيلُ فى جميع حقُوق المسلمين وماله معهم إلاحقُّ رجلٍ واحد، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتَّى يُقِرَّ الجاحد ؛ وهو القائمُ للدَّعْوىٰ لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض فى الموضعين والغرض منه الاختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مرارا. (٢) أى غير ضعيفه.

ومنًا بمـا يُؤخَذ لهم أو يُؤْخَذ من يدَيْهم ؛ والمُعَدّ لتصحيح العقُود ، وترجيح جهـة بيت المـال فى العَقَار المبيع والثمن المَنْقود، والمتكلِّمُ بكتَاب الوكالة الشرعية الثابته ، والثابتُ القدَم والأقدامُ غيرُ ثابتـه ؛ والمَفْسوح المَجَال فى مجالس الحُكّام ، والمجـادِلُ بلسان الحـقِّ فى الأحْكام ؛ والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسْـمع فى وجْهـه أو فى وجه من أَذِن له فى سَماعها ، والمرجوعُ إليه فى إماتةِ كلِّ مخاصَمَة حصل الضجَر من طُول نِزاعها ؛ وإبداءِ الدَّوافع ، ما لم يجِـدْ بُدّا من الإشهاد عليه بعَـدَم الدافع ، والانتهاءِ إلىٰ الحق كان له أوعليه ولايَقِف عند تثْقِيل مثَقِّلٍ ولاشفاعةِ شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتُمتَحن الشهود][1] ويُمْشَى علىٰ الطُّرُق المستقيمه ، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القـديمه ؛ وبه يتم عَقْد كل بيع وإيجـارٍ إذا كانت المصلحةُ فيها لعـامّة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يُوكَّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطة بحَسَب الأوقات الحاضره .

ونحن نُوصيه فى ذٰلك كلِّه بالعمَل بمـا علِم ، والانتهاء فى مقتضىٰ قولنا إلىٰ مافَهِم ؛ وتقديمِ تقوى الله فإنه متىٰ قدّمها بين يديه سَلِم ، والوُقُوفِ مع رضا الله تعالىٰ فإنه متىٰ وقَف معه غَنِم ؛ والعملِ بالشرع الشريف كيفَمَا توجّهت به أحكامُه ، والحذَر من الوقوف فى طريقه إذا نفذَتْ سِهَامُه ؛ ومَنْ مات وله ورَثة معروفةٌ تستكمل بحقِّها ميراثَه ، وتحوزُ بحظِّها تُرَاثه ؛ لا يكلفُهم ثبوتًا يكون من باب العنَتْ ، والمدافعة بحقٍّ لايحتـاج [مستحِقُّه][1] إلىٰ زيادة ثَبَت ؛ وإنمـا أنتَ ومن كانت قضيّته مُنْكَره ، والمعروفُ من مستحقِّ ميراثِه نَـكِره ؛ فأُولئك شـدِّدْ فى أمرهم ، وأوْطِ شُهداءَهم فى الاستِفْسار منهم علىٰ جَمْرِهم ؛ وتَتَبَّعْ باطن الحـال لعله عنك لا يَتَسَتَّر ، ولا يمْشى عليك فيـه الباطلُ ويمشى شاهـدُ الزُّور بكُمِّيه ويتَبَخْتَر ؛ فإن تحقَّقتَ صحةَ شهاداتهم

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشْهِرْهم فى الدنيا ودَعْهم فى الآخرة لا يُخَفَّف عنْهُم العـذَابُ ولا يفتَّر ؛ وكلُّ ما يُبَاع أو يؤَجَّر آرجع فيـه إلىٰ العوائد ، وتقلَّد أمرَ الصغير ، وجدِّدْ لك أمرًا منّـا فى الكبير ، وذٰلك بعد مراعاة ماتجبُ مراعاتُه ، والتأنِّى كلَّ التأنِّى حتَّى يثبُتَ ماينْبغِى إثباتُه ؛ وشهودُ القيمة عليهم المَدَار ، وبشهادتهم يُقَدَّر المِقْدار ؛ وما لم يكونُوا من ذوِى الأقدار ، ومن أهل الخِبْرة بالبَزِّ والجدار ، وممن آشترىٰ العَقَار وآستغَلَّه وبنىٰ الدار ؛ وإلا فاعلم أنَّ مثله لا يُرجَع إليه ، ولا يُعَوَّل ولا سيَّما فى حقِّ بيت المال علَيْه[(١)] ؛ فاتَّفِق مع وُلاة الأمُور من أهل الأحْكام ، علىٰ تعيينِ من تَعيَّن لتقليدِ مثلِ هذه الشهاده ، وتعرَّف منهم مَنْ له كلُّ الخبْرة حتَّى تعرِفَ أنه من أهـل الزَّهاده ؛ ولك أن تدَّعِىَ بحق المسلمين حيثُ شِئْت ممن ترىٰ أن حقَّه عنده يترجَّح ، وأن بيِّنَتهم تكون عنده أوضَح ؛ فأمَّا الدَّعْوىٰ عليك فمن عادتها أن لا تُسْمَع إلا فى مجلس الحكم العزيز الشافعىِّ ـ أجلَّه الله تعـالىٰ ـ ونحن لا نغَيِّر العوائد ، ولا ننقضُ ما بنَت الدولُ السالفةُ عليـه القواعِد ؛ فليكُنْ فى ذٰلك المجلِس سماعُها إذا تعيَّنَت ، وإقامةُ البيناتِ عليها إذا تبيَّنتْ ؛ واللهَ اللهَ فى حقِّ بيت المـال ، ثم اللهَ اللهَ فى الوقتِ الحاضرِ والمآل ؛ ومَنْ تستنيبهُم عنك بالأعمال لا تُقِرِ منهم إلا من تَقَرّ به عيْنُك ، ويُوفَّى به عند الله لا بـما تُحَصِّـله من الدنيا دَيْنُك ؛ ومَنْ كان لعمله مُصْلِحا ، ولأَمَله مُنْجحا ، لا تغَيِّر عليه فيما هو فيــه ، ودَعْه حتَّى يتبينَ لك خافِيه ؛ ولتستَقْصِ فى كلِّ وقتٍ عنهم الأخبار ، ولتستعْلِمْ حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار ، ولا تزال منهم علىٰ يَقين ، وعملٍ بمـا فيه خلاصُ دنيا ودِين .

---

(١) كذا فى التعريف أيضا والمراد أن المقوّمين يشـترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات وإلا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوّل على كلامهم .

الوظيفـــة الخـامسة

(الخَـــطَابة)

وهى من أجلِّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفْس الأمر . وموضوعُها معروفٌ .
وتختصُّ هذه الطبقة من التواقيع بخَطَابة الجوامع .

وهذه نسخةُ توقيع بخَطَابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة، حيث مُصَلَّى السلطان،
من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ :

الحمـدُ لله الذى أنار بالذِّكْر قلُوبَ أوليـائه ، وكشَفَ بالذِّكْرىٰ بصائرَ أصْفيائه ،
وأنال أهلَ العِـلم بالإبلاغ عنـه إلىٰ خلْقِه وِراثةَ أنبيائه، وآختار لإذْكارِنا بآلاء الله
من فُرْسان المَنَابر مَنْ يُجاهد الأعداءَ بدُعائِه، ويُجاهِر الأوِدّاء من مواعظه بمـا يعلَم
كلٌّ منهم أنّ فى مُؤْلِمِ صَوَادِعه دواءَ دائِه، فإذا آفتتَح بحمد الله أثنىٰ عليـه بوادّ علمه
حقَّ ثَنائه، ونزَّهه بمـا ينبغى لسُبُحات وجْهِه وجلالِ قُدْسه وتقدُّس أسمائِه، وأثنىٰ
كما يجبُ علىٰ نبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومَنْ بعـدَه من الرُّسلِ تحتَ لِوائه،
وإذا تُلِيتْ علىٰ خيلِ الله خُطبتُه تشوّقَتْ بلقاءِ أعداء الله إلىٰ لقائِه، وخَطبتِ الجنانَ
من بذْل نُفوسِها ونفائسِها بمـا أفْنَتْه فى سبيل الله لآتِّقائه .

نحمدُه علىٰ أن جعَلَنا لذِكْره مستَمعين، ولأمْره ونَهْيه متَّبِعين ، وعلىٰ حَمْده فى كل
ملإٍ من الأولياءِ مجتَمِعين .

ونشهدُ أن لا إِلٰهَ إِلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال تختالُ بذِكْرها أعطافُ
المَنَابر، وتتَعَطَّر ألسِـنةُ الأقلام بمـا تنْقُله منها عن أفْواه المَحَـابر، ونشهدُ أنّ محمّدًا
عبدُه ورسولُه الذى هَدى اللهُ مَنْ تقـدّم من الأمة بخُبْره ومن تأخّر بخَبَره ، وجعل
روضةً من رياض الجنة بين قَبْره ومِنْبَرِه، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم

أوّلُ من عُقِدتْ بهم من الجُمَع صلواتُها، وأكرمُ مَن زُهِيت به من الجهاد والمَنَابر صَهَواتُها؛ صلاةً لا نزال نُقيمها عند كلّ مسْجد، ونُديمها فى كلّ مُتْهِم فى الآفاق ومُنْجِد، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ المنابرِ أن يُرتادَ له من أئمة العلماء عَلّامةُ عَصْره، ورُحلةُ مِصْره؛ وإمامُ وقْته الذى يَصْدَع بالحق وإن صَدَع، وعالمُ زمانه الذى يقُوم فى كل مَقَام بمـا يُناسِبه مما يأخُذ فى الموعظةِ الحسنةِ وما يَدَع، مِنْبرٌ نُذَكِّر بآلاء الله علىٰ أعوادِه وإن لم نَزَلْ لها من الذَّاكرين، ونُنَبِّه فيه علىٰ شُكر الله بالرأفة علىٰ خَلْقه وإن لم نَبْرَح لها بذٰلك وغيرِه من الشاكرين، ونُشَوِّق عليه إلىٰ الجهاد فى سبيل الله بما أعدّ اللهُ لنا علىٰ ذٰلك من النصْر والأجْرِ وإنْ كُنَّا علىٰ الأبَدِ إليه مُبادِرين، وإلىٰ إقامةِ دَعْوة الحق به مُبَاكرين .

ولـما كان فلان هو الذى تعَيَّن لرُقِيّ هذه الرتبةِ نخُطبَ لخَطَابتها، وتبَيَّن أنه كُفْؤُهَا الذى تتشَوّقُ النُّفوس إلىٰ مواعظه فترْغَبُ فى إطالتهـا لإطابَتِها ــ اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نحَلِّى بفضائله أعطافَ هذا المِنْبر الكريم، وأن نختَصّ نحن وأولياؤُنا بسَمَاعِ مواعظِه التى تُرَغِّب فيما عندَ الله بجهادِ أعداء الله ﴿ واللهُ عِنْدَهُ أجرٌ عظيم ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يُطْلِعُ فى أُفُق المنابر من الأولياء شمسًا مُنيره، ويُقيم شعائرَ الدين من الأئمة الأعلام بكُلِّ مُشْرِق العَلَانِيَة طاهِرِ السَّريره ــ أن يفوّضَ إليه كذا : فلْيحُلَّ هذه الرتبـةَ التى لم تُقَرَّب لغيره جيادُها، ويُحَـلِّ هذه العقيلةَ التى لا تُزَان بسِوى العلم والعمل أجيادُها، ويَرْقَ هـذه الهَضْبةَ التى يطُول إلّا علىٰ مِثْله صُعُودُها، ويَلْقَ تلك العصبة التى تجتمع للأولياء به (؟) حُشودها. وهو يعلم أنّه فى موْقفِ الإبلاغ عن الله لعِباده، والإعلام بمـا أعدّ اللهُ فى دار كرامتِه لمَنْ

جاهد فى الله حقَّ جِهاده ، والإنذارِ لمن قصَّر فى إعْدادِ الأهْبة ليوم معَاده ؛ وهو بمَحْضَر من حُمَاة الإسلام ، ومَشْهَدٍ ممن قلَّدْناه أمرَ أمَّة سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ فليَقْصُر خُطَبه علىٰ طاعةٍ لله يحُضُّ عليها ، وعَزْمةٍ فى سبيل الله يُشَوِّق إليها ، ومعْدَلة يصفُ ماأعدّ اللهُ لوُلاة أمرٍ قدَّمتْها بين يدَيْها ؛ وتوبةٍ يبعثُ الهِمَمَ علىٰ تعجيلها ، وأوقاتٍ مَكْرُمة ينَبِّه الأمم علىٰ احترامها بتقوىٰ الله وتبجيلها ؛ ودُنْيَا يُنْذِر من خِدَاعها ، ويبيِّن للمُغْتَرِّ بها ماعُرِف من خلائقها المذمومة وأُلِف من طِبَاعها ؛ وأُخرىٰ يوضِّح للمُعْرِض عنها وَشْك قُدُومها ، ويحذِّر المقصِّر فى طِلَابها من عذَابها ويبَشِّر المشَمِّر لها بنَعِيمها . وليعلَمْ أنَّ الموعظة إذا خرجَتْ من الألسنَة لم تَعْدُ الأسماع ، ولم يُحصَلْ منها علىٰ غير تعَقُّل القرائن والأسْجاع ؛ وإذا خرجَتْ من القلوب وقعَت فى مِثْلها ، وأثمرت فى الحال بالمحافظة علىٰ فَرْض الطاعة ونفْلها ؛ وسكَنَتْ فى السرائر طِباعَ طاعةٍ تأبىٰ علىٰ مُحاوِب نَقْلها ، وقدحَتْ[1] فى البصائر من أنواع المعْرفة ما لم يُعْهَد من قَبْلها . وليجعَلْ خُطَبه فى كل وقتٍ مناسبةً لأحوال مستَمعيها ، متناسبةً فى وضُوح المقاصد بينَ إدْراك مَنْ يَعِى غوامِضَ الكلام ومَنْ لا يَعِيها ؛ فخيرُ الكلام ما قَلّ ودَلّ ، وإذا كان قِصَرُ خطبة الرجُل وطُول صلاته منبئين عن فقهه فما قصَّر مَنْ حافظَ علىٰ ذٰلك ولا أخَلّ ؛ وليُوشِّح خُطَبه من الدعاء لنا وللمسلمين بما يُرجىٰ أن يوافِقَ ساعةَ الإجابه ، وإذا توخَّى الغرضَ بدعائه لعُمُوم الأمة فقد تعيَّنَتْ ـ إن شاء الله ـ الإصابَة ؛ وهذه الوصايَا علىٰ سبيل الذِّكْرى التى تنفَع المؤمنين ، وترفَعُ المحسنين ، واللهتعالىٰ يجعله ـ وقد فعل ـ من أوليائه المتقين ؛ بمنِّه وكرمه ! ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله وقذفت .

⁂

وهذه وصية خطيب أوردها فى "التعريف" :

ولْيرقَ هــذه الرُّتْبة التى رُفعتْ له ذُرا أعوادهــا ، وَقُدِّمتْ له من المنابر مُقرَّباتُ جِيادِها ؛ وليصْعَدْ منها علىٰ أعلىٰ دَرَجه ، وليَسْعدْ منها بصَهْوةٍ كأنما كانتْ له من بُكْرة يومــه المُشْرِق مُسْرَجه ؛ ولــيَرْعَ حقَّ هــذه الرتبة الشريفــه ، والذِّروة التى ماأُعِدّت إلّا لإمامٍ فردٍ مثلِه أو خليفه ؛ وليقِفْ حيثُ تخْفُقُ علىٰ رأســه الأعلامُ ، ويتكَلَّمْ فتخرَس الألســنة وتَجِفُّ فى فَمِ الذُّرَا الأقلام ، ولْيَقرَعِ المســامعَ بالوعْــد والوعيــد ، ويُذَكِّرْ بأيام الله مَنْ ﴿كان له قَلْبٌ أوْ ألْقَى السَّــمْعَ وهُو شَــهِيد﴾ . ويُلَيِّن القلوبَ القاسيةَ وإن كان منها ما هو أشدُّ قَسْوةً من الحجارة والحديد ؛ ولْيَكُنْ قد قدّم لنَفْسه قبل أن يتقدّم ، وليُسْــبِلْ عليه دِرْعَ التوبة قبل أن يتكَلَّمْ ، وليجعَلْ لكل مَقامٍ مَقالا يقُوم به علىٰ رءُوس الأشهاد ، ويفَوِّقْ منه سَهْما لايُخْطِئ موقعُه كلَّ فؤاد ؛ وليَقُمْ فى المحراب مَقام من يخشىٰ ربَّه ، ويخافُ أن يَخْطَف الوجَلُ قلبَــه ؛ وليعلم أنَّ صدَفةَ ذٰلك المحراب ما انفلقَتْ عن مثل دُرّته المكْنُونه ، وصناديقَ الصُّــدُور ما أُطْبِقَتْ علىٰ مثل جوْهَرته المخزُونه ؛ وليؤمَّ بذٰلك الجمِّ الغَفير ، وليتقدّم بين أيديهم فإنّه السَّــفِير ؛ وليؤدِّ هذه الفريضــةَ التى هى من أعظَم الأركان ، وأوّلِ الأعمــال التى تُوضَع فى الميزان ، وأقربِ القُرَب التى يَجْمَــع إليها داعِى كلِّ أذان ؛ وليُقِمْ بالصلاة فى أوقاتِها ، وليُرِحْ بها الناسَ فى أوّل مِيقاتِها ؛ وليَخَفِّف مع الإتمام ، وليتحَمَّل عمَّن وراءَه فإنه هو الإمام ؛ وعليــه بالتقْوىٰ فى عَقْد كل نِيَّه ، وأمامَ كلِّ قضيَّه ؛ والله تعالىٰ يجعَله ممن ينقَلِبُ إلىٰ أهله وهو مسْرُور ، ويُنَصَبُ له مع الأئمة المُقْسِطين يوم القيامة عن يمين الرحمن منابِرُ من نُور ؛ بمنّه وكرمه .

الوظيفــــة السادسة

(الإمامة بالجوامع، والمساجد، والمَدَارس الكِبَار التى تصـدُر التوليةُ عن السـلطان فى مثلهـا)

وهـــذه نسخة توقيـــع بالإمامة :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى جعلت أيَّامنا الشريفةَ تزيدُ أهلَ الفضائل إكراما، وتخُص بالسيادة والتقديم من أنشَاه الله تعالىٰ قُرَّةَ أعيُنٍ وجعــله للمتَّقِين إماما، وقدّمه علىٰ أهل الطاعة الذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّدا وقِياما .

والشَّهادة له بالوحدانيَّة التى تكسُو مُخْلِصَها جَلَالا وسَّاما ؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى أمَّ النــاسَ وعلَّمهم الصلاةَ وأظهر فى إقامة الدِّين مقالا محمُودا ومقامًا ، وعلىٰ آله وصحبــه الذين تمسَّكوا بسُنَّته توثُّقــا وآعتصاما ــ فإنَّ خير الرتَب فى هذا العصر وفيما تقدّم، رُتبةُ الإمامة حيثُ تقدّم سيدُ البَشَر فى مِحْرابها علىٰ الأمة وأمّ؛ فاختارها من آتّبع الطريقَ المحمديَّة وشَرْعها، وعلم سَناءَها ورَفْعها؛ فزاد بذٰلك سُمُوّا إلىٰ سموّه، وحصل علىٰ تَضاعُف الأجر ونُموّه؛ وهو فلان .

رسم ــ لا زالت أيامه الشريفةُ تَشْمَل ذَوِى الأصالة والصَّدارة بجزيل فَضْلِها ، وعوائدُ إنعامه تجرى بإتمــام المعروف فتُبقِى الرتَبَ الدينيَّةَ بيدِ مســتحِقِّها وتسارع إلىٰ تخليد النعم عند أهلها ــ أن يستمرَّ فلان فى كذا جاريًا فيه علىٰ أجمل العادَات ، إعانةً له علىٰ آكتسابِ الأجُور بمــا يعتمده من تأهيــل مَعْهَــد العبادات؛ ورعايةً لتكثير المَبَارّ ، وترجيحًا لمــا آشتمل عليــه من حُسْن النظر فى كل إيراد وإصْــدار ، وتوفيرًا للمَنَاجح التى عُرِفت من بيته الذى كَمْ أُلِفَ منه فعلٌ جميل وعَمَلٌ بارّ ، ووُثوقًا

بأنه يعتَمِد فى عمـارة مساجِد الله سـبحانه وتعالىٰ أنه تَشْهَد به الملائكةُ المتعاقِبُون بالليل والنهار، والله تعالىٰ يجعل النِّعم عنده مؤبَّدة الاستقرار، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــــة السابعة

(التدريس، وموضُوعه إلقاءُ المسائل العلمية للطَّلَبَة)

وهــذه نسخة توقيــع بتدريس كُتِب به للقـاضى عزّ الدين ابن قاضى القُضاة بَدْرِ الدِّين بن جَماعةَ ، عوضًا عن والده ، فى جُمادىٰ الآخرة سـنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله مُتِمِّ فَضْله علىٰ كُلِّ أحد ، ومُقِرّ النِّعمة علىٰ كلِّ والد وولَد ؛ الذى خَصَّ أولياءَنا ببُلُوغ الغايات فى أقْرَب المُدَد ، واستصحابِ المعروف فما يُنْزَع منهم خاتَمٌ من يَدٍ إلّا لِيَد .

نحمدُه بأفضل ما يحمَدُه به مَنْ حَمِد ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً باقيــةً علىٰ الأَبد ؛ ونُصلى علىٰ سـيدنا محمد نبيِّه الذى جعــل شريعتَه واضحةَ الجَدَد ، قائمةً بأعلام العلمــاء قِيامَ الأَمَد ؛ صلىّٰ الله عليــه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين شَبَّهم فى الهُدى بالنُّجوم وهُمْ مثلُها فى كَثْرة العَدَد، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ نِعَمَنا الشريفةَ لا تَتَحوّل ، ومواهِبَنا الجزيلة ... ... تَخَوّل[1]، وكرمَنَا يُمهِّد منــازِلَ السُّعود لكل بدْرٍ يتنقَّل ؛ وشِيَمَنَا الشريفةَ ترعىٰ الذِّمَمَ لكلِّ من أنفق عُمْرَه فى ولائها ، وتحفَظ مالهَـا من المآثِرِ القديمةِ بإبقائها فى نُجَباء أبنائها ؛ مع ما نُلاحِظُه فى استحقاقِ التقديم، وانتخاب مَنْ ترقَّىٰ منهم بين العِلْمِ والتعليم؛ وحَصَّل

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تخوّل . وفى اللسان "التخول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العِلمَ الكثير، واستمدّ من نُور والده وهو البَدْر المُنير، وعُلم بأنّه فى الفضائل سرُّ أبيه الذى شاع، وخليفتُه الذى لو لم يَنُصَّ عليه لما آنعقد [إلا] عليه الإجماع ، والواحدُ الذى ساد فى رُتْبة ابيه وما خلَتْ من مثله ــ لا أخلىٰ اللهُ منه البِقَاع ! .

وكان المجلس السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، هو المرادَ بما قدّمنا من صفاته الجميله ، وتوسَّمْنا أنه لَمْعةُ البَدْر وهى لاتخفىٰ لأنها لا تَرُدُّ العُيونَ كَلِيله ؛ ورأىٰ والدُه المشارُ إليه من آستحقاقه ما آقتضىٰ أن يُنَوِّه بذكره ، ويُنَبِّه علىٰ المعرفة بحقِّ قَدْره ، فآثرَ النُّزُول له عمّا باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصرَ المحروسة ليقُوم مَقامَه ، ويُقَرِّر فوائدَه ويَنْشُر أعلامَه ، ويَعْلم أنه قد حلَّق فى العلياء حتّى لَحَق البَدْرَ وبلغ تَمامه ؛ فعلِمْنا أنَّ البركةَ فيما أشار ، وأنَّ اليُمْنَ بحمد الله فيما رجَّحه من الآختيار .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ زاد الله فى شَرَفه، وجعل أقطارَ الأرض فى تصرُّفه ــ أن يُرتَّب فى هذا التدريس عوضًا عن والده ، أطال الله بقاءَه علىٰ عادته وقاعدته إلىٰ آخر وقتٍ لأنه أحقُّ من آستحق قدْرُه الرفيعُ التميز، وأولىٰ بمِصْرَ ممن سواه لما عرَفَت به مصر من العزيز ثم من عَبْد العزيز .

ونحن نُوصيك أيُّها العالِم ــ وفَّقك الله ــ بالمُداومة علىٰ ما أنت بصَدَده، والمذاكرة للعلم فإنَّك لاتُكاثِرُ العُلَماء إلا بمَدَده؛ والعملِ بتقوىٰ الله تعالىٰ فى كل قَصْد وتَصْدير، وتَقْريب وتقرير، وتأثيلٍ وتأْثير، وتقليل وتكثير، ونصٍّ وتأويل، وترتيبٍ وتَرْتيل؛ وفى كل ماتَزْدادُ به رفعتُك، وتطيرُ به سُمْعتُك؛ ويحسُنُ به الثناءُ علىٰ دِينك المتين ، ويقومُ به الدليلُ علىٰ ما وضَح من فَضْلك المبين .

وآعلم بأنك قد أدركتَ بحمد الله تعالىٰ و بكرمنا و بأبيك و باستحقاقك ما آرتدّ به كثيرٌ عن مَقَامك ، ووصلتَ فى البِداية إلىٰ المَشيخة فى زاويةِ إمامك ؛ فاعمل فى إفادةِ الطَّلَبة بما يرفَعُ الرافعىُّ لك به الرايه ، و يأتمُّ بك إمامُ الحرمين فى النِّهايه ؛ فقد أمسيتَ جارَ البحر فاستخرِج جُمَانَه ، وآجتهد لتُصيب فى فَتاويك فإنَّ أوَّليك سِهَام رميُها من كِنَانه ؛ وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ بمقتضاه والآعتماد (١)



وهــذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعىّ بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولىٰ زَيْن‌الدين بن الخَضِر مُوقِّع الدَّسْت ، كُتِب به لتاج‌الدين محمد الإخنائى شاهدِ خِزَانة الخاص ، بالنِّيابة عن عمِّــه قاضى القضاة تقىِّ الدين المــالكىّ فى أيام حياته ، مستقِلًّا بعدَ وَفاته ، وهى :

أما بعدَ حمْدا لله علىٰ أنْ زانَ مجالِسَ المَدَارس فى أيَّامنا الشريفة بتاجها ، وأقرَّبها من ذَوِى الإنابة من يستَحِقُّ النيــابةَ عن تقِىّ قوَّى الأحكام بإحكامها و إنتاجها ، ورفع قدرَ بيتٍ مباركٍ طالمــا آشتَهر علَمُ عِلْمه وصدَر عن صَدْره فكان مادّةَ مَسَرّة النفس وآبتهاجها ، وجعل عوارِفَنا ترعىٰ الذُّرِّيَّة الصالحــةَ فى عَقِبها وتُولِّى كلَّ رُتْبــة مَنْ أضحىٰ لأهلها بوَجَاهته مُواجِها ؛ والشهادةِ له بالوَحْدانيَّة التى تَنْفِى شِرْكَ الطائفة الكافرةِ ومَعْلُولَ آحتجاجها ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى آستقامتْ به أمورُ هذه الأمة بعد آعْوِجَاجها ، وتشرَّفتْ به علمــاؤُها حتَّى صارتْ كأنبياء بنى إسراءيلَ بحُسْن آستنباطِها للجُمَل و جميــلِ آستخراجِها ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عِلمُوا وعَمِلوا وأوضَحُوا لهذه المِــلَّة قويمَ مِنْهاجِها ــ فإنَّ أوْلَى الأوليــاء ببُلوغ الأمَل ، وتعاهُــد

(١) أى الى آخر ما يقال فى مثله .

مدارس العلم بصالح العمل ؛ وإظهار سر الفوائد للطالبين ، وحل عقود مشكلها بجميل الاطلاع وحسن اليقين ، من حوى معرفة الفروع والأصول ، وحاز من مذهبه المذهب خير محصول ؛ ونشأ فى حجر الفضائل ، واقتدى بحكام بيته الذين لهم فى العلوم بمصر والشام أوضح البراهين وأقوى الدلائل ؛ وله فى الآباء والأبوة ، الديانة التى بلغ بها من الإقبال مرجوه ؛ طالما سارت أحكام عمه ـ أجله الله ـ فى الأقطار ، وحكم فأبدى الحكم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العفاف والتقى والمآثر الجميلة وجميل الآثار ؛ والفتاوى التى أوضح بها مشكلا ، وفتح مقفلا ، والفصل بين الخصوم بالحق المجتلى ؛ والبركة التى لدولتنا الشريفة منها نصيب وافر ، والتصميم الذى اقترن بغزارة العلم والوقار الظاهر ؛ فهو ـ أعز الله أحكامه ـ من العلماء العاملين ، وله البشرى بما قاله أصدق القائلين ؛ فى النبإ الذى تتم به الزيادة والنماء :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

ولما كان المجلس السامى هو الذى استوجب التصدير لإلقاء الدروس ، وأضحى مالكيا مالكا أزمة الفضائل حائزا من أثوابها أنخر ملبوس ؛ وله بخزانة خاصنا الشريف وإصطبلاته السعيدة الشهادة البينه ، والكتابة التى هى العز الحاضر فلا يحتاج معها إلى إقامة بينه ، والكفالة التى نطقت بها الأفواه مسرة ومعلنه ، والأمانة التى حذا فيها حذو أبيه واتبع سننه .

فلذلك رسم ـ لا زال يديم النعم لأهلها ، ويبقى المراتب الدينية لمن أضحى محله مناسبا لمحلها ، أن يستقر ... ...(1) فلينب عن عمه فى هذا التدريس ، وليقف ما يسر النفوس من أثره النفيس ؛ وليفد الطلبة على عادته ، وليبد لهم من

(1) بياض بالأصل ومراده فى تدريس زاوية الشافعى الخ .

النُّقول مايُظْهِر غزيرَ مادَّته ؛ وليستنبِط المسائِل ، وليُجِبْ بالأدلَّة المُسائل ؛ وليرَجِّح المَباحِث ، وليكن لوالده ـ رحمه الله ـ أحَقَّ وارث ؛ وليستقِلَّ بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالىٰ ، وليتزيَّد من العلوم ليبْلُغ من صدَقَاتنا الشريفة آمالًا ، والله تعالىٰ يسدِّدُ له بالتقوىٰ أقوالًا وأفعالا ، بمنِّه وكرمه .



وهـذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسـةِ الصَّلَاحيَّة المجاورةِ لتُرْبة الإمام الشافعىّ رضى الله عنـه ، كُتِب به لقاضى القُضاة تقِىِّ الدين ، ٱبن قاضى القُضاة تاج الدِّين ٱبن بِنْت الأعزّ . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمدُ لله شافِى عِىّ البَحْث بخيرِ إمامٍ شافِعِىّ ، والآتى منه فى الزَّمَن الأخير بمن لو كان فى الصَّدْر الأوّل لأثنىٰ علىٰ وَرَعه ودينِه كلُّ صحابِىّ وتابِعِىّ ، ومُفيد الأسماع من وَجِيزِ قولِه المحرَّر ما لولا السبقُ لمـا عَدَل إلىٰ شرح وجيزٍ سواه الرافِعىّ .

نحمده علىٰ نِعَمٍ ألهَمَتْ وضْعَ الأشـياء فى محلِّها ، وٱستيداعَها عند أهلِها ، وتأَتِّيها بمـا يزيل الإشكال بانجذابِ مَنْ شكْلُه مناسبٌ لشكْلها .

ونشهد أن لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتزيَّن بها المَقَال ، ويتَبَيَّن بهـا الحقُّ من الضَّـلال ؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسوله ونبيُّـه موَضِّحُ الطُّرُق إلىٰ الحق المبين ، وناهِجُها إلىٰ حيث مجتَمعُ الهدىٰ ومرتَبَع الدِّين ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَهْدى إلىٰ صراط الَّذين ، ورضى الله عن أصحابِه الذين منهم مَنْ جاءَ بالصِّدْق وصَدَّق به فقوِىَ سببُ الدين المتين ، ومنهم من فَرَق بين الحق والباطل وكان إمامَ المتقين وسُمِّىَ أميرَ المؤمنين ، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة فثبَّت جأْشَ المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلّى الله عليه وسلم الرايةَ فأخذَها منه باليمين ، ورضى الله عن بقيّة الصحابة أجمعين .

وبعدُ، فلما كان مذْهَب الإمام الشافعى «محمد بن إدريس» رضى الله عنه هو شُهْدة المتلفظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبَهْجةُ المتلحِّظ ؛ وطرازُ مَلْبَس الهدىٰ، وميدانُ الاجتهاد الذى لاتقفُ أعنَّـة جِياده عن إدراك المَـدَىٰ؛ وقد تجملتْ ديارُ مصر من بركة صاحبه بمن تُشَـدّ إليه الرِّحال، وتفْخَرُ جَبَّانة هو فيها حالّ ، وجِيدٌ هو بجواهر عُلُومه حالٍ ؛ ومن يَحْسُن إلىٰ ضريحِه المُنِيف الاستناد ، وإذا قُرِئَتْ كُتُبه لدَيْه قيل ما أبعَدَ هذا المَرْمىٰ الأسنىٰ! وما أقْربَ هذا الإسْناد! ؛وما أسْعدَ حَلْقةً تُجْمع بين يدىْ جَدَثه يتصدَّر فيها أجلُّ حَبْر، ويتصدَّىٰ لنشْر العلوم بها من عُرِف بحُسْن السِّيرة عند السَّبْر، ومَنْ لولا خَرْقُ العوائد لأجاب بالشُّـكر والثناء عليه صاحبُ ذٰلك القَبْر كما قال: «قال صاحب هذا القبر» ــ حَسُن بهذه المناسبة أن لاينتَصِبَ فى هذا المَنْصب إلا من يَحْمَـدُ هذا السيدُ الإمامُ جِوَاره ، ومَن يُرْضِيه منه ــ رضى الله عنه ــ حُسْنُ العِباره، ومن يستحِقُّ أن يتصدّر بين نُجوم العلماء بِدارةِ تلك الخِطَّة فيقال قد جمَّل الله به دارةَ هذا البدر وعَمَّر به من هذا المدرِّس دارَه؛ الذى يفتقِر إلىٰ تنويل نِعَمه، وتنويه قَلَمـه ، من الأئمة كلُّ غنِى؛ ويُعجَب ببلاغة خُطَبه، وصِـيَاغة كُتُبه، من يَجْتَـلِى ومن يجتَنِى ؛ ومن يَهْنَا المستفيدُون من عذُوبة ألفاظه وصفاءِ معانيه بالمَوْرِد الهنِى ، ومَنْ إذا سَحَّ سَحابهُ الهَطَّالُ اعترفَ له بالهُمُوّ والهمُول المزنى ؛ والذى لسَـعْد جَدّه من أبيه ليث أكرِمْ به من لَيْث وأكرم ببنِيه من أشبال! ، وأعزِزْ به من فاتح أبوابِ إشكالاتٍ عَجَزَ عن فتْحها القفَّال! ؛ ومن إذا قال سكتَ الناس ، ومن إذا قام قَعَد كلُّ ذى شِمَاس، وإذا أخذ بالنصِّ ذَهَب الاقْتِياس ، وإذا قاس قيل هذا بحرُ المَذْهب المشارُ إليـه بالأصابع فى مِصْره جلالةً ولا يُنْـكَر لبحر المصْر الإشارةُ

بالأصابع ولا القِياس ؛ ومن يزهو بتقىٰ قلبه ورُقىٰ جَوَابه لسانُ التعويل ولسان التعويذ ، كما يَمِيس بإحاطته وحِياطته قَـلَمُ الفتوىٰ وقلَمَ التنفيـذ ، ومن يَفْخَر [به] كلُّ عالم مفيـدٍ إذا قال : أنا بين يَدَيْه طالبٌ وأنا له تلْميـذ ؛ ومَنْ حيثُما ٱلتفتَّ وجدتَ له سُؤْدَدا جَمّـا ، وكيْفَما نظرتَ رأيتَ له من هُنا وِزارةً ، ومن هُنا خَطابةً ، ومن هُنا مشيخةً ، ومن هنا تدريسا ، ومن هُنا حُكْما !!!! ؛ فهو الأصلُ ومَنْ سِواه فُرُوع ، وهم الأثمادُ وهو اليَنْبُوع ؛ وهو مجُموع السياده ، المختارُ منه الإفاده ، فمـا أحسَنَه من ٱختيار وما أتمَّه من مجموع ، وكان قاضى القُضاة ، سيِّد العلماء ، رئيسُ الأصحاب ، مقتَدَى الفِرَق ، قُدوةُ الطوائف ، الصاحب تَقِيّ الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضى القُضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شَرَفه ، ورَحِم سلَفَه ، هو منتهىٰ رغبةِ الراغب ، ومُشْتهىٰ مُنْية الطالب ؛ ومَنْ إذا أضاءت ليالِى النُّفُوس بأقمار فَتاوِيه قيل (بياضُ العَطَايا فى سَـوَاد المَطَالب) ، ومن نتَّفِق الآراء علىٰ أنه لِسِنِّ الكُهُولة شـيخُ المَذَاهب ؛ ومَـنْ عليه يَحْسُن الاتفاق ، وبه يجمُل الوِفَاق ، وإذا وَلِىَ هذا المنصِبَ ٱبتهج بولَايتـه إيَّاه مالك فى المدينـةِ وأبو حنيفةَ وأحمـدُ رضى الله عنهم فى العِرَاق ؛ وٱهتَزَّتْ به وبمجاورة فوائده من ضريح إمامِه جوانبُ ذٰلك القَبْر طَرَبا ، وقالت "الأُمُّ" لقد أبهجتَ ـ رحم الله سلفَك ـ بجِدِّك وإبائك جِدًّا وأبا ، ولقد ٱستحقَّيْت أن يقول لك منصبُ سلَفِك رضى الله عنهم : أهْلًا وسَهْلا ومَرْحَبـا ، وهذه نَسَماتُ صَبًا ، كانتِ الإفادةُ هُنالك تَعرِفُها منك من الصِّبا .

فالحمـد لله علىٰ أن أعطىٰ قَوْسَ ذٰلك المحراب بارِيها ، وخصَّ بشَـقِّ سهامِها من لا يزال سعده مُبارِيها ، وجمَّل مطلَع تلك السماء ببدرٍ كم باتتْ [عليه] الدُّرر تحسُـد دَرَارِيها ؛ وألهَمَ حسنَ الاختيار أن يجرى القلَمُ بمـا يحسُن بالتوقيع الشريف موقعُه ، ويجملُ فى أثناء الطروس وضعُه وموضعُه .

فرُسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ : ـ أجْراه الله بالصواب ، وكشف بارْتِيَــائه كلَّ آرْتِياب ، ولا زال يختــارُ وينتقى للمنـاصب الدِّينيَّة كلَّ عالِمٍ بأحكام السُّــنَّة والكتاب ـ أن يفوّض إليه تدريسُ المدرســة الصلاحيَّة الناصريَّة المجـاورة لضريح الإمام الشــافعىّ بالقرافة رضى الله عنــه . فليُخَوِّل وليُنوِّل كلَّ ذى استفاده، وليجَمِّلْ منه بذلك العِقْد الثمين من علماء الدِّين بأنْجُمٍ واسطةٍ تَفْخَرُ بها تلك القِلاده؛ وليذْكُر من الدروس مايُبْهِج الأسماع، ويُرْضِى الآنتجاع، ويُجادُ به الآنتفاع ، ويَجْتَلِبُــه من أخلاف الفوائد آرتضــاءُ الآرتضاع ، ويتنــاقل الرُّواةُ فوائدَه إلىٰ علمــاء كل أُفُق من البِقَــاع ؛ ولْيَقُلْ فإنَّ الأسمــاعَ لفوائده مُنْصِــته، والأصواتَ لَمبَــاحثه خاشــعةٌ والقلوبَ لَمهَابته مُخْبِته ؛ ولْيُنْهِض قوىَّ المسائل بمــا يحصِّل لهــا أعظَمَ انتِعاش، ولْيُمِتْ ماأماته إمامُه من البِدَع فيُقال به له : هذا محمدُ آبنُ إدريسَ مُذْ قُمْتَ أنتَ عاش؛ ولْيُسْمِع بعلومه مَنْ به من الجهل صَمَم، وليستَنْطِق مَنْ به من الفَهَاهة بَكَم، ولُيحقِّق عند الناس بتَعَصُّبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآنَ الحاكُمُ آبنُ الحاكم أُخُو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عَبْد الحَكَم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا فهو بحمــد الله صاحبُ إلهــامِها ، وجالبُ أقْسامِها ؛ وجُهَينة أخبارِها، ومَطْلَع أنوارِها ؛ فلا يُعاد، عليه ما منه يُستفاد ، ولا يُنْثَر عليه دُرّ هو منظِّمُه فى الأجياد؛ والله تعالىٰ يُعَمِّر بسيادته معالمَ الدين وأ كنافَه، ويزيِّن بفضله المتينِ أوساطَ كلِّ مصر وأطرَافَه، ويُضيف إليــه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشُهُ خَفْضا بتلك الإضافَهْ ، ويجعله لا يُخصِّص حُنوّه بَمْعَهد دُونَ مَعْهَد ولا بمسافةٍ دُون مَسافَه، ويُبْقِيه ومنفعتَه إلىٰ ساريةٍ سارية الإطافة واللَّطافه، وألطافَه بهذه الولاية تقول لكلِّ طالبٍ فى القَرَافة التى رافه .

قلت : ولما تُوفّى قاضى القضاة بدرُ الدين بنُ أبى البقاء ـ تغمده الله تعالىٰ برحمته ـ وكان من جملة وظائفه تدريسُ هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلىٰ الشام فى بعض الحَرَكات ، فسافر ٱبنُه أقضىٰ القضاة جلالُ الدين حتّى أدرك السلطانَ بالطريق ، علىٰ القُرب من غَزَّة ، فولّاه الوظيفةَ المذكورةَ مكانَ أبيه ؛ وكان القاضى نورُ الدين بنُ هلال الدولة الدِّمَشقىّ حاضرًا هُناك ، فأشار إليه القاضى فتحُ الدين فَتْح الله كاتبُ السر الشريف ـ عامله الله بلطفه الخفىّ ـ بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سَجْعتين ، هما :

الحمدُ لله الذى أظهَر جلالَ العلماء الشافعية بحضْرةِ إمامهم ، وأقام ساداتِ الأبناء مقامَ آبائهم فى بثّ علومهم وصلاتِهم وصِيامِهم . ولم يجاوز ذلك إلىٰ غيره ، فسُطِّر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلِّم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نُور الدين بن هلال الدولة للقاضى جلال الدِّين المذكور : إنَّ هذا التوقيعَ يبقىٰ أبيضَ : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملته علىٰ هذا الأُسلوب . فسمع القاضى كاتبُ السرّ كلامَه ، فكتبَ لِى بتكملتــه علىٰ ظَهْره ، وعاد به القاضى جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرنى بكلامِ ٱبن هلالِ الدولة وما كان من قوله ، فتلكَّأْت عن ذٰلك ، ثم لم أَجِدْ بُدّا من إكماله وإن لم أَكُنْ من فُرْسان هذا المَيْدان ، فأنشأْت له علىٰ تينك السجعتين ما أكملته به ، فجاء منه تِلْوَ السجعتين السابقتين اللتين أنشاهما ٱبن هلال الدولة :

وخصَّ برياسة العلم أهلَ بيتٍ رأتْ كُهولُهم فى اليَقظة ما يتمنّىٰ شُيوخُ العلماء أن لو رأَوْه فى مَنامهم .

وجاء من وسطه :

آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُنَوّه بذكره، ونقدّمه علىٰ غيره ممّن رام هذا المَقامَ فحُجِب دُونَه ﴿والله غالبٌ علىٰ أمْرِه﴾ .

وجاء فى آخره :

والله تعالىٰ يرقّيه إلىٰ أرفع الذُّرا، وهذه الرتبةُ وإن كانت بِدايتَه فهى نهايةُ غيره (وإنّا لنَرجو فوقَ ذٰلكَ مَظْهرا) .

وقد أعوَزَنى وِجْدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَيَاع مُسْودّتها ولم يحضُرْنى منها غيرُ ماذكرتُه . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضى تقيّ الدين ابن بنت الأعز مالا ينظَر مع وُجوده إلىٰ غيره .

⁂

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصّة بالمالكية، المعروفة بالقَمْحية، بمصر المحروسة، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين الأَقْفَهسى، وهى :

الحمدُ لله الذى زيّن معالمَ المدارس من أعلام العُلماء بجَمالها، وميّز مراتبَ الكَمَلة بإجراء سَوابِق الأفكارِ فى مَيادِين الدُّروس وفَسِيح مَجَالها، وعَمّر معاهدَ العلم بأجلّ عالم إذا ذُكرت وقائعُ المناظَرة كان رأسَ فُرْسانها ورَيّس رجالها، وناط مقاصدَ صَلَاح الدين بأكمل حَبْر إذا أُورِدتْ مناقِبهُ المأثورةُ تمسّك أهلُ الدِّيانة منها بوثِيق حِبَالها .

نحمَدُه على آختيار الجوهر والإعراض عن العَرَض ، والتوفيق لإدراك المَرَامى وإصابة الغَرَض .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له الذى خصَّ أهلَ العلم بكريم حِبَائه، وشرَّف مَقامَهُم فى الخليقة بجَعلهم فى حَمْل الشريعة ورَثةَ أنبيائه؛ شهادةً تُعْذِبُ لقائلها بحُسْن الإيراد وِرْدا، وتُجدِّد لمنتحِلها بمواطن الذِّكر عَهْدا فيتَّخذ بها عند الرحمٰن عَهْدا؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ عَلِم وعلَّمَ، وأكرمُ رسولٍ فصَّل الأحكامَ إذ شَرَع ونَدَب وأوجبَ وحلَّل وحَرَّم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُنُوا بتفسير كتاب الله تعالىٰ فأدركوا دقيقَ مَعانيه، وآهتمُّوا بالحديث رِوَايةً ودِرَايةً ففازُوا بتأسيس فِقْه الدِّين وإقامة مَبانيه؛ صلاةً تُحيط من بحار العلم بزاخِرها، وتأخُذ من الدُّروس بطرَفَيها فتقارِنُ الحمدَ فى أوّلها وتصْحَب الدعاء فى آخرها، ما تُتُبِّع بالمنقول مواقِعَ الأثَر، وعُوِّل فى المعْقُول علىٰ إجالة الفِكْر وإجادةِ النَّظَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أولىٰ ماصَرفت النفوسُ إليه هِمَمَها، وأخلصتْ فيه نِيَّتَها وخلَّصتْ من تَبِعاته ذِمَمَها؛ وتَبِعتْ فيه آثارَ من سلَف من الملوك الكِرام، وأعارتْه كُلِّيَّ نظرِها وقامتْ بواجبه حقَّ القِيام ــ أمرُ المدارس التى هى مَسْقَط حَجَر الاشتغال بالعلم ومستَقَرّ قاعِدته، وقُطْب فلَك تَطْلابه ومُحِيط دائرتِه؛ ومَيْدان فُرْسان المشايخ ومَدَار رجالها، ومَوْرِد ظِمَاءِ الطَّلَبة ومحطُّ رحالها؛ لا سيَّما المدارسُ الأيُّوبية التى أُسِّس علىٰ الخير بِناؤها، وكان عن صَلاح الدين منْشؤُها فتألَّق برقُها وآستطار ضياؤُها .

ومن أثبتِها وَثيقه، وأمثلها فى الترتيب طَرِيقه؛ المدرسةُ القَمْحية بالفُسْطاط الآخذةُ من وجوه الخير بنِطاقِها، والمخصوصُ بالسادة المالكيَّة آمتدادُ رُواقِها؛ إن آعتُبِرتْ رعايةُ المذاهب قالت : مالكٌ وما مَالِك، وإن عُمِلَتْ حِسْبة المدارس فى البِرِّ، كانتْ لها فَذَالك؛ قد رُتِّب بها أربعةُ دُروس فكانتْ لها كالأركان الأربعه، وجُعلت صِدَقتُها الجاريةُ بُرًّا فكانت أعظم بِرًّا وأعمّ منفَعه .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، الشيخىُّ، الكبيرىُّ، العالمىّ، العاملىّ، الأفضلىُّ، الأكملىُّ، الأوحدىُّ، البليغىّ، الفريدىّ، المُفيدىّ، النَّجيدىّ، القُدْوىّ، الحُجّىّ، المحقّقىّ، الإمامىّ، الجَمَالىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرَفُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ؛ قدوةُ البلغاء زينُ الأمه ، أوحدُ الأئمّه ؛ رُحْلة الطالبين ، فخرُ المدرّسين ؛ مفتِى الفِرَق لسانُ المتكلمين ، حجّة المناظرين ؛ خالصةُ الملوك والسلاطين ، وَلِىُّ أمير المؤمنين ؛ أبو محمد « عبدُ الله الأَقْفَهْسِىّ » المالكىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ـ هو عيْنُ أعيان الزمان ، والمحدَّثُ بفضله فى الآفاق وليس الخبرُ كالعيان ؛ مَاوَلِىَ منصبا من المناصب إلا كان له أهْلا ، ولاأراد الآنصرافَ من مجلس علم إلا قال له مَهْلا ؛ ولا رَمىٰ إلىٰ غاية إلا أدْرَكها ، ولا أحاط به مِنْطَقةُ طلَبةٍ إلا هزَّها بدقيق نظَره للبحث وحَرَّكها ؛ إن أطال فى مجلسه أطاب ، وإن أوجز قَصَّر محاورُه عن الإطالة وأنَاب ؛ وإن أورد سُؤالا عَجَز مناوئُه عن جوابه ، أو فتح باباً فى المناظرة أحجم مُناظِرُه عن سَدِّ بابه ؛ وإن ألَمَّ ببحث أرْبىٰ فيه وأنَاف ، وإن أفتىٰ بحُكْم آندفع عنه المُعارض وآرتفَع فيه الخلاف ؛ فنوَادره المدوّنة فيها البيانُ والتحصيل ؛ ومقدّماته المبسوطةُ إجمالُها يُغْنِى عن التفصيل ؛ ومشارقُه النيِّرة لا يأْفُلُ طالعُها ، ومداركه الحسنةُ لايَسْأم سامعُها ؛ وتهذيبُه المهذَّب جامعُ الأمّهات ، وجواهره الثمينةُ لاتُقاوَم فى القيمة ولا تُضاهىٰ فى الصِّفات ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُنَوّه بذكره ، ونُقدِّمه علىٰ غيره ، ممن حاول ذلك فامتنَع عليه ﴿ واللهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِه ﴾ .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولَوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينىّ ـ لا زالت مقاصدُه الشريفةُ فى مذاهب السَّداد ذاهبَه ، ولأغراض الحقّ والآستحقاق صائبه ـ أن يستقرّ المجلسُ العالىٰ المشارُ إليه فى تدريس المدْرَسة

الصَّـلاحيَّة بمصر المحروسـة المعروفةِ بالقَمْحية عِوضًا عن فلان الفلانى، علىٰ عادة مَنْ تقـدّمه .

فليتلَقّ ذٰلك بالقَبُول ، ويَبْسُطْ فى مجالس العلم لسانَه فمن كانَ بمَثَابتـه فى الفضل حقٌّ له أن يقُول ويَطُول ؛ وملاكُ الأمر تقوىٰ الله تعالىٰ فهى خيرُ زاد ، والوصايا كثيرة وعنه تُؤخَذ ومنه تُستفاد ؛ والله تعالىٰ يبلّغه من مقاصده الجميلة غايةَ الأمل ، ويرقِّيـه من هِضَاب المعالى إلىٰ أعلىٰ مَراتِب الكمال وقد فَعَلْ ؛ والاعتماد علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المَدْرسة الصلاحيّة المذكورة، أنشأته للقاضى شمس الدين محمد ابن المرحومِ شِهـاب الدين أحمـد الدِّفْرىّ المـالكىّ، فى شعبان سنة خمس وثمـانمـائة، وهو :

الحمدُ لله مُطْلِـع شمس الفضائل فى سمـاء مَعاليها، ومبلّغ دَرارِىّ الذّرارىّ النبيهةِ الذِّكر بسَعادة الجَدّ غايةَ غيرِها فى مَبادِيها؛ وجاعِلِ صَلاح الدِّين أفضلَ قصدٍ فوّقت العنايةُ سِهامَها بإصابةِ غَرَضه فى مَرامِيها ، ومجدّدِ مَعالِم المدارس الدارسةِ بخَيْر نظر يقضى بتشييد قواعِدها وإحكام مَبانِيها .

نحمَدُه علىٰ أنْ صرَف إلىٰ القيام بنَشْر العلم الشريف اهتمامَنَا، وجعل بخِيرته العائدةِ إلى التوفيق فى حُسْن الاختيار اعتصامَنَا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له مُفيضُ نتائج الأفكار من وافِرِ إمداده ، ومخصِّصُ أهـلِ التحقيق بدقيق النَّظر تخصيصَ العـامِّ بقَصْره علىٰ بعض أفراده ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمّدا عبدُه ورسوله أوفَرُ البرية فى الفضل سَهْما، والقائلُ

تنويهًا بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لِى فى صَبِيحةِ يَوْمٍ لا أزدادُ فيه عِلْما » صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حُلُّوا من الفضل جواهِرَه الثمينه، والتابعين وتابعى التابعين الذين ضُرِبتْ آباطُ الإبل منهم إلىٰ عالِمِ المدينه .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما صُرِفت إليه الهِمَم، وبَرِئَت بتأدية حقِّه الذِّمم ، وغدَت النفوس بالنظر فى مصالحه مشتَغِله ، والفكْرُ لشرف محلِّه منه إلىٰ غيره منْتقله ، النظرُ فى أمر المدارس التى جُعِلت للاشتغال بالعلم سبَبا موصولا ، ولطَلَبته رَبْعا لا يزال بمجالس الذكر مأهُولا ، لاسيَّما المدارس التى قد قَدُم فى الإسلام عهدُها ، وعَذُب باستمرار المعروف علىٰ توالى الأيَّام وِرْدُها .

ولمَّا كانت المدرسة الصَّلاحية بفُسْطاط مصر المحروسة قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانها ، ومُهِّدت علىٰ الخير قواعِدُها وأركانُها ، وآختصَّت طائفةُ المالكية منها بالخِصِّيصة التى أغنَىٰ عن باطن الأمر عُنوانُها ، وكان المجلس السامىّ هو الذى خطَبتْه الرُّتَب الجليلة لنَفْسها ، وعيَّنته لهذه الوظيفة فضائلُه التى قد آنَ ولله الحمدُ بُزُوغُ شمْسِها ، وعَهِدت منه المعاهدُ الجليلةُ حسنَ النظر فتاقَتْ فى يَومِها إلىٰ ما أَلِفت منه فى أمْسِها ــ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن نُفرده بهذه الوظيفةِ التى يقوم إفرادُه فيها مَقام الجمع ، ونجمعَ له من طرفَيْها مايتَّفِق علىٰ حُسْنه البصَرُ ويقضِى بطيب خَبَره السَّمْع .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ : ــ لا زال يُقيم للدِّين شعارا ، ويرفَعُ لأهل العلم الشريف مِقْدارا ــ أن يستقرّ فى الوظيفة المذكورة لما آشتَهَر من علمه ودِيَانته ، وبانَ من عِفَّته المشهورة ونَزَاهتِه ، واتَّصفَ به من الإفاده ، وعُرِف [عنه] من نَشْر العلوم فى الإبْداء

والإعاده ؛ وشاع من طريقتِــه المعروفةِ فى إيضاحه و بيانه ، وذاعَ من فوائده التى قدّمَتْه علىٰ أبناء زمانه ، ورفَعَتْه إلىٰ هذه المرتبة باستحقاقه علىٰ أقرانه .

فلْيُباشِرْ تدريسَها مُظْهرا من فوائده الجليلةِ ما هو فى طَيِّ ضميره ، مضْمرا من حُسْن بيَــانه ما يُستغنىٰ بقليله عن كثيره ؛ مقرّبا إلىٰ أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائقة ما يُفيــد ، مُورِدا من علومه المدوّنة ما يجمع له بين نَوادِر المقدّمات ومَدَارك التمهيد ؛ مُوَفِّيا نظرَها بحسن التدبير حقَّ النظر ، موفِّرا رِزْقها بمــا يُصَدِّق الْخُبْرُ فيهُ الخبَرَ؛ قاصــدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّب لراجٍ أَمَلا ، معامِلا فيه اللهَ معاملةَ من يَعْلم أنه لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعــالىٰ.فليجعَلْها إمامَه ، و يتخيَّلْها فى كل الأحوال أَمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلِّغه من رضاه نهايةَ سؤلِه وغايةَ أملِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

✦ ✦ ✦

وهذه نســخة توقيع بالتدريس بقُبَّة الصالح ، أنشأْتُه لقاضى القضاة جَمال الدين «يوسُفَ البِساطِىّ» بعــد أن كُتِب له بهــا مع قَضاء القُضاة المــالكية، فى العَشْر الأخير من شعبان سنة أربع وثمــانمــائة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل للعلم جَمَالا تتهافَتُ علىٰ دَرْكه محاسنُ الفضائل، وتتوارَدُ علىٰ ثبوت محامِده المتواردةِ قواطِعُ الدلائل، وتُحقِّق شواهدُ الحــال من فضله ما يُتَلمَّح فيه من لوائح المَخَايل .

نحمــدُه علىٰ نِعَمه التى ما آستهلَّتْ علىٰ وَلِىّ فأقلَعَ عنه غَمَامُها، ولا آســتقرَّتْ بيد صفِىّ فآنتُزعتْ من يَده حيثُ تَصرّف زِمَامُها؛ ونشهد أنْــ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُزْهِر بمعالم الدِّين غُروسُها، وتَيْنَــع بثمار الفوائد المتتابِعة دُروسُها؛

وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرا ، وأولهم فى علو المرتبة مكانا وإن كان آخرهم فى الوجود عصرا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الحائزين بقربه أفخر المناقب ، والفائزين من درجة الفضل بأرفع المراتب ؛ صلاة تكون لحلق الذكر نظاما ، ولأولها افتتاحا ولآخرها ختاما ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن من شيمنا الشريفه ، وسجايانا الزاكية المنيفه ؛ أنا إذا منحنا منحا لا نستعيده ، وإذا أعطينا عطاء لا ننقصه بل نزيده ؛ وإذا قربنا وليا لا نقصيه ، وإذا أنعمنا على صفى إنعاما لا نعده عليه ولا نحصيه .

ولما كان تدريس المدرسة المالكية بقبة الصالح من أعلى دروسهم قدرا ، وأرفعها لدى التحقيق ذكرا ، وأعظمها إذا ذكرت الدروس فخرا ؛ إذ بمجال جداله تنفطر المرائر ، وبميدان مباحثه تشتهر البلق من مضمرات الضمائر ؛ وبسوق مناظرته يتميز النضار عن الشبه ، وبمحك مطارحته تتبين الحقائق من الشبه ؛ وبمظان مجلسه يعرف العالى والسافل ، وبمعركة فرسانه يعرف من المفضول والفاضل ؛ ومن ثم لا يليه من علمائهم إلا الفحول ، ولا يتصدى لتدريسه إلا من أمسى بحسام لسانه على الأقران يصول ؛ ولم يزل فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القضاة فى الأول والآخر ، تابعا لمنصب الحكم فى الولاية كل زمن إلا فى القليل النادر ؛ وكان المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى نعمته قد اشتملت ولايته عليه لابتداء الأمر استحقاقا ، وحفظه كرمنا عليه فلم يجد الغير إليه استطراقا ــ اقتضى حسن الرأى الشريف أن نتبع ذلك بولاية ثانية تؤكد حكم الولاية الأولى ، ونردفه بتوقيع يجمع له شرف القدمة والجمع ولو بوجه أولى .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، الزينى - لا زال يعتمد فى مشاهد الملوك أتمّ المصالح ، ويخصّ الصالحَ منهم بمزيد النظر حتّى يقال ما أحسن نظرَ الناصر فى مصالح الصّالح ! - أن يستمرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه علىٰ ما بيده من الولاية الشريفة بالتدريس بقُبَّة الصالح المذكورة ، ومنع المُعارض وإبطال ما كُتِب به وما سيُكتَب ما دام ذٰلك فى يده ؛ علىٰ أتمّ العوائد وأكملها ، وأحسنِ القواعد وأجملها .

فليتلقَّ ما فُوّض إليه بكلتا يديه ، وليشكُرْ إحساننا الشريفَ علىٰ هذه المِنْحة فإنّها نعمةٌ جديدةٌ توجبُ مزيدَ الشكر عليه ؛ وليتصدّرْ بهذا الدرس الذى لم تزل القلوبُ تتقطّع علىٰ إدراكه حَسَرات ، ويتصدَّ لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هُنا تُسكَبُ العبَرات ، ويُبرِزْ لفُرْسان الطَّلبة من ... ... (1) صدْره من كَمِينه ، ويُفِضْ علىٰ جَدَاولهم الجافَّة ماسَحَّ به فكره من ينابيع مَعِينه ؛ مستخرجًا لهم من قامُوس قريحته دُرَرَ ذٰلك البَحْر الزاخر ، مُظْهِرا من مكنُونِ علمه مالا يُعلم لِمَدّه أوّلٌ ولا يُدرك لمداه آخر ، ويُنفِقْ من ذخائر فضله ما هو بإنفاقه مَلِىّ ، متفقّدا بفضل غَنائه من هو عن فوائده المُرْبحة غيرُ غَنِىّ ؛ مقرّرًا للبحْث تقريرًا يزول معه الالتباس ، مسنِدا فروعَه النامية إلىٰ أثبتِ الأصول من الكتاب والسنّة والإجماع والقياس ؛ معتمدا لما عليه جادّةُ مذهَبه فى الترجيح ، جاريًا علىٰ ما ذهب إليه جَهابذةُ محقّقيه من التصحيح ؛ مُقْبِلا بطَلاقة وجهه فى دَرْسه علىٰ جماعته ، باذلًا فى استمالتهم طاقةَ جُهدِه محسنا إليهم جُهدَ طاقته ؛ مربِّيا لهم كما يُربِّى الوالدُ الولد ، مُوفِّيا من حقوقهم [فى] التعليم ما يبقىٰ له ذِكْرُه علىٰ الأبد ؛ منمِّيا ناشئتَهم بالتدريب الحَسَن تنمية الغُروس ، جاهدًا فى ترقِّيهم بالتدريج حتّى يؤهّل من لم يكن تُظَنُّ فيه أهليةُ الطلب لأنْ يتصدّىٰ

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفَتَاوىٰ و إلقـاء الدُّروس ؛ سالكا من مناهج التقوىٰ أحسنَ المسالك ، مُورِدا من تحقيقات مذهَبِه ما إذا لَمحه اللائحُ لم يشُكَّ أنه لِزِمام المذْهَب مالك ؛ والله تعـالىٰ يُجْرِيه علىٰ ما ألِفه من مَوارد إنعامه ، ويمتِّع [هذه الرتبة] السنِيَّة : تارةً بمجالس دُرُوسه وتارة بمجالس أحكامِه ؛ والاعتماد ... ...



وهـذه نسخة توقيع بتدريس الحـديث بالجامع الحـاكمىّ ، من إنشاء الشِّهاب «محمودٍ الحلبىّ» للشيخ قُطْب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى أطلَع فى أُفُق السـنَّة الشريفة من أعلام علمائها قُطْبا ، وأظهر فى مَطالِعها من أعيان أئمّتهـا نُجوما أضاءَ بهـم الوجودُ شَرْقا وغَرْبا ، وأقام لِحفْظها من أئمة أعلامِها أعلامًا أحسَنُوا عن سَنَدها دِفاعا وأجملوا عن مُتُونها ذَبّا ، وشَرَّف بها أهلَها فكلَّما بَعُدتْ راحلتُهم فى طلبها آزدادُوا من الله قُرْبا ؛ وآختار لحَمْلها أُمناءَ شَغَفَتْ محاسِنُهم قلوبَ أهل الفِرَق علىٰ آختلافها حُبّا ، وسلَكُوا باتباعها سَنَن السُّـنَن فأمِنُوا أن تُروِّع لهم الشُّبَهُ سِرْبا ؛ وألهَمنا من تعظيم هذه الطائفةِ ما مهَّد لهم فى ظِل تقرُّبنا إليـه مَقاما كريمًـا ومَنْزِلا رَحْبا ، وعصَم آراءَنا فى الآرتيادِ له من الخَلَل فلا نَختـار له إلا من تُسَرُّ باختياره طَلَبة وتُغْبَط بتعيينه أئمةٌ ونُرضِى بآرتياده رَبّا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى صانَتْ هذه الرتبةَ السنِيَّة بأكْفائهـا ، وزانَتْ هـذه المرتبةَ الشريفةَ بمن لم تَمِل عينُه فى تأثيل قَواعِدها إلىٰ إغْفائها ، وجعلتْ هذه الدرجةَ العليَّة فَلَكا تُشْرق فيه لأئمَّـة الحديث أنوارُ علوم تَفْنىٰ الدُّهورُ دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهـادةَ مُجادل عن سُـنَّته الشريفةِ بألسِنة أسنَّته ، مجالدٍ عن كلمتها العاليةِ بقَبْض مَعاقد سُيُوفه و إطلاق أعِنَّته ، باعث

بالجهاد دعْوَتها إلىٰ كلّ قلْب كان عن قَبُولها فى حُجُب أكنّته . ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ جوامِعَ الكَلِم ، ولوامِعَ السُّنَّة التى من ٱعتصَم بها عُصِم ومَنْ سَلَّم بهـا سَلِم؛ فهى مع كتابِ الله أصلُ شَرْعه القويم ، وحبلُ حكمِه الذى لا تُمكّنُ يدُ الباطل من [حل] عِقْده النظيم ، وكنوزُ دينه التى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَضُّوا علىٰ سُنَّته بالنَّواجذ، وذَبُّوا عن شريعته بسُيُوف الجِلاد القواطع وسِهام الجِدَال النوافذ؛ صلاةً لا يزال يُقام فرضُها، ويُملأُ بها طُولُ البسيطة وعَرْضُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ ما توجَّهت الهِمَمُ إلىٰ ٱرتياد أئمَّته، وتوفَّرتِ الدَّواعى علىٰ التقرُّب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مَناصبه إلىٰ البَرَرة الكِرام من أُمَّته ــ علمُ الحديث النبوىّ صلواتُ الله وسلامُه علىٰ قائله ، وحفظُه بدرُوسه التى جَعَلَتْ أواخِرَ زمَنه فى صِحَّة نَقْله ومعرفةِ أسْراره كأوائِله ؛ وأنْ(١) نختار لذٰلك من نَشَأ فى طلَبه حتَّى ٱكتَهل، وسَرىٰ فى تحصيله سُرَىٰ الأهلَّة حتَّى ٱكتمَل ؛ وغُذِّى بلِبان التبحُّر فيه حتى ٱمتزَج بأديمه، وجَدَّ فى تحصيله وٱجتهد حتَّى ساوىٰ [فى] الطلَب بين حديثِ عُمْره وقديمه؛ وحَفِظ من مُتُونه، ما بمثله يستَحِقُّ أن يُدعىٰ حافظا، وغلَب علىٰ فُنونه، حتّى قلَّ أن يُرى [بغير] علومه والنظرِ فى أحكامه لافظا؛ فإنَّه بعد كتاب الله العزيز مادّةُ هذا الدِّين الذى يُحكَم بنُصوصه ، وتَتفاوت رُتَبُ العلماء فى حُسْن العمل بمطلَقه ومقيَّده وعُمومه وخُصوصه ؛ وعنهما تفرّعت أحكامُ المِلَّة فملأَت علُومُها جميعَ الآفاق، وزكَتْ أحكامُها الشرعيةُ علىٰ كَثْرة الإنفاق؛ وسرىٰ الناس منها علىٰ المَحجَّة التى ٱستوىٰ فى الإشراق ليلُها ونهارُها، وعَلَا علىٰ المِلَل بالبراهين القاطعةِ نُورُها ومَنارُها؛ وكفىٰ أهلَها شرفًا أنهم يذُبُّون عن سنَّة نبيهم ذَبَّ اللُّيوث، ويجُودُون

(١) لم يتقدّم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهتم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

علىٰ الأسماع بما ينفع الناسَ فى أمر دينهم ودُنْياهم منها جَوْدَ الغُيوث ، ويُحافِظون علىٰ ألفاظها محافظةَ من سمِعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظِّمُون مجالسَ إيرادها ونَقْلِها حتَّى كأنهم لحسن الأدَب جلوس بين يدَيْه ؛ ويُغالُون فى العُلوّ طلبا للقُرْب منه وذلك من أسْنَى المَطالب ، ويَرْحَلُون لضَمِّ شَوارده من الآفاق فيأقْرُبَ المَشارق عندهم من المَغَارب ! .

ولما كان المجلسُ السامىّ الفلانىّ : هو الذى عُنِى بكلِّ ماذُكر من وصفٍ كريم ، وحديثِ وَرَع قديم ، وقِدَم هِجرة فى علم الحديث اقتضَتْ له حُسنَ أوْلَويَّة ووجُوبَ تقديم ؛ وتلقَّ هذا العلم كما وُصف عن أئمّته حتَّى صار من أعيانهم ، ولقِىَ منهم عُلَمَاءَ أضحى باقتفائهم كما كانوا رُحْلةَ زمانهم ؛ ونظر فى عُلُومه فأتقَنَها فكأنه ينطِقُ فيها بلسان ابنِ الصَّلاح ، وأحرزَ غاياتِ الكمال ، فى أسماء الرِّجال ، فإلىٰ اطِّلاعه يُرجَع فى تجريح المجرَّح وتعديل الصِّحاح ؛ وكان منصبُ تدريس الحديث الشريفِ النبوىّ الذى أنشأناه بالجامع الحاكمىّ تكثيراً لنشْر أحاديثِ مَنْ لاينطق عن الهوىٰ ، ونوَيْناه لارتواء الرُّواة من بحر هذا العلم الشريفِ بالإعانة علىٰ ذلك وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ ، قد استُغْرِقَتْ أوقاتُ مباشره بتفويضنا الحكم العزيز علىٰ مذهبه إليه ، وتوفير زمانه على ... ... [1] .

قلت : وتختلِف أحوالُ التواقيع التى تُكتَب بالتداريس باختلاف موضُوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفِقه ، واللُّغة ، والنحْو ، وغير ذلك ، فى براعة الاستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا آكَدُ .

(١) ترك هنا بياضا للبقية ولعله لم يكمله اتكالا على ما هو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردها فى التعريف :

وصية مدرِّس — ولْيَطْلُع فى مِحْرابه كالبَدْر وحولَهُ هـالةُ تلكَ الحَلَقـه[1] ، وقد وقَتْ أهدابُ ذلك السوادِ منه أعظمَ آسْوِدادًا من الحَدَقه ؛ وليَرْقَ سَجَّادتَه التى هى لِبْدة جَوادِه إذا آستَنَّ الجدال فى المِضْمار ، وليُخْفِ [أضواءَ] أولئك العلماءِ الذين هم كالنُّجوم كما تتضاءَلُ الكواكبُ فى مَطالِع الأقْمار ، وليُبْرِزْ لهم مِن وراء المحراب كَمِينَـه ، وليُفِضْ علىٰ جَداوِلهم الجافَّة مَعِينَه ؛ وليَقْذِف لهم من جَنَبات مابين جَنْبيه دُرَر ذٰلك البحر العَجَّاج ، ولْيُرِهمْ من غُرَرِ جياده ما يُعْلَم به أنَّ سوابِقَه لايهولُها قَطْع الفِجَاج ؛ ولْيُظْهِرْ لهم من مكنُون علمه ما كان يُخْفيه الوَقَار ، ولْيَهَبْ من مَمْنُون فضله مايَهَبُ منه عن ظهْرِ غِنًى أهلَ الآفتقار ؛ ولْيقرِّرْ تلك البُحُوث ويبيِّنْ ما يرِدُ عليها ، وما يُرَدُّ به من مَنَعها وتطرّقَ بالنقْض إليها ؛ حتّى لا تنفصل الجماعةُ إلا بعـد ظُهور الترجيح ، والإجماعِ علىٰ كلمةٍ واحدةٍ علىٰ الصحيح ؛ وليُقْبِلْ فى الدروس طَلْقَ الوجه علىٰ جَماعته ، وليستَملْهم إليه بجُهْد آستطاعته ؛ ولْيُربِّهم كما يُرَبِّى الوالدُ الولَد ، وليستَحْسِنْ ما تَجِىء به أفكارهم وإلا فكم رَجلٍ بالجَبْـه لِبنْتِ فِكْرٍ وأَد ؛ هذا إلىٰ أخذهم بالآشْـتغال ، وقَدْح أذهانِهم للاشْـتِعال ؛ ولْيُنَشِّئ الطلبة حتّى يُنَمِّى منهم الغُروس ، ويؤهِّلَ منهم مَنْ كانَ لايُظَنُّ منه أنه يتَعلَّم لأن يُعَلِّمَ ويُلْقِىَ الدُّروس .

وصية مقرئ :

ولْيَدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان فإنه مِصْباحُ قلبه ، وصَلاحُ قُرْبه ، وصَباح القَبُول المُؤْذِن له برضا ربه ؛ وليجعَلْ سُـوَره له أسْوارا ، وآياتِه تُظْهِر بين عينيه

(١) جرى فى تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبى عمرو بن العلاء من كونه لغة فى السكون أنظر "المصباح" .

أنوارا ؛ وليتْلُ القُرءان بحُروفه وإذا قرأ آستعاذ ، وليجمَعْ طُرُقَه وهى التى عليها الجمهور ويَتْرُك الشَّوَاذ؛ ولا يرتدَّ دونَ غايةٍ لإقْصار، ولا يقِفْ فبعد أن أتمَّ لم يبقَ بحمد الله إحصار، وليتوسَّعْ فى مذاهِبِه ولا يخْرُجْ عن قراءة القُرَّاء السبعة أئمة الأمصار؛ وليبذُلْ للطَّلَبة الرِّغَاب ، وليُشْبِع فإنَّ ذَوِى النَّهْمة سِغَاب، وليُرِ الناسَ ما وَهبه الله من الآقتدار فإنه آحتضَنَ السَّبْع ودخَل الغاب ؛ وليُتِمَّ مبانِيَ ما أتم « آبنُ عامر» و«أبو عمرو» له التعْمير، ولفَّه «الكسَائى» فى كسائه ولم يقل جَدِّى « آبنُ كثير» ؛ وحُمَّ به « لحمزةَ » أن يعُودَ ذاهبُ الزمان ، وعُلِم أنه لا « عاصمَ » من أمر الله يُلْجأ معه إليه وهو الطُّوفان ؛ وطَفِق يتفجَّر علما وقد وقفَت السُّيولَ الدَّوافع ، وصَرأ كثرُ قرّاء الزمان لعدم تفهيمِهم وهو « نافع » ؛ وليُقْبِل علىٰ ذَوِى الإقبال علىٰ الطَّلَب ، وليأْخُذْهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتَسَب ؛ وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعماء، ووصل سبَبَه منه بحبل الله الممتدِّ من الأرض إلىٰ السماء ؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم ، والإنصاف إذا سُئِل فعِلْمُ الله ما يتَناهَىٰ ﴿وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَليم﴾ .

وصية محدّث :

وقد أصبح بالسنَّة النبَوِيَّة مضْطلِعا ، وعلىٰ ما جمعتْه طرُقُ أهل الحديث مُطَّلِعا ؛ وصَحَّ [فى] الصحيح أنَّ حديثَه الحسَن، وأنَّ المرسَلَ منه فى الطلَب مقْطُوع عنه كلُّ ذى لَسَن ؛ وأنَّ سنَدَه هو المأخوذُ عن العَوَالى ، وسَمَاعه هو المرقِّص منه طُولَ الليالى؛ وأنَّ مثله لا يُوجَد فى نَسَبه المُعْرِق، ولا يُعرَف مثلُه للحافظيْن «آبن عبد البَرِّ» بالمَغْرِبِ و « خَطيب بَغْدَادَ » بالمَشْرِق ؛ وهو يعلم مِقدارَ طَلب الطالب فإنه طالما شَدّ له النِّطاق ، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّمَ المَشَاقّ ؛ وآرتحل له يشتدّ به حرصُه والمَطَايا

مُرْزِمه ، ويُنَبِّهه له طلبُه والجُفون مُقْفَلة والعُيون مُهَوِّمة ؛ ووقف على الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتى يُؤذَن له فى وُلُوجها ، وقعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضيق به على قِصَر فُروجِها .

فليُعاملِ الطلبةَ إذا أتَوْه للفائدة معاملةَ من جَرَّب، وليُنَشِّط الأقرباءَ منهم ويُؤْنِس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تَغَرَّب؛ وليُسْفِرْ لهم صَباحُ قصده عن النَّجاح، وليَنْتَقِ لهم من عُقُوده الصِّحاح؛ وليُوَضِّح لهم الحديث، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كان يُسَار إليه السَّيْرَ الحثيث؛ وليُؤْتِهم ممـا وسَّع الله عليه فيه المجَال، ويعَلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال؛ ويبصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمعتلّ الذى تتناثر أعضاؤُه سُقْما كالعليل؛ وغير ذلك مما لرجال هـذا الشان به عِنَايه، وما يُنَقَّب فيـه عن دراية أو يُقْنَع فيـه بمجرّد رِوَايه؛ ومثـله ما يُزاد حلمـا ، ولا يُعْرَف بمن رَخَّص فى حديثٍ موضوعٍ أو كَتَم عِلْمـا .

وصيـة نحوىّ :

وهو زيدُ الزَّمان، الذى يُضرَب به المَثَل، وعَمْرو الأوان، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل، وما زِنِيّ الوقت ولكنه الذى لم تُسْتَبَح منـه الإبل؛ وكسائىّ الدَّهر الذى لو تقـدّم لمـا آختار غيْرَه الرشيدُ للمأمون ، وذُو السؤْدَد ، لا أبو الأسود ، مع أنه ذُو السابقة والأجرِ المَمْنون ؛ وهو ذو البِرِّ المـأثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذَيْل نخـاره المجرور ؛ والمعروفُ بمـا لا يُنْكر لمثله من الحَزْم ، والذاهب عمـلُه الصـالحُ بكل العوامل التى لم يُبْقِ منهـا لحَسُوده إلا الجَزْم ؛ وهو ذُو الأبنيـة التى لا يُفْصِـح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرَف أفْصَحُ منها فيما أُخِذَ عن الأعراب ؛

والذى أصبحت أهدابُه فوقَ عمائم الغمائم ثُلاَث ، ولم يزلْ طُولَ الدهر يُشْكَر منه أمسُه ويومُه وغَدُه وإنما الكلماتُ ثلاث . فلْيتصدَّ للإفاده ، وليعلِّمْهم مثلَ ما ذُكر فيه من علم النحو نحوَ هذا وزياده ؛ وليكن للطلبة نجْماً به يهتدىٰ ، وليرفع بتعليمه قدْرَ كل حَبْر يكون خبرًا له وهو المبتدا ؛ وليقدِّمْ منهم كلَّ من صَلَح للتبريز ، وآستحقَّ أن يُنصَب إمامًا بالتمييز ؛ وليُوردْ من موارِده أعذَبَ النِّطاف ، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليُوقِفْهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويعرِّفْهم دقائقَ البحوث حتّى آشتقاقَ الآسم هل هو من السُّموّ أو من السِماء ؛ وليبيِّن لهم الأسماءَ الأعجميَّة المنقولةَ والعربيةَ الخالصه ، وليدُلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يُشْتَبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ؛ وليحفِّظْهم المُثُل وكلماتِ الشُّعراء ، ولينصِب نفْسَه لحَدّ أذهان بعضهم ببعض نصبَ الإغراء ؛ وليعاملْ جماعة المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كلِّه فليرفُقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .



وهذه وصية لغوىّ أوردها فى التعريف[1] .

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثامنة

(التصدير)

وموضوعه الجلوس بصَدْر المجلس بجامع أونحوه . ويجلس متكلّم أمامَه علىٰ كُرْسىّ كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرّقائق والوَعْظيّات ، فإذا انتهىٰ كلامُه وسكت ، أخذ المتصدّر فى الكلام علىٰ ما هو فى معنىٰ تفسير الآية التى يقع الكلامُ عليها ، ويستدرج من ذٰلك إلىٰ ماسنح له من الكلام . وربما أُفْرِد التصديرُ عن المتكلم علىٰ الكرسىّ .

وهذه نسخةُ توقيع بتصديرٍ أنشأتُه للشيخ شهاب الدين « أحمدَ الأنصارىّ » الشهير بـ«الشابّ التائب» بالجامع الأزهر، وهى :

رسم ... ... (١) لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تَخُصُّ المجالسَ بمَنْ إذا جلس صدْرَ مجلس كان لرتبته أجملَ صَدْرٍ يجتبىٰ من علَماء التفسير، ومن إذا دقّق لم يفهم ... ... (٢) عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامُه فى الحقيقةِ تفْسيرَ تفسير، وتَصطفِى من سَرَاة الأماثل مَنْ دارَ نعتُه بين « الشابِّ التائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرمُ نعتٍ علىٰ كلِّ تقدير ــ أن يستمرَّ المجلس السامىّ أدام ــ الله تعالىٰ رفعته ــ فى كذا وكذا ، لأنَّه الإمامُ الذى لاتُسامىٰ علومُه ولا تُسام، والعلّامة الذى لاتُدْرَك مَدارِكُه ولا تُرام، والحَبْر الذى تنعقدُ علىٰ فضله الخَناصر، وفارسُ الحَلْبة الذى يعْتَرِف بالقُصور عن مجاراةِ جِيَاده المُناظِر، وآيةُ التفسير التى لاتُنْسَخ، وعَقْد حقيقتهِ الذى لا يُفْسَخ، والماهرُ الذى استحقّ بمَهَارته التصدير، والجامعُ لفُنونه المتنوّعةِ

(١) أى بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله «لم يفهم شرحه إلا عنه» أو نحو ذلك .

جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير؛ وترجمانُ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعَجَب العُجَاب، والعارفُ بهَدْى طريقه الذى إذا قال قال الَّذى عِنْدَه عِلْمٌ من الكِتَاب؛ وزَاهِدُ الوقت الذى زيَّن بالعلم العمَل، وناسِكُ الدهر الذى قصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأمل .

فليتلَقَّ ما أُلقِيَ إليه بالقَبول، وليَسْتنِدْ إلىٰ صدْرِ مجلس يقُول فيه ويطُول، وليبيِّنْ من معانى كتاب الله ما أجمَلْ، ويوضِّحْ من خفيِّ مقاصده ما أشْكَل، وليَسْلُك فى تفسيره أقومَ سَنَن، وليُعْلِنْ بأسراره الخفيَّة فسرُّ كتاب الله أجْدَرُ أن يكون عن عَلَن، وليَجْرِ فيه علىٰ ما أُلِف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقِّق المناظرةَ فَمَنْ ؟ ، وليأخُذْ مشايخَ أهل مجلِسه بالإحسان، كما أحسَن الله إليه فهل جَزَاءُ الإحْسان إلا الإحْسَان، ويحُضَّ شَبابهم علىٰ التوبة ليُحِبَّهم الله فيتَّصل فى المحبة سندُهم فإن « الشابَّ التائبَ » حبيبُ الرحمن؛ والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفَعِ الذُّرا، ويرفَعُ مجلِسَه السامى علىٰ محل الثُّريَّا (وإنا لنرجُو فوْقَ ذٰلكَ مَظْهَرا) . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضُوعه التحدُّث فى أمورٍ خاصَّة بإباحة ضَروراتها، وعمَل مَصالحها، واستخراج متحصِّل جهاتها، وصَرْفه علىٰ الوجه المعتَبر، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وتشتمِل علىٰ عِدّة أنظار :

منها ـ نظر الأَحْباس : جمع حُبُس[(١)] وهو الوَقْف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصلُ وَضْعه أراضِيَ اشتراها (الإمامُ الليثُ بن سعد رضى الله عنه)

---

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ماوقف» وهو المراد هنا .

ووَقَفها علىٰ جهاتِ بِرٍّ، ثم تبِعه الناسُ فى إضافة الأوقاف إلىٰ ذٰلك ، إلىٰ أن كانتْ وِزارة الصاحبِ بهاءِ الدين ٱبن حَنًّا فى سلطنة الظاهر بِيبَرس البُنْدقْدارى ، فأفردَ للجوامع والمساجد والرُّبُط والزَّوايا ونحو ذٰلك رِزَقا ، وقصَر تحدُّثَ ناظرِ الأحبـاس ومباشِريه عليها ، وأُفردت الأوقافُ بناظرٍ ومباشِرين كما سيأتى :

وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبِيمارَسْتانَ المنصورى[1] ، كُتِب بها «لمهذَّب الدين» وهى :

الحمـدُ لله الذى دَبَّر بحكمته الوجُود ، وعمَّ برحمته كلَّ موجود، وحال بنَفْع الدواء بين ضُرِّ الداء كما حالتْ عطاياه دُونَ الوُعود ؛ نحمَده ونشكره وهو المشكور المحمُود ، ونُثنى عليه خيرَ الثناء قيامًا وقُعودًا وعلىٰ الجُنُوب وفى السجُود، ونستزيدُه من فضله فإنه أهلُ الفضل والجُود .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً اللهُ بها والملائكةُ وأولُو العـلم شُهود ؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبشِّر لأمته بالجَنَّات والخلُود، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة دائمةً إلىٰ يوم الوُعُود .

وبعـد، فإنَّا لمـا أقام الله بنا شَعائرَ الإيمـان ، وأصبح دينُه بحمد الله منصوراً بنا علىٰ سائر الأدْيان، وجاهدْنا فى الله حقَّ الجهاد باليَد والقلب واللِّسان، وشيَّدنا لعلومِه وشرائعِه كلَّ بديعِ الإتقان ، ورتَّبنا فيه من العلماء الأعيان كلَّ رفيع الشان، وٱختَرْنا له الأخيار من أهل العلم بالطِّب والفِقه والحديث والقُرءان ؛ ورأينا كل من تقدّمَنَا من الملوك ، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسنَ سُلُوك ، قد ٱهتمَّ بعلمِ الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواقيع الوظيفة السابعة الخاصة بالتداريس .

علمَ الأبدان، وأنشأ كلٌّ منهم مدرسةً ولم يحْفِل بِبِيمارَسْتان، وغفَل عن قوله صلى الله عليه وسلم : «العِلْم علْمان» ؛ ولم يأخُذ أحدا من رَعيته بالاشتغال بعلم الطِّب المُضْطَرّ إليه، ولا وقف وقفا علىٰ طلَبة هـذا العلم المنصوص عليه، ولا أعدّ له مكانًا يحضُر مَنْ يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصَب له شخصا يتمَّثل هذا المشتغل لديه ـ علمنا نحن بحمد الله تعـالىٰ من ذٰلك ما جهِلُوه ، وذ كَرْنا من هذه القُرْبة ما أهملُوه، ووصَلْنا من هذه الأسباب الدِّينية والدُّنيوية ما فَصَلوه، وأنشأنا بِمارَسْتانا يَبْهَر العيونَ بَهْجه، ويفُوق الأبنيةَ بالدليل والحجَّة، ويحفَظ الصحةَ والعافيةَ علىٰ كل مُهْجه ؛ لو حلَّه من أشفىٰ لَعُوجِل بالشِّـفا ، أو جاءه من أكْمَده السُّقْم لاشْتفَى ، أو أشرف عليـه العُمُر بلا شِفاء لعاد عنه بشِفَا ؛ ووقفْنا عليه من الأوقاف المبرورةِ مايملأ العينين، ويُطْرِف سمـاعُ جملته الأذُنين ، ويعيدُ عنه مَنْ أمَّه مملوء اليدين؛ وأبحنا التَّداوىَ فيـه لكل شريفٍ ومشروفٍ ومأمور وأمير، وساوَيْنا فى الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وعلمنا أن لانظير لنا فى مُلْكنا ولانظيرَ له فى إبقائه فلم نجعل لوقْفه وشرطه من نظير؛ وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعِلْم الطب الذى كاد أن يُجْهَل ، وشرَعنا للناس إلىٰ ورْد بحره أعذَبَ مَنْهَل ، وسهَّلنا عليهـم من أمره ما كان الحُـلُم به من اليقَظة أسهَل ؛ وارتدْنا له من علماء الطِّب من يصْلُح لإلقاء الدروس ، وينتفِع به الرئيسُ من أهل الصِّناعة والمرءوس، ويؤتَمَن علىٰ صحة الأبدان وحفْظ النفوس ؛ فلم نجِد غيرَ رئيس هذه الطائفة أهلًا لهذه المرتبه ، ولم نَرْض لها مَنْ لم تكن له هذه المَنْقَبه، وعلمنا أنه متىٰ ولِيَها أمسىٰ بها مُعْجَبا وأضحتْ به مُعْجَبه .

ولمـا كان المجلس السامى « مهـذَّب الدين » هو الرئيس المشارُ إليه ، والوحيدُ الذى تُعقَد الخناصِرُ عليه؛ وكان هو الحكيم « بقراط » ، بل الجليـل « سقراط » ؛ بل الفاضل « جالينوس » ، بل الأفضـل « ديسقُوريدُوس » ـ اقتضت الآراء

الشريفةُ أن تُزاد جَلَالتُه بتولية هـذا المنصب الجليل جَلالَه ، وأن تُزَفّ إليـه تجرّ أذيالَه ، وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُح إلا لهَـا ولم تَكُ تَصْلُح إلّا له) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال للدِّين ناصرا ، ولأعلامِ العُـلوم ناشرا ـ أن يفوّض إليـه تدريسُ الطب بالبيمارَسْتان المبـارك المنصوريّ ، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علمًا بأنه المتمهِّر فى هذا الفنّ ، وأنه عند الفِراسة فيه والظّنّ ، وأنه سقراطُ الإقليم إذا كان غيرُه سِقْراط الدّن ، وثقةً بأنا بالجَوْهَر قد ٱلتقَطْنا ، وبالخبْر قد ٱغتبَطْنا ، وعلى الخبير قد سقَطْنا .

فلْيتلَقَّ هـذه النعمةَ بالشكر الجليـل ، والحمد الجزيل ، والثناءِ الذى هو بالنَّمَـاء والزيادة كَفيـل ، وليتصِبْ لهـذا العِلم المباركِ ٱنتصابَ من يقوم بالفَرْض منـه والسنَّه ، ويُعرَفُ له فيه الفضلُ ويُتقلَّد له فيه المِنَّه ، ويُثْنِى على آثاره الجميلة فيه وتُثْنَى إليه الأعِنَّه ، ولُيبْطِل بتقويمه الصحّةَ ما أَلِفه ٱبْنُ «بطْلان» ، وليُرِنا بتدبيره جِبِلّةَ البِرِ فإنه « جالينُوس » الزمان ، وليبذل النَّجاة من الأمراض والشفاءَ من الأسـقام فإنه « ٱبن سِينا » الأوان ، وليجمع عنده شَمْلَ الطلبه ، وليُعْطِ كلَّ طالبٍ منهم ماطلبه ، وليبلِّغْ كلَّ متَمنٍّ من الآشتغال أرَبَه ، وليشرَحْ لهم صدرَه ، وليبذُلْ لهم من عمره شطْرَه ، وليكْشِفْ لهم من هذا العلم المكنون سِرّه ، وليُرِهمْ ماخفِىَ عنهم منه جَهْره ، وليجعلْ منهم جماعة طَبَائعيه ، وطائفةً كحَّالين وجَرَائحيّه ، وقوما مُجبِّرين ، وبالحديد عاملين ، وأُخرى بأسماء الحَشَائش وقُوَى الأدْوية وأوصافها عالمين ، وليأمُرْ كُلًّا منهم بحفظ مايجب حفظُه ، ومعرفة مايزيد به حَظُّه ، وليأخُذْه بما يُصلح به لسانَه ولفظَه ، ولا يفْتِرْ عنهم فى الآشتغال لحظَهْ ، وليُفْرِدْ لكل علم من العلوم طائفَـه ، ولكل فن من فنونه جماعةً بمحاسـنه عارفَهْ ، وليَصرفْ إليهم من وجوه فضائله كلَّ عارفه ،

وليَكْشِفْ لهم ما أشكل عليهم من غوامِضــه فليس لهـا من دُون إيضاحه كاشفَه ؛ لِيُنْشَرَ فى هذا المكان المبـارَكِ من أرباب هــذه العلوم قومٌ بعدَ قوم ، ويظهرَ منهم فى الغــد ــ إن شاء الله ــ أضعافُ ماهو ظاهرٌ منهم اليوْم ؛ وليُقال لكلٍّ من طلَبته إذا شُرِع فى إجازته وتزكيته : لقد أحْسنَ شيخُه الذى عليه تأدَّب ، وإنَّ مَن خَرَّج هذا «المهذَّب» ؛ عاملًا فى ذلك بشروط الواقف أعزَّ الله نصرَه ، واقفًا عند أمره أمضى اللهُ أمرَه ؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة توقيع بنظَر الأحباس مفتَتَحة بـ«أما بعد» وهى :

أما بعــدَ حمدِ الله الذى أَذِن أن تُرْفع بيوتُه ويُذْكَر فيها ٱسْمُـه ، ويُكَثِّر فيها قَسْم ثوابه ويُجزل قِسْمه ، والصلاة على سـيدنا محمدٍ الذى عَظُم به قطعُ دابر الكُفْر وكَثُر حَسْمُه ــ فإنَّ خيرَ مَنْ عُوِّل عليه فى تأسيس بيوتِ الله وعِمــارة رُبُوعها ، ولَمِّ شَعَثها وشَعْب صَدُوعها ؛ والقيــامِ بوظائفها ، وتسهيل لطائفها ؛ وتأهيل نواحيها ، لهُبُوط الملائكة لتلقِّي المصلِّين فيها ، مَنْ كان ذا عَزْم لاتأخُذه فى الله لومةُ لائم ، وحَزْم لايُلِمُّ بأفعاله لَمَم المآثم ؛ ونظرٍ ثاقب ، ورغبــةٍ فى ٱختيار جميل المآثر والمَناقب ، ومباشرةٍ ترْعَى قوانينَ الأمور وتكتنِفُها ٱكتناف مُراقِب .

ولمــا كان فلانٌ ممَّن هذه الأوصافُ شِعَارُه ، وإلى هذه الأمور بِدَارُه ؛ وكم كَتَب الله به للدّولة أجرَ راكِع وساجِد ، وكم شكرَتْه وذكرَتْه ألسِــنةُ أعلام الجوامع وأفواهُ مَحَاريب المساجِد ــ ٱقتضى مُنِيف الملاحظةِ والمحــافظةِ على كل قريبٍ من بيوتِ الله وشاهــد ، أنْ خرج الأمر الشريفُ ــ لا بَرِح يكشِف الأوْجال ، ويدعُو له فى الغُدُوّ والآصال رِجَال ــ أنْ يفوَّض لفلانٍ نظرُ ديوان الأحبــاس والجوامِع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالى .

فلْيباشِرْها مبـاشرةَ من يُراقب الله [إنْ] وقَّع أو توقَّع ، وإن أطاعَ أو تَطَوّع ؛ وإن عزَل أو ولّى ، وإنَّ أدَّب مَنْ نَهىٰ عبدا إذا صَلَّى ؛ وليجتهِدْ كلَّ الاجتهاد فى [صَرْف] رَيْع المساجد والجوامع فى مَصارفها الشرعيَّة ، وجهاتها المرعيَّة ؛ وليأخُذْ أهلَها بالملازمة فى أحيانها وأوقاتها ، وعِمَارتها بمصابيحها وآلاتها ؛ وحفْظ مايُحفظون به لأجْلها ، ومعاملتهم بالكرامة التى ينبغى أن يُعامَلَ مثلُهم بمثلها ؛ وليحترزْ فى إخراج الحـالات إذا خُرِّجت وأُخْرِجتْ ، وفى مستحَقَّات الأجائر إذا آستُحِقَّت وإذا عُجِّلت ؛ وفى التواقيع إذا أُنْزلت وإذا نُزِّلت ، وفى الاستئمارات التى أُهْمِلت وكان ينبغى لو أُهِّلتْ ؛ وإذا باشر[و] ظهَر له بالمبـاشرة خَفَايا هـذا الدِّيوان ، وفَهِـم ماتحتويه جرائدُ الإحسْان ، فليكُنْ إلىٰ مصالحـه أوّلَ مُبَـادر ، ويكفيه تدبرُ قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَـا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بدْر الدين حَسَن » الشهير بابن الدَّاية ، مفتَتَحا بالحمـدُ لله ، جاء فَرْدا فى بابه . إلا أن مسوَّدته غُيِّبت عنّى ، فلم أجدْها لأثبِتَها هاهنـا كما أثبتُّ غيرها ممـا أنشأتُه : من البَيْعاتِ والعُهود والتواقيع والرسائل وغير ذلك .

ومنها ــ نظرُ الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستيْن ، ويدخُلُ فيه أوقافُ الحَرَمين وغـــيرهما .

وهذه نسخةُ توقيع بنظرها ، وهى :

الحمدُ لله الذى حفِظ مَعالِمَ البِرّ من الدُّثور ، وأحيَا آثارَ المعروف والأُجُور ، وصانَ الأوقافَ المحبَّسة من تبْديل الشروط علىٰ تَوالِى الأيَّام والشُّهور .

نحمَدُه علىٰ فضله الموفُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لها فى القُـلوب نورٌ علىٰ نُور ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه المؤيَّد المنصور ، الطالعُ البُدور ، المبعوثُ بالفُرْقان والنُّور ، المنعوتُ فى التوراة والإنجيل والزَّبُور ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما كَرّتِ الدُّهور ، وطلعَتْ كواكبُ ثم تَغُور .

وبعـدُ ، فإنَّ أهل الخير من المؤمنين تقرّبُوا إلىٰ الله سبحانَه وتعـالىٰ من طَيِّبات أموالهم بأوقافٍ وقَفُوها علىٰ وجوه البِرّ وعَرَّفوها ، وجعلُوا لهـا شروطا ووصَفُوها ؛ فتقبَّل الله لهم ذٰلك ، ثم ماتُوا فمـا انقطع عمَلُهم بها وهم فى بَرْزَخ المَهالك ؛ ووَلِيَهـا بعدَهم الأمناءُ من النُّظّار ، فقاموا بحقُوقها وحِفْظ الآثار ؛ وأجْرَوْا بِرَّهـا الدارَّ فى كلِّ دارْ ، وصانُوا معالِمَها من الأغيـار ، وشارَكُوا واقِفِيها فى الصدقة لأنهم خُزّانٌ أُمناءُ أخيار .

ولمـا كان فلان هو الذى لا يتدَنَّس عِرْضُه بشائبه ، ولا تُمْسِى المصالحُ وهى عن فكره غائبَـه ، ولا تبرَحُ نجومُ السُّعود طالعةً عليه غيرَ غائبه ؛ وهو أهـلٌ أن يُناط به التحدُّثُ فى جهات البِرّ الموقُوفه ، وأموالِ الخير المصْرُوفه ، لأنه نَزَّه نفسَه عما ليس له فلو كانتْ أموال غيره غَنَمًا ما اختصَّ منها بصُوفَه ؛ فلذٰلك رُسِم ...(1) ... ...

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ مباشَرةً حسَنة التأْثير ، جميـلةَ التَّثْمير ، مأمُونَةَ التغيـير ، مخصوصـةً بالتعبير ؛ ولينظر فى هـذه الأوقاف علىٰ اختلافها من رُبوع ومَبـانى ، ومسا كِنَ ومَغَانى ؛ وخاناتٍ مسـبَّله ، وحوانيتَ مكَمَّله ؛ ومُسـقَّفات معمُوره ، وساحاتٍ مأجورةٍ غيرِ مهجُورَهْ . وليبـدأ بالعمارة فإنَّهـا تحفظ العينَ وتكفِى البناءَ دُثُورَه ، وليَتَّبع شروط الواقفين ولا يعدلْ عنها فإنَّ فى ذلك سُرورَه ؛ وينْدَرِج فى هذه

(1) بيض له فى الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقاف ماهو علىٰ المساجد ومَوَاطِن الذِّكر : فليُقِمْ شعارَها، وليَحْفَظْ آثارَها، وليرفَعْ مَنَارَها ؛ والوصايا كثيرةٌ والتقوىٰ ظِلُّها المَخْطُوب ، ومراقبة الله أصلُها المطلُوب ووصلُها المحبوب، والله تعالىٰ يجمع علىٰ محبَّته القُلوب؛ بمنّه وكرمه ! .

ومنها ــ نظر البيمارَسْتان المنصوري بين القَصْرين لأرباب الأقلام ، وهو من أجلِّ الأنظارِ وأرفعِها قَدْرا ، ما زال يتولّاه الوزراءُ وكُتَّاب السرّ ومَنْ فى معناهم . [وهذه نسخة توقيع] (١) من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبيّ ، وهى :

الحمدُ لله رافِع قدرِ من كان فى خدمتِنا الشريفة كريمَ الخلال، ومُعْلِى درجةِ من أَضْفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليَّة مديدَ الظِّلال، ومجدِّدِ نِعَمِ من لم يخُصّه آعتناؤنا بغاية إلا ورَقَّتْه همَّتُه فيها إلىٰ أسنىٰ رُتَب الكمال، ومفوِّض النظر فى قُرَب سلَفِنا الطاهر إلىٰ من لم يلاحِظْ من خواصِّنا امرا إلا سَرَّنا ما نُشاهِدُ فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأولياء عوارِفُها، ومِنَنه التى لاتبرَحُ تشمل الأصفياءَ عواطِفُها ، وآلائه التى تُسَدِّد آراءَنا فى تفويض قُرَبنا إلىٰ مَنْ إذا باشرها [سُرَّ] بسيرتِه السِّريَّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة رَفَع الإخلاصُ لواءَها، وأفاض الإيمانُ علىٰ وُجُوه حَمَلتها إشراقَها وضِياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائها بمواقفِ الحقِّ وإبْداءها ، ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ، المقصوصُ فى السنة ذِكْرُ حوضِه الذى من شَرِب منه شَربةً فإنه بعدَها لا يَظْما ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنَزَّلة وبشَّرتْ به الهواتِفُ نَثْرا ونظْما؛ صلَّى الله

(١) تقدمت فى وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير وآختصار .

عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته، بالرُّتب الفاخره، وحازُوا بالإخلاص فى محبّته، سعادةَ الدنيا والآخره، وأقبلُوا علىٰ حظهـم من رضا الله ورضاه فلم يُلْوُا علىٰ خِدَع الدنيا الساحره؛ صلاةً دائمةَ الآتصال، آمنـةً شمسُ دَوْلتِها من الغُروب والزَّوال؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أوْلى الأمور بإنعـام النظَر فى مَصالحِها، وأحقَّها بتوفير الفِكْر علىٰ آعتبار مَنَاهجِها وآعتماد مَنَاجحها ـ أمرُ جِهات البر التى تقرِّب والدُنا السلطان الشهيد ـ قدّس الله رُوحَه ـ بهـا إلىٰ مَنْ أفاض نِعَمه عليـه، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليـه، ورَغِب بها فيما عندَ الله لعلْمه أنَّ ذٰلك من أنفس الذخائر التى أعدَّها بينَ يديْه؛ وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقـلَه اللهُ بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدق عنـد ربِّه، وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يومِ سِـلْمه بعد أنْ عفَّى علىٰ مَعَاقل الكفر فى يوم حَرْبِه؛ وأقام بها مَنـارَ العلوم فعلا مَنالُهـا، وأعدّ للضُّعفاء بها من مَوادّ البِر والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُل إليه أموالُهـا؛ وأن نرتادَ لهـا مَنْ إذا فوّضنا إليـه أمرا تحقَّقنا صَلَاحه، وتيقَّنَّا نجاحَه؛ وآعتقدْنا تنمِيةَ أمواله، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفـاعه وآنتفاعِه علىٰ أقواله وأفعاله؛ وعلمنا من ذٰلك مالا نحتاجُ فيه إلىٰ إخبار ولا آختِبار، ولا يحتاج فى بيان الخيرة فيه إلىٰ دليلٍ إلَّا إذا آحتاجَ إليه النَّهار؛ لنكونَ فى هـذا بمَثابةِ مَنْ ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابِها، أو جدّدَ لها وَقْفا لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد الأكفاءِ لها من أبوابها .

ولذٰلك لـمـا كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّـنا، وأبانَ عن يُمْن الآراء فى استِئْثارنا به لمَصالحنا الخاصَّةِ وآختصاصِنا؛ وآعتدَدْنا بجميل نظره فى أسباب التدبير التى تملا الخزائن، وتدُلُّ علىٰ أنَّ من الأولياء من هو أوقعُ على المقاصـد من سهام

الكائن ، وتحقق أنه كما فى العناصر الأربعة معادنُ فكذلك فى الرجال معادن ؛ ونبهت أوصافُه على أنه ما ولِىَ أمرا إلا وكان فوق ذلك قدرا ، ولا ٱعتمد عليه فيما تضيق عنه همم الأولياء إلا رحب به صدرا ، ولا طلع فى أُفق رتبةٍ هلالا إلا وتأملته العيون فى أجلّ درج الكمال بدرا ؛ يُدرِك ما نأى من مصالح ما يليه بأدنى نظر ، ويَسْبِق فى سداد ما يباشره على ما يجب سداد الآراء ومواقعَ الفكر ؛ فنحن نزداد كل يوم غبطةً بتدبيره ، ونتحقق أن كل ماعدقنا به إليه : من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلى عارفه وفوّضناه إلى خبيره ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُعْدِق بجميل نظره أمر هذا المهمّ المقدّم لدينا ، وأن نفوّض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظرُ فى مصالحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلُه عميما ، وبِرّه يقدّم فى الرتب مَنْ كان من الأولياء كريما ــ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت .

فلْيَلِ هذه الرتبةَ التى أُرِيد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلى العُلماء ، والفُقراء ، والضُّعفاء ومراعاةُ ذلك من أخصّ المصالح وأعمّ ؛ ولْيَنظُرْ فى عموم مصالحها وخصوصها نظرا يَسُدّ خَلَلها ، ويزيح عِلَلها ، ويُعَمِّر أصولها ، ويثمِّر محصولها ، ويحفظ فى أماكنها أموالَها ، ويُقيم معالم العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنيها بألسنة قُرّائها ؛ ويستعيد صحّة مَنْ بها من الضعفاء بإعداد الذّخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ؛ ويحافظ على شروط الواقف ــ قدّس الله روحَه ــ فى إقامة وظائفها ، وٱعتبار مصارفها ؛ وتقديم ما قدّمه مع ملاءة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستدعى إليها من الأصناف التى يعزّ وجودُها ويُجتلب ؛ وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثقُ من أيدى

أمنائه وثقاته، ولا مُودَع لها أوفقُ من أمانة من يتقِي الله حقَّ تُقاته؛ وليفعل فى ذٰلك جميعه ماعرَفْناه من تدبيره الجميل خُبْرا وخبرًا، وحَمِدناه فى كل مايليه وِرْدا فى المصالح وصَدَرا؛ فإنه ــ بحمد الله ــ الميمونُ نظرًا وتصرُّفا، المأمونُ نزاهة وتعفُّفا؛ الكريمُ سجيَّةً وطِباعا، الرحيبُ فى تلقِّى المهمات الجليلة صَدْرا وباعا؛ فلذٰلك وَكَلْناه فى الوصايا إلىٰ حُسْن معرفته وٱطِّلاعه، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وٱضْطِلاعه؛ والله تعالىٰ يُسَدِّده فى قوله وعمله، ويحقِّق بالوقُوف مع مَرَاضِى الله تعالىٰ ومَرَاضِينا غايَةَ أمله؛ إن شاء الله تعالىٰ .



ومنها ــ نظر الجامع الناصرىّ بقلعة الجَبَل .

وهذه نسخةُ توقيع بنظره، كُتِب به للقاضى جلالِ الدين القَزْوِينِىِّ وهو يومئذ قاضى قُضاة الشافعيَّة بالديار المِصريَّة، وهى :

الحمدُ لله الذى زادنا الدين رِفْعةً وجَلَالا، وجعل لنا علىٰ إعلاء مَنَار الإسلام إقْبالا، وأحسن لنظَرِنا الشريفِ فى كلِّ ٱختيارٍ مآلا، ووَفَّق مَرامِى مَرَامِنا لمن أخلَصْنا عليه ٱتِّكالا .

نحمدُه حمدا يتواتَرُ ويتوالىٰ، ويُقَرِّب من المُنىٰ مَنَالا، وتُنير به معاهدُ نِعَمه عندنا وتَتَلالَا، ونُديمه إدامةً لانَبْغِى عنها حِوَلًا ولا ٱنتِقالا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نصدّقها نيَّةً ومَقَالا، ونرجُو بالتَّغالى فيها القَبولَ منه تعالىٰ، ويترَاسَلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعترِى ذاك سهْوٌ ولا يخاف هذا كَلَالا؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى كَرَّم صَحابةً وآلا، ودَلَّهم علىٰ الرُّشد فوَرَّثُوه من علماء الأمَّة رجالا، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً نَسترعى عليها

من الحَفَظة أكْفاءً أكْفالا ، ونستمدّ رُقْيها المُذْهَبات بُكَرا وآصالا ، وتسمُو إليه الأنفاسُ سُمُوَّ حَبَاب الماء حالًا فحالا ، ما مدّت الليالى علىٰ أيّامها ظِلَالا ، وما بلغ سوادُ شَبابها من بياض صُبْح اكْتِهالا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ من بَنىٰ حقّ عليه أن يُشيد(١) ، ومن أراد [أن] سنَّته الحُسْنىٰ تبقىٰ فليتخذ مُعينا علىٰ ما يُريد ، ومن أنشأ بِرًّا فلا بُدّ من مباشِر عنه يضْمَن له التجديد ، ويُظَنّ به مع تأثيره التَّخْليد ، ومَنْ تاجَر لله بمعروف فما يَسْخُو بالمُشاركة فيه إلا لمن يَقُوم مَقَام نَفْسه أو يَزِيد ، ومن بَدَأ جميلا فشَرْطُ صَلاحه أن يُسْنِده إلىٰ مَنْ له بالمراقبة تَقْيِيد ، فيما يُبْدئ ويُعيد ، وأىّ إشادةٍ أقوىٰ ، من التأسيس علىٰ التقوىٰ ، أو معين أجلُّ من حاكم آستخلصناه لنا ولإخواننا المسلمين ، أو مباشرٍ أنفعُ ، من سيدٍ آرتدىٰ بالمَجْد وتلَفَّع ، وتروَّى بالعلوم وتضَلَّع ، أو مشاركٍ فى الخير أوْلىٰ من وَلِيٍّ قلَّدناه دِينَنا قبل الدُّنْيا ، وأعلَيْناه بالمنصبَيْن : الحُكْمِ والخَطَابة فتصرَّف منهما بينَ الكلمة العالية والدَّرَجة العُلْيا ، أو أحسَنُ مراقبةً من حَبْرٍ يعبُدُ اللهَ كأنَّه يراه ، وإمامٍ يدعُو إليه دُعاءَ أوّابٍ أوّاه ، قد آنفردَ بمجمُوع المحَاسن يَقينا ، وأصبح قَدْرُه الجلىّ الجليل يَعْنِينا وعن المدائح يُغْنِينا ، فحسبُنا الوصفُ إيضاحًا وتبْيِينا ، ولكن نُصَرِّح باسمه تنويها وتعيينا ، وتحسينا لسيرة أيّامنا الشريفة بعالِمِ زمانها وتزيينا ، لا عُذْرَ لفكْرٍ لم يُنَضِّد مناقبَه وقد تمثلتْ مَعَاليه جَواهر ، وقلمٍ لم يُوَشِّ الطُّروسَ بمَعانيه بعدَ ما زانَ من فنُونها أنواعَ الأزاهر ، هو المجلسُ العالى القضائىّ ، الإمامىّ ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، العَلّامىّ ، الكامِلىّ ، الفاضلىّ ، القُدْوىّ ، المُفِيدىّ ، الخاشعىّ ، الناسكىّ ، الوَرَعىّ ، الحاكمىّ ، الجَلَالىّ : حجةُ الإسلام والمسلمين ، قُدوةُ العلماء العامِلين فى العالَمين ، بركةُ الأمه ،

---

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوّله . أنظر اللسان فى مادة ش ى د — ج ٤ — .

عَلَّامة الأئمه ، عزّ السنَّه ، مؤيِّد الدَّوله ، سيفُ الشريعه ، شمسُ النظر ، مُفْتى الغُرر ، خَطيبُ الخُطَباء ، إمامُ البُلَغاء ، لسانُ المتكلِّمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو المَعَالى محمدُ ابنُ قاضى القضاة سعدِ الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن عُمَرَ بن أحمد القَزْوِينى قاضى القُضاة الشافعية : أدام الله عِزَّةَ الشرع الشريف بأحكامه ، وتَرْفِيهَ سُيوفِ الجلاد وأَسَلِه بلسان جِدَاله وأقلامه ؛ قاضٍ يُفَرِّق بين المهترِجِين[1] برأىٍ لا يَطيش حِلْمُه ولا يَزِلُّ حُكْمُه ، ويتَّقِى الشُّبُهات بوَرَع يَتْبَعه عملُه ويَهْديه عِلْمُه ؛ ما لَحَظَ جهةً إلا حَظِيَتْ ببركة دارّة مُزْنُها ، سارية مَناجِحُها سارٍّ يُمْنُها ؛ ولا أقبلَ علىٰ بيتٍ من بيوتِ الله إلا حَنَّ منه إلىٰ سُبُحَات الجلال ، ولا تكلَّم فى وَقْفٍ إلا أجْراه فى صالح الأعمال علىٰ أقْوم مِثَال ؛ ونحنُ لهذه المَزَايا نَرُدُّ إلىٰ نظره الكريم ما أهَمَّنا من عِمارةِ مسجدٍ وجامع ، ونُقَلِّده من أوقافِنا ما يَخْلُفنا فيه خيرًا فإنَّ الأوقافَ ودائع .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الناصرىّ ـ لا زال يُصِيب الصَّواب ، ولا يَعْدُو أُولِى الألباب ـ أن يفوَّض إليه نظرُ الجامع الناصرىّ المعمُورِ بذكر الله تعالىٰ ، بقَلْعة الجبل المحروسة ، وأوقافِه ، والنظرُ علىٰ التربة والمدرسة الأشرفِيَّيْن وأوقافِهما .

***

ومنها ـ نظرُ مَشْهد الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط القاهرة فى المقالة الثانية أنَّ الصالحَ طلائِعَ ابنَ رُزِّيكَ حين قصد نقلَ رأسِ الإمام الحُسَين إلىٰ القاهرة ، بَنَىٰ لذٰلك جامعَه

(١) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعثر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارجَ بابى زُوَيلة[1]، فبلغ ذٰلك الخليفةَ فأفردَ لهـا هذه القاعةَ من قاعات القَصْر وأمر بنَقْلها إليهـا .

وهذه نسخة توقيع بنظره، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَواطنَ الشَّرَف فى أيّامنا الزاهرة، محصُورةً فى أكفائهـا ، ومَشاهدَ السيادة فى دولتنا القاهرةِ ، مقصورةً علىٰ من حَبَتْه أوامرُنا باعتنائها ، وخصَّتْه آلاؤنا باصطفائها؛ الذى أجرىٰ حُسنَ النظر فى مَظَانِّ الآباء الطاهرةِ علىٰ يَدِ مَنْ طلع فى أُفُق العَلْياء من أبنائها، وعَمَر معاهِدَ القُرُبات بتدبير مَنْ بدأَ بقَواعِد دِينِه وأجاد إحكامَ تشييدِها وإتقانَ بِنائها .

نحمده علىٰ ماخُصَّت به أيامُنا من رَفْع أقدار ذَوِى السِّيادة والشَّرف، وٱتَّصف به إنعامُنا من مَزِيد بِرٍّ عُلِم بحُسْن ظهُوره علىٰ الأولياء أنَّ الخيرَ فى السَّرَف .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شـهادةً يُعَرِّف بهـا من ٱعترف ، ويُشَرِّف قدرُ من له بالمحافَظة عليها شَغَف؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى طهَّر الله بَضْـعتَه الزهراءَ وبَنِيها ، وخصَّهم بمزِيَّة القُربىٰ التى نزَّهه أن يسأل علىٰ الهِدايةِ أجْرا إلا المَوَدّة فيها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم أجدَرُ بالكَرَم ، وأحقُّ بمَحَاسن الشِّيَم، ومامنهم إلا مَنْ (تَعرِف البَطْحاءُ وطْأتَه * والبَيْتُ يَعرِفُه والحِـلُّ والحَرَم) ؛ وعلىٰ آله وأصحـابه الذين أنعم الله به عليهم ، وٱتَّبعوه فى ساعةِ العُسْرة فمنهـم الذين أُخرِجُوا من دِيَارهم والذين يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ مَن زُيِّنَت به مواطِنُ الشَّرف، وعُدِقت به العِنايةُ بخِدْمة من دَرَج من بَيت النبوّة وسَلَف، وعُمِرت به مشاهِدُ آثارِهم التى هى فى الحقيقة لهم غُرَف ،

(١) بجهينة وسفينة . انظر شرح القاموس فى مادة زول .

[ونالَتْ الدولةُ] منْ تدبيره الجميل بعض حظِّها ، وخصَّت بُقعته المباركة من نظره بمـا ينُوب فى خِدمةِ محلّه الشريف عن مواقع لحَظِها، وجعلَتْ به لأبنِ رسول الله من خِدمة أبيه معها نَصيبا، وفعلَتْ ذلك إذ خبرَتْ خدمتـه أجنبيًّا علمـا أنها تتضاعف له إذا كان نَسيبا ، وحكمَتْ بمـا قام عنـدها مَقَام الثُّبوت ، وأمرتْه أن يبدأ بخدمة أهلِ البيت [فإن] لازمَها لديْها مقدّمٌ علىٰ البيوت - مَن طَلَع شِهابُ فضله من الشَّرَف السَّنِىِّ فى أكرم أُفُق ، وأحاطتْ به أسـبابُ السُّؤْدَد من سـائر الوجُوه إحاطةَ الطَّوْق بالعُنُق ، وزانَ الشَّرفَ بالسُّؤدَد والعـلمَ بالعمَل ، والرياسـةَ باللطف فاختارتْه المناصِبُ وآختالتْ به الدُّوَل ، وتقـدّم بنَفْسه ونَفَاسـةِ أصله فكان شَوْطُ من تقدّمَه وراء خَطْوه وهو يمشى علىٰ مَهَل ؛ وآصـطفَتْه الدولةُ القاهرةُ لنَفْسـها فتمسّك من المُوالاة بأوْثَقِ أسبابِها، وآعتمدَتْ عليه فى بَثِّ نِعَمِها، وبَعْث كَرَمِها، فعرّف فى ذٰلك الأمورَ من وجهها وأتَى البيوتَ من أبوابِها ؛ وحَمِدَتْ وفُودُ أبوابِنـا العاليةِ لحسن سَيْرتِه فى إكرامهم السَّرَىٰ، وآكتفَتْ [حتى] مع تَرْك الكرامة إليهم بَشاشةِ وجهِه التى هى خَيْرٌ من القِرَىٰ؛ وصان البُيوتَ عن الإقواء بتدبيرِه الذى هو من موادِّ الأرزاق، وزاد الحواصلَ بتثميره مع كَثْرة الكُلَف التى لو حاكَتْهـا الغمائمُ لأمسكَتْ خَشْيةَ الإنفاق .

ولمـا كان فلان هو الذى تُليت مناقِبُ بيته الطاهر ، وجُلِيت مفـاخرُ أصـله الزاهر، وتجملت بشَرَف خِلاله خِلالُ الشَّرف التى تركها الأوّلُ للآخر، وكان مشْهَد الإمام السيد الحسين آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بُقْعةٌ هى منْتَجَع الرحمه ، ومَظِنَّة إجابة الأُمَّه، وروضةٌ من شُرِّفت بانتقاله إليهـا ، وتربةُ شهيد الزهراء صلوات الله علىٰ أبيها وعليها ؛ وبه الآنَ [من] رواتب القُرُبات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يَحتاج إلىٰ آختيار من يُجْمِل النظرَ فيه ،

ويسلك نَهْج سلَفه فى الإعراض عن عَرَض الدنيا ويَقْتفيه ـ رأينا أن نختار لذٰلك من ٱخترناه لأنفسنا فكان الكُفْءَ الكريم ، وٱختَبَرْناه لمصالحنا فخَبَرْنا منه الحفيظَ العليم ، وأن نُقَــدّم مُهِمَّ ذلك البيتِ علىٰ مُهِمِّ بيوتنا فإنَّ حقوق آل بيتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحَقُّ بالتعظيم .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مكارمُه بتقريب ذَوِى القُرْبىٰ جَديره ، ومراسيمه علىٰ إقدار ذَوِى الرُّتب علىٰ مايجب قَديره ، ـ أن يفوّضَ إليه النظرُ علىٰ مشهد الإمام الحسين ٱبن أمير المؤمنــين علىّ بن أبى طالب عليهما الســلام بالقاهرة المحروسة ، علىٰ قاعدة من تقدّمه فى ذٰلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقف : لمــا قدّمْناه من أسبابٍ رجّحته لذلك ، وبيّنّاه من أمور أوضَحَتْ فى ٱختيارنا له المَسَالك ؛ ومَنْ أولىٰ منــه بهذه الرتبة التى شهِدَتْ له باستحقاقها مناصِــبُهُ ومَنَاسِبُه ، أو أقدَرُ منه علىٰ أمثــال هذه الوظيفة وقد أقرّتْ بكماله وكرمِ خِلاله مراتبُ الباب الشريف ورَواتِبُـــه .

فليُمْعن النظرَ فى مباشَرة أوقافِ هــذه البُقعةِ المباركةِ مُظهرا ثمرة تفويضها إليه ، مبيِّنــا نتيجةَ تعرُّضها له وعَرْضِها عليــه ، منبِّها علىٰ سِرّ التوفيق فيما وضَع أمْرُنا من مقاليد أمرِها فى يدَيْه ؛ مجتهِدًا فى تمييز أموال الوقْف من كل كاتب[حديث] ، موضِّحًا من شفقة الولد [على] ماأُنسِب إلىٰ الوالد ما شهِدَت به فى حقِّها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذٰلك المشهدِ ما يشْهَد له به غدا عند جَدِّه ، ناشرا من ... ...(١) لواءَ فضلٍ رفْعُه فى الحقيقة رفعٌ لمجده ؛ وليلْحَظْ تلك المصالحَ بنظره الذى يَزِيد أموالَهــا تثمِــيرا ، ورِباعَها تعْميرا ، وحواصلَها تمْيِــيزا وتوفيرا ، وٱرجُ أيُّها الســيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عندَ الله تعالىٰ بذٰلك عن كل حســنةٍ عشرا إن ذٰلك [كان] علىٰ الله يسيرا . وصُنْ مابيدك عن شوائب الأدناس : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . وقد خبَرْنا من سيرتك وسريرتك مالا نَحتاج أن نَزْداد به خُبْرا، ولا أنْ نبلُوَه بعد ماسَلَف مرَّةً أخرىٰ؛ ولكن نُذَكِّرك بتقوىٰ الله التى أنت بها متَّصف، وبوُجودها فيك معروفٌ وبوُجُوبها عليك تعتَرِف؛ فقدِّمْها بين يدَيْك، وٱجعَلْها العُمْدة فيما ٱعتمَدْنا فيه عليك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الثالثـــــة

(من الوظائف الدينية ما يُكتب فى قطع العادة الصغير، مفتتحا بـ«رُسِم بالأمر الشريف»)

وهو لمن كانتْ رتبتُــه مجلس القاضى، ورُبَّمــا كُتِب فيــه بالسامى بغــير ياء لمن قُصِد تعظيمُه وهو قليــلٌ، وبه يُكتَب لأرباب الوظائف الصِّغَار من الخُطَبــاء، والمدَرِّسين، ونُظَّار الأوقاف، وغيرِهم ممن لاينحصِرُ كثرةً .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البِيمارَسْتَان العتِيق الذى رَتَّبه السلطانُ صَلاحُ الدين «يوسُف بن أيُّوب» فى بعض قاعات قَصْر الفاطميِّين، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَت أيَّامهُ تُفيد عَلَاء، وتستخدِم أكْفاء، وتُضْفِى ملابِسَ النَّعماء علىٰ كلِّ علىٍّ فتكْسُوه بَهْجَةً وبَهاء ـ أن يستقِرّ فلان فى نَظَر البيمارَسْتان الصَّلَاحىّ بالقاهرة المحروســة، بالمعلوم الشاهــد به الدِّيوان المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت، لكَفاءته التى ٱشتهر ذكْرُها، وأمانته التى صدَّق خَبَرَها خُبْرُها، ونزاهتِه التى أضحىٰ بها

عليّ النفس فغدا بكل ثناء مليًّا ، ورياسته التي أحلّت قدره أسمى رتبةٍ فلا غرو أن يكون «عليًّا» .

فليباشر نظر البيمارستان المذكور مباشرةً يظهر بها انتفاعه ، وتتميّز بها أوضاعه ؛ ويضحى عامر الأرجاء والنّواحى ، ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرّفه : الآن كما بدا صلاحى ؛ وليجعل همّته مصروفةً إلى ضبط مقبوضه ومصروفه ، ويظهر نهضته المعروفة بتثمير ريعه حتى تتضاعف موادّ معروفه ؛ ويلاحظ أحوال من فيه ملاحظةً تذهب عنهم الباس ، ويراع مصالح حاله فى تنميته وتزكيته حتّى لا يزال منه شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاء للناس ؛ وليتناول المعلوم الشاهد به الدّيوان المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

واعلم أنّ من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب فى هيئة أوراق الطريق ، أو على ظهور القصص ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة توقيع بالتحدّث فى وقف :

رسم بالأمر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الفلانىّ – أعلاه الله تعالى وشرّفه ، وأنفذه وصرّفه – أن يستقرّ القاضى فلانُ الدين فلان فى التحدّث فى الوقف الفلانىّ ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به كتاب الوقف . فليعتمد هذا المرسوم الشريف كلّ واقف عليه ، ويعمل بحسبه وبمقتضاه ، بعد الخط الشريف ، إن شاء الله تعالى .

الضـــــرب الثـالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية ـ الوظائفُ الديوانية)

وهى على طبقتين :

الطبقـــــة الأولى

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يُكتب له «الجنابُ العالى»
وفيها وظيفتان)

الوظيفـــــــة الأولى

(الوزارة، إذا كان متولِّيها من أرباب الأقلام، كما هو الغالِبُ)

وقد تقـدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية نقلا عن "مَسَالك الأبصار" أن رتبها ثانى السلطان لو أُنصف وعُرِف حقُّه، إلا أنها لما حدثت عليها النيابة، تأخرتْ وقعَد بها مكانُها حتّى صار المتحدِّثُ فيها كناظر المال، لايتعـدّى الحديثَ فيه ولا يتّسع له فى التصرُّف مجَال، ولا تمتدّ يدُه فى الولاية والعَزْل لتطلُّع السلطان إلى الإحاطة بجَرَيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام على مقدّمة الولايات فى الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل، والكلامُ على طرّة تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليـدٍ بالوزارة، كُتِبَ بها للصاحب «بهاءِ الدين بن حَنَّا» . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى وهَبَ لهذه الدولة القاهرةِ من لدنْه وليًّا، وجعل مكانَ سرِّها وشَدَّ أزْرها عليًّا، ورضِىَ لها من لم يزل عند ربِّه مَرْضيًّا .

نحمده على لطفه الذى أمسى بنا حفيا، ونشكره على أن جعل دولتنا جنة أورث تدبيرها من عباده من كان تقيا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نسبح بها بكرة وعشيا، ونصلى على سيدنا محمد الذى آتاه الله الكتاب وجعله نبيا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتبع بها صراطا سويا.

وبعد، فإن أولى ما تنغمت ألسنة الأقلام بتلاوة سوره، وتنعمت أفواه المحابر بالاستمداد لتسطير سيره؛ وتناجت الكرام الكاتبون بشكر مجمله ومفصله، وتناشدت الرواة بحسن لسنه وترنمت الحداة بطيب غزله؛ وتهادت الأقاليم تحف معجله ومؤجله، وعنت وجوه المهارق لصعود كلمه الطيب ورفع صالح عمله ـ ما كان فيه شكر لنعمة تمنها على الدولة سعادة جدودها وحظوظها، وإفادة مصونها ومحفوظها، وإرادة مرموقها بحسن الاستيداع وملحوظها؛ وحمد لمنحة أفاءتها بركات أحسنت للملكة الشريفة مآلا، وقربت لها منالا، وأصلحت لها أحوالا، وكاثرت مدد البحر فكلما أجرى ذاك ماء أجرت هى مالا؛ وإن ضنت السحب أنشأت هى سحبا، وإن قيل ـ بشح سيحنا ـ : رونق الأرض ذهب، عوضت عنه ذهبا؛ كم لها فى الوجود من كرم وكرامه، وفى الوجوه من وسوم ووسامه؛ كم أحيت مهجا، وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجا؛ وكم وسعت أملا، وكم تركت صدر الحزن سهلا، وكم تركت صدر الخزائن ضيقا حرجا؛ كم استخدمت جيش تهجد فى بطن الليل، وجيش جهاد على ظهور الخيل؛ وكم أنفقت فى واقف فى قلب بين صفوف الحروب، وفى واقف فى صفوف المساجد من أصحاب القلوب؛ كم سبيل يسرت، وسعود كثرت؛ وكم مخاوف أدبرت حين درت، وكم آثار فى البلاد والعباد آثرت وأثرت، وكم وافت ووفت؛ وكم كفت وكفت، وكم أعفت وعفت وعفت، وكم بها موازين للأولياء ثقلت وموازين للأعداء خفت؛ كم أجرت من وقوف،

وكم عُرِفَتْ بمعروف ؛ كم بيوتِ عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو مِحرابُها ، وسماءِ جُودٍ هو سَحابُها ومدينــةِ علم هو بابُها ؛ تُثْنى الليالى علىٰ تغليسه إلىٰ المساجد فى الحَنَادِس ، والأيامُ علىٰ تهجيره لعيَادة الفُقَراء وحُضور الجنائز و زيارةِ القُبور الدَّوارِس ؛ يَكتَنُّ تحت جَناحِ عدْله الظاعنُ والمُقيم ، وتَشْــكُر مَبارَّه يثربُ و زمزَمُ ومكَّةُ والحَطِيم ؛ كم عمَّتْ سُنَن تفقُّداته ونوافِلُه ، وكم مرَّتْ صــدَقاتُه بالوادى ــ فَسَّح الله فى مُدَّته ــ فأثنَتْ عليه رِمَالُه و بالنادى فأثنت عليه أراملُه ؛ ما زار الشامَ إلا أغناه عن منَّة المطر ، ولا صَحِب سلطانَه فى سفر إلا قال : نِعْم الصاحبُ فى السَّفَر والحَضَر .

ولمــا كان المنفردُ بهــذه البركاتِ هو واحدُ الوجُود ، ومَنْ لا يُشــاركه فى المزَايا شريكٌ و إنَّ الليــالىَ بإيجاد مثْـله غيرُ وَلُود ؛ وهو الذى لو لم نُسَمِّه قال سامع هذه المناقب : هذا الموصُوف ، عنْد الله وعند خلقِه معْروف ؛ وهذا الممدُوح ، بأكثَرَ من هذه المدائح والمحامد من ربه ممدُوح وممْنُوح ؛ وهذا المنعوتُ بذٰلك ، قد نعتَتْه بأكثر من هذه النُّعوتِ الملائك ؛ و إنمــا نذكُرُ نعوتَه ٱلتذاذا ، فلا يعتقد خاطبٌ ولا كاتب أنه وفَّى جلالتَه بعضَ حقِّها فإنه أشرف من هذا ؛ و إذا كان ولا بدّ للمَادح أن تجول ، وللقلم أن يقُول ؛ فتلك بركاتُ المجلس العــالى ، الصاحبىّ ، الســيِّدىّ ، الوَرَعىّ ، الزاهــدىّ ، العــابِدىّ ، الوالِدىّ ، الذُّخْرىّ ، الكَفِيلىّ ، المُمَهِّدىّ ، المشــيِّدىّ ، العونىّ ، القِوَامىّ ، النِّظامىّ ، الأفضَلىّ ، الأشرَفىّ ، العالمِىّ ، العادِلىّ ، البهائىّ ؛ سيد الوُزَراء فى العالمين ، كهف العابِدين ، ملجأ الصالحين ؛ شرفِ الأولياء المتَّقين ؛ مدبِّر الدول ، سدَاد الثُّغور ، صلاح الممالك ؛ قُدوة الملوك والسلاطين ، يمين أمير المؤمنين ؛ علىّ بن محمد : أدام الله جلاله . من تَشرُّف الأقاليمُ بحياطة قلَمه المبارك ، والتقاليدُ بتجديد تنفيذه الذى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك ؛ فمــا جُدِّد منها إنمــا هو بمَثابة آياتٍ

فتُرَدَّد، أو بمنزلة سجلات فى كل حين بها يُحْكم وفيها يُشْهَد ؛ حتى تتناقل ثبوتَه الأيامُ والليالى، ولا يخلو جيدُ دولة من أنه يكون الحالى بما لَهُ من فاخر اللآلى.

فلذلك خرج الأمرُ العالى ـ لا برح يُكْسِب بهاءَ الدين المحمدىّ أتمَّ الأنوار، ولا بَرِحت مراسِمُه تزهُو من قلم منَفِّذه بذى الفقر وذى الفَقَار ـ أن يضَمَّن هذا التقليدُ الشريف بالوزارة التامة، العامَّة، الشاملة، الكاملة : من المآثر الشريفة الصاحبية، البهائية، أحسنَ التضمين، وأن يُنْشر منها مايتَلَقَّ رايتَه كلُّ رَبِّ سيف وقلَم باليمين ؛ وأن يُعْلم كافَّةُ الناس ومن تضُمُّه طاعةُ هذه الدولة ومُلْكُها وسِلْكُها من مَلك وأمير، وكلّ مدينةٍ ذاتِ مِنْبر وسرير ؛ وكلّ من جمعَتْه الأقاليمُ من نُوّاب سلطنه، وذى طاعةٍ مُذْعِنه ؛ وأصحابِ عقْد وحَلّ، وظَعْنٍ وحَلّ ؛ وذى جُنُود وحُشُود، ورافِعِى أعلامٍ وبُنُود ؛ وكلّ راعٍ ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعيه ؛ وكلّ صاحب علم وتدْريس، وتهليلٍ وتقديس ؛ وكلّ من يدخُل فى حكم هذه الدولة الغالبة من شُمُوسها المضيئة، وبُدُورها المُنيرة وشُهُبها الثاقبة، فى الممالك المصريَّة، والنُّوبيَّة، والساحليَّة، والكَرَكيَّة، والشَّوْبَكيَّة، والشاميَّة، والحَلَبية، وما يتداخَلُ بينَ ذلك، من ثُغُور وحُصُون وممالك ـ أنَّ القَلَم المبارَك الصاحِبىّ البَهَائىّ فى جميع هذه الممالك مَبْسوط، وأمْرَ تدبيرها به مَنُوط، ورعايةَ شفقَتِه لها تَحُوط ؛ وله النظرُ فى أحوالها، وأموالها ؛ وإليه أمرُ قَوانينها، ودواوينها، وكُتَّابها، وحُسَّابها ؛ ومَرَاتبها، ورَوَاتِبها ؛ وتصريفها، ومَصْروفها ؛ وإليه التولية والصَّرْف، وإلى تقدُّمه البدلُ والنعتُ والتوكيدُ والعَطْف ؛ فهو صاحبُ الرُّتبة التى لا يَحُلُّها سواه وسوى من هو مرتَضيه، من السادة الوزراء بَنِيه، وما سمَّينا غيرَه وغيرَهم

بالصُّحُوبيــة (١) فليحذر من يُخـاطِبُ غيرَه [و] غيرهم بها أو يُسمِّيه؛ فكما كان والدُنا الشهيدُ رحمه الله يخـاطبه بالوالد قد خاطَبْناه بذلك وخَطَبْناه ، وما عدَلْنـا عن ذلك بل عَدَلْنا لأنه ما ظَلَم مَنْ أشـبَهَ أباه ؛ فمنزِلتُه لاتُسامىٰ ولا تُسام ، ومكانتُـه لا تُرامىٰ ولا تُرام ؛ فمن قَدَح فى سِـيادته من حُسَّاده زِنادَ قَدْحٍ أُحْرِقَ بشَرَرِ شَرِّه ، ومَنْ رِكب إلىٰ جَلَالته ،ثَبَجَ سُوء أُغْرِق فى بَحْره، ومن فَتَل لسعادته، حَبْل كيدٍ فإنما فتَلَه مُبْرِمُه لنَحْره ؛ فلتلْزَمِ الألسـنةُ والأقلامُ والأقدامُ فى خِدْمتِه أحسنَ الآداب، وليقُل المتردّدون : حِطَّةٌ إذا دخلُوا الباب؛ ولا يغترّنهم فرطُ تواضُعِه لدينه وتَقْواه ، فمن تأدّب معه تأدّب مَعَنا ومن تأدب مَعَنا تأدَّبَ مع الله . وليُتْلَ هـذا التقليدُ علىٰ رءُوس الأشهاد، وتُنْسَخ نُسْخَتُه حتّى تتناقلها الأمصارُ والبِلاد ؛ فهو حجّتنا علىٰ من سمَّيناه خصُوصا ومن يدْخُل فى ذٰلك بطريق العُمُوم ، فليعملُوا فيه بالنص والقياس والآستنباط والمفهوم؛ والله يَزِيد المجلس الصاحِبيَّ الوزيريّ البهائيَّ سـيدَ الوزراء من فضله ، ويُبْقِيه لغاب هذه الدولةِ يصُونُه لشبْله كما صانه لأسَده من قَبْله ، ويمتِّع بنيتـه الصالحة التى يحسُنُ بها ــ إن شاء الله ــ نَمـاءُ الفرع كما حَسُن نمـاءُ أصلِه ، بمنّه وكرمه! .

⁂

وهذه نسـخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين آبن الصاحب بَهاءِ الدين علىِّ بن حَنَّا ، فى ربيع الأوّل سنَةَ ثلاث وتسعين وستّمائة ، من إنشاء المولىٰ شِهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ ، تغمده الله برحمته ، وهى :

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمد لله مكمّل شرف الوزارة بطَلْعة تاجها ، ومشرِّف قَدْرها بمَنْ تُشْرق عليها أشعَّة سعده إشراقَ الكواكب علىٰ أبراجها ، ورافع لواء مجدها بمَن تلقَّته بعد الجَفَاء فى حُلَل سُرورها وحُليِّ ٱبتهاجها ؛ وتحلَّتْ بعدَ العَطَل من جواهر مَفاخره بما تتزيَّنُ عقود السُّعود بازْدواجها ، وترفُل من ٱنتسابها إلىٰ أُبَّهة بهائه بما يَودُّ ذهبُ الأصيل لوٱمتزَج بسُلُوك ٱنْتساجها ؛ الذى شيَّد قواعدَ هذه المرتَبة السنيَّة فى أيَّامنا وجدَّدَها ، وبعثَ لها علىٰ فَتْرة من الأكْفاء مَنْ حَسَم الأدْواءَ فكان مَسِيحَها وشَرَعَ المَعْدَلَةَ فكان محمَّدَها ؛ وردَّها بحكم الٱستحقاقِ إلىٰ من لا يُخْتلَف فى أنه صاحبُها ، ورجَعَها إلىٰ من خطَبَتْه لنفْسها بعد أن أحجَم لشَرَف قَدْرها خاطبُها .

نحمَدُه علىٰ أن شَدّ أَزْر مُلْكنا بأكرمِ وزير ، وأيمَنِ مشير ؛ وأجلِّ مَنْ ينتهى إلىٰ بيتٍ كريم ، وحسَبٍ صَمِيم ، ومن إذا قال لسان مُلْكنا : ﴿ ٱئْتُونِى به أَستَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ قالت كفايتُه : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُقرّ بها سِرًّا وعَلَنًا ، ونُقرُّبها هذه العقيلةَ الجليلةَ عند من يكْسُوها مَجْدُه رفعةً وسَنًا ، ويُلْبِس جَفْنَ الدَّهر عنها وسَنَا ؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله المخصوصُ بكل صاحبٍ شهد الكتابُ والسنَّةُ بفضله ، وقام بعضُهم بحُسن مُؤازَرته مَقامَ من شدّ اللهُ [به] عضدَ مَن سَألَه وزيرًا من أهْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تَغْرُب شمسها ، ولا يعزُبُ أُنْسُها ، ولا يتَفاوتُ فى المحافظة عليها غَدُها وأَمْسُها ؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من خَطَبَت بحمْده الأقلام ، وٱفتَتحت به الدولةُ التى ٱبتَسمت بنسيمها ثُغُورُ الأيام ؛ وودَّت مسكةُ الليل لو مازجَتْ أنفاسَه ، وأمَّل بياضُ النهار لوأخذ من غير سمة عوضَ ورق الوَرَق قِرطاسَه ؛ وتحاشدت النجوم لتنتَسق فى سلك

معانيــه وطارتْ بذكره فى الآفاق أنباء السُّــعود، وحكمت الجُــدُود بأنه فى آقتبال إقباله نهايةُ الآباءِ وغايةُ الجُدُود ، وآفترّت به ثغور الممالك عن أحسَن الدُّرِّ النَّضيد ، وسَرَتْ بذكره رِفاقُ الآفاقِ ففِى كلِّ نادٍ مُنادٍ وفى كلِّ برٍّ بَريد ، وآختالتْ به أعطافُ الدولة القاهرة فأوتْ من الرأى السَّديد إلىٰ كلِّ ركنٍ شديد، ونطق به العدلُ والحقُّ نخَرِس الظُّلم وما يُبــدئُ الباطلُ وما يُعيد، وجرتْ به أقدارُ ذوى الرُّتَب علىٰ أجمــل مَناهِجِها فأمّا أهــل العدل فيُقرَّبون نجيًّا وأما أهــل الظُّلم فأُولَئِــكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ، وبدَتْ به وجوهُ المصالح ســافرةً بعد الحِجَاب ، بارزةً بعد طُول الأنتقال إلىٰ الآنتقاب ، داخلةً بوفُود المحامد من كلِّ باب ، إلا الظُّلمَ فإنه بحمد الله قد سُدَّ ذلك الباب . وأقرّ منصبُ الوزارة الشريفة أنّا أعَدْنا به الحقَّ إلىٰ نِصابه ،ورددْناه إلىٰ من هو أَوْلىٰ به بعد آغتصــابِه ، وألبَسْــناه من بَهْجة أيّامنا تاجًا رَدَّ عليــه عِزًّا لا تطْمَع يَدُ الذَّهَب فى آنتزاعه عنه ولا آستلابِه ؛ وتقليدَه لمن يودُّ الفرقَدُ لو عُقِدَ به إكليلُه ، ويتمنَّى الطَّرْفُ لو أدركَ غايةَ مَجْــده وإن رجع وهو حسيرُ البصر كَليلُهُ ؛ وتفويضَ ذلك إلىٰ من كان له وهو فى يَدِ غيره، ومَنْ به وببيته تمهَّدت قواعدُه فمــا كان فيه من خير فهو من سَيرِتِهم وما كانــ من شَرٍّ فمن قِبَل المُقَصِّر من عِثَارهم فى سَيْره ؛ وما أُحدِث فيــه من ظُلْمٍ فهو منه بُرَاءٌ إذْ إثمُ ذلكَ علىٰ من آجترأَ عليه ، وما أُجرِى به من معروف فإلىٰ طريقهم منسوبٌ وإن تلَبَّس منه بمــا لم يُعْطَ مَنْ نُسِب إليه ؛ وما خلا منهم هذا الدَّستُ الكريم إلا وهم بالأولَوِيَّة فى صَدْره الجلوس، ولا تصدَّىٰ غيرُهم لتعاطِيه إلا وأقبلَتْ عليه فى أيّامه الجُسوم وعِلّة النُّفُوس .

ولذلك لمّــا كانتْ هــذه الدولةُ القاهرة مفتَتَحة بالبركات أيّامُها، ماضيةً بكَفِّ الظلم ونَشْر العدل سُيُوفها وأقلامُها، مستــهِلّةً بالارزاق سُحُبُ فضــلها التى لا يُقْلِــع

غمامُها ـ اقتضت الآراءُ الشريفة اختيارَ خيرِ صاحبٍ يُعين على الحق بآرائه، ويجمّل الدَّستَ ببهجته ورُوَائه، ويُجْرِى الأرزاقَ بوجْهٍ لو تأمّله امرُؤ ظامِئُ الجوانح لارتوى من مائه ؛ وكان المجلس العالى، الصاحبىُّ، الوزيرىُّ، التاجىّ : أدام الله تعالى نعمتَه، ورَحِم سلَفَه، هو المخطوبَ لفضله، والمطلوبَ لهذا الدَّسْت الذى تعين له دونَ الأكفاء وإن لم يكنْ غيرُأهْله من أهله ؛ ومازال يتشوّفُ إليه تشوُّف البُروج إلى نُجُوم السُّعود، ويتطلّع إلى مُحيّاه الذى هو كَنُور الشمس فى الدُّنُوّ وكَمَحلِّها فى الصُّعُود؛ وما زالت الأدعيةُ الصالحةُ ترتفِع فى أيامه لمالكِ عَصْره، والآراءُ تُقام منها جُنودٌ لتأبيده وحُشُود لنَصْره، والأموالُ تُحمَلُ منها إلى خَزائنه بأشْبَهَ بموج البحر فى الحَضْر دُونَ حَصْره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ ضاعفَ الله مواهبَه العَميمه، وكَمَّل جَلالَ دولته بتفويض أُمورها إلى ذَوى الأصول العريقة والبُيوتِ القديمه ـ أن تُحَلَّى منه هذه الرتبةُ العلية بما حَلَّى به الدِّين، وتُعقَدَ له رايةُ فضلِها المَتين؛ ليتلقّاها شرْقًا وغَرْبا، وبُعْدًا وقربا ؛ وبَرًّا وبحرا ، وشامًا ومِصْرا، ويُحَلِّى حِلاَه عِلْمٌ وعَلَمٌ، وسيفٌ وقلَم؛ ومِنبَرٌ وسرير، ومأمورٌ وأمير .

فليتلَقّ أمرَه بالطاعة كلُّ مؤتمِر بأمْرِنا الشريف، جارٍ فى طاعتنا المفروضة بين بَيَان التقليد وعِنَان التصريف ؛ وليُبادِرْ إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركه ، ويمضِ القواعدَ على ماتَراه آراؤُه المنزَّهة عن المنازعة فى الأمْرِ والمشاركه ؛ ولينْشُرْ كلمة العدل التى أمر اللهُ بإضافة الإحسانِ إليها ،ويُمِتْ بِدَع الظلم فإنَّ الله يشْكُره على تلك الإماتة ويحمَدُه عليها ؛ ويسهِّلْ رِزْق الصدقات، ووظائفَ القُرُبات، فإن ذلك من أجَلِّ ما قدَّمتْهُ [الطائفة] الصالحةُ بين يَدَيْها ؛ وليُكْثِر بذلك جنودَ الليل فإنها لاتَطيش سهامُها، ويتوقَّ من مُحارَبتها بظُلْمٍ فإنّه لا يُداوى بالرُّقَى سِمامُها ، وليعوِّد بتمام التيسير

مواهبَنا فإنَّ تمام النعمة تمـائمُها ، وليطلق قلمَه فى البَسْط والقبض وليُعِدْ بتدبيره على هـذا المنصب الشريف بهجَتَه ، ويتدارَكْ بآرائه ذَمَاءَه وبدوائه مُهْجتَه ؛ ويَصُنْ عن شوائب الظُّلم حرمتَـه ، ويخلِّص ذمَّتنا من المآثم وذِمَّتَه ؛ وليعلَمْ أنَّ أمور المملكة الشريفة مَنُوطةٌ بآرائِه وأحكامه ، مضـبوطةٌ بأقواله وأقلامِه ؛ فليجعلْ فِكْرَه مِرْآةً تجْلُو عليه صُوَرَها ، ويُقِمْ آراءَه صُحُفا تَتْلو لدَيْه سُوَرَها ؛ وليأمُرِ النوّاب بمـا يَراه من مصالحنا لِيُلَبُّوه سامعين ، ويُسْهِر جَفْنه فى مصالح البِلاد والعِباد لترقُد الرَّعايا فى مِهَاد الأمْن وا عين ؛ وليَعْضُـد الشريعـةَ المطهَّرة بتنفيذ أحكامِها ، وإعلاء أعلامِها ؛ وإظهارِ أنوارها ، وإقامةِ مارفعه الله من مَنَارِها ؛ ولا يَعْدِل فى أمور مباشرتِها بالممالك الشريفة عن آرائِه ، ولا يُمْضِى فيها عَزْلا ولا وِلايةً إلا بعد تتَبُّعه الواجبَ فى ذٰلك وٱستقرائِه ، وهو أعلم بمـا يجب لهذه الرُّتبـة من قواعدَ إليـه يُرْجَع فى أوضاعها ، وعليـه يُعوَّل فى ٱصطلاحها لٱنفرادِها فيه وٱجتماعِها ؛ فليفعَلْ فى ذٰلك ما هو عليـه بحُسْـن الثناء جدير ، وليعتصِمْ بالله فى أموره فإنَّه نِعْمَ المولىٰ ونِعْم النصير ؛ إن شاء الله تعـالىٰ .

***

وهـذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب ضياءِ الديـن بالاستمرار على الوزارة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ :

الحمد لله الذى شَدَّ أَزْر مُلْكِنا الشريف ، بمن أضاء فى أُفُق الدِّين علْمُه ، وشـيَّد قواعدَ عدْلِنا المُنيف ، بمن أعْلَتْ منارَ الحقِّ آياتُه فى أحكام الممـالك وحِلْمُه ، ووطَّد أركانَ دولتنا القـاهرة بمن يفْعل فى نِكَاية أعداء الله فِعْلَ الحربِ العَوَان سِـلْمُه ،

وأجرى الأرزاقَ فى أيّامنا الزاهرة على يَدِ من كَفَّت أقلامُه كفَّ الحوادث فلا عُدْوانَ تغشى ظُلَمُه ولا عادٍ يُخشى ظُلْمُه ، وصانَ ممالكنا المحروسةَ بآراء مَنْ إن صَرَف إلى نكاية أعداء الله حَدّ يراعِه لم يَنْبُ موقعُه ولم يَعْفُ كَلْمُه ، وإن صرفه فى حماية ثغر لم يُشَمْ برقُه ولم يَدِقّ بالوهم ظُلْمُه ، وإن حمى جانبَ إقليم عزّ على الأيام ثَلُّ عُروشِ ما حَمَاه وَشْمُه ، وإن أرهفَه لذَبٍّ عن دين الله راعتْ عدوّ الدين منه يقظتُه وسلّه عليه حُلْمُه .

نحمده على نِعَمه التى زانتْ أسنى مناصبِ الدنيا فى أيّامنا الزاهرة بضياء الدِّين ، وأعلَتْ أقدارَ الرُّتب العُلْيا بتصرُّفها بآراء من أصبح عِلْمُه عَلَمًا للمتقين وعَمَلُه سَنَنًا للمقتدين ، وبَجَّرت ينابيعُ الأرزاق فى دولتنا القاهرة بيَدِ من أغنى بيدنا المعتفين وقمَعَ بمهابتنا المعتدين .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أعاد يُمْنُها على سَمْعِ المنابر من نُعوتنا ما فَقَد ، وأطفأ إعلانُها عن حَمَلتها لَهَبَ العناد وقد وَقَد ، وفوّضَ اعتناؤُنا بمصالح أهلها أمورَهم إلى أكمل من انتقى لنا التأييدُ من ذخائر العلماء وأفضل من انتقَد ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أقامنا الله للذَّبّ عن أمّته ، وجلا بنُور جهادنا لأعدائه عن قَلْب كل مؤمن ما أظَلَّه من غَمِّه ورانَ عليه من غُمّته ، وعضَّدنا من أئمة ملّته بمن أردْنا مصالحَ العباد والبلادِ فى إلقاء كلّ أمر إليه بأزمّته ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين منهم من فاز بسَبْقه ، وحاز بتصديقه قدمَ صِدْقه ، واختصَّه الله بمؤازرة نبيِّه دُونَ مَنِ اجتباه من خَلْقه ؛ ومنهم مَن كان الشيطان يُنَكِّب عن طُرْقه ، ونَطَقَ من الصواب بما نزل الذِّكْرُ الحكيمُ على وَفْقه ، وسُمِّى الفارُوقَ لتمييزه بين الحقِّ والباطل وفَرْقه ؛ ومنهم من قابَلَ المعتَدين

برِفقِه وقُتِل شهيدًا علىٰ حَقِّه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستَحْيِي من خُلُقه الكريم وكرم خُلُقِه ؛ ومنهم من طلَع [لا]معُ نُور الإيمان من أُفُقه ، وكان سيفُه من كل مُلْحِد فى دين الله بمثابة قِلَادةِ عُنُقه ، وطلَّق الدنيا تورُّعا عنها وبيده مفاتيحُ ما بَسَط الله للأمّة من رِزْقه ؛ صلاةً يُقيم الإيمانُ فرضَها ، ويملأ بها الإيقانُ طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وتُزَيِّن كواكبُ ذِكرها ومواكبُ نَصْرها سماءَ الدنيا وأرضَها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من رُقِمت لأعطاف فَضْله حُلَل الكلام، ونُظِمت لأجياد ذِكره فرائدُ المَعانى المستخرجةُ من بحار الفكْر علىٰ ألْسنة الأقلام؛ ووُشِّحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسنُ من ٱتِّساق الدَّرارىِّ علىٰ هالاتِ البُدور، وجُلِّى علىٰ المَسَامع مفاخِرُه بما هو أبهىٰ من النُّور فى العيون! وأحلىٰ من الأمن فى القُلُوب! وأوقعُ من الشِّفاء فى الصُّدُور ، وأُطلِعَ فى أُفُق الطروس من أوصافه شمسٌ أسفَر بأنواع العلوم ضِياؤُها ، وأُنْشِئت فى أثناء السطور من نعْت مآثره سُحُبٌ إذا قابلتْها وجُوه الحَيَا سترها بحُمْرة البَرْق حَياؤُها ؛ وأودعتِ المَهارِق من ذِكْر خلاله لُطْفا يَوَدُّ ذهبُ الأصيل لو ناب عن أنْفاسها ، ومُنِحت صدُورُ المعانى من معاليه طُرَفًا تمنَّى الرياضُ العواطرُ لو تلَقَّتْ عن أنفاسها — من سَمَت الوزارةُ بٱستقرارها منه فى مَعْدن الفضائل ، وٱتَّسمت منه بالصاحبِ الذى أعادَتْ أيّامُه ما فُقِد من محاسن السِّيَر الأوائل؛ وٱبتَسمتْ من علومه بالعَلّامة الذى تتفرّعُ من أحكامه أحكامُ الفروع وتتفجّر من تواقيعه عُيون المسائل، وٱتّصفت من مَعْدَلته بالمُنْصِف الذى هَجَر فى أيّامه هجيرَ الحَيْف والظُّلْم فالأوقاتُ فى أيامه المباركة كلُّها أسحارٌ وأصائل ؛ وٱبتهجَتْ من إنْصافه بالعادل الذى سَهَّل علىٰ ذَوِى المطالب حجابَ بابه فلا يحتاجُ أن يُطْرَق بالشَّفاعات ولا أن يُستفتَح بالوسائل ، وأشرقتْ من مفاخره بالكامل الذى حسُنَتْ به حُلَل

الثناء فكأنها آبتسامُ ثُغور النَّوْر فى أثناء الخمائل؛ فالعدْل فى أيَّامه كالإحسان شامل ، والمعروف بأقلامه كالسُّحُب المتكفِّلة برىّ الأرض الهامل ، والظلمُ والإنصاف مفترقان منه تين العَدَم والوجود فلا يُرى بهذا آمرا ولا يُرَدُّ عن هذا آمل؛ قد أعطىٰ دَسْتَ الوزارة الشريفة حَقَّه : فالأقْدار بآياته مَرْفُوعه ، والمضارُّ بعدْله مَدْفُوعه ، وكلمةُ المظلوم بإنصاف إنصاته مسمُوعه ، وأسبابُ الخيرات بحُسْن نيَّته لنيَّته الحسنة مجُوعه ؛ والأقاليمُ بِكَلاءة أقلامه محُوطه ، وأحوال المملكة بآرائه المشتملة علىٰ مصالحها مَنُوطه ؛ والثُّغور بحُسْن تفقُّده مفتَرَّةُ المَباسِم ، مصُونة بإزاحة الأعذار عن مَرِّ الرِّياح النَّواسم ، آهلةُ النَّواحى بموالاة الحُمُول التى لا تَزَال عيشُها بإدامة السُّرىٰ دامِيَةَ المَنَاسِم ؛ والبلادُ بما نشَرتْ أقلامُه من العَـدْل معمُوره ، والرَّعايا بما بسطَتْ [يدُ] إحسانه من الإحسان مَغْمُوره ، وأربابُ التصرُّف بما تقتضيه أقلامُه عن الحَيْف منهيَّةٌ وبالرِّفق مأموره ، والأيدى بالأدْعيَة الصالحة لأيَّامنا الزاهرة مرتَفِعه ، والرعيَّةُ لتقلُّبها فى مِهَاد الأمْن والدَّعَة بالعَيْش متنفعه ؛ وبيوتُ الأموال آهلةٌ ، علىٰ كَثْرة الإنفاق ، والغِلَال متواصلَة ، مع التوفُّر علىٰ عِمَارة البلاد ، والحُمولُ متواليةٌ مع أَمْن من صدَرتْ عنهم علىٰ ما فى أيْديهم من الطَّوارِف والتِّلاد ؛ والأمورُ بالتيقُّظ لها علىٰ سَعة الممالك مضْبُوطه ، والنُّفوس بالأمْن علىٰ ما هىَ عليه من التملِّى بالنِّعَم مغْبُوطه ؛ والمناصِبُ مَصُونة بأكفائها ، والمراتبُ آهلةٌ بالأعيان الذين تنبَّهت لهم فى أيَّامه عيُونُ الحظِّ بعد إغْفائها ؛ ومجالِسُ المَعْدَلة حاليةٌ ، بأحكام سِيرتِه المُنْصِفه ، ومواطِنُ العلم عاليةٌ ، بما يُملىٰ فيها من فوائده التى أتعبَ ألسنة الأقلام ما فيها من صفَه .

ولما كان الجنابُ العالى ، الصاحِبىّ ، الوزيرىّ ، الضِّيائىّ ، وزير الممالك الشريفة ، هو الذى كَرُمت به مناسِبُها ، وعظُمَت بالانتماء إليه مَناصِبُها ، وتحلَّت

بعلمه معاطفُها ، ونزلَتْ علىٰ حُكم حِلْمه عوارِفُ بِرِّها العميمةُ وعَوَاطفُها ؛ وزهَتْ بجواهرِ فضائله أجيادُها ، وآستَوتْ فى مَلاَبِس حُلل المَسَرَّة به أيامُها الزاهيةُ وأعيادُها ؛ وأنارتْ بمعْدَلته ليالِيها ، وأشرقَتْ بالآنتظام فى سِخَاب(١) إنالته لآلِيها ؛ فكَمْ من أقاليمَ صان قلَمُه أموالَها ، وممالكَ حَلّى عدْلُه أحوالَها ، وبلادٍ أعان تدبيرُه السُّحُبَ علىٰ رَيِّها ، وأعمالٍ أبانَ عن آستغنائها بتأثيره عن مِنّة الحَيَا حسنُ مسمُوعها ومرئِيِّها ؛ وأرزاقٍ أدرّها ، ورِزَق أجراها علىٰ قواعدِ الإحسان وأقرّها ؛ وجهاتِ بِرٍّ أعان واقفِيها عليها ، وأسبابِ خيرٍ جعل أيّامنا بإدامة فتْحها السابقةَ إليها ؛ وقَدَم سِعايةٍ أزالها وأزَلّها ، وكلمةِ حادثةٍ أذَالَها وأذَلَّها ؛ ووُجوهِ مَضرَّة ردَّها بيد المعْدَلة وصدَّها ، وأبوابِ ظُلم لا طاقةَ للرعيَّة بسُلوكها أغلقَها بِيُمْنىٰ يُمنه وسدّها ؛ فدأْبُه أنْ يُسَدِّد إلىٰ مقاتِل العِدا باتخاذ اليَد عند الفقراء سِهامَ الليل التى لا تَصُدُّها الدُّروع ، وأن يجدِّدَ لأوليائنا من عوارِف آلائنا أخْلاف بِرّ تَرْوِى الآمالَ وهى حافلةُ الضروع — آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُزيِّن بجِده غُرَر التقاليد ، ونجدِّدَ إليه فى أمور وزارتنا الشريفةِ إلقاء المَقَاليد ؛ وأن نُوشِّى الطروسَ من أوصافه بما يجدّد علىٰ أعطافها الحِبَرَ ، ونردّدَ علىٰ ألسنة الأقاليم من نُعوته مالا تَمَلُّ المسامعُ إيرادَ الخَبَر منه بعد الخَبَر .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَولوىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ — لازال الدِّين فى أيامه الشريفةِ مُشْرِقا ضياؤُه ، آهلةً باعتلائه مرابِعُ الوُجُود وأحياؤُه ، ممدُودةً علىٰ الامّة ظِلالُه الوارفةُ وأفياؤُه — أن يُجدَّد هذا التقليد باستقراره تجديداً لا يُبلِي الدهرُ حُلَلَه ، ولا تقوّض الأيام حِلَلَه(٢) ؛ بل يُشْرِق فى أُفُقِ الممالك إشراقَ

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالخاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومحلب بلا جوهر جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهى مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثَّوابت ، ويتفرّعُ فى مصالح المُلْك تفرُّع الأفنان الناشئة فى الأُصُول الثّوابت ؛ وتختالُ به مناصبُ الدولة القاهرة فى أسنىٰ مَلابِسها ، وتُضِىء به مواطِنُ العلوم إضاءةَ صَباحةِ المِصباح فى يَدِ قابِسِها ؛ وتُسترْنعُ لنا به الأدعيةُ الصالحة من كلّ لسان ، وتُجتلىٰ به لأيامنا الزاهرة من كل أُفُق وجوهُ الشُّكر الحِسَان .

فلتَجْر أقلامُه فى مَصالح دولتنا الشريفة علىٰ أفضل عادَتها ، ويُرسِلْها فى نَشْر العدْل علىٰ سجيَّتها وفى إجراء الجُود علىٰ جادّتها ، ويَكُفَّ بها أَكُفَّ الحوادث فإنما تُزال أسبابُ الظلم بحَسْم مادّتها ؛ وليُنْطِقها فى مَصالح الأموال بما تظَلُّ له مسامِعُ الحُمول مُصْغيه ، ويُطْلِقها فى عِمارة البِلاد بما تغْدُو له ألسنةُ الخِصْب حافظةً ولما عَدَاه مُلْغيه ؛ وكذٰلك الخزائن التى هى معاقلُ الإسلام وحُصونُه ، وحِمَاه الذى لا يُبتذَلُ بغير أمرنا الشريف فى مصالح المُلْك والمِلّة مَصُونُه ؛ فليجعلها بتدبيره كالبِحار التى لا تنْقُص بكثْرة الوُرّاد جِمامُها ، ولاتَنْزَحُها السُّحُب لكثرة ما تحمِلُ الى الآفاق غَمامُها ؛ ولتكُنْ كلمةُ العدل من أهمّ ما تُفتتَح به مجالِسُه ، وآكَد ما يُؤمَرُ به مُحاضِرُه من الأولياء ومُجالِسُه ؛ وأزكىٰ ما يَستجيدُ [به] لأستثمار الدعاء الصالح مَغارِسَه ، وأوثَق ما يحُوط به حِمىٰ الملك الذىٰ إذ اغفَا جَفْنُ عينه كان حارِسَه . وأوْلى ما ينبغى أن يُنافس عليه حاضِرَ دَسْته وغائبَه ، وأَوْلىٰ ما يُعدّ علىٰ إهماله نَكالَه ويُعدّ علىٰ إقامتِه رغائبَه .

وليُلاحِظْ من مَصالح كلّ إقليم ما كأنّه ينظر إليه بعين قلبه ، ويمثّلْ صورتَه فى مِرْآة لُبِّه ؛ فيُقِرّ كلَّ أمر علىٰ ما يَراه من سَدَاده ، ويُقرِّر حال كلّ ثغر علىٰ ما يحصُل به المراد فى سِدَاده ؛ فيغدُو لأعذاره بموالاة الحُمُول إليه مُزِيحا ، ويُمسى بسَدّ خَلَله لخواطر أهل الكفر مُتْعِباً ولخواطرنا الشريفة مُرِيحا ؛ وينظر فى أحوال

من به من الجُنْد والرجال بما يؤكّد الطاعةَ عليهم ، ويجدّد الاستطاعةَ لديهم ؛ ويُزيل أعذارهم واعتذارَهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويُوفِّرهم علىٰ إعداد الأهبة للأعداء] (١) إذا أتَوْهم من فَوْرهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم علىٰ الرعايا وجَوْرهم ؛ ويتفقّد من أحوال مباشريها ووُلاة الحكم والتحكّم فيها ما يعلمون به أنه مناقشُهم علىٰ الأمور اليَسيره ، والهَفَوات التى يَروْنها قليلة وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرَّعايا كثيره ؛ ويتعاهدُ أمور الرتب الدينيَّة فلا تؤخَذُ مناصبُها بالمَناسب ، ولا تَغْدُو أوقافُها المُعَدّة لاكتساب العلوم فى المَكاسب ؛ بل يتعين أن يرتادَ لها العلماءَ الأعيان حيثُ حَلُّوا ، ويُقرِّر فى رتبِها الأئمّةَ الأكفاءَ وإلا اتخذ النَّاسُ رُءوسا جُهّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا . ولتكنْ أقلامُه علىٰ كلِّ ما جرتْ به العوائدُ فى ذلك محتَويه ، وأيامُه علىٰ أكمل القواعد فى ذٰلك وغيره منطَويه ، فما ثَمَّ شىءٌ من قواعد الوزارة الشريفة خارجٌ عن حكمه فلْيكتُبْ يُمتَثل ، وليقُلْ فى مصالح دولتنا القاهرة يكُن قولُه أمضَىٰ من الظُّبَا وأسْرىٰ من الصَّبا وأسيَرَ من المَثَل ؛ فلا تُمضىٰ فى ذٰلك ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدُوق بآرائه ، متوقِّف علىٰ تنفيذِه وإمضائه ؛ متلقٍّ ما يقرّر فيه من تِلْقائه ، وفى الاكتفاء بِسيرتِه ما يُغْنِى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شَدَّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزْرا ، وخصَّ أيَّامَنا الزاهرةَ باجتباء مَنْ حماها عدْلُه أن تَضَع أو تحمل وِزْرا ، وأفاض إنعامَنا علىٰ مَنْ طلع

---

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فى أُفُق خدمتنا هلالًا وآستقلّ بحسن السَّيْر والسِّيرة بَدْرا، وضاعف إحسانَنا لمن [لا] نرفَعُه إلىٰ رتبة شرف إلا وكان أجلّ الأكفاء علىٰ ذٰلك قُدْرةً وقَدْرا ، وجمَّل مُلْكنا بمن إذا آفتخرت الدُّول ببعض مناقبه كَفَاها ذٰلك جَلَالا وفخْرا، وإذا آدَّخرت تدبيره وبذلَتْ ما عداه لحسْبُها ما أبقَتْه وقايةً للملك وذُخْرا، وبسط عدْلَنا فى الأقاليم بيد مَنْ حينَ أمرْنا القلمَ بتقليده ذٰلك سجَد فى الطِّرس شُكْرا، وآفتتح بحمد الله يذَكِّر النعمةَ به علىٰ آلائه إنَّ فى ذٰلك لَذِكْرىٰ، وأخذ فى وصف دُرَرِ مَفَاخِره التى تمثَّلت له فنضَّدها دُون أن يستدعِىَ رَوِيَّة أو يُعْمِل فِكْرا .

نحمده حَمْدَ من والىٰ إلىٰ أوليائه ، مَوادَّ النِّعم ، وأضفىٰ علىٰ اصفيائه ، ملابِسَ الكَرَم، وحفِظ لمن أخلَص فى طاعته مَعارِفَ معروفه التى هى فى أهل النُّهىٰ ذِمَم ، ونَبَّه لمصالح رعاياه مَنْ عَمّ عدْلُه وإن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنَمْ .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نُعلِنُها ونُعْليها، ونُرخِص أرواحَ جاحديها ونُغْليها ، ونُوالى النِّعمَ علىٰ المتمسِّك بها ونُوليها ، ونقرِّب بيُمْنها رُتَب الأولياء من إحساننا ونُدْنيها ، ونجدِّد لهم بتأييدها ملابِسَ المِنَن نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعم السنية فيها ، ونرفَعُهم بحسن عنايتنا إلىٰ أشرف غايةٍ كانوا يُسِرُّون أهليَّتهم لها والله يُبْديها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أقامنا لنصر دينه فقمْنا به كما أمَرْ ، وأبقىٰ علىٰ أيَّامنا حكْمَ أيَّامه فاستمرّ الحالُ علىٰ ما تسابقَتْ به دعوتُه من تأييد الدين بعُمَر، وخَصَّنا ممن ينتمى إلىٰ أصحابه بأجلِّ صاحبٍ ينُوب عن شمس عَدْلنا فى محو ظُلْمة الظُّلْم مَنابَ القَمَر، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الزُّهْرِ الغُرَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من اختِيرت جواهرُ الكلام لوَصْف مفاخره، وانتُخِبت غُرَرُ المعانى لوَصْف آثاره فى مصالح الإسلامِ ومآثِره ؛ وقامتْ خطباءُ الاقلام علىٰ مَنابِر

الأنامل بشيرةً بِيُمْن أيّامه ، وتطلّعت مُقَل الكواكب مشيرةً إلىٰ ما أقبل علىٰ الأقاليم من إقباله وسَحّت سُحُبُ أقلامه ؛ وتبرّجت زُهْر النجوم لينتظم فى عُقُود مناقبه سُعودُها ، وتأرّجت أرجاءُ المَهَارق إذ تبلّج من ليلٍ عن فجرٍ عمودُها ؛ وسارت به أنباءُ السُّعود والقلمِ الناطقِ بذكره وهو المحلّق الميمُون طائره ، والطّرس الموشّع بشُكْره وهو المَخلق الذى تملأ الدنيا بَشَائره — من استخلصَتْه الدولةُ القاهرة لنفسها فتملّاها عينا وسُرَّ بها قلبا ، واختصّتْه بخواصها الشريفة فرَحُب بها صَدْرا ولبّاها لُبّا ، وكاف بمؤازرتها ذاتها حتّى قيل : هذه ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ؛ وأحلّته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسنىٰ والحرَم الحريز ، وأثنت علىٰ فضله الأسمىٰ بلسان الكرَم البسيط الوجيز ، واعتمدَتْ فى أمور رعاياها علىٰ ما فيه من عَدْل ووَرَع لا يُنْكَر وُجودُهما من مثله وهو فى الحقيقة عُمَرُ بنُ عبد العزيز ؛ وأدنَتْه عنايتُنا منّا لما فيه من فضلٍ عميم ، وحسَبٍ صميم ، ونَسبٍ حديثُ مَجْده قديم ، وأصالةٍ إذا انتخرت يوما تميمٌ بقومها قالت أين تميمُك من جدّه صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم ؛ وغرستْه لنفسها وطال ذلك الغرسُ وطابَ الثمر ، واعتضدَتْ بتدبيره فكان له عند أطرافِ العوالى فى مكانه الأعزّ أظرَف سَمَر ، ووثقَتْ بما فيه من عَدْل ومعرفة لا يُنْكَرُ من نحا الصوابَ اجتماعَهما فى عُمَر ؛ واشتقّت له بإحساننا من نِسْبته وَصْفا جميلا ونعتا جَليلا ، وخصّته لمزيّة ذلك الاشتقاق بمزيد قُرْبنا فأمسىٰ فى خدمتنا جَليلا وأصبح خَليلا ؛ ورعَتْ له ما قد تمّ من تدبير أتىٰ عليه بنفسه ، وسَدَادٍ ظهَرتْ مزيّةٌ كل يومٍ منه علىٰ أمسه ؛ وسعْيٍ جميل ما بَرِح فى مصالح الإسلام رائحا وغاديا ، واجتهادٍ فى أمور أهل الجهاد مابَرِح يَدْأَبُ فيه عِلْما بما أعدّ اللهُ لمن جهّز غازيا ؛ ودانَ له من حُسْن ملاحظته الأمورَ ما ليسَ للوصف به من

قِبَل، وتأملَتْ ما يُكشَف له علىٰ البُعـد من المصالح التى يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعُمرُ الذى شاهد السَّرِيَّةَ علىٰ البُعْد من سارِيةِ الجبـل؛ وأيقنَتْ بِبَسْـط العدل فى الرَّعايا إذ هو مؤتَمِر والعادل آمِر، وتَحَقَّقت عمـارةَ البلاد علىٰ يديْه لأنَّ عُمرَ بحُكْم العَدْل عند الحقيقة عامِر .

ولذٰلك لـمـا كان المجلس العالى الفَخْرىّ ـ ضاعف الله نعمته ـ هو الذى قَرَّبتْه طاعتُنا نجيًّا، ورفعَتْه ولايتُنا مكانًا عليًّا، وحقَّق له ٱجتهادُه فى مصالح الإسلام الأَمَلَ من رِضَانا وكان عندَ ربِّه مَرْضيًّا، وأخاص فى خدمة دولتنـا الشريفة فاتَّخذتْه لخاصِّ الأمور وعامَّتها صفيًّا، وأظهَر ما بطَن من جميل اجتهاده بجَعلتْه لمصالح المُلْك وزيرا وصاحِبًا ووَلِيًّا ؛ وأنجزتْ منه لتدبير أمور الممـالك ما كان الزَّمنُ به ماطِلا ، وأجرَتْ علىٰ يده التى هى مليَّة بتصريف الأرزاق ما لا يَبْرَح غمامُه هاطِلا ، وقلَّدته رعايةَ الأمور وأُمورَ الرعايا علمًا أنه لا يترُك لله حقًّا ولا يأخذُ باطِلا ، وقلَّدتْ جِيدَه بأسنىٰ حِلَىٰ هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منهـا بحُكْم قُربه منا عاطِلا، ورفعتْ له لواء عدل ما زال له بالمُنىٰ فى أيَّامنا الشريفة حامِلا ، وكمَّتْ له ببلوغ الغاية من أُفُق العُلُوّ رفعةَ قدره وما زال المُؤَهَّلُ للكمال باعتبار ما يَئُول إليه كاملا، وتوَّهتْ بذكره وما كان لظهور مَخَايِل هذا المنصب الجليـل عليه فى وقتٍ خاملا ، ونظرَت الرعايَا فما عدلتْ بهم عن بَرٍّ رفيق ، وصاحبٍ شفيق، ووزيرٍ عُمَرِيِّ السيرة ما سلكَ طريقا إلا وعدلَ شيطانُ الظلم عن ذٰلك الطريق ؛ وكان هـذا المنصب الجليل غايةً مدارُ الممـالك عليها، وقِبـلةً تَوَجَّهُ وجوهُ أهل الطاعة فيما يُفاض عليهـم من نِعَمنا إليها ؛ وهو الذى يتَدَرَّع صاحبُه من أنواع الطاعات لَبُوسا ، ويعالجُ من أدواء المَهامِّ ما بغير عزائمه لا يُوسىٰ ، ويتردَّد فى المخالَصـة والمناصَحة من مالكِ أمره بمـنزلة هـارُون من مُوسىٰ ـ اقتضت آراؤُنا الشريفـة ان نُفَوِّض ذٰلك إلىٰ مَنْ نهض فى طاعتنـا

الشريفــة بمــا يجب ، وعلمنــا تحرُّزه لدينــه ولنا فيما يأتى ويجتنب ؛ ومن تُزاد به مع فخره أيّامُنــا الشريفــة فخْرا ، ويُصبِح له مع ماله من الجلالة فى نفســه رُتَبُ جَلالةٍ أُخرىٰ .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولَوىّ ، الســلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانى : — لا زال يُصَرِّف الأقدار بيمين أيّامه ، ويُشَرِّف الأقدارَ بِبرِّه وإنعامه ، ويُدِرّ علىٰ الأولياء وابِلَ جُوده الذى تَخْجَل الدِّيَمُ من دَوامه — أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفة الكاملةُ علىٰ جميع المــالك الإسلامية : شرْقا وغَرْبا ، وبُعْدا وقربا ؛ وبرًّا وبَحْرا ، وشاما ومِصْرا ؛ علىٰ أجمل القَواعد فى ذٰلك وأكملِها ، وأســنىٰ الفوائد وأفضلِها ، وأتمّ الأحوالِ التى يُستغْنىٰ بمُجْمَلِها عن مفَصَّلِها .

فليُعْطِ هــذه الرتبةَ من جلالتــه حَظًّا كانتْ من إبطائه علىٰ وَجَل ، ويُجَارِ الغمائمَ بوابِل إنعامِنا الذى يُعْلَم به أن حُمْرة البرْق فى أثنائه خَجَل ؛ ويُطلِقْ قلمَــه فى مصالح الدولة القاهرة بَسْطا وقَبْضا ، وإبراما ونَقْضا ، وتدبيرًا يُعِين النِّيلَ والغَمَام علىٰ تَتَبُّع المَحْل ماوجَدَ كلٌّ منهما أرْضا ؛ ويُعْمِلْ آراءه المباركَةَ تدبيرا للناجح وتَدْريبا ، وتقريرًا للقواعد وتَقْريبا ، ونظرًا يجعل لكلِّ عملٍ من ملاحظتِه نَصيبا ، وفكرا يحاسِبُ به علىٰ حقوق الله وحقوق خَلْقه فإنَّ الله هو المناقِشُ علىٰ ذٰلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

ويبدأُ بالعَدْل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلْكِنا الشريف ، ويخفِّفُ — مع الجمع بين المصالح — عن خَلْق الله الوطأةَ فإنَّ الإنسانَ ضعيف ، وينْجِزُ لأولياء دولتِنا مَوادَّ الارزاق فإنَّ ســيْفَ المنْع الذى تُحــاشِى أيّامنــا عن تجريده أقلُّ نِكايةً من التسويف ، ويمنَعُ الوُلاة من ظُلم الرعايَا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنَّ منهــم من يَدَّعى العدلَ ويجُورُ ويُظْهر الرِّفق ويَحِيف ؛ وليَتَتَبَّعْ أدواءَ المَحْــلِ تتبُّعَ طبيبٍ خبير .

ويُصرّف الأمورَ بجميل تدبيره فإنّ البركة معْدوقةٌ بحُسْن التدبير ، ويستقبِلُ رَىَّ البلاد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بسَدَاد حَزْم يُغْتفر به هـذا القليـل لذلك الكثير ، ويستَخلِف بالرِّفق والعدْل أضعافَ مافاتَ فى أمْسه فإنَّ ذلك على الله يَسير . وليهتمّ ببُيوت الأموال فيُوالى إتيانَ الحُمول إليها من أبوابِها ، ويضاعِفُ بها الحواصلَ التى لايُطَّلَع بغير حُسْن التدبير علىٰ أسبابِها ، فإنَّها مَعادنُ الذخائر ومَوارِدُ الرجال ، وإذا أعدّ منها جِبالًا شوامِخَ تَلَا إنفاقُنا فى سبيل الله : ﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَال ﴾ .

وكذٰلك الخزائنُ التى هى مَعاقِلُ الإسـلام وحُصُونُه ، وحِمَاهُ الذى لايُبْتذل بغير أمرنا الشريف فى مَصَالح الملك والمِلة مَصُونُه ، فيجعلها بتدبيره الجميل كالبِحار التى لاتنقُص بكَثْرة الورّاد جِمامُها ، ولا تَنْزَحها السُّـحُب علىٰ كثرة ماتحمِـل إلىٰ الآفاق غَمامُها ؛ وليُـلاحِظْ من مصالح كلِّ إقليم بمـا تُمثّله له على البُعْـد أفكارُه ، ويأمر فى أحوال مَنْ به من الجند بمايُؤكِّد الطاعةَ عليهم ، ويجدِّد الاستطاعة لدَيْهم ، ويُزيح أعذارَهم واعتِذارَهم بوصُول حقُوقهم إليهم ؛ ويُوفِّرُهم علىٰ إعداد الأُهْبة للأعداء إذا أتَوْهم من فَوْرهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرهم ؛ ويجعلُ ثغورَ كل جانبٍ ـ بتيسير محصُولها ، وتثمِير ذخائرِها التى هى من مَوارِد رجالِها ـ مُصَفَّحة بالصِّفاح ، مُشْرقةً بأسنَّة الرِّماح ، مسـدُودةً من جهـة العدُوِّ عنها مسالكُ الرياح ؛ ويتفقّد من أحوال مباشِريه ، ووُلاةِ الحكم والتحكُّم فيه ؛ مايعلمُون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسـيره ، والهفَواتِ التى يرَوْنهـا قليلةً وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرعايا كَثيره ، والأحوالِ التى إذا عدَّدها الكُتّاب عليهـم قالوا : ﴿ ياوَيْلَتَنا مالِهـذَا الكِتَابِ لايُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيره ﴾ ، ويتعاهدُ أمورَ الرُّتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمَنَاسب ، ولا تُعَدّ رِزَقُها المعدّةُ لاكتساب العِلم فى المَكاسب ؛ بل يتعيَّن أن يَرْتادَ

لذلك العلماءَ الأعلام حيث حَلُّوا ، ويقرّر فى مراتبها الأكفاءَ وإلا اتخذ الناس رُءُوسا جُهَّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا ، وقد جعلنا [أمره] فى ذلك جميعه من أمرنا ، فليقُلْ يُمتثَلْ ، ويَنْشُر كلمةَ عدلِنا التى يَسير بطريقتها المُثْلىٰ المَثَل ؛ ولا تُمضىٰ ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد ولا حَلْ ؛ الا وهو معدُوق بآرائه ، متلَقّ من تِلْقائه ، متوقِّف علىٰ تنفيذه وإمضائه ؛ وقد اختصرنَا الوصايَا ، اكتفاءً بما فيه من حُسْن الشِّيَم ، واقتصَرْنا علىٰ ذكر بعض المَزَايَا ، إذ مثلُه لايُدَلُّ علىٰ صواب ولا يُزاد مافيه من كَرَم ؛ لكنّ تقْوى الله أوْلىٰ ماذُكِّر به من لم يزَلْ لربِّه ذاكرا ، وأحقُّ ماشكِر علىٰ التوفيق مَنْ لم يبْرَح له به شاكِرا ؛ والله يَزيد قَدْره اعتِلاء ، ويضاعِفُ للدولة الشريفة احتفالا بشُكره واعتِناء .

⁂

وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمدُ لله الذى شدّ أَزْر المَلك من الوزراء بالمَكين الأمين ، وأشْرك فى أمْر مُلْكه من هو علىٰ صَلَاح الجمهور خيرُ مُعين ؛ وألقىٰ مقالِيدَ حُسْن تدبيره لمن دَلَّت عليه بركةُ الاستِخاره ، وصوّب أمْرَ دقيقه وجليلِه لمن هو لجميل الثناء المعْنىٰ وإليه ببَنَان الاجتباء الإشارَهْ ، وناولَ كِتابهَا لمن هو أحقُّ بتحمل أعبائه ، ورقَّى منصِبهَا لمن لاشُبْهة بأنه الحقيقُ باستِعلائه ؛ وناوَلَ قلَمَ إعطائها ومنْعِها لواضع الإشارة فى محلِّها ، وعدَق تثمير أموالِها بمن لايأخُذُها بمقتضَى يُبْديه إلا مِن حِلِّها .

نحمدُه علىٰ حُسْن إلهامه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ عبدٍ مخلِص فى أدائِها ، محقّ فى إعادتِها وإبْدائها ؛ ونشهد أن محمدا

عبده ورسوله خيرُ مَنْ هو بالحق مبْعُوث وبالصـدق منْعُوت ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتزال مستمرّةً فى كل وقت موْقُوت ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ يدَ الوِزارة هى اليدُ الباسطةُ فيما قَلَّ وجلّ ، والمتحكِّمة فيما عُدِق بالمَلِك من كلِّ عَقْد وحَلّ ؛ والموقوفُ عند إشارةِ بَنَانها وإليها التحكُّم فى كل إعطاء ومَنْع ، وتفريقٍ وجمْـع ؛ وعزْلٍ ووِلَايه ، ونِهايةُ كل نَهْى وأمْر وما لهـا من غايه ؛ ورَبُّها من المَلِك كالرُّوح الباصرةِ من العيْن ، واللسانِ المعبِّر عن كلِّ زيْن وشَيْن ؛ وحَسْبُهُ أنه فى المحلِّ من ذاتِ اليمين ، ومن مكانَة التمكُّن فى الحِرْز الحَصين ؛ ولهذا لا يؤهَّل لها إلا من ٱنْعقد علىٰ سُؤْدَده الإجماع ، وٱنقطعتْ دُون لَحَاق شَرَفه الأطْماع ؛ وتأصَّل فى نَخَـارها وتفرّع ، وقام بفُروض كِفـايةِ كَفَالتها وتَطوّع ؛ وسار حديثُ مناقبـه فى الآفاق ، وجاءَ بالٱختيار والٱختبار بالوِفَاق ؛ وحَسُن صورةً ومعنىٰ ، وتعـدّدَتْ مناقبُـه فدلَّت علىٰ أنه الفرْد إذا ٱتَّسقَت عقُوده مَثْنىٰ مثنىٰ . وكان المجلس العـالى الفلانىّ رَبَّ حَوْزَتها وسريرِها ، ورُوحَ بَصَرمرتَمِق هـذه المحامد وإليه [أمر] مَصِـيرِها ؛ والذى حكَمتْ له السيادةُ بمَنَالهـا وحكَّمتـه ، وأوضَحتْ بأصالتها وَجْه الصواب فى ٱختياره لهـا وأحكَمَتْـه ؛ وقد حازَ من متفرِّق لوازمهـا ما تفرَّقَ فيمن سِوَاه ، وحَوىٰ من أدواتها [مادل] علىٰ أنَّ الله خلقــه فسَوّاه ؛ إن قال فالصوابُ موَكَّل بمَنْطِقــه ، أو صَمَت فعظَمُ مَهابته قائم مقامه بجميل الخُلُق لا تَخَلُّقه ؛ قد جمـع إلىٰ التواضُع فرطَ المَهَـابه ، وإلىٰ الٱبتـداء بالمعروف حُسْنَ الإجابه ؛ إن ذُكِرت الصَّـدارة فهو مالكُ زِمَامها ، أو الرِّياسة فهو غُرَّةُ لِثَامها ؛ أو الكَفالة فهو مُصَرِّف عِنانهـا ، أو الوِزارةُ فهو عَيْنُ أعيانِها ؛ لم تزَلْ رتبتُهـا متشوّقةً لحلوله ، ممهِّـدة لشريف تأهيله .

ولما تحلَّىٰ منها بهذه الحلىٰ ، وسار حديثُ مَلاءَته بتخويلها فى المَلَا ، وتلا لسانُ القلم سُوَرَ هذه المحاسن وتَلَا الثانى بالأوّل منها إذا تَلَا ؛ رُسم بالأمر العالى ــ أمتعه الله بما وُهبه من حُسْن مؤازَرته ، وشدّ عَضُدَ مملكته بالإمتاع برِبْح حُسْن معاملته لله وله ولُمتَاجرته ــ أن تُفوّض الوزارةُ المفخَّمه ، المكرَّمة المبجَّلة المعظَّمه ؛ للمشار إليـه : تفويضًا عامًّا للقريب من مصالحها والبَعيد ، والطارِف والتليد ؛ والمُقيم والنازح ، والغادِى والرائح ؛ والسانِح والبارِح ، والباغِم والصادِح .

فلْيباشِرْ ما فُوّض إليه منها مباشرةَ مثله لمثلها ، وليُعْطِها من نَيْله مُناسب نَيْلها ؛ وليأخذْ أمرها بِكلْتا يدَيْه ، وليُعْرِها جانبًا من ٱحتفاله ليَظْهَر عليها آثارُ سُؤدده كما ظهر شريفُ تَخْويلِها عليه ؛ وليُطْلِقْ فيها لسان نَهْيه وأمرِه ، وليُعْمِلْ فى مصالِحها صالحَ فِكرِه ؛ فقد عُدقت به مَهامُّها : جليلُها وحقيرُها ، وقليلُها وكثيرُها ؛ وأميرُها ومأمورُها ، وخليلُها وضريرُها ؛ وناعقُها وناعِبُها ، وكاسيها وكاسِبُها ؛ ودانِيها وقاصِيها ، وطائعُها وعاصِيها ، ومستقبلُها وحالُها وماضِيها ، وواليِها وقاضِيها ؛ ثقةً بتمام تدبيره ، وحميدِ تأثيره ، وأنَّه إن حَكَم فصَل ، وإن قطَع أو وصَل كان الحزْم فيما قَطع ووصَل ؛ إذ هو الوزيرُ الذى قد صُرِف عن عمـل الأوزارِ وسار ، إلا أنه فى كل مَنْهج سارْ ؛ تقْطُر السيادةُ من معاطِفه ، وتَجْنِى ثمرَ المُنىٰ من أغصان قلمه يدُ قاطِفه ؛ لاشىءَ يخرُج عن حُكْمه ، ولا مصلحةَ تعزُب عن عِلْمه ؛ فولايةُ الحُكّام معدوقةٌ بإشارته ، موقوفةٌ علىٰ مايُثْبِته ببليغ عِبارتِه . ومع جَلالة قدْرِه لايَحتاج إلىٰ التأكيد فى الأموال وٱستِدْرار أخلافِها ، والرَّعايَا والاستدامة بالإحسان وُدَّ أحْلافها ؛ وبيوتِ الأموال وٱستِيداء حقوقها ، ومُراعاة جانِبها إذ هى الأمُّ الحَنُونة بتَجَنُّب عقُوقها . والخزائِن فهو أدْرىٰ بما يجب من تضييق صَدْرها بالمناقيص عن الاِنْشراح ، والاهتمامِ بحواصل تشريفها المستجلبة إفاضةُ ملابسها قلبَ مَنْ غدَا وراح ؛ وثَمّ دقائقُ ، هو أدرىٰ بما لهَـا من

طرائِق ، وحقائقُ ، هو أعرَفُ إذ كان فيها الفائِقَ الرائِق ، فهو - أجلَّه الله - غنىّ عن تفصيلها ، وذهنُــه أشرفُ عن الوصايا المنــدوبة لتوصيلها ، والله تعالىٰ يقدّر له وبه الخَــيْر ، ويمتّع بحسن تدبيره المقرونِ بجميــل السريرة والسِّيَرْ ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه وصية وزير أوردها فى " التعريف " وهى :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله فإنَّه عليــه رقيب ، وإليــه أقربُ من كلِّ قريب ، فليجعَلْه أمامَه ، وليطْلُبْ منه لكل ماشرَع فيه تمَــامَه ، وليُجِلْ رأيَه فى كلِّ ماتَشُدّ به الدولةُ أَزْرها ، وتُسنِد إليه ظهْرَها ، وليجعلِ العدْلَ أصلا يبْنِى علىٰ أُسِّه أسه ، والعملَ فى أموره كلِّها لسلطانه لا لنَفْسه ، وليَــدَعْ منه الغرضَ جانبا ، وحظَّ النفس الذى لا يبْــدُو إلا من العَــدُوِّ ليُصْدِق من دَعَاه صاحِبا ، وليُبصِرْ كيف يُثَمِّر الأموالَ من جهاتهــا ، وكيف يخلِّص بيوت الأموال بالاقتصار على الدَّراهم الحلال من شُبُهاتها ، وليَنزِّه مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحَرَام فإنه لايُسْــمِن ولا يُغْنِى من جُوع ، ولا يُرىٰ به من العيْن إلا مايُحرِّم الهُجُوع ، وليحذَرْ من هذا فإن المُفاجئَ به كالمخاتِل ، وليَتجنَّب إطعام الجُنْد منه فإن [آكل] الدرهم الحرام مايُقاتِل ، وليُحْسِنْ كيف يُولِّى ويَعْزِل ، ويُسَمِّن ويَهْزِل ، وعليه بالكُفَاة الأُمَناء ، وتجنُّب الخَونة وإن كانوا ذَوِى غَنَاء ، وإيَّاه والعاجزَ ، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عينَيْه ألفىٰ بينه وبينها ألف حاجِز ، وليطَهِّرْ بابه ، ويُسَهِّل حجابَه ، ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثرَ ممــا قَرُب : مقدِّمًا للأهمِّ فالأهمِّ من المصالح ، وينظر إلىٰ ماغابَ عنــه وحضَر نظرَ المُمــاسِى والمُصابِح ، ولا يستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبَتت عنده خيانتُه ، ولا يَدَعْ من جميل نظره مَنْ صحَّت لديه كفايتُه ،

أو تحقَّقتْ عنده أمانتُه، وليسلُكْ أقصدَ الطُّرُق فى أمر الرواتب التى هى من صدَقَاتنا الشريفة وصَــدَقات مَن تقــدّمَ من الملوك ، وهى إمَّا لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًّا أو عُرِف صلاحُه وهو صُعْلوك، وكذٰلك ما هو لأيتامِ الجُنْــد الذين ماتُوا علىٰ الطاعه، وأمثالِهم ممن خَدَم دولتنا القاهرة بمـا آستطاعَهْ؛ فإن غالبَ مَن مات منهم لم يُخلِّف لهم إلا ماتَسمَح لهم به من معروف، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلِّفه الآباء للأبناءِ من المـال المتمَلَّك والوقْف الموقُوف؛ وليصْرِف آهتمامَه إلىٰ آستخلاص مالِ الله الذى نحن أُمَناؤه ، وبه يَشْغَل أوقاتَه وتمتلئ كالإناء آناؤُه؛ فلايدَعْ شيئا يجب لبيت المـال المعمور من مستحقه، ولا يتسمَّح فى تخلية شىءٍ منه كما أننا نُوصيه أنه لا يأخذُ شيئا إلا بحقِّــه؛ وليُبْق لأيّامنـا الزاهرةِ بتواقيعهِ ذِكْرا لايَفْنىٰ ، وبِرّا لايزال ثمرُه الطيِّب من قلمه يُجْنىٰ؛ ليكُونَ من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُثيره من سَحَابها المَطير، وحسَناتِ أيَّامنا التى ماذُكرنا وذُكِر معنا إلا وقيــل : نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير.

الوظيفــــة الثـانية

(كتابةُ السِّرّ، ويُقال لصاحبها "صاحبُ دَواوين الإنشاء")

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الوظائف أنَّ موضُوعها قراءةُ الكتُب الواردةِ على السلطان، وكتابةُ أجْوبَتِها، وأخذُ خَطِّ السـلطان عليهـا وتسفيرُها، وتصريفُ المراسيم وُرُودا وصُــدُورا، والجلوسُ لقراءة القصَص بدار العدل، وأنَّه صار يُوقِّع فيما كان يُوقَّع فيه بقَلم الوزارة .

قلت : وقد كان فيما تقدّم يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النصف بلقب «المجلس العالى» ثم آستقرّ أن يُكتَب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بلقب «الجناب العالى» .
وقد تقدّم الكلامُ على تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بكتابة السرّ ، كُتِب بها للمَقَر المُحْيَوِىّ «مُحيى الدين بن فضل الله» عند عَوْده إلى كتابة السِّر بالديار المصرية ، فى جمادى الأولى سنة ثلاث ... [(١)] ... من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين ، أحد كُتَّاب الدَّرْج الشريف ، وهى :

الحمدُ لله المانّ بفضْله ، المستعانِ به فى الأمر كلِّه ، الذى رفَع أوّل الأولياءِ من العَلْياء إلى محلِّه ، ووضَع النِّعَم عند من يَنُصُّ الآستحقاقُ على تقديمه بمنصبه ويَجِلُّ ما فُوِّض إليه من أجْله ، وأبدَعَ نظام السُّؤدَد بأجمل حالٍ ما دام يُحْيِى جامِعَ شَمْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكنا الشريف عند الحفيظَيْن منه ومن نَجْله ؛ وأرجعَ الرياسةَ إلى من سَما ثَبَاتا ، ونما نباتًا ، وعَلَا عَزْما ، ووَفَى حَزْما ؛ فبِيُمْن آثاره تُضْرَب الأمثالُ ولا تجد فى يُمْن سَجاياه كمِثْله .

نحمده على أن أعاد بنا الحقّ إلى أهله ، ونشكُره على أن جادَ روضَ الآمال بوابِل سَحاب كَرَمنا ووَبْله ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مَن وُفِّق للصواب فى قوله وفعْله ، وتُحقِّق منه جميلُ الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبْله ؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه المُؤْوِى يومَ الجزاء إلى سابِغ ظِلّه ، والمُرْوِى يوم العطَش الأكبر بسائغ نَهْله ، والنبىُّ الذى بعثه خاتمَ رُسْله ، وآتاه من الكَرامة مالم يؤْتِ أحدًا من الأنبياء من قَبْله ، والمجتبِى من علماء صَحابته من أهّله لإيداع سِرّه وصَوْنه وإبلاغ أمْره وحَمْله ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الذين سبَقُوا إلى غايات الفَخار

(١) بياض بالأصل .

وخُصُّوا بخَصْله ، ورضى الله عن أصحابه المجاهدين فى حُبِّه المعتصمين بحَبْله ، خُصوصًا الصدِّيقَ الذى أحسنَ الخلافةَ من بعده وقاتل مَنِ ٱرتدَّ بقَتْله ، ومَنْ فَرَق بين الحق والباطل بحُسْن سيرته ومَحْض عَدْله ، ومن تلقَّ عنه آيات الكتّاب فا ... ...(١) فى ترتيبه وجمْعه وأدائه ونَقْله ، ومَنْ كان فارسَ حَرْبه ، وحارسَ سَرْبه ، وكاتبَ وحْيه وخاطبَ كفْله ؛ وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين ٱنفردُوا بأكمل الفضل وأجَلِّه ، صلاةً ورضْوانا وضَح بهما نورُ الهدىٰ لمستدلِّه ، ماشفىٰ كرَمُنا الصُّدورَ بصُدور إقباله إلىٰ مَنْ قام بفرض وَلَائه ونَفْله ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فنِعَمُنا لاتزال للعُهود حافظه ، وبالجُود متْحِفةً وبالسُّعود ملاحِظَه ، وعلى المعهود من كَرَم شِيَمِها محافِظَه ، وللخِدَم مكافِيه ، وللقِسَم مُوفِية وبالنِّعم مُوافِيَه ، وبمألُوف الكَرَم مُلافِيه ، ٱتِّباعا لسبيل الصَّواب ، وإيداعًا للمِنْحة عند مَن لحَقِّه فى ٱستحقاقها إيجاب ، فلمَحَلِّه ٱقترانٌ بالاقتراب ، ولفعله إنجازٌ لوعُود الصُّعود وإنْجاب ، ولِفَيض الله تعالىٰ عليه من القَبُول أبْهىٰ جِلْباب ، وله سَبْق ولاء لمُلْكنا بعد جفاء فيه السنين والأحْقاب ، وصِدْقُ وُدٍّ ماضاع لدينا ولا خَاب ، وقِدَمُ هِجْرة كَمْ لها فى تأييد الدِّين ٱنتصار وٱنْتصاب ، وتعدُّدُ مناقبَ هى فى الإشراق والرِّفعة كالنُّجوم وفى الكَثْرة عَدَد الرمل والحَصىٰ والتُّراب ؛ فما دَعاه سلطانُنا إلا ٱستجاب ، ولا ٱستَوْعاه سِرَّه إلا غَدَا به يُصان ولايُصاب ، ولا ٱستنطَقْنا قلَمه إلا كفىٰ الخَطْب بأمْلَح خِطاب ، ولا ٱستَثَرْنا رأْيَه إلا حضر الرُّشْدُ وما غاب ؛ فكَمْ فرّق للأعداء من كتِيبة بكِتّاب ، وقرَّب من ظَفَرٍ والسيفُ فى القِرَاب ؛ فبدَعَواته يُسْتَنْزَل من النَّعماء أهْمرُ سَحَاب ، وببركاته جاء نصرُ الله والفتحُ وكان كيدُ الكافرين فى تَبَاب ، وبأقلامه إنعامنا يَهَبُ وٱنتقامنا يُهَاب ؛ فهى على المَسالك أمنعُ سِيَاج ، ولها فى مَسَالك الخيْر

(١) بياض بالأصل ولعله فأحسن فى ترتيبه الخ .

أبدَعُ منهـاج، وللدولة به وبولده استغناء وإليهما احتياج، فكم ضَمَّنا دُرَر كلامهما الأدراج، وأطلعا زُهْر أقلامهما من المَهارِق فى أبراج، وكم واصلَتْ فى ليل النِّقْس السُّرَى والإدلاج، حتى أبدَتْ صَباح النجاح ذا ٱبتِلاج، فلا عَجَب أن كان للنِّعم إليهما مَعادٌ ومَعَاج، ولِضيق الخطب عند باعِهما الرَّحْبِ فُسحةٌ وٱنفراج.

ولما كان المجلس العالى المُحْيَوى هو أسْرَى من تُلْقَى إليه الأسرار، وتَبْقَى منه عند أحْرَى الأحرار، فكم لها صانَ أينَ صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سارّ حيثُ سار، وكم له من كَرَمنا دارٌ فى كل دارْ، فمنَّا لقُرْبه إيثار، ولأثنيتنا عليه إكْثار، ولنا بفضائله إقْرار، يُوجِب للنِّعم عندَه الإقرار ــ ٱقتضَى حسنُ الرأى الشريف أن نُعيد إليه مَنْصِبَه، ونَزِيد لديْه المَوْهِبه، ونجعلَ وُجودَ تفضيله لدوْلتنا أعظمَ مَزِيَّة ومَنْقَبه، ونَراه أجلَّ كُفْء لاستجلاء عقائل الأسرار المحجَّبه، وإن كان لنزاهتِه لايَخْطُبها فهى لوَجَاهتِه ترغَبُ أن تخطُبَه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولَوِى، السلطانى، المَلَكى الفلانى ــ لا بَرِح بفضل الله يحيِي الدّين، وبتأييده يَبِين أنَّه الحقُّ المبين، وبتسْدِيده يُصيب عينَ الصواب فى التعيين ــ أن نفوّض للمشار إليه صحَابةَ دِيوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرَّفها الله وعظَّمها: على أجمل عوائده، وأكمل قواعده، وأحسن حالاتِه فى حُسْن مقاصِده، ونُفوذ مايُبَلِّغه من رسائل عَدْلنا فى مصادِر كل أمر ومَوارِده؛ وليستقرَّ بٱسمه من المعلوم كذا وكذا.

فليَتلَقَّ منصبَه المباركَ بأمَل فى كَرَمنا مبْسوط، ورتبَته التى يَحمى حِمَاها ويَحُوط؛ مُمْضيًا للمهِمَّات والمَراسم، مبْقِيا من يُمْن آثاره ما تَضْحَى به ثغور الثُّغور بَوَاسم، مُبْدِيا لمن عنده من كُتَّابنا أوقاتَ الأُنْس فأيَّامُهم [به] كلُّها مَواسم، وبها لهم من الخيْرات

أجزلُ المَقَاسم، وقد وَفَّروا دواعِيَهم إلى الخدمة إذ وَفَّر علىٰ نفقتِهم دَواعِيَه، وهو لسانُ الدولة وهم أُذُنُ صونٍ لما يُلْقِيه إليهم واعِيه، فحَقَّ لهم إلىٰ وِدَاده أن يجنَحُوا، وبإسعاده أن يَنْجَحُوا، وعن وَلَائه لن يبرَحُوا : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِه فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، فلِسَريرِ المُلْك به سُرور، وللدولةِ من أشعَّة إيَابِه وطَلعة شِهابِه نُورٌ علىٰ نور، وبهما عمادُ الشرف الأعلىٰ مرفوعٌ وبيتُ الفضل الأوفىٰ معْمُور، وهو وَبْل هـذا الغيث الغَمْر وشِبْل هذا الليث الهَصُور، طالما هَزَم الصُّفوفَ من كُتُبنا بالسُّطور، وجَهَّز بُرُدًا سِرُّها بالصون مكتُوم وعَلَمُها بالنصر مَنْشور، وهو كنز الفضائلِ وكِتَابَةُ الذَّهب شُذُور، ومن هذه الأُسْرة العُمَرية بأُفُق العلياء نجومٌ وأهِلَّة وبُدُور، وللنَّيِّرِ الأكبرِ إشراقٌ وأَتِلاقٌ وسُفُور، وغيرُه بالوصايا المأمُور، وسِواه نُبَيِّن له قصدَ السبيل حتَّى لا يَضِلَّ ولا يجُور، ولانحتاجُ أن نُذَكِّره بما هو من عِلْمه مَذْكور، وفى صحائفه مسْطُور، ولا نعلِّمه سَدَادا إذ هو عليه مجبُول ومفْطُور، بل الهُدىٰ منه ملتَمَسٌ، ومقتفًى ومقتَبَس، ومأثُور؛ وبحمد الله مافى حَزْمه قُصُور، ولا فى عَزْمه فُتُور، وهو بحرُ العِلْمِ المحيطُ وثَبِيرِ الحِلْمِ الموفُور، وليس التقديمُ له بمستغْرَب بل فضله المعروفُ المشهُور، والله تعالىٰ يَرْعىٰ له فى خدمتنا عَهْدا قديما، ويُبْقِيه للدعاء مُواصِلا ومُدِيما، ويُوزِعُه شكْرَ فضل اللهِ علىٰ ذلك ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عليْكَ عَظِيما﴾ إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخةُ تقليد بكتابة السِّر، كُتِب بها للقاضى شهاب الدِّين بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله علىٰ عنايةٍ حَفظت مُلْكَنا الشريف بمعقِّباتها، وصانَتْه بصاحبِ تصريف تَقُوم كُتُبه وآراؤُه مَقامَ الكتائب ورَاياتِها، وسَنَّتْ لنا الخِيَرَةَ لمنْ نجتنى بقلمه النصرَ

من ثمراتهـا ، وبينت الحُسْنىٰ فى طريقتـه المُثْلىٰ حتّى ٱنقسم الصُّبْح من قَسماتِها ، واقتُسم النُّجْح من عاداتِها ، وٱتَّسم فكْرُه بالنُّصْح وقد ضَلَّت الأفكارُ عن إصاباتِهـا فظلَّتْ فى غَفَلاتِها .

نحمدُه حمدًا يَهُبُّ مع الأنفاس فى هَبَّاتِها ، ويَهَبُ من اللطائف الحِسَان أفضـلَ هِبَاتِها ، ويُنَبِّه القلوبَ لتقييد شَوارِد النِّعم بِصِـدْق نِيَّاتِها، ويُنافِس الكرامَ الكاتبين علىٰ نفائس الثَّناء فى تسبيح لُغاتها بصَفِيح سَمٰواتِها .

ونشْهد أن لا إِلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً تملَأ الصُّحفَ بحَسناتها ، وتُحَـلِّى الوُجوهَ بالأنوار فى توجُّهاتِها ، وتلُوح من سِماتهـا سِيمِيَاءُ لا تَشُقُّ على الأبصار فى تَوسُّمـاتها ، وتفْـخَر برَقْمها الأقلامُ بأنه لا طَعْن فى ٱعتدال حَرَكاتها، على الرِّماح فى ٱعتِدال قاماتِها؛ ونشهد أنَّ سـيدنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى أدَّى الرسـالةَ بمـا تحمَّله مـن أماناتها، ورَعَى العهودَ لمن أخلَص فى مُراعاتها ، ودَعَا الأُمَّةَ بإذْنِ الله إلىٰ سبِيلِ نَجاتها، وٱستأْمَن على الوَحْى كُتَّاباً سبقُوا فى السَّعادة إلىٰ غاياتِها، وبلَّغُوا عنه السُّـنَّة بإِباناتِها والسُّورَ وآياتِهـا ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابِه فُرْسان البَلاغةِ ورُواتِها ، وحفظةِ الأَسْرار وثِقاتِها ، وصاغةِ المَعَانى فى الألفاظ الغُرِّ بنَفَثاتِها ، وأُولى الأحلام التى لا تُطِيشُها وقائعُ الدهر برَوْعاتِها ، ولا تُذْهِلُها عن الأَوْراد فى أوقاتِها ، وتلَقِّى الوفُود بأقْواتِهـا ، والأخلاقِ التى ٱتَّسـع نِطاقُها فى تصرُّفاتِها ، وٱمتنع حِجابُهـا أن تَتخطَّاه الخِدَعُ بهَفَواتِها،صلاةً تَزِيدُ الأعمارَ بَرَكاتِها،وتُزَيِّنُ الأعمالَ ببركاتِها؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ المُلْك عمودٌ بِناؤُه بِسرِّه ، وٱرتفاعُه بالتأسيس لمسـتَقَرّه ، وٱمتناعُه بعد العساكر المنصورة بكاتبٍ يُخاتِل العــدُوَّ فى مَكْره قبل مَكَرِّه ، ويقاتل فى الحَرْب

والسِّلم بنَفّاذ رأيه ونَفّاث سحْره ، ويقابل كلَّ حال بما يحسُن موقعُه من صَدْمه بصَدْره أو صَدِّه بصَبْره ، وينظُر فى العواقب نظَر البصير بأمْره ، الواعى لاحتيال عُذْره قبل اختيال الباغى فى غَدْره ، إذا جادلَ فبالحُجَّة البالغه ، وإذا جاوبَ أبطل الأهوالَ الزّائغه ، وإذا أمرْنا بالعدل والإحسان سيَّرهُما عنّا كالشمس البازغَه ، ومَلأ بهما حُبًّا لنا القلُوبَ الفارغَه ، وقد جرَّبْنا على طُول المَدى كُتَّابا ، وانتخَبْنا منهم كثيرًا ارتضَيْناهم أصْحابا ، ومارَسْنا جماعةً ازدَدْنا بهم إعجابا ، ورأينا طوائفَ فيهم مَنْ إنْ أجاد اجتناءً لزَهَرات القول حادَ عن الجادَّة اجتنابا ، وإن كلَّف نفْسه مذاهِبَ الكُتَّاب أخلَّ بمقاصد الملُوك إن كتَب عنهم كِتابا .

ولم نظْفَر بمن تمَّت فيه الشروطُ المشرُوطه ، ومَتَّ بالدائرة المحيطة إلى الفضائل المبْسوطَه ، وامتاز بفَهم لايُقْبِل على الفسادِ ولا يَقْبَل الأُغْلوطه ، إن أملَيْناه إملاءً ذَكَره ، وإن حُمْنا حولَ معنًى لا تُؤدِّى إليه العبارة فَسرَه[1] ، وإن سرَدْنا عليه فصْلا مُطوّلا خَبَره ، وربما رأى المصلحةَ فى اختصاره فاختَصَره ، وإن أوْدعْناه سِرًّا ستَره ، وصانه بمحوِ غيَّب أثَره ، وكتمه إمَّا بخَطِّه عن قلبه فلم يُدرِكْه أو بقَلْبه عن لحْظه فلم يَرَه ، وإن خَلَّينا بينه وبينَ غرَض من أغراضنا الشريفةِ استخرجَه كما فى خواطِرنا وأظهَره ـ كالمجلس العالى ، القضائىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، العلّامىّ ، القِوامىّ ، النِّظامىّ ، المدَبِّرىّ ، المُشيرىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوْحدىّ ، المُفَوَّهىّ ، الخاشعىّ ، السفِيرىّ ، الشِّهابىّ : صلاح الإسلام والمسلمين ، سيِّد الرؤساء فى العالَمين ، قُدوة العلماء العاملين ، إمام الفضلاء والمتكلِّمين ، رئيس الأصحاب ، مَلاذِ الكُتَّاب ، سفيرِ الأئمة ، عمادِ المِلَّة ، لسان السلطنة ، مدَبِّر الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، مُشير الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه وبينه والتثقيل مبالغة .

«أحمدَ بن فضلِ الله» ضاعف الله نعمتَه . فإنّا خطَبْناه لهذه الوظيفه، وٱستخلَصْناه علىٰ كثرة المتعيِّنين لأنفُسنا الشريفه، وٱمتحنّاه فى الأمور الجليلةِ واللطيفه، وحمّلْناه الأعباءَ الثقيلةَ والخفيفَه، وأوقفْناه مرّةً وأخرىٰ أطلقنا تَصْريفه، وأنعمْنا النظرَ فى حاله حتى تحقّقنا تثقيفَه، وكتَب وٱستُكْتِب عنا سِرًّا وجهْرا فملأ قلْبا وسَمْعا، وباشرَ مراسِمَنا العاليةَ مِصرًا وشامًا وصْلا وقطعا فعزَّ رفعةً وعمَّ نفْعا، وأنشأ التقاليدَ وقلَّدها، ونفَّذ المُهِمّاتِ وسَدّدها، ووقَّع التواقيعَ وأطلق بها وقد قيَّدها، ومَشَّى المصالحَ باحترازٍ ما بدَّدها وٱحتراسٍ ما عقَّدها، وجهَّز البُرُدَ بهمّةٍ ما قيَّدها طلبُ الراحة ولا أقعدَها . وهو كاتبُ مُلُوك، وصانعُ سُلوك، وشارعُ سُلُوك، وصائغُ ذهبٍ مسْبُوك، وناسجُ وَشْيٍ محُوك، وجامعُ صفاتٍ ماسواها هو المتْروك؛ لا يَعْدُو بالكلمة محلَّها، ولا يُؤاخى بالقرينة إلا شَكْلَها، ولا يسمَح بمخاطبةٍ إلا لمن تعيَّن لها، ولا يعاملُ بالغِلْظة إلا من ٱستوجبها ولا يخُصّ بالحُسنىٰ إلا أهْلَها؛ نأمُره بالتّهويل فيُزلْزِل قواعدَ العَدُوّ، ونُشير إليه بالتهوين فيُفيد مع بقاء المَهابة الهُدُوّ؛ وقد رَضيناه حقَّ الرضا، وأضرَبْنا به عمَّن بقِيَ من أكابرِ الكُتّاب ونَسِينا من مضىٰ، وتعيَّن علينا أن نحكمَ له بهذا الاعتبار ونحمِلَه علىٰ هذا المقْتضَىٰ، وأن نُطْلِعه فى سَماء دَسْتِنا الشريف شِهابًا أضا؛ وأن نقلِّده مُهِمًّا مازال هو القائمَ بتنفيذ أشغاله، والساعىَ بين أيدينا الشريفة فى تدبيرِ مقاصِده وجملةِ أحواله؛ إلىٰ مالَه من بَيْتٍ أثّلُوا مَجْده، وأثّروا سعْدَه، وأرّثوا عنـدنا وُدّه؛ وبنىٰ كما بنَوْا، وٱجتنَىٰ من السُّؤدَد ما ٱجتنَوْا، ورمىٰ فى خدمة الدُّوَل إلىٰ مارَمَوْا، إلا أنَّ مذْهبَه فى البيان أحْلىٰ، وأسلُوبَه أجْلىٰ، وقيمةَ كلامه أغلىٰ، وقِدْحَه فى الكمال هو المُعَلَّى، وأدبَهُ بحمد الله قد لحَظَتْه سعادةُ أيّامنا الزاهرة فما فيه لَوٌّ ولا لَوْلا؛ سوىٰ أنه ٱتّفق مُعارِضٌ ٱعترَض بين السَّهم والهَدَف، وسَفِه نفْسَه فوقَف فِي مَواقف التّلَف، ودَقَّ عنه شأنُ كاتب السر فسقَط من حيثُ

طمِعَ فى السُّقُوط وما عَرَف ؛ ورام الدُّخولَ بيْنَ الملِك و بين يَدِه ، وبينَ اللِّسان وما يُحَدِّثه به الضميرُ من حقيقة معتَقَدِه ، والاِطلاعَ علىٰ ما لو لم يكن للإنسان لمـا أداره فى خَلَده ، والتعدّىَ بما ليس له من لَفْظِـه متوقع ، وسرىٰ فى مَسْرًى لو طَمَح إليـه طَرْف السُّهَا لتقطَّع ، وما علِم أنَّ كاتب السر هو مستَوْدَع الخَبَـايا ، ومستَطْلَع الخَفَايا ، وقَلَمـه (ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايَا) ، وفى ٱستِمْداده يُعْرَف بالمُـنَى ويُرْعَف بالمَنَايا ؛ وله الكِتَابةُ والتوقيع ، والتصرّفُ فيما للتنفيـذ من التحسـين والتَّنْويع ، وغير ذلك من التفريق والتجْميع ، والتأصـيل والتفْريع ، والترغيب والترهيب والتأْمين والتَّرويع .

ولمـا دَلَّ ذلك المعتَرِض بإكْبَاره ، وأطالَ المَطَارَ فى غير مَطَاره ، وقال الناس إنَّ أبوابَنا العاليةَ جَنَّة حُفَّت من سُوء أخلاقه بالمَكَاره ، رمَيْنا به من شاهِق ، وأبعدْناه لآخرته أزهَدَ ما هَدَر من تلْك الشقاشِق ؛ وتقـدّمْنا بإنشاء هـذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سِرِّنا الشريف فى تَصْريفـه ، وبيَّنَّا أنه لا يُقاس به أحدٌ فإنّه لسان السلطان ويَدُه وكفىٰ بذٰلك دلالةً علىٰ تشريفه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ـ لازال إذا عَزَم صَمَّم ، وإذا بَدَأ المعروف تَمَّم ، وإذا ٱستخار اللهَ فى شىء رَضِى بخِيرَته وسَلَّم ـ أن يستقِلَّ المجلس العالى ، القَضَائىّ ، الشِّهابىّ « أحمدُ بنُ فضل الله » المشارُ إليه بصَحَابة دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميَّة المحروسة : رفيقًا لأبيه المجلس العالى ، القضائىّ ، المُحْيَوىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه وبركتـه فى المباشَره ، وشريكًا بل منفَرِدا ليقوم معه ودُونَه بمـا قام به من كِتَابةٍ باطنة وظاهِرَه ؛ ٱستقَلَّ كلٌّ منهما بها فيما بَعُد وقَرُب ممـا يضُمُّه نطاقُ الدولة القاهِرَه ؛ مع ما هو مستقرٌّ فيه من كتابة

السر الشريف ، والتصرّف فى المهمّات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفَرد بتقديم البريد وعَرْضِه ، ومباشرةِ خَتْمه وفَضِّــه ، وقراءته بين أيدينا ؛ وآستخراج مراسمِنا الشريفة فى كل مَنَاب ، ومُشافَهة وخِطَاب ، وآبتــداء وجَواب ، وملَطَّف ومكبَّر ، ومقَدَّم ومؤخَّر ، ومكمَّل ومشطَّر ؛ وإليه أمرُ البَرِيد والقُصَّاد والنَّجَّابه ، ومن آشتَمَل من الدُّجىٰ جِلبْــابَه ، أو ألقَتْه إلىٰ مُلَاءة الصَّباح المنشورةِ يَدُ ليــلةٍ مُنْجابه ؛ وتعيينُ مَنْ يَرىٰ تعيينه منهم فى المهمَّات الشريفة السلطانيّه ، والمصالح المقدّسة الإسلاميّه ؛ وإليه الحمــامُ الرسائليّ وتزجيته ، وزَجَالتُه ومَدْرجتُه ؛ ومن يصل من رُسُل الملوك إلىٰ أبوابِنا العاليــة ، وجميعُ من يُكاتِب الدولةَ الشريفة من كل منتَسِب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءةُ القِصَص لدينــا ، والكتابةُ علىٰ ما يسُوغ كتابةُ مثله ، وأخذُ العلامة الشريفةِ من يَده .

وأما من نَستكتِبُهم عنّــا فى ممــالكنا الشريفة فهو المقلَّد لأعبائهــم ، والمخَلَّى بينه وبين ما يراه فى آجتِبَائهــم ؛ يستكتِبُ كلَّ أحد فيما يراه ، ويرفَعُ بعضَهم فوقَ بعض درجاتٍ منهم مستيقِظٌ ومنهم نائم فى غَمَرات كَرَاه ؛ كلُّ هذا من غير معارَضَةٍ له فيه ، ولا آعتراض عليه فى شيءٍ منه ؛ يبلِّغنا مهمَّاتِنا الشريفةَ ويتلقّ عنا ، ومنه إلينا وإليه منّــا .

وأما ما يَرِد عليه من الرسائل عنّا بمــا يكْتَب به فيمَشِّى منــه مالا يمكن وقُوفه ، ويراجعنا فيما لايكــون إلا بعد مراجَعتِنا تصريفُه ؛ فليَمْش علىٰ هذه القــاعده ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة آستقلالا هو كالخبر محَلُّ الفائده ، ولينشُرْ من إقبالنا الشريف عليه بالصِّلات العائده ؛ ونحن نختَصِر [له] الوصايا لانَّه الذى يُمْليها ، ونقتَصِر منها على التقوى فإنهــا الذخيرة النافعــة لمن يُعانِيها ، والباقيــةُ الصالحة خيرٌ لمن يقتَفيها ؛

والله تعالىٰ يقوّى أسبابَه ، ويُنير شِهابَه ، ويَزِيد من المعالى آكتسابه ، ويُغْنِينا بقلمه عن سِنانٍ يتقدّم عامِلَه ، وبلسانه عن سيفٍ يُفارِق قرابَه ؛ والآعتماد على الخط الشريف أعلاه .



وهذه نسخة تقليد بعوْد القاضى شِهاب الدِّين بن فضل الله إلىٰ كتابة السر . من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمدُ لله الذى أحمَدَ العُقْبىٰ بفضله ، وأكَّد النُّعمىٰ بوَصْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكِنا الشريف عند أهْله ، وأطْلع شِهابَ الدين من أُفُق العلياء فى محلِّ شرفه وشَرَف محلِّه ، ورفع قَدْره فى سيْره إلىٰ بُروج السُّعود وحُلُوله بدرجات الصُّعود ونَقْله ، وأرجَع المَوْهِبةَ منه إلىٰ مَنْ يشكُرها بقوله وفِعْله ، وأينع الفَرْعَ الزاكِى الذى يَحْيَا أصلُه بوا كِف سَحاب كَرَمنا ووَبْله ، وأتمَّ النِّعمة عليه كما أتمَّها علىٰ أبوَيْه من قبْله ، وضَمَّ له أطرافَ الرياسة وجمع شَمْلها بشَمْله ، وعمَّ بفضلِه وفضلِنا أهلَ هذا البيت الذين فُطِروا على السُّؤدَد وبَصُروا من رِضانا باتِّباع سُبْله .

نحمده علىٰ إضفاء ظِلِّه ، ونشكُره علىٰ إصْفَاء نَهَله ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً أشرق نورُ هُداها ، بمستَدِلِّه ، وأغدَقَ نَوْءُ نَداها ، بمستَهِلِّه ؛ ونشهد أن سيدنا محمّدا عبدُه ورسولُه أرسله خاتَم رُسْله ، وجعلَ له الفضلَ على الخلق كُلِّه ، وألهم به سُبُل هديه وسَنَن عَدْله ، وأرشَدَه إلىٰ فَرْض دينه ونَفْله ، وأوْدَعه السِّرَّ الذى لم يُودَعْه سواه وحمَّله من أعباءِ الرِّسالة ما لم يَنْهَض غيرُه بحَمْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أغصانِ الشجرة الزَّهْراء التى هى بَضْعةٌ منه ونَبْعة من أصْله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجلّهم من أجْله ، خصوصا مَنْ بادر إلىٰ الإيمان فخُصَّ من السَّبْق بفَضْله ، ومَنْ أيِّد به الدينَ وفَرَّ الشيطانُ من ظِلّه ، ومَنْ جهَّز جيشَ العُسرة حتَّى غزا العدا بخَيْله ورَجْله ، ومَن كان بابَ مدينةِ العلم ومانحَ جَزْله وفاتحَ قُفْله ؛ وعن بقيَّة المهاجرين والأنصار الذين ما منهم إلا مَنْ جاهد حتَّى قام الدينُ بنَصْره ونَصْله ، صلاةً دائمةً يجعلها اللسان أهمَّ شُغْله ، ويتلقَّ قادمُها فى مواطن القَبُول بأكْرم نُزُله ، ما رَمىٰ قوسُ العزم بصائب نَبْله ، وحَمىٰ حِمىٰ الملك بلَيْثه وشِبْله ، وفوِّض أجَلّ المناصب إلىٰ فاضل العصر وأجَلّه .

أما بعدُ ، فإنَّ آراءنا لا تزالُ لمصالح مُراعيَه ، ولا تبرحُ بالإسعاد إلى الأولياء ساعيه ، فتدعُو إلىٰ مَقامها من وَفَّر على الإخلاص دواعيَه ، وتُدْنى من مُلْكها مَنْ له بالخَفَايا أعظَمُ بصيرةٍ وفى جميل القضَايا أجملُ طواعيَه ، وتُلْقِى أسرارَها إلىٰ مَنْ له لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأذُنُ خيرٍ واعيَه ، وتُقدِّمُ مَنْ له قَدمُ صِدْق ثابِتةٌ ويدٌ بيضاءُ طُولىٰ فى المهمَّات عاليه ، لتغدُوَ سِهام أقلامه إلىٰ الأغراض راميَه ، وصوائبُ أفكاره عن حِمىٰ المُلْك محاميَه ؛ وتكونَ عبارتُه للقاصد مُوفيةً وإشارتُه لمَوْعد اليُمْن مُوافيه ، وتُضْحِى دِيمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابق خِدَمه مُكافيه ؛ لما يتَّصل بذٰلك من المَصالح ، وتُناجى خواطِرُنا الشريفةُ به المَناجح ؛ ويقْبِل عليه وجهُ الإقبال ، فى كل حال ، ويَغْدو إليه طَرْف الإجلال ، وهو طامح ؛ فنجَمِّل به ممالكَنا مِصْرا وشاما ، ونُسَدّد به مَرْمًى ونُصيب مَرَاما ، ونحفَظ له ولأبيه فى خدمتنا حقًّا وذِمَاما ، ونكونُ له فى الحالتين بِرًّا وإكْراما ، ونُعلى محلَّه إعلانا بعُلُوِّ مكانه وإعلاما ؛ فيؤلِّف للرياسة نِظاما ، ويُضاعف للرُّتبة إعظاما ، ويُعْمِل يَرَاعًا بل حُسَاما ، ويجْلو وجْهَ المُنىٰ طَلْقا ويبدو بعدَ البِشر بَسَّاما ، ويُحْسِن بأعباء المهمَّات قِياما ؛ وحيث نقلَتْه أوطانُه هِضابَ المجدوقُلّتَه ، وأيْنَ وجَّهتْه أعلتْ قدْره ونوّهتْه ؛ وكلما أوفدَتْه أفاضَتْ عليه مَلْبَس

العزّ وجدّدته ، وآختصّته بالتصرف وأفردته ، وآنتضت ماضى آجتهاده وجرّدته ، وأجرته من إجراء فضلها على ما عوّدته ، وآستقلّت له منائحها من كثير المواهب ماخوّلته ، ومن كبير المناصب ماقلّدته .

ولما كان فلان هو الذى أودع الأسرار فحفظها ، وآطّلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها ، وباشر مهمّاتنا فأمضاها ، وسرّ خواطرنا وأرضاها ، وظهرت منه بين أيدينا كفايةٌ لا تُضاهى ، وقلّد أجياد أوليائنا من تقاليده عُقودا ، وأدنى من المقاصد بلُطف عبارته بعيدا ، وأغنى الدولة أن تجهّز جيشا وجهّز بريدا ، وأبان بمقاله عمّا فى أنفسنا فلم يُبق مزيدا ، وصان الأسرار فجعل لها فى خلده خُلُودا ، وجمع أشتات المحاسن فأضحى فريدا ؛ كم لعمّه فى خدمتنا من هجرة قديمه ، ولأبيه من موالاة هى للمُخالصة مواصلةٌ ومُديمه ، وكم لهما أسبابٌ فى الرياسة قويّة وطرائق فى الهداية قويمه ، وكم كاتب يسّر الله بهُداهما تعليمه وتفهيمه ، وقدّر على يديهما وصوله إلى رُتب العلياء وتقديمه ، فمنفعتهما عميمه ، ونبْعتهما صميمه ، ولهما فى الشام ومصر أجملُ شيمه ، وكم له هو أيضا من تقدّمات آقتضت تكريمه ، وكفايةٍ عند علومنا الشريفة معلومه ، وكتابةٍ حُلَلُ المهارق بوشيها مرقومه ؛ فلو قابله الفاضلُ «عبدُ الرحيم» لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه ، أو «عبدُ الحميد» لكانت مناهجُه الحميدةُ بالنسبة إلى مذاهبه ذميمه ، أو سمع «عبدُ الرحمن» مقاله لضمّن ألفاظه معانيه العقيمه ، أو أدركه «قُدامةُ» لعرف تقديمه ، وآقتدى بسُبْله المستقيمه ، أو حوى «الجوهرىّ» فرائد ألفاظه لعرف أنّ صحاحه إذا قُرنت بها سقيمه ، أو رأى «آبنُ العديم» خطّه لآستغنت منه بسلاسل الذّهب نفسُه العديمه ، أو «الولىّ» لآستجدى من صوب إجادته أغزر ديمه ، أو نظره «آبنُ مُقلةَ» لوجدتْ مُقلتُه نُضرةَ خطّه ونعيمه ،

أو «آبنُ البوّاب» لكان خَدِينَ بابه وخديمَه؛ فهم صدُورٌ صُدُورهم سليمه، وأماثِلُ معدودةٌ وأمثالهم معْدُومه .

آقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُلْقِيَ إليه منصباً هو أَوْلىٰ به، ونُقِرّ عينَه بدُنُوّه منّا وآقترابِه؛ ونمتّع البصر والسمع بخَطّه وخِطابِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المولوىّ، السلطانىّ، الملكىّ، الفلانىّ - لا بَرِح يُعيد نِعمَه كما بَدَأها أوّلَ مرّه، ويَسُرُّ القلوبَ بِكافٍ أَوْدَعه سِرّه؛ ويحمَد لأحمد الأولياء عوْدَه ومستقرَّه - (1) .

فلْيتلقَّ هذه النِّعمة بشُكرها وليترقَّ منصبا رفيعا يناسِب رِفْعة قدْره، وليبْسُط قلَمه فى تنفيذ مُهِمّ الممالك من نَهْيه وأمره، وليحفَظْ ماأُودِعَهُ من خَفِىّ سِرّه، ولْيُلاحِظْ المهمّاتِ بفكره، وليحافظ علىٰ مايَعْرِفه من رضانا طُولَ دَهْرِه؛ ونحن نعلَمُ من صوابِ أفعاله وتسديدِها، ما لا نحتاجُ معه إلىٰ تكثير الوصايا وتعْديدها، ولا إلىٰ تكريرها وترديدِها؛ لاسيَّما وقد سلفَتْ له بها خِبْرة لا نَفتقِر إلى آستيعابِ ذِكْراها ولا إلىٰ تجْديدها، وتقدّمتْ له مباشرةٌ آستبشَرْنا بيمُونها وأثنينا علىٰ حميدِها، وآستدْنَيْنا سَنَاها وآستغنينا عن سِواها بوجُودها؛ وله بحمد الله توَفُّر التوفيق، وهو الحقيق بما فوّضنا إليه على التحقيق، وفضْلُه من الشوائِبِ عرِىٌّ وفى المجَانبين عرِيق، وقدْره بتجديد النِّعم جدير وبخِلال الكَرَم خلِيق، والله تعالىٰ يُوضِّح به من الخير أبينَ طريق، ويسُرّ بتَقَدّمه الولىَّ والصديق، ويَفْرُق به بينَ الحقِّ والباطل لجَدّه الفاروقُ وهو من أكرم فَرِيق؛ بمحمد وآله ! .

(1) حذف المرسوم به اختصارا فى الكتابة واتكالا على فهمه من نظائره المتقدّمة فهو ملحوظ له ومراد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمدُ لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شِهَابا يعلُو علىٰ فَرْقَد الفَراقد، وكمَّل به عقُودَ الممالك فسَمَتْ جواهرُ فرائدها علىٰ الدَّرارِىّ إذ كان واسطةَ تلك الفَرائد، ومُعيد إحساننا إلىٰ خَيْرِ ولىٍّ أغنىٰ تدبيرُه عمَّن سواه فكان بالألْف ذٰلك الواحد ، ومُخَوِّل موادِّ كرمنا لمن هو صدر أسرارنا ويمينُ مملكتنا فى كلِّ صادرٍ عنها ووارد ، ومنَقِّل الأكفاء إلىٰ مراتبِ سعودهم فتُصبح ألويةُ محَامدهم فى معاقل العزِّ أنفرَ مَعاقد ، ومُحلِّى مُلكِنا الشريف بأكمل كافٍ ما أمَّ مصرا إلا تلقَّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أسفَتْ عليه تلك الربوعُ والمعاهد .

نحمده علىٰ نِعَم أقرتْ عُيونَ الأولياء لمَّا أقرتْهم من موادِّ جُودنا علىٰ أكمل القَوَاعد، ونشكره علىٰ ما بَلَّغنا من جميل المآربِ وبلُوغ المقاصد، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادة تُنجِّى قائلَها من جميع الشدائد، ونشهد أنَّ سيد[نا محمدا سيد] البَشَر عبده ورسولُه الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائد، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحَابته خصوصًا علىٰ أوّل الخلَفاء أبى بكر الصدّيق الذى لا نخر كفَخَاره، وعلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّاب حاملِ أسرارِه وفاتح أمصارِه، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمانَ بن عفَّانَ مُبَدِّل عُسْره بيَسَاره، وعلىٰ ابن عمِّه علىّ بن أبى طالب أعزِّ نُسَبائه وأخصِّ أصهاره، وعلىٰ بقيَّة مهاجِريه وأنصاره، صلاةً سَهْلةَ المَشَارع عَذْبةَ المَوارد .

وبعد فإنَّ من سجيَّتنا إذا تيمَّنَّا بولىّ لا نَزَال نلْحظُه ، ونَرْعىٰ حقُوق خدَمه فى القُرْب والبُعْد ونَحفظُه، ونُقابل ماأسلفه لدينا بنفائس النِّعم، ونُفيض عليه مَلابِس الجُود والكرم ؛ لا سيَّما من لم يزل يُظْهر لنا كل يوم تعبُّدا جديدا، ومن أصبح

فى الفَصاحة والبَلَاغة وَحِيـدا ، ومن جمع أطرافَ السؤدَد والرياسـة فلم يَبْرح بهما فريدا ؛ ومن تَحْسُن النعم بإفاضتها عليـه ، وتكْمُلُ المِنَنُ بإضافة محاسِنها إليـه ؛ وتزهو فرائدُ البلاغة بانتظامها فى سِلْك مَجْده ، وتُشْرِق كواكبُ البَرَاعة فى ٱتِّساقها فى فَلَك سَـعْده ؛ وكان لِلنَّابَتِه فى الاختصاص بنا اليـدُ الطُّولىٰ ، وتَلَا عليـه لسانُ ٱعتنائنا فى الحـالين : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ .

ولمَّـا كنتَ أيُّها الصدرُ «شهابُ الدين» أحقَّ الناس بهذا المَنْصب لمـا لوالِدك ــ أبقاه الله تعـالىٰ ــ ولعَمِّك ــ رحمـه الله تعالىٰ ــ من الحُقوق ، ولمـا أسلَفاه من الخِـدَم التى لا يحسُن التناسِى لهـا ولا العُقُوق ؛ ولأنك جمعتَ فى المجد بيْن طارِفٍ وتالِدٍ ، وفُقْت بأزكىٰ نَفَروعَمٍّ وإخوةٍ ووالِدٍ ؛ وجلالَةٍ ، ما وَرِثْتها عن كَلَالة ؛ وخِلال ، مالها فى السِّيادة من إخْلال ؛ ومَفَاخِر ، تُكاثِر البحرَ الزَّاخر ؛ ومآثِر ، يَعْجِزُ عن وصفها الناظمُ والناثر ؛ ولمـا نعلَمه من فضائلك التى لا تُجْحَد ، رعيناك فى عَوْدك لوظيفتك وعودُ « أحمدَ » أحْمَد .

ولمـا كان فلانٌ[1] هو الذى تَقْطُر الفَصاحةُ من أعطاف قَلَمـه ، وتَخْطِر البـلاغةُ فى أثواب حكَمه ؛ وتنزِل المعانى المتنعةُ من مَعَاقل القَرائح علىٰ حُكْمه ، وتقِف جِيادُ البَدَاهة المتَسرِّعة حَيْرىٰ قبل التوسُّط فى علْمه ؛ إن وَشَّى الطِّرْس فرِيَاض ، أو أجرىٰ النِّقْس فحِياض ؛ أو نَظَم فقَلَائد ، أو نَثَر ففرَائد . لا يتجـاسَرُ المعنىٰ المطرُوقُ أن يُلِمَّ بفكره ، ولا يُقْـدِم المعنىٰ المتخيَّل المسبوقُ للرُور بذِكْره ؛ ولا يجوزُ زَيْف الكلام علىٰ ذِهْنـه المتَّقِـد ، ولا يَثْبُت غُثَاء الكلام لدىٰ خاطره المنتَقِد ؛ فـ«عبدُ الحميـد»

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير فى تصدير مقاله بإحداهما كما لا يخفى .

كـ«عَبْد الرحيم» فى العَجْز عن لَحَاق علُومه التى يجد « الراغبُ » علىٰ نُورها هُـدىٰ ، والأصمعىُّ لو أدركه لتـلَا عليه : ﴿هَـلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّـا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ «والطُّغرائىّ» لو عاصره لزاد نظْمَه وآزداد علىٰ نُوره هدىٰ، و«الحريرىّ» لو رافقه لأمِن فى "مَقاماته" من التَّجْريح والرَّدىٰ؛ قد قَصَّرتْ عن غاية كماله جيادُ القَرائح ، وعَجَزت عن وصْف صفاتِه جميع المَدَائح ؛ وشَرُف منصِبُه بآنتسابه إليه ، ورُفِع قدرُه بمثُوله لديْه ؛ مع ما تميَّز به من نَزاهةٍ صَرَف بها عن الدنيا طَرْفه ، وزَهادةٍ زانَتْ بالسَّعْد صَدْرَه ومَلاءةٍ ملأتْ بالعفَّة كفَّه ؛ فهو واحدُ زمانه ، وأوحدُ أوانه ؛ والبحرُ الذى يُحدَّث عن فضـله ولا حَرَج ، والروضُ الذى يُنْقَل عن فضله إلى الأسْمـاع أطيَبُ الأرَج ؛ وكان قد مال عن منصِـبه وهو يذْكُره؛ وفارقَه وهو يَشْكُره ، ونادىٰ غيره وبقوله يلَبِّى ، وشُـغل بغيره وهو يقول حَسْـبِى « شهابُ الدين » حَسْـبِى : ﴿فَلَمَّـا رءَاه مستقِرًّا عنْدَهُ قال هَذَا مِنْ فَضْل رَبِّى﴾ . فلما حَصَل له الآستئناس ، وزال عنـه القَلَق والآلتباس ، قال : ﴿ذَلكَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ﴾ ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نخُصَّــه بآستقرار رُتْبَته لدَيْه ، وأن نستمرّ به علىٰ وظيفته السنيةِ آستمرارَ السُّعود المقبِل عليه .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال شِهابُ سـعده لامِعا ، وسَحابُ كرمه هامعا ، ومُطاعُ أمره لمصالح الدِّين والدنيا جامعًا ؛ ــ لمَنَاقبه[1] التى وَفَرت مَيامنها ، وأسفَرت بوصْف آثاره الحسنةِ كوامنُها ، وأن يُعادَ إليها كما يُعادُ السِّوارُ إلىٰ الزَّنْد ، أو كما يعُود نسيمُ الصَّـبا إلىٰ الرَّنْد . فلْيُؤنِسْ منصِبًا كان إليه مشتاقًا ، ومجلسًا كانَ منتظِرًا أن يَزُرَّ من ملابس جلاله علىٰ عُنقه أطْواقا ؛ وليجَمِّل هالةً كانت متشوِّقةً إلىٰ عقُود دُرَره . فآحمد الله علىٰ ما خصَصْناك به من مَزِيد الآعتناء ، وأن السـعادةَ فى أيامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه ... ... وأن يعاد .

متصلةٌ فتشمَل الآباءَ والأبْناء ؛ ويَكْفيك بهـذا التوقيع الشريف إذ بلغْتَ به جميعَ الأماني ، وتوجْناه بيمينِنا الشريفة لقرب عَهْدها بمصافحة الرُّكن اليماني ؛ وٱصطفيناك بقلمٍ عَظُم شأناً بتلك السُّتُور ، وغدا معْموراً بالهداية ببركة البيت المعْمُور ، وٱزداد بمشافهــة الحرم الشريف نُورًا علىٰ نُور . فليُحْســن نظرَه المبــاركَ فى ذٰلك كلِّه ، وليُبْدِ ما يحسُنُ فى هــذه الوظيفة من مثْله ؛ وفى تقــدُّم مباشرته فى هذه الوظيفــة وعلْمه ما يُغْــنِي عن كثْرة الوصايا ، وملاكُها تقوى الله تعــالىٰ وهى أكمل المَــزَايا ؛ وليُحْمِــدْ أفعالَه ويصِــلْ أســبابَ ٱعتماده بسببها ؛ والله تعــالىٰ يُجمِّــل له مواهِبَ تَخْويله ، ويجعل له الخيرَ فى تنقُّله وتَحْويله ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجَّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمــد لله الذى جعل خَواطرَ أوليائنا بإقرار نِعَمنا مستقِرّه ، ومَواطرَ آلائنا علىٰ ذَوِى الإخلاص فى ولائنا دائمةَ الدِّيَم مستمِرّه ، وبشائرَ رضانا تجدِّد لكلٍّ من ذَوِى الاختصاص ٱبتهاجَه وبِشْرَه ، وســوافرَ أوجه إقبالنا لأُولى الاصطفاء والوفاءِ مُشْرِقة الأوضاح متهلِّلةَ الأسِرَّه ، مُودِع أسرار مُلْكنا الشريف من آل «فَضْــل الله» عند أكرم أُسْرَه ، وممتِّع دولتنا بخير كافٍ دقَّق فى مصالحنا فكرَه ، وأنفق فى مناجحنا عمرَه ، ومُجْمِــع آرائنا علىٰ أعلىٰ علىّ حلَّ من بُهْر بيته بمعرفه وبهرَ خَيْره ، ومُطْلِــع أنجمِهم بأفُق تقريبنا مرّةً بعــد مرَّه ، فنحيي نيرهم الأكبر وقد شيَّدنا بإرتقائهم بيتَه وشدَدْنا بعَلائهم أزْرَه .

نحمده علىٰ أنْ جَبَل سَجَايَانا ، علىٰ الإحسان والمَبرَّه ، ونشكُره علىٰ أنْ أجزل عَطايَانَا ، لمن لم يَزل يَعرِف حقَّه ويَألف خَيْره ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له

شهادةً تشرح لمؤمنها صدره، وتُصلح لموقنها أمره، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى أسمىٰ علىٰ الخلائق قَدْرَه، وتولّى فى المَضايِق نَصْره، وأعلىٰ فى المشارق والمَغارب ذِكْره، صلّى الله عليه وعلىٰ آله أعزّ عِتْره، ورضى الله عن أصحابه الذين أسْدَوُا المِنّة وسَدُّوا الثُّغْره، صلاةً ورضوانًا متواصلَيْنِ فى كلّ أصيل ومكرَّرين فى كلّ بُكْره، ما وُهِب فضلُ الله مستحِقًّا فسَرَّ بالعواطف والعَوارف سِرَّه، وعقَّب فى سماء الإسعاد كوكَبٌ كوكبًا فحَلَّ محلَّه وقرّ مَقَرّه، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ فشِيَمُنا ترعىٰ لأوليائها حُقُوقا، ونِعمُنا الغامِرةُ تُسْنِى صدَقاتِها لمن لم يزَلْ فى وَلائها صَدُوقا، وتَزيد هباتِها توفيرًا لمن عَهِدتْ منه لمَراضيها توفيقا، وتُجدِّد بتعاهدها مَعْهَد الفضل فلا يُمْسِى خليًّا بل يُضْحِى بإكرامها خليقا، وتشيِّد بإحسانها بيتا أُسِّس علىٰ تقوىٰ الله وطاعةِ سلطانها فغدَا بالحِفْظ حقيقا، وتحمِى بأعتنائها جوانبَه من الغِيَر فلا يَرهَب حِماه لها طُرُوقا، ولا تجدُ بفضل الله لها عليه طَرِيقا، وتُطلِعُ فى بروج سُعودها زُهرا تَرُوق شُروقا، وتجمَع علىٰ مُهِمّاتها مَن عَظُموا فَضْلا وكَرُموا فرِيقا، وتُودِع أسرارَها عند سَراتِهم رُكُونًا إليهم وسُكونا ورِضًا بهم ووُثُوقا، وتَشفَعُ منائحَها بمنائحَ تزيدُ آمالَهم نَجاحا وتُفيد أمانِيَّهم تحقِيقا، وترفَعُ مكانًا عليًّا إلىٰ حيث اتّسع السِّرار من مُلْكها من كان بالمَيَامن مَليًّا وفى المحاسن عَرِيقا، ويَخْلُف فى خِدَمها شقِيق منهم شَقِيقا، ويُصَرِّف أوامرَها ونواهيَها من أعيانهم من تأمَن المصالحُ مع اجتهادِه، تفويتًا وتخافُ الأعداءُ لسداده، تعويقا، طالمَا ائتمنّاهم علىٰ إيداع أسرارِنا فحلَّت من سرائرهم مستَوْدَعا وثيقا، وعُنِّوا للعالى فصادفَتْ طويّتُنا من يقَظتِهم ونهضتِهم تَصْدِيقا، فهمْ أوْلىٰ أن نجعل لأجيادهم بعُقُود جُودنا تطوِيقا، وأحقُّ أن نرفع بنِعَمنا محلَّهم، ونجمعَ فى خِدْمتنا شَمْلَهم، فلا يخشَوْن نقْضًا ولا تفْرِيقا .

ولما كان المجلس العالى الفلانى هو الذى لحظَتْه عنايتُنا، فَعَلَا فِعْلا، وأيقظتْه إشارتُنا، فَغَدا فى الحكم كَهْلا، وحفظتْه رعايتُنا، فعَمَرت بيتَه العمرىّ الذى مازال بالعوارِف ملمُوحًا وللقَبول أهْلا، وأحْظتْه سعادتُنا، فى إقامته مُقام أبيه فى حفْظ أسرارنا التى هو أحقّ بإيداعِها وأوْلىٰ ـ ٱقتضى حُسْن الرأى الشريف أن نُجْرى بمراسِمنا أقلامَه، ونوفّر من إنعامنا أقسامَه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا برِحتْ سحائبُه عامّه، ومواهبه لها مزيد وإدامَهْ، ورعايتُه إذا ٱبتدأتْ فضلا رأتْ إتمامَه، وكواكبُه تَسير فى منازل عِزّها ولنَيِّرها الأكبرِ الإرشادُ والإمامَهْ ـ أن يُفوّض إليه كذا وكذا، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القواعد، نظير ما كان مستقِرّا لأخيه .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى لها به وبأهله أعظمُ فَخار، وليحلَّ هذه الرتبةَ التى ما منهم إلا مَنْ لها يُجتبَىٰ ويُستخار، وليُجمِّل هذا المنصبَ الذى إليهم مصيرُه فى جميع الأمصار، وليُحلِّ المَهارق بانشاآته التى شانَ مُطاولِها عن شأْوِها الإقْصار، وليتَوقّل هذه الهضبةَ التى لها علىٰ عَلْيائهم ٱقتِصار، وفى آبائهم وأبنائهم لها تعيينٌ وٱنحصار، وليدَبِّج الطُّروس من خَطِّه بالوَشْى الرقيم، وليُبهِج النفُوسَ من خِطابه بالدُّرّ النظيم، وليُسْرِج الشُّموس من أوضاع كتابتِه التى تَبْرُز من إبريز كُنُوزها «ٱبنَ العَديم»، وليُجهِّز البُرُدَ التى تَقدّمُها مهابَتُنا فلم يكَبْها من كتائب الأعداء هَزيم، ولْيزيّن مقاصِدَها التى قُرِن بها الفتحُ القريب والنصرُ العزيزُ والفضلُ العظيم؛ وهو بحمد الله غنِىٌّ عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم، علِىُّ القَدْر لا يَحتاج مع ألمعيّته إلىٰ تنبِيه ولا إلىٰ تعليم؛ وهم أئمّةُ هذه الصناعة ولهم الفضل القديم، وسبيلُهم السَّوِىّ وصراطُهم القويم؛ والله تعالىٰ يوفّر لهم فضلَنا العميم، ويُظْفِر أقدارَهم من لَدُنّا

بتكرير التكريم، ويُسْنِى أمرَهم فى آفاق العلياء يُسعِدُ ويُقْعِد ويُقِيم، ويديمُ لكلٍّ منهم فى ظلِّ نعمنا المزيدَ والتأكيدَ والتقديم؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه وصيةٌ لكاتب السرّ، أوردها فى "التعريف" وهى :

وليأمُرْ عنَّا بمـا يُقابَل بالامتثال، ويقال به : السيوفُ لأقلامه مِثَـال؛ ويَبْلُغ [من] ملوك العدا مالاتبلُغه الأسِنَّه، ولاتصِل إليه المراكبُ المُشْرَعة القلُوع والخيولُ المطلَقةُ الأعِنَّه؛ وليُوقِّعْ عنَّا بمـا تَذْهَب الأيامُ ويَبْقىٰ، ويُخلِّدْ من الحسنات ما يُلقىٰ آخرةً ويُلْقىٰ؛ ويُمْلِ من لَدُنْه من غُرَر الإنشاء مايُطرِّز كلَّ تقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقَاليد؛ ولينفِّذْ من المهمَّات ماتُحجَب دُونَه الرِّماح، وتُحجِم عن مجاراة خَيل البريد بِهِ الرِّيَاح؛ وليتلَقَّ مايَرِد إلينا من أخبار المـالك علىٰ اتِّساع أطرافها، وما تضُـمُّه مُلاءة النَّهار مِلْءَ أطرافها؛ وليُحْسِن لدَيْنا عَرْضَها، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمة ولْيُتِمَّ فَرْضَها؛ وليُجِبْ عنَّا بمـا آستخْرِجَ فيـه مراسِمُنا المُطاعه، وبمـا وُكل إلىٰ رأْيه فسـمِع له الصوابُ وأطاعَهْ؛ وليُمْضِ ما يَصْدُر عنَّا ممـا يجُوبُ الآفاق، ويزكُو على الإنْفاق، ويجُول ما بينَ مِصْر والعِراق، ويطيرُ به الحمـام الرسائليُّ وتجرى الخيـلُ العِتَـاق؛ ولْيُرِ النوّابَ ما أَبْهم عليهم بمـا يُريهم من ضَوْء آرائنا، وليؤكِّد عندهم أسبابَ الوَلَاء بمـا يُوالِى إليهم من عَمِيم آلائنا؛ وليأمُرِ الوُلاةَ بمـا يقِف به كلٌّ منهم عنـدَ حَدِّه ولا يتجاوَزُه فى عمـله، ولا يَقِف بعـده علىٰ سِواه بأَمَله؛ وليتولَّ تجهـيزَ البَرِيد، وآستِطْلاعَ كلِّ خبرٍ قريبٍ وبعيد؛ والنَّجَّابة وما تَسِير فيـه من المصالح، وتأخُذ منه بأطراف الأحاديث إذا سالتْ منه بأعناق المَطِىّ الأباطِح؛ وأمورَ النُّصحاء والقُصَّاد،

ومن يَظَلُّ سِرُّهم عنده إلىٰ صَخرة أعيا الرجالَ انصداعُها وهُمْ شَتّى فى البِلَاد؛ وليعرِفْ حقوقَ ذوى الخِدْمة منهم، وأهلِ النصيحةِ الذين رضى الله عنهم ، ولا يَنْس عوائدَهم من رُسوم إحساننا الموظَّف ، وكرمنا الذى يَسْتَميلُ به القلوبَ ويتألَّف ؛ وليصُنِ السرَّ بجُهْده وهيهات أن يختفى، وليحجبْهُ حتّى عن مِسْمَعيْه فسرُّ الثلاثة غير الخفِى؛ والكَشَّافةَ الذين هم ربيئة النظر ، وجَلَّابةَ كل خَبَر؛ ومن هم أسرَعُ طرُوقا من الطيف، وأدخَلُ فى نُحور الأعداء من ذُبابِ السَّيْف؛ وهم أهلُ الرِّباط للخيل، وما منهم إلا من هو مُقْبِل ومُدْرِك كاللَّيل ؛ والدَّيَادِبُ والنُّظّاره، ومن يَعلمُ به العِلْمَ اليقينَ إذا رفَع دُخَانه أو نارَه ؛ وهم فى جَنَباتٍ حيثُ لا يخفىٰ لأحد منهم مَنَار ، ولا يزال كلُّ نبإٍ بتنويرهم كأنه جَبَل فى رأسه نَار؛ والحمامَ الرسائلىَّ وما يحمِل من بَطائق، ويتحمَّل من الأنباء ما ليس سواه [له] بطائق؛ ويخوضُ من قطع الأنهار، ويقطع إلينا ما بَعُد مسافةَ شهرٍ وأكثرَ منه فى ساعةٍ من نَهار؛ ويَعْزِم السُّرىٰ لا يُلْوِى على الرِّباع ، ويعلم أنها من ملائكةِ النصر لأنها رُسُل ولها أجنحةٌ مَثْنىٰ وثُلاثَ ورُباع؛ وغير هذا مما هو به معْذُوق، وإليه تُحْدىٰ به النُّوق؛ من رُسُل الملوك الوارِده، وطوائف المستأمَنين الوافِدَه؛ وكلُّ هؤلاء [هو لآ] مالهم المترجِم، والمصَرِّح عن حالهم المُحَمْحِم، فليعامِلْهم بالكرامه؛ وليُوسِعْ لهم من راتب المُضَيِّف ما يحبِّب إليهم فى أبوابنا العاليةِ الإقامَه ؛ وليعلَمْ أنه هو لدَيْنا المستشارُ المؤتَمَن، والسفيرُ الذى كلُّ أحدٍ بسِفارته مرتهن؛ وهو إذا كتب بَنانُنا، وإذا نطق لسانُنا؛ وإذا خاطب مَلِكا بعيدَ المَدىٰ عُنْوانُنا ، وإذا سدّد رأْيه فى نُحور الأعداء سهمُنا المرسَلُ وسِنَانُنا؛ فليُنْزِل نفسَه مَكانها، ولينظر لدَيْنا رتبَتَه العليَّة إذا رأى مثل النجوم عِيانَها .

فليراقِب اللهَ فى هذه الرتبه، وليتوَقَّ لِدِينه فإنَّ الله لا يَضِيع عنده مثقالُ حَبَّه، وليخَفْ سُوءَ الحساب وليتَّق اللهَ رَبَّه؛ وجماعة الكُتَّاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيَّتُه ، وهداهم بما تُمِدّهم به من الآلاء ألمعيّته ؛ فلا تستكتِبْ إلا من لا تجِدُ عليه عاتِبا ، ولا يجِدُ إلا إذا قعد بينَ يدَيْه كاتِبا ، والوصايا منه تُستملَىٰ .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحابُ التواقيع ، وهم علىٰ ثلاث درجات)

الدرجة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» وكلُّها مفتتَحة بـ«الحمدُ لله»)

وتشتمل علىٰ ثلاثِ وظائفَ سوىٰ ماتقدّم أنه نقل إلىٰ رتبة التقاليد،وهو كتابة السرّ

الوظيفة الأولىٰ

(نظرُ الخاصّ)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّها وظيفة محدَثةٌ، أحدثها السلطانُ الملك الناصر « محمدُ بن قلاوون » حينَ أبطل الوزارةَ ؛ وأنّ أصل موضوعها التحدّثُ فيما هو خاصٌّ بمال السلطان ، وأنَّ صاحبها صار كالوزير لقُرْبه من السلطان وتصرُّفه فى تدبير جُملةِ الأمور ، وتعيينِ المباشرين ، إلا أنَّه لا يقدر علىٰ الاستقلال بأمر ، بل لابدّ له من مراجَعة السلطان . وقد تقدّم ذكْرُ ألقابه فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات من هذا الفصل ، وعلىٰ طُرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاصّ ، كُتِب به للقاضى شمسِ الدين مُوسىٰ بن عبد الوهّاب فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل كلَّ جُرْح بنـا يُوسىٰ، وعجَّل كلَّ نعمة تُبدِّل بُوسا، وتغيِّر بالسُّرور من المَساءة لَبُوسا .

نَحمدُه حمْـدا يشْرَح صدُورا ويسرّ نفُوسا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترفَع لقائلِها رُءُوسا ، وتُطلِـع فى آفاق ممالِكنا الشريفة شُمُوسا ، وتُنْشِئ فى أيَّامنا الزاهرة غُرُوسا ، ونشهد أن محمّدا عبدُه ورسوله الذى بَشَّر به مُوسىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً تملأُ طُرُوسا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن العمل بالسنَّة أَوْلىٰ ما يتَمسك به المتمَسِّك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ٱبْدَأْ بنَفْسك» ، وكانت الخواصُّ الشريفةُ هى المصلحةُ الخاصَّةُ بنا ، المتعلِّقةُ دُونَ كل شىء بأنفُسنا ، لأن من خزائنها العالية تتفرّقُ مَواهِبُنا الشريفةُ فى الوجُود ، وتُحلِّي مَعاطِف الأمراء والجُنُود ؛ وكان فيها مَن لم يزَلْ هو وبَنُوه قائمين بها أحسَن قيام ، [و]فيها من ممـالكنا الشريفة مايُضاهى بَمدَده الغَمام ؛ مَنْ حضَر منهم لايتفَقَّد معه مَنْ غاب ، ومن كتب منهم فى شىءٍ من مصالحها قال الذى عِنْده عِلْمٌ من الكتَاب ؛ كم أجرتْ صدَقاتُنا الشريفةُ بأقلامهم من إنعام ، وتقَسَّموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العَامّ ، طالمـا ٱنقطع والدُهم رحمه الله تعالىٰ بعُذْر فمَشُّوا الأمور علىٰ أكمل سَـدَاد ، وأجملِ ٱعتِماد ، وأتمِّ مالو حضَر أبُوهم وكان هو المتولِّيَ لمـا زاد ؛ فمـا خلَتْ فى وقتٍ منه ، أو من أحد منهم لَمَّا غاب مَنْ بقِىَ يسُـدّ عنه ؛ فلم يزل منهم ربعُها مأنُوسا ، ولا سُئِل فيها عن قصَّة إلا وأنبأت بها صُحُفُ إبراهيم ومُوسىٰ .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخرًا بهذه الوظيفه ، وٱستقَلَّ فيهـا بين أَيْدينا الشريفه ؛ وسافر فيهـا إلىٰ ثغر الإسكندرية ـ حرسها الله تعالىٰ ـ فٱقترن بيُمْن تصرُّفه ، وحسن تعفُّفه ، وعَدم فيها المضاهىَ لأنه لاشىءَ يُضاهى الشمسَ إذا حلَّ

سِرُّها فى مَنازِل شَرَفه ؛ كم كفَتْ له كِفَايه ، وبدَتْ بِدايه ، وكم بلَغ من غايَهْ ؛ كَمْ له من هِمَم ، وكَمْ تقدّمتْ له قدَم ، وكَم ٱعترف السيفُ ببزِّ القلَم ؛ كَمْ له فى خِدْمة المقامات العالية أولادنا أثَرٌ جميل ، وفعلٌ جَلِيّ جليل ، وسلُوكٌ فلا يُحتاج فى الشمس إلىٰ دليــل ؛ كم أحسَنَ فى مَرَّه ، كم ردَدْناه إلىٰ الكرك كَرَّه ؛ كم غَلَب علىٰ السحاب فرَقِىٰ إليهــا ، وبلَغ النُّجومَ وله قُــدُوم عليها ؛ فلمــا ٱنتقل والدُه القاضى تاجُ الدين عبدُ الوهاب إلىٰ رحمــة الله تعالىٰ ، ٱحتاج إلىٰ توقيع شريف بالٱستقلال فى وظيفة نظر الخاصّ الشريف التى خلَتْ عن أبيه ؛ ليعلم كلُّ متطاول إليها أنه لا يَصِل إليهــا مع وُجود بَنِيه ؛ فمــا عادَ إلا وعادَ بعين العِناية محرُوسا ، ولا أقبــلَ علىٰ كرمنا إلا قالَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ زاد الله شرَفَه ، ومكّن فى الأرض تصَرُّفَه ــ أن يفوّض إليــه نظرُ الخاصّ الشريف بالممــالك الإسلامية المحروسة ، علىٰ عادةِ والده رحمه الله فى هذه الوظيفه ، وقاعدته فى رُتْبتها المُنِيفه ؛ ليقضىَ ما كانَ فى خاطرِ أبيه من الوَطَر ، ولأنه فى أمثالِه عينُ الأعيانِ والعينُ أَوْلىٰ بالنظَر .

فليُباشر ماأنعمَتْ به صدَقاتُنا العميمةُ عليه علىٰ ماعُهِد [منه] بالأمس ، وعُرِف به من حُسْن السلوك كمن يَمْشِى فى ضَوء الشمس ؛ وليقــدّم تقْوى الله والأمانةَ فهما أفضــلُ ما يُقدّم ، وأجملُ ما يَعمَل به من تقدّم ؛ والنهضةَ فإنهــا هى التى تقُوم بها المصالح ، والتصدّىَ لمــا هو بصَــدَده فإن به يتمّ كلُّ عمــل صالح ؛ وليَحتفِظْ علىٰ الخزائن العالية ، وليكُنْ فيها كواحد من رُفْقته عملا بالعادة [فيها] ، وإلا فنحن نعلَم من كفايته [أنه] يكفيها ؛ ولْيثمِّر الجهات التى إليه مرجعُها ، والأموالَ التى يدُوم إليه من العين تطلُّعها ؛ وليستجلِبْ خواطرَ التُّجّار بإيصال حقُوقهم إليهم ، والقائمين فى خِدْمة

أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تُنعِم به صدقاتُنا الشريفةُ عليهم ؛ وليكُنْ إلىٰ ما تبرُز به مراسمنا الشريفة مُسَارِعا ، ولها فى كلِّ ما أشكَل عليه من الأمور مُراجِعا ؛ وبقيَّة هذا من كلِّ ما يَحتاجُ أن نُوصِيَه بتعلُّمه فقد عُلِم ممـا جرتْ به عادتُنا الشريفـةُ بأن نقولَهُ فى مثـله ، ولهـذا نختصِر فى الوصايَا التى تُشْرَح اكتفاءً بمـا آتاه الله بنا من فضله ؛ والله تعـالىٰ يأْخُذ به إلىٰ النَّجاح ، ويفتح له بنا أحسَن الافْتِتاح ؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمدُ لله الذى جعل خَواصَّ النِّعَم لِمُلْكنا الشريف لأجَلِّها ، ونفائِسَ الذخائِرِ من دولتنا القاهرة بمحَلِّها ، وأخايِرَ المَفاخِر مبسوطا فى أيَّامنا ظِلُّها .

نحمَـدُه بمحامِده التى لانَمَلُّهـا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً أشرَقَ مستَهَلُّها ، ونشهد أن محمدا عبـدُه ورسولُه الذى خُتِمت به أنبياؤُها ورُسُلُها ، وبعثه الله للأرحام يَبُلُّها ، وللأوليـاءِ يُجِلُّها ، وللأعداء يُذِلُّهـا ، ولسُيوف النصر من الغُمُود يَسُلُّها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ماشُدَّ علىٰ مطِيَّة رَحْلُها ، ووَلِىَ المراتِبَ أهلُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ خزائنَ مُلْكنا الشريف مستَوْدَعُ كلِّ ثَمِين ، ومَمالِكنا المعظَّمةَ لاتُغْلَق إلَّا بالثِّقة الأمين ؛ ومتاجِرَ خواصِّنا الشريفة لا يُثَمِّرُها إلا مَنْ رأيُه يعضِّد قَلَمه فى اليمين ، والمَتْجَر المحروس لا يقُوم بنَمـاءِ محصُوله إلا مَنْ له حَزْمٌ سـديدٌ وعَزْم متين ، ونَظَر الخواصِّ هو الذِّروة العالية فمرتَقِيها علىٰ كل ما يعترِضه مُعين .

ولمـا كان فلان هو المختارَ علىٰ يقين، والمخطوبَ لهذا المنْصِبِ ليزيده فى التحسين والتَّحصين، والذى إن نَظَر فى القليـل عادَ كثيرا بالأُلوف والمِئِين، فإنْ دبَّر تدبيرا حُفِظ وحُرِس وصِين، وضـبط فى حُسْن الاَعتماد بَلَغ إلىٰ الصِّـين، وإن توجَّه إلىٰ الثغر المحروس تفَجَّر له عن أمواله الجَمَّـه، وأخرجَ له من فاخر الحُلَل ما حَسَّن راقِمُه رَقْمَه، وصدَر عنه إلىٰ أبوابنا الشريفةِ بالتُّحَف المُثْمَنه، والحُمُول التى أوقَرتِ السُّفُن فى النِّيل، والإبلَ فى السبيل، فأزال الغُمَّـه، وأنارَ الأمورَ المُدْلَهِمَّه، ونشرَ ما طواه لدَيْنا فشكَرْنا له ما تقدّم به ممـا أتَمَّه.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ... ... فلْيُباشِرْ هذا المنصبَ الكريمَ بتدبيرٍ يُصْلِح الفاسد، ويُنَفِّق الكاسد، ويَكْبِت الحاسِد، ويُكَثِّر الأموال، ويُسْعِد الأحوال، ويُثَمِّـر الذَّخائر، ويَسُرّ السَّرائر، ويُوَفِّر حاصِـلَ الجواهر، ويُكَثِّر التُّحَف من كل صِنْف فاخر، ويُوفِى المهمَّاتِ الشريفةَ حقَّها فى الأوّل والآخر، ويَنْشُر التشاريفَ كالأزَاهِر. ولْيخْتَرِ الأُمناءَ الثِّقات، ولْيُحَرِّر كلٌّ منهـم المِيقَات، ولْيَبِـعْ لخـاصِّنا الشريفِ ويَشْتَرِ بالأرْباح فى سائر الأوْقات، ولْيتلَقَّ تجارَ الكارمِ الواردين من عَدَن، بآستجلاب الخواطر وبَسْـطِ المِنَن، ونَشْرِ المَعْـدَلةِ عليهم ليَجِدُوا من اليُمْن ما لم يَجِـدُوه فى اليَمَن، وكذٰلك تجَار الجهةِ الغربيَّة الواردين إلىٰ الثغر المحروس من أصناف المســلمين والفَرَنْج: فلْيُحْسِنْ لهم الوِفَاده، ولْيُعامِلْهم بالمعـدلة المستفَاده، فإنَّ مكاسبَ الثغر منهـم ومنَ الله الحُسْنىٰ وزِياده. والوصايا كثيرةٌ وهو غَنِيٌّ عن الإعادَه، و[ملاكها] تقوىٰ الله فلْيَقْتفِ رَشَـادَه، وليُصْلِـح مآبَه ومَعـادَه، ولا يتدَنَّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جَمْرة وَقَّادَهْ، والله تعالىٰ يحرُس إرفاقَه وإرفادَه، بمنِّه وكرمه! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثـانيـــــة
(نظر الجَيْش)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائفِ الديار المصرية أنّ موضُوعَها التحدّثُ فى الإقطاعات بمِصْرَ والشام، والكتابةُ بالكَشْف عنها، ومشاوَرةُ السلطان عليها، وأخْذُ خطِّه . وقد تقــدّم ذكْرُ ألقابه فى جملة الألقاب فى الكلام علىٰ مقدّمات الوِلايات من هذا الفصل، وتقدّم ذكْرُ مايُكتَب فى طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمــدُ لله الذى عَدَقَ[1] بالأَكْفاء مصالحَ الجُنود ، وصرَّف أقلامَهم فيما تُقْطِعه من الجُود، وٱجتَبىٰ لمراتِب السيادة من تحْمَدُه الأقلامُ فى العطايا البيضِ والسّـيوفُ فى الخُطوب السُّود .

نحمــدُه وهو المحْمود، ونشكُره شكرا مُشْرِقَ الميَـامن والسُّعود، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَذْبَةَ الوُرُود ، يجِـدُ المخلِصُ بركتَها يومَ العَرْض ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُود﴾ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أضحَتْ به جيوشُ الإســلام منشُورةَ الألْوية والبُنُود ، منصورةَ السَّرايا فى التَّهـائِم والنُّجود، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أورَقَ عُود، وأُوِلج نَهارُ السيوف فى لَيْل الغُمُود، وسلّم تسليما .

وبعــد ، فإنَّ أجلَّ رُتَب هذه الدولة الشريفة مُرْتقىً ، وأجملَها منْتَقىً ، وأكرَمَها هادِيًا حَلَّى بعِقْد السِّـيادة مَفْرِقا، رتبةٌ حكَّمنـا مرتقِيَها فى أرزاق الجُيوش الذين هم حُماةُ الدين وأنصارُه ، ولهم رَواحُ الظَّفَر وٱبتِكارُه، ولهـذا لايَحْظىٰ بتسنُّمها إلا من عَلَا مِقْدارا ، وشكرت الدولةُ الشريفــةُ له آثارًا ، وجبَّتْ عليــه السعادةُ أثوابَها ،

(١) (عدق) جمع .

وأوكفَتْ عليــه سَحابهَا، وأنزلتْــه ساحاتِها ورِحابهَا؛ وغدَتْ لأحاديثِ عَلْيائه تَرْوى، وحمدِه الميسورِ والمنْشورِ والمَطْوِى .

ولمـا كان فلان هو الذى نَمَتْ مآثِرُه، وكَرُمت مفاخِرُه، وآستوتْ على العَلْيـاء مَظاهِرُه؛ وشكِر آستبصارُه وحياطتُه، وكَمُل سلوكُه منهَجَ الفَخَار وجادَته؛ وأحْصىٰ الجُنود عدَدا، وإن كاثَرُوا النجُومَ مدَدا؛ وأحَاط بالأرض المُقْطَعه، فلم تكنْ نواحِيها عنه ممتَنِعه؛ ولم يُغادِرْ منها شيئا إلا أحصاه، وآتَّبع سببَ مَرَاضينا حتّى بلَغ أقصاه؛ فالعلم يُثْنِى عليــه والعَلَم، والحربُ والسِّلْم يشكرانِه لمناسـبة نظرِه القرطاسَ والقلَم ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نرقّيــه هَضْبةً سامِيَــةَ العُلىٰ، فاخرةَ الحِلىٰ؛ ومنبَعَ أرزاق أئمة الفضل وأبطالِهـا، ورتبةً شهِد منالُهـا بعدَمِ مِثالهـا .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هـذه الوظيفةَ المبـاركه، ولْيحُلَّ ذَرَاها الأسْمىٰ، وليجمل آطّلاعَه علىٰ الجيوش المنصورة حتّى لا يُغادِرَ منها آسما؛ لتغدُوَ مصالحُها وَرِيقةَ الغِراس باسِقه، وعقُودُها نفيسةَ الفرائد متناسِقَه؛ وليُجْرِ نظرَه المبارك فيما صَرَّفناه فيــه، آخذًا بيُمْن السَّداد من فعله وحُسْنِ التنفيذ مِنْ فيه؛ مُلْزِما مَنْ تحت نظَره بإتقان ماهمْ بصدَده من العُروض والأمثله، حتّى تغدُوَ لديه ممثَّــله؛ مُحرِّرا للإقطاعات وعِلْمِ خَفَاياها فيما نَهَبُــه ونُقْطعه، ونصله ونَقْطَعُه؛ والمقايَضاتِ وإن آختلفت، والإفراجات وإن آكتنفَتْ، والمَغَلّات الآتية والأُخْرىٰ التى سلَفَتْ؛ وما يخصُّ المتّصل، من فعل المنفصِل؛ والمتحصل والعِبْره، والخاص والعُدّة لذوى الإمره؛ ومنها مصرىّ لاغِنَى عن تحريرِه، وشامىّ يفْتقِر إلى الإتقان فى قليــله وكثيرِه؛ ولينظُرْ فيمن له جامكيّةٌ أو إقطاع مُجْزَل، وكلاهما فى دولتنا سِمَـاك : هذا رامحٌ وهذا أعْزَل .

هذه وصايا جَمَّه ، وأنت غنيٌّ عن أن يستقصِىَ القلمُ ذكرَها أو يُتِمَّه ؛ والله تعالىٰ يجمِّل به رُتبَه ، ويبلِّغه أرَبَه ، ويرفَع عليه لواءَ المجد وعَذَبه ؛ بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمـدُ لله الذى أعزَّ الجيوشَ المنصوره ، وجَزَّ أعناقَ العدَا بالسُّيوف المشْهُوره ، وهَزَّ ألويةَ التأييدِ المنشُوره ، وجعل الجَحافِل مُشْرِفةً وأجنحتَها خافقةً وساقتَها مُحدِقةً وقلوبَها مسْروره .

نحمده بمَحَامده المذكوره ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مأثُوره ، موصولةً غيرَ مهْجُوره ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أبطل من الشيطانِ غُرُورَه ، وصان للإسلام حَوْزتَه وثُغُوره ، وسنَّ لأمّته الاستخارةَ والمَشُوره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تورت من الليل دَيجُوره ، وكَثَّرتْ لقائلها أُجُورَه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أحوال جُيوشنا يتعيَّن حُسْنُ النظر فى أمْرها ، والقيامُ بموادّ نَصْرها ، وإسعافُها بناظر يحرِّر جهات أرزاقِها ، ويضبِطُها مخافةَ افتراقِها ، ويأمُر بنَظْم جرائد أسمائهم واتفاقِها ؛ ويُتقِن الحِلىٰ ، ويبيِّن يومَ العَرْض محلَّه فى ارتقاء العُلىٰ ؛ ويصُون المحاسَباتِ لكل منفَصِل ومتَّصِل من الحُلَل ، ويُسْرِع فى الدخول والخُروج مايَصل به لكلٍّ حقُّه عند استحقاقِ الأجَل .

ولما كان فلان هو الممْدُوحَ بألسِنة الأقلام ، والرئيسَ بينَ الأنام ، والمشكورَ بين أرباب السُّيوف وذَوِى الأقلام ، والمأمونَ فيما يُعْدَق به من مَهامّ ؛ والعزيزَ المثَال ،

والسائرَ بحَمْده الأمثال، والمنشورَ فضلُه فى كل منشُور، والظاهرَ أثَره تجريده(١) فى الديوان المعمور، والذى شكرْته المملكةُ الشريفة فهو من صُدُورها فى الصُّدُور .

فلذلك رسم ... ...(٢) فليباشِرْ نظرَ هذا المنْصب السعيدِ بأمانةٍ تحفَظُ أرزاقَ العساكِر، وتجلُو الظَّلامَ العاكِر، ولْيُحرّر جرائدَ التجريد، وليصُنِ العُدَّةَ الكاملةَ من التَّبْديد، ولتكن أوراقُ البياكِر نُصْبَ عينيه حتّى إذا طُلِبت منه أحضَرها محرَّره، وإذا وقع فيهم حركة كانت أقلامُه غير مقصِّره؛ وليرغَّب فى آقتناء الثناء حتّى يُصْبح عنده منه جملةٌ من الألُوف، وليكن للأمانةِ والنُّصْحِ نِعم الألُوف؛ وليتّقِ الله معَ أصحاب السُّيوف، وليستجْلِب خواطِرَ أرباب الصُّفوف، وليجعلْ له بِراً فى كل أرض يطوف؛ وتقوى الله فهى السبيلُ المعروف، فلينْعَمْ بجنّتها الدانيةِ القُطوف، وليلْبَسْ بُرْدَتَها الضافيةَ السُّجوف، والله تعالىٰ يُنجّيه من المَخُوف، بمَنّه وكرمه! .



وهذه وصية ناظر جيش أوردها فى "التعريف" قال :

وليأخُذْ أمرَ هذا الديوان بكُلّيته، ويستحضِرْ كلَّ مسمًّى فيه إذا دُعِى باسمه وقُوبِل عليه بحِلْيته؛ وليَقُمْ [فيه] قياما بغَيْرِه لم يُرَضْ، وليُقدِّم من يجب تقديمهُ فى العَرَض؛ ولْيقف علىٰ معالم هذه المُباشره، وجرائد جُنودِنا وما تضحى له من الأعلام ناشِرَه؛ وليقتصِدْ فى كل مُحاسَبه، ويحرّرْها علىٰ ما يجب أو ما قارَبَه وناسَبه، وليستصحّ أمرَ كلِّ ميت تأتِى إليه من ديوان المَواريث الحَشْرِيَّةِ ورقَةُ وفاته، أو يخبره به مقدَّمه أو نقيبُه إذا مات معه فى البِيكار عند مُوافاته؛ وليحرّر ما تضمنَتْه الكشُوف،

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ .

ويحقّق ما يقابل به من إخراج كلّ حال علىٰ ما هو معروف، حتى إذا سُئِل عن أمر كان عنه لم يَخْف ، وإذا كَشَف علىٰ كَشْف أظهر ما هو عليه ولا يُنكَر هذا لأهل الكَشْف؛ وليحترزْ فى أمر كل مَرْبَعه، وما فيها من الجهات المُقْطَعه؛ وكلّ منشور يُكتب، ومثالٍ عليه جميعُ الأمر يترتَّب؛ وما يَثْبُت عنده ويتزل فى تعليقه، ويُرجَع فيه إلىٰ تحقيقِـه ؛ وليعلم أنَّ وراءَه من ديوان الآستيفاء من يُساوِقه فى تحـرير كل إقطاع ، وفى كل زيادة وأقطاع ، وفى كل ما يُنْسَب إليـه وإن كان إنمـا فعله بأمرنا المُطاع ؛ فليتبصَّرْ بمن وَراءَه ، وليتوقَّ آختلاق كلِّ مبطل وآفتراءَه؛ وليتحقَّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقته والمُوكَّل به النظر ، والمحقَّق به جمـلةُ جندنا المنصـور من البَدْو والحضَر . وإليه مَدارج الأمراء فيما تَنْزِل ، وأمرُ كلِّ جندىٍّ له ممَّن فارق أو نُزِّل ؛ وكذلك مُساوَقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور أو على السِّـياقه ، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطَّليعة أو فى السَّاقه . وطوائف العَرَب والتُّركُمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدِمةٌ أو يلزمهم رَوك بلاد، أوغير ذلك مما لا يفوت إحصاؤُه القلم، وأقْصاه أو أدْناه تحتَ كل لواءٍ يُنْشَر أو عَلَم؛ فلا يزال لهـذا كله مستحضِرا، وعلىٰ خاطره مُحْضَرا ؛ لتكون لَفَتات نظرنا إليه دُونَ رُفْقته فى السؤال راجعه ، وحافظتُه الحاضرةُ غنيةً عن التّذْكار والمُراجَعَه .

الوظيفـــة الثـالثة

(نظرُ الدواوين المعبَّرُ عنهـا بنظر الدَّوْلة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضوعَها التحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيـه الوزيرُ، وأن كلَّ ما كَتَب فيه الوزيرُ « يُكْشَف » مثلا ، كَتَب فيـه « يُكْشَف عمّـا رُسم به » ونحو ذلك . وتقـدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام

علىٰ مقدّمات الولايات من هـذا الفصل ، وتقدّم ذكرُ ما يُكتب فى طُرّة توقيعـه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين، كُتِب به لتاج الدِّين بنِ سعيد الدولة، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصّ من أخلَص فى الطاعة من آلائنـا بحُسْن النظر ، وأجْنىٰ من غَرَس فى قَلْبه أصلَ الإيمـان من عَوَارف أيّامنا الزاهرةِ يانِـعَ الثّمَر ، ورفَع مَنِ آستضاءَ فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من حُجُول الرُّتَب إلىٰ مَكان الغُرَر ، وأظهر لَوَامِعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ مَنْ أضاء له الرُّشْدُ فرآه بعين البَصيرة قبْل البَصَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتنىٰ وأنفَـعُ ما يُدَّخر ، وأفضَـلُ ما نجتْ به الفِرقة الموحِّدة وهلكَتْ به الفِرق الأُخَر ، ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشَر ، وأرْأفُ البَدْو والحَضَر ، والمبعوثُ إلىٰ الأُمم كافّةً لمـا قضاه الله تعالىٰ من سعادةِ من آمَنَ وشَقاوةِ مَنْ كفَر ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المَيَامين الغُرَر ، صلاةً دائمـةَ الوِرْد والصَّدَر ، باقيةَ العيْن والأثَر ، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أَوْلىٰ من خصّه بِرُّنا بالنظر الحسَن ، وشَمِله كرَمُنا من الرُّتَب بما يُهْجَر فى بلوغ مثله الوَسَن ، وآشتمَل عليه معروفُنا بمـا يجعل يَراعَه فى مصالح الدولة القاهرة جميلَ العبارة حسَنَ اللَّسَن ، مَنْ سَمَتْ به نفْسُه إلىٰ سعادة الآخرة فأتتْه سعادةُ الدنيا تابعـه ، وسلَك فى مَراضى الدولة القـاهرةِ طريقَ الإخلاص فغـدَتْ لكلِّ خيرٍ حاويةً ولكُلِّ يُمْن جامعَه ؛ مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قَدَر ، ومعرفةٍ مالَحَظتِ المَصالحَ بأقْربِ نَظَر ، إلا نَمَّت الأموالَ وبدَرَتِ البِـدَر ، وخِبرةٍ ما آعتُـبِرت فيهـا محاسنُ سَـيرتِه فى كل ما يباشرُه إلا صَغَّر خُبرُها الخـبَرْ ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل

ما يليه أحسنَ المَسالك، وعِفَّةٍ رفَعتْه من الرتب الديوانيَّة إلىٰ مَفَارِقِها ولا رُتْبَةَ للتَّاج إلا ذٰلِك .

ولـمَّـا كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضـلَ الجَنىٰ، وفاز من عوارفِها العميمةِ بجميل المُخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدَوات نفســه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهمـا أنفَسُ ما يُدَّخر للرُّتَب الجليلة وأنفَسُ ما يُقْتنىٰ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقِه المناصبَ بمـا ٱقتَضىٰ إحسانُ الدولة القاهـرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنىٰ .

فلذٰلك رُسم أن يفوّض إليــه نظرُ الدواوين المعمُورة : فليُباشرْ ذٰلك محلِّيًا هـذه الرتبــةَ بعقُود تصَرُّفه الجميل ، ومجلِّيًا فى هذه الحَلْبة بسبق معرفتِه الذى لا يَحتاجُ إلىٰ دليل؛ ومبيِّنا من نتائج قلَمِه ما يُبَرْهِن علىٰ أنه موضِعُ الاختيار، ومن كوامِن ٱطِّلاعه ما لا يَحتـاجُ إلىٰ بُرهانٍ إلا إذا ٱحتاجَ إليــه النَّهار؛ فلا يزَالُ فرعُ يَراعِه فى روضِ المصالح مُثمِرا ، وليلُ نِقْسِه فى ليل الأعمـال مُقْمِرا؛ وحُسن نظَره إلىٰ ماقرُب ونأىٰ من المصالح مُحْـدِقا، ولسانُ قلمه لـما دَقَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لـما يسـتقرّ فى الدواوين المعمُورةِ مُثْبِتا ، ووَسْم تحريره لـما يُجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرِّ أخلافِ الأعمالِ ،بحُسْن الاطِّلاع محتَلِبا،ولوجُوه الأموال،بإنفاق التوجه إلىٰ تثمــيرها إن أقبلت مجتَلِيا وإن أعرضَتْ مختَلِبـا ؛ فإنَّ الأمور معادنُ يستَثيرُها التصرّفُ الجميــل ، ومنابتُ يُنَمِّيها النظر الجلِىّ والإتقانُ الجليــل ؛ ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعـالىٰ فليجعَلْها إمامَه ، وليتخيَّلْها فى كلِّ حالٍ أمَامه ؛ والله تعالىٰ يوفِّقــه بمنه وكرمه ! .

قلت : ورُبَّـا أضيف إلىٰ نظر الدواوين المعمُورةِ نظرُ الصُّحبة الشريفة الآ تى ذكْرُها، وكُتِب بهما جميعا لشخص واحد .

وهـذه نسخة توقيع بهما جميعًا[١]، كُتِب بها لتاج الدِّين بن سـعيد الدولةِ علىٰ أثَر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :

الحمدُ لله الذى خصَّ مَنْ أخلص فى الطاعة من آلائنا بحُسْن النظَر، وأجنىٰ من غَرَس فى قلبه أصلَ الإيمانِ من عَوارف أيَّامنا الزاهرة يانِـعَ الثمر، ورفَع من آستضاء فى دولتنـا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من خُمُول الرُّتب إلىٰ مكان الغُرَر، وأظهر لوامِعَ السعادة من نِعَمنا علىٰ من أضاء له الرَّشَد فرآه بعين البصيرة قبْل البَصر .

نحمَدُه علىٰ إحسانِه الذى غَمَر، وآمتِنانه الذى بَهَر، وفضلِه الذى عَمَّ كلَّ من ظَهَر له الهُدىٰ فلم يُعارِض الحقَّ إذا ظهَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتَنىٰ وأنفَـع ما يُدَّخر، وأوضَحُ ما نجَتْ به الفِرقةُ الموحِّدة وهَلَكت به الفِرقُ الأُخَر؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشر، وأرأفُ البَدْو والحضَرْ، والمبعوثُ إلىٰ الأمم كافَّة لـما قضاه الله من سَعادةِ من آمنَ وشَقاوةِ من كفر؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الميامينِ الغُرَر، صلاةً دائمةَ الوِرْد والصدَر، باقيةَ العينْ والأثَر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن، وشمله كَرَمُنا من الرُّتَب بمـا يُهْجَر فى بلوغ مثـلِه الوَسَن، وآشتمل عليــه معرُوفُنا بمـا يجعل يَراعه فى مَصَـالِح الدولةِ القاهرةِ جميـلَ العبارة حَسَن اللَّسَن؛ مَن سَمَتْ به نفُسـه إلىٰ سعادة الآخرة فأتَتْه [سعادة] الدنيا تابِعه، وسلك فى مَراضِى الدولة القاهرةِ طريقَ الإخلاص فغدَتْ لكل خيرٍ حاويةً ولكل يُمْن جامعَه؛ مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قدَر، ومعرفةٍ مالَحَظتِ المصالح بأقرَبِ نظرٍ إلا نَمَّت الأموالَ وبَدَرتِ البِدَر، وخِبْرةٍ ما آعتُبِرت فيها

(١) هى عين سابقتها خلا أن فيها ضم الصحبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسنُ سَيْرته فى مباشرةٍ إلا صَغَّر خُبْرُها الخبرَ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل ما يليه أحسنَ المَسالك، وعفَّةٍ رفَعتْه من الرتب الديوانية إلىٰ غُرَرها ولا رُتْبَةَ للتَّاج إلا ذٰلك .

ولمـا كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولة القـاهرة بالطاعة أفضَـلَ الجَنَىٰ، وفازَ من عَوارِفها العميمة بجميل الخالَصة مازادَ علىٰ المُنَىٰ، وٱنتَمَىٰ من أدوات نفســه إلىٰ كمالِ المعرفةِ والعِفَّة وهمـا أنْفَرُ ما يُدّخَر للرتب الجليلةِ وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وغُنِى من أسباب ٱستحقاقِه المنـاصبَ والرتبَ بمـا ٱقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعْتَنَىٰ ـ فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوِّض إليـه نظر الدواوين المعمورة ونَظَر الصُّحبة الشريفة .

فليباشِرْ ذٰلك محلِّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل، ومجلِّيًا فى هـذه الحَلْبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاج إلىٰ دَليل، ومبيِّنًا من نتائج قلمه مايُبرهِن علىٰ أنه موضِعُ الاَخْتيار، ومن كَوامِن ٱطِّلاعه ما لايحتاج إلىٰ بُرْهان إلا إذا ٱحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يراعه فى روض المصالح مُثْمِرا، وليلُ نِقْسه فى ليل الأعمال مُقْمِرا، وحُسنُ نظَره إلىٰ ماقَرُب ونأَىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قَلَمه لمـا دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا، ورسمُ خطِّه لمـا يستقِرُّ فى الدواوين المعمورة مُثْبِتـا ، ووَسْم تحريره لمـا يجتنىٰ من غُروس المَصالح مُنْبِتا ؛ ولدَرّ أخلافِ الأعمـال، بحُسْن الاَطِّلاع محتَلبا؛ ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجُّه إلىٰ ثميرها إن أقبلتْ مجْتليًا وإن أعرضَتْ مُخْتلبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يَسْتَثِيرُها التصرفُ الجميـل، ومنابِتُ يُنَمِّيها النظرُ الجـلِىّ والإتقانُ الجليـل؛ ومِلاكُ كلِّ أمرٍ تقوَى الله تعـالىٰ فلْيجعَلْها إمامَـه ، ويتخيَّلْها فى كل وقتٍ أمَامه؛ والله تعالىٰ يوفِّقه بمنِّه وكرمه! . والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الرابعـــــــة

(نظر الصُّحبة)[1]

[وهــذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِب به للشريف شهــاب الدين ناظر الصُّحْبة ، من إنشاء الشهاب محمودٍ الحَلَبىّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل الشرَفَ حيثُ حلَّ ركابُنا مُصاحِبا ، وأطلَع للفضل فى أُفُق خدْمتِنا مِن أولياء دولتِنا شِهاباً ثاقبا ، وعَدَق النظرَ فى صُحْبتنا بمَنْ لم يزَلْ لمصالحنا ملاحِظًا ولأوامِرِنا مُراقِبا ، وفوّضَ أمورَ مباشرةِ حالِ من آجتهد أو قَصَّر فى خدمتنا إلىٰ مَنْ لم يزَلْ بنفسه فى واجبِ الطاعةِ مُنافسا وعلىٰ فرضِ المُوالاةِ مُحاسِبا .

نحمَــدُه حمدَ مَنْ أجملَ فى أوليائنــا نَظَرا ، وخَصَّ بالنظر فى صُحْبتنا من آختُبِرتْ خدمتُــه فتساوَتْ فى الطاعة والمناصحةِ سَفَرا وحضَرا ، وآعتَمد فى ملاحظة مباشِرِى مايمرّ عليه من ممالِكه علىٰ مَنْ لا يُهْمِل له حقًّا ولا يُحْدِث له ضَرَرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لاتزال جيوشُنا لإعلاء مَنَارِها مُجهَّزه ، وسَرَايانَا إلىٰ مَقاتِل جاحِدِيها البارِزةِ مبَرَّزه ، ووُعودُ النصرِ علىٰ مَنْ أَلحَدَ فيها لنــا معَجَّلةً وعلىٰ أيدينا منَجَّزه ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنهضَنا الله من جهاد أعداءِ دينه بمــا فَرَض ، وأيقظَنا لرفع أقدارِ أهل بيتِه فلم يُقَصِّر بأحد منهم فى أيَّامنا أملٌ ولا بَعُد عليه غَرَض ، وخَصَّنا منهم بمن تمَسَّك بجوهره الأعْلىٰ فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سـقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل مايتحدّث ويشاركه فى الكتابة فى كل مايكتب فيــه ويوقع فى كل مايكتب فيه الوزير تبعا له » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرّض من هذا الأدنىٰ إلىٰ عَرَض ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن (يكادُ يُمْسكُه عِرْفانَ راحته)، وإلّا المؤْثِرُ طاعةَ الله و رسولِه وأُولِى الأمر علىٰ رَاحته ؛ صلاةً دائمـةَ الاتّصال، آمنـةً شمسُ خُلودها من الغُروب والزّوال ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من آختَرْنَاه لصُحْبتنا الشريفةِ علىٰ عِلْم، وأعدَدْناه لمهمَّاتنا الكريمةِ لمــا فيه من تسَرُّع إدراك وتثبُّتٍ فى حُكْم ؛ وبسَطْنا له فيما عدَقْناه به من ذٰلك لساناً ويَدا، وحفِظْنابه الأحوالَ من [وصول] مسترِقِ السَّمْع إليها ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَــدًا﴾ وآدَّخرْنا أقلامَه لمصالح كلِّ إقليم يمرّ ركابُنا الشريفُ عليه، وفوّضـنا مناقشةَ مباشِريه علىٰ ما أهملُوه من حقوق الله تعــالىٰ وحقُوق الرَّعايا إليــه ؛ وأقمناه لتصفُّح ذٰلك بنفْسه، وتلمُّح زيادةِ كلِّ يومٍ علىٰ أمْسه ؛ وآنتزاع الحقِّ ممن مدّ يَدَه إلىٰ ظُلْم بكفِّ كفِّه عنه ورفْع يَده، وآرتجاع الواجبِ ممَّن أقدم عليه بالباطل فى يومِه وآطِّرح المؤاخذةَ به فى غَده ؛ وغيرِ ذٰلك مما أحصاه الله ونَسُوه، وآعتمدُوا فيه علىٰ المصلحة فآجتنَوْا ثمرةَ ماغرَسُوه ــ مَنْ كان له فى المناصحــة قَدمُ صدقٍ عنــد ربِّه، وفى خدمــة الدولةِ القاهرةِ قدَمُ هجْـرة تقتضِى مَزيدَ قُرْبه ؛ فكان أبدا بمرأًى من عنايتنا ومَسْمَع، ومن إحساننا بالمكانِ الذى ليس لأحدٍ من الأكفاءِ فى بلوغ غايتِه أملٌ ولا مَطْمَع ، وتفرّد بآجتماع الدِّين والمنْصِب والأصالةِ والعِـلْم والكرم وهــذه خِلَال الشرف أجمَع .

ولمّــا كان فلان هو الذى آجْتنىٰ من إحسانِ الدولةِ القاهرة بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفازَ من عوارفِها العميمة بجميل المخالَصةِ مازاد علىٰ المُنَىٰ ؛ وآنتمىٰ من أدَوات نفسه ونسَبِه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهمــا أنفَسُ ما يُدَّخر للرُّتب الجليلة وأنفَسُ

ما يُقتنىٰ ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقه المناصبَ والرتب بما ٱقتضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعْتَنىٰ . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه نظر الدواوين[1] المعمورة .

فليباشر ذٰلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل ، ومجلّيًا فى هذه الحلبة بسَبْق معرفتــه التى لاتحتاجُ إلىٰ دليــل ، ومبيِّنا من نتائِج قلمه مايُبَرْهِن علىٰ أنه موضعُ الاختيار ، ومن كوامِن ٱطّلاعه مالا يحتاج إلىٰ برهان إلا إذا ٱحتاجَ إليــه النَّهار ؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثْمِرا ، وليــل نِقْسِه فى ليل الأعمــال مُقْمِرا ؛ وحُسنُ نظره إلىٰ ما قَرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا ، ولسانُ قلَمه لمــا دَقَّ وجلّ من أمور الأقاليم محقِّقا ؛ ورسمُ خطّه لمــا يســتقرّ فى الدواوين المعمورة مثْبِتا ، ووسم تحريرِه لمــا يجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا ؛ ولدَرّ أخلاف الأعمال بحُسن الآطلاع محتلِبا ، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلَتْ مجتلِيًا وإن أعرضَتْ مختَلِبا ؛ فإنَّ الأمور معادِنُ يَستثيرُها التصرُّفُ الجميــل ، ومنابِتُ يُنَمِّيها النظرُ الجلىّ والآتقانُ الجليل ؛ وملاكُ كل أمرٍ تقوى الله تعالىٰ فليجعلها إمامَه ، ويتخيَّلْها فى كل حال أمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدّده ويوفِّقه بمنِّه وكرمه ! ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وربّمــا أُضيف إلىٰ نظر الصُّحبة نظرُ الدواوين الشريفة ، وحينئذ فيَحتاج الكاتبُ أن يأتِى فى براعة الاستهلال بمــا يقتضِى الجمعَ بينهما ، ويوردَ من الوصايا ما يختَصُّ بكل منهما . والكاتبُ البليغ يتصرَّف فى ذٰلك علىٰ وَفْق ما يحدُث له من المعانى ويسنَحُ له من الألفاظ .

---

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجـــــة الثـانية

(من تواقيـع أرباب الوظائف الدِّيوانية بالحَضْرة بالديار المصرية ما يُكتَب في قطع الثلث بـ«ـالمجلس السامىّ» بالياء، مفتتَحا بـ«ـالحمدُ لله» إن قُصِد تعظيمُ المكتوب له علىٰ ما هو الأكثرُ، أو بـ«ـأما بعدَ حمد الله» جَرْيا على الأصل لما يُكتَب فى قطع الثلث، علىٰ ماتقف عليه فى النُّسَخ)

وتشتمل علىٰ وظائف :

الوظيفـــــة الاولىٰ

(كِتَابة الدَّسْت)

والمراد دَسْت السلطنة . وقد تقدّم الكلامُ عليها فى مقدّمة الكِتَاب فى الكلام علىٰ ديوان الإنشاء، وتقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضُوعَها أن يجلِس أصحابُها بدار العدل أيّامَ المواكب خَلْف كاتبِ السرّ، ويقرءُون القِصصَ على السلطان بعد قراءة كاتبِ السرّ، ويكتُبون عليها بما تقتضيه الحالُ، بعدَ إشارة السلطان بالكتابة؛ ثم يحمِلُ ما يكتُبون عليه من القِصَص إلىٰ كاتب السرّ فيُعيِّنُها . وأنّ هذه الوظيفة كانتْ من أجَلِّ الوظائف وأرفعها قَدْرا، منحصرةً فى عددٍ قليـل نحو الثلاثة فما حولَها؛ ثم وقع التساهُل فى أمرها، ودخَل فيها العددُ الكثير حتّى جاوز عدَدُهم العشرين، وبقيت الرياسةُ فيهم لعَدَد مخصوصٍ منهم، وقَنِع الباقون بالإسم . وقد تقدّم ذكر طرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّسْت، وهى :

الحمدُ لله الذى فَضَّل الكِرامَ الكاتبين، وأحيا بفضائل الآخرين الأوّلين الذاهبين، وأنزل فى القَصَص : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

نحمَـدُه وهو المحمودُ المُعِين ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ قومٍ مُخْلِصين؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله خاتَمُ النبيين، ورسولُ ربِّ العالمين، والشافعُ فى المُذْنِبين من المؤمنين، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدِّين، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ العدْل الشريفَ دارٌ جُدْرانُها الأمرُ المُطاع ، وأبوابُها الخيرُ الذى لا يُضَاع، وسَقْفُها الرحمةُ والاتِّضاع ،وصدْرُها الإحسانُ المديدُ الباع ، وصَحْنُها الأمنُ والسُّرور فلا يُخافُ أحدٌ فيه ولا يُرَاع ، وجلساؤُها الكاتبُون عارِضُو الرِّقاع ، هم مَعْدن الصَّداره ، ومَوْطِن الكِتَابة والكِنَاية والإشاره ، وأقلامُهم تأتى بحُسْن التشبيه والاستعاره ، وتُطرِّز حواشِىَ الرِّقاع بوَشْىٍ بادِى الإناره ، ما اختير أحدُهم للجلوس فى دَسْته إلا وقد أرضَىٰ مَنِ اختاره ، وتميّز بحُسن السَّمْت والوَفاء والوَقار والشَّاره .

ولما كان فلان هو الذى له فى السُّؤدَد أصلٌ عرِيق ، وفى الفضائل له قلَمٌ مُطِيق ، وفى البلاغة له لسانٌ منْطِيق ، وإذا دبَّج قرطاسَه فهو للروض شَقِيق ، ونباتُه الجوهرُ لا الآسُ والشَّقيق ، وأصبح للجُلوس فى الدَّسْت الشريف أهلًا على التحقيق .

فلذٰلك رُسم أن يستقر... ... ... فلْيحُلَّ هذا الدَّسْتَ الشريفَ مُبْهِجا ببَيانه ، مُثْلِجا للصُّدور بعِرْفانه ، متبلِّجا بنُور يدِه ولسانه ، قارئا من قِصَص الناس وظُلاماتهم فى إيوانِه كلَّ شىْءٍ فى أَوانَه ، لا يكتُمُ ظُلامةً مكتوبةً فى رُقْعه ، بل يُعرِّف مَلِكَه بها ويبلِّغُها سَمْعَه ، فإنه فى هذا المحلِّ أمينٌ والأمينُ محـلُّ النُّصح والخيرِ والرِّفْعه ، وإذا وقَّع فهو مأمُور ، فلْيأْتِ بمـا يُبْهِج الصُّدُور ، ويَشْفى غليلَ الشاكِى ، بلفظه الزاكِى ، والوصايا كثيرة لكن السليم لبعضها الحـاكى[(1)] ، وتقوىٰ الله فهى تاجُها المجوْهَر ،

(1) لعله لكن سنُلم ببعضها الحاكى ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدْرُها المنوَّر، وكوكَبُها الأزْهَر، والله تعالىٰ يمتّعه بالفضل الذى لا يُحَوّل ولا يتغيّر، بمنّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى أَفَاض على الأولياءِ من فضْله، وأهمىٰ عليهم من مَواهِبه ما يقْصُر عنــه الغَمامُ فى وَبْله وطَلِّه ؛ ومنَح دَسْتَ المُلْك الشريف من الألفاظ المَجِيده، والفضائل المُفِيده .

نحمَــده علىٰ نِعَمه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجملت ٱمتنانَهــا، وبزغَتْ مُزْهِرةً فقدّمَتْ من الدولة أعيانَهَا ؛ ونشكُره علىٰ عَوارِفه التى أُلقِى لأهل الثناءِ عنانُهــا، ورَحُب لذَوِى البيوت صدْرُها وفُضَّ عُنوانُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تشهَد القلوبُ إيمــانَها ويدّخِر القائلُ لها ليوم المَخَاف أمَانَهــا ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر الله به الشريعة المطهَّرة وأبانَها، وشرَّف [به] هذهالأُمَّةَ ورفع علىٰجميع الأمم شانَها، وبعثه رحمــةً إلىٰ كافَّة الخلق فأقام بمُعْجِزاته دليلَ الهــداية وبُرهانَها، وأطفأ بنُور إرشاده شرَرَ الضَّلالة ونيرانَها ؛ صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهــم إلا من نَزَّه نفْسَــه النفيسةَ وصانَها، وسلَكَ فى خِدْمته وصُحْبته الطريقــةَ المُثْلىٰ فأحسنَ إسرارَ أموره وإعلانَهَا، صلاةً دائمةً باقيةً تُجمِّل بالأجور ٱقترانَهَا ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ، فانه لمَّــا كانتْ وظيفةُ توقيــع الدَّسْت الشريف من أجلِّ الوظائف وأسْــناها، وأنفَسِها وأعْلاها، وأجملِها وأبْهاها ؛ القائمُ بهــا ســفيرُ الرعيَّة إلىٰ المَلِك

فى حاجتهم ، وترجمانٌ مُعْرِب عن شكايتهم ، وكاشفٌ أحسنُ ناشرٍ عن ظُلامتهم ؛ جالسٌ علىٰ بساط الأُنْس بقُرْب الحضره ، منفذٌ نَهْىَ مليكه وأمْرَه ، مبلِّغ ذا الحاجة من إنعامه جُودَه وبِرَّه — تعين أن ينْدَب رئيسٌ وآبْنُ رئيس ، وجوْهرُ بحرٍ نفيس ؛ ذو أصْل فى السُّؤدَد عريق ، ولسانٍ فى الفضائل طَليق ، وقَلَم حَلَّى الطُّروس بما يفُوق زَهَر الرياض وهو لها شَقيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضلُ على التحقيق ؛ وكان المقرُّ العالى الفلانىّ هو المشارَ إليه بهذه الأوْلويَّه ، والمرادَ من سطور هذه المحامد اللُّؤلُؤيَّة . فلذٰلك رُسِم بالأمر العالى أن يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة توقيع الدَّسْت الشريف عِوضًا عن فلان بحُكْم وَفَاته .

فلْيباشرْ ذٰلك مباشرةً تُشْكَر مدىٰ الزمان ، وتُحمَد فى كلِّ وقتٍ وأوَان ؛ ولْيدَبِّج المَهارِقَ بوَشْى يفُوق قلائدَ العِقْيان ، ولْيَمْلأْ بالأجُور لنا صُحُفا بما يوحيه عنا من خيراتٍ حِسان . ونحن فلا نُطيل له الوصَايَا ، ولا نُحلِّيه بها فهى له سَجَايا ؛ مع ما أدّبه به علْمُه الجَمّ ، وعمَلُه الذى ما آنصرف إلىٰ شىء إلا تمّ ؛ ويجمعُها تقوىٰ الله تعالىٰ وهى عَقْد ضميره ، ومِلاك أُموره ؛ ومابرح هو وبيتُه الكريم مصابيحَ أُفُقِها ومفاتيحَ مُغْلَقها ، ولهم جُدُد ملابِسها وللناس فواضلُ مُخْلَقها ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من إحسانه الجزيل ، ونِعَمه التى يرتَدى منها كلَّ رداءٍ جميل ، ويمتِّعه بإمارته التى ما شُكِر بها إلا قال أدبًا : حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ؛ والاعتمادُ فى مَسْعاه ، على الخط الكريم أعْلاه .

الوظيفة الثانية

(نظر الخزانة الكُبرىٰ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائف الديار المصرية أنَّ هذه الوظيفةَ كانتْ كبيرةَ الموضِع من حيثُ إنها مستودَع أموالِ المملكة ، إلىٰ أن حدثَتْ عليها خزانةُ

الخاصّ فٱنحطّت رتبَتُها حينئذ، وسمِّيت الخزانةُ الكُبرىٰ باسمٍ هو أعْلىٰ منهـا ، وأنه لم يبقَ فيها سوىٰ خِلَع تُخْلَع وتُصْرف أوّلًا فأوّلا . وقد تقدّم ما يكتب فى طُرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الخزانة :

الحمدُ لله الذى جعل الخَزائنَ لذَخائرنا كُهُوفا ، وملابِس إقبالِنا شُنوفا ، ومَواهِبَنَا تُجْزل عطـاءً ومعْرُوفا ، وإقبالَنـا علىٰ مُحسِن التدبير ومجمـل التأثير عَطُوفا ، وأيادِيَنا فى إسكان جَنَّتِها قُطُوفا .

نحمدُه حمدًا مألوفا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أوضحَتْ معرُوفا، ونشهد أنَّ سـيدنا محمدًا عبــدُه ورسوله الذى أزال مَخُوفا، وأقام الصــلاةَ والجهادَ صُفُوفا، وشهَر علىٰ الْعدا عنــد تأييدِ الْهُدَىٰ سُيُوفا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما سدَل الليلُ سُجُوفا، وسلَّم تسليما .

وبعــد، فإنَّ المُلْك الشريف له تُحَف مَصُونه، وذخائرُ مكْنونه، وأصنافٌ حِسانٌ فى خزائننا مخزُونَه ، وجواهِرُ عالية القِيمة ثمينــة [لا يقوم عليها إلا من] لا يَمُــدُّ عينَ عَفافه إلىٰ المــال وإن كثُرتْ آلافُه ، ووَلَجِ لُجَّــة هذه الذخائر ولم تَلِمَّ بالبَلَل أطرافُه ؛ وهو فلان : العريقُ فى ٱنتسابِه ، الوثيـقُ ٱنتمـاؤُه إلىٰ فضــل الله وجَنابِه ؛ النقِىّ ثوبُ عِرْضه، التّقِىّ بتمَسُّكه بسُنَّته وفَرْضــه، الوفِىّ نظره بغضِّــه، المستمسك بجميع الخـيْر دُون بعضِــه، من بيتِ السيادة ومَنْ هو من بَيتِ السِّيادة فالسُّؤدَد نجمُ سَمائِه وطَودُ أرضه . فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقرّ . ...

فلْيباشِر هــذه الوظيفة بعمَلٍ ونِيِّه ، متسلِّما ذخائرهذه الخزانة العليَّه ؛ وأمورَها وأحوالَهــا ، وتفصيلَها وإجمالَهــا ، وحُمولَها وأحمالَهــا ؛ وحُلَلَها المرقُومه، وذَخائرَها

المعْلومه، وجواهِرَها المنظومه ، وأكياسَها المختومه ، وصناديقَها المركومه ؛ ما عَنْ علمه فيها شىءٌ خاف ، وصونُه لها كاف ، وأمْرُ الله بينَ النُّون والكاف .

وليَعْلَمْ أن خزائنَنا تُصَبُّ فيها سحائبُ التُّحَف والأموال والأصناف ، من سائر الممالك والمُدُن والثُّغور والأطْراف ؛ ومنها يُخْرج بجهاز مواهبِنا وإنعامنا للأولياءِ الأشْراف ، وإنما هى لمصالحِ المسلمين فى الجَمْع والإئْتلاف ، وتقْوية أهلِ الطاعة علىٰ أهل الإخْتِلاف ، فليَضْبِطْ ما تُطلقُه وإن كانتِ الأقلامُ لا تستطيع ذٰلك لكَثْرة الإسْعاف ؛ ولْتكُنِ التشاريفُ المثمَنة الكامِله ، حاصلةً بمنَاطِقها المجوْهَرَة الهائله ، وطُرُزِها الطائلَهْ ، وتَعابِيها الفاضلَهْ ، حتّىٰ إذا أنعَمْنا منها علىٰ أحدٍ بشىءٍ يأْتِى بحُمُوله وقد حَمِد فاعلَه . والوَصايَا كثيرةٌ وتقْوى الله نِظام عِقْدها ، وغَمَام رِفْدها ، وزِمام مَجْدها ، وتَمامُ سَعْدها ؛ فلْيكُنْ متلفِّعًا ببُرْدِها ، متضوِّعا بنَدِّها ، وهو غنىٌّ عن الوصايا ومَدِّها ، والله تعالىٰ يؤيِّد حركاتِه فى قصْدها ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه وصية لناظر الخزانة ، أوردها فى "التعريف" :

وليَمْلأْ بنظَره صُدُور الخزائن ، وليجمَعْ فيها أشتاتَ المَحاسن ؛ وليُعِدَّ فيها كلَّ ما يُدَّخر للإنفاق ، ويحتَفِظْ به للإطْلاق ؛ ويحصِّلْ ما يُضاهِى البحرَ بالتفريع والتأْصيل ، والجُمَل والتَّفاصيل ؛ وما لا يُوزَن إلا بالقناطِير ، ولا يُحْصِى مَنَّه مَلْءُ الأساطير ؛ وما يُهيَّأُ من التشاريف الشريفة التى تُباهِى أشِعَّةَ الشُّموس بلَمْعها ، وتُحاسِن وشائعَ الروض بخِلَعها ؛ وما فيها من مَخلَّقات ألْوانٍ لا تُماثَل بتصوير ، ولا يظُنُّها الأولياءُ إلا الجنةَ ولِبَاسُهم فيها حَرِير ؛ وما تحتوِى عليه من عَتَّابِىٍّ وأطلس ، ومُشَرْبَش ومُقَنْدس ؛ وكلِّ طِراز مُذْهب وباهى ، وما هو من ذهَب أوْله يُضَاهِى ؛ وكُلِّ

ما يتشرّفُ به صاحبُ سيف وقلَم، ويُعطىٰ إنعاما أو عند أوّلِ ٱستِخدامٍ فى خِدَم؛ وماهو مع هذا من أنواع المستعْمَلات ، والنواقص والمُكَمَّلات؛ ومايُحمَل من دار الطِّراز ، ويحمد ممـا يأتِى من المُبتاع من بَزٍّ وبزاز؛ وما هو مُرْصَدٌ للخزانة العالية من الجِهات؛ التى يحمَلُ إليها متحصِّلها : لينفق فى أثمانِ المَبيعات، وما يُستعمل، وما يُعَلَّم منه بالطِّرْز ويُعْمَل، وبقية ما يُدَّخر فى حواصلها من مال بيت المـال الذى يُحمَـل؛ وذٰلك كلُّه فهو الناظرُ عليه، والمناظِرُ عنه ممـا خرج من عِنده ووصل إليه، والمحاجِجُ عنه بالمراسيم التى تُمْسَك للحِفْظ وتُنْزَل لديه؛ فلْيراعِ ذٰلك جميعَه حقَّ المراعاة، وليحرّرْ قدر ما يُنفَق من الأثمـان وقِيمةِ المَبيعات، وليحترِز فيما يُزَكِّى بعضُه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالمحمُول وما يُكتَب بها من الرَّجعَات؛ ولْيُعِر المعامَلين من نظره مالا يجِدُون معه سبِيلا، ولا يقدِرُون معه علىٰ أن يأخذُوا فوقَ قَدْر ٱستحقاقِهم كثيرا ولا قَليلا؛ وليُقدِّم تحصيلَ كل شيءٍ قبل الاحتياج إليه ويَدَعْه لوقته، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذى متىٰ تأخر أُخِّر لوقْته(؟)؛والأمانةَ الأمانَه ، والعَفافَ العفافَ فمـا كان منهما واحدٌ رداءَ ٱمرِئٍ إلّا زانَه ، ولولاهما لمـا قال له الملك إنَّك اليوْمَ لَدَيْنا مكين أمين وسَلَّم إليه الخِزَانَهْ .

الوظيفـــة الثـالثـــة

(نظر خزانةِ الخـاصّ)

وهى الخِزانة التى ٱستُحدِثَتْ فى الدولة النـاصرية «محمـد بن قلاوون» عنـد ٱستِحْداث وظيفةِ « نَظَر الخـاصّ » وقد ٱنتقَل ما كان يحمل إلى الخِزانة الكُبْرىٰ ويُصْرف منها إلىٰ هذه الخِزانة ، سوى الخِلَع ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ توقيع ناظر الخزانة الكُبْرىٰ .

وهـذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِب به للقاضى شرف الدين محمد ابن علاء الدين الجَوْجَرِىّ[(١)]، فى مستَهَلّ شهر رجب الفَرْد ، سنةَ تِسع وثلاثين وسَبْعمائة، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد بنظرنا الشريف شَرفَ مَنْ لَحَه من أوليائنا [و]لَحَظَه ، وأفاد المستأنَفَ من بِرِّنا مَنْ عَهِدْنا له الفِطرةَ السليمةَ وتيقَّناً منـه الفِكْرة واليَقَظَه . وأعاد للخَلَف الكريم ، من المشايخ ما كان للسَّلَف القديم الصالح من التقديم ، الذى شمِلهم بالتكريم ، وجعلَهم علىٰ خزائِن جُودِنا العميم : لأنهم العلمـاءُ الحفَظَه . وجاد بالطُّرَف من خاصِّ إنعامنا العامِّ لِمَنْ لقلمه عنـد الإدْناء من سَرير المُلْك إنجـازُ عِدَة ولِلسانه عند آرتقاء مِنبر النُّسْك إبرازُ عِظَه .

نحمَـدُه علىٰ أن أجزلَ لمن عَوّل علىٰ شامِل كَرَمنا جزاءَه وعِوضَه ، ونشكُره علىٰ أن تطوّل بنَوافِل نِعَمِنا لمن قام بعدَ أبيه بلوازم خدْمتِنا المفترَضَه، وعكف أعمالنا علىٰ بيتٍ مبارَكٍ مامنهم إلا من شُمِل من إحساننا بالمِنَح لمـا بذلَ لسلطاننا من النُّصح ومَحَضَه .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُودَع مَصُونُهـا فى الأرائك المتعَلِّية ويَقطَع يقينُها الشكوكَ المعترِضه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى عظُمتْ عطايا بَذْله ، فالبحار المرتَفعةُ عنها منخَفِضه ، وكرُمتْ سَجَايا فضله ، فليست بمنتقِلة وأُبْرِمت قضايا عدْله ، فليست بمنتَقِضه ، وعَمَّتْ البرايا يَدُه البيضاءُ التى هى بالأرزاقِ فى الآفاقِ مُنبسطةٌ وليسَتْ عن الإنفاق خشيةَ الإمْلاقِ منقبِضَه ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهـم إلا من أقرضَ الله قَرْضا حسناً فضَاعفَ له ما أقرضَه ، صلاةً تُدْنِى لقائلها فى الأُولىٰ من النِّعمة والأمانِ أملَه وتُؤْتِيه فى الأُخْرىٰ من الرحمة والرضوان غَرَضَه ، وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين و راء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢

وبعـد، فإن أولى مَنْ رُفع بإكرامنا إلى رُتْبة عَلائه، وآنتفع من مقامنا الشريف باختصاص خدْمته وإخلاص وَلَائه ــ مَنْ شفَع مزاياه بجَمْع أشتات العُلوم فى أبكاره وآنائه، وآستُودع ذَخائر مُلْكنا المصونة فكان حفيظًا عليما عند آقترابه منّا وإدنائه، وصَدَع القلوب بإبْداع وَعْظه وإبْدائه، وآتبعَ سبيلَ والده القويم، فى الشِّدّة فى الحق والتّصميم؛ وسلَك طريقَته التى هـداه الله إليها بتوفيقه فأدْرك غايتَه فى آبتـدائه، وقنـع بمـا آتاه الله تعالىٰ فآثرتْ مكارمُنا رِفعةَ محلِّه وتَوْسِعةَ حِبائِه؛ وبَرَع فى إتقانِ الفضائلِ التى آذنَتْ باصطفائِه وآجتبائه، ووَقَع عليه آختيارُنا الذى نستخير اللهَ تعالىٰ له فى إبْرام كلِّ أمرٍ وإمضائِه؛ وأجمعَ عليه رأيُنا الذى كم أصابَ الصوابَ فى تعيين العُلَمـاء الأنْجاب فنَصَّ عليه الآستحقاقُ بإيجابِ الترجيح وآقتِضائه .

وكان المجلس السامى الشَّرَفىّ هـو الذى قدّمْناه بعد أبيه لشهادة خَزائننا الشريفة فشاهَدْنا من حُسْن سَيْره ماأبْهَج، ونظَمْناه فى سِلك أولياء المُلْك فسَلك من الخَيْر أقومَ مَنْهَج، ثم أردْنا الآنَ أنَّ هلالَه يَنتقل إلىٰ رُتْبة الكمال لَمَّا تدرّبَ وتدَرّج؛ وأعَدْنا له تامَّ الإقبال حيثُ شَرفُ دولتِنا الأعلىٰ ــ زاد الله تعالىٰ تأييدَه ــ بذِكره لدَيْنا وبشُكْره عندنا يُلْهَج ــ فآقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أنَّ هـذا النظرَ الجميلَ عنه لا يُخْرَج، وهذا الوقْرَ الجليل لا يُعـدَل به عن فرعٍ مُنْجب لأصلٍ طيِّب أثْمَـرَ الوَلَاءَ والدُّعاءَ لأيّامنا الشريفة وأنْتَج .

فلذلك رُسم ... ... لا زالتِ الصدُور بصُدُور أحكامه تَثْلَج، والأمورُ بمُرور إنعامه تفْضُل علىٰ الحقِّ الأبْلَج ــ أن يستقرّ ... ... فليُنْطِقْ لسانَ كَلِمـه بالإخلاص فى حمـد الخاصّ والعامِّ من هـذا الإكرام الذى بمَطارِفه تَسَرْبل وبعَوارِفه تتَوّجْ، وليُطلِقْ سنانَ قلَمِه فى تبييض المَصاحف بذكر إنعام المَقام الذى هو كالبَحر ويُفْصِحْ

عن حمْده فهو بحمد الله لا يتلجْلَج ؛ وليُحقّق ببَيان حُكْمه ضبطَ الأصل والخَصْم والواصِلِ والحاصلِ والمُحْضَر والمُخْرَج ، ولْيُنفق فى أوليائنا من عَوَائد صِلاتِ نَعْمائنا التى تَقْبِضُها أيدى ملوك المَدائن ببَسْطٍ ومن بَعْضها صُدُور الخزائن تَحْرَج ؛ ولْيسْلُك سُنَن أبيه التى بها يستظْهِر ويفتخِر ويستدِلُّ ويحتجّ ، ويَستمْسِك بسببه الأقْوىٰ من الدِّيانة التى بابُها من النجاة فى الدارين غيرمُرْتَج ؛ ونترك له تفصيلَ الوصايا لأنه قرينٌ كفيلٍ مُلْكنا القوىّ الأمين ذِى الإرشاد والسَّداد فمع مرافقَتِه فى الإصدار والإيراد والتَّكرار والتَّعداد لم يَحتَجْ ، والله تعالىٰ يجعل الطُّروس بذِكْر تقديمه تحبَّر وتُدبَّج ، والدروس تنْشَر وعلومه تَعطَّر وتتأرَّج ؛ بمنِّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّمَ أنَّ موضُوعَها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه أستاد الدار ، وتقدّم الكلامُ علىٰ ما يُكتَب فى طرّة تقليدِ ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البيُوت والحاشيةِ :

الحمدُ لله الذى عَمَّر البيوتَ بنَوَاله ، وكَثَّر فيها أصنافَ النِّعم بإفْضاله ، وجعلَ فيها الخَيرَ يتضاعفُ مع كلِّ يوم بتَجدُّدِه ومع كلِّ شهرٍ بإقْباله .

نحمَده علىٰ مَديد ظِلاله ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ صادق فى مَقَاله ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولهُ الذى رَحِم الله العالَمِين بإرْساله ، وسقىٰ الجيْشَ من كَفِّه بنَبْع زُلاله ، وأَوَىٰ إلىٰ المدينة دار هِجرتِه وٱنتقالِه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الناصِرين لهذا الدين فى كل حاله ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ طِراز المُلْك الشريف البيوتُ الكريمة : فمنها يتفجَّر يَنْبُوع الرِّزق الجارى ، ومنها يُضِيء سَقْط الزَّنْد الوارى ؛ ومنها تُبْسَط الخِوَانات ، وتُمَدّ الأسْمِطة فى المهِمَّات ؛ ومنها يقومُ للسعد نُصْبات(١) وأىّ نُصْبات ، ومنها تُقَسَّم ألوانُ الطيِّبات علىٰ مُقْتَرح الشهوات ؛ وعمادُ أمْرِها علىٰ ناظر يقُوم بتأصيلها وتفْريعها ، وتجنيسها وتنويعها ؛ وتكثير حاصلها ، وآستِدْعاءِ واصلها ؛ وجَمْع كلِّ مافيه مَرْغُوب ، وآدِّخار كلِّ ماهو محبُوب ؛ وتأليف القلوبِ علىٰ شكره وجُلُّ مافيها عملُ القُلُوب .

ولـمَّا كان فلان هو الرشيدَ فى فِعله ، المأمونَ فى فضْله ؛ الأمينَ فى عَقْده وحَلِّه ، المسدَّدَ فى الحال كلِّه ، المُعطِىَ المباشرةِ حقَّها علىٰ ما ينبغى فى الشهر من مستَهَلِّه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقر ... ... فليباشر هذه الوظيفةَ الكريمةَ مستجْلِبا المَنافع ، مشنِّفا بحُسْن سِيرتِه المسامِع ، طالعًا من العَفَاف فى أبهىٰ المَطَالِع ؛ مستَدْعيًا ما جرتِ العادةُ بآستِدعائه(٢) من أصناف المَتْجَر السعيد من أصنافٍ متعدِّده ، وأنواعٍ منَضَّده . وليُزِحْ أعْذَار المصالح السعيدةِ من كلِّ صِنْف علىٰ حِدَه ، وليستجْلِبْ خواطر المُعامَلين بوفائهم وإنجازهم كلَّ عِدَه ؛ والرواتِبَ اليوميَّةَ ليَصْرِفْها لمستحقِّها ، والبُيوتات فليسدّ خَلَلَها حتَّى لا يظهر نقصٌ فيها ، ومرتَّبات الآدُر(٣) الشريفة فلتكُنْ نُصْبَ عينيه علىٰ مايُرضيها ؛ وما آخترْناه لهذه الوظيفة إلا أنَّه أنسَبُ من يليها ، والوصايا كثيرةٌ وتقوىٰ الله فلتكُنْ أطيبَ ثمراتٍ يجتَنيها ، وأحسَنَ مِنْحاتٍ يجتَليها ، وأزينَ زينةٍ يَحْتليها ، وهو غنىٌّ عما تُشافِهُه [به] الأقلام مِنْ فِيها ، والله تعالىٰ يَصُون هِمَمَه ويُعْليها ؛ بمنِّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ .   (٣) جمع دار على القلب .

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر البيوت :

الحمـدُ لله الذى جدَّد لأَوْليائنا مَلابِسَ السُّعود، وشَـيَّد لهم مَبانِىَ العِزِّ وضاعَفَ لِقَدْرهم التَرَقِّىَ والصُّعُود، ووالَىٰ إلىٰ أوليائِهم(١) سَحائبَ الفضل المستهِلَّةَ بالكَرَم والجُود.

نحمده علىٰ نِعَمِه الضافية البُرُود، ومِنَنه الصافيةِ الوُرُود؛ ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُرْغِمُ بهـا أنفَ الجَحُود ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسوله صاحبُ الحوضِ المَوْرُود واللِّواء المعقُود ؛ صـلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين جادَ كلٌّ منهم بمـالِه ونَفْسه فى رضـاه والجُودُ بالنَّفيسَيْنِ أقصىٰ غايَةِ الجودُ ؛ صلاةً دائمةَ الإقامة فى التهائم والنُّجود، مستمرَّةَ الإدامةِ ماتعاقب السَّحابُ روْضًا بجَود ؛ وسلَّم تسليما كثيرا

وبعـدُ، فإن أوْلىٰ من غدَتِ البيوتُ آهلةً بوُفُود نَظَره، عامرةً بسَـداده وجميل فِكْره، مشيَّدةً بمـا يُبْديه من أوْضاح التقرير وغُرَره ــ مَن سَمَـا همَّةً وحَسُن سَمْتا ، وسلكَ فى الأمانة طريقًا لا عِوَج فيها ولا أَمْتَا ؛ وحَلَّ فى الرُّتَب فخَلَّاها، وتنَقَّل فيها فمـا قالتْ له إيهٍ إلا وقال الذى فارَقَها آهًا ؛ وكان فلان هو الذى ٱستحَقَّ بكفايَته حُسنَ التنقُّل، وٱستوجبَ الصِّلَةَ والعائدَ لمـا فيه من جميل التأَتِّى والتوصُّل ــ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نَنْقُله إلىٰ رُتَب السعاده ، وأن نخُصَّه كلَّ حِينٍ من نِعَمِنا بالحُسنىٰ وزيادَه . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرّ ...

فليَضْبِط أُصُولَها وفُروعَها، ومُفْرَدَها ومجموعَها، وليُؤْنِس بحياطة ٱجتهاده رُبُوعَها؛ وليَكْفُلْها بأمانةٍ تضُمُّ أطرافَها، ونزاهةٍ تُحَلِّى أعطافَها، وكتابةٍ تحصُر جليلَها ودقيقَها ،

(١) لعل الصواب ووالى إليهم سحائب . تأمل .

ونَبَاهةٍ تُوفِّى شُروطَها وحُقوقَها ؛ وليحَرِّرْ واردَها ومصْروفَها ، ليغْدُوَ مشكورَ الهِمَم موصُوفَها ؛ وليلاحِظْ جرائدَ حسابها ، ويحفَظْ من الزيغ قلَمَ كُتّابها ؛ حتّى يَنْمِىَ تصرُّفه فيها علىٰ الأوائل ، ويُشْكرَ تعرُّفه وتعطُّفه علىٰ كل عامِلٍ ومُعامل ، واللّه تعالىٰ يبلّغه من الخير ما هو آمِل ، بمنّه وكرمه ، إن شاء اللّه تعالىٰ .

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السِّلاح)

وقد تقدّم أنّ موضوعَها التحدُّث فيما يستعمَل ويُبْتاع من أنواع السِّلاح الذى يحمل للزَّرَدْخاناه السُّلطانية . وقد جَرتِ العادة أن يحمَل ما يتحصَّل من ذٰلك فى كل سنةٍ إلىٰ الزَّرَدْخاناه مرّةً واحدة . وقد تقدّم ما يُكتب فى طرة توقيع ناظِرِها .

وهـذه نسخةُ توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المَوْلى « شمسِ الدين بن القَيْسَرانِىّ » كُتب به «لفخر الدين» أخى جمالِ الدين ناظر الخاصّ ، وهى :

أما بعدَ حمد اللّه تعالىٰ الذى ضاعفَ فخرَ المناصب ، بمتولّيها ، ورَفَع قدرَ المراتب ، بمن يُكبِّرها بقدْره العلى ويُعْليها ، وأمدّ المَقانبَ(١) ، بنظر ذى المَنَاقب الذى يُزَيِّن بموهَف حَزْمه أسلِحتَهم ويُحلِّيها ، ويمْضِى بماضى عَزْمه كلّ فِرِنْدٍ فريدٍ ليُسَعِّرَ نارَصَليله بنظره السعيد ويجَلّيها ؛ جاعلِ أيّامنا الشريفةِ تُقدّم لخدَمها كلَّ سَرِىّ تسرى به هِمَمُه إلىٰ العلياء ، وتَنتخبُ لحُسن نظرها من يعلُو بكَرَم الذاتِ وجَمال الإخاء ، وتُولّى من الأولياء من يُعِدّ للأعداء خزائنَ سلاحٍ تُبِيدهم بها جيوشُنا المؤيَّدةُ فى فَيافِى البَيْداء ، إذا دارَتْ رحىٰ الحرب الزَّبُونِ وثارتْ وَغىٰ الغارة الشَّعْواء . والشهادةِ له بالوحْدانيّة

---

(١) جمع مقنب "كمنبر" وهم جماعة الخيل والفرسان .

التى اتّسق بدْرُها ، فى سماء الإخلاص ، وأشرق فَجْرُها ، بضياء القُرْب والاختصاص ، وسَما فخرُها ، بجلال الجَمال فأصبح بحمد الله آخذًا فى المَزيد آمنًا من الانتقاص ، وعلا ذكْرُها ، بما دَرَّعَنا به من دُروع التوحيد وأسبَغَ علينا منْه كلَّ سابغةٍ دِلَاص . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى خصّه الله بالتكريم والتعظيم ، وختم به الرسُل الكِرام بما منَحه من الاصطفاء والتقديم ، وأوحىٰ إليه فى الكتاب الحكيم : ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ . وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أشدّاءُ علىٰ الكُفَّار رُحَماءُ بينهم ، وقرّب قُرْبهم لدَيْه صلى الله عليه وأذهَبَ بيْنَهم — فإنَّ من شِيَم أيّامنا الشريفة أن تُبلِّغ أولياءَهَا مَراما ، وترعىٰ لأصفيائها ذِماما ، وتصطفِيَ لولاية الرُّتَب من أضحىٰ ثَغْرُ وَلائه بَسّاما ، وتُجرِّدَ لحسن النظَر من يُجرِّد بهِمَمه حُساما حَسّاما ؛ لا سيَّما من اقتفىٰ سَنَن أخيه — أجلَّه الله — فيما يأتِى ويذَر ، واهتدىٰ بهَدْيه فى كلِّ وِرْد وصَدَر ، وحذا حَذْوه السديدَ الأثَر ، السعيدَ النظر ، واتّبع رُشْدَه الساطعَ البَلَج اللامعَ الغُرَر ، وسار سيْرَه الذى تتأرَّجُ به أرجاءُ الممالك فحيثُ سارَ سَرّ ؛ إذ هو جمالُ الجُود ، جَلال الوجُود ، مُقيل عِثَار الملهُوف والمجهُود ، موئِلُ التَّهائم والنُّجُود ، مستجْلِب الدعاء لنا من الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود ؛ ذُو المآثر التى ذكْرُها أعطَرُ من الروض المَجُود المَوْجُود ، والمناقِب التى يُساوى فيها الكواكبَ ويسامِتُها فى السُّعود والصُّعُود .

ولما كان المجلسُ العالى الفَخْرِىّ قد أصبح فَخْرُه بأُخُوّته نامِيًا ، وقدْرُه بأُبُوّته سامِيًا ، وأصبحتْ مَفاخِرُه به خالِدَه ، وجمع مَزَايَا وسَجَايَا جَمعتْ له طارفَ السَّعد وتالِدَه — اقتضىٰ رأينا الشريف أن نُشدِّدَ[1] له بأخيه أزْرا ، ونُجدِّدَ له فى إصلاح السلاح نَظَرا ؛ ليكون لأخيه — أعزه الله تعالىٰ — النظرُ علىٰ الخاصِّ والعام ، وبيدِه مقاليدُ خِزانتِنا التى يشْمَل منها البرايا بصُنوف الإنعام ؛ وتدبيرُ خواصِّنا الشريفة وجُيوشنا

(١) لعله «أن نشدّد به لأخيه» .

المؤيَّده، وله النظرُ علىٰ اعمال لَبُوس، تقى من الجيوش البُوس : البَيْض [ذَات] القَوَانِس ، واليَلَب المُدار والسُّمْرِ المَدَاعِس، والبِيض المُهَنَّده .

فلذٰلك رُسِم ... ... لا زال يجمع لأوليائه علىٰ آلائه شَمْلا، ويرفع أقدارَ أهلِ الكَرَم باستقرار النِّعم إذْ كانُوا لها أهْلا وبها أَوْلىٰ ـ أن يستقرَّ فلان فى نظر خزائن السِّلاح المنصورةِ علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدته، و بمعلومِه الشاهدِ به الدِّيوانُ المعمورُ لهذه المآثر التى بثَّها القَلَم، والمَفاخر التى آشتهرت كالنار على العَلَم؛ فلْيَكْشِفْ مابهذه الخزائن من عُدّة الحرب ، والآلات المُعَدّة فى الهيجاء للطَّعْن والضَّرْب؛ ويشمِّرْ فى تكثيرها عن ساعد آجتهادِه ، ويعزِّزْ موادَّ الإمداد بها بِحُسن نظره ويُمْن آعتمادِه ؛ ويستعْمِلْ برَسْم جهاد الأعداء كلَّ نصلٍ صقيل، وصَمْصامٍ له فى الهامِ صَليل؛ وصفيحةٍ بيضاءَ تبيَضُّ بها بين أيدينا الصَّحيفه، ولبوسٍ تُرهِبُ عدوّ الله وتُضاعف تخويفَه؛ وزاعِبِيّ يُرْعِب، وسَمْهَرِىّ يُزهِق بلسان سِنانِه النُّفوسَ ويُذْهِب؛ وخِرْصانٍ تُكلِّم الأبطالَ بأَسَل ألسِنَتِها فى الحروب ، وقَواصِلَ لها فى سماء العَجاج شُروق وفى تَحَلِّئِ[1] الكفّار غروب؛ وبَدَنٍ يقُدّ الأبدان، ولأمةٍ لم تُبارَ فى تحصينِها وتخييرها ولم تُدان؛ وفَضْفاضةٍ علىٰ جُنود الإسلام تُفَاض، وسابغةٍ تُسْبَغ علىٰ كل راجلٍ من أهل الإيمان ليَقْضِىَ من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفَظْ ما يُنْفَق علىٰ هذا العَدَد من الضِّياع ، ويأتِ بما تأتى به الضِّياع علىٰ أحسن الوجُوه وأجمل الأوضاع؛ وليَضْبِطْ ما يُصرفُ عليها من الأموال، ويعتمِدْ فى نظرها ما تُحمَد عاقبةُ أمره فى سائر الأحْوال؛ ويتيمَّنْ فى سائر أفعاله بَميامِن كماله ، ويسترشِدْ بَمراشِده فى أموره باليُمْن والرشْد من خِلال جَمَاله ؛ ويسْلُك بحُسْن نظره لهذه الخزائن ما يُنتظَر به أن يفُوقَ أنظار الأنظار ويرتَقَبْ ، ويعلَمْ أنَّ هذا أوّلُ

(١) التحلىٰ الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأوّلُ الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسكب) ؛ والله تعالىٰ يجعل خزائنَ الإسلام بجمال نظره آهِلَه ، ويُورِدُهـا مواردَ العزِّ الدائم ويُصَـفِّى من أكدار الأقذار لها مَناهلَه ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الوظيفـــة السـادسة

(آستيفاء الصُّحْبة)

وصاحبها يَتحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه ناظرُ الصُّحْبة المقدّم ذكرُه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك ، من إنشاء القاضى «ناصرِ الدِّين بن النَّشائى» وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ فخارَ أوْليائنا رِفعةَ المِقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خيرَ كافٍ آستوجب منّا بجميل خِدْمتِه جزيلَ الإيثار ، وجاد بالجُود وآبتدأ السعود لمن حسُن فيه الآختِيار وحُمِد الآختبار ، وآرتاد للمناصِب العليَّة كلَّ "مستوفٍ" للمحاسن له حقُوقُ وفاءٍ لا تُضاع وقدَمُ ولاء أجملَ فيه الإيرادَ والإصْدار .

نحمده علىٰ نِعمٍ أجزلتِ الآثار ، ونشكُره علىٰ مِنَن أجملت المَسَارّ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص يترشَّف ساحُ ثوابِها الدارَ فى تلكَ الدار ؛ ونشهد أنَّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أيَّد الله به المؤمنين وأخمدَ نارَ الكُفَّار ، وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناءَ الإسلام بعدَ ما كاد يَنْهار ، وأسرىٰ به إلىٰ السَّبْع الطِّبـاق فطبَّق نبأُ معجزاتِه الأرضَ وملأَ الأقطار ، صـلاةً باقيةً لا تزال أغصـانُ أُجُورها دانيةَ القُطوف زاكيةَ الثِّمـار ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنَّ أجلَّ النِّعم ما علَتْ ملابِسُها ، وأجملَ المِنَن ما غلَتْ نفائسُها ، وأكمَلَ المِنَح ما زكَتْ فى رياض الإقبال غرائِسُها ، وأجزلَ العطايا ما جُلِّيتْ فى حُلَل الفَخَار

عرائسُها ؛ وأولى الأولياءِ بتحويل ذلك لديْه ، وتخويلِ هـذه المواهب إليـه ، وإسباغِ أثواب الامتنانِ عليه، واجتبائِه لرُتَب علتْ محَلّاً ، واختياره لمنْصِب يُصْبِح به جيدُه من عقُود العناية مُحَلًّى ـ من شُكِرت أوصافُه ، واشتهر عَفَافُه ، وحَسُن منّا إسعادُه وإسعافُه ؛ وحُمِدت خلالُه ومآثِرُه ، وحاز فخـرَ نَعْته وفخْرَ ذاتِه فلا غَرْوَ أن تعدّدت مفاخرُه ؛ وأسلَفنا من خِدْمتـه ما استوجَبَ أن يَجْنِيَ به ثِمـارَ الإحسان ، وقدّم بيْن أيدينَا الشريفةِ من يُمْن تصرُّفه ما أنْتج له مضاعفةَ الآلاءِ الحِسان .

ولـمّا كان فلان هو الذى تحلّىٰ من هـذه الأوصاف بعُقُودها ، وتجلّىٰ فى مَطارِف بُرُودِها ؛ وأثنَتْ علىٰ خِصاله ألسِـنةُ الأقلام ، وأثبتَتْ جميـلَ خِلاله فى صُحُف أوراقها وصحائِف الأيّام ؛ وحازَ من الأمانة والنّزاهـة كلَّ ما يُشْكَر به على الدّوام ، وامتاز بحُسْن الكتابة التى تُقِرّ النواظر وتَسُرّ الخواطر وتُزْرِى بالروض البسّام . ما باشرَ رُتْبـة إلا وَفَى بها ، وحفظ أموالَهـا وغلالَها وضَـبط أمورها وكَفَى بهـا ـ اقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نَنْقُـله إلىٰ درجات السـعاده ، ونمنَحَه من إقبالنا الشريف زيادةَ الحُسـنىٰ وحُسْن الزّياده ، ونخُصّـه بوظيفةٍ تُدْنيه منّا قُرْبا لنكون قد أجمَلْنا له الابتداءَ والإعادَهْ .

ولذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَ فخرُ أوليـائِه بمَزِيد آلائه ساميا، وقـدْرُ أصفيائه بمديد عطائِه ناميًا ـ أن يستقرّ فى كذا .

فلْيتلَقّ هذا الإحسانَ، بيدِ الاستحقاق، وليتقلّدْ عقُودَ الامتنان، الذى طالَمـا قلّد جُودُهُ الأعناق؛ ولْيباشرْ ذلك مباشَرةً يَسُرُّ خُبْرُها ، ويسير خَبَرُها، ويشَنّف الأسماعَ تأثيرُها وأثَرُها ؛ وليَسلُكْ فيها من السّداد، مايؤكّد حمْدَه، ومن حُسن الاعتماد، مايؤيّد سَعْدَه ؛ وليعتَمِدْ فيها من الأمانة ما هو المشهورُ من اعتمادِه ، ومن العَفاف ماصَحّ عنه نقلُ إسناده ؛ وليدَبّج المراسيمَ الشريفةَ بقلَمه السعيد، وليوشّها بكتابتِه التى بها الحسن

مبدئ ومُعيد، ولْيضبِطْ جميعَ أموال الديوان المعمُور وغِلالِه، وسائرَ أموره وأحواله، ولْيستَوْفِ بقَلَمه علىٰ مُباشِريه وعُمَّاله، ولْيُحِطْ عِلْما بخَراج بِلاده وأعماله، ولْيستَرفع الحساب شامًا ومصرا، وليتصَفَّح الرِّقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليَحْوِىَ بجميعِها خُبْرا، وليتعَيَّنْ جُمَلها وتَفْصيلَها ليكون بمُخْرَجها أدرَبَ وبمَرْدُودها أدْرىٰ، ولْيَحْضُرْ متحصِّلَها ومصْرُوفَها، ومعَجَّلَها وموقُوفَها، حتَّى لا يخْرُجَ شيءٌ عن علمه، ولتكُنْ جُملةُ هـذا الأمر محرّرة فى ذهْنـه ليجيب عنها عنـد السؤال بتحقُّق فهمه، والوصايا كثيرة وهو بها خبِـير عليم، حائزٌ منها أوفىٰ وأوفر تقسيم، وملاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ فليجعلْها عُمدتَه، وليتَّخِذْها فى كل الأمور ذَخيرتَه، والله تعالىٰ يُضاعف له من لَدُنَّا إحسانا، ويرفَع له قدرًا وشانا، والاعتمادُ على الخطِّ أعلاه .



وهذه وصية لمستوفِى الصحبة أورَدَها فى "التعريف" وهى :

فهو المُهَيْمن على الأقلام، والمؤَمَّن علىٰ مصرَ والشام، والمؤمَّل لما يَكْتُب بخَطِّه من كل ترتيبٍ وإنعام، والملازِمُ لصُحْبة سلطانه فى كل سفَر ومُقَام، وهو مستوفى الصُّحْبه، والمستَوْلِى بالهِمَم علىٰ كل رُتْبه، والمعوَّلُ علىٰ تحريره، والمعمُولُ بتقريره، والمرجوعُ فى كل الأمور إلىٰ تقْـديره، به يتحرَّر كلُّ كشف، ويُكَفُّ كلُّ كَفّ، وبتنزيله وإلَّا ما يكْمُل آستخدامٌ ولا صَرْف، وهو المتصفِّح عنَّا لكلِّ حساب، والمتطَلِّع لكلِّ ما حضَر وغاب، والمناقِشُ لأقـلام الكُتَّاب، والمحقِّق الذى إذا قال قال الَّذِى عِنْـدَهُ عِلْمٌ من الْكِتاب، والمُظْهِر للخبَايَا، والمُطْلِـع للخَفَايا، والمتَّفَق علىٰ صِحَّـة ماعنده إذا حصـل الخلاف، ووصـل الأمرُ فيه إلى التَّلاف، ولْيُلْزِم الكُتَّاب بما يَلزَمُهم من الأعمال، ويحررها بمسـتقرّ إطلاقه وضرائب رءُوس

المـال ؛ وعَمَلِ المكلفات وأن يكلّفُوا عَمَلَها ، وتقديرِ المِسـاحات وليتَتَبّع خَلَلَها ؛ وليُلْزِمهمْ بتمييز قِيَمِها بعض عن بعض، وتَفاوتِ ما بين [تسجيل][1] الفُدُن فى كل بلد بحَسَب ما تصلُح له زراعةُ كلِّ أرض ؛ و بمستَجِدّ الجرائد وما يقابل عليـه ديوانُ الإقطاع والأحباس، وغير ذلك ممـا لا يحصل فيه آلتباس .

ومثلُك لا يُزَوَّد بالتعليم، ولا يُنازَع فكلُّ شيء يؤخَذُ منه بالتسليم؛ وما ثَمَّ مايُوصىٰ به رَبُّ وظيفةٍ إلا وعنـده يتَّزَّل علمُه ، وفيـه يتَزَّه فهمُه؛ وملاك الكل تقوى الله والأمانة فهما الجُنّتان الواقيتان ، والجَنّتان الباقِيَتان ؛ وقد عُرِف منهما بمـا يُفاض منه عليه أسبَغُ جِلْباب، وأسبَلُ سِتْرٍ يُصان به هو ومن يتخِذُهم من مُعِينين ونُوّاب؛ والله تعالىٰ يبلّغـه من الرتَب أقصاها ، ويُجرِى قلمَـه الذى لا يَدَع فى مال ممـالِكِنا الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثـالثـــــة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية
ما يُكْتَب فى قطع العادة : إما فى المنصورىّ ، مفتَتَحا بـ«أما بعد حمد الله»
أو علىٰ قَدْر المكتوب له فى القطع الصغير، مفتَتَحا بـ «رسم بالأمر الشريف »
إن آنحط قَـدْره عن ذلك)

وفيهـا وظائف :

منها ــ كتابةُ الدَّرْج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهـذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّرْج الشريف ، كُتِب به للقـاضى تاج الدين ، عبد الرحيم بن الصاحبِ فخر الدين بن أبى شاكر، وهى :

---

(١) الزيادة من التعريف ص ١١٥ .

رُسِم ... ... ــ لا زالت صدقاتُه الشريفةُ تشْمَل نُجَباءَ الأبنا، ومبرّاتُه الجسيمةُ تُجْزِل للولَد البارّ حُسْن الزيادة وزيادَةَ الحُسنىٰ، وهباتُه الكريمةُ تُقْبل بوجْه الإحسان علىٰ فَرْع الأصل الأسْمىٰ وتُرصِّع تاجَه بجوهر نحْره الأسْنىٰ، وسِماتُه الوسيمةُ، تجمّل شَدَّ أزر الوزارة الفخيمةِ، بأكْفَإِ نجل تَنىٰ الزمانُ عنانَ الرياسة إليه وعليه أثْنىٰ ــ أن يستقر فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبِّى فى حَجْرِ الرياسه، واَجتنىٰ من الروض المجدَ الذى أعلىٰ السعدُ غِراسَه ؛ ونَشأ من محلّ السُّؤْدَد والفَخار، وبزَغ من بيتٍ حقَّت له رفعةُ الأقدار ؛ وبَسَق غُصنُ فرعه من أصلٍ ثابت، وسَمَا بدَوْح عِزٍّ فى مواطن المَعالى نابتْ، وهمىٰ نَدىٰ قلمه بانتسابه إلىٰ سَرَاة الكُتَّاب فناهيك من كاتبٍ لأبى الخَلَل كابتْ ؛ تعترفُ الدولةُ لسَلَفه بسالف العُهُود، وتغْترف من مَنْهَل تدبيرهم المَوْرُود ؛ وتتحلّىٰ من تاجهم بأسْنىٰ العقُود، وتسمُو من نحر وزارتِهم ووزارةِ نحرهم بما يملأ الوُجُود بالجُود؛ وتختال من تصريفِ أقلامهم وأقلامِ تصريفهم فى روض التنفيذ المجُود فإنْ ذُكِرت مآثِرُ جَدِّه قصَّرتْ عن إدراكها الجُدُود، وإن شُكِرت مناقبُ والده ــ أجله الله ــ ففَخْرها الباذخُ مشْهُود؛ وهو بلسان العامّ والخاصّ مَمْدُوح محمُود، وإلىٰ معَانى خطِّه تنتهى درجاتُ الصُّعود والسُّعود؛ فلا غَرْوَ لهذا الفَرْع الناجبِ أن يتّبع أصْلَه، وأن يَسْلُك فضائلَه وفَضْلَه ؛ وأن يقْفُوَ مَنْهَجَه، ويحْذُوَ فى الكتابة طريقتَه المُبْهِجه ؛ ويأتِىَ من البَراعة بسَنَنِها القَويم، ويُبْرِز من اليراعة وَشْىَ خَطِّه الرقيم ؛ وأن يُحَلِّيَ أجيادَ المَهارق بجوهر تاجِه النَّضيد النَّظيم، وأن تحلُوَ ألفاظُه فى الإنشاء حينَ تمُرّ علىٰ الأسماع مُرورَ النسيم ؛ [لا] سيَّما وقد ظهَرتْ عليه من مَخايل الرآسة دَلائِل، وشُرِعتْ له مناهلُ الأدَب والفضائل ؛ وحازَ من حُسْن النشأة ما سار بُشْكره المَثَل، وحصَل من الاشتغال علىٰ كَنْز المعرفة واَشتَمل ؛ وغدا جديرًا بكلِ مرتبةٍ سنِيَّه، وكل رِفْعة هى بأعدائها مبنيه .

فليباشِرْ ذٰلك مباشرةً يجعلُها لباب المعالى مفتتَحا، وللزيادة من كلِّ خير سببًا كلَّما أبْدىٰ الدهرُ مَساءً وضُحىٰ؛ ولينقُلْ فى ٱتباع مَهْيَع المجد عن والده وجدِّه أبقاهما الله تعـالىٰ، وليدأَبْ للتحلِّى بأخلاقهما الحسَنة أقوالًا وأفعالا؛ وليُبْهِج الطُّروسَ بوَشْيِ قلمه، ولينمِّق المكاتباتِ ببلَاغة كَلِمـه؛ وليتخذ الصَّوْنَ شِـعارَه، والعَفافَ دِثارَه؛ والأمانةَ معتمَدَه، والنزاهـةَ مستَنَده؛ وضَبْطَ القولِ مادّتَه، وحفظَ اليـد واللسانِ جادّتَه؛ والوصايا كثيرة وملاكها التقوىٰ وهى حِلْيتُه الحقيقيّـه، وعقيـدتُه العقْليَّة والمَنْطقيَّه؛ فليَجْعلْها دأْبَه، وليُرْضِ فى إعلانه لها رَبَّه؛ والله تعالىٰ يُعْلِى قدْرَه وجَدّه، ويحفظُه وأباه وجَدّه.

⁂

وهذه نسخةُ توقيع شريف بكتَابة دَرْج تجديدًا، وهى :

رُسِم ... ... – لا زال يمنَحُ الأولياءَ، بتجديد النِّعم إحسانًا، ويُولِى البُلَغاء، فضْلًا يُعْلى لهم رُتْبةً وشَانا، ويبْـدى لهم فى ديوان إنشائه الشريف فضائلَ جَمَّةً وبيانًا – أن يجدِّد هـذا التوقيعُ الشريفُ باسم فلان تجـديدًا لِأنوارِ الإحسانِ إليه، وتأكيدًا لمزَايا الامتِنان لدَيْه، وتسديدًا لمستَنَده الذى ألقاه وجْهُ الإقبال إليه؛ لمـا حازَه من فضـيلةٍ تامَّة، وبلاغةٍ ملأتْ ببديع المَعانِى ومَعانِى البـديع ألفاظَه وكلامَه، وكتَابةٍ أجْرتْ فى حواشِى الطروس بمحقّق التوقيعـاتِ أقلامَه، وأمانةٍ بَنَتْ علىٰ الصِّـدق والعفَاف أقسامَه؛ ورياسةٍ تأثّل مجدُها، فبلغ مَرامَه، وٱتَّصـل سعدُها، فلا يَخْشىٰ ٱنفصامَه، وبَعُد شأوُها فهى السامِيةُ إلىٰ رفع المنازل منغيرِ سَآمه. قد ٱتَّصف من البَراعة بجميل الأوْصاف، وظهر ٱستحقاقُه فهو بادٍ غيرُ خاف؛ وتَرَوّىٰ من بحرِ البلاغة

حيثُ ورَد منْهلَهــا الصَّاف، وسلَك طُرُقَ الخيرفتضاعفَ له الإسْعاد والإسْعاف، وآمتازَ بمزايَا التجمُّل فى أموره والعَفَاف؛ وآستحقَّ بذٰلك أن نُجَدّد له فضلَ الأُلفه، ونُؤَكّد له بكرمنا نَيْلا آعتادَه وعَرَفه .

فليستَمِرّ فى ذٰلك آستمراراً به أسبابُ الخير مؤتَلِفه، ووجُوه الفضائل عن صُنُوف الكتابة غيرُ منصرفه؛ وليُبدِ من البَــلاغة بيانَها البديع، ويُجَمِّل منْزِل العليــاء الرفيع؛ ويَسْلُكْ مَسْلَكه فى الأمانه، ويتّقِ الله تعالىٰ بملازمة المُراقبــة والدِّيانه؛ والله تعالىٰ يُعلِي مكانَه، ويزيدُ فى آقتناء الفضائل إمكانَه؛ والأعتمادُ على العلامة الشريفة أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت ورُبَّمــا كُتِب التوقيع لكاتب الدَّرْج بزيادةِ معلوم، فيَحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أن يأتىَ بعبارةٍ تجمع إلىٰ ما تقــدّم من براعة الأستهلال ما يَليها من موجب الأستحقاق، وسببِ الزيادة وترادُفِ الإحسان .



وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة، كُتِب به لابن عُبادة، وهى :

أما بعدَ حمدِالله الذى أفاضَ على الأولياء من خزائن فَضْلِه، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبٍ من إحسانه المشكورِ فيه عَدْلُ قَسْمِه وقَسْم عَدْلِه، وأهمىٰ عليهــم من سُحُب مواهِبِه ما يَقْصُر عنه الغَمام فى وَبْلِه وطَلِّه، وأسبغَ عليهم من جُودِه العميم ما يضْفُو لديهم المَرَحُ فى وارِفِ ظلِّه؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نبيه ورسولِه أشرفِ رُسْلِه، وخاتمِ مَنْ جاء من الأنبياء منْ قبْــله، والهــادِى ببِعثتِه الشريفةِ إلىٰ طُرُق الحق وسُــبْلِه؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تابعُوه فى قوله وفعْله، وبايَعُوه على المظاهرة فى نُصرة الدين

الحنيف وأهْله ، وجمعُوا هِمَمَهم على ٱلْتِئام كلمة الإيمـان وجمْع شمْله ، وأرهف كلٌّ منهم فى نَصْره ماضِىَ عزْمه ونَصْله ـ فإنّ أَوْلىٰ من رُعِيت له حقوقُ ذِمَامه ، ومُنِح أجزلَ العطاء الذى تَقْضى الأقدارُ بدَوامه ، ولُوحظ بعين الإقبال ما أسْلفه من حُسْن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه ـ مَنْ جَدّ فى الخدمة فأضحىٰ الجَدّ له خادما ، وداوَمَ علىٰ المناصحة فغَدَا سعدُه دائمـا ؛ وأخذَ من كلِّ فضلٍ بزِمامه ، ومَتَّ بمـا لَهُ علىٰ الدولة الشريفة من حُرْمته وذِمَامه ؛ وسلك فى أداء الأمانة السَّنَنَ القويم ، وجُعِل علىٰ خزائن الأرض بمـا تَلَا لسانُ فضله : ﴿إنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، وتمسّكَ من الإخلاص بأقْوىٰ الأسباب ، وجَعَلتْ له التقوىٰ مَحَلًّا يُدْخل عليه ملائكةَ القبول من كلِّ باب ، وزَيَّن سمـاءَ المعالى بكواكب مجده فمـا تشوَّف إليها طَرْفُ متطاوِل إلا وأتْبَعه شِهاب .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى غَدَا حسنُ مناقِبه إلىٰ شكره مُرشِدا ، وإلىٰ ذكره بالجميل مُسْعِدا ، وألهجَ لسانَ القلم فى وصفه مُنشِدا ؛ وٱختصّ من هذه المحامد بأوْفَرِها قِسْما ، وطلع فى أُفُق هذا الثناء الجميلِ نَجْما ، فلذلك رسم ... ...

ومنها ـ ٱستيفاء الدولة .

وموضوعُها التحدّثُ فى كل ما يتحدّث فيه الوزيرُ وناظرُ الدولة ، وضبطُ الأموال الديوانيـة ، وكتابةُ الحُسْبانات ، وكلُّ ما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون فيها مستوفيان .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى صانَ الأموالَ بالأقلام المحرَّره ، والدفاترِ المُسطَّره ، والحُسْبانات المصدَّره ، والجوامِعِ المسَيَّره ، والتيقُّظ الذى ٱستخْرجَ البواقىَ المنكسره ،

والصلاةِ والسـلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى أزال ظَلام الظُّلْم ونَوّرَه، ومَحا الجَورَ وغيَّره، وأيَّد الحق وأظهرَهْ، وعلىٰ آله البرَرَه، وصَحْبه خصوصا العَشرةَ المبَشَّره - فإنَّ للدولة الشريفة من الأقلام ضابِطا، ولهـا من الحِساب نِظامًا أصبح عليها سِيَاجًا وحائِطا، يصون الأموال أن تكونَ بأيدى الخـائنين نُهْبىٰ، ويُحرِزُ المطلَقاتِ بُعْدا وقُرْبا؛ وقَـلَمُ الاستيفاءِ هو الذى إذا طاشَتْ أقـلامُ الكُتَّاب كان فى رأْسِها لِجَـاما، وإذا خَصَم المبـاشرون بالمَصْروف قَبِـل السائغَ الصحيحَ وردَّ ما كان سقيما وخَرَّج ما لم يكن تَمَـاما.

ولمـا كان فلان هو الذى فى الرآسة كبيرٌ معْروف، وفى السعادةِ حميدٌ موصُوف، وفى قلمـه تصحيحُ كلِّ مصروف، وله فى الدولة آثارٌ مرضـيَّة تشْكُرها الأقـلام والسُّيوف؛ ما نظر فى حِساب، إلا أزال عنـه ما به يُعَـاب؛ ولا رأى فَذَالك، إلا وأوضَحَ فيها المَسَالك؛ ولا عُرِض باقِى، إلا آستَخْرج ما يتعيَّن آستخراجُه بقلمه الراقى، وفَهْمِه الواقى؛ فلذلك رسم أن يستقر... ... ...

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بتحريره وتحبيره، وتمييزه ونَثْميره، وتوفيره وتكثيره، وإيراده وتصديره، وتسهيله وتَيْسيره، وإزالة تعسيره؛ وإذا أمْسـك دفاتِرَه، أظهر مآثِرَه، وإذا نُسِيت الجُمَـلُ أبدىٰ تَذاكِرَه، والعمْدةُ علىٰ شَطْبه فى الحُسْبانات الحـاضره، فلا يخرُج من عنـده شىءٌ بغير ثبوت فإنَّ التواقيع الشريفـة والمراسيمَ الشريفة هى كالأمثال سائِرَهْ؛ ولا يتَّخِـذ المُعين، إلَّا الأمين، ولا يستعين، إلا بمن هو مأمونُ اليمـين؛ والوصايا كثيرةٌ وهو غنِىٌّ عن التبيين، فلْيتَّق الله ربَّ العالمين، ولْيستجْلِب لنـا الأدعيَـةَ من الفقراء الصالحين؛ فإنَّ صـدقَاتِنا الشريفةَ تُنْعِم عليهـم بمرتَّبات وأرزاق، ونِعَم وأطْلاق، فلْيُسَهِّلْ عليهم الصَّعْب فى كلِّ بابٍ وإطلاق، والله تعالىٰ يُمِدُّه بالإرفاق، بمنِّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ.

قلت : وقد يكتب لوظيفة ٱستيفاء الدولة مفتتحا بـ«رسم» .

وهــذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة ، كُتِب به لعَلَم الدين بن ريشــة ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لابَرِحتْ أيّامه الشريفةُ تَرْفَع لذَوِى الكفاءة مِنْ إحسانها عَلَما ، وتُرجِع مصالحَ الدولة إلىٰ مَنْ أحسَن فيهــا خِطاباً وأعمَلَ فى مُهِمّاتها قلَمــا ، وتختارُ مَنْ دأَب فى تكميل أَدَواتِه حتّٰى صار علىٰ أنظاره متقدِّما ـ أن يرتَّب فلان عِلْما بكفايته التى وضَحَت ، ودِرايتِه التى فاقَتْ مُناظِرَها ورجَحتْ ، وأمانتِه التى حصَّلتِ النماء وأربَحتْ ، وهمَّتِه التى ميَّزت الأموال بإحرازها فعلَى السَّداد خُتِمت وبالتحرِّى ٱفتُتِحتْ .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى تحتاج إليه باحتراز مثلِه ، والرُّتبةَ التى يتعيَّن علىٰ مُباشِرها إيصالُ كلِّ حقٍّ إلىٰ أهــله ، فقد أرجعْنا ضبطَها وتحريرَها إليه ، وٱعتمدْنا فى تيسير أموالهــا وسدِّ أحوالهــا عليه ؛ فهو جديرٌ ببلوغ القصــد فيما قرَّرناه لدَيْه ، وحرَّرناه بقلمه ويدَيْه .

فليبسُطْ فى مصالح الدِّيوان المعمُورِ وأموالِه قلَمَه ، وليَعْمَلْ بمــا هو عالم من تبيين حقائقِ أحوال وظِيفته ويُخلِص فيه قولَه وكَلِمَه ؛ ولْيصُنِ الأموال ، ويتفقَّدْ ما يلزم العُمَّال ، ويَحُثَّ علىٰ حمول بيتِ المال ؛ وليسترفع الحُسْبانات من جهاتها على العاده ، وليستَودِعْ دفاتِرَها وجرائدَها من يتحقّق تحرّزَه وسَدادَه ، ولْيتخِذْ مُعينيــه من أرباب الحِذْق والدِّراية والاطِّلاع علىٰ كل نقْص وزيادَه ، وإبداء وإعاده ؛ وله من نَفْسه مالا يَحتاج معــه إلىٰ زيادةِ الوصايا وتكْثيرها ، ومن ٱلْمعيَّته ما يُدْرك به الفضْلَ فى جليــل الأمور وحَقيرها ؛ فإنّه قد تخَلَّق بأخلاق أهل الأدَب ، وشارك فى جليل

الخَطْب وسـدَّ ما إليـه عزمَه ٱنتدَب؛ والله تعالىٰ يبلِّغـه من الجُود غايةَ الأرَب، ويُعينُه علىٰ صالح العمَل وٱنتهازِ القُرَب؛ والآعتماد ...

ومنها ــ ٱستيفاءُ الخاصّ . وصاحبُها فى الخاصّ كمستوفِى الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بٱستيفاء الخاصِّ لمن لقَبُه «أمينُ الدين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أيامُه الشريفةُ تُقْدِم بمهمَّاتهـا أمينا ، وتقدِّم فى خدمتها من أضحىٰ معلَّىٰ شِمالا ويمينا ؛ وتُولِّى الرتب السنيَّةَ مَنْ جعل التحرّز لقلَمه مصاحِبا ولكَلِمه مُعِينا ــ أن يستقرّ فلان فى كذا : لمِـَا عُرِف من رآستِه التى ميَّزَتْه ، وأمانتِه التى جمعتِ الرَّفْع فأحرزَتْه ؛ وضبْطه الذى ترقَّى به فى المراتب وتنقَّل ، وإدراكه الذى يَصُونُ به غوامِضَ المصالح ويَعقِل ؛ ولِـَا سلَف له من خدمةٍ ملكَ فيها السَّداد ، ومباشرةٍ عُلِم بها ماهو متَّصِف به من حُسْن الآعتماد .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ التى وُلِّيها ، ولْيُشْهِر من همَّته فيها ما يرفَع مكانَتَه ويُعْليها ؛ ولْيُدِمِ المراقبةَ لمصالح ديوان الخـاصِّ الشريف فى كلِّ قولٍ وعمل ، ولْيسارِعْ إلىٰ مايُفِيد المَناجِحَ ويَبلُغُ من الضبْط والتحرُّز غايةَ الأمل ؛ ولْيصُنِ الأموال من ضَيَاعها ، ويحـافِظْ علىٰ سلوك طرائِق الحقِّ وٱتِّباعِها ؛ وليسترفِع الحُسْبانات من أربابهـا ، ويتفقَّد محرَّراتها التى هو أعلَمُ وأدرىٰ بهـا ؛ ويَتَّخِذْ من مُعِينيه من أضحت معرفتُـه للدقائق جامعَـه ، ويحتفِلْ بتحصِّلات أموال الخاصِّ بعَزْمتـه التى أضحت لمكانَتِه رافعـه ، لاسيَّـا ثغرُ الإسكندرية التى قد أصبحَتْ جهاتُها لطلَب أقلامه مُتابعـةً طائعه ، ولْيُلزِمْ كلَّ عامل بتحرير مايجب عليه وما تنبغى فيه المراجَعَه ؛ فإنا قد أقمناه لذٰلك مستَوْفيا ، وليتصفَّح أمورَه الجليـلةَ والحقيرةَ مستوضِحا مستقْصِيا ؛ ولْيتّقِ ٱلله

الذى يبلِّغُه من زيادة مَنْحنا الأمل، ويعينُه علىٰ صالح العَمَل، والله تعالىٰ يمنَحُه من الخير ما يُنْجِح مَسْعاه وينزِّهُه عن الزَّيْغ والزَّلَل، والاعتماد ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع فى المعنىٰ لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رُسِم بالامر الشريف - لازال يُطلِع لذَوِى الكِفاية من إحسانه فى سَماء الإقبال بَدْرا، ويرفَعُ لمن أمَّ الأبوابَ لأوليائه (١) من ذَوِى الرآسة قَدْرا، ويشْفَع لمن شُكرتْ معرفتُه بنُجْح القصد فانشرح له بالمِنَن الجمَّة صَدْرا - أن يستقرّ فلان فى كذا : لكفايته التى خُطِب بسببها إلىٰ مَقَرّه، ودرايته التى استوْجَب بها أنْ نطقَ لسانُ القَلَم بذِكْره، ونزاهتِه التى أجمعت بها أمثالُه علىٰ شُكْره، وأمانتِه التى تستدْعِى الحقَّ فى حُلْو الأمر ومُرِّه، وديانته التى هى أصلٌ فى كل أمره، وصيانتِه التى يعتمِدُها فى سِرِّه وجهرِه، ومشارفتِه المصالح بعينِ يقظتِه التى يلُوح لها وجهُ الصواب فيقِف عند حدِّه وقدْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى أسلفها حُسنَ الاعتماد، وليوَفِّها من معهود يقظتِه يُمْنَ الاجتهاد، وليحقِّق حسنَ ظنِّ المباشرين فى رغْبَتِهم (٢) فيه فى الإنصاف فى الإرْفاق والإرْفاد، وليُعَمِّر جهاتِ الأموال بجميل الاقتصاد، ويُنْجِز الأحوالَ علىٰ سبيل السَّداد، وليتَّبِع منهاجَ الخير فى كل ما يأْتِيه من إصدارٍ وإيراد؛ فقد رجَع ضبطُ هذه الجهةِ إليه، واعتُمِد فى تحريرها علَيْه؛ فلْيصُنِ الأموال، ويتفقَّد ما تحْسُن به العُقْبىٰ والمَآل، ولْيتَحرَّ فى جميع ماهو لازمٌ له أن يكونَ على الحق الواضح، والسَّنَن القويم فإنه المَتْجر الرابحُ والمآبُ الناجح، وتقوىٰ الله تعالىٰ فهى عمدةُ كل عبدٍ صالح،

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .

(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرةٌ مبيَّنــة تُغْنِى عن إفصاح الشارح؛ والله تعالىٰ يُلْهمه الطريقَ السديدةَ ويُرْشِده، ويُعِينه بالتوفيق ويُنْجِده، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ــ آستيفاء البُيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذلك ، كُتِب بها لعَلَم الدين «شاكر» عوضًا عن تاج الدين ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية «شعبان بن حسين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ صــدَقاتُه الشريفةُ تمنَحُ الأكفاءَ من إحسانِها نِعَما، وتُضاعِف لهم من عَطائهــا كَرَما ، وأيّامُه الشريفة تعُمُّ البُيوتَ الكريمــةَ بكافٍ قد نَشَرت له الأمانةُ فى دولتِه الأشرفيَّةِ علَمــا ، ومَواهِبُه تقدّم للوظائف مَنْ أضحىٰ شاكِرًا لله تعالىٰ وتبسُطُ له فى دواوين أعزِّ الأنصار قَلَما ــ أن يستقرّ المجلسُ السامى القاضى ، فلانُ الدين فى كذا وكذا : لأمانته المْوفُوره ، ومعرفتِه المشهُوره ، ومحاسِنِه المذكُوره ، وسيرته المشكُوره ، وكتابتِه التى أضحَتْ فى صَفَحات الحُسْبانات مسْطُوره ، وديانتِه التى جدّدَتْ بهجَتَه وسُرورَه ، وخِبْرتِه بمنازل البُيوت المعمُوره ؛ وقِدَمِ هِجرته فى الوظائف التى أوجبت نُقْلتَه إلىٰ أجلِّها ، وصَدَارته التى رفعَتْــه إلىٰ أرفَع محلِّها ؛ كم له فى دَواوين أعزِّ الأنصار من أقلام منَقَّذه ، وآراءٍ مُسدَّده ؛ ونظَرٍ أصلح به كلَّ فاسد ، وكبَتَ به كلَّ حاسد ؛ وضَبْطٍ لأصول الأموال ، وتَتَبُّعٍ للمصالح فى البُكَر والآصال .

فلْيباشِرْ هــذه الوظيفةَ المباركةَ التى هو أخبَرُ بمباشَرتِهــا ، وأعلَمُ بأحوال البُيوت الكريمة وعمارَتِهــا ؛ ولْيُظْهِرْ فى الحاشية السعيدة مآثِرَه الحسنَه ، ونزاهتَه التى نطَقَت بشكرِها الألسِنَه ، ولْيُبْدِ فى مباشرتِه من كل شىءٍ أحسَنَه ؛ ولْيَسْلُك طرائقَ الأمانه ، ولْيَقْفُ آثارَ ذوى العَفَاف والصِّيانه ؛ ولْيلازمْ مباشرةَ أعزِّ ولِىٍّ فى المَسَاء والصَّباح ،

ولا يشْغَله شاغلٌ عن مصالح ممهِّد الدول مَنْ [هو] لسلطاننا الأشرفِ أميرُ سلاح ، والله تعالىٰ يفتح له من الخير أبوابَ النّجاح . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وممّا ينخرط فى سلك تواقيع أرباب الوظائف السلطانية وظائفُ دواوين الأُمَراء الخاصكيّة ، فإنه ربما كُتِب عن السلطان التوقيعُ لبعض أرباب وظائف دواوينهم كما يُكتَب فى الوظائف السلطانية .

*
* *

وهذه نسخةُ توقيع كريمٍ بنظر دواوينِ بعض الأمراء ، وهى :

أمّا بعد حمدِ الله الذى هدىٰ إلىٰ الملّة المحمّدية مَنْ أسرَّ الإيمانَ فى قلبه ونَواه ، وضَمّ إلىٰ الأُمّة [الاسلامية] من أضمر الإخلاصَ فأظهره اللهُ فى متقلَّبه ومَثْواه ، وجمَع لولِىّ الدولة ومُخْلِصها الفرجَ والفرحَ لأنه مَن توكّل عليه كفَاه ؛ والشهادة بالوَحْدانية التى تُبَلِّغ قائلَها من رضاه مُنَاه ، وتجعل جَنّاته لمن أسَرّها جَنَانُه مستقرَّه ومَأْواه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى قَصَم عِدَاه ، وقَصَم عُرا مَنْ عاداه من أهل الشرك وعَدَاه . وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آهتدَوْا بهُدَاه ، وآستجْدَوْا جَدَاه ، ولَبَّوْا نِدَاه ، وأَمُّوا نَدَاه ، صلاةً تُجزِل لمصلّيها ثوابَه ، وتُجْمِل مآبَه ، وتُحْمِد عُقْباه ـ فإنّ أوْلىٰ من رفَع له الكرمُ محلّا ، وقلّدته النِّعمُ عقْدا مُحلّى ، وأُعِيد إلىٰ رتبة الاصطفاء ، وفُوّض إليه ديوانُ أعزِّ الأخصّاء ، وصُرِّف قلمُه فى مَهامِّه ، وحصلتْ همّتُه علىٰ جميع أقسامِه ، وعُدِقتْ مصالحُه بتدْبيره ، ومناجِحُه بتأثيله وتأثيره ، ومتحصِّلاتُه بتمييزه وتثْميره ، وأحوالُه وأموالُه : هذه بحُسْن تصرُّفه وهذه بِيُمْن تَقْريره ـ مَنْ دخل فى دين الله القَويم ، وآجتَباه وهدَاه إلى الصِّراط المستقيم ، وكَسَاه الإسلامُ حلَّةَ شرَفه ، وبوّأه الإيمانُ

مَبـانِىَ غُرَفه ، ونَوىٰ الاَسـتقامةَ فى إقامته ومُنْصَرَفه ؛ وٱلتحَفَ بجِلْباب الإسـلام وٱرتَدَىٰ ، وتَلَبَّس بالإيمـان فصَدّ عنه الأذَىٰ وردّ الرَّدىٰ ، وغَدَا من أصحاب الصِّراط السَّوِىّ ومَنِ ٱهْتدىٰ ؛ مع كفايةٍ أوجبَتْ له التقريبَ والتقديم ، وجدّدَتْ له مَلابِسَ التكبير والتَّكريم ؛ وكتابةٍ فاقَ بها أمثالَه ، وعلا مِثالَه ، وبلَّغتْه من العَلْياء مَرامَه ومَنَاله ؛ ومعرفةٍ بفنُون الحِسَاب ، وخِبْرة ٱعتَرف له بها الكُتَّاب والحُسَّاب ، وأوجبَتْ له من الإقبال مالم يكُنْ فى حساب .

ولما كان مجلس القاضى فلان : هو الذى أخَذ القلَمُ فى مدْحِه ، والكَرَمُ فى مَنْحه ؛ ٱقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نُقْبِل على إقبالِهِ علىٰ الدين بوجْه الإقبال ، وأن نبَلِّغه فى أيّامنا الشريفة ما كان يرجُوه من الآمال . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يرْفَع مَن كان للدّولة ولِيّا ، ويضَع الشىءَ محلَّه بتقديم مَنْ أضحىٰ عِرفانُه جَلِيّا[(١)] .

فلْيباشِرْ ذٰلك مباشرةً تبلِّغه أمَلًا من الاعتِلاء ، وتُنوِّلُه مَراما من الاعتِناء ، وتُؤمِّنه من طوارِق الزّمن وحوادِثِ الاعتِـداء ، عالمـا بأنَّ دولتنا الفلانيةَ المنصورةَ تُجازِى عن الحسنةِ بأمثالهـا ، وأنَّ أيَّامنا الفلانيةَ المشهورةَ المشكورةَ تبَلِّغ أولياءها غايةَ آمالهـا ؛ وأنّنا أجزَلْنا بِرّه ، وأجملْنا ذِكْرَه ، وأجريْنا علىٰ لسان القَـلَم حَمْدَه وشُكْرَه ؛ فليعتَمِدْ فى مباشرته الأمانةَ المُبِرَّه ، والنزاهةَ التى رَفَعت ماساءَه ووضَـعَتْ ماسرَّه ؛ وليشَمِّر فى مصالح هذا الديوان السعيدِ عن ساعِدِ ٱجتهادِه ، ويعتَمِد فى أموره ماأُلِفَ من سَدَاده ، ويَتَحرَّ من السعادة ماكان قبل القول من سُعَاده ؛ وليتَّق الله حقَّ تُقاته ، ويجعَـل التقوىٰ حِلْيَـةً لأوقاته ، وحُلَّةً علىٰ سائر تصَرُّفاته ؛ ويَسِرْ بتقواه سَيْرًا خَبَرا وخُبْرا ، ويَذَرْ جورا وجَبْرا ، ﴿ومَنْ يتّقِ اللّهَ يجعَلْ لَهُ مِن أَمْرِه يُسْرا﴾ .

(١) أن يستقر فى ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكتابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب ما يُعتنىٰ به فى تواقيع أرباب الأقلام المفتتحة بـ«رُسِم» الدعاءُ المصدَّرُ به التواقيع [و] اشتمالُه علىٰ براعة الاستهلال .

وهذه جملةُ أدعيةٍ من ذٰلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها :

أثير الدين — لازال فَلَكُ فضله أثيرا، وطالعُ سَعْده مُنيرا، وهُبُوب ريح مَبَرّاته للخيرات مُثيرا .

أمين الدين — لازال يَبْتغِي للخِدَم الشريفة خَيْرَ أمين ، ويصْطفِي للقيام بالمصالح أنهضَ مُعين، ويجتبِي لأهمِّ المُهِمَّات من هو غير متَّهَم فى المناصحة وغيرُ ظَنين .

بدر الدين — لازال يُولِّى المناصبَ الدِّينيَّةَ من سَلَك فى النزاهة مَسْلَكا جميلا، ويُولِى الفضل الجزيل مَنْ أضحىٰ إشراقُ بدْرِه علىٰ آثار حظِّه دليلا .

برهان الدين — لازالَتْ أوامرُه الشريفةُ ترفَع للعلماء شانا ، وتُقيم على استحقاقِهِم دَليلا واضحا وبُرهانا .

تاج الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفةُ ترفَع تاجَ الفضائل على الرُّءُوس، وبِرُّه الشاملُ يُذَكِّى النفوس ويُزَكِّى الغُروس ، وتَواردُ إفضاله يُوشِّى المَهارِقَ ويدَبِّج الطُّروس .

تقىّ الدين — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تقدّم كلَّ تقىّ ، وتُرَجِّح ميزانَ مَنْ هو بالفضائل أملىٰ مَلِىّ، وترفَع قدْرَ من إذا سُئِل عن محلّه فى الرياسة قيل عَلِىّ .

جمال الدين — لازال جمالُ جميله للنُّفوس رائقا، وإفضالُه المتوافر لكل إفضالٍ سابِقا .

جلال الدين — لازالت صدقاته الشريفة تزيد جلال ذوى الفضل جلالا ، وإحسانه المتواتر يوسّع فى البرّ لأولى الاستحقاق مجالا ، وبرّه المتتابع تقصر عنه خطا كلّ برّ فينادى : هكذا هكذا وإلا فلا لا .

رضىّ الدين — لازال رضىّ السّجايا ، ظاهر المزايا ، مسترسل ديم العطايا .

زين الدين — لازال نواله الشريف زينًا لنائله ، وسؤاله المحقّق إجابته شرفًا لسائله ، وقاصد بابه الشريف يؤمّ بالخير فى عاجل الأمر وآجله .

سراج الدين — لازالت عنايته الشريفة تخصّ أولياءها بجزيل المواهب ، وتبلّغهم من صدقاتها العامّة غاية الآمال وأقصى المطالب ، وتوقد لهم من أنوار سعادتها سراجًا يغلب على نور الكواكب .

سرىّ الدين — لازالت صدقاته الشريفة تصطفى من أرباب الكتابة من يجيد المعانى فلا يضع لفظا إلا جعل تحته معنًى سريًّا ، وترتضى من فرسان البراعة فى ميدان اليراعة من يرتقى ببلاغته مكانًا عليًّا ، وتجتبى من أهل الإجادة من تميّز بالإفادة فلا يزال كلامه لأجياد الطّروس حليًّا .

شرف الدين — لازالت صدقاته الشريفة تضع الشىء فى محلّه ، وترجع الفضل إلى مستحقّه وأهله ، وتختار للمناصب من ظهر شرفه بين قوله وفعله .

شمس الدين — لازالت صدقاته الشريفة تطلع فى سماء المعالى من ذوى الرياسة شمسا ، ونعمه الجسيمة تنبت فى روض الإحسان غرسا ، ومراسمه العالية تنقل إلى رتب الرياسة من شدّت كفّه على عدد الأمانى خمسا .

شهاب الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلِع فى أُفُقِها شِهابا، وتُهْمِل من جزيل المَواهب للأمانِيِّ سَحَابا، وتضَع الشيءَ فى محله وتَزِيدُ الأمورَ آنتظاما والدعاءَ آستِجلابا .

صدر الدين — لا زالتْ آراؤه الشريفةُ تستجيدُ من ذَوِى الفضائل مَنْ جاوَزَ الجَوْزاء نَظْما وفاق النَّثْرة نَثْرا، وتستفيدُ(1) به المناصب من الأماثل مَنْ تقْصُر عن مجده الكواكبُ رِفْعة وقَدْرا، وتستزيد منه المراتب من فاق سَحْبانَ وائِلٍ وسادَ الأوائل فأضحىٰ فى مجالس العلياء صَدْرا .

صلاح الدين — لازال أمرُه الشريفُ يقدّم من يُفيد ويُجيد، فيكون لكلِّ أمرٍ صلَاحا، وكرَمُه الطويلُ المَديد، يشمَلُ مِن ذوى الفضائل مَنْ فاق "سَحْبانَ" وائلٍ فصاحةً وفاق "حاتِمَ" الأوائل سَماحا، ورأيُه الرشيدُ السديدُ، يختارُ مَنْ إذا آنتضىٰ اليراعةَ غلَب رأيُه سيُوفا وطال قَلَمُه رِمَاحا .

ضياء الدين — لا زالتْ آراؤه الجميلةُ، تختار من ذَوِى الفضائل الجليلةِ من تَزْداد به المناصب ضياءَ، ونِعمُه الجزيلة، تَعُمُّ كلَّ بارع إذا آدلهمَّتِ الخُطوب كان فُوه لها جلاء، وعوارفهُ المستطيلةُ، تشمَل كلَّ فاضل بذَلَ فى الخدمة جُهْده وتَكْسُوه هيبة وبَهاء .

عَلم الدين — لا زال جزيلُ إحسانه، أوضَحَ من نارٍ علىٰ عَلَم، ومزيدُ آمتِنانه، يشمل أربابَ السيف والقلَم، وسُحُب بَنانِه تَسُحُّ فلا تَشُحُّ بجزيل الكَرَم .

علاء الدين — لا زال عَلاءُ دولتِه يصطفِى ذَوِى الفضائل، ويختارُ من الفُصَحاء من يفُوتُ الأواخرَ كما أضحىٰ يفُوت الأوائل، ويقدّمُ مَنْ هو فى تدبِير البَراعة كعلىِّ بن هِلَال وفى حُسْن البَراعة كسَحْبانِ وائل .

---

(1) لعله « وتستعيد للناصب ..... وتستزيد فى المراتب الخ » . تأمل .

عـــزّ الديـــن — لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تَزِيد ذَوِى الأقلام، من جزيل الإنعام، فتُنيلُهم عِزّا، وتستجيدُ من كُتّابها الأعلام، من خُصَّ بجواهر الكلام، فكلُّ حُسْن إلىٰ كلامه يُعْزىٰ، وتستفيدُ من نُجَباء الأيَّام، كلَّ بارع كأنَّ كلامَه زَهْر الكِمام، فلو خاطب سَحْبان لأورثه قُصُورا وعَجْزا .

عمَـاد الديـــن — لا زالَتْ آراؤه الشريفةُ تتَّخِذ من نُجَباء الكُتَّاب، عِمادا، وتختارُ من ذَوِى الفضائل فى الخطاب، مَنْ تجِـدُ لكلامه حُسْنا وسَـدَادا، وتُقدِّم من أهل الفضل فى السؤال والجواب، مَنْ لا تَعْدَم فى كلِّ مقاصده رَشَادا .

عضد الديـــن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تجعل من إنعامها، لخدّامها، عضُدا، وتلحَظُ بعين إكرامها، وحسن آحترامها، مَنْ طال فى الفضل مَدىٰ، وتزيِّن مطالعَ أيامها، بشُموس أعلامِها، فلا ترىٰ مثلَهم أحدا .

غَرْس الديـــن — لازالَتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُنْبِت فى روض الإحسان، من أرباب البيَـان، غَرْسا، وتجتنِى من كِمام اللِّسان، أزاهِرَ النُّكَت الحِسان، وتَزِينُ بها طِرْسا، وتُفِيض من مَواهب البنَـان، ما يشهَد لهـا بجزيل الآمْتِنان، فَيطِيب كلُّ آملٍ نَفْسا .

غياث الديـــن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تُبْـدِى لكلِّ آملٍ غِياثَهـا، وتُضفِى ظِلَّها علىٰ من آستجار بها وآستَغاثَها، وتنْطِق ألسُنُ أقلامها، بمواهب إنعامِها، فتبذُل طريفَها وتُراثَها .

فتـــح الديـــن — لا زالتْ صـدَقاتُه الشريفةُ تتخيَّر من ذَوِى الأقلام، مَنْ يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتَهَب جزيلَ الإنعام، لمن يستحقه من الكُتّاب الأعلام،

فينَالُ بذلك ثناءً ورِبْحا ، وتُقرّب بيَدِ العِناية والإكرام ، من ذَوى الرياسةِ والاحترام ، مَنْ هزَّ على البلَغاء قِدْحا .

فخــر الديــن — لا زالَتْ آراؤُه الشريفةُ تُنَصِّب فى المَنَاصب ، من يَزِيد بحُسْن مباشَرتِه فخَـرُها ، وتُمْطِى ظُهورَ المراتب ، من إذا أظْلَمت الأيامُ لعدم فاضل ظهرَ بفضيلتِه فخْـرُها .

قُطْب الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُدِيرعلىٰ قُطْب البـلاغة من أرباب اليَرَاعة نُجُوما ، وتُشِيرُ بعنايتها إلىٰ مَنْ حاز من الفضل فُنُونا وأحيا من الآداب رُسوما ، وتُنِير بدُورَ سعدها لمن لم يزل قلَمُه لأسرار المُلْك كَتُوما .

كريم الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفة تشـمَل من ذَوِى الفضائل مَنْ عُدَّ فى فضْـلِه وأصلِه كريمـا ، فتُقدّم مَنْ لا له فى البَلاغه ممـاثِلٌ فلا يَزالُ بكل فَنٍّ عليما ، وتُنَصِّب فى المَنَـاصب مَنْ فات قَيْسَ الأوائل رأْيا وفاقَ قُسًّا بحـديث بلَاغته قَديمـا .

كمال الديـن — لا زالتْ سعادتُهُ الباهره ، تُطْلِـعُ فى سماء العَلْياء مَنْ فاق البُدورَ كمالا ، وأوامِرُه القاهـره ، تُقدّم أسْنىٰ البُلَغاء جَلَالا ، وأسْمىٰ صدَقاتِه الوافيه ، تعُمُّ من ذَوِى الفضائل مَنْ زاد المَناصِبَ بحُسن مباشرتِه مَهابةً وجَمَالا .

مجد الديـن — لا زالت صدَقاتُه الشريفةُ تملِّك أعنَّةَ الأقلام ، من تَراه لها مَجْدا ، وتُودِع بجيد الأيّام ، من جواهر الفضلاء عقْدا ، وتشمل بأياديها الكرام ، مَن اذا جُمِـع البُلَغاء كان بينهم فردا .

محيي الدين — لازالت أوامِرُه الشريفةُ تشمَل من البُلَغاء من شُهِر بفصْل الخطاب، وإذا ماتت الفضائلُ يُحيِيها، وغيثُ جُوده الهامى[1] يُفيض فيضَ السَّحاب، فيُبادِرُ العُفَاة ويُحَيِّيها؛ وعنايتُه تعم ذَوِى الألباب، فتمهِّد رُتَب العِزِّ وتُهَيِّيها .

موفَّق الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلِع كلَّ هلال مَن اهتدَىٰ به كان موَفَّقا، وتُملِّك اليراعَ مَنْ يُزْرِى بابن هِلال أَنَّى كتَب: رِقَاعا ومحقَّقا؛ وتُفيض لراجيها أفضلَ نَوالٍ مَنْ شبَّهه بالغيث كان مُحقِّقا .

ناصر الدين — لا زال يُقرِّب مَنْ أضحىٰ لأهل الكلام، بمُرْهَفات الأقلام، ناصِرا؛ ويَهَب طويلَ الإنعام، لمن باعُه مديدٌ فى النَّثْر والنِّظام، فما بَرِح فضلُه وافِرا؛ وينتخب مَنْ غدَا سَرِيعا لعادات الكرام، مُضارِعا لِصفات الكُتَّاب الأعلام، وأصبح فى البَيان نادِرًا .

نجم الدين — لازالت أوامِره الشريفةُ تُطلِع فى أُفُق السعاده، من ذوِى السياده، نَجْما؛ وتعمُّ بجزيل الإفادَه، مَن عُرِف بالفضل وبالإجادَه، وفاق أقرانه نَثرا ونَظْما؛ وتَسْمح من عنايتها بالإراده، لمن هو أهلُ الحسنىٰ وزياده، فتُجْزِل له من كَرَمها قِسْما .

نُور الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تعمُّ بالنَّوال، مَنْ هو فى البَرَاعة مُتَّسِعُ المَجال، فيزِيدُ الكلامَ نُورا؛ وحسَناتُه تشمَل ذَوِى الآمال، بما يُحْمَد فى البَدْء والمآل، فتمْلأُ القلوبَ سُرورا؛ ومَبَرّاتُه تَصِل أُولِى الكمال، وتنتخِبُ أخيارَ العُمَّال، فلا بَرِح أنفَذَ الملوك أُمُورا .

(١) فى الاصل «الوهام» ويظهر أنه تحريف .

نظام الدين — لازال يتخيّرُ مَنْ كان فى الناس مَجيدا ، وفى البيان مُجِيدا ، فحَسُن لفظُه نِظاما ؛ ويَهَبُ مِن بِرّه مَزِيدا ، لمن كان فى الخِدمة مُرِيدا ، فلا ينقُض للنصيحة ذِمَاما ؛ ويبذُل كَرَمًا مُفيدا ، لمن يراه فى الفضل مُبْدِئا ومُعيدا ، فحاز فَخَارًا وطابَ كَلَاما .

هُمام الدين — لا زال يرتَضِى مَنْ هو فى فُرْسان البَراعةِ أنهضُ هُمَام ، ويقتضِى وعْدَ كرمه لمن نهضَ فى الرياسة نُهوضَ آهتِمام ، وينتضِى عَضُدَ[1] ذهنه فيصيب مَفْصِل كلِّ كَلَام .

وَلِيّ الدين — لازال يُحلِّى أجيادَ المناصِب من ذَوِى البلاغه ، بمن يُحسِن فى الكلام الصِّياغة ، فينظِمه حُلِيًّا ، ويُحِلّ كُرَب المراتب من فُرْسان البراعه ، بمن راحَ فضلُه ولفظُه جَلِيًّا ؛ ويُولِّى المناصبَ من غدا فى البيان وافر البضاعه ، فاتخذَتْه الأقلامُ وليًّا .

---

(١) لعل الصواب معضد كنبر : تأمل .

الضـــرب الرابـــع

(من الوظائف التى يُكتب فيها بالديار المصرية مَشْيخةُ الخَوانق ،
وكلُّها يُكتب بهـا تواقيعُ)

وهى علىٰ طبقات :

الطبقـــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» مفتتحا بـ«الحمد لله»
وهو مَشْيخة الشـــيوخ خاصَّـة)

وآعلَمْ أنَّ مشيخةَ الشُّيوخ كانت فيما تقدّمَ تُطلَق علىٰ مشيخة الخانقاه الصَّلَاحيَّة ، «سعيد السعداء» فيكتَبُ فيها بذٰلك . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن بَنىٰ السلطان الملك الناصرُ « محمدُ بن قلاوون » الخانقاه الناصريَّةَ بسرياقَوْس ، آستقرّتْ مشيخةُ الشيوخ علىٰ من يكون شيخًا بها ، والأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ الآنَ .

وهــذه نسخةُ توقيع بمَشْيخة الشُّــيوخ بالخانِقاه الصَّلاحية « ســعيد السُّعداء » بالقاهرة المحروسةِ باسم الشيخ شمس الدِّين بن النَّخْجُوَانىّ ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ آبن فضل الله العمرىّ ، وهى :

الحمدُ لله مُرقِّى أوليائِه ، ومُوَفِّق أصــفيائِه ، ومُلَقِّ كلمةِ الإخلاص لمن تلَقَّ سرَّها المصُونَ عن أنبيائِه .

نحمدُه علىٰ مُصافاةِ أهــل صَفائِه ، ومُوافاة نِعَمنا لمن تمسَّكَ بعُهود وَفائه ، وتَسَلَّك فأصبحتْ رجالٌ كالجواهر لا تنتظِم فى سِلْكه ولا تُعَدّ من أكْفائه ، وطلَعَ للدِّين شمسًا يُباهِى الشمسَ بضيائه ، ويُبَاهِلُ البدرَ التمَّــامَ فيتغيرَّ تارةً من خَجَله وتارةً من حَيائِه .

ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُعِدُّها ذُخْرا للقائه ، وذخرا باقيًا ببقائه ، راقيًا فى الدرَجات العُلىٰ بارتقائه .

ونشهد أنَّ سيدَنا محمدا عبدُه ورسولُه مبلِّغُ أنبائه ، ومسوِّغُ الزُّلفىٰ لأحِبَّائه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه والتابعين لهم بإحسانٍ من أهل وَلَائه ، ومَنْ عَرَف به اللهَ لمَّا تفكَّر فى آلائه ، صلاةً يؤمَّل دوامُها من نَعْمائه ، ويؤمِّن عليها سُكَّانُ أرضه وسَمائِه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أَوْلىٰ ما آستقامَ به [الشخص على] الطريقَه ، وآستدامَ به الرجوعَ إلى الحقيقه ، وآسْتَامَ به يطمئن إلىٰ خالقه لا إلى الخليقه ، وحفظ أُفُقَه بنيِّرٍ تستضيء به النيِّرات ، ونَوْءٍ تتقسَّم به الغمائمُ المُطِرات ــ طائفةُ أهل الصَّلاح ، ومن معهم من إخْوان أهلِ الصفاء الصُّوفيَّة داعِى الفَلَاح ؛ ومن تَضُمُّهم من الواردين إليهم إلىٰ جَنَاح ، والصادرِين عنهم بنَجَاح ؛ ومن تُفْتَح له فيهم أبوابُ السماء ، وتُمنح بنَفَسهم عامةُ الخلق مَلَابِسَ النعماء ؛ ومن يُكشَف بتهجُّدهم جُنْحُ كلِّ ظَلام ، ويُكسَفُ بتوجُّههم عارضةُ كلِّ بدْر تمام ؛ ويُستشفىٰ ببركاتهم من داء كل سَقَام ، ويُستَسْقىٰ بدعائهم إذا قَصَّر النِّيلُ وقَصَّ جناحَه الغَمَام . وهم أولياء الله وأحِبَّاؤُه ، وبهم يتعلَّل كل لبيبٍ هم سَقَامه وهُم أطبَّاؤه ؛ أنحلَهُم الحبُّ حتّىٰ عادوا كالأرْواح ، وأشغلهم الحبُّ بصوتِ كلِّ حَمام شجاهُم لمَّا غنَّىٰ وبرَّح بهم لمَّا ناح ؛ وأطربَهم كلُّ سَمْع فوجدُوا بكل شيء شَجَنا ، وعذَّبهم الهوىٰ فاستعذَبُوا أن لا يلائمُوا وسَنَا ؛ ومثَّل فرطُ الكَلَف لهم الأحباب فما رأَوْا لهم حالًا إلا حَسَنا ، وأثقلَ تكرارُ الذِّكْرىٰ قلوبَهم فما عدُّوا غُرْبةً غُرْبةً ولا وطَنًا وطَنَا ؛ قرَّبت المحبةُ لهم فى ذاتِ الله كلَّ متباعِد ، وألَّفتْ أشتاتَهم فاختلفت الأسماءُ والمعنىٰ واحد .

والخانقاه الصلاحيّةُ بالقاهرة المحروسة المعروفةُ بـ«سعيد السعداء» ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ هى قُطْب نُجومهم السائره، ومرا كزُ أفلاكهم الدّائره؛ وإليها تحطُّ رِحَالُ سُفّارهم، وعليها تُحَطُّ رِحَال أسفارهم؛ تضْطرب فِرَقُهم فى البلاد وإليها مَرْجِعُهم، وعليها مجتَمعهم، وفيها مواضعُ خلَوَاتهم، ومطَالع جَلَواتهم، ومكانُ صَلَاتِهم، وإمكانُ صِلَاتِهم؛ ومَشْرِق شُموسهم، ومُؤْنِق غُروسهم؛ ومنهاجُ طريقتهم، ومِعراجُ حقيقتهم؛ مأْوىٰ هـذه الطائفةِ الطائفةِ فى شَرْق البِلاد وغَرْبها، وبُعْدها وقُرْبها، وعَجَمها وعُرْبها، ومَن رفع سُجوفَها أو هو محجوبٌ بحُجُبها؛ والمؤهَّلة والعراب، وأهل الآغتراب؛ هى فَسيحُهم الرَّحيب، وصَفِيحُهم القريب؛ ومثالُهم إذا آجتَمَعُوا فى الملإِ الأعلىٰ زُمَرا، وآخترقُوا المَهَامهَ وما جازوا بَيْداءَ ولا جابُوا مُقْفِرا؛ وبلغُوا الغايةَ وما أزعَجَ رِكَابَهم حادٍ فى ليلِ سُرىٰ، ووصلُوا وما فارقُوا فُرُشَهم المُمهَّدة إلىٰ ما وراءَ الورَىٰ؛ شرطُ كلِّ خانقاه أن لا تُغْلق فى وجه من ينْزِل فيها بابًا، ولا تُطيلَ جهاتُها المُمنَّعةُ له حِجَابا، ولا تُعجِلَ مقاماتُها المرفعة له قبل (1) ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع بمَشْيخة الشيوخ، وهى مَشْيخة الخانقاه الناصريّة بسرياقَوْس، ممـا كُتِب بذٰلك للشيخ نِظام الدين الأصْفهانى، من إنشاء السيد الشريف شمس الدين:

الطــرّة

توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس العالى، الشيخىّ، النّظامىّ، إسحق آبن الشيخ المرحوم جلال الدين عاصِم، آبن الشيخ المرحوم سعدِ الدين محمدٍ الأصفهانىِّ

(1) بياض فى الأصل وبه علامة التوقف.

القُرشىّ الشافعىّ ـ أدام الله النفع ببركته ـ مشيخةُ الخانقاه السعيدة الناصريّة بسرياقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة والحلبيّة ، والفُتوحات الساحليّة ، وسائر الممالك الإسلاميّة المحروسة ، على عادَته فى ذلك وقاعدَته ومعلُومه، وأن يكون ما يخصّ بيتَ المال من ميراث كلّ من يُتَوفّى من الصوفيّة بالخانقاه بسرياقَوْس للشيخ نِظام الدين المشار إليه ، بحيث لا يكونُ لأمين الحكم ولا لديوان المَواريث معه فى ذلك حديثٌ ، وتكونُ أمورُ الخانقاه المذكورة فيما يتعلّق بالمَشْيخة وأحوالِ الصوفيّة راجعةً للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، ولا يكونُ لأحدٍ من الحُكّام ولا من جِهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذلك حديثٌ معه، ولا يشْهدُ أحدٌ من الصوفيّة ولا ينْتَسِب إلا بإذنه ، على جارى عادته فى ذلك على ما شُرِح فيه، وأوّله :

الحمدُ لله على نِعَمه التى ألّفتْ للصالحين من عباده نِظَاما، وآستأنفتْ للصّائحين إلى مُراده إحراما ، وصرّفتْ أوامرَنا بالعدْل والإحسانِ لمن فوّضَ أمُورَه إلى ربّه فأنجحَ له من مَزيد التأبيد مُرادًا ومَراما ، وعطَفتْ بأوجُه إقبالها الحِسانِ على من هو متنزّه عن دُنْياه، متوجّهٌ إلى أُخراه، يُمضى نهارَه صِيامًا وليْلَه قِيامًا .

نحمده على أنْ جعلَنا نَرْعى للأولياء ذِمَاما ، ونَسْعى بالنّعماء إليهم ابتداءً وإتْماما ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ترفَع المخلِصين فى عِلّيّينَ مَقَاما، وتدْفَع بأعمال الصِّدْق عن المتوكّلين عليه بَأْسا وأسْقاما ؛ ونشهد أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله للمتّقين إمامًا ، وفضّله على النبيّين إجلالًا وإعْظاما، وكمّله بالسِّمات المُكرّمات، والصِّفات المشرّفات، مما لايُضاهى ولا يُسامى ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الذين شَرُفُوا إضافةً إلى نسبه الشريف وآنْضماما؛ ورضى اللهُ عن أصحابه

الذين عَرَفُوا الحقَّ فبذَلُوا فى إقامته ٱجتهادًا وٱهتمامًا، صلاةً تُجمِّل ٱفتتاحا وٱختتامًا، وتُجْزِل إرباحًا و إنعامًا؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فشِيَمُنا العـدلُ والإنصاف، لمن له بِيُمنِ الأَعْراق ٱتصالٌ وبحُسْـن الأخلاقِ ٱتِّصاف؛ ومن كَرَمِنا الفضـلُ والإسْعاف ، لمن لاخفاءَ فى تعيُّنه لتصـدير التقـديم وتكريرِ التكريم ولا خِلَاف؛ ومِن سَجايانَا الجميـلةِ أن لا تُضاع حقوقُ مَنْ هو فى الزَّهادة والعُبُودِيَّة إمامٌ،لألسنة الأيَّام،بجلَاه الحسَنة إقرارٌ وٱعتراف ، ولمزايانَا جميـلُ المحافظةِ ، وجليلُ الملاحظةِ، لمن توكَّل على الله حقَّ التوكُّل فله ٱنتصارٌ بالله تعالىٰ وٱنتِصَاف: لأنَّه العريقُ الأسْلاف، الرَّفيق بالضِّعاف، الحقيقُ بتوفيرالتوفيق الذى له بحَركاتِه المباركةِ ٱكْتِناف ، المُطيقُ النُّهوض بأعباءِ الرِّياسة: لأنَّ للقلوب علىٰ محبَّتِه ٱئتـلاف، السَّـبُوقُ إلىٰ غاياتِ الغَـلَوات الذى تخُـفُّ به فى بُلوغ آماد الإسعادِ من الله تعالىٰ أَلْطاف، والصَّدوقُ النيَّةِ مع الله تعالىٰ فكَمْ والىٰ لنعمائِه الزيادةَ والاْستِئْناف .

وكان المجلسُ العالى الشيخىّ،الإمامِىّ، الكبيرىّ،العالِمىّ، العاملِىّ، الأوحَدِىّ، القُدْوىّ، الوَرَعِىّ، الزاهِدىّ، الناسِكىّ،الخاشِعىّ، السالِكىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، القَوامىّ، العلَّامىّ، النِّظامىّ: جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلماء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء ، قُدوة المشايخ ، مربِّى السالكين ، كنزُ الطالبين، موضِّح الطريقه، مبيِّن الحقيقه، شيخُ شيوخ العارفين، بركَةُ الملوك والسَّلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين ، إسحٰق ٱبن الشيخ المرحوم فلان ــ أدام الله النفْعَ ببركاته ــ هو المفوِّض أموره إلىٰ ربِّه ، المُعرِضَ عن الدنيا بباطنه وقلْبِه، المتعوِّض بما عندَ الله من فضله فما زال الإيثارُ من شأْنه ودأْبه ، إلىٰ إخوانه وصَحْبـه ، فهو من الذين يُطْعمون الطعامَ علىٰ

حُبِّه، ويُلْهَمُون من العمل المبْرُور إلى أقرَبِه من الله وأحَبِّه، ويقُومون الظَّلامَ مع أولياء الله المخلصين وحِزْبه، ويستديمونَ الإنعام من الله تعالى بالإحسان إلى عباده ففرْعُهم لأصلِهم فى صُنْعهم مُشْبِه، ويستسْلمُون لأحكام الله تعالى وكلُّهم شاكرٌ لرَبِّه، على حُلْو القضاء ومُرِّه صابرٌ على سَهْل الأمر وصَعْبه، سائرٌ بالصِّدق فى شَرْق الوجُود وغَرْبه، مثابرٌ على الحق فى عَجَم الخلق وعُرْبه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُوصِّل الحقُوقَ إلى مستحقِّيها، ويُجمِلُ الوثُوقَ بمن تتجمَّل المراتبُ الدينيةُ منه بترقِّيها ـ أن يفوّض إلى المُشار إليه مشيخَةُ الخانقاه السعيدة الناصرية بسِرْيَاقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريَّة، والبلاد الشاميَّة والحلبية، والفُتوحات الساحليَّة، وسائر الممالِك الإسلاميَّة المحروسة، على عادَته فى ذلك وقاعدتِه ومعْلُومه، وأن يكون ما يخُصُّ بيتَ المال المعمُور من ميراث كلِّ من يُتوفَّى من الصُّوفية بالخانقاه المذكورة للمشارِ إليه، بحيث لا يكونُ لأمين الحكم ولا لدِيوان المَوارِيث معه فى ذلك حديث، وتكُون أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلَّق بالمَشْيخة وأحوال الصوفيَّة راجعةً إليه، ولا يكُون لأحدٍ من الحكّام ولا من جهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذلك حديثٌ معه، ولا يشْهَد أحدٌ من الصُّوفية ولا ينْتَسب إلا بإذنه على العادةِ فى ذلك، ويكون ذلك معدُوقًا بنظره .

فليعُدْ إليها عَوْدا حميدا، وليُفِدْ من الإصلاح مالم يزَلْ مُفيدا، وليعتَصِمْ بالله تعالى مَوْلاه فيما توَلّاه وقد آتاه اللهُ تثْبِيتا وتسْديدا، وليُشْهِد بها من القوم المبارَكين مَنْ [كان] عَوْدُه قبل الصوم عيدا؛ وهو أعزّه الله تعالى المسعودُ المباشَره، المحمودُ

المُعاشَره، المشهودُ منه اعتمادُ الاجتهادِ فى الدنْيا والآخره؛ المعهودُ منه النَّفْع التـامّ ، فى فُقَراء مصْرَ والشام ، فكم أثْر الخير وآثَره، وكَثَّر البِرَّ وواتَره ، ويَسَّر السـيرَ الحسَن الذى لم يبْرَح لسانُ الإجماع شا كِرَه .

ونحن نُوصيه عملًا بما أمر الله تعالىٰ به رسولَه صلى الله عليه وسلم فى كتابه المُبين، بقوله وهو أصـدقُ القائلين : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِين ﴾ وإن كنا نتحقَّق ما هو عليه من العلم والدِّين ، والحُكْم الرَّصين، والزُّهد والورَع اللذين نحن منهما علىٰ بيِّنة ويقِين، باتِّباع شرُوطِ الواقفِين، والإمتاع بالعَوَارف أولياءَ الله العارفِين : فإنَّه ما زال حيثُ حَلَّ فى جميع الآفاق ، واصلًا للأرْزاق، مُواصلا بالأشْواق ، شاملًا بالإرْفَاق ، عاملًا بالحـقّ فى إيصال الحُقوق لذَوِى الاستحقاق . ونأمُرُهم أن يكونَ لهم علىٰ تكريمه اتِّفاق ، وفى مُتابعتِه اجتِماع واتِّساق ؛ فإنَّه شيخُ الطَّوائف ، وإمامٌ تُقْتَبَس منه اللَّطائف، وتُلتمَس منه الهدايةُ فى المَواطِن والمَواقف ؛ والله تعالىٰ يمتِّع ببركاتِه الأُمّه ، ويَسْمَع منـه فى الخَلَوات لنا الدَّعواتِ التى تكونُ لأوراده المقبولةِ مفتَتِحةً ومُتِمَّه ، ويصِـلُه بعِنايتِه التى تقيِّد الهَمَّ وتؤيِّد الهمَّه ، ويجعـله حيثُ كانَ للفقراء نعمةً وبيْنَ الناس رَحْمَه؛ والعلامةُ الشريفةُ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه .

الضـــربُ الخـامس

(من أرباب الوظائف بالدِّيار المصريَّة بالحضرة ـ أربابُ الوظائف العاديَّة ، وكلُّها تواقيعُ)

وهى علىٰ طبقات :

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَنْ يُكتَب له فى قَطْع النصف بالمجلس العالِى ، وهو رئيسُ الأطبَّاء المتحدِّثُ عليهم فى الإذن فى التطبُّب والعلاج والمنْع من ذٰلك وما يجرِى هـــذا المَجْرىٰ)

وهذه نسخة توقيع برياسة الطِّبّ ، وهى :

الحمــدُ لله مُؤْتِى الحكمةِ مَنْ يشاءُ من عباده ، ومُعْطِى أمانةِ الأرواح مَنْ تَرقَّى فى حفظها إلىٰ رُتْبة ٱجتهاده ، وجاعلِ عِلم الأبْدان أحدَ قِسْمَي العلمِ المُطْلَق فى حالَي ٱجتماعِه وٱنْفراده ، وموفِّق من جعل نُصْح خلقِ الله فيـــه سبَبًا لسعادة دُنْياه وذَخيرةً صالحةً ليوم مَعادِه ، ومُبلِّغ[1] مَنْ كان[دائبًا] فى إعانة البريَّة علىٰ طاعةِ ربِّها بدَوام الصِّحَّة غايةَ مَرامه وأقْصىٰ مُراده ، ورافِع رتْبــةِ مَن دَلَّ ٱختيارُه وٱختبارُه علىٰ وُفُور علْمِه ونُجْح علاجِه وإصابةِ رأْيه وسَدادِه .

نحمَــده علىٰ نِعَمه التى خصَّتْ بنِعَمِنا من كَمُل فى نَوْعه وفضْــلِه وحَسُن فى علْمــه وعمَلِه قولُه وفعلُه ، وجمعَ من أمانةِ وظيفتِه ومعْرفتِها ما إذا جَلَس فى أسْنَى مناصبها قيل : هذا أهْلُه .

(١) فى الأصل "ومقلب ... ... يداوم الصحة" الخ تأمل .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِق البصائر، بأضْوائهــا، وتُفْــرِق الضمائرُ، باخلاصها من أدْوائِهــا، وتُغــدِقُ بيُمْنِها أنواءُ التوفيق فتتأرَّج رياضُ الإيمــان بين رُوائِها وإرْوائِها. ونشهَدُ أنَّ محمدا عبــدُه ورسولُه الذى أنارتْ ملَّتُــه، فلم تخْفَ علىٰ ذى نَظَر، وعلَتْ أدِلَّتُه، فلم ينَلْها مَنْ فى باع رَوِيَّته قِصَر، وبهرتْ مُعجِزاتُه فلو حاولت الأنفاسُ حصْرَها أفناها العِيُّ والحَصَر؛ صــلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانُوا لأَدْواء القــلوب عِلاجًا، ولسَلْسبِيل الإيمــان مِزَاجا، وللبَصائر السائرةِ فى دُجىٰ الشُّبهات سِراجا؛ صلاةً دائمةَ الإقامه، متصلةَ الدَّوام إلىٰ يوم القِيَامه؛ وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعــد: فإنَّ صِناعة الطِّبّ علم موضوعُها حفظُ الأبدان النَّفيسه، ومقصُودُها إعانةُ الطبِيعــة علىٰ حمَــاية الأعضاءِ الرَّئيسه؛ ومَدارُها الأعَمّ، علىٰ معْرِفة العَوارِض وأسبابِها، ومَدْرَكُها الأتمّ، الوقُوعُ على الصواب فى معرفة الجُسوم وأوْصابِها؛ وحينئذٍ تتفاوتُ رُتَب أهلها عنــد تشَعُّب مَدَارِكها، واختلافِ مَسالِكها؛ وتَشابُه عِلَلِها، والتباس صَوابِها بخَلَلِها؛ إذ لا يميِّز ذٰلك حقَّ تمييــزِه إلا مَنْ طال فى العــلم تبحُّره، وحَسُن فى رُتَب هذا الفنّ تصَدُّره؛ وطابَق بين نَقْله وعلاجِه، وعَرَف حقيقةَ كل مركَّب من الأدوية ومُفْرَدٍ بعيْنه واسمِه وصفتِه ومِزَاجه؛ وتكرَّرَتْ عليــه الوقائعُ فعرَفَها دُرْبةً وأحكمها نَقْلا، ولُقِّب بشِرْعة التقوىٰ إذ كان الإقدامُ على النفُوس قبــل تحقُّق الداء والدَّواء مذمُومًا شرعًا وعقْــلا؛ ولذٰلك تحتــاجُ إلىٰ رئيسٍ ينْعِم فى مَصالحها نَظَرَه، ويُجْمِل فى منافِعها وِرْدَه وصَــدَره؛ ويعتبِر أحوالَ أهلِها بمِعْيار فضــلِه، ويُلزِم الداخلَ فيها ببُلوغ الحَــدّ الذى لابُدّ منه بينَ أرباب هــذا الشأن

---

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ.

وأهلِه ؛ و يَعْرِف لأكابرهذا الفنّ قدرَ ما منَحَهم الله من عِلْمٍ وعَمَل ، ويَبْسُط رجاءَ المبتدئِ إذا كمَّل نفسه حتَّى لا يكُون له فيها بغيركمال الاَستحقاق طمَعٌ ولا أمَل .

ولمـا كان المجلسُ السامِى ، القاضِى ، الأجلُّ ، الحكِيم ، فلانُ الدين : هو الذى بلَغ من العلم غايةَ مُراده ، وآحتوىٰ من هذا الشان علىٰ ما جمَع به رُتَب الفاضلين فيه علىٰ آنفراده ؛ فلو عاصَرَه «الرئيسُ» لآعتمَد عليه فى كُلِّيَّات قانونِه ، أو « الرازىّ » لعلم أن « حاوِيَه » من بعض فنونه ؛ قد حَلَب هذا العِلْمَ أشْطُرَه ، وأكمل قراءةَ هذا الفنّ رُموزَه وأسطُره ؛ وحلَّ أسرارَه الغامِضــه ، وآرتَوىٰ من سُحُب رُموزِه بأنْواءٍ لم يَشِم غيرُ فكرِه بُروقَها الوامِضــه ؛ وأسلَف من خِدْمة أبوابنـا العاليةِ سفَرا وحضَرا ما آقتضَىٰ له مزِيَّةَ شُـكْرِه ، وتقاضَىٰ له مزِيدَ التنبيــه علىٰ قَدْره والتنويهِ بذِكْره ؛ وحُمِد فيــه الفَرِيدان : صحةُ نقْلِه وإصابةُ فِكْرِه ، وعُلِم أنه جامعُ علوم هذه الصِّناعة فلا يشِذُّ منها شيءٌ عن خاطره ولا يَغيب منها نَقْل عن ذُكْره .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال شِهابُ فضله لامِعا ، وسَحاب بِرّه هامعا ـ أن يكونَ فلان متولِّىَ رياسة الأطباء بالديار المصرية علىٰ عادة مَن تقدَّمه .

فلْيباشرْ هــذه الرياسةَ ناظرا فى مَصالحها ، مُطْلِعا من شِهاب فضله مايَزِين أُفُقَها زينــةَ السماء بمصابيحها ، متفقِّدا أحوالَ مباشِريها ، متلَمِّحا أحوال المستقِلِّ بأعبائها والداخلِ فيها ، سالكًا فى ذٰلك سبيلَ مَن تقدَّمَه من رُؤسائها ، حاكمًا فى أُمورها بمـا جَرتْ به العادةُ المستقرّةُ بينَ أكابرِها وعلمائِها ؛ مُطارِحا مَن قَدُمت هِجرتُه فيهـا بمـا يقتضِى له مراجعةَ أصُوله ، مُلْزِما من ظهر قصُورُه فيها بالتدرب إلىٰ حدٍّ لايُقْنَع منــه بدُون حصُوله ؛ مجيبًا فى الإذن لمن أظهرَ الاَستحقاقُ صِــدقَ ما آدّعاه ، قابلًا فى الثُّبوت من مشايخ هــذه الصِّناعة من لايَشْهد إلا بمـا علمه ولا يُخْبِر من التدرُّب

إلا بمـا رآه ووعاه، متحرّيًا فى الثبوت لدينه، آذنًا بعد ذلك فى التصرُّف إن ترقَّ علمُه باستحقاقه إلىٰ رتبة تعيينه؛ وليُعْطِ هذه الوظيفةَ حقَّها من تقديم المبرِّزين فى علمِها، وتكريم مَنْ منحه الله درجتىْ نقلِها وفهْمِها، وتعليم مَن ليس عليه من أدواتها المعتبَرة غيرُ وَسْمِها وآسْمِها؛ ومَنْع من يتطرّق من الطُّرُقية إلىٰ معالجَةٍ وهو عارٍ من رِدائهـا، وكَفِّ يَدِ من يتهجَّم على النفوس فيما غَمُض من أدوائها قبل تحقُّق دَوَائها؛ وآعتبارِ التقوىٰ فيمن يتصدّىٰ لهذه الوظيفةِ فإنَّها أحدُ أركانِها، وآختيارِ الأمانةِ فيمن يصْلُح للاطلاع على الأعضـاء التى لَوْلا الضرورةُ المبيحةُ حَرُم الوقوفُ علىٰ مكانِها؛ وليكُنْ فى ذٰلك جميعِه مجانبا للهَوىٰ، ناويًا نَفْعَ الناس فإنما لِآمرئٍ مانوىٰ؛ والله تعالىٰ يحقِّق له الأمَل، ويسَدِّده فى القول والعمَل، بمَنِّه وكرمه! .

قلت : وربَّمـا آفتتح توقيعها بـ«أما بعدَ حمد الله» .

وهذه نسخةُ توقيع برياسة الطِّب، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىِّ، كُتِب بها لـ«شهاب الدين الحكيم» فى المحرّم سنة تِسْع وسبعمائة، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله حاسمِ أدْواء القلوب بلطائفِ حِكْمتـه، وقاسمِ أنواعِ العُلوم بينَ مَنْ كُلٍ آستعدادُهم لقَبُول ما آقتضَتْه حِكمةُ قسمتِه؛ وجاعلِ لباس العافيةِ من نِعَمه التى هى بعدَ الإيمـان أفضـلُ ما أفاضَ على العبد من بِرِّه وأسـبغَ عليه من نِعمتِه، والمنَزِّلِ من القُرءان ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين قُلْ بفضْـلِ اللهِ وبرحمَتِـه؛ ومقرِّبِ ما نأىٰ من الفضائل علىٰ مَنْ أسْرىٰ إليها علىٰ مَطايَا عزْمِه وسَرىٰ لتحصيلها علىٰ جِياد هِمَّتـه، ومُلْهِمِ آرائنا بتفويض أمانةِ الأرواح إلىٰ من أنفَق فى خدمةِ الطبيعة أيَّامَ عُمْره فكان بلوغُ الغايةِ فى علْمِها نتيجةَ خِدْمته؛ والصـلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ الذى شرحَ اللهُ بالهـدىٰ صدُورَ أمَّته، وخصَّـه منهم بأعلامِ كلِّ علم وأئمته، وجلَا

بيقينِ مِلَّته عن كلِّ قلبٍ ماران عليه من الشّك وغُمَّته، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَماهم من الزَّيْغ والزَّلَل ما بَجَّر الهُـدىٰ لهم من جَوامِـع الكَلِم وأفاضَ التُّقىٰ عليهم من أنوار عِصْمتِه ـ فإنَّ أَوْلىٰ الأمور أن يُعتَمَد فيها علىٰ طَبِيبِها الخبير، ويُصانَ جوْهَرُها عن عَرَض العَرْض علىٰ غير ناقِدِها البصير، وتُحْمىٰ مَوارِدُها عمن لم يعرِف كيف يجتَنِب مَواقِـعَ التكدير، وتُرفَع كوا كِبُهـا عمَّن لم تُدرِك أفكارُه دقائقَ الحوادِث وحقائقَ التأثير ـ أمْرُ صِناعة الطِّب التى موضُوعها الأبدانُ القائمة بالعِباده، والأجسامُ القائمة بمـا يتعاقَبُ عليها من الحوادث والزِّياده؛ والنُّفوس التى ما عنْها إنْ حصَل فيها التفريطُ بدَلٌ ولا عِوَض، والأرواحُ التى إنْ عَرَض الفَناءُ لجوْهَرِها فلا بَقاءَ بعدَه للعَرَض؛ والطبيعةُ التى إن خُدِمت علىٰ ما يُحَب نَهَضت علىٰ ما يجب بالصِّحَّة حقَّ النُّهوض، والأمزِجةُ التى إن نفرَتْ لعدم التأنِّى فى سياستِها أعجزَتْ مَنْ يرُوض.

ولذٰلك تفتقِر علىٰ كَثْرة أربابها، وتحتاجُ مع غَزارة المتمسِّكين بأسبابها؛ وتُضْطَر وإن آندفعت الضروراتُ بكَثْرة مُتْقِنيها، وتتشوَّفُ وإن وُجِد الجمُّ الغفير من المتلبِّسين بأدَواتِها والمُتبحِّرين فيها ـ إلىٰ رئيس يُنْعِم فى آعتبارِ أكفائها النَّظَر، ويَدْفَع عن رُتْبتِها بتطَرُّق غيرأهلِها الغِيَرْ، ويَعْرِف من أحوالِ مُباشِريهـا ما لا يَكْفِى فى خُبْرها الخَبَر؛ فلا يَقْبَل إلا مَنْ عَلِم مِقدارَ عِلْمه، ووَثِق مع الحِفْظ بصحَّة فَهْمه؛ ورضِىَ عن خُبْره فى الطِّبِّ وآجتِهاده، وآعتَبرمنـه كل نوع تحتَ أجناسه المتعدِّدة علىٰ حِدَتِه وآنفراده؛ وجاراه فى كُلِّيَّات الفنّ فرآه فى كلِّ حَلْبـةٍ راكضا، وطارَحه فى فُصول العلم فوجدَه بحَمْل أعباءِ ما تفرَّع منها ناهِضا؛ واختَبر دُرْبتَه فوجَدَها موافقة لتحصيله، مطابِقةً لمـا حَواه من إجمالِ كلِّ فنٍّ وتفصيله؛ وتتبَّع مواقِعَ دِينه فوجدَها مَتِينه، ومواضعَ أمانتِـه فألْفاها مَكِينه، وأسـبابَ شفقَتِه ونُصْحِه فعرَف أنها علىٰ ما جَمَع من الادوات الكاملةِ مُعِينه؛ ويتعيَّن أن يكونَ هـذا «الرئيس» فى أوانِه،

و «الرازىّ» فى زمانه ، و «الفارابىّ» فى كونه أصلا تتفرّعُ فنونُ الحِكَم من أفنانه ؛ عِلاجُه شفاءٌ حاضر ، وكلامُه[1] نجاةٌ من كل خَطَر مُخامِر ؛ وتدبيره للصحّة تقويم ، وتصفّحه تثقيفٌ لعلماء الصِّناعة وتسليم ، ودُروسُه ذخائرُ يُنفِق من جواهر حِكَمِها كلُّ حكيم .

ولما كان المجلس العالى الصَّدْرىّ ، الشّهابىّ : هو المرادَ بالتعيُّن لهذه الوظيفه ، والمقصودَ بما أُشيرَ إليه فى ٱستحقاق هذه الرتبة من عبارةٍ صريحةٍ أو كنايةٍ لطيفه ؛ وأنّه جمع من أدَوات هذا الفن ما ٱفترَق ، وٱحتوىٰ علىٰ أُصُوله وفُروعه فاجتمعَتْ علىٰ أولَوِيّته الطوائفُ وٱتّفقتْ علىٰ تفضيله الفِرَق ؛ فلو عاصَره «أبقراط» لقَضىٰ له فى شَرْح فُصوله بالتّقْدِمه ، ولو أدْرَك «جالينوس» لٱقتدىٰ فى العِلاج بما علّمه ؛ مع مباشرةٍ ألّفت بين الصحّة والنُّفوس ، وملاطفةٍ أشرقَت مواقعُ البُرء بها فى الأجساد إشراقَ الشُّموس ؛ وٱطِّلاع يعْرِف به مبْلغَ ما عنـد كلِّ متصَـدٍّ لهذه الصناعة من العـلم ، وتبحُّرٍ فى الفنون لا يُسـلِّم به لأحدٍ دَعْوى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو فى الحقيقة عينُ السِّلْم - فرُسِم بالأمر العالى أن يستقرّ فلانٌ فى رياسة الأطبّاء الطبائعيّـة بالديار المصرية والشام المحروس ، علىٰ عادته وعادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك ، ويكون مستقلًّا فيها بمفرده .

فلْينظُرْ فى أمر هذه الطائفة نظَراً تبرأ به الذمّه ، ويحصُـل به علىٰ رضا الله تعالىٰ ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشَّفَقة على الأُمّه ؛ ويُعطى به الصناعة حقَّها ، ويُطْلِق من يدِ مَنْ تطاوَلَ إليها بغير أهليّةٍ رِقَّها ؛ ويصُونُ النفوسَ من إقْدامِ من تقدّمَ بغير خِبْرةٍ كاملةٍ عليها ، ويذُبُّ عن الأرواح تطرُّقَ من يتطرّق بغير معْرِفة وافرةٍ إليها ؛ فإنّ فارطَ التفريط فى النفُوس قلّ أن يُستدْرَك ، ومن لم تجتَمِع فيه

(١) لعل الأنسب "وكلاءته" .

أدواتُ المعرفة التامة والدِّين فما ينبغى له أن يدخُل فى المعالجة قَبْل الكمال وإن دخَل فلا يُتْرَك ؛ فإنَّ من لازم صَلاح الأرواح صَلاحَ الأجساد ، وإنَّ الداءَ الذى لا دَواءَ له أن تكونَ العلَّة فى وادٍ والمعالجةُ فى وادٍ ؛ فلا يَقْبَل فى التزكِيَة إلا مَن يثِق بدِينه كوثُوقه بعلْمه ، ولا يُصرِّف أحدًا فى هذه الصناعة إلا الذين زَكَتْ أعمالُهم قبل التزكيه ، وليَشْفَعها بالامتحانات التى تُسْفِر[1] وجُوه الوثُوق بالأهليـة عن ألم دقائقها المُنْكيه ، فإنَّ العِيان شاهِد لنفْسه ، ومن لم تنفَعْه شهادةُ فعلِه فى يومِه لم يَنْفَعه غيرُه فى أمسه ؛ ولا يُمض فيها حُكْمًا قبل استكمال نِصابِ الشَّهاده ، وقبل التثبُّت بعد كمالها : فانَّ المعالجةَ محاربةٌ للداء والموتُ بجَهَالة المحارِب له شَهاده ؛ وليأْمُرْ من أُلجِئَ إلىٰ معالجـة مرض لا يعرِفُه بمتابعة مَنْ هو أوفَقُ منـه بالتقديم ، ومراجعة من هو أعلم منه به : فانَّ الحوادث قد تختلِف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾. وملاكُ الأمور تقوى الله فليجعلها حُجَّته فيما بيْن الله وبيْنَه ، والافتقارُ إلىٰ توفيقه فلْيَصْرِفْ إلىٰ ذٰلك قَلْبَه وعيْنَه ؛ والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه وصيةُ متطبِّب طبائِعىّ ، أوردها فى "التعريف" قال :

ولْيتعرَّفْ أوَّلًا حقيقةَ المرض بأسبابه وعَلاماتِه ، ويَستقصِ أعراضَ المريض قبل مُداواتِه ، ثم ينظُرْ إلى السِّنّ والفَصْـل والبلد ؛ ثم إذا عرفَ حقيقةَ المرض ، وقدْرَ ما يحتَمله المزاجُ من الدواء لمـا عَرَض ؛ يشْرَع فى تخفيف الحاصـل ، وقَطْع الواصل ، مع حِفْظ القُوىٰ . ولا يهاجِم الداء ، ولا يستَغْرِب الدَّواء ؛ ولا يَقْدَم على الأبدان إلا بما يُلائِمها ، ولا يبعد الشـبه ، ولا يخرُج عن جادَّة الأطبَّاء ولو ظنَّ

(١) لعله تسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتّى يقوى لديه الظنّ ويتبصّر فيه برأى أمثاله . وليتجنّب الدّواء، ما أمكنه المعالجةُ بالغذاء، والمركّبَ، ما أمكنه المعالجةُ بالمفرد، وإيّاه والقياسَ إلّا ماصحّ بتجريب غيره فى مثل مزاج من أخذ فى علاجه، وماعرض له، وسنّه، وفصله، وبلده، ودرجة الدّواء . وليحذَرْ من التجْربة، فقد قال أبقراط وهو رأسُ القوم : إنها خطَر . ثم إذا آضطُرّ إلى وصف دواء صالح للعلّة نظر إلى مافيه من المُنافاة وإن قلّتْ، وتحيّل لإصلاحه بوصف يصْلُح معه، مع الآحتراز فى وصْف المَقادير والكمّيات والكيفيّات، فى الآستعمال والأوقات، وما يتقدّم ذلك الدواءَ أو يتأخّر عنه . ولا يأمر باستعمال دواء، ولا مايُستغرب من غذاء، حتّى يحقّق حقيقتَه، ويعرف جديدَه من عتيقه : ليعرف مقدارَ قوّته فى الفعل . وليُعلَمْ أنّ الانسان هو بنْيةُ الله وملعُونٌ من هَدَمها، وأن الطبيعةَ مكافية وبُؤْسى لمن ظلَمها، وقد سلّم الأرواح وهى وديعةُ الله فى هذه الأجسام، [فليحفَظْها وليتقِ اللهَ ففى ذلك جميعُ الأقسام] (١) وإيّاه ثم إيّاه أن يصفَ دواءً ثم [يكون هو الذى] (١) يأتى به، أو يكون هو الذى يدُلّ عليه، أو المتولّى لمناولته للمريض ليستعمله بين يدَيْه، وفى هذا كلّه لله المنّة ولنا إذ هدَيْناه له وأرشدْناه إليه .

* * *

وهذه نسخة توقيع برياسة الكحّالين (٢) .

---

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بياض بالأصل .

الضـــرب السادس
(من أرباب الوظائف بالديار المصـــرية)

زعمـاء أهل الذمة

ويُكتب لجميعهم تواقيعُ فى قَطْع الثلُث بألقـابهم السابقـةِ مفتَتحةً بـ«أما بعـد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضربُ علىٰ ثلاث وظائف :

الوظيفـــــة الأُولىٰ
(رآســةُ اليهود)

وموضوعُها التحدّثُ علىٰ جماعة اليهود والحُكْمُ عليهم، والقضاءُ بينهم علىٰ مقتضىٰ دينهم وغيرُ ذٰلك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل أنَّ الموجودين من اليهود ثلاثُ طوائفَ : وهم الرَّبّانيُّون، والقَرّاءُون، والسامِرة . وقد جرتِ العادةُ أن يكون الرئيسُ من طائفةِ الرَّبَّانيِّين دونَ غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاثِ .

وهذه نسخةُ توقيع برآسة اليهودِ ، من إنشاء القاضى مُحيي الدين بنِ عبْد الظاهر، وهى :

أما بعـدَ حمد الله الذى جعـل ألْطافَ هذه الدولة القاهرةِ تَصْطفِى لِذمَّتها من اليهود رئيسًا فرئيسا، وتختـارُ لقَوْمها كما آختار من قَوْمِه مُوسىٰ، وتُبْهج لهم نُفُوسـا كُلَّمـا قدّمتْ عليهم نَفيسا؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ النبيّ الأميّ، والرسولِ الذى أجملَ الوصـيَّةَ بالمِلِّيّ والذِّمِّيّ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما هَطَل وَبْلِيّ،

وما نزل وَسْمِيّ - فإنَّ مَعْدَلة هذه الدولة تكتنف المِلَل والنِّحَل بالاحتياط، وتُعُمُّهم من إنصافها و إسعافها بأوفرِ الأنصباء وأوْفى الأقْساط؛ وتَلُمُّهم من حادث الزمن إذا اشتطَّ ومن صَرْفه إذا شاط، وتضُمُّهم كما ضَمَّت البُنُوّة إلىٰ جَناح النُّبوّة الأسباط؛ لا تزالُ ترقُب الإلَّ والذِّمه، فى المسلمين وأهلِ الذِّمّه، وتَقْضى لهم بحُسْن الجِيرَة ورعاية الحُرْمه؛ وتُبِيحهم من أمرِ دينِهم ما عليه عُوهِدُوا، وتَمنَحُهم من ذٰلك ما عليه عُوقِدُوا؛ وتحفظ نواميسَهم بأحْبارٍ تُحمَدُ موادُّهم إذا شُوفِهوا وتَحْسُن مَرْآهم إذا شُوهِدُوا : من كل إسراءِيليّ أجمَلَ للتوراةِ الدِّراسه، وأحسن لأسْفارِ أنبيائه اقتباسَه وأجملَ التماسَه، ومن نَبَّهَتْه نباهتُه للتقدمة فما طَعِم اجتهادَه يومًا حتَّى صار وجْهَ الوَجَاهة فى قومه ورأسَ الرِّآسه؛ فأصبح معدُومَ النظير، معدودًا منهم بكثير، وموصُوفا بأنه فى شَرْح أسفارٍ عِبرانية حَسَنُ التفسير؛ واستَحَقَّ من بين شيعته أن يكون رأسَ الكَهَنه، وأن تُصْبِح القلوبُ فى مجامعهم بحُسْن منطقه مرتَهَنَه، وبان للجَهالة بتثقيفه لشيعته تحجُّبُ عقائدِهم عن أن تغْدُوَ ممتَهَنَه.

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بَهْجَه، ولجَسد هذا التفويض مُهْجَه، ولمَادح هذا الثناء العريضِ لَهْجَه؛ ولعينِ هذا التعيين غَمْضَها، وليد هذه الأيادى بَسْطَها وقَبْضَها؛ ولأبكار أفكارِ هـذه الأوصافِ متقاضيَها ومُقْتَضَّها، ومَنْ أُدْنِيَتْ قِطافُ النعماء لِيَدِ تَقْدمته «علىٰ غيظِ مَن غُصَّ منها» واجتنىٰ غَضَّها - اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يميِّز علىٰ أبناء جنْسه حقَّ التمييز، وأن يُجازَله من التنويه والتنويل أجلَّ ما جِيز.

ورُسم بالأمرِ الشريف - لازال يَختارُ فيُجْمِل الاختيار، ويغْدُو كالغيْث الذى يعُمُّ بنفعه الرُّبَا والوهادَ والأثمـارَ والأشْجار - أن تُفوّض إليه رآسةُ اليهود علىٰ

ٱختلافهم : من الرَّبَّانيين، والقَرَّائين، والسامرةِ بالديار المصريَّة حَماها الله وكَلأَها.
فلْيجعَلْ أسبابهم بالتَّقْوىٰ تَقْوىٰ، وغُروسَهم بالتدبير لاتَذْوىٰ ؛ ومقاصِدَهم لايُمازِجُها شكٌّ ولا شَكْوىٰ، ولْيُنْزِل عليهم مِنًّا مَنًّا يسليهم صنعا حتَّى لا يُفارقُوا المَنّ والسَّلْوىٰ؛ ولْيتق الله فيما يذَرُه ويأْتيــه ، ويُحسِنْ فى ٱجتلابِ القُلوب وٱختلابِها تأَتِّيه ؛ وإيَّاه والتِّيهَ حتَّى لايقال : كأنَّه بعدُ لم يخْرُجْ من التِّيه .

وجماعةُ الرَّبانِيِّين فهم الشَّــعْب الأَكْبَر، والحِــزْب الأَكْثَر؛ فعامِلْهــم بالرِّفق الأَجْدىٰ والسِّرِّ الأجدَر، ولكَونك منهــم لا تَمِلْ معهم علىٰ غيرِهم فيما به من النفس الأمَّارةِ تُؤمر .

وجماعةُ القَرَّائين فهم المعروفُون فى هذه المِلَّه، بملازَمة الأدِلَّه، والاْحتراز فى أمْر الأهِلَّه، فانصِبْ لأمرِهم من لم يتَولَّهْ حين يتَولَّه ؛ ومَنْ كان منهم له معتقَدٌ فلا يُخْرَج عن ذٰلك ولا يُحْرَج، ولا يُلْجَم منهم بِلجامٍ من نار إنكار من فى ليلة سَبْتِه [بيته] عليه لايُسْرج .

والسامرةُ فهــم الشَّعب الذين آذَن التنظيف أهلَه بحُروبِه ، ولم يكُ أحدُهــم لَمطْعمٍ لــكم ولا مَشْرَب بآكُولِه ولا شَرُوبِه ؛ فمن قَدَرت علىٰ ردِّه بدليــلٍ من مذهبِك فى شُروق كل بحثٍ وغُروبه، فاردُدْه من مَنْهَج تحيُّده عن ذٰلك وهُرُوبه، وإلا فقل له : ياسامِرِىُّ بَصُرتُ بمــا لم تَبْصُروا به . ولتكُنْ تستكملُ فيهم بالبَتّ، وٱرفُق بهــم فإن " المُنْبَتَّ لا أرضًا قَطَع ولا ظَهْرًا أبقَىٰ " فإيَّاك أن تكونَ ذٰلك المُنبَتّ، ومُرْهم بملازمة قوانينِهم كَيْلا يَعْدُوَ أحدٌ منهــم فى السَّبْت ؛ وٱجعلْ أمورَ عقُودِهم مستَتِبَّه، وأحسِن التحرِّىَ والتحريرَ لهم فى إتقان كل كِتْبــه ؛ ولا تَخْتَرْ إلا الأعيــان، من كل خَزَّان ودَيَّان ؛ ومن كان له من داوُدَ عليه السلام لُحْمَــةُ نَسَب،

وله به حُرمةُ نِسَب ، فارْعَ له حَقَّه ، وأَصْحِبْــه من الرِّفق أكرَمَ رُفْقه . والجزيةُ فهى لدمائِكم وأولادِكم عِصْمه ، وعلىٰ دِفَاعها لا دافعِها وَصْمه ، ولأجلها ورَدَ : «مَنْ آذَىٰ ذِمِّيًّا كنْتُ خَصْمَه» ، وهى أَلَمُّ من السيف إجَارَه ، وهى أجرةُ سُكنىٰ دار الإسلام كما هى لأستحقاقِ المنفعةِ بها إجارَه ؛ فأدُّوها ، وبها نفُوسَكم فادُوها ، ﴿ وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾ ، فعُــدّوا ألطافَ الله بها ولا تَعْدُوها ؛ وداوِمْ علىٰ مَهْ ، زجرا لتارك عَلامه ؛ ومن قَصد منها خَلاصه ، فقل له فى الملإ : ماذَا خَلاصَهْ ؛ ومَنْ ركَن فى أمرِها إلى الإخْلاد والإخْلال ، وسكَن إلى الإهْمــال ، ولم يرضَ بأنَّ رايةَ الذِّلَّة الصفراءَ علىٰ رأسِه تُشَال ؛ فأوْسِعْه إنكارا ، وألزمه منها شِعَارا ؛ وإن قامَ بنصْرِه منهم مَعْشَرٌ خَشِن فأرِهم بعــد العَلامة خُشْكارا ؛ وخُذْهم بتجنُّب الغِشِّ الذى هو للعهد مغَيِّر ومغَيِّب ، واكفُفْ من هو بمــا يُنافيه معيَّر ومعيَّب ؛ وأما من هو مجيبٌ لذٰلك فهو لقصده محبَّب ، وانقلْ طِباعَهم عن ذٰلك وإن أبتْ عن التناقل فأنت ما تتلو : ﴿ قُلْ لا يَسْتوِى الخَبِيثُ والطَّيِّب ﴾ . وقد عُلِم أن الذى تتعاطَوْنه من نفْخ فى البُوق إنمــا هو كما قلتم للتَّذْكار ، فاجتهــدُوا أن لا يكونَ لتَــذْكار العِجْل الحنيــذ الذى له خُوار ؛ هذه وصايَانَا لك ولهم فقُلْ لَهم : هذه مَوْهِبَة الدولة وإحسانُها إليكم ، ولُطْفها بكم وعاطِفَتُها عليكم ، وبَصِّرهم بذٰلك كلَّمَا تلا إحسانُنا إليهم : ﴿ يَا بَنِى إِسْرائِيلَ آذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أنعمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع برآسةِ اليهودِ أيضا :

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ أنْ جعل مُلاحظةَ هذه الدولة القاهرةِ لجميع المِلل ناظره ، وإحسانَها لا يُغْفِلُ مصلحةً لأُولِى الأديان غائبــةً ولا حاضِرَهْ ؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد الذى جعل ذمَّتَه وعهْدَه وَفِيَّيْنِ لكل نَسمة مؤمنةٍ وكافره ــ فإنَّ الله تعالىٰ لمــا مَدّ

رُواقَ عدلِ هذه الأيام الشريفة علىٰ كل مُعاهِد: من متقرِّبٍ ومُتباعِد، وساوىٰ بينَهم فى النظر الذى صدَق الرأى وصدَّق الرائد ـ ٱقتضىٰ جميلُها أن يُسْهَم لكلٍّ من أهل الذمة أوفَرُ نصيب، وأن لا يُقال لأحدٍ منهم من الإجحاف ما يُرِيب، وأنْ لا تكونَ أمورُهم مُضاعَه، ولا تَعَبُّداتُهم مُراعَه؛ ولا شَرائعُهم غير مَصُونه، ولا أحكامُهم عارية [عن] حُسْن مَعُونه؛ وكانتْ جماعةُ اليهود وإن كانُوا أُولِى غَىّ، وصَدَّق النصارىٰ فيهم وصدَّقُوا فى النصارىٰ من أنَّهم ليْسُوا علىٰ شَىّ؛ لا بدّ لهم من مباشِرٍ يأخذُهم بالأمْرِ الأحْوَط، والنامُوسِ الأضْبَط، والمَراسِيم التى عليهم تُشْرَط؛ وكان الذى يُخْتار لذٰلك ينبغى أن لايكونَ إلا من أكْبَرِ الكَهَنة وأعْلَمِ الأحبار، وممن عَرَف من دينهم ما لأجْلِه يُصْطفىٰ ولِمثْله يُخْتار؛ وممّن فيه سياسةٌ تحجُزه عن المضارّ، وتحجُبُه عن الاَسْتِنْفار؛ وكان فلانٌ الرئيس هو المتميِّزَ بهذه الأوصاف علىٰ أبناء جنْسِه، وله وازِعٌ من نفسه، ورادِعٌ من حُسْن حَدْسِه، وخدمةٌ فى مهمّات الدولة يستحِقُّ بها الزيادةَ فى أُنْسِه؛ وهو من بين جماعتِه مشهورٌ بالوَجَاهه، موصوفٌ بالنَّباهه؛ ذوعِبْرانيّةٍ حسنةِ التعبير، ودِراسةٍ لكُتُب أهل ملَّته علىٰ مافيها من التغْيِير ـ ٱقتضَىٰ جميلُ الاَختصاص المُنِيف، أن يُرْسَم بالأمرِ الشريف ـ لابَرِح يرقُب الإلَّ والذِّمّه، ويَرْعىٰ للعاهَدِين الحُرْمه ـ أن تُفوّض إليه رآسةُ اليهودِ الرَّبّانيين والقرّائين والسامِره، علىٰ عادةِ من تقدّمه.

فلْيباشِرْ ذٰلك مستوعِبًا أمورَهم كلَّها، مستودَعا دِقَّها وجِلَّها، مباشرًا من أحوالهم ما جرَتْ عادةُ مثله من الرُّؤساء أن يباشِرَ مِثْلَها؛ غيرَ مفرِّط فى ضبْط نامُوسٍ من نَوامِيس المِلّه، ولا مُغْفل الإنكارَ علىٰ من[1] يتجاوَزُ ذٰلك إلىٰ مَوارِد الهَلَكه؛ ومَنْ فعل مايقضِى بنقْض عهْده، فعليه وعلىٰ مستَحسِنِه له من المقاتَلة مايتَّعظ به كلُّ مَنْ يفعلُ

(١) فى الأصل ممن . تأمل .

ذلك من بعده ؛ بحيث لا يخرج احدٌ منهم فى كنيسته ولا فى يهوديّته ولا فى منع جزيته عن واجب معهود، ومن خالف فوراءَ ذلك من الادب ماتقشعرّ منه الجلود؛ وما جعلهم الله ذمّةً للسلمين إلا حَقنًا لدمائهم، فلا يمحُها أحدٌ منهم فتجتمع له شماتةُ أهل الأديان من أعدائهم بأعدائهم ــ والوصايا كثيرةٌ وإنما هذه نُخبتُها الملخّصه، وفيها من حساب الإحسان إليهم ماتغدو به أيّام الإمهال لهم ممحّصه؛ والله يوفّقه فى كل تصرّف مرغوب، وتأفف من مثله مطلوب؛ بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لرئيس اليهود أوردها فى "التعريف" وهى :

وعليه بضمّ جماعته، ولَمّ شَمْلهم باستطاعته؛ والحُكْمِ فيهم علىٰ قواعد ملّته، وعوائد أئمتـه ، فى الحكم إذا وَضَح له بأدلّته ؛ وعقودِ الأنكحة وخواصّ مايعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يُفتقَرُ فيهـا إلى الرضا من الجانبَيْن فى العقد والطّلاق؛ وفيمن أوجبَ عنده حكمُ دينِه عليه التّحريم ،وأوجبَ عليه الانقيادَ إلى التحكيم؛ وما آدّعَوْا فيه التواتُرَ من الأخبار، والتظافُر على العمل به ممـا لم يُوجَد فيه نصٌّ وأجمعتْ عليه الأَحْبـار؛ والتوجُّه تِلقاءَ بيت المَقْدس إلىٰ جِهةِ قِبْلتهم ، ومكان تعبُّد أهل ملّتهم ؛ والعمل فى هـذا جميعه [بمـا شرَعه موسىٰ الكليم ، والوقوف معـه][1] إذا ثبت أنه فعـلُ ذلك النبىّ الكَرِيم ؛ وإقامةِ حُدود التّوراة علىٰ ما أنزل اللهُ من غير تحريف، ولا تبديلِ كلمةٍ بتأويلٍ ولا تصريف؛ وآتباعِ ما أَعطَوْا عليـه العَهْد ، وشَدُّوا عليه العَقْد؛ وأبقَوْا فيه ذَمَاءهم، ووَقَوْا به دِماءَهم؛ وما كانت تحكم به الأنبياءُ والرّبّانيُّون، ويُسلّم إليه الإسلاميُّون منهم ويعبّر عنه العِبرانيُّون ؛ كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزَمُهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٣ وهى لازمة لاستقامة الكلام.

من حُكْم أمثالهم أهلِ الذمّة الذين أُقِرّوا فى هـذه الدِّيار، ووقاية أنفُسهم بالخضُوع والصَّغَار ، ومدِّ رءوسهم بالإذعان لأهْل مِلَّة الإسـلام، وعدمِ مضايقتهم فى الطُّرُق وحيثُ يحصُـل الآلتباس بهم فى الحَمَّام، وحملِ شِـعار الذمّة الذى جُعِل لهم حِلْيةَ العَمائم، وعُقِد علىٰ رءُوسهم لِحفْظِهم عَقْدَ التَّمـائم ، وليعْلَمْ أنَّ شِعَارَهم الأصفر، مُوجَب لئلا يُراق دمُهم الأحمر، وأنَّهم تحتَ عَلَم علامتِه آمنُون ، وفى دَعَة أصائله ساكنُون ، وليأخُذْهم بتجديد صَبْغه فى كلِّ حين ، وليأمُرْهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمُها علىٰ رءُوسهم تَبِين ، وعدمِ التظَاهُر بمـا يقتضِى المناقضه ، أو يُفْهَم منه المُعارضه ، أو يدع فيه غير السَّيْف وهو إذا كَلَّم شديدُ العارضه ، وله ترتيبُ طبقات أهل مِلَّته من الأحبار فمَنْ دُونهم علىٰ قدر آستحقاقهم ، وعلىٰ مالا تَخْرُج عنه كلمةُ آتِّفاقهم ، وكذٰلك له الحديثُ فى جميع كنائس اليهودِ المستَمِرة إلى الآن ، المسـتقرّةِ بأيديهـم من حِينِ عقـد عهْد الذمة ثم ما تأكَّد بعدَه لطُول الزمان ، من غير تجديد متجدِّد ، ولا إحداث قدرٍ متزَيِّد ، ولا فعلِ شىءٍ ممـا لم تُعقَد عليـه الذمه ، ويُقِرّ عليهم سلَفَهم الأوّلَ سلفُ هـذه الأمه ، وفى هذا كفايةٌ وتقوىٰ الله وخوفُ بأسنا رأسُ هذه الأمور المهِمَّه .

* * *

[وصـيـة رئيس السـامرة][1] :

ولا يَعْجِز عن لَمِّ شَعَث طائفته مع قِلَّتهم ، وتأمينِ سَرْبهم الذى لو لم يؤمَّنوا فيه لأكلهم الذئبُ لذلَّتهم ، وليصُنْ بحسن السُّلوك دِماءَهم التى كأنمـا صُبِغتْ عمـائمُهم الحمرُ منها بماطُلّ ، وأُوقِد لهم منها النارُ الحمراءُ فلم يتَّقُوها إلا بالذُّل، وليعْلَمْ أنَّهم شُعبةٌ من اليهود لا يخالِفُونَهم فى أصـل المعتَقَد ، ولا فى شىء يخرُج عن قواعد دينِهم لمن

(١) لم يعنون فى الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤ .

انتقد؛ ولولا هذا لما عُدُّوا فى أهل الكتاب، ولا قُنِع منهم إلا بالإسلام أو ضَرْب الرِّقاب؛ فليَبْنِ علىٰ هـذا الأساس، [ولْيُنْبِئْ قومَه أنَّهم منهم وانما الناس أجناس](١) وليلتزِم من فُروع دِينه مالا يخالِفُ فيه إلا بأن يقول لا مِسَاس؛ وإذا كان كما يقول: إنه كهُرُون عليه السلام فليلتزِم الجَدَد، وليُقِمْ من شَرْط الذمّة بما يُقيمُ به طُولَ المُدَد؛ وليَتمسَّك بالمُوسويّة من غير تبديل، ولا تحريفٍ فى كلِمٍ ولا تأويل؛ وليُحْصِ عملَه فإنه عليه مَسْطور، وليَقِف عند حدِّه ولا يتعدَّ طَوْره فى الطُّور؛ وليحْكُمْ فى طائفته وفى أنكحتِهم ومواريثِهم وكنائسِهم القديمـةِ المعقُودِ عليها بما هو فى عقد دينـه، وسببٌ لتوطيد قواعده فى هذه الرتبة التى بَلَغها وتوطينِه .

الوظيفةُ الثـانيــة

(بَطْرِكيَّة النَّصارىٰ المَلَكيَّة، وهم أقدمُ من اليَعاقِبَة)

وقد تقـدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل أنهم أتْباع ملكا الذى ظهر قديمًا ببلاد الرُّوم، وأنَّ الروم والفَرَنج كلَّهم أتباعُه، وبالديار المِصريَّة منهـم النَّزْر اليسير، ولهم بَطْرَك يخصُّهم .

وهذه نسخة توقيع لبَطرك المَلَكية :

أمَّا بعد حمد الله مُنوِّع الإحْسان، لأُولِى الأدْيان، ومؤَصِّله ومفرِّعه لكلِّ طائفةٍ ولكل إنْسان، والصلاةِ علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى أبادَ اللهُ به مَنْ أبادَ وأبانَ من عهده وذِمَّته من أبان ـ فإنَّ الطائفةَ المَلَكيَّة من النصارىٰ لمَّا كانتْ لهم السابقةُ فى دِينهم، ولهم أصلُ الرآسـة والنَّفَاسة فى تعيينهم؛ وما برِحَتْ لهم فى الكِلاءَة والحِفْظ قَدَمُ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤ .

السابقه، ورُتبةٌ بملوكهم الرُّومانيَّة سامِقَه، وما زالَتْ لهم خِدَمُ الدول إلىٰ أغْراضها مُتساوِقةً ومُتسابِقه؛ ولهم جِوارٌ مشكور، وتبتُّلٌ مَشْهور، وعليهم وَصايَا من المُلُوك فى كل وُرُود وصُدُور؛ ولهم من نُفُوسهم مَزَايا تستوجِبُ احترامَهم، وتستدْعِى إكرامَهم؛ وكان لابُدَّ لهم من بَطْريرك يُلاحظ أحوالَهم أتمَّ المُلاحظه، ويستدْعى لهم من الدَّوْلة أعظَمَ محافَظه؛ ويحفَظ نَوامِيسَ قِبَلِهم، ويُحْسِن دِراسةَ أنَاجيلِهم؛ ويعرِّفُهم قواعدَ معْتقَدَاتهم، ويأخذُهم بالدُّعاء لهذه الدولةِ القاهرة فى جميع صَلَواتِهم؛ ويجمَعُهم علىٰ سَدَاد، ويفرِّقُهم علىٰ مُرَاد. وكان البَطْريرك فلان هو المُتَّفَق بين طائفتِه علىٰ تعيينِه، والمُجمَعَ علىٰ إظهار استحقاقِه وتَبْيينه؛ والذى له مَزَايَا لو كان فيه واحدةٌ منها لكَفَتْه فى التأهيل، ولرفَعَتْه إلىٰ مَنْصبه الجليل. فلذٰلك رُسِم... ... ـ لابَرِح يُعْطِى كلَّ أحد قِسْطه، ويدْخُل كلٌّ لأبوابِه ساجدًا وقائلًا حِطَّه ـ أن يباشِرَ بَطْرَكيَّةَ النصارىٰ المَلَكية علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه من البَطارِكة السالفةِ بهذه الدولة.

فلْيَحُط أمُورَها الجزئيَّة والكليَّه، والظاهِرةَ والخفيَّه؛ وليأخُذْهم بما يلزَمُهُم من قوانينِ شِرْعتِهم، وكلِّ مايُرِيدون من حُسْن سُمْعتِهم؛ وأما الدِّيرة والبِيَع والكنائس التى للمَلَكية فَمَرجِعها إلىٰ صَونه، وأمْرُها مردُودٌ إلىٰ جميل إعانته وعَوْنه؛ والأساقفةُ والرُّهْبان فهم سَوادُ عيْن معتقَدِه، وخُلاصةُ منتقَدِه؛ فلا يُخْلِهم من تبْجِيل، وحُسْن تأهيل؛وتتَقَدَّم إلىٰ مَنْ بالثغور من جماعتك بأنْ لا يدْخُل أحدٌ منهم فى أمرٍ مُوبِق، ولا فى مُشْكِل موثِق؛ ولا يَميلون كلَّ الميل إلىٰ غريبٍ من جنسهم، وليكُن الحذَرُ لغَدِهم من يومِهم وليَوْمِهم من أمْسِهم؛ ولا يُشاكِلونَ رسولًا يرِد، ولا قاصدًا يَفِد؛ وطريقُ السلامة أوْلىٰ ماسُلِك، ومن تركَ الدخولَ فيما لايَعْنيه تُرِك؛ هذه جملةٌ من الوصية لامعةٌ أفلح واهتدىٰ مَنْ بها استَنار، ورَشَد من لها استشار؛ والله يوفِّقك فى كل مَقْصد تَرُوم، ويجعَلُك بهذه الوصايا تقُول وتقُوم.

*
* *

وهذه وصية لبَطْرَك المَلَكية أوردها فى "التعريف" وهى :

وهو كبيرُ أهلِ ملّته، والحاكمُ عليهم ما امتدَّ فى مُدّته؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التحريم والتحليل، وفى الحُكْم بينهم بما أُنْزِلَ فى التوراة ولم يُنْسَخ فى الإنجيل؛ وشريعتُه مبنيَّة على المُسامَحة والاحتمال، والصبرِ على الأذى وعدمِ الاكتراث به والاحتفال؛ فخُذْ نفْسَك فى الأوّل بهذه الآداب، واعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب؛ فتخَلَّقْ من الأخلاق بكلِّ جميل، ولا تستكْثِرْ من متاع الدنيا فإنَّه قليل؛ وليُقدِّم المصالحةَ بين المتحاكمَيْن إليه قبل الفصل البَتّ فإنَّ الصلح كما يقال سيِّد الأحكام، وهو قاعدةُ دينِه المَسيحىّ ولم تخالِفْ فيه المحمَّديَّةُ الغراءُ دينُ الإسلام، ولينظِّفْ صدُورَ إخوانه من الغِلِّ ولا يقْنَعْ بما ينظِّفُه ماءُ المعمُوديَّة من الأجسام؛ وإليه أمرُ الكنائس والبِيَع، وهو رأسُ جماعتِه والكلُّ له تبَع؛ فإيَّاه أن يتخذَها له تجارَةً مُرْبِحه، أو يقْتطِعَ بها مالَ نصرانىٍّ يقرِّبُه فإنه ما يكونُ قد قرّبَه إلى المَذْبَح وإنما ذَبَحه؛ وكذلك الدِّياراتُ وكل عُمْرٍ[1]، والقَلَالىُّ فيتعيَّن عليه أن يتفقَّد فيها كلَّ أمْر؛ وليجتَهِدْ فى إجراء أمُورها على ما فيه رَفْع الشُّبُهات، وليعلَمْ أنهم إنما اعتزَلُوا فيها للتعبُّد فلا يَدَعُها تُتَّخذ متنزَّهات؛ فهُم إنما أحدَثُوا هذه الرَّهبانيَّةَ للتقلُّل فى هذه الدنيا والتعفُّف عن الفُروج، وحبَسُوا فيها أنفُسَهم حتَّى إنَّ أكثرهم إذا دخَل فيها ما يعُودُ يبقى له خُرُوج؛ فليحذَرْهم من عَمَلِها مصْيدةً للمال، أو خَلوةً له ولكن بالنساء حرامًا ويكون إنما تنزَّه عن الحَلَال؛ وإيَّاه ثم إيَّاه أن يُؤوِىَ إليها من الغُرباء القادمين عليه مَنْ يُرِيب، أو يكْتُمَ عن الإنهاء إلينا مشكِلَ أمرٍ ورَد عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس".

بعيد أو قريب ، [ثم الحَذَر الحَذَر من إخفاء كتاب يرِد عليه من أحدٍ من الملوك ،] (١)
ثم الحذَر الحذَر من الكتابة إليهم أو المَشْى علىٰ مثل هذا السُّلوك ، ولْيتجنَّب البحرَ
وإيَّاه من اقتِحامه فإنه يَغْرق ، أو تَلَقِّ ما يُلقِيه إليه جَناحُ غرابٍ منه فإنه بالبَيْن
يَنْعَق ؛ والتقوىٰ مأمورٌ بها أهلُ كلِّ مِلَّه ، وكلُّ موافِق ومخالِف فى القِبْله ؛ فليكُنْ
عملُه بها وفى الكِنَايةِ ما يُغْنِى عن التَّصْريح ، وفيها رضا اللهِ تعالىٰ وبها أَمَرَ المَسِيح .

الوظيفــــــة الثــالثة

(بَطْرَكيّــة اليَعَاقِبَــة)

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل الخُلْف فى نِسْبتِهم : فقيل إنهم أَتْبَاع
ديسقرس ، وإنه كان ٱسمه فى الغِلْمــانيَّة يَعْقُوب ، وقيل أتباع يعْقُوب البَرْذَعانى ،
وقيل غيرُ ذٰلك ، والأصحُّ عند المؤرِّخين الأول . وبَطْرَكهم يحكم علىٰ طائفةِ اليَعاقِبة ،
وجميعُ نَصارىٰ الحبشــة أتباعُه ، وفى طاعتِه ملكُ الحبشــةِ الأكبر ، وعنه تصْــدُر
ولايتُـــه .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارىٰ اليعاقبة :

أما بعدَ حمد الله الذى أظهرَ دِينَ الإسلام علىٰ الدِّين كلِّه ، وأصدَرَ أمورَ الشرائع
عن عقْد شَرْعِه وحَلِّه ، وصيَّر حكمَ كلِّ ملةٍ راجعًا إلىٰ حُكم عَدْله ؛ والشهادةِ له
بالوحدانيَّة التى تدُلُّ علىٰ أنه الواحدُ الأحدُ الذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ وليس شىءٌ كمثله ،
والصــلاةِ والسلامِ علىٰ ســيدنا محمدٍ أعظَمِ أنبيائه وأكرمِ رُسْــلِه ، وأشرف ولَد آدم
ونَسْلِه ، المصطفىٰ فى عِلْم الله من قَبْله ، ووسيلتِه فى التوراة من غرور الشيطان وخَذْله ،
والذى أطفأ اللهُ ببركته نارَ نُمروذَ عن إبراهيم وجعلها بَرْدًا وسلاما وأجَلَّه من أَجْله ،

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٥ .

وبَشَّر به عيسى بنُ مريمَ عبدُ الله وٱبنُ أَمتِه وأقرّ موسىٰ بنُ عِمرانَ كليمُ الله بفضْلِه ؛ وعلىٰ آله الطيِّبين الطاهرين من فُروعِ أصله، وأصحابِه سامعى قوله، وتابِعِى سُبْله ـ فإنَّ الله تعالىٰ لمـا ٱرتضَى الإسلامَ دينا ، وأفضىٰ بالمُلْك إلينا وقضىٰ لنا فى البَسيطة بَسْطةً وتمكينا ، وأمضىٰ أوامِرَنا المطاعةَ بشُمولِ اليُمْن شِمَـالًا ويَمِينا ـ لم نزل نُولِى رَعَايانا الإحسانَ رِعايةً وتوطِينا ، ونُديم لأهل الذمَّة منّا ذِمَّةً وتأمِينا ؛ وكانتْ طائفةُ النَّصارىٰ اليَعَاقبةِ بالديار المصرية لهم من حِينِ الفتح عَهْدٌ وذِمَام، ووصيَّةٌ سابقةٌ من سـيِدِنا رسولِ الله عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ ولا بُدَّ من بَطْريرك يرجِعُون إليه فى الأحكام، ويجتمِعُون عليه فى كلِّ نَقْض وإبْرام .

ولمـا كانتِ الحضرةُ الساميةُ الشيخُ الرئيسُ، المبجَّل، المكرَّم، الكافى، المعزَّز، المفخَّر، القِـدِّيس، شمسُ الرِّآسـة ، عِمادُ بَنِى المَعْمُودية، كنْزُ الطائفة الصَّليبيَّه، ٱختيار الملوك والسلاطين، فلان : وفَّقه الله،هو الذى تجرّدَ وترَهَّب، وأجهَدَ رُوحَه وأتْعَب ، وصامَ عن المَأْكَل والمَشْرَب، وساحَ فأبْعَـد ، ومَنَع جَفْنه لذيذَ المَرْقَد ، ونهض فى خِدْمة طائفتِـه وجَدّ ، وخفَضَ لهم الجَناحَ وبَسَط الخَـدّ، وكفَّ عنهم اليَدّ، وٱسـتحَقَّ فيهم التبجيلَ لمـا تميّز به عليهم من مَعْرِفة أحكام الإنجيل وتفرّد ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُلْقِيَ إليه أمرَ هـذه الفِرْقة ونُفَوّض، ونُبَدِّلهم عن بطريكهم المتوفَّى ونُعوِّض .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا برِحت مراسِمُه مُطاعه، ومَراحِمُه لإنزال أهل كرَمِها بيعتُهـا مرعيَّةٌ غيرُ مراعه[(1)] ـ أن يقدَّم الشـيخُ شمسُ الرآسـة المذكور على المِلَّة النصرانية اليَعْقوبيَّـة ، ويكونَ بَطْريركا عليها، علىٰ عادةِ مَن تقـدّمَه وقاعدتِه بالديار المصرية، والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادتُه بها إلىٰ آخرِ وقت .

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وانما الفعل راعه وروّعه أى أفزعه .

فليسلُك سبيلَ السَّوا ، ولا يَمَلِّكْ نفْسَه الهوىٰ ، وليتمسَّك بخوف الله تعالىٰ إن فَعَل أو نوىٰ ، أو أخبر عن الحوارِيِّين أو رَوىٰ ؛ فالعليمُ مراقِب ، والعظيم مُعاقِب ؛ والحكيم أمَرَ أُولِي العقُول بالفكرة فى العَواقب ، والحاكم غَدًا بحقُوق الخلق غدًا يُطالِب ؛ والظُّلْم فى كلِّ ملَّة حرامٌ والعدلُ واجِب ، فلْيستوفِ الإنصاف بين القَوِىّ والضعيف والحاضر والغائب ؛ وليقْصِد مصلحتَهم وليعتمِدْ نصيحتَهم ، وليُمْضِ علىٰ ما يدينُون به بُيوعَهم وفُسوخهم ومَوارِيثهم وأنكحتَهم ؛ وليقْمَع غاوِيَهم ، وليَسْمع دعاوِيَهم ؛ وليُلْزِمْهم من دينهم بما وجدُوه ، فظنُّوه وٱعتقدُوه ؛ وليَتَّبِع سبيلَ المعْدَلة فلا يعدو [ها] عائدةٌ إليه أمورُ القِسِّيسين والرُّهبان ، فى جميع الدِّيَرة والكنائس بسائر البُلْدان ، ولا يُعتَرض عليه فيما هو راجِعٌ إليه من هذا الشان . ولا يقدِّم منهم إلىٰ رُتبة إلا من ٱستصْلَحه ، ولا يَرْجِ إلىٰ منزلة إلا من رشَّحه إليها ورَجَّحه ، متَّبِعا فى ذٰلك ما بيَّنه له العدلُ وأوضَحه ، مرتجِعَ الرتبة ممن لم تكُن الصدُور لتَقْدمتِه منْشَرِحه ، مجمعا لغيره فى الإيرادِ والإصْدار علىٰ ٱعتماد المَصْلحه ؛ وقد أوضحنا له ولهم سبيلَ النجاة فليقتَفُوه ، وعرَّفناهم بالصواب والخِيرَة لهم إن عرَفُوه ، وليسألِ اللهَ ربَّه السلامةَ فيما له يفْعل وبه يَفُوه ؛ والعلامة الشريفة أعلاه .

⁂

وهذه نسخة توقيعٍ لبَطْرك النصارىٰ اليعاقِبة ، كُتِب به للشيخ المؤتَمَن ، فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهى :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى نَشَرتْ لواء دولتنا فى الآفاق ، فأَوَىٰ كلُّ أحد إلىٰ ظلِّه ، وبسطَتْ معدِلتَنا فى البلاد على الإطلاق ، فمنحَت الخاصَّ والعامَّ من بِرِّنا بوابله وطَلِّه ، وٱصطنعَتْ بذمَامها ملوكَ المِلَل وحُكَّامَ الطوائف فنطقُوا عن أمرِنا

فى عَقْد كلّ امر وحَلّه ؛ والشهادةِ بوحدانيّته التى تُنْجِح أملَ المخلص فى قوله وفِعْله ، وتفتَح لمن تمسَّك بعُرْوتها أبوابَ النجاة فيُصبِح فى أمانٍ فى شأنه كلّه ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً فى مُحْكَم الذكر ونَقْله ، المبعوثِ رحمةً للعالمين زيادةً فى رِفْعة مقامه وتقريرا لفَضْله ، المنعوتِ بالرأفة والرحمة فى محكم كتابه الذى لا يأتيه الباطلُ من بيْنِ يدَيْه ولا من خَلْفه ولم يستَطِعْ أحدٌ أن يأتِيَ بسُورةٍ من مِثْله ؛ وعلى آله وصَحْبه الذين اتَّبعُوا طريقتَه المُثْلىٰ وسلَكُوا مَناهجَ سُبْله ، وعقَدُوا الذِّمم لأهل المِلَل واستوْصَوْا بهم خيراً لما عَرَفُوه من سَعة حِلْمه وبَذْله ــ فإنّه لما كانت الطائفةُ المَسيحيّه ، والفِرقة اليعقُوبيّه ؛ ممن أوتْ تحتَ ظلّنا الذى عَمَّ الوجُود ، وسكنَتْ فى حَرَم ذِمامنا الذى سار نَبَؤُه فى التَّهائم والنُّجُود ، وتمسّكتْ من طاعتنا واتِّباع أوامِرنا بما سلَف لها من الهُدَن والعُهود ؛ وكانتْ أحكامُهم مما يحتاجُ إلى من يدُور عليه أمرُها فى كلّ حال ، وتنتظِمُ به مصالحُ شملها ليبلُغُوا بها الآمال ، ويأمنوا فى معتقدهم فيها من الإخْلال ؛ وأنه إذا مات بَطْريرك لهم لا بُدّ أن نَرسُمَ لهم بغيره ، ليعتَمِدوا فى ذٰلك ما يتقدَّمُ به إليهم فى نَهْيه وأمْره ؛ ويسْلُكَ بهم فى أحكامهم ما يَجِب ، ويعرِّفَ كُلّا منهم ما يأتى ويذَر ويفعَلُ ويجتَنِب ؛ ويفصِلَ بينهم بمقتضىٰ ما يعتقدُونه فى إنجيلهم ، ويُمشِّى أحوالَهم علىٰ مُوجَبِه فى تحريمهم وتحليلِهم ؛ ويزجُر من خَرج عن طريقه ، ليرجعَ إلىٰ ما يجبُ عليه أسْوَة رفيقه ؛ ويقضى بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، ويبيِّن لهم قواعدَ دِينهم فى كل نقْض وإبرام ؛ فلما هلَك الآنَ بَطرِيكُهم مع مَنْ هلَك ، رَسمْنا لهم أن ينتخِبُوا لهم من يكونُ لطريقتِه قد سَلَك ؛ وأن يختاروا لهم من يسُوس أمورَهم علىٰ أكمل الوُجُوه ، لنرسُم بتقديمه عليهم [فيقوم] بما يؤمِّلُونه منه ويرتَجُوه (١) .

(١) حذف نون الرفع رعاية للسجع .

وكان الحضرة السامية ، القدّيس ، المبجّل ، الجليل ، المكرّم ، الموقّر ، الكبير ، الدّيّان ، الرئيس ، الرّوحانى ، الفاضل ، الكافى ، المؤتمَن ، جرجس بن القسّ مفضّل اليعقوبى ، عمادُ بنى المعموديّه ، كنزُ الأمّة المسيحيّه ، منتخَب الملة الصليبيّه ، ركن الطائفة النصرانيّه ، آختيارُ الملوك والسلاطين : أطال الله تعالىٰ بهجتَه ، وأعلىٰ علىٰ أهل طائفته درجتَه ، قد حازَ من فضائل ملّته أسْماها ، وصَعِد من درجات الترقّى علىٰ أبناء جنْسه أعلاها ؛ فنزّه نفسَه عن مشاركة الناس ، وتقشّف بين أهله فى المأكل واللّباس ، وتركَ الزواج والنّكاح ، وآشتغل بعبادته التى لازمَ عليها فى المَساء والصّباح ، وألقىٰ نفْسه إلى الغاية فى الآطّراح ، وساحَ بخاطره فى الفِكرة وإن لم يكن بجسَده قد ساح ، وآرتاض بتَرْك الشّهوات مدّةَ زمانه ، وآطّرح المَلاذَّ لتعلو درجتُه بين أهله برِفْعة مكانه ، وآشتمل من علوم طائفته على الجانبِ الوافر ، وعرَف من أوامرهم ونَواهيهم ما تَقَرّ به منهم العينُ والناظر ، وطلَب من الربّ الرءوف الرحيم القوّةَ علىٰ أعماله ، وسأل الإلٰهَ أن يزيّن لأهل ملّته مايأتى به من أقواله وأفعاله ؛ فوقع آختيارُهم عليه ، وسألوا صدقاتنا الشريفةَ إلقاء أمْرهم إليه .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازال إحسانُه إلىٰ سائر العالَم واصلا ، وجُودُه لكل طائفةٍ بارتياد أكفائها شامِلًا ـ أن يقدّم حضرةُ القدّيس المؤتمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقُوبية ، من الملة النصرانية ، بالديار المحروسة والجهاتِ الجارى بها العادة ، ويكون بَطْريركا عليهم علىٰ عادة من تقدّم فى ذٰلك ومستقَر قاعدته إلىٰ آخر وقت ، قائمًا بما يجب عليه من أمور هذه الملّة ، باذِلًا جهْدَه فى سلوك ماينبغى مما يَنْظِم عليه أمرَه كلَّه ؛ فاصلًا بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، متصرفًا علىٰ كل أُسْقُفٍّ وقَسٍّ ومَطْران فى كل نقْض وإبرام ، مالكًا من أمور القِسّيسين والرُّهبان والشّمامسة الزّمام ، مانعًا مَنْ يرومُ أمرا لا يُسوّغه وَضْع ولا تقرير ، جاعلا نظرَه عليه

منتقدا بالتحرّز فى التخيير، زاجراً من يخرج منهم عن اتّباع طريق الشريعة المطهّرة التى يَصح بها عقدُ الذمّه، ملزِما بسُلوكها فى كل ملمة فإن ذلك من الأمور المهمّه؛ آمِرا مَنْ فى الدِّيَرة من الرُّهبان بمعاملة المـارّين بهـم والنازلين عليهم بمَزِيد الإحسان ومَدِيد الإكرام، والقيامِ بالضِّيافة المشروطة من الشَّراب والطَّعام .

ولْيتحدّثْ فى قِسمة مَوَاريثهم إذا ترافعُوا إليه، وليجعَلْ فصلَ أمورِ أهلِ طائفته من المهـمّات لديه؛ ولْيُشْفِقْ على الكبير والصـغير، وليتنزّهْ عن قليل مَتاعِ الدنيـا والكثير، وليزهَدْ فى الجليـل قبل الحَقير . وفى اطِّلاعه علىٰ أحكام دينـه ما يكْفيه فى الوصـيَّه، وما يرفعُـه بين أبناء جنسه فى الحيـاة الدنيويَّه؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه .

*
* *

وهذ نسخة توقيع لبَطْرك اليَعاقِبة، وهى :

أما بعـدَ حمد الله علىٰ أنْ جعل من إحسانِ هذه الدولة لكلِّ مِلِّىّ وذِمّىّ نَصيبا، وفوّقَ إلىٰ أهـداف الرِّعايةِ سهْما فسَهْما مامنهـا إلا ماشُوهِد مُصيبا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد الذى أحْمَدَ اللهُ له سُرَى فى صَلاح الخلائق وتأْوِيبا - فإنه لمّـا كان من سجايَا الدولة القاهرةِ النظرُ فى الجزئيَّات والكلِّيَّات من أمور الأمّه، وتجاوَزَ ذٰلك إلىٰ رِعايةِ [أهل] الذمّه، لاسيَّما مَن سبقَتْ وصيةُ سيد المرسلين عليهم من القِبْط الذين شرّفهم رسولُ الله - صلى الله عليـه وسلم - بوُصْلته منهـم بأمِّ إبراهيم ولده عليـه السلام، وقَبولِ هديَّتهم التى أبقَتْ لهم مزيّةً علىٰ مَمَرِّ الأيّام؛ وكانوا لابُدّ لهم من بِطْرِيك يحفظ سَوَامَهم، ويَضْبِط خواصّهم وعَوامَّهم؛ ويجمعُ شَمْل رُهْبانهـم، ويُراعى مصـالحَ أديانِهـم؛ ويحرّرُ أمورَ أعيـادِهم ومَواسِمهم فى كل كَنِيس، ويدعُو للدولة القاهرة فى كل تقْدِيس؛ وتُجْعَل [له] الخِيرةُ فى ضَبْط أمور البِيَع والدِّيَرة واختيار الأساقفـة

والكُهّان ، وحفْظ النواميس المسيحيَّة فى كل قُرْبان ؛ ولا يصلُح لذٰلك إلا من هو بَتُول، وكلُّ خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحقُّ بذٰلك أنَّ هذا الأمرَ إليه يئُول .

ولما كان البطْرِيرك فلان هو المجمَعَ علىٰ صلاحيته للبَطْرَكية علىٰ شَعْبه ، والتَّقْدِمةِ علىٰ أبناء المعمُوديَّة من شِيعته وصَحْبِه ، لما له من علْم فى دينه ، ومعرفةٍ بقوانينه ، وضَبْطٍ لأفانينه ؛ وعقْلٍ يمنعُه عن التظاهر بما يُنافى العهُود، ويُلافى الأمرَ المعهُود ــ آقتضىٰ جميلُ الآختيار أنه رُسِم بالأمر الشريف ــ لابَرِح يضَع كلَّ شىء فى موضعه من الآستحقاق ، ويُبالغُ فى الإرفاد لأهل المَلّ والإرْفاق ــ أن يباشِرَ بَطْرَكيَّةَ جماعةِ اليَعَاقبة بالديار المِصريَّة، علىٰ عادةِ من تقدّمَه فى هذه الرتبه، ومن آرتقىٰ قبْلَه إلىٰ هذه الهَضْبه .

فلْيباشِرْ أمرَ هذه الطائفه، وليجعل مَعونَته بهم طائفَه؛ وليَضْبِط أمورَهم أحسَنَ ضبْط وأجملَه ، وأتمَّه وأكملَه ؛ ولْيأْخُذْهم بما يلْزَمهم من القيام بالوظائف المعْرُوفه، والعُهود المألُوفه؛ وليُلزِمْهم بما يَلزَمُهم شرعا من كَفٍّ عن تظاهرٍ ممنُوع، أو تَعاطى محذورٍ منكورِ الشرور والشروع؛ أو تنكُّبٍ عن طريق الآستقامه، وكما أنَّهم عدَلُوا عن الإسلام لايَعْدِلُون عن السَّلامه .

وأمَّا أمورُ الدِّيَرة والكنائسِ فأمرُها إليكَ مردُود ، فاجْرِ فيها على المعْهُود، وأقِم فيها عنك من يُحْسِن النِّيابه ، ومن يُجْمِل الإنابَه؛ ومن يستجْلِب الدعاءَ لهذه الدولة القاهرة فى كل قُدّاس ، ويُعَدِّد التقدّس والأنْفاس ؛ وعلىٰ رُهْبان الأَدْيِرة للساجد والجوامع وظائفُ لاتُمنعُ ولا تؤخَّر، ولا تُحوجُ أحدًا منهم أنَّه بها يُذَكَّر؛ وليشْرُطْ علىٰ أهلها أنهم لا يأْوُون طليعةَ الكُفّار ، ولا من يحصُل منه إلا خيرٌ وإلا يحصُل الإضرار؛ وليأمُرْهم بُحسن الجِوَار، والقيامِ بما هو موظَّف عليهم للسلمين السُّفّار

وغير السُّفَّار، هــذه نُبْذة من الوصايا مُقْنِعه، ولو وُسِّع القولُ لكان ذا سَـعَه؛ وفى البطْريرك من النَّباهة ما يُلْهِمه الصَّواب، والله يجعل حسنَ الظنِّ به لا ٱرتياءَ فيه ولا ٱرتياب، بمنّه وكرمه! ، والاعتماد ... ...

⁂

وهذه نسخةُ توقيع لبَطْرك اليعاقبة، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى خصّ كلَّ ملّةٍ منّا بمِنّه، وأقامَ بأوامرِنا على كلِّ طائفةٍ مَنْ نرضاه فنُحقِّق بإحساننا ظَنَّه، وجعل من شِيَمِنا الشريفةِ الوصيةَ بأهل الكتاب عملًا بالســنّه . والشهادةِ بوحدانيّته التى نتّخذ بينها وبينَ الشّكِّ والشرك من قُوّة الإيمـان جُنّه، وندّخر أُجورَها فنسمُو بها يومَ العَرْض إلى أعلى غُرَف الجنّه . والصلاةِ والسلام على نبيّه محمدٍ أكرم من أرسَلَه إلى الأُمم فأنال كُلًّا من البرايا يُمنَه، وأعظمِ من بعثَه فشَرَع الدينَ الحنيف وسَنَّه، وعلى آله وأصحابِه الذين لم تزلْ قلوبُ المؤمنين بهم مطمئِنّه ــ فإنّ لدولتنا القـاهرة العوارِفَ الحِسان، والشِّيَم الكريمةَ والعطايا والإحسان، والفواضِـلَ التى للآمال [منها] ما يُربى عليهـا ويَزِيد، والمآثِرَ التى بَحْرُ بِرِّها الوافرُ المديد، ولكل ملّةٍ من نِعمها نوالٌ جزيل، ولكلِّ فِرْقة من مَواهِبها جانبٌ يقتضى التخْوِيل ولا يَقضِى بالتحويل، ولكلِّ طائفـة من يُمْنها ومَنِّها مِنائحُ طائفـةٌ بمزيد التنويل؛ ولكل أُناس من معْدَلتها نصيبٌ يشمَل المِلَل، وعادةُ معروفٍ تواترَتْ مع أنهـا خالصةٌ من السّآمة والمَلَل، سجيّةٌ سَخِية بنا شَرُفت، ومَزِيّة مَرْوِيّة منّا أُلِفت؛ وإنّ من أهل الكتاب لَطائفةً كثُرت بأبوابنا الشريفة عَدَدا، وٱستصْفَتْ من مَناهِلِ جُودِنا مَوْردا، وٱنتظمَتْ فى سِلْك رعايانا فأضحى سبَبُ فضلنا لهـا مؤكّدا؛ وكانت المِلّة المَسيحيه، والفِرْقة اليعْقُوبيّـه، لا بُدّ لها بعد موتِ بِطْرِيكها من إقامة غيره ،

وتقديم من يُرتضىٰ بفعْله وقوله وسَيْره، لتقتدىَ به فى عَقْد أمورها وحلّها، وتحريمها وتحليلها ووَصْلها وفصلها، وتهتدىَ به فى معتقَدها ، وتَرْكَن إلىٰ ما يذكُره من مجموع أحكام الإنجيل ومفْردها ؛ وينتصبَ للفَصْــل بين خصومها بمــا يقتضيه عِرْفانُه ، ويَظهَر لأهل ملّته بيانُه ؛ حتّى لا تجدَ فى أمر دينها إلا ما تُريده ، وبمــا تُديمه لهــا من ٱستمرار الهُدْنة تُبْدى دُعَاءَها وتُعيده؛ فإنَّ سيدنا محمدا ــ صلى الله عليه وســلم ــ أمَرَنا أن نســتَوْصِيَ بأهل الكتّاب خَيْرا، ونحن نسْلُك من ٱتّباع شريعتِــه المطهَّرة مانُحْسِن فيه ــ إن شاء الله ــ سِيرةً يسيرةً وسيرا .

ولمــا كانت الحضرةُ الساميَةُ، الشــيخُ، الرئيسُ ، المبَجَّل ، المكرَّم ، الفاضلُ ، الكافِى، الثّقَة ،عمادُ بنِى المعموديّه ،كنزُالطائفة الصليبيّه ؛ ٱختيارُ الملوك والسلاطين ، فلان ــ أطال الله بقاءَه، وأدام علىٰ أهل طائفته ٱرْتقاءَه ــ ممَّن ٱتفق علىٰ شُكْره أبناءُ جنْسه، وٱستوجب أن يرقىٰ إلىٰ هــذه الرُّتْبة بنَفْسه؛ وٱشتهر بمعرفة أحوال فِرَقِه، وهجرَ الأهلَ والوطنَ فى تهذيب خُلُقه؛ وحَرَّم فى مدّة عُمره النكاح، وسار فى المَهامه والقِــفَار وسَــاح ؛ وأضحىٰ خَميصَ البطن خاوِىَ الوِفَاض، قد ترك الطّيِّباتِ وهجر التنعُّم وٱرتاض؛ وٱعتمد فى قوله علىٰ الإله ، وسأل الرَّبَّ أنــ يبلّغه فى أهل ملّته ما تمنّــاه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يجمع الفِرَقَ على الدعاء لأيَّامه الشريفه ، ويُديم للأقربين مَوادَّ مَواهِبِه المألُوفه ــ أن يقدَّم الشــيخُ فلان على المِلَّة النصرانية اليعقُوبيّة ، ويكونَ بطْريركا عليها علىٰ عادة من تقدَّمه، ومســـتقرّ قاعدته، بالديار المصريّة والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادَتُه بها، إلىٰ آخر وقت، [فليتولَّ ذلك] سالكًا منْ طُرُق النزاهة مايجب ، فاصلًا بين النصارىٰ بأحكام دينه التى لاتخفىٰ عنه

ولا تحتجب ، مالكًا أزمَّة كل أُسْقُف وقِصّ ومِطْران ، مرجِّحا بين القِدِّيس والقِسّيس والشَّمّاس والرُّهْبان ، لتُصبح أحكامُ كبيرِهم وصغيرِهم به منُوطه ، ومواريثُهم مقسومةً بشِرْعته التى هى لدَيْهم مبْسوطه ، ويقِفَ كلٌّ منهم عند تحريمه وتحليله ، ولا يخرُجَ فى شِرْعتهم عن فِعله وقولِه ولا يقدِّم منهم إلا من رضِىَ بتأهيله ، وليأْمُرْ كلَّ قاصٍ منهم ودان ، ومن يتعبَّد بالدِّيَرة والصَّوامِع من الرجال والنِّسْوان ، برَفْع الأدعيَة بدوام دولتِنا القاهرةِ التى أسْدَتْ لهم هذا الإحْسان ، ويُلْزِمْ كلًّا منهم بأن لا يُحدِث حادِثا ، ويُكْرِمَ نُزُل من قَدِم عليه راحِلًا أو لابِثا ، فإن هذه الولايةَ قد آلتْ إليه ، وهو أدرَبُ بما تنطوِى شروطُها عليْه ، والله تعالىٰ يجعل البهجة [لديه] مُقيمه [والنعمة عليه مستديمه] ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجةٌ بموجَبه وبمقتَضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه وصية لبَطْرك اليعاقبة أوردَها فى "التعريف" قال :

ويُقال فى وصيَّة بَطْرك اليعاقبة مثلُ مافى وصيَّة بَطْرك المَلَكيَّة ، إلا فيما يُنَبَّه عليه . ويسقط منه قولنا : « واْعلَمْ بأنَّك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك طريقٌ إلى الْباب » إذ كان لايَدين بطاعةِ الْباب الذى هو رأْسُ المَلِكانيِّين ، وإنما هو رأْسُ اليَعاقبة نظيرُه للمَلِكانيين ، ويقال مكان هذه الكلمة « واْعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتِك قَسِيم البـاب وأنتما سواءٌ فى الأتْباع ، ومتساويانِ فإنَّه لا يزدادُ مِصْراع علىٰ مِصْراع » .

ويسقط منه قولنا : « وليتجنَّب البحر وإيَّاه من اقتحامه فانَّه يغْرَق» وثانيةَ هذه الكلمة إذا كان مُلْكُ اليعاقبة مُغَلْغِلا [فى الجنوب][1] ولا بحْر ، ويبدَل بقولنا : «وليتجنَّبْ ما لعلَّه ينُوب ، وليتوقَّ ما يأتيه سِرًّا من تِلْقاء الحَبَشة حتَّىٰ إذا قَدَر فلا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦ .

يَشَمُّ أنفاسَ الجَنُوب؛ وليعلم أنَّ تلك المـادَّة وإن كثُرت مقصِّره، ولا يحفِلْ بسُؤْدد السُّودان فإنَّ الله جعل آيةَ الليلِ مُظْلمةً وآيةَ النهارِ مُبْصِره» ثم يُختم بالوصية بالتقوىٰ كما تقدَّم، ونحو هذا والله أعلم .

النــــوع الثــانى

(ما هو خارجٌ عن حاضرتَىْ مصر والقـاهرة : من وظائف الديار المصريَّة ممـا يُكْتَب لأربابها . وهى ثلاث جهات)

الجهـــــةُ الأُولىٰ

(ثغرُ الإسكَنْدريَّة ، والوظائفُ فيها علىٰ ثلاثةِ أصناف)

الصـــــنفُ الأوّلُ

(وظائفُ أربابِ السُّـــيوف وبهـا وظيفةٌ واحدة وهى النِّيابة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائفِ الديار المصرية أنَّها كانتْ أوّلًا وِلايةً، إلىٰ أنْ طرَقَها الفرَنْج فى ســنةِ سَبْع وستِّين وسبْعمائة ، فاستقرّتْ من حينئذ نيابةً، يُكتَب لنائبها تقليد فى قطع الثلثين بـ«الجَناب العالى» مع الدُّعاء بمضاعفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بنيابة ثَغْر الإسكنْدرِيَّة :

الحمدُ لله علىٰ نِعَم باسِمة الثَّغْر، مُسْفِرة الفَجْر، رافعة القَدْر .

نحمدُه حمدًا يشْرَح الصَّدْر، ويطْلُع طلوعَ البَدْر؛ ونشهدُ أنْ لا إلَٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُحالِف من يُحالِفُها، وتُخالِف من يُخالِفُها؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه

ورسولُه أفضلُ نبيٍّ رَابَطَ فى سبيل الله وجاهَدَ، وكابَدَ فى الجهاد أعداءَ الدِّين وكايَدْ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين خاضُوا فى غَمَرات الدُّجىٰ كلَّ غَمْر، ونُدبوا لحماية الدِّين ... ... كَرِيهةٍ وسِدَاد ثَغْر .[1]

أمَّا بعدُ، فإنَّ الاهتمام بالثُّغور هو أوْلىٰ ما إليه حُمِد، وعلىٰ مصالحها اعتُمِد؛ وكان ثغرُ الإسكندريَّة المحروسُ هو المفترَّ عن أحسَن الثَّنايا، والمخصُوصَ من الحياطة بأتمِّ المَزَايا؛ والذى كم شَفَتْ[2] شِفاهُه من سُقْم عند ارتِشَاف، والذى المُثاغِرُ به والمرابِطُ كَمْ له بالحسَنات من ائْتِلاف؛ وكانتِ المصلحةُ تقتَضِى أن لايُختارَ له إلا كُلُّ كامِل الأوْصاف، كافلٍ بما تستدْعِيه مصلحةُ أهلِه من إنْصاف؛ ذُو عَزْم يمضِى والسِّهَامُ مستوْدَعة فى الكنائن، ويقْضِى بالعدل المُزِيل للشَّوائبِ والشَّوائن، ومن له حزم يسُدّ ثَغْر المَعايِب دُونَ كلِّ ملاحِظ ومُعايِن؛ وله سِياسةٌ تُحفَظ بمثلها الثُّغور، وتُصان الأمُور، وله بشاشةٌ تستجْلِب النُّفُور، وتُوفِّق ما بين الألسِنة من أولى الْوُدِّ والصُّدور؛ وله حياطةٌ بينا يقال : هذا جانبُه دَمِثٌ إذ يُقال : هذا جانبُه صَعْب ممتَنِع، وبينما يُقال ليقَظته للمصلحة : هذا سحابٌ يتجهم[3] إذْ يُقال هذا سيْلٌ منْدفِع .

ولمـا كان فلانٌ هو مستوعبَ هذه الصِّفات، ومستَوْدَع هذه الأسماءِ والسِّمات؛ وإليه بهذه المَناقِب يُشار، وهو ساحِبُ أذيالِ هذا الفَخَار ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا ليوم الخ .

(٢) فى الأصل «كثفت» وهو تصحيف من الناسخ .

(٣) لعله سحاب جهام . أى لا ماء فيه . تأمل .

الشريف أن تُفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بثَغْر الإسكندرية المحروس ، تفويضًا يُمْضِى فى مصالحه لسانَه وقلمَه ، ويُصرِّف بين الأوامر والنَّواهِى إشاراتِه وكَلِمَه ، ويزيِّن مواكِبَه بطلْعته ، ويزيد مهابتَه ببُعْد صيتِه واشتهار سُمْعتِه .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مُجمِّلا مَواكِبَها ، مكمِّلا مراتِبَها ، موثِّلا(١) بقواعد الأمْن أرجاءَها وجوانبَها ، ناشرًا لواءَ العــدل علىٰ عَوالمِها ، قابضًا بالإنصاف لمظْـلومِ رعيَّتِها علىٰ يدِ ظالمِها ، مُعْليا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدَةِ حُكَّامه والانْقياد إلىٰ أحكامه ، والوقوف فى كل أمرٍ مع نَقْضه وإبرامِه ، ولْيَحْرُس جوانبَ هذا الثغر ويحميها ، وليصُنْ عوارِضَه وما فيها ومَنْ فيها ، وليكلأْهُ برًّا وبحرا ، وليُرْخ عليه مِن ذَبِّه سِـتْرا فسِتْرا ، ولْيُنْجِح لسَافِرتِه(٢) طَلَبا ، وليبلِّغْهم من العدل والإحْسان أرَبًا ، ويُجْمِل معاملةَ من وجَد منهم فى سَفَره نَصَبا ، واتخذ سبيلَه فى البحرِ عَجَبا . والرعيَّةُ فهم طِرازُ الممــالك ، وعُنوان العِمارة الذى مَن شاهده فى هذا الثغر عَلِم ما وراءَ ذٰلك ، وأحسِنْ إليهم وارْأَفْ بهم ، وبلِّغْهم من عَدْل هــذه الدولة غايةَ أرَبِهــم ، وأمورُ الخُمُس والديوان فلها قواعدُ مستَقِرّه ، وقوانين مستَمِرّه ، فاسْـلُكْ منها جَدَدا واضحــا ، وابْتَغِ لهــا عَلَما لائحا ، وغيرُ ذٰلك فلا يكادُ علىٰ فَهْــمك يخفىٰ ، من تقوىٰ الله التى بهــا تُكَفُّ عينُ المَضَارِّ وتُكْفىٰ ، والله تعــالىٰ يُلهِمك صَوابا ، ولا يجعل بينَ حِجَاك وبينَ المَصالحِ حِجَــابا ، بمنِّه وكرمه ! .

---

(١) موثلا ممكنا . من وثل الشئ أصله ومكنه .

(٢) (لسافرته) هم المسافرون .

الصنف الثانى

(من الوظائف التى يكتب بها بثغر الإسكندرية ـ الوظائف الدينية، وكلها تواقيع، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى (١)

(ما يكتب منها فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(القضاء)

وهو الآنَ مختصٌّ بالمالكيَّة ، وقاضيها يتحدّثُ فى نفس المدينة وظاهرِها ، ليس له ولايةٌ فيما هو خارجٌ عنها .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاءِ ثغر الإسكندريَّة لمالِكىٍّ ، كُتِب به للشيخ «وجيه الدين محمد بن عبد المُعْطى الإسكَنْدرىّ المالكىّ» وهى :

الحمدُ لله رافعِ قدْر من نَوّهَ العلمُ بذِكْره ، ونَوَّر التُّقىٰ مواقِعَ فِكْره ، ونَبَّه الورَعُ علىٰ رِفْعة قَدْره ، وأشرقَ به مَنْصِبُ الحكم العزيز إشراقَ الأُفُق بطلوع بَدْره ، وأضاءتْ بنُور أحكامه غوامِضُ القضايَا الشرعيَّة إضاءةَ الدُّجىٰ بغُرّة فَجْره ، وقضىٰ له دوامُ الإصابة فى الآجتهاد بإحراز أجْرَيْه إذا كان أحدُ قِسمَىْ الاجتهاد مقتضِياً لأجْره ، ومُلِئَ صدرُه بأنواع العلوم الدينيَّة فوسَّع له الشرعُ الشريفُ صدرَ مجلِسه وأعدّ له مجْلِس صَدْره ، وزَخَر من خاطره بحرُ العلم فآرتوَتْ رياضُ الخواطر بأنوار فرائد دُرّه ،

---

(١) لم يذكر الثانية فيما يأتى .

وأسفر وجهُ الدين بنُور علمه وعَمله : فقام هذا مَقامَ السُّرور فى أساريرِه وناب هذا مَنابَ الشَّنَب فى ثَغْره .

نحمدُه حمدًا يزيدُ قدْرَ النِّعم تنويها، ويُسوِّغ فى المحامد تعظيمًا لمُسْدِى المِنَّة وتنزيها، ويَنهَض بشكر التوفيق فى ٱختصاص مَنْصب الحكم بمن كانَ عند اللهِ وَجيها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفتَرُّ ثغورُ الإسلام بإدامتها ، وتُبنَىٰ قواعدُ الإيمان علىٰ إقامتها ، وتَشيمُ بَوارقَ النصر علىٰ جاحدِها من أثناء غمامَتها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنارتِ الآفاقُ بملَّتـه ، ودارَتْ أداةُ التشبيه بين أنبياء بنى إسراءيل وعلماء أُمَّته، وضاهىٰ شرعُه شمسَ الظهيرة فى وُضُوح أحكامِه وظهور أدلَّته ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين عمِلُوا بمـا علِمُوا ، وجاهدُوا أعداءَ الله فـما ضعفُوا لذلك ولا أَلِمُوا، وقضَوْا بالحق بينَ أمّته فلا المَقْضِىّ لهم أثموا ولا المَقْضِىّ عليهم ظُلِموا ؛ صلاةً لا تزالُ لهـا الأرض مسجِدا، ولا يبرَح ذِكرُها مُتْهِما فى الآفاق ومنْجِدا؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من قُلِّد الحكم وإن نأَىٰ به الورَعُ عن توقُّعه، وخُطِب للقضاء وإن أعْرَض به الزُّهدُ عن طِلَابه وتتَبُّعه ، ودُعِىَ إليـه إذِ الإجابةُ عليـه متعيِّنه ، ووُضِعَتْ مقاليدُه بحكم الٱستحقاقِ [فى يديْه] إذْ أولَويَّته البيِّنةُ لا تحتاجُ إلىٰ بيِّنه ـ من عُقِدت علىٰ تعيُّنه لهذا المَنْصب الجليـلِ الخَناصِر، ودَعَت إلى ٱسـتدعائه إليه فضائلُه الثـابتةُ القواعدِ وزَهادتُه الزاكيـةُ الأواصِر؛ ودلَّت عليه علومُه دَلالةَ الأضواء، علىٰ لَوامِع الشُّهُب، ونَبَّهتْ عليه فنونُه تنبيهَ الأنواء، علىٰ مَواقِع السُّحُب؛ وشهِدَ بِوَرَعِه المتينِ، تفقُّهُـه وٱعتزَاله ، وأنبأ عن نُهوضه بنُصرة الدين، قوّةُ جِداله الذى هو جلادُ مثـله ونِزالُه ؛ وتَبحَّرَ فى أنواع العلوم حتّٰى جاوَرَ البحرَ بمثله ولكنّه

العـذْب الزُّلال ، وشَغَل نفسَه بالتنوّع فى الفُنون فكان التحلّى بعبادة الله ثمرةَ ذلك الاشتغال ،ومشَىٰ علىٰ قَدَم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يُشَقّ فى ذٰلك المضمارِ غُبارُه ، ونشأ علىٰ طريقةِ العلم والعمل : فنهارُه بالانقطاع إليه ليلُه وليلُه بالاشتغال بهما نهارُه .

ولمـا كان فلان هو الذى خطبَتْه هذه الرتبةُ السنيّةُ لنفسها ، وتشوّقتْ إلى الإضاءة بطُلوعه فى أُفُقها تشـوّقَ المَطَالـع إلى الإضاءة بطُلُوع شمسها ، وأثنىٰ لسانُ القلم علىٰ فضـائله وهو يعتذِر من الاختصار ، واقتصرتِ البلاغةُ على اليسـير من التعريضِ بوَصْفه وطالِبُ مالا يُحصَر معذورٌ فى الاقتصاد والاقتصار ، وعُيِّن لمـا تعيّن عليه من مصالح الأمّةِ وذٰلك يقضِى لمثله من أهل الورَع أن يُجيب ، وطُلِب لعموم مصالح الإسـلام التى ما ينبغِى لمثله من أنصار السُّـنّة أن يتأخّر عن مثْلها أو يَغيب ؛ وكان ثغْرُ الإسكندرية المحروسُ من المَعاقِل التى يفتَرّ عن شَنَب النصر ثَغْرُها ، ومن أركانِ الدين التى يَغَصّ بأبطا لهـا بحرُها ؛ وهى مأْوىٰ صُـلَحاء الجهـادِ(١) الذين سِهامُ ليلِهم أسبَقُ إلى العِدَا من سهامهم ، ومَوْطنُ العلمـاء من أهل الاجتهاد الذين يعْـدِل دمَ الشهداء مِدادُ أقلامهم ؛ وهى دارُه التى تُزهىٰ به نواحِيها ، ومَوْطنُ رِباطه الذى يومٌ وليلةٌ منــه فى سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما فيها ــ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصّ منصِبَ حكمِها بعالِمِ أُفُقِها المُنير،وزاهِدِ ثغرِها الذى ماشَام برقَه بصرُ عدوٍّ إلا وانقلب إليه خاسئًا وهو حَسـير ، أن(٢) نُفوّض إليه منصبَ القضـاء والحكم العزيز بثغر الإسكَنْدريّة المحروس ، علىٰ قاعدةِ من تقدّمه فيـه ، نظرًا فى عُموم ذٰلك الثغر المحروس به (؟) إلىٰ من انعقد إجماع أئمةِ عصْره ومِصره علىٰ سَعَة علمه ووُفُور ورَعه وكمال فضله .

(١) مرادهُ أنهـا مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .

(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطا وحرر .

فلْيباشر هـذا المنصبَ الذى مِلَاك أمرِه العـلمُ والتُّقىٰ ، ونِظامُ حكمه العـدْلُ والورَعُ وهمـا أكمُل مابه يُرْتقىٰ ؛ ولْيحكُمْ بمـا أراه الله من قواعد مذهبِـه المُحْكَمه ، وأحكام إمامِه التى هى بمصالح الدِّين والدنيا محكَّمه ؛ ولْيقْضِ بأقوال إمامِ دار الهِجْرة التى منها صدرَتِ السنَّة إلى الآفاق ، وعنها أُخذتْ ذخائرُ العـلم التى تزكُو علىٰ كَثْرة الإنفاق ؛ وبها حِمَىٰ الأحكامِ الدينية موطَّأُ الأكناف ، وفيها ٱستقام عمودُ المِلَّة ممدُود الطَّرَف علىٰ سائر الأطراف ؛ فلْيَـلِ من ذٰلك وغيره جميعَ ما كان يليـه مَنْ تقدّمه ، وتقتضِيه قواعدُ ولايته التى أمضينا فيه لسانَه وقلَمَه .

فأمَّا ما يدخُل تحتَ هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعِده ، وأدَواتِه وعوائِدِه : من تخصيص الحُكْم بأوقاتِه ، ومُساواتِه بين الخصمين فى إنصافه وإنصاته ؛ وٱجتناب الحُكْم فى الأوقاتِ المقتضِيَة لِتَرْكه ، وتَوَقِّى نقْض الأحكام التى نَظَمَها عَدَمُ مخالفة النصِ والإجْماع فى سِلْكه ؛ فإنه مكتَفٍ بالإجمال عن تفصِيلها ، مكتف عن ذكر كثيرِها بالإيمـاء إلىٰ قليلها ؛ إذ هو أدرىٰ بأوضاعِها شَرْعا وعُرْفا ، وأدرَبُ بمـا قد يشِذُّ منها عن ألمعيَّته أو يخفىٰ ؛ وملاكُ الوصايا تقوَى الله تعـالىٰ وهى من خصائص نفْسِه ، وفواتِـح ما ٱبتدأ الورَعُ بإتقان دَرْسِـه ؛ والله تعالىٰ يؤيد حُكْمه ، ويُعْلِي عَلَمه ؛ بمنِّه وكرمه ! والاعتماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وٱعلم أنه كان فيما تقدّم قد وليها قاضٍ شافعىٌّ .

وهذه نسخةُ توقيع بقضائها ، كُتِب به للقاضى «عَلَمَ الدين الإخنائى» الشافعى ، فى ثامنِ شعبانَ سنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفَع لنا فى كل ثغر عَلَمـا ، وأجْرىٰ لنا فى جِوار كلِّ بحر مايضاهيه كَرَما ؛ وجعـل من حُكّام دولتنا الشريفةِ من يُعْرَف بنسبه الإسنائِى بل السَّنائى أنه يمحُو من الظُّلْم ظُلَما .

نحمَدُه علىٰ أن زادَنا نِعَما ، ووَفّر للأحكام الشرعيّة بِناقِسَها ، وأغْلىٰ قِيَمًا ،[فأضحت] تُنـافِسُ الدُّرَّ الثمين قِيَمًا ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُجرّد لإقامتها سـيْفا وقَلَما ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى جعل اللهُ له شريعةً ماذِيّةً[1] ودِينًا قِيَمًا ، ونصَب من أئمة أتْباعه كلَّ علَم يهدِى أُمَمًا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة باقيةً مابقِيَت الأرضُ والسَّما ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ أوْلى الثُّغور بأن لايَزالَ به عَلَمٌ مرفُوع ، وعِلْم مصونٌ حجابُه الممنُوع ، وعملٌ يمشِى به أئمـةُ الأمة علىٰ طريقه المشروع ، ثغرُ الإسكندرية ـ حمـاها الله تعالىٰ ـ فإنها من دار الملك فى أعَزِّ مَقام ، ومن مُجاورة البحر فى مَوْطن جهاد تَخْفُق به الأعلام ؛ وغالبُ مَن فيها إما فقيـهٌ يتمسَّك بالشريعة الشريفـة فى عُلُوّ علومه ، أو ربُّ مالٍ له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصِفُ من خِصام خُصُومه ؛ ولم تزَلْ وظيفةُ القضاء بها آهِلةَ الصدور ، كامِلةَ البدُور ، متهلِّلةً بمـا لايفوتُ الشَّنَب كبارق الجَزْع إذا حكىٰ إيمـاضَ الثُّغور ؛ وكان لهـا مدّةٌ قد خلَتْ ونحن نفكِّر فيمن يكون سَدادا لثغرها ، وكافيًا فيما يُهِمُّ فى الأحكام الشرعية من أمْرِها ؛ وكافلًا من الحق الذى أمر اللهُ به بمـا يقِى النفوس ، وقائما فى مَدارسها بمـا يَزِيد معالِمَها إشادةً فى الدروس ؛ حتَّى أجمعت آراؤُنا الشريفةُ علىٰ من يحسُن عليه الإجماع ، وتُحسَم به دواعِى النّزاع ، ويحسُد علمَه علمُ الشمس لِمـا علا عنها من كُرَة الارتفاع ؛ ومن يتضَوَّعُ بنَشْر العدل

(١) أى سهلة بيضاء .

فى يُمنىٰ كفه القلَم ، وإذا وقفَتْ به الركائبُ قالت : ياسارى القصدَ هذا البانُ والعَلَم ؛ وكان المجلس السامىّ القضائىُّ العَلَمى الإسنائى الشافعى، أدام الله علُوّه هو العَلَم المنشُور ، والعِلْم المشهُور ، والمرادَ بما تقدّم من وصْف مشكُور ؛ فاقتضت مراسِمُنا المُطاعة أن تُناط به من الأحكام الشرعية القضايا ، وأن يبْسِم هذا الثغر بحكمه عن واضِح الثّنايا .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المَوْلوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ : زاده الله شَرَفا ، وضاعف له تصَرُّفا — أن يفوّض إليه القضاءُ بمدينة إسكندرية — حماها الله تعالىٰ — علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه المستقرّة إلىٰ آخر وقت ، علىٰ أنه يَستنيبُ عنه فى تحمُّله وفيما شاء منه من هو موصوفٌ بصفته ، موثوقٌ بدينه وعِلْمه ومعرفته ؛ ولْينتصِبْ فى مجلس الحكم العزيز لمن ينتصِف ، ولْيعمل بما يُرضِينا من مراضِى الله تعالىٰ فإنّ للعيون أن تنظُر وللألسنة أن تَصِف ؛ ولينظُرْ فى أمر الشهود فإنّ الأحكام الشرعيةَ علىٰ شهادتهم تُبْنىٰ ، وليحترِزْ من الوكَلاء فإنّ منهم من يجعل الظنّ يقِينًا واليقينَ ظنّا ، ولينظر فى أمور الأيتام ويتصرّف فى أموالهم بالحُسْنىٰ ؛ وليُقِم الحدودَ ، علىٰ مقتضىٰ مَذْهَبِه ، وليعوّل فى العقُود ، علىٰ من لايخافُ معه آمرؤ علىٰ إلحاقٍ فى نسبه ؛ وغير هذا مما إليه مرجعُه ، وإليه ينتهى مفترَقه ومجتمعُه وبحكمه يفصَلُ أمرُه أجمَعُه ، ولْيتخذِ الله تعالىٰ عليه رَقيبا ، وليعلَمْ أنه سيرَىٰ كلّ ما يعملُه عند الله قَريبا ؛ وتقْوىٰ الله هى التى نتخذ معه عليها عَهْدا مسئُولا ، ورجاءً مأمولا ، وقولا عند الله وملائكتِه وأنبيائه مقْبُولا ، ونقلّده منها علىٰ كل مخالفٍ سيفًا مسلُولا ؛ ونحن نرغَبُ إلىٰ الله أن يوفّقه فى حكمه ، ويُعينَه علىٰ كل مايُمْلَىٰ من الوصايا بما هو ملىٌّ به من عَمَله وعِلْمه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجةٌ فيه .....

قلت : وكان قد ٱستُحدِث بالإسكندرية قاضٍ حنفىّ فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُولَّى من الأبواب السلطانية رفيقًا للقاضى المالكىّ بها، يتحدّثُ فى الأحكام فى القضايا المتعلِّقة بمذْهَبه خاصّة ، وأمرُ مُودَع الأيتام ونظرُ الأوقاف ، وغيرُ ذٰلك من متعلَّقات قضاء القضاة مختصٌّ بالمالكى ؛ ثم صارت بعد ذلك تارةً يولّى بها حنفىّ كذٰلك ، وتارة تَشْغَر منه . فإنْ وليها حنفىّ ، كتب له فى قطع الثُّلُث كما يكتب للقاضى المالكىّ ، وليس بها الآن شافعىّ إلا نائبا عن المالكىّ ، ولا حنبلىّ بها أصلا .

الوظيفـــة الثـانية

(الحِسْـبة بثغر الإسكندرية)

ومحتَسِبها يُمضِى تحدُّثَه فيما يختص به قاضِيها ، وليس له نُوّاب فيما هو خارج عن ذٰلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسْبة بثغر الإسكندرية .

الحمدُ لله الذى جعل المناصِبَ فى أيّامنا الزاهرةِ محفوظةً فى أكفائها ، مضمونةً لمن تقاضت[له] من الإقبال ر[دّ]جَفَائها ، معدوقةً فى مآلها إلىٰ مَنْ زانها بمعرفته الحسنة بحسن... ... ... (١) بمن دلَّتْ كَفاءتُه وكفايَتُه علىٰ أنه أولىٰ بتقرُّبها وأحقُّ باصطِفائها .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لم تُخيِّب فى إحساننا أملاً ، ولم تُضَيِّع سعْىَ من أحسن [العملَ] فى مصالح دولتنا إنَّ الله لا يُضِيع أجْرَ من أحسَنَ عَمَلا ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أشرفُ مافاهَ به اللِّسان ، وأفضلُ ما تُعبِّـد به

---

(١) بياض بالأصل . ولعله "بمعرفته الحسنة وحسن بهائها ، مخصوصة بمن الخ" .

الإنسان ، وأرفعُ ما مُلكت به فى الدنيا والآخرة عِظامُ الرُّتَب الحِسان ؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى أحلَّ الطيِّبات وأباحَها ، وأزال الشُّبهات وأزاحَها ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تمسَّكوا بأحكامه ، ووقَفُوا مع ما شَرَع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظُوا على العمل بسنَّته بعدَه محافظَتَهم عليها فى أيَّامه ؛ صلاةً يتوقَّد سراجُها ، ويتأكَّد بها آنتساقُ السنَّة وآنتساجُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن رجع فيه حقُّ منصبِه إلىٰ نِصابه ، ورُدّ به واجبُ رُتْبته إلىٰ من جعلَتْه سوابِقُ سيرته أَوْلَىٰ به ؛ وتقاضتْ له سيرتُه عواطفَ كرمنا ، ونهضَتْ نزاهتُه باستِطْلاع ما غابَ عنه من عوارِفنا ونِعَمنا ؛ وأغنَتْه أوصافُه عن تجديد ثناء يُستعادُ به بِرُّنا القديم ، ويستَدَام له به فضلُنا العميم ، وتستدرّ به أخلافُ كرمِنا الذى تَساوَىٰ فى عمومه الظاعنُ والمُقِيم ــ مَن زانَ التقىٰ أوصافَه ، وكمَّلت العفَّةُ معرفتَه وإنصافَه ؛ وتولَّت الديانة نظَره فيما عُدِق [به] من مصالح الرعايا خُصوصًا وعمومًا ، وتكفلت الخبرة من آعتباره لأمور الأقوات بأن جعَل لكل منها فى الجَوْدة حدًّا معلوما ؛ وباشَر ما فُوِّض إليه بجمع بينَ رِضا الله تعالىٰ ورضا خلْقه ، وعُوِّل عليه فى حِسْبة أعزِّ الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بَسَط لهم من رِزْقه .

ولما كان فلان هو الذى أضاءت أوصافُه وهل تُنْكَر الإضاءةُ للسِّراج ، وتَشوّقت إليه رتبتُه فلم يكنْ لها إلَّا إليه مَلاذٌ وإلا عليه مَعَاج ؛ فسلَك من السِّيَر أرضاها لربِّه ، ومن الأحوال أجمعَها لأمْن عاقبتِه وسلامةِ غِبِّه ؛ ومن الآجتهاد فى مصالح الرعايا ما يُضاعَف شكْرُه على آحتسابه ، ومن الخبرة ما يُعرِّف كلا منهم كيف يكونُ آكتساء البرية فى آكتسابه ــ رُسِم أن يستقر(١) ... ...

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصارا فى الكتابة .

فليستمر فى ذلك على عادته التى ناضلت عنه فأصابت ، وقاعدته التى دعت له عواطف نعمنا فأجابت ؛ وليزد فى التحذير والتحقيق ما آستطاع ، ويناقش حتى يستقر على الصحة فيما يباع أو يبتاع ؛ ويقابل على الغش بما يردع متعاطيه ، ويزجر صانع الأعمال الفاسدة عن آستدامتها ومن يوافقه على ذلك ويواطيه ؛ ويثمر أموال الأحباس بملاحظة أصولها ، والمحافظة على ريعها ومحصولها ؛ وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها إن علمت ومزية (؟) ماقدم من شكره والثناء عليه ؛ وملاك ذلك جميعه تقوى الله تعالى وهى أخص ماقدم من أوصافه ، والرفق بالرعايا وإنه من أحسن حلى معرفته وإنصافه ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(نظر الصادر)

وموضوعها التحدث فى قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية ، وعليه مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح ، ينفق عليهم بمقادير معلومة من متحصل هذه الجهة .

وهذه نسخة توقيع بنظر الصادر والوارد ، أنشأته عن السلطان الملك الناصر «فرج بن الظاهر برقوق» للقاضى ناصر الدين «محمد الطناحى» .إمام المقام الشريف السلطانى ، فى منتصف شهر صفر سنة أربع وثمانمائة ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من سلطاننا الناصر لأخص ولى أعز ناصر ، وخصه من فائض كرمنا المتتابع ومننا المترادف بأكرم وارد وأبر صادر ، وبوأه من فضلنا المنيف أفضل مبوإ : فتارة تأتم به الملوك وتارة يخطب الكافة على رءوس المنابر .

نحمدُه علىٰ أنْ جعلنا نَتّبع فى الوِلايات نَهْجَ الصَّواب ونقتَفِيه ، وآثرنا من أَثَرة الأبوة بِأعْلىٰ مواقع الاجتِباء والولدُ سِرُّ أبيه ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له الذى أذلَّ طُغاةَ الكفر بقَمْع آنافِ كُبَرائهم ، وألزمَهم الصَّغار بمالٍ يؤخَذ من أقوياءِ أغنيائِهم فيفرَّق فى ضُعفاء المسلمين وفُقَرائهم ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى نَدَب إلىٰ مَبَرَّة أهل الفضل وذَوِيه ، ورغَّب فى رِعاية المودَّة للآباء بقوله : «إنَّ مِنْ أبَرِّ البِرِّ بِرَّ الرجُل أهْلَ وُدِّ أبِيه» صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُدِقت بهم مهمَّاتٌ، فقاموا بحقِّها، ووُكِلت إليهم جلائلُ الوِلايات، فأحرزُوا بجميل التأثيرِ قَصَبَ سَبْقِها ؛ صلاةً يبقىٰ علىٰ مدَى الأيام حكْمُها، ولا يتغيَّر علىٰ مرّ الزمان رَسْمُها؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن من كَريم سجايانَا التى جُبِلنا عليها، وشريف شِيَمنا التى يَجْذِبُنا طيبُ العُنْصُر إليها، أن نخُصَّ أخصَّ الأولياء بأسْنىٰ الوِلايات، ونُتْحِفَ أصفَى الأصْفياء بنهايةِ غَيْرِه فى البِدايَات ؛ ونرفَعَ قدْرَ من لم يَزَلْ ظهرُه للمُلوك مِحْرابا ، ونُنَوّهَ بذكر من رَغِبت فيه الوظائفُ فعدَلَتْ إليه عن سِوَاه إضرابا .

وكان المجلس السامىّ ، القاضَوِىّ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، الفاضلىّ ، الكامِلىّ ، البارِعىّ ، البليغىّ ، الماجدىّ ، الأوْحدىّ ، الأثِيرِىّ ، الأثِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الأصيلىّ ، الخَطِيبىّ ، الناصِرىّ ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ؛ صدْرُ الأعيان ، جَمال الخُطَباء ، جَلاَل النُّظَّار ، صَفوةُ الملوك والسلاطين ، أبُو عبد الله محمد ، ابن المجلس السامىّ ، الجمالىّ ، المرحوم عبد الله الطَّنَاحى ، إمام المقام الشريف : أدام الله تعالىٰ رفعته ــ قد طالَتْ فى المخالصة قُدْمته ، ووفُرَت من صِدْق المُوالاة قِسمتُه ؛ فرُفِع علىٰ الابتداء خبَرُه ، ونصب علىٰ ... ... (1) تقدّمُه فحُمِد فى الاختيار

(1) بياض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثرُه، وكانت وظيفتا نظرِ الصادر وخَطَابة الجامع الغَرْبىّ بثغر الإسكندرية المحروس ـ حرسه الله تعالىٰ وحماه، وصانَ من طُروق العدوّ المخذُول حِماه ـ من أرفع الوظائف قَدْرا ، وأميَزها رُتْبة وأعْلاها ذِكْرا ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُسند ولايتَهما إليه ، ونعتَمد فى القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ آراؤه مسدَّده، ونِعَمُه على الأولياء فى كلّ حينٍ مُجدَّده ـ أن يَستقرّ المشارُ إليه فى الوظيفتين المذكورتين عوضًا عمن كانتا بيده، بما لَهما من المعلوم، ويُفْسَح له فى الاستنابة علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذلك : آستنادًا إلىٰ أمانته التى بلغَتْ به من العِفَّة مُنتهاها ، وكِفايتِه التى عَجَز المتكلِّفون عن الوُصول إلىٰ مَدَاها، وفصاحتِه التى أعجزَتْ ببراعتها الخُطباءَ الأماثِل، وبلاغتِه التى قضَتْ بالعِيّ علىٰ قُسّ إيادٍ وحكَمَتْ بالفَهَاهة علىٰ سَحْبانِ وائل .

فليتلقّ ماأسند إليه بيَده الطُّولىٰ وباعِه المَديد، وليُقابِلْ هذه النعمةَ الجَليلةَ بالشُّكر فإنّ الشكر مستلزِمٌ للمزيد، عالما أنَّ نظَر الصادر يقدِّمه أهلُ الثغر علىٰ عامَّة الوظائف مادَقّ منها وما جَلّ، ويتبرَّكُ المرتَّبون عليه بما يأخُذونه من راتبه وإن قلّ ؛ فليُحسِنِ النظرَ فيه وِرْدا وصَدَرا، ويميِّزْ رَيْعه بحُسن النظر فيه حتّى يقول المعانِدُ : ما أحْسَنَ هذا نَظرا ! .

والجامعُ الغربىّ فهو أجلُّ جوامع الثغر الإسكندرىِّ قَدْرا، وأعظمُها فى الأقطار صِيتًا وأسْيَرُها فى الآفاق ذِكْرا ؛ يحضُر الجُمعةَ فيه أهلُ الشَّرق والغَرْب، ويُلِمُّ بخُطبته سُكّان الوِهادِ والهَضب ؛ فليَرقَ مِنْبره رُقِيّ مَن خَطبه المِنْبر لخُطبته ، وعلِم عُلُوَّ مقامه فقابله بعُلُوّ رُتْبته ، ويُشنِّف الأسماعَ بوعْظه ، ويَشْجِ القلوبَ بلفظه ، ويُحْيِ العُقُول بتذْكيره ، ويُبْكِ العيونَ بتحْذيره ؛ ولْيُعِدْ للجامع ما تعوّدَه من الإسعاد ،

ويجدِّد مادَرَس من معالم خَطَابته حتَّى يقال : هذا ابْنُ المُنَيِّر قد عاد؛ وعِمادُ الوصايا تقوى الله فهى مِلاكُ الأمور كلِّها، وعليها مدارُ أحوال الدُّنيا والآخرة فى عقْدها وحَلِّها؛ وهاتان مُقـدَّمتَا خيرٍ فليكُن لنتيجتهما يرتقِب، ولا يَقْطع بالوقُوف معهما رجاءه « فأوّلُ الغيث قَطْر ثم يَنْسَكِب » ؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حجةٌ فيه بمقتضاه؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثـالث

(مِن الوظائف التى يُكتَب بها بثغر الإسكندريَّة المحروس، الوظائفُ الدِّيوانيةُ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولىٰ

(مَنْ يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء .
وهو ناظر المباشَرة بها ، وعنه يعبَّر بناظر الإسكندرية، دون ناظر الأصْل[1] المقدّم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوعُ هذه الوظيفة التحدّثُ فى الأموال السلطانية بالإسكندريَّة مما يتحصَّل من المأخوذ من تجّار الفرنج ، وسائر المتَاجر الواصلة برًّا وبحرًا بالقَبْض والصَّرْف والحمل إلى الأبواب السلطانية .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر ثَغْر الإسكندرية ، كُتِب به للقاضى «جمال الدين ابن بَصَّاصة» وهى :

---

(١) وهو ناظر الخاص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم .

الحمدُ لله الذى[١] أضحكَ الثُّغُور بعد عُبُوسها ، وردّ إليها جَمَالَهـا وأنار أُفقَها بطلوع شُمُوسها ، وأحيَا معالمَ الخَـيْر فيها وقد كادت أن تُشرفَ علىٰ دُرُوسها ؛ وأقام لمصالح الأمّة مَن يُشرِق وجهُ الحق ببيَاض آرائه ، وتلتذُّ الأسمـاع بتلاوةِ أوصافه الجميـلةِ وأنبـائه .

نحمدُه حمدَ من أُسبِغت عليه النَّعماء ، وتهادتْ إليه الآلاء ، وخَطَبتْه لنفسها العَلْياء ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً ترفع قـدْرَ قائلها وتُعْليـه ، وتُعزُّ جانب منتَحِلها وتُدْنيـه ؛ وأن محمدًا عبـده ورسوله أفضلُ نبيٍّ رابَطَ وجاهَد ، وأكرمُ رسول جنَحَ للسِّـلْم بأمر ربِّه فهادَنَ وعاهد ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ، وأشياعه وحِزْبه .

وبعـدُ ، فأحقُّ مَن ماسَ فى أرْدِيةِ الرياسة عِطْفا ، وآستَجْلىٰ وجُوهَ السعادة من حُجُب عزِّها فأبدَتْ له جمالا ولُطْفا ؛ وآصـطفَتْه الدولةُ القاهرة لمهمَّاتها لَمَّـا رأتْه خيرَ كافل ، وتنَقَّل فى مَراتبها السنيَّة تنقُّل النيِّرَيْنِ فى المَنازل[٢] .

ولمـا كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليله ، وصارت له إلىٰ كل سؤل نعم الوسـيله ، رسم بالأمر الشريف ـ لا زال ... ... أن يستقرّ فى نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشِرَ هذا المنصبَ المبارَك بعَزَماته المـاضيه ، وهِمَمه العاليه ؛ برأْى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك : ليُصْبِح هـذا الثغرُ بمباشَرته باسمًـا حاليا ، وتعُودَ بهجَتُه له بجميل نظرِه ثانيا ؛ وينتصِبَ لتدبير أحوالِه علىٰ عادته ، ويقرِّرَ قواعِدَه بعالِي همَّته ؛ ويجتهِدَ فى تحصيل أموالِه وتحصينِ ذخائِره ، وآستخراج زكاته

(١) تقدّمت فى صفحة ٤٠ و ٤١ من هذا الجزء ببعض زيادة وتغيير وآختصار .

(٢) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... ... من كان لحلل العفاف لابسا ، ومن نور الايقان قابسا ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية مَتاجِره ، ومعاملةِ التُّجّار الواردين إليــه بالعدل الذى كانوا أَلِفُوه منه ، والرِّفق الذى نقلُوا أخبارَه السارّةَ عنه ؛ فإنهم هدَايا البُحُور ، ودوالبُّ الثغُور ؛ ومن ألسنتِهم يُطَّلَع علىٰ ما تُجِنُّه الصدور ، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نشَروا له أجنحةَ مراكِبهم كالطُّيور ؛ وليعتمِدْ معهم ما تضمَّنته المراسيمُ الشريفةُ المستمرّةُ الحكم إلىٰ آخر وقْت ، ولا يسْلُكْ معهم حالةً تُوجب لهم القلقَ والتَّظَلُّم والمَقْت ؛ وليواصِلْ بالحمول إلىٰ بيت المــال المعمُور ، وليملَأْ الخزائن الســلطانية من مستَعْمَلاتَ الثغر وأمتعتِه وأصْنافه بكل ما تَستغنى به عن الواصل فى البُرور والبُحور ؛ وليصرف همَّته العاليــة إلىٰ تدبير أحوال [المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفعَ رءوسُ أموالها وتنمِى ، وتجود سحائب فوائدها وتهمى ، وليراع أحوالَ](1) المستخْدَمين فى مباشراتهم ، ويكشِفْ عن باطن سَرائرهم فى جهاتهم ؛ ليتحقّقوا أنه مهَيْمن عليهم ، وناظر بعيْن الرأفة إليهم ؛ فتنكفَّ يدُ الخائن منهم عن الخيانه ، وتُحلِّ أنامل الأمين بمحاسن الصِّيانه ؛ وليطالع بالمتجدّدات فى الثغر المحروس ، ليرد الجواب عليه منا بما يشرح الصُّدور [ويُطَيِّب النفوس](1) وليتناول من المعــلوم علىٰ ذٰلك فى غرّة كل شهر ما يشهَدُ به الديوانُ المعــمور ؛ والله تعالىٰ يتولّاه ويُعضِّده ، ويؤيده ويسدّدُه ؛ بمنّه وكرمه ! . .

قلت : وربمــا كُتِب لناظرها توقيعٌ مفتَتَح بـ«أما بعد حمد الله» فى قطع الثلُث .

*
* *

وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية ، وهى :

أما بعــدَ حمد الله مفيضِ حُلَل إنعامِنا علىٰ من أخلَصَ فى طاعتِنا الشريفة قَلْبــه ولسانه ، ومُولِى فضــل آلائِنا العميمةِ علىٰ من أرهَفَ فى مصالحنا عزْمَه وبنانَه ؛

(١) الزيادة مما تقدّم فى صفحة ٤١ من هذا الجزء .

ومُحَلِّى رتب عليائنا الشريفة بمن أشرق فى سماء المعالى بَدْرُه وإنسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمانِىِّ قطوفُه وأفنانُه ؛ ومُبلِّغ أقصىٰ غايةِ المجد فى أيامنا الزاهرةِ بمن تبتسم بجميل نَظَره الثغور، وتعتَصِم بحميد خَبَرِه وخِبْرته الأمور ؛ وتُشْرق من جميل تدبيره البُدور ، وتعتمد علىٰ هِمَمه الأيامُ والدهور . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الهادى إلىٰ الحق وإلىٰ طريقٍ مستقيم ، والناشرِ لواءَ العدل بسَنَنه الواضح وشرعِه القويم ؛ والمُنْجزِ لمن ٱقتفىٰ سُبُلَه أوفىٰ تكريم ، وأوفرُ حظٍّ عظيم ؛ وعلىٰ آله وأصحابه ما ٱهتدىٰ بهديهم ذَوُو البصائر والأبصار، وٱرتدىٰ بأرديتِهم المُعْلَمة مقتَفِى الآثار ـ فإنَّ أَوْلىٰ من أسنَدْنا إلىٰ نظره الجميل رُتْبة عزٍّ مازالت طيورُ الآمال عليها تحُوم، وعدَقْنا بتدبيره الجليل منصبَ سِيادة ما بَرِحت الأمانِىُّ له تروم؛ وٱعتمدنا علىٰ هِمَّته العلية فصدَّق الخُبْرُ الخبَرَ، وركَنَّا إلىٰ حميد رأيه فشَهِد السمعُ وأدَّى النظر[1] .

ولما كان فلانٌ هو الذى ٱتَّسق فى ذِرْوة هذه المعالى ، وٱنتظم به عِقْد هذه اللآلى، وحَوىٰ بفضيلة اللسان والبيان مالم تُدْرِكْه المُرهَفَات والعَوالى ؛ فما حل ذِروةَ عزٍّ إلا وحلَّاها بنظره الجليل، ولا رَقِىَ رتبةَ سيادةٍ إلا وأسفَر فى ذروتها وجهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنظره كفايةُ رتبةٍ إلا وكان لها خيرَ كَفِيل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال ينتصِى[2] للرتب العلية خيرَ مُنْجد ومُجير، ويمتطِى للمناصب السنيَّة نِعم المَوْلىٰ ونعم النصير ـ أن يستقرّ ... ... فإنه القوىُّ الأمين، والمتمسِّك من تقوىٰ الله تعالىٰ ومراقبته بالسبب المتين؛ والمستنِدُ بجميل كفايته ، وحميد ديانته ، إلىٰ حِصْن حصين ؛ والمستذْرى بأَصالته وإصابته إلىٰ الجُنَّة الواقية والحَرَم الأمين؛ فليقدِّم خيرةَ الله تعالىٰ فى مباشرة الوظيفة المذكورة بعزم

(١) لم يذكر خبرا لإنّ وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .
(٢) بالصاد المهملة أى يختار وينتقى .

لا ينْبُو، وهمّــة لا تَخْبُو، وتدبير يتضاعفُ على ممرّ الأيام ويرْبُو، ونظرٍ لا يعزُب عن مباشرته فيه مثقالُ ذرّة إلا وهي من خاطره في قرار مكين، وضَبْطٍ لا تمتدّ معه يدُ لامس (١) [اليهـا] إلا ويجد من مرهَفه مايكُفُّ كفَّها عن الخيانة بالحقّ المبين؛ وليضاعِفْ همّتــه في مصالح هذه الجهة التي عدَقْناها بنظره السعيد، وليوفّر عزْمتَه فإن الحازم من ألقى السمْعَ وهو شهيد، والوصايا كثيرةٌ ومثــله لا يُدَلُّ عليها، والتنبيهات واضحةٌ وهو ــ وفقه الله ــ أهدى أن يُرشَــدَ إليها؛ والله تعالى يوفّقــه في القول والعمَل، ويُصْلِــح بجميل تدبيره وحميد تأتّيه كلَّ خلل؛ بمنّه وكرمه! .

الطبقـــــة الثـانية

(مَنْ يُكتب له في قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بغــير ياء أو «مجلِس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفــــــة الأُولى

(كتابة الدَّرج)

وصاحبُها هو الذى يقومُ بالإسكندرية مَقــامَ كاتب السرّ بالأبواب الســلطانية في قراءةِ المُكاتبة على النائب، وكتابةِ الأجوبةِ وما يجرى مَجْرى ذلك .

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال شاملًا فضــلُه، كاملًا عدلُه، هاملًا بالإحسان وبْلُه، متّصلا بالجميل حَبْلُه، ملاحِظًا بعين العنايةِ للبيتِ الزاكى فرعُه الطيّبِ أصلُه، معليا نَجمَه إلى أسنى المراتب التى لا ينبغى أن يكون محلُّها إلا محلُّه ــ أن يستقرّ فلان

(١) في الأصل ملتمس الا الخ .

فى كتابة الدَّرْج بثغر الإسكندرية المحروس على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلى آخر وقت : لأصالته المُعْرقه ، وغُصون نَسبه المُورقه ؛ وآدابه الجَمَّه ، وفضيلته التى أبدى بها علمَه ؛ وكتابتــه التى حلَّت المَهارق ، وأبدَتْ من الجواهر ماتَمَنَّى لمسَه المَفارق ؛ وتَذْوِى لنضارته أزاهرُ الروض النَّضير ، وتتفرَّد فى الحسن فلا تجِد [لها] من نظير ؛ وتبرُز كالعقُود فى أجياد الترائب ، وتُنْشئُ كُتُبا تغنِى عن الكتائب ؛ مع ماله من رآسة أثبتَت مَعاليَه ، ونفاسةٍ أضحتْ بجواهرها الأوصافُ حاليَهْ ، وصَــدَارةٍ توالتْ منه فاستوجب بهــا مزيدَ الحسنى المتواليــه ؛ قد خُوّل فى كرم الأصل فلا غَرْوَ أن أمسى نجيبا ، ودعا بديعَ اللفظ ولطيفَ المعنى فغدا كلٌّ منهما لأمره طائعًا وبالإذعان مُجيبا ، وعلا كوكبُه فأضحى فى الرِّفعة بعيــدا وإن كان فى مَرْأَى العين قريبا ؛ وزكا من أكابره إلى كل فريدٍ فى سُؤْدَده ، واحدٍ فى عُلَاه يَفُوق الجمعَ فى عدَده ؛ فهو إنسانُ عينِ زمانه ، ومالكُ زِمام الإنشاء ومُصَرِّف عِنَان بنانه ، ومُبْرِز الحسنات بسفارته المقبولة وإطلاقِ بَيانه ؛ فلا غروَ أن آستوجبَ منّــا مايقْضى له بالمَزيد ، وآستحقَّ بآتِّباع أصــله العالمِ التقىّ إدراكَ مايُريد ؛ وتحلَّى بمناقبه ومآثره ، ونقل عن عَفَافه ومَفاخره .

فليستمرَّ فى ذلك على أجمــل عوائده ، وأجزل فوائده ؛ سالكًا فى ذلك طرائقَــه الحميــدَه ، ومناهجَه ومناهجَ أسلافه السَّديده ؛ مُبْرِزا من خَطِّه مايُخْجِل به الطُّروس ، ويَسُرّ بمزاياه النفُوس ؛ ويُنْظم كالعقُود ، ويلوح للأبصار حسنُ رونقه [المشهود] ، والله تعالى يجعل إحسانَنا لدى بيته الكريم مستمرّا ، وآمتنانَنا العميمَ عنده مستقِرّا ، وثغْرُ العِناية به مفتَرًّا ؛ بمنّه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانيـــة

(نظرُ دار الطِّراز بثغر الإسكندريَّة)

وهذه نسخةُ توقيع بذلك ، كُتِب بها لصلاح الدين بن علاء الدِّين عليّ بن البرهان ، سنةَ إحدى وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهابِ الدين كاتب الإنشاء ، وهى :

رسم بالأمر الشريف ــ لا زالَ إيثارُه ، يُكْرِم مَنْ غدا صلاحُه لحُلّةِ العُلىٰ طِرازا ، وٱختيارُه ، يقدِّم للمناصب الجليلة من ورِثَ من أبيــه نهضةً وٱحترازا ــ أن يستقر فلان فى كذا : لكفايتــه المعروفة المحقَّقه ، ودرايته المألُوفة بركاتها الموفَّرةُ وحركاتُها الموفَّقه ، وديانته التى منها الأ كابرُ علىٰ ثِقَه ، وأمانتــه التى تعتمِدُ الحقَّ مســتَدْعِيةً ومنْفِقه ، وصيانتِه التى هى للواصل حافظةٌ وعلى الحاصل مُشْفِقه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى كانت فى سالفِ الزمان إلى الحُكَّام تُضَاف ، وللعلمــاء الأعلام عليها نظرٌ وإشراف ؛ ومنها يُسْدَل علىٰ أوليائنا لباسُ الإنعام وترسَلُ أجناس الإتحاف ، وتُسربَلُ الكعبةُ البيتُ الحرامُ فى كلِّ عام بجِلْبابهـا المحكم النَّسْج المُعْلَم الأطراف ؛ وليصُنْ ذَهَبها عند صَرْفه وقَبْضه ، وليَزِنْ خزَّها بتقريبِ مَشُوبه وتحرير مَحْضه ، وليُبِن عن حسن التدبير فى إبرامِ حريرها ونقْضِــه ؛ وليستَجْلِب رجالَهــا وصُنَّاعها ، وليُجنِّبْ أحوالَها ضَيَاعها ، وليْستجِدْ أصنافَها وأنواعَها ، وليتفقَّد أكْفافها وبِقَاعها ؛ حتَّى يُظْهِر فى أعمالها آثارَ الصلاح ، وتُشكَر مباشرتُه التى هى محمودةُ الآنتهاء مســعودةُ الآفْتتاح ؛ والله يَقْرُن رجاءه بالإرباح ، ويُؤْذِن له حيثُ ســلَك بإصابة الصواب والفلاح ، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطِّراز هذه هى التى تُعمَل فيها المستعملاتُ السلطانية : ممـا يُحمَلُ إلىٰ خزانة الخاصّ الشريف من الأقمشـة المختلفةِ الصِّفات : من الحرير والمقترح المخوَّص بالذهب، والتَّفاصـيل المنقُوشة بضروب النقوش المختلفـة، وغير ذٰلك من رقيق الكَتَّان وغيره ممـا لا يُوجد مثلُه فى قُطْر من أقطار الأرض؛ ومنه(١) تُتَّخذ الأقمشةُ التى يَلْبَسها السلطان وأهل دُوره؛ ومنه تعمَلُ الخِلَع والتشاريفُ التى يَلْبَسُها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكة؛ ومنه تُبْعَثُ الهدايا والتُّحف إلىٰ ملُوك الأقطار. وقد كان يُكتب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السـلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية علىٰ ما تقـدّم ذكره. أما الآن فقـد صار ذٰلك تحتَ نظر ناظر الإسكندرية يتحدّثُ فيـه كما يتحدّثُ فى سائر أمورها، ومرجع الكلِّ إلىٰ ناظر الخاصّ بالأبواب السلطانية.

الجهـــة الثـانيـــة

(ممـا هو خارج عن حاضرتَىْ مصر والقاهرة بالديار المصرية ــ بلادُ الرِّيف)

والمراد بالرِّيف فى أصل اللغة موضعُ المِيـاه والزَّرْع.

وقد تقدّم أنَّ رِيفَ الديار المِصريّة وجهان :

الوجـــــه الأوّل

(الوجه القِبْــلى، وهو المعبَّر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنه ينقَسِم إلىٰ صعيد أعلىٰ، وصعيدٍ أسفَل. وقد كانت ولايتُه العامّةُ فى الزمن المتقـدّم يعبَّر عن صاحبها

---

(١) الضمير عائد على ما تقدم من الحرير والكتّان.

بـ«والى الوُلَاة بالوجه القبلىّ» ثم ٱستقرّتْ نيابةَ سلطنة على حدِّ تَقْدمة العسكر بغزّة فى رُتْبة المكاتبة، فى الأيّام الظاهرية «برقوق» وهى على ذلك إلى الآنَ . ونائبُها يكتب له تقليدٌ بنيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليدٍ شريفٍ من ذلك ، من إنشاء الشريف «شهاب الدين» كاتبِ الإنشاء ، وهى :

الحمـدُ لله الذى رَحِم بتعاهُد نظرِنا البلادَ والعِباد ، وحَسَم بموارِدِ زواجِرِنا موادَّ الفَساد ، وأحمدَ فى هذا الوجهِ لنا الآثارَ ووطَّأ بنا المِهاد ، وأفردَ آراءَنا بجميع المصالح على الجَمْع والإفراد ، وأوْلَى بنا الرعيةَ الخيرَ فى ٱسترعاء مَنْ يبذُل فى صيانتهم الاجتهاد ، وأعْلَى بنـا كلمةَ العدل فهى تُنشَر وتُذَاع وأوهى بنا كلمةَ الظُّـلم فهى تُقْهر وتُذَاد ، وأجلى بانتقامِنا فئةَ الضلال فلها عن مُلكِنا الشريفِ ٱندفاع وٱنطِراد [1] .

نحمده على أنْ قرَن بآرائنا السَّداد، ونشكره على أنْ ضمَّنَ ٱصطفاءنا حُسنَ الارتياد؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة تقُوم حُجَّتُها ، يوم يقُوم الأشهاد، وتدُوم بهجَتُها ، علَمًا للإرشاد؛ ونشهد أنَّ سيد البشر محمدًا عبدُه ورسولُه الذى فَضَل العالَم وساد ، وأجزل المكارمَ وجاد، وهَدى بشَرْعه مَن حَادْ ، وأزدى بَرْدعه من حادّ ، وأجرى بجُوده النفْع حيثُ كان وأبدى ببأسِه القَمْع لمن كاد، وأخمدَ بأسيافه الباطلَ فبَادْ، وجعل لِأنفِ مخالفه الإرغامَ ولجيش مجانفه الإرعاد ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِـه الأنْجاب الأنْجاد، صـلاةً لهـا تضاعفٌ وتَعداد، وبفتَكاتهم (؟) للنوائب إخماد؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

(١) دعته مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهلَ اللغة على أنها لغة رديئة . فتنبه .

وبعد فإنّ الله تعالىٰ لمـا أعلىٰ هِمَمنا وأصعدَها، ووفّى عزائمنا من النصر مَوْعِدَها، وأسعف بمُلكِنا الرعيةَ وأسعدَها، وضاعف بنا لديهم النِّعمة وجدّدَها، وأوضح بنا سُبُل المَعْدَلة وجدّدَها، وأنجح بسُلْطاننا آمالَ الخليقة وأنجدها - لم نُخْل من ملاحظتنا أدنىٰ الأقطار ولا أبعدَها، ولم نُغْفِل من ممالكنا ناحيةً إلا نَحَاها فضْلُنا وقصدَها فأقرَّ بها الصالحاتِ وخلَّدها، وأثَّر بها المسامحات وأبَّدها، ونصر الشريعةَ وأيَّدها، وسدَّ الذَّريعةَ بأفعال حزمٍ سدّدها، ووطّن أهلها ووطّدَها، وأورد مَنْ بها موارد الأمن لمـا وردَها .

ولمـا واجه إقبالُنا فى هذه الأيّام الوجْهَ القِبْلىّ، وصعِد إلى الصعيد الأعلىٰ ركابُنا العَلِىّ، لحنا بلادَه وتعدُّدَها، وتعيَّنَ ملاحظتِه وتأكُّدَها؛ وكثرةَ السُّلَّاك لسُبُله، والمُلّاك لحَوَله؛ والوُرّاد لَنَهَلِه، والوُفَّاد من قِبَله؛ وهو مَنْهج التّجار فى التوجه من أبوابنا الشريفة والحواز، وبابُ اليَمَنِ والحجاز؛ وفى الحقيقة هذا المجازُ يتعين له الحفْظُ وفيه الاحتراز؛ وبه كَرَاسِىٌّ منها السّيارة تمتازُ وعلىٰ سواها من البِلاد تمتاز، وبه مَراكِزُ وُلاة ينفرد كلٌّ منها عن الآخَر ويَنْحاز؛ وهى : إطْفِيحُ، والبَهْنَسىٰ، والأُشْمُونين، ومَنْفَلُوط، وسَيُوط، وإخْمِيمُ، وقُوص . وهذه الأقاليم مجتمعةٌ متفرّقه، وحدودُ بعضها ببعضٍ متعلّقه؛ وبها إقطاعاتُ مقدّمى الأُلُوف والطّبلخاناه والمماليك والحَلْقه، وإليها تردّدُ الرَّكّاضة والمرتزِقه، ورُبَّمـا أخاف المفسدُون من بعضها سُبُلَه وقطَع طُرُقَه؛ فاتُّهِم البَرِىّ، وسَلِم الجَرِىّ، ولُبِّس علىٰ من هو عن الخيانة عَرِىّ؛ فرأينا أنْ ننْصِب بهذه الأقاليم والِىَ وُلاة يجُوس بنَفْسه خِلَالَهـا، ويدُوس بخَيْله سَهْلَها وجبالَهـا؛ ويَفْجَأ مُفْسِدها، ويَبْعَثُ بَعْثَه بها؛[1] ويخْمِد نِفاقَها، ويُحْمِد وِفاقَها؛ ويُنْصِف ضِعافَها، ويُذْهِب خلافَها؛ ويُزِيل شَكْواها، ويَكُفّ عَدْواها؛ ويُصْلِح

(١) فيه تصحيف ولعله «ويفجأ مفسديها، ويبغت معتديها» .

فسادَها ، ويُوضِّح سَـدَادها ؛ ويوصِّل حقُوقَها ، ويستأْصِل عُقُوقَها ؛ ويُواصِـل طُروقَها ، ويقابِل بالعِقاب فُسوقَها ؛ ويمنَع بِاهتمامِه ، أهواءَها ، ويَشْفِى بحُسامِه ، أدْواءَها .

ولما كان المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الحُسَامىّ هو الذى عَرَف أحوالها وخبَرَها ، ووَلِىَ من أقاليمها ما علِم به مصالِحَها واْعتبَرَها ؛ وعُهِدت منـه الأمانةُ والكِفايه ، وتُحُقِّقتْ نهضتُه فى كل عمل ويقظَتُه فى كل وِلَايه ـ اْقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن تُفوّض إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بهذه الأعمـال المذكورة والأقاليمِ كُلِّهـا ، وأن يَنْتضِى فيها حُسامَه الذى ينبغى أن يُرتضَىٰ ويُنْتضَىٰ لمثلها ؛ وأنْ يَحُلَّ مَحَـلَّه إذ اْختَرْناه لأعلىٰ رُتَب الوُلاة واجلِّها ، وأن نصِلَ أسبابَ النعمة لديه بهذه النعم التى كلُّ ولايةٍ فرْعٌ لأصْلها .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أيامه الشريفـة تَخُصّ الرتبَ العليـة بأهلِها ، وتشْمَل ذَوِى الاْهتمام بإحسانِها وفضْلِها ـ أن يُفوّض إلىٰ المشار إليه ولايةُ الوُلَاة بالوجْه القبلىّ . فلْيباشِرْ ذٰلك بهمّة تَمْضِى فى البلاد عزائِمُها ، ونهضـةٍ تسير إلىٰ دانيها وقاصيها صوارِمُها ، وشهامةٍ يُدْهِش المتمرّدين قادِمُها ، ويَفْقِدُ موادّ الفساد من حُسَامها حاسِمُها .

ونحن نَرسُمُ له بأمور يُلازِمهـا ، ونُوصِـيه بوصايَا يُداوِمُها ؛ أن يكون بتقْوىٰ الله تعالىٰ عامِلا ، وللنُّصْح باذِلا ؛ وللشريعة معظِّما ، ولمراقبة الله تعالىٰ مقَـدِّما ؛ وللحقِّ متَّبِعا ، وإلىٰ الخير مُسْرِعا ؛ وللمؤمنين مؤَمِّنا ، وللمنافقين مُوَهِّنا ؛ وللرَّعايا موَطِّنا ، وللنَّزاهة مُظْهِرا ومُبْطِنا ؛ وعن الأبْرِياء كافًّا ، وعن الأتقياء عافًّا ؛ وعن الأموالِ متَنَزِّها ، وإلىٰ ما يُصلِح الأعمـالَ من صالح الأعمـال[1] موَجِّها . وليَغْـدُ فى الأمور متثبِّتا ، ولذوى

(١) فيه شبه استخدام . فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتّتا، ولسماع حُجج الخصوم منصتا ، ولا يجعلْ لحلوله الأقاليمَ حِينًا مؤقّتا، بل يدخُل المدينةَ علىٰ حينِ غفلةٍ من أهلها، وليَبْعَثْ بحُلُوله هذه النواحىَ ليَعْلَمَ ما هم عليه من ترك الفواحش أو فِعْلها، وليُقِمْ بكل جهةٍ مَنْ يُعْلِمه بما يحتاجُ إلىٰ عِلْمه، ويُبكِّر له بما يفتقر أهلُ البلاد إلىٰ السَّتْر عنه وكَتْمه، وليَلْحظِ المحارسَ والأَدْراك، وليجعَلْ لكل شاردٍ من بَطْشه أسرَعَ إدْراك — وقد رسَمْنا لوُلاة الأعمال المذكورة ومَنْ فيها من نوّاب الأُمَراء والمشايخ بهذه الصورة وأنْ لا يُجيروا مفْسدا ولا يُئْوُوه، ولا يُنْزِلوا خائنًا ولا يَحْوُوه، ولا يستُرُوا مختفيا ولا يَخْبُوه، ولا يُحِلُّوا نازحًا ولا يُوطِّنوه؛ بل يحضِرُوه ولا يؤخِّروه ، ويُمْسِكوه ولا يَتْركُوه، ويُسْلِموه ولا يَحْمُوه ؛ ومَنْ خالف هذا المرسومَ، أو ٱعتمد غير هذه الرُّسوم، فهو لنفسه ظَلُوم، وقد برِئَت منه الذِّمه، وزالتْ عنه الحُرْمه ، وزلَّتْ قَدَمُه ، وذهبَ مالهُ ودَمُه ؛ وقُرِئت مراسيمُنا بذٰلك هنالِك علىٰ منابر الجوامع ، وسمِعها كلُّ سامع ، وهُم لك علىٰ ٱمتثالِ أوامرِنا مساعِدُون ، وعلىٰ ٱجتنابِ نَواهينا معاضِدُون ، وللإصلاح ما ٱستطاعُوا مُريدونَ وقاصدُون؛ فلا تمكِّنْ أحدا من العُرْبان ولا من الفلَّاحين أن يركبَ فَرسا ، فإنما يُعِدّها للخيانة مختَلِسا ، ولا يكونُ لها مرتَبِطا ولا محتَبِسا ؛ وكُنْ لهم مُلاقيا مُراقِبا ، فمن فعل ذٰلك فانتقِمْ منه بما رسَمْنا معاقِبا؛ ولا تمكِّنْهم من حمل السلاح ولا ٱبتياعه ، ولا ٱستعارته ولَا ٱستِيداعِه ، وتفقّدْ مَنْ بالأقاليم من تُجّاره وصُنّاعه ؛ فخُذْ بالقِيمة ما عند التُّجّار ، وٱقمَعْ بذٰلك نفَسَ الفُجّار ، وأضْرِم نارَ العذاب علىٰ من أضرَمَ لعمل ذٰلك النار ؛ وأمُر كلَّ فئتين متعاديتين بالمصالحه ، وٱكفُفْ بذٰلك يَدَ المكافحه ، وحَلِّف بعضهم لبعضٍ بعد تحليف أكابرهم لنا على السِّيرة الحميدة والنِّيّة الصالحه ، وخُذْهم فى الجنايات بالعَدل والمشاححَه ، وفى المطالبات بالرِّفْق إن لم تكنْ مُسامحَه ، وٱحمِلْهم علىٰ محجّة الحق الأبلَج والشريعة الواضحه . وإذا رُفِعت إليك شكوىٰ فأزِلْها ، أو سُئِلتَ إقالةَ

عثرة لذى هيئة فأقلها، أو وجب حدٌّ فأقمه لحينه، أو ٱرتبت فى أمر فتروَّ حتّى تهتدى ليقينه، ولا تعتقل إلا من أجرم جُرما يوجب الاعتقالَ والحبْس، ولا تُسرع إلىٰ ما تخشىٰ فيه اللَّبس، وٱعمل علىٰ براءة الذِّمّه، وٱجهدْ أن لايكون أمرك عليك غُمّه، ولا تُرجّح للهوىٰ علىٰ خَصْم خَصْمه، ولا تَظْلمه فانَّ الظُّلم ظُلْمه، وخَف نقمة الله فهى أعظمُ نِقْمه، ولا تأخُذْك علىٰ البرىء غِلظةٌ ولا قَسْوةٌ كما لاينبغى أن تأخُذَك فى الجرىء رأفةٌ ولا رحمــه، والله تعالىٰ يرفعُ لك بالطاعة رُتَبــا، ويُنْجِح لك بالخدْمة طلبا، ويبلّغ بك فى الإصلاح أرَبا، ويردُّ بك أمر كل مفْسِد مخيَّبا، ويُوضِح لك من الهــداية مُغَيَّبا، ويُنْزل بك من الخيرات صَيِّبا، والخطُّ الشريف أعلاه، حجــة بمقتضاه. إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالوجه القِبْلِىّ أيضا، من إنشاء الشريف شهاب الدين، كُتب به «لعلاء الدين المُرادى» وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ إقبالَنا مُسْفِر الوجُوه، ونَوالَنا مبلِّغا كلًّا من الأولياء ما يؤمِّلُه من القُرْب من أبوابنا الشريفة ويَرْجُوه، وإفضالَنَا يوفِّر أقسامَ النِّعم لمن وَفَّر دواعيَه علىٰ طاعتنا فلا يزال ٱستحقاقه يُعيِّنه ويدْعوه، وإجمالَنا يُنْجِز وعود التقديم لمن تعدّدتْ خدمُه فلا يتجاوزُه التكريم ولا يعدُوه.

نحمَدُه علىٰ أنْ جعــل إنعامَنا يهَبُ الجزيل ويحْبوه، ونشكره علىٰ أن أقامَنا نُحِقُّ الحق فنرفَعُه فيدمغُ الباطلَ ويعلُوه.

ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً هى خيرُ ما ينطق به الإنسان ويَفُوه، لا يبرحُ اللسان يكرِّر إخلاصَها ويتلُوه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى رفع الله ببعثته عن هذه الأمّة كلَّ مكروه، وحمىٰ بشرعته الدينَ الحنيفَ فلا يُلِم به التبديلُ ولا يَعْرُوه ، وأفاضَ ببركاته فى كل وجهٍ ما يُوسِع الخيرَ ويُدِرّه ويمنع الشَّر ويَدْرُوه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم عِترتُه وأقربوه ، وصَحْبه الذين ٱستمعُوا قولَه وٱتّبعوه، صلاةً لا يزال وافدُها يَتْبع سبيلَ الإجابة ويَقْفُوه، ويصلُ إلىٰ محل القَبُول ولا يَجْفُوه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإنَّ الله تعالىٰ لما قَرَن آراءَنا بالسَّدَاد ، وأحسَن بنا النظرَ فى صَلاح البِلادِ ومَصالحِ العِباد، لم نزَلْ نرفَع أقدار المخلِصين بمزيَّة الاختيار والارتياد، ونجمُعهم فى صعيد الإحسانِ ونُحِلُّهم رُتَب الإصْعاد ، ونُدْنِى منهم من له تامُّ ٱهتمام وشادُّ اجتهاد ، ونميز منهم من حَسُن حالًا بالجمع والإفراد .

والولايةُ علىٰ الوُلاة بالوجه القبليِّ من أهم ما يُلْمَح، وأعمِّ ما يختار له مَنْ للحق يَنْصُر وللخلق ينصَح ؛ إذ بهذا الوَجْه عُيون البُلْدان ، ووجُوه العُرْبان، وكراسىُّ الأقاليم الحِسان، ومراكزُ الوِلايات التى تُحِلُّ دائرةَ السَّوْء بأهل العُدْوان؛ وإقطاعاتُ الجند والأمَراء، والخواصِّ الشريفةُ التى علىٰ عمارتِها إجماعُ الآراء؛ وعليه تتردَّدُ التُّجَّار، وإليه بالمِيرة يُمْتار ، ومنه تتعدّدُ المنافعُ فيتعيَّن أن ندفَع عنه المَضارّ، ونُلقِىَ أمورَه لمن يُنتقىٰ حزمُه وعزمُه ويُختار .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى له وِلاياتٌ ٱقتضتْ تقديمَه ، وسبقَتْ منه سوابقُ خِدَم أجزلَتْ تكريمَه، وما زالَ فى الشامِ علىّ الهِمَّة حسنَ الشِّيمه؛ وطهَّر البَرّ من كل فاجر، ورأىٰ أن التَّقوىٰ أربحُ المتاجر، وأعذَبَ للرعية من المَعْدَلة المواردَ فصدَر من أبوابنا إلىٰ أحمَد المصادر ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نجعلَ له من إقبالنا النصيبَ الوافر. فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يزيد الأقدارَ علاء ويُظْهرها

من تكريمه فى أحسنِ المَظَاهر ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالوجه القبلىّ وجميع نواحيه، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك ومستقرِّ قاعدتِه إلىٰ آخرِ وقت .

فليتلَقَّ هذه الولايةَ المباركة بقَبُولٍ حسَن، وليُوقِظْ جَفْن سَيْفِه الذى لم يعْرِف الوسَن ؛ وليتّقِ الله ربَّه فى السِّرّ والعلَن ، وليُحكم بما شَرَع الله وسنّ؛ وليجتهِد فى إخماد العواقِب وإخماد الفِتَن ، ليَسْكُن من تردّد إليها أو سَكَن . ولْيلاحِظ هذه الأقاليمَ بعزائمه السَّيّاره، وليحافِظْ علىٰ سلوك سِيرته الساره ؛ وليستَطْلِع من كل بلد أخبارَه، ويتتبّعْ من كل والٍ آثارَه؛ وإن رأىٰ منكرًا أزالَه ، أو وجد مُبْطِلا أذاله أو حقًّا أدالَه ؛ ولْيعظِّم أحكام الشرع وحُكّامه، وليجعَلْه إمامَه ليَسْعىٰ نورُه أمامَه ؛ ولْيطالِعنا بما نتعيّن فيه المطالَعه، ويراجعْ أوامرَنا فيما تجب فيه المراجَعه ؛ ولْيستجلِبْ لأيامنا الأدعيةَ النافعه، ولْيباشِرْ بنفسه الأمورَ التى هى له راجعه؛ ولْيراعِ فى القضايا المصلحةَ الجامعه ، ولتكُن حِمايتُه للمؤمنين واقية وفَتْكتُه بالمجرمين واقعه؛ ولْيَسَع الرعايا بالمعْدَلة الواسِعه ، ويمنع المجترِئين بالأَخْذة الرابِية والهَيْبة الرادِعه ؛ ولا يمكِّنْ أحدًا من العُرْبان بجميع الوجه القبلىّ أن يركَبَ فرَسا ولا يقتَنِيَه، ويكف بذٰلك الأيدىَ المعتدِيةَ فإنّ المصلحة لَمنْعهم من ركُوبها مقتضِيَه؛ وليُقِم الحُرمةَ والمَهابه ، وليُدِم قيامَه فى الخدمة وٱنتصابَه ، وليُرهِف حدّ عَزْمه ويُمضيه ، ويجرِّدْ سيفَ الانتقام على المُفْسِدين ويَنتَضِيه؛ ومن وجده من العُرْبان خالفَ المرسوم الشريفَ من مَنْعه من ركوب الخيل كائنًا من كان ضرب عُنُقه، وأرهقَه من البطش بما أرهقَه : ليرتدعَ به أمثالُه، ولا يتّسِع لأحدٍ فى الشرِّ مجالُه .

وقد كتَبْنا إلىٰ سائرِ وُلاة الأقاليم بمساعدته ، وأَمرْناهم بمعاوَنته ومعاضدته ، وأكّدْنا عليهم فى المبادَرة إلىٰ مايراه من جميع الأمور، من غير تهاوُنٍ ولا تقصير

ولا فُتُور، حتّى لا تفوتَ مصلحةٌ عن وقتها، ولا تزال جموعُ المعتـدين معاجلة بكَبْتها، وقد حذَّرنا العُربان من مخالفة مارسْمنا بالتعرّض لما يوجب هلاك نفُوسهم، وقطْعَ رءُوسهم .

وليُقْرأ هذا المرسومُ الشريفُ على المنابر بجميع نواحي الوجه القبلي لتمتَثلَ مراسمُه، ويتلَقّ بالقبول قادمُه، وليقفوا عنده، ويَقْفُوا رُشْـده ، ويرهبُوا من الشرّ وعيـده ويستَنْجزوا من الخير وَعْدَه؛ وهو ـ بحمـد الله ـ ما برح مهـذَّبا ، وبآ كمل الآداب مؤدَّبا، وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقتربا؛ والله تعالى يجعلُه مختارا مجتبى، ويُوزِعُه شكرَ مَنْحنا الذى أجزل له الحِبا ؛ وخصَّ به هـذا العملَ الجليلَ فضاعف خِصْبَه واهتزَّ وربَا، ويُطلعه مباركا ميمونًا حيثُ حلَّ قيل له : مَرْحبا؛ ويَصْعَدُ به هذه الرتبةَ ويهبُه توفيقًا مستصْحَبا، ويمهِّد به الطرُقَ للسالكين حتّى يتلُوَ عليه لسان التأمين : ﴿ فتيمَّمُوا صَعيدًا طَيِّبا ﴾ ؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجـةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .

* * *

وهـذه نسخة تقليد شريف بنيابتـه أيضا ، من إنشـاء المَقرّ الشهابيّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مطلِق التصرّف فيما كان ممنُوعا، ومُنطِقِ المتصَرِّف ليكون قولُه الصوابُ مسموعا، ومُوسِّع نطاقِ المَصْرف فى جميع ما تعيَّن أن يكونَ له مجمُوعا .

نحمدُه حمدًا يعذُب ينْبُوعا ، ويُنبِت بمزيد الشكر زُرُوعا ، ويُدِرّ ضُروعا، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تتفرّعُ فُروعا ، وتسكِّن جُموعا وتسكِّتُ جُمُوعا؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسولُه الذى أقْوى لأهْل الطُّغيان رُبُوعا، وأجرى

لعيون الزَّرَد عليهم دُمُوعا ؛ وأغْرَى القِسِىَّ بالحَنين إليهم وُرُوعا ، وأسقط على لَبَّاتهم طُيورَ السِّهام وُقُوعا ؛ ومهّد البلاد بقتْلاهم فآمَن مَنْ خاف وأطعَمَ من تشَكَّى جُوعا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحْبه صلاةً تعمُّ دِرْع الفجْر بشفقها المخَلَّق صُدُوعا ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّه لايستقيم نجَاحُ الأمور ، ويُستدامُ صَلاحُ الجمهور ، إلا بتفقُّد أحوال وُلَاتِهم ، وتعهُّد سُلوكِ الرعايا مع رُعاتِهم ؛ وردُّ مجْموع كلِّ عمل إلى من لا يبيتُ طَرْفُه فى مصالحهم مملوءًا من الوسَن ، ولا يَقِرّ له فى التنقُّل فى مُهِمَّاتهم جَوَادٌ فى رَسَن ؛ ولا تهْدأُ سيوفُه فى الأغماد ما بَرَقت بارقةُ فِتَن ، ولا يَشْربُ الماءَ إلا ممزوجًا بدمٍ ولا يبيتُ [إلا] على دِمَن ؛ وكانت الديارُ المصريةُ المحروسةُ أحْوجَ شىء إلى هذا الموصُوف ، وأكثرَ اضْطِرارا إلى ما تُشامُ له فى صَلَاح رعاياها لوامِعُ سُيوف ؛ والوجهُ القبلىّ بها هو الجامعُ ما يَزِيد على السَّبعة الأقالِيم ، الحائزُ من أهل الحضَر والبادية لكلِّ ظاعنٍ ومُقيم ؛ قد امتدَّ حتَّى كاد لاينتهى إلى آخِر ، ولا يلْتَهى بما يكْنُفه من برٍّ مُقْفِر وبحرٍ زاخر ؛ قد جاوَر بالأوْدِية العميقة الحُوتَ فى الماء وجاوَره فى السماء برفعة الجبال ، وتَطاولَ حتَّى اتَّصل طرَفَاه الجنوبىُّ بالجَنُوب والشَّمالىّ بالشَّمال ؛ وحوَتْ مجَارِيه من النيل المبارَك [ما]مَدّ الرِّزْق الممتدّ ، وأمدّ المَدّ المبيَضّ على عَنْبرة ثَراها المُسْودّ ؛ وهو الوجْهُ الذى تُعْرَف فى كوْثر نيله نَضرةُ النَّعِيم ، ويبْهر حُسْنا من أوّل قَطْرةٍ تقع من مرْآه الجميل على وَسِيم ؛ قد حالَ فيه الماءُ محمرًّا كأنما يَشْربُ نَدَى وَرْد الخدُود ، وحَلَا كأنما ضُرِبَ الضَّرَبُ فى لَمَى رِيقه المورُود ؛ وكان لا ينْهَض بأعبائه ، ويُرَدّ بالغَيْظ متقرِّحةً عيُونَ رُقَبائه ، ويمنع كلَّ منْسَرٍ مُنْسِرٍ يحْذَر أن ينتهب وذِيلَ[1] خِبَائه ؛ إلا مَن تقدّمت له دُرَبٌ يتعلَّم فى جليل الخُطُوب من مَضائها السَّيفُ

(١) فى الأصل «أن ينته وديل» .

المُذَرَّب، و يقتَدِى فى دقيق التلطُّف بسياستها القَلَمُ المجرَّب ؛ وكان فلانٌ هو الذى تَتهادىٰ كفايَتُه الأعمال، ويَتعادَىٰ نفعُه والسُّحبُ فلا يُدرَىٰ لمن منهما التروِّى ولمن الارْتِجال ؛ وقد وَلِىَ الأعمالَ البَهْنساويَّةَ وهى فى هذا الوجهِ الجميلِ أبهجُ صُوره ، وأبهىٰ فيما تكثُر منافعُه المشهوره ؛ فأضحىٰ المَغَلُّ فى بَيَادِره يتَبادر ، والإقبال يتكاثرُ إقبالُه والمَحْل يتَنازَر، ومُزْدَرَعاتها تُعرَف سيماها فى وجُوهها من أثرِ سجودِ الليلِ كزرعٍ أخرجَ شَطْأَه فاستازَر؛ فاقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُطلِق تصرُّفه فيما جاوره من الأعمال ، وأن نَشْغَل له يمينًا باليمين وشمالا بالشِّمال .

فخرج الأمر الشريفُ العالى ـ لا زال يؤيِّد عزَّ الدين ظُهورا، ويُتِمُّ له فى أعماله نُورا ـ أن يكون فلان كاشفًا ووالِىَ الوُلاة بالوجه القبلىّ بأجمعه : معَطَّله ومزْدَرَعه ؛ وبَرِّه وبحرِه، وعامِرِه وقَفْره، وأهلِ حضَرِه وباديتِه، وأصحاب زَرْعه وماشيتِه ؛ علىٰ عادَة من تقدّمه وقاعدَتِه فى ذٰلك، ليأْمَنَ المقيمُ والسالك؛ ويجمعَ على الطاعة مَنْ قِبَلَه هُنالك، وينتظِمَ عِقْدُ عقائدهم المُتهالك؛ ويقوىَ الله أجْره، والشرعُ الشريفُ يكون نهيَه وأمْرَه؛ والحُكّام والأحكامُ هما ماهما فليحفَظْ زِمامَهما، ولينَفِّذْ إلى الأغراضِ سِهامَهما ؛ وليوصِّل الحقوقَ إلىٰ أربابها ، ويسَهِّل المطالبَ علىٰ طُلّابها ؛ ولْيُنصِف إنصافا لا يُشتكىٰ معه حَيْف، وليُقِم المهابةَ حتَّى لا يَقْدِر علىٰ التعدّى طارقُ طَيْف؛ وليجَرِّد عزائمَه فإنَّ من العزائم ماهو أمضىٰ من السَّيْف، وليُحسِنْ قِرَى النِّيلِ القادمِ فى كل قريةٍ فإنّه ضَيْف .

فعلَيْك بما نأمُرك به من تعْبئة صُفُوف الجُسور لأمْداده، والاستعدادِ لجرْ عَوالى صَواريه ومجْرىٰ جِيَاده ؛ وتفقَّدْ قبلَ قدُومه طرِيقَه ، واتْرُكْ عن رَىِّ البلادِ تعوِيقَه ؛ وأقِمِ الجُسور، فهى قِيَام الجَسُور ؛ واحْفِر التِّراع[1] فإنها تُراعىٰ، وأسْفرْ له

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة وإنما الترعة كغرفة إفرادا وجمعا .

عن عرائس قُرَاها المجلُوّة وُجُوها كلَّما قسْنَ له إصْبَعا يَقِيسُ ذِرَاعا ؛ واقطَعْ بإيصال حقٍّ كلِّ ناحيةٍ إليها من الماء مُنازَعةَ الخُصُوم ، ونَبِّهْهم أنَّ الماءَ قِسْمةٌ بينهم لكلٍّ منهم شِرْبُ يومٍ مَعْلُوم ، ولا تدَعْ [به أحدا] من أهل المَفَاسد ، ومن جرَتْ لهم بسوابِق الفتَن عوائد ، ومَنْ يتعزَّز بربِّ جاه ، ومن لا يكونُ له إلىٰ حِمايةٍ اتّجاه ، ومَنْ خرَج بوجهِه للشرِّ مُصَرِّحا ، أو لبابِ عقابٍ مستَفْتِحا ، أو وقَف علىٰ دَرْب أو قَطع طريق ، أو توعَّدَ أهلَ رِفاقٍ أو أهلَ فَرِيق ، أو أقدَمَ علىٰ ضررِ أحدٍ فى نفس أو مال ، أو خُشِيت له عاقبةٌ فى بِدَايةٍ أو مآل ، أو نزلَ فى بلدٍ أميرٍ ليتغطَّىٰ بجناحه ، أو ترامَىٰ إلىٰ عُصْبة يحمِلُ منهم حَدّ سِلاحه ؛ فسُلَّ عليهم سيْفَك الماضى ، وأحسنْ إلىٰ الناس إذا خَشِيتَ أن تُسىءَ إليهم التقاضى ؛ ومَنْ أمسكتَه منهم فأمْضِ حكمَ الله فيهم ، وأقِمِ الحدُودَ علىٰ متعدّيهم ، وطَهِّر الأرضَ بماء السُّيوف من أنجاسهم ، وعلِّق منهم أُناسًا بحبْل الوريد إلىٰ مَدَارج أنفاسهم ، وٱصْلُبْ منهم على الجُذُوع من تناوَحُ الرياحُ بسَعَفِهم ، وأوْثِقْ منهم بالسَّلاسل والأغلال من لاتقتضِى جرائمُهم إيصالَهم فى المقابلة إلىٰ حدّ تلفهم . وأكْرِمْ قُدومَ من يَرِدُ عليك من الكارم ، وقرِّر بحُسن تلقِّيك أنك أوّلُ ما قدَّمْناه لهم من المَكَارم ؛ فهم سُمَّار كلِّ نادِى ، ورِفاقُ كلِّ مَلَّاح وحادِى ؛ ولا بُدّ أن يتحدّث السُّمَّار ، وتُتَداوَلَ بينَهم الأسْمار ؛ فاجعلْ شُكرَنا دأبَ ألسنَتِهم ، ومَنَنَا حِلْية أعناقِهم ، ومِنَحنا سببًا لاستجلاب رِفاقِهم ؛ فهم من موادِّ الإرفاق ، وجَوادِّ ما يُحمَل من طُرَف الآفاق ؛ وقد بقِىَ من بقايا أهل العقائد الفاسده ، والمَعاقد البائده ؛ مَن يتعيَّن إقعادُ قائمهم ، والتيقُّظُ لمتيقِّظهم والنومُ عن نائمهم . ونحن نُنَبِّهك علىٰ هذه الدّقائق ، ونُوقفك علىٰ أطرافها ولك رأيُك إذا حَقَّت الحقائق ؛ وطالِعْ أبوابَنا العاليةَ بما أشكل عليك ، لتتنزَّل أنوارُ هُدانا أقربَ من رجْع نَفَسك إليك ؛

(١) لعل حرف النفى زيادة من قلم الناسخ .

*

واقْدُر حقَّ هذه النِّعمة فإنَّا أولَيْنَاك منهـا ما لا يُضاهىٰ ، وولَّيناك من بلادنا قِبْـلةً تَرْضاها ، وتولَّيناك حيثُ وجَّهتَ وجْهك شَطْر المسجِد الحرام ، ونُوِّعت لك أرواحُ الحجاز وأنتَ فى مصرَ وريفِها العامّ ؛ والله تعالى يديم منك سَيْفا يَرُوع مَهَزُّه ، ويؤيِّدُ بك الدِّين فإنه بك يقوم جاهه ويدُومُ عزُّه ؛ والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه . إن شاء الله تعالىٰ .

الوجـــــــه الثـانى

(من وجهى الديار المصرية البحرىُّ ، وهو الشَّمَالىّ)

وكانُوا فى الزمن القديم يخصُّونه بِآسم الرِّيف ، مثل آختِصاص الوجْه القبلىِّ بالصعيد .
وأربابُ الولايات فيه علىٰ ضربين (١) :

الضـــــــرب الأوّل

(أرباب السيوف)

وتختَصُّ الكتابةُ منهم الآنَ عن الأبواب السُّلطانيـة بنائبِ السلطنة بالوجْه البحرىّ ، ومَقَرُّه مدينةُ دَمَنْهُور من البُحَيرة . وكان فى الزمن المتقدّم يكتفىٰ فى البُحيرة بوالِيها ، وكذٰلك فى كلٍّ من سائر الأعمال بالوَجْه البحرىّ ، وفوقَ الكلِّ ولايةٌ عامّة ، يعبَّر عن صـاحبها بوالِى الوُلاة ، وربمـا [زِيدَ] بالوجه البحرىّ ، ورُبّمَا عُبِّر عنـه بالكاشف . ثم آستقرَّتْ نيابةً فى رُتْبة تقْـدمةِ العسكر بغَزَّةَ فى أيام الظاهر بَرْقُوق ، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المَسالك والممـالك فى المقالة الثانية .

وهذه نسخةُ تقليد تصلُح لنائب الوجه البحرىّ ، ممـا كان كَتَب به المقرُّ الشهابىّ ابنُ فضل الله لوالى الولاة بها ، وهى :

---

(١) لم يذكر الثانى . فتنبه .

الحمدُ لله الذى أقام بنا كاشفًا لكلّ شكْوىٰ ، كاسفًا بَالَ كُلِّ عَدْوىٰ ، عارفًا بنهاية كلّ دَعْوىٰ، عاطفًا بعَدْلنا إلىٰ إزاحة كل لَأْوىٰ، وإزالة كلّ بَلْوىٰ .

نحمدُه وهو أهلُ الحمد والتَّقْوىٰ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نأمَنُ بهـا الدانيةَ والقُصْوىٰ، ونُؤْمِن بها على السِّرِّ والنَّجْوىٰ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه أشرفُ من مَهَّد له جنَّـةَ المأْوىٰ ، وأشرَفَ به علىٰ شَرَف المَثْوىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين فَطَمَ بشريعته نُفُوسَهم عمَّا تَهْوىٰ، وفَطَر فِطَنَهم عليهـا حتَّى لا تَضِلَّ ولا تَغْوىٰ ، صلاةً ترتَوِى بفائضها السُّحُبُ ما تَرْوىٰ ، وسـلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ فإن من سَجَايا أيَّامنا أنْ نكشِفَ كلَّ كَرْب ، ونُحْسِنَ إلىٰ رعايا بلادِنا إحسانًا يُنَوَّعُ فى كلِّ ضَرْب ، ونُدِيمَ الأمنَ حتَّى لا نَدَعَ سِـوىٰ النِّيل قاطعَ طريقٍ أو خارجًا علىٰ دَرْب؛ ونجرِّدَ من المَهابة سيْفًا يُخْشَىٰ من قُرْبه ، وطَيْفا يَبِيتُ به طيرُ الكَرا متَمَلْمِلا علىٰ جَنْبـه ، وخَوْفًا لُبَابُه من الخصائص المحمَّدية أنه يتقدَّمُ إلىٰ قلوب الأعداء مَسيرةَ شهرٍ [جيشُ] رُعْبِه؛ وكانت الديارُ المصريهْ المحروسةُ هى التى لا يُحمَدُ سِوَاها ذُو وَجْهين ،ولا يُوجَد لها فى جانبَيْها مماثل فى شيئين؛ والوجهُ البحرىُّ أوسعُهُما عَرْضا، وأقربُهما من الرِّىّ أرضَا ، وأصدَقُهما للبَـارق المحَمَّرِ وَمْضا ، وأجمعُهُما للذَّهَب مَذَاهِبَ وللفضَّـة إفْضَا ، وأثبتُهما وطأةً لمجرىٰ النيل إذا أقبـَلَ فى تيَّـارِه يتدافَعُ واشـتدّت خيْلُه رَكْضا ؛ وهو الوجهُ المتهلِّل بِشْرا ، المتضوِّعُ بطيب رِيَاحه نَشْرا، المتزيِّن بمدائنه أكْثَرَ ممـا زيَّنه فى مَقاصِيره قيصَرُ وفى مدائنه كِسْرىٰ،المُتَثَنِّى بعروسِ كلِّ قريةٍ زُفَّ بهـا النِّيلُ فى مَسْرىٰ ؛ وبه الثغور التى لا تُشام لهـا بُروق ، والمحَـارس التى ما لعاديَةٍ إليها طُروق؛ وله من البَحْرَيْن حاجِزان، ومن الجـانِبَيْن بَرٌّ مُقْفِر وريفٌ مُقْمِر متبارزان ؛ وفيـه من الشُّعوب والقبائل فى الحَضَر والبادِيَة من

لا يُؤْمَن منه باتِرُه، ولا يُخْمَد بغير ما يُراق من دَمِ مُفْسِدِيهم ثائِرُه (١) . وكان لا يقُوم بها كلَّ القيام، ويجمعُ فرائدَها المشَذَّرةَ فى أكمل نِظام؛ إلا من تقلَّبت الأمورُ بقَلْبه كلَّ التقليب، وجَرَّدت النُّوَب عَزْمه فى النوائب فجَرَّدتْ سيفا يُحمَدُ فى التجريب؛ ولم يزَلْ منذُ بلغَ الحُلُمَ أميراً مُطاعا، ومنْـدُوبا لا يَفْرَق فى المهمَّات إذا طارَتْ نُفوس الأنظار شَـعَاعا، وأوْقَدتِ الأسِنَّة سُوَاعا، وهُمَامًا لو أومض البرقُ ساعةَ بُؤْسِـه لآرتعدَتْ فرائِصُــه زَمَعا (٢) لا إزْمَاعا، أو قابلَه الرِّيح المعتدلُ عنـد أحكامه لأطبقَت الأمَمُ علىٰ أنه لا يُماثِلُه فى العدل قَطْعا وأجمعَتْ علىٰ تفرُّدِه إجْماعا .

وكان فلان هو العِلىَّ هِمَا، الجَزْلَ مداومةَ الجزيل دِيَمَـا، المَلِىَّ بمـا لا يَقْدِر علىٰ مثل دفْعِه البحرُ متـدَفِّقا وهَمْىُ الغَمامِ منسجِما؛ وقد حَمِـدْنا له فى كلِّ ما باشرَه أثرًا، وأحْمَدْنا بجميــل ملاحظته كلَّ برٍّ ضرا؛ فباشر الوجه القبـلىَّ فملأ عيْنَ الناظر المتوسِّم، وعمّ سُرورُه حتّى غامَرَه جارُه الوجهُ البحرىُّ ببنانهِ المخَضَّب وضاحَكَه بثَغْره المتَبَسِّم؛ فلما تنقَّل فيهما آستقرار(؟) الوجهين وما وَالاهُما، وعُرِف فى وَجْهه نَضْرةُ النعيم بما أولاهما، وأخصَب جانبَاهما، وجَدَّ بهذا كلّه ثم جدَّ بهذا فطاب الواديان كلاهما؛ فآقتضى حسن الرأى الشريف أن لا يخلُوَ الوجهان معًا من نظره الجلىّ الجميــل، وأن يحْلُو عليه محاسنَهما الكاملةَ ليُفارِقَ علىٰ وجه جميلٍ ويواصلَ علىٰ وجهٍ جميل .

فخرج الأمر الشريف ـ لازال يختارُ عليًا، ويختالُ كلَّ غمـامٍ يرتَضِى له وليًّا ـ أن يكونَ والِىَ الوُلاة بالوجه البحرىّ جميعه، متفرّدا بأفراده ومجْموعه، ومحكَّما فى قبائله وجُموعه؛ وبعيده وقريبه، وبديعه وغريبه؛ وكلُّ ما هو داخل فيه، عائدٌ إلىٰ أعماله وراجع إلىٰ متوليه، علىٰ عادة مَنْ تقدّم وقاعدته فيما يَلِيه؛ وهى ما يُذْكَر من الأعمال:

(١) لم يتقدّم ما يعود اليه الضمير وان كان الغرض واضحا .
(٢) خوفا ودهشا .

الغربيّة ، الشّرقية ، البُحَيْرة، المَنُوفيّة ، إبْيار، أَشْمون ، قَلْيوب . ولا أَمْر ولا نَهْى إلّا إليه راجع، وله فى متجدِّدات الأُمور مَرَاجع؛ ولا أرباب تصريف إلا وله عليهم تصرُّف ، ولا صاحبَ جِدٍّ ولا حَدٍّ إلّا فيه يَمْضى ويتوقّف؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ أوّلُ مانُوصيه بسببها، ونُوصّله إلىٰ رُتَبها؛ وإقامةُ الشرع الشريف وإدامةُ مبارّه وإعلاء مَناره ، ومعاضدةُ حكّمِه وحكّامه وأعوانه وأنصاره؛ والوقوفُ معه فى إيراده وإصداره، وإعلانه وإسراره، والعملُ به فإنه مايضلُّ من مَشىٰ فى ضوء نهاره؛ وعمارةُ البلاد ، بادامة العدل وتكميل الرِّىّ وتوْطين السُّكّان وقمع الفساد ؛ واْعتمادُ حكم التذاكر الشريفةلأمر الجراريف التى تُعْمل،والتُّرَع التى تُراعىٰ والجسور التى لايُقْدِم جَسُور علىٰ أنها تُهْمَل،فهما قانونُ الرِّىّ الكامل، والضامنُ لخصْب البَرّ السابِل ؛ وإذا أجرى اللهُ النيلَ علىٰ عاداته الجميلة لا يَدَعُ للمَحل عيْنا حتّى يوارِىَ بالرِّىّ سَوْءَته، ويخفِّف بتيسر وُصولِ حقّ كلّ مكانٍ إليه وَطْأته ؛ ولا يَدَع عاليا إلا مستفلا، ولامعطّلا إلّا معتملا؛ ولا طَوْقَ بحر إلا تمتدُّ يدُ النيل إلىٰ زَرِّ جُيوبه، ولا طائفَ رَمْل إلا يطوف طائف شِربٍ[(1)] علىٰ جَرْعائه وكَثيبِه ، حتّى يعمَّ الجميعَ، ويَعْمُر ربُوعَها بما ينسِجُهُ لها من ملابس حُلَل الربيع . وعليه بالإنصاف بينَ المساكين ، والإنصات إلىٰ الباكينَ منهم والمُتَباكين ؛ ووَصْلِ أمورِهم علىٰ الحق الذى نَشَر اللهُ فى أيّامنا الزاهرةِ عَلَمَه ، ومقتضَى الشرع الشريف فإنه ما خاب من أدامَ عليه حُكْمَه وأدار إليه عَمَله . وأما أهلُ الفساد والاْشتباه ، ومن يحتمِى بصاحب شوكةٍ أو يتمسَّك برَبِّ جاه؛ أو ينْزِل بلَدَ أميرٍ كبيرٍ مستظِلّا بذَرَاه،أو ملتجئا من خوفٍ أو مستطعِا من قِرىٰ قُرَاه؛ فجميعُ هؤلاء نتبَّعْ فِرقَهم ورِفاقَهم ، وطهِّر الأرض منهم واْمسَحْ بالسُّيوف أعناقهم؛ وأسِجْم[(2)] فى قتْلاهم، وأثقِلِ بالقُيود أسْراهم،

(١) فى الأصل شريب . (٢) لعله وأثخن .

وشدّد وَثَاقهم وكذلك مَنْ حَمَاهم ووالاهم ؛ أو ٱستحسَن أو مَنَّ عليهم أو مانَعَ عنهم ، أو قالَ ماهُو منهم وهو منْهـم ، وكلُّ أجْرِهم فى الحـكم مُجراهم ، وأطل تحتَ أطباقِ الثَّرىٰ ثَوَاهم ، ونَبِّه منهم أُناسا علىٰ رُءوس الجذُوع وأنِمْ آخرين نومةً لاينتبهون بها من كَرَاهم ؛ حتّىٰ يتأدَّبَ بهم كلُّ مَنْ أعرض ، ويتداوىٰ بمداواته كلُّ مَنْ فى قلبه مَرَض . وما أشكَلَ عليك فاسترشدْ فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجدَ هدى واضحا ، وحقًّا لائحا ؛ والله تعالىٰ يجعلك من الممهِّدين لأرضه ، القائمين فى أنواعِ الجهاد بفَرْضـه ؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه .

الجهـــة الثـالثـــة

(درب الحجاز الشريف)

وقد تقــدّمَ أنه كان فى الزمن المتقدّم يُكْتَب عن السلطان تقليـدٌ لأمير الرَّكْب فى الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآنَ فقد تُرِك ذلك ورُفِض كما رُفِض غيرُه من الكتابة لأرباب السُّـيوف بالحَضْرة السلطانيـة ، ولم يَبْقَ الآنَ من يُكتب له من ديوان الإنشـاء شيءٌ سوىٰ قاضِى الرَّكْب . وقد جرت العادةُ أن يُكتَب له توقيعٌ فى قطع العادة مفتتَحا بـ«رُسِم» .

وهــذه نسخة توقيعٍ من ذلك ، كُتِب به للشيخ « تَقِيّ الدين السبكى » رحمه الله فى مبدإ أمرِه ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُعِينُ على البِرّ والتَّقْوىٰ ، ويرتادُ لوَفْد الله مَنْ يتمسَّك فى نَشْر الأحكام الشرعية بينَهُمْ بالسبيل الأقومِ والسببِ الأقْوىٰ ـ أن يستقرّ فلانٌ فى كذا : لمـا ٱختُصَّ به من غَزَارة علومة ، وإفاضة فضائله المتنوّعة إلىٰ قُوَّته

فى الحق وتصميمه ؛ فإنَّ مثله مَن يُختار لهذه الوظيفةِ الجاريةِ بينَ وفدِ الله الذين هم أحقُّ ببراءة الذِّمَم ، وأَوْلىٰ بمعـرفة حكمِ الله تعـالىٰ فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخلِ إلى الحَرَم ، وأحْوجُ إلىٰ الاطلاع علىٰ جَزاءِ الصيد فيما جزاءُ المتعرِّض إليه مثلُ ماقتلَ من النَّعَم ، إلىٰ غير ذٰلك من ثُبوت الأهلَّة التى تترتَّبُ أحكامُ الحجِّ عليها ، والحكْمِ فى محظورات الإحرامِ وما يجبُ على المتعرّض إليها ؛ فلْيباشر هـذه الوظيفةَ فى الوقتِ المشارِ إليه علىٰ عادةِ من تقدّمَه فيها ، مجتهدًا فى قواعدها التى هو أَوْلىٰ من نَهَض بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أمَّا شهودُ السبيل المعبَّر عنهم بشهود المحْمَل ، فإنمـا تكتب لهم مربَّعات شريفةٌ من ديوان الوزارة .

تم الجزء الحـادى عشر . يتلوه إن شاء الله تعـالىٰ الجزء الثـانى عشر

وأوّله القسم الثاني

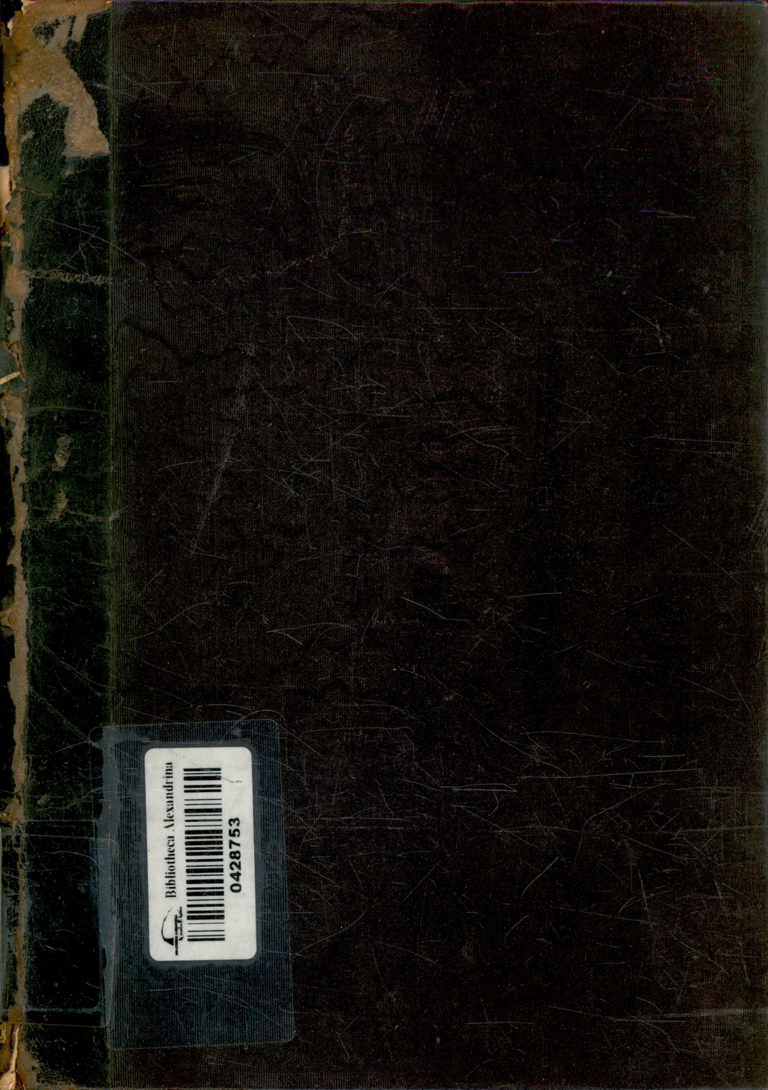
(ممـا يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية ـ أربابُ الوظـائف بالممـالك الشاميـة)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَمِ الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبــه والتـابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل



(المطبعة الأميرية ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)


Bibliotheca Alexandrina
0428753